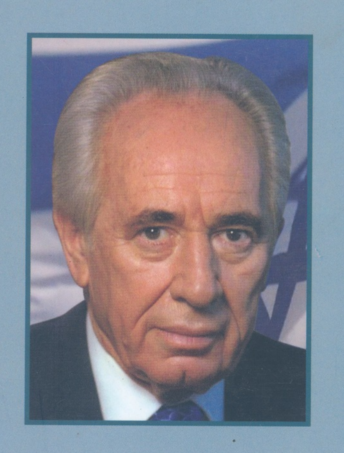
ستون عاما

من الصراع فى الشرق الأوسط

شهادات للتاريخ





بطرس بطرس غالى و شيمون بيريز

حوارات مع أندريه فيرساى

دار الشروق

ستون عاما

من الصراع فى الشرق الأوسط

الطبعــة الأولى
٢٠٠٧م

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

بطرس بطرس غالى شيمون بيريز

ستون عاما من الصراع فى الشرق الأوسط

شهادات للتاريخ

حوارات مع

أندريه فيرساى

دار الشروق

المحتويــــــات

شهــادات للتاريـــخ

صــدرت كتــب كثيرة عن الصــراع العربى الإســرائيلى، ولكن هــذا الكتاب يعتبر ســابقة تاريخيــة؛ فلــم يحــدث مــن قبل أن قــرر رجلان من رجــال السياســة الكبار، مــا زالا يتوليان مناصــب مهمة، وخصمــان فى صراع هما فيه طرفان[1]، أن يلتقيا مــن أجل القيام معا بزيارة جديدة للتاريخ الذى اشتركا فى صنعه.

بطــرس بطــرس غالى، المدافع عن العالم الثالث، ســكرتير عام الأمم المتحدة الســابق، تولــى منصــب وزير الخارجيــة المصرية فى عهد الرئيس أنور الســادات. وفــى عام ١٩٧٧م رافق الرئيس المصرى فى زيارته إلى القدس التى كانت أساس التغيير الجذرى الذى حدث فــى معطيات الشــرق الأوســط. ثــم كان فى وقــت لاحق، وفــى مواجهة موشــيه دايان، أحد المفاوضين الأساسيين فى اتفاقية السلام العربية الإسرائيلية التى وقعت عام ١٩٧٩م.

شــيمون بيريز، رئيس وزراء أســبق، والرجل الذى خاض كل معارك إســرائيل: فقد كان هو الذى كلفه بن جوريون فى الخمســينيات، بالبحث عن أسلحة فى الوقت الذى كانت فيه المنطقة تقع تحت الحظر؛ كما كان هو الذى حصل على تعاون فرنسا من أجل بناء المفاعل النــووى فــى ديمونــة. وأخيرًا كان هــو الذى أصبح فى عــام ١٩٩٣م، مهنــدس المفاوضات السرية فى أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية (فتح)، والتى تعتبر التمهيد لأول اتفاق يعقد لمنح الفلســطينيين الحكم الذاتى. وبســبب دوره هذا حصل على جائزة نوبل للسلام مع كل من إسحاق رابين وياسر عرفات.

هذان اللاعبان الأساسيان فى الصراع العربى الإسرائيلى اللذان ينتميان إلى جيل واحد، (وهى مســألة ليســت بلا أهميــة) وافقا، ليس على أن يتحدث كل فــى جانب، ولكن على أن

---

(١) رغم أن مصر وإسرائيل وقعتا على اتفاقية سلام بينهما إلا أن الصراع فى مجمله لم ينته بعد.

يخوضا معًا حوارًا، تتقاطع فيه ذكرياتهما وتتواجه فيه شهادتهما حول الأحداث الكبرى التى شاركا فيها، والتى حددت من الحرب الأولى بين إسرائيل والعرب وحتى يومنا هذا، شكل أقدم صراع معاصر.

هذا الصراع اعتبر دائمًا، من جانب ومن الآخر، مأساة بل ميلودراما، حيث يتصادم طغاة ضد مظلومين؛ همج ضد متحضرين؛ مستعمرون ضد استعماريين، مدمرون دمويون ضد بناة دول. وكل طرف يعتبر أنه هو الذى يقف فى جانب الحق المطلق، ولا يتردد فى نفى الشرعية عن عدوه، بل ونفى «الحقيقة» التى يؤمن بها الآخر.

ولكن كل هذا لا يدعو إلى الدهشة. فهل هناك مكان لشرعية «الآخر» حينما يكرس المرء نفسه بالكامل فى «ملحمة» تحريره؟ هل يستطيع المجتمع اليهودى فى فلسطين، الذى شعر بضرورة بناء دولته بسرعة، بنفس السرعة التى كان شعبه يتعرض بها فى أوروبا للاضطهاد على يد النازية، أن يأخذ فى اعتباره وضع العرب؟ والفلسطينيون، الذين جاشوا بالرغبة الشرعية فى إجلاء المستعمر، هل يستطيعون فهم مشاعر الارتباط التى يكنها اليهود القادمون من دول استعمارية، لنفس هذه الأرض؟

فى نظر كل جانب، ولعشرات السنوات، أو على الأقل إلى يومنا هذا، سيظل حقه واضحًا إلى حد أن التشكيك فيه سيبدو بمثابة فضيحة. سيحل السخط مكان التحليل، ويتقلص العالم، كما فى الروايات المأساوية، ليتحول إلى مجرد حرب بين قوتين لديهما شعور عميق بالعداء؛ وإلى صدام يختزل فى معاناة فرضها الآخر؛ وإلى مجابهة تقتصر على مبدأين فقط. إما هم وإما نحن. ومن أجل سلب العدو نفوذه والحط من شأنه واستبعاده، يهاجمه الآخر فى «أخلاقياته». ولكن الرؤية ستكون «موعظة» أكثر مما هى «أخلاق»، أما الوضع فسيكون صراعًا أبديًا بين الخير والشر. وفى استناد على هاجس مزدوج من الذاكرة (هذا الهاجس انفعالى ومعدٌ لا يستطيع أحد قياس حجم الخسائر التى يجلبها على ذويه)، يكون من الصعب تجنب إغراء «الشمولية». لن يكون فى الإمكان تحقيق أى حل وسط: فالإنسان لا يتصالح مع الشر، ولا يتناقش معه. والمرء لا يتنازل أبدًا.

ولكن هذا الصراع ليس ميلودراما. بل إن أردنا الاستمرار فى استخدام الاستعارة المسرحية، يمكن القول إنها تراجيديا، بمعنى أنها قصة غامضة حيث إن لكل شخصية من الشخصيات التى تتصارع نصيبها من الشرعية ونصيبها من النور، كما أن لكل منها جانبها من الظلال، ولكل منها نصيبها من الجرائم كما لها نصيبها من النبل.

واليوم، نحن ننظر إلى هذا الصراع بوصفه صراعًا إسرائيليًا فلسطينيًا بالأساس. وننسى أن المجتمع الدولى كان يعتبره، وحتى عام ١٩٦٧م على الأقل، فى مجمله صراع إسرائيلى - عربى. لذلك كان اهتمامنا أن نضع فى المواجهة شخص مصرى وآخر إسرائيلى، وألا نقصر الصراع على المسألة الفلسطينية فحسب، حتى وإن كانت تلك المسألة تظل بكل تأكيد، هى أكثر من أى وقت مضى، فى قلب الصراع.

لقد اخترنا أن نبدأ النقاش من الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية. فى ذلك الوقت لم تكن الصهيونية قد حصلت بعد على انضمام الغالبية العظمى من الشعب اليهودى؛ ومن الناحية الأخرى، كان العرب الذين لم يدخلوا بعد إلى الحداثة، يطمحون إلى الاستقلال. مع الحرب، انقلب العالم رأسًا على عقب. فقد تم إلقاء اليهود فى آتون برنامج إبادة، بينما وجد العرب فى الحرب إمكانية لتحريرهم من قبضة الاستعمار البريطانى. كانت هذه السنوات حاسمة بالنسبة لشيمون بيريز ولبطرس بطرس غالى؛ ماذا يعنى للوعى السياسى أن يكون المرء صهيونى فى الأربعينيات، وما هو العربى المعادى للاستعمار فى عالم سوف يرى قريبا صعود العالم الثالث؟

تلك الحوارات المتقاطعة تدور حول الأحداث الكبرى التى حددت تاريخ الشرق الأوسط: ١٩٤٧م خطة تقسيم فلسطين، ١٩٤٨-١٩٤٩م نشأة دولة إسرائيل وإجهاض الدولة الفلسطينية، ١٩٥٢م ثورة الضباط الأحرار فى مصر، ١٩٥٦م أزمة السويس، ١٩٦٧م حرب الأيام الستة، ١٩٧٠م يقظة الشعور الوطنى الفلسطينى، ١٩٧٣م حرب أكتوبر، ١٩٧٧م زيارة السادات للقدس، ١٩٧٨م اتفاقية كامب ديفيد، ١٩٨١م اغتيال السادات، ١٩٨٢م حرب لبنان، ١٩٨٧م اشتعال الانتفاضة، ١٩٩٣م اتفاقية أوسلو، ١٩٩٤م اغتيال رابين، ٢٠٠٤م وفاة ياسر عرفات... إلخ.

رغم ذلك، فإن الكتاب الحالى ليس كتابا تاريخيا بالمعنى التقليدى: فاللاعبان لا يزعمان «الموضوعية». ولكن ما يقولاه يعتبر مصدرًا أساسيًّا من حيث إنه يسمح لنا بالحصول مباشرة على معلومات من الأشخاص المعنيين، وفى نفس الوقت الحصول على رؤى وإستراتيجيات سياسية يصعب قراءتها من الخارج. هذا الكتاب يعطينا ما لا يمكن الحصول عليه من كتب التاريخ التقليدية: تعايش الرؤيتان العربية والإسرائيلية من الداخل، وتطور كل منهما عبر السنوات. لأنه إذا كانت الأحداث معروفة لدينا، فإن تفسيرهما لها مسألة تتعلق بحالتهما الذهنية، وعقليتهما وما عايشاه. وما نحن بصدده فى الكتاب هو المواجهة بين هذه الحالة الذهنية لكل منهما.

إن التاريخ الذى سـوف نقرؤه ليس أكاديميًّـا، وليس أملس. والمتحاوران يكنان احتراما كبيـرا الواحـد للآخر، ولكن لن يجامـل أحد منهما الآخر. بل سـوف يتواجهان، كلٌّ مدفوع برغبـة للتعبيـر عن وجهـة نظره التى عايشـها، وفى نفس الوقت للاسـتمـاع إلـى وجهة نظر الآخر مهما كان صعبًا عليه الاستماع إليها. والمواقف كانت متعارضة بكل وضوح ولـم يجر تهذيب أى خشونة فى الحديث: النقاش كان سياسيًّا وليس دبلوماسيًّا. ولكن هذه الصراحة أعطت الحوار قوة ملحوظة. ورغم ذلك لـم يكن المتحدثان ملتزمين رسميًّا؛ فقد وافقا على الحديث باسمهما هما. تلك هى الميزة التى يعطيها لهما السن، وأيضا التقدير الدولى الذى يتمتعـان به، وفى حرية تعبير جريئة للغاية، سـمح كل منهما لنفسـه أن يوجه انتقادات لاذعة لمعسكره هو. وفى تبادل أسلحة قوى وتطورات سياسية وتحاليل رؤى، قدم كل من بطرس بطرس غالى وشيمون بيريز درسًا رائعًا فى الجيوسياسة لا يدير الظهر لتاريخ الذهنيات.

بعـد الانتهاء من قـراءة الكتاب، أيًا كان اتجـاه تعاطفنا، فبالتأكيد لن نـرى الصراع بنفس الصورة مرة أخرى.

أندريـه فيرسـاى

تمهيد

اليقظة السياسية

عائلة قبطية عريقة - «المسألة الإثيوبية هى التى دفعتنى إلى السياسة» - رائد فى فلسطين- ماركس ولينين، أم أنبياء الإنجيل؟ - يهود إيشوف والعرب - عائلة بطرس غالى والمسألة الفلسطينية.

أندريه فيرساى: أقترح عليكما أن نبدأ مسارنا بأن يذكر كل منكما طريقه الخاص الذى فتح مداركه على الشأن السياسى.

بطرس بطرس غالى، أنت ولدت فى القاهرة فى عام ١٩٢٢م. وتنتمى إلى عائلة قبطية عريقة وغرقت فى السياسة منذ سن مبكرة.

بطرس بطرس غالى: نعم، إننى من عائلة تنتمى إلى البرجوازية الكبيرة التى أعطت مصر كثيرًا من أبنائها لخدمة الدولة، من سياسيين وكتّاب ومثقفين؛ فقد كان جدى لوالدتى، ميخائيل شاروبيم، قاضيا وكاتبا سياسيا ومؤرخا. ولقد كرس لتاريخ مصر خمسة مجلدات باهرة. وكان نجله الأكبر شفيق شاروبيم رسامًا معروفًا. وحصل ابنه الأصغر وديع شاروبيم على الدكتوراه فى علم الحشرات من جامعة مونبلييه، ثم كرس حياته لدراسة دودة القز.

جد والدى، غالى ناروز، هو الذى أسس ثروة عائلتنا. ولقد سمح له عمله كمدير لممتلكات شقيق الخديوى أن يدخل نجله بطرس مدرسة الأمراء، وهى مدرسة مخصصة لأبناء الأسرة المالكة. لذلك استطاع جدى بطرس غالى باشا أن يرتبط بصداقات مع كل هؤلاء الذين أصبحوا فيما بعد حكاما فى مصر، وتولى منذ أن كان عمره ٣٥ عامًا منصب وكيل وزارة العدل. استلهم القانون الفرنسى لوضع أسس التشريع المصرى. ومع بلوغه

٣٦ عاما، عين وزيرا للمالية. وخلال الـ ١٧ عاما التالية، تولى أحيانا وزارة الخارجية وأحيانا أخرى وزارة الداخلية. وكان هو الذى وقع على اتفاق السودان عام ١٨٩٩م الذى نتج عنه إقامة السيادة المشتركة بين مصر وبريطانيا على السودان، وفى عام ١٩٠٨م عين رئيسًا للوزراء. وللأسف قتل بعد عامين برصاص شخص متعصب تصور أنه خان مصالح مصر.

احترم نجلاه الكبار تقاليد الأسرة. فقام نجله الأكبر نجيب باشا بطرس غالى بتولى منصب وكيل وزارة الخارجية خلال فترة الحماية البريطانية من عام ١٩١٤م إلى ١٩٢٢م، ثم تولى بعد ذلك وزارة الزراعة. أما النجل الأصغر، واصف باشا بطرس غالى، فقد كتب العديد من الكتب والأبحاث التى نشرت فى فرنسا غداة الحرب العالمية الأولى، وعين أكثر من مرة فى منصب وزير الخارجية. ومن الأمور الطريفة أن الأخوين اختارا الانضمام إلى حزبين سياسيين متنافسين؛ انضم واصف إلى حزب الوفد، وهو حزب الأغلبية، بينما انضم نجيب إلى حزب أقلية. أما والدى، أصغر الإخوة فى العائلة، يوسف بطرس غالى، فقد تأثر بمقتل والده وكره العمل بالسياسة، وكرس نفسه لإدارة ميراث العائلة.

فى الثلاثينيات، قام ابن عمى ميريت بطرس غالى، نجل نجيب، بتشكيل جمعية الآثار القبطية، وهى جمعية علمية يديرها اليوم شقيقى واصف. كان ميريت محللاً سياسيًا رفيع المستوى، ونشر العديد من الدراسات عن السياسة المصرية أحدثت ضجة فى وقتها. فى إحدى الدراسات اقترح ميريت إجراء إصلاح زراعى، لم يكن فى مصلحة عائلتنا، كما ألهم إلى حد ما الضباط الأحرار فى الخمسينيات. أما شقيقه جوفرى فقد انضم إلى حزب الوفد وانتخب نائبا فى البرلمان.

لم أكن قد ولدت بعد عندما سجن عمى واصف بقرار من البريطانيين وحكمت عليه محكمة عسكرية بالإعدام. ولكنه قص علىّ فيما بعد شعور الفخر الذى اجتاحه عندما نطق القاضى الحكم بالإعدام (الموت من أجل مصر!)، ثم أعلن بعد صمت محسوب أن الحكم سوف يخفف إلى السجن مدى الحياة.

عندما كنا أطفالاً، لم يكن أبطالنا روبن هوود أو صلاح الدين، ولكن أبطالنا كانوا الجد الذى اغتاله رصاص المتعصب، وعمى واصف الذى ناضل ضد الاحتلال العسكرى البريطانى، وابن عمى ميريت وكتاباته الرائدة. وعلى جانب آخر، كنت أكن إعجابًا لا حدود له بالأدميرال اليابانى توجو الذى هزم الأسطول الروسى فى عام ١٩٠٥م، وبالإمبراطور

هيلاسلاسي إمبراطور إثيوبيا الذى هزم الغزاة الإيطاليين، كما كنت معجبًا بالزعيم الهندى غاندى. وهم جميعًا شخصيات عظيمة ناضلت ضد الاستعمار الغربى.

فى هذه البيئة نشأت، حيث كان المناخ ملائما لممارسة الكتابة والفنون والسياسة، والتى قام بعض أعضاء من العائلة بممارستها جميعا وبمهارة كبيرة. وإن كنت قد حلمت يوما أن أصبح كاتبًا مشهورًا، فإن صورة رجل الدولة ظلت تستحوذ على تفكيرى. وفى الكثير من الأحيان كنت أتصور أن فى قدرتى أن أجمع بين هذين المجالين المختلفين، وإن كانا مكملين لبعضهما البعض. بعد أن انتهيت من دراستى فى كلية الحقوق بالقاهرة فى عام ١٩٤٦م (الدراسة القانونية كانت فى هذا الوقت الطريق التقليدى نحو العمل السياسى فى مصر)، قررت أن أتجه إلى البحث العلمى والكتابة والتدريس من خلال حصولى على وظيفة أستاذ فى جامعة القاهرة. ولكن السياسة لم تغب عنى تماما، فقد كانت أبحاثى ومؤلفاتى والمادة التى كنت أدرسها فى الجامعة هى العلوم السياسية والعلاقات الدولية.

أندريه فيرساى: كيف كان المسلمون ينظرون إلى الأقلية القبطية فى الجزء الأول من القرن العشرين؟

بطرس بطرس غالى: لم ينظر المتطرفون المسلمون بعين الارتياح إلى تولى الأقباط المناصب السياسية العليا. وفى نظرهم كان من غير المقبول أن يتولى جدى رئاسة الحكومة: «*كيف؟ من بين ١٢ أو ١٣ مليون مصرى لم نجد إلا مسيحى قادر على رئاسة مجلس الوزراء؟*». مثلما حدث كان أول مسيحى يصل إلى القيادة العليا، انتشرت الشبهات والأقاويل: «*لقد حصل بلا شك على تأييد لندن أو الخديوى..*». وفى حقيقة الأمر لم يكن جدى من أنصار بريطانيا، ولكن توجهاته كانت غربية مثل كل عائلتى. لقد كان وطنيًا فى أعماقه، ولكنه كان سياسيا واقعيا، وكان على اقتناع كامل بضرورة أن تنفتح مصر على الغرب.

أريد أن أوضح أن هذا التوجه لم يكن متفردا، فقد كان منتشرا فى مصر بين المسيحيين وبين المسلمين. لقد ساد الاعتقاد أن غير المسلمين كانوا يؤيدون نشر الثقافة الغربية فى مصر خوفًا من أن يتحول المسيحيون إلى مواطنين درجة ثانية فى ظل أغلبية مسلمة. ولكن هذه فكرة غير صحيحة، لأن هناك الكثير من غير المسلمين الذين تولوا مناصب مهمة فى أرض الإسلام. بل حتى كان ما يميز السلاطين العثمانيين هو اتخاذهم مستشارين من الأقليات: فقد كان تعيين وزراء من غير المسلمين يجعلهم فى مأمن من الانقلابات. فلم يكن توجه المسيحيين إلى نشر الثقافة الغربية فى مصر بهدف الحصول على المواطنة

الكاملة، لأنهم - في واقع الأمر - كانوا يملكون بالفعل سلطة غير هينة، ولكن ذلك كان بهدف تشجيع دخول البلاد إلى الحداثة.

في مواجهة أنصار الثقافة الغربية كان الأصوليون المسلمون يرون أن على مصر أن تبقى على ارتباطها بالعالم الإسلامي؛ لأنها جزء من الإمبراطورية العثمانية. إن الحركة الأصولية التي نشهد حاليًا نشاطها، والتي تطالب بالعودة إلى قيم إسلام خالص ومتزمت، وتدعو إلى رفض، بل إلى كراهية الغرب، وتظهر رغبة في طرد «الصليبيين» من العالم الإسلامي، ليست وليدة اليوم.

أندريه فيرساي: ما هو الحدث الأول الذي دفعك إلى العمل السياسي؟

بطرس بطرس غالي: إنها المسألة الإثيوبية. ففي عام ١٩٣٥م كنت أبلغ من العمر ١٣ عاما عندما قام موسوليني بغزو إثيوبيا واضطر النجاشي إلى الخروج إلى المنفى. شعرت إزاء هذا الوضع، وكأنه عملية غزو غير مقبولة ضد كافة الدول الفقيرة. وبعد فترة قليلة، عندما مر هيلاسلاسي من قناة السويس، اهتزت مشاعري، وقمت ببيع طوابع بريد لصالح صندوق لمساعدة إثيوبيا. لقد كنت ثائرًا، ليس ضد إيطاليا في حد ذاتها، ولكن ضد الوصاية غير المقبولة التي تمارسها أوروبا ضد إفريقيا والعالم العربي، وضد ما كنّا نطلق عليه بعد تعبير العالم الثالث.

أندريه فيرساي: شيمون بيريز، لقد ولدت في عام ١٩٢٣م، في بلدة يهودية صغيرة (شتيتل) في فيشنيفا ببولندا. من عائلة صهيونية عتيدة، وصلت إلى فلسطين في عام ١٩٣٤م؛ مما يعني أنك قد قمت بالعودة (آليا) في سن ١١ عامًا.

شيمون بيريز: نعم، كان والدي تاجر أخشاب، اضطر إلى وقف جميع أعماله بسبب الضرائب الباهظة التي فرضت على تجارته. ولكنه كان على كل حال، قد اتخذ قراره بالهجرة إلى فلسطين مع عائلته. لذلك استطاع أن ينشأ بسرعة كبيرة تجارة أخشاب في تل أبيب، وهي مدينة جديدة، تأسست قبل ذلك بنحو ٢٥ عامًا. وبعد عامين أرسل يستدعينا، أمي وأخي وأنا.

أندريه فيرساي: وهكذا وصلت إلى فلسطين. كيف بدت لك؟

شيمون بيريز: عندما كنت أعيش في فيشنيفا كان لدي عن فلسطين صورة مثالية، عظيمة، فردوسية. ولكن بعد وصولي إليها كان كل شيء يصيبني بالدهشة. أولا بالنسبة للطبيعة:

لقد جئت من بلاد سـماؤها رمادية طوال الوقت؛ ولكن هنا كانت السـماء زرقاء دائما. هناك كانت الأشـجار عالية وقوية، هنا كانت صغيرة ورفيعة. حتى أعضاء عائلتى الذين انضممت إليهم فى ريهوفوت، كانوا مختلفين عن هؤلاء الذين يعيشـون فى بولندا؛ فقد كانوا يتمتعون بالطول والقوة ولون البشرة السمراء.. وأذكر أيضا أريج البرتقال الذى ذقته لأول مرة، والذى أصابتنى رائحته بالنشوة. كما اختلف الطعام؛ ففى فلسطين اكتشفت السلاطة والزبادى.

كنت سـعيدًا جـدًّا لزيارة الكيبوتز، الذى كان يجسـد فـى نظرى الحيـاة الحقيقية، حيث المسـاواة والإخاء. فى هذا الوقت كنت أعتقد أن الإنسـان المثالى هو الرائد. فقد بدا لى كل شىء جميلاً، مليئًا بالوعود، وشعرت بسعادة حقيقية لكونى هناك.

لقد انتقلت من عالم إلى عالم آخر، لم يكن ساكنًا كعالمى الأول، بل كان فى أوج تطوره؛ لقد رأيت مصانع تنشـأ وجامعة القدس تجذب باستمرار العقول المبدعة، وجاء توسكانينى لقيادة الأوركسترا السيمفونى فى تل أبيب.

لقـد تغيرت حياتى اليومية تغييرًا جذريًا، وبـدأت بتغيير مظهرى، فبدلت ملابس المدينة بالقميص المفتوح والسروال القصير. وتخليت أيضًا عن التقاليد الدينية؛ فلم أعد ألتزم بيوم السـبت ولا بالطعام الشـرعى (الكوشير)، ولم أعد أرتدى الطاقية (كيبا)، ولا أحضر الصلاة فى المعبد اليهودى صباح كل سـبت. وبدأت أمارس الرياضة، حيث إن التربية البدنية كانت مـن العوامل المهمة فى العقيدة الصهيونية التى كانت تنوى إعادة تشـكيل اليهودى الجديد. حتـى حواراتى مـع أصدقائى تغيرت؛ فلم تعـد تدور حول غير اليهود الذيـن يثيرون خوفنا؛ هـؤلاء استبدلنا بهم العـرب. هل كنا نخـاف من العرب أكثـر من خوفنا من غيـر اليهود فى روسـيا؟ لنقـل إنـه لم يكن نفس نـوع الخوف؛ إن كنا وجدنا أنفسـنا أمام عـدو جديد، فعلى الأقل هذا العدو ليس السـيد. قد يسـتطيع أن يبـدو أكثر خطرًا من العدو السـابق، ولكننا كنا قادرين على الدفاع عن أنفسنا.

أندريـه فيرسـاى: ابتداء من أى سـن أدركـت أهمية المشـروع الصهيونى الذى كرسـت حياتك له فيما بعد؟

شـيمون بيريز: عندما بدأت المدرسـة الثانوية، وجدت نفسى داخل مجتمع من الشباب القادم من عائلات ميسورة، ذات توجه يمينى. ولكنى كنت أشعر أننى يسارى النزعة، وكنت التلميـذ الوحيد فـى دفعتى الذى كان يدافع عن الأفكار الاشـتراكية، لذلك كان من الطبيعى أن أنضم فى عام ١٩٣٧م إلى إحدى الحركات الشـبابية الاشـتراكية: هانوار هاوفيد (الشبيبة

العماليـة)، والتى بدت لى الأقرب إلى المثال الصهيونى كما تصورته. كما أن الحركة قامت بإنشاء عدد كبير من الكيبوتزات التى خرج منها كتّاب وشعراء كبار، وأيضا ضباط تولوا بعد ذلـك مناصب مهمـة فى الهاجانـاه، التى كانت فى هذا الوقت منظمة عسـكرية غير شـرعية تشـترى السلاح سرا. تشـربت الأخلاق البروليتارية على يد ديفيد كوهين، مؤسس الحركة، الذى كان يقص علينا قصصا دينية قديمة قام بتغليفها بالفكر الاشتراكى: فكان يجد الوسيلة لكى يجعل المفكر الدينى الحاخام ناحمان دى فريسـلاف يتعايش مع أفكار كارل ماركس. وكان ذلك يسعدنى كثيرًا.

وقامت حركة هانوار هاوفيد ببناء قرية للشباب بالقرب من مدينة اللد (ليدا) أطلق عليها اسم بن شيمين، لكى تستقبل الأيتام القادمين من الخارج وتجعل منهم روادا. وفى كل عام، كان يتم دعوة اثنين من شـباب إيشـوف للانضمام إلى بن شيمين. فى نفس العام الذى بلغت فيه السابعة عشرة من العمر، وبعد حصولى على الدبلوم، اقترح رئيس المجموعة التى أنتمى إليهـا أن أغادر تـل أبيب لأقيم فى هذه القريـة. ولقد وافقت على الفـور وبكل حماس. فقد كنـت منفعلا جدًّا بهذا المشـروع لاسـتصلاح الأراضى وإعادة الخصوبـة لأراض تعرضت طويـلاً للجفاف، ولمواجهـة غزوات العرب الذين كانوا يحاولون، بـدون نتيجة، تدمير هذا العمل الضخم.. كما ترى، كنت مأخوذا بالكامل بالمثال الصهيونى.

قبل الحرب بفترة قليلة، وفى سـن الخامسـة عشـرة من عمرى، انضممت إلى الهاجاناه. وللانضمـام إليهـا كان لابـد لـى أن أحصـل على إعـداد معين. ولقـد كان ذلك فـى احتفال مقتضب تم مع غروب الشمس وبداية الليل. ولهذه المناسبة أحضرنا شمعة، وأحضر رفاقى مسدسًـا وكتـاب التوراة لحلف اليمين. وفى اليوم التالى مباشـرة، بـدأت فترة التدريب على إطلاق النار، وبسـرعة كلفت بمهمة الحراسـة. قضيت ليلة الحراسـة فى كوخ من الخرسانة يقـع خـارج القرية، أعطونى سـلاحًا وخصصوا لى موقعًـا وقاموا بتعيينى مسـئولاً عنه. كان منصبًا مهمًا! ففى الحقيقة كان هناك شـخصان فى الموقع، أنا الرئيس، وشـخص آخر يعمل تحت رئاستى. أرأيت كيف أصبحت مهمًا!

أندريه فيرساى: بعد أن أصبحت عضوا فى الشبيبة الصهيونية، كيف كنت تقضى حياتك اليوميـة فـى إيشـوف، المجتمع اليهودى فى فلسـطين، وكيـف تابعت عملية تمرسـك على السياسة؟

شيمون بيريز: فى بن شيمين قسمت وقتى ما بين العمل فى الصباح والدراسة فى المساء، وفى نفس الوقت كنت أقوم بالدفاع عن المعسكر ضد العرب الذين كانوا يطلقون علينا النيران

بعد حلول الظلام. كانت عملية التنقل خلال اليوم من الأمور الخطيرة، وكانت الحافلة التى نستقلها تتعرض بشكل منتظم لقذف الحجارة. ولكن باستثناء ذلك، كنا نقضى أوقات فراغنا فى مناقشات سياسية أو أيديولوجية. وكانت هذه المناقشات تدور فى الأغلب حول هوية الحركة الصهيونية: هل الحركة التى نحن أعضاء فيها اشتراكية، بل وثورية، أم إنها تقوم أساسا على التوراة؟ فى ذلك الوقت، كنا نحن الرواد الشباب التقدميين والمثاليين، مثلنا مثل سائر اليسار فى العالم، منبهرين ومتحمسين للاتحاد السوفيتى ورسالة الإخاء التى بدت لنا تنتشر فى كل مكان. ذلك فضلا عن أن روسيا كانت الدولة الأصلية التى جاء منها عدد كبير منّا، وهو ما جعل «وطن الاشتراكية» أقرب إلينا؛ كانت الروايات والأشعار الكلاسيكية الروسية لكُتّاب مثل: تولستوى ودوستويفسكى وبوشكين وتشيخوف وجوجول هى الكتب التى نقرؤها قبل النوم؛ كما أن الكثير من الأغانى العبرية التى كنا نترنم بها بحماس حول المدفأة الخشب، كانت فى الحقيقة تنويعات على ألحان شعبية روسية.

أندريه فيرساى: هل أثرت الشيوعية بقوة على الصهيونية اليسارية ؟

شيمون بيريز: نعم، ولكن الحركة العمالية كانت ممزقة بين تيارين كبيرين: التوجه الأول هو الماركسية اللينينية، التى تعتنقها حركة هاشومير هاتسائير، والآخر توجه اشتراكى ديمقراطى، وهو الذى تنتمى إليه حركة حزب العمل. كانت هاشومير هاتسائير تدعو إلى صراع الطبقات والثورة والحياة الجماعية، بينما كانت حركة حزب العمل تدافع عن فكرة اشتراكية صهيونية خاصة ورفضت فكرة صراع الطبقات، لأنها اعتبرت أن الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية التى نعيشها لا تسمح بوجود طبقات. لقد أخذنا على هاشومير هاتسائير أنها أرادت أن تطبق فى إسرائيل اشتراكية مستوردة متصنعة، بينما مشروعنا كان بناء «أمة من العمال».

على الجانب الآخر من الساحة السياسية كانت توجد حركة البيطار، وهى حركة من الشباب انبثقت من الصهيونية اليمينية والتى كانت أزياؤهم (القميص البنى والقبعة الكاسكيت ذات القناع لحماية الوجه ...إلخ..) تذكرنا بشكل غير مستحب بالحركات اليمينية المتطرفة فى أوروبا.

أندريه فيرساى: نحن الآن فى فترة الستالينية.

شيمون بيريز: نعم، وفى العديد من الكيبوتزات التى أنشأتها تلك الحركات، كانت صورة أب الشعوب الصغير «شمس الأمم» تتوسط المكان الشرفى فى المطعم.

أندريه فيرساى: وعندما وقّع ستالين فى عام ١٩٣٩م معاهدة عدم اعتداء مع هتلر؟

شيمون بيريز: لك أن تتخيل الإحباط الذى أصابنا! وأقول «أصابنا» بالجمع، لأن حتى العماليين غير الماركسيين، مثل أعضاء فى حزب ماباى، اعتبروا هذه المعاهدة خيانة على أعلى مستوى. كان يجب انتظار هجوم قوات هتلر على الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٤١م، وتشكيل التحالف الكبير بين الدول الديمقراطية والاتحاد السوفيتى، حتى ننسى، نحن اليساريون من جميع الاتجاهات، العار الذى شعرنا به.

أندريه فيرساى: وأنت، هل أغرتك الماركسية ؟

شيمون بيريز: فى شبابى، وقبل الحرب، كنت أشعر، كما قلت لك، بأننى يسارى، ولكن بدون توجه محدد. ولكن ما جعلنى أتوجه نحو رؤية عمالية مضادة للماركسية، هو اشتراكى فى ندوة نظمت فى بن شيمين وقعت خلالها مشادة عنيفة بين اثنين من المحاضرين المرموقين: الأول كان يوسكى رابينوفيتش، وكان مثقفا للغاية واعتبر الماركسية علما حقيقيا يطرح الأسئلة الصحيحة، التى يعطيها الجدل الهيجيلى إجابات صحيحة. لم يكن فى ذهنه أى مجال للشك فى أن الاتحاد السوفيتى يتوجه بلا أى إثناء نحو مستقبل مضىء. والمحاضر الآخر كان بيرل كاتزنيلسون، الذى يقود مع بن جوريون حزب ماباى العمالى. كان معاديا للماركسية واللينينية عن قناعة، وعمل جاهدا على دحض الرؤية المثالية التى كانت لدينا عن الاتحاد السوفيتى، عن طريق التذكير بشكل خاص بكيفية قيام الشيوعيين بخيانة كل تعهداتهم: الحرية الفردية، والحرية القومية، والحرية الدينية أو الفكرية، إلغاء الحكم بالإعدام، إقامة مجتمع بلا طبقات... إلخ. وأوضح إلى أى حد كان ستالين يمارس سلطة استبدادية وقاسية، والى أى حد سادت الأكاذيب والخوف فى الاتحاد السوفيتى.

كاتزنيلسون أقنعنى بالكامل بوجهة نظره، وبعد الندوة ارتبطنا أنا وهو بعلاقات كان لها تأثير كبير على حياتى. وكان هو السبب فى أن التقيت ببن جوريون.

أندريه فيرساى: بن جوريون الذى لم تكن تستهويه الماركسية.

شيمون بيريز: هذا أقل ما يمكن أن يقال. فعلى عكس أغلبية الصهاينة الذين كانوا يشعرون بالقرب الشديد للأفكار الاشتراكية والماركسية، لم يضع بن جوريون أبدا الماباى فى الحركة الاشتراكية. وكان يفضل دائما التحدث عن «العمالية» وليس «الاشتراكية». لقد كان مناهضا للشيوعية بشدة، وكان يؤمن بأن الإنسان تحركه أساسًا المثالية الروحانية. أما

الرؤية الباردة للشيوعية الماركسية فقد بدت له دوجماطيقية، والشيوعية الستالينية طريق زائف. لذا لم يكن يستند فى أفكاره على ماركس أو لينين، أو روزا لوكسمبورج؛ كان يفضل عليهم الأنبياء أمثال: عاموس وإشعيا. وكان يرى أن حق اليهود على فلسطين يعود فى جذوره إلى التوراة، وكان يستند كثيرا إلى مملكة إسرائيل فى عصر الأنبياء التى كان يعلم تماما تنظيمها السياسى. بالنسبة له، كان لا يمكن لليهودية أن توجد بدون العودة إلى نفس هذه الأرض التى أعطتها معناها الكامل. وكان يتعمق كثيرًا فى تلك الفكرة، لأنه يرى أنه خلال ألفى عام من الشتات فى أنحاء العالم، كان الشعب اليهودى غير منتج، وأن الشتات مثّل تاريخيًا توقفًا فى تطور الحياة اليهودية، أدى إلى تشويه الشخصية اليهودية. وحتى وإن كان يُكنّ إعجابًا خاصًا للشخصيات اليهودية الكبيرة مثل: فرويد أو ديزرائيلى، إلا أنه لم يكن يرى فيهم نموذجًا لاكتمال الحياة اليهودية. لذلك لم يكن يعتبر أن إسرائيل هى الرد على حياة الشتات، التى كانت مأساوية، ولكنها استمرار للعصر التوراتى بعد ألفى عام من الكمون. وكان على اعتقاد راسخ بأنه بعد هذا الفراغ التاريخي يعيد إنشاء دولة إسرائيل إلى الحياة اليهودية القوية التى كانت قد فقدتها بعد تدمير المعبد الثانى للقدس. لهذا السبب أعطى بن جوريون أهمية كبيرة لهجرة اليهود إلى إسرائيل.

أندريه فيرساى: هذا النقاش يخص الهوية الصهيونية. ولكننا بصدد الحوار النظرى. فأين المسألة الفلسطينية فى حد ذاتها من هذا النقاش؟

شيمون بيريز: كان الحوار الأبدى الآخر يخص فى الحقيقة، مسألة تقسيم فلسطين. هذه النقطة لم تكن محل خلاف فقط بين اليسار واليمين؛ لكنها كانت تقسم اليسار نفسه بين هؤلاء الذين أرادوا بأى ثمن التوصل إلى حل وسط مع العرب (البعض وصل إلى حد طرح حل دولة مزدوجة القومية يمكن أن يعيش فيها اليهود والعرب فى تآلف)، وهؤلاء الذين لم يؤمنوا أبدا بتلك الأخوة بين اليهود والعرب، ورفضوا أية فكرة لتقسيم فلسطين، مؤمنين بأنه يجب أن تعود كلها إلى اليهود.

فى مواجهة هذه المسألة كان لبن جوريون رؤية واقعية. لقد فهم أن المواقف القصوى يمكن أن تقضى على الصهيونية، فوجد أنه من الحكمة قبول جزء من فلسطين والبدء فى بناء الدولة اليهودية، بدلاً من محاولة تحقيق مشروع أكثر طموحًا، ولكنه يبدو سرابًا.

أندريه فيرساى: فى تلك الفترة كيف كانت نظرة يهود إيشوف للعرب الفلسطينيين؟

شيمون بيريز: كان الشعار الصهيونى هو البحث عن «أرض بلا شعب من أجل شعب بلا أرض». وكنا نتصور، عن حق بشكل أو بآخر، أن فلسطين، ليست أرضًا «فضاء» ولكن أرض تعبرها الشعوب بدون سكن دائم على مساحة ٥٠ أو ١٠٠ كيلو متر. كما إننا لا نعتبر الفلسطينيين شعبا مختلفا عن العرب فى المنطقة. وفى نفس الوقت ستلاحظ أنه عندما قررت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين، ذكر القرار إقامة دولتين: واحدة يهودية والأخرى «عربية» وليست «*فلسطينية*»، وهو ما يؤكد على أنه فى الوعى الدولى فى هذا الوقت، لم يكن يُنظر إلى الفلسطينيين على أنهم شعب فى حد ذاته.

ذلك بالإضافة إلى أن الزعيم الفلسطينى، مفتى القدس الحاج أمين الحسينى، كان متطرفا ومناهضا عنيفا للسامية إلى حد أنه أعلن انضمامه إلى جانب النازية (زيارته الشهيرة إلى هتلر فى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٤١م، لم تترك أى شك حول ميوله) مما جعلنا نطمئن إلى فكرة أن المطالب القومية الفلسطينية كانت مشوبة بشدة بمناهضة السامية. وهو ما يفسر أن معظم سكان إيشوف، لم يهتموا كثيرًا بـ «القضية الفلسطينية».

ومع كل ذلك فإن الرجل الذى أنشأ بن شيمين وأدارها، الدكتور سيجفريد ليمان، كان رجل سلام حقيقى. هذا الرجل الإنسانى، المثقف، مرهف الحس، كان ينتمى إلى مجموعة بريت شالوم، التى كان أيضا عضوا فيها كل من الفيلسوف مارتن بوبر ومدير الجامعة العبرية بالقدس الدكتور ماجنيس. هذه المجموعة، التى كان يساندها ألبرت أينشتاين، حاربت بشدة من أجل تقارب يهودى- عربى. وبتأثير من ليمان، كنا نقوم كل يوم سبت بزيارة القرى العربية. كانت هذه اللقاءات جيدة؛ فقد كان العرب يستقبلوننا بترحاب كبير حسب تقاليد الضيافة السامية، وظلت المناقشات الخاصة بمستقبل فلسطين تحمل مسحة من الود.

كما ترى، كنا فى وضع متناقض تماما: فمرة كل أسبوع كنا نحاول مد الجسور بيننا وبين العرب، بينما فى الليل كان علينا دائما الدفاع عن أنفسنا ضد الهجمات التى كان العرب يشنونها ضدنا، وقد يكون بعضهم هم أنفسهم الذين استقبلونا يوم السبت السابق..

أندريه فيرساى: ومن الجانب المصرى، كيف كانت عائلة بطرس غالى تنظر إلى القضية الفلسطينية؟

بطرس بطرس غالى: اهتمت عائلتى بهذه القضية منذ بداية القرن. فقد جاء ثيودور هيرتزل للقاء جدى الذى كان فى ذلك الوقت وزيرًا للخارجية، واقترح عليه بناء مستعمرة يهودية فى سيناء. ولقد وافق جدى بشرط أن يحمل هؤلاء اليهود الجنسية المصرية.

بعـد ذلـك وفى الثلاثينيات، ألقى عمـى الذى كان وزيرا للخارجيـة، والذى أدخل مصر عصبـة الأمـم فى عام ١٩٣٧م، خطابًا أعلن فيه أن القضية الفلسـطينية لـن تحل إلا فى إطار التعايش فى وئام بين اليهود والمسيحيين والمسلمين.

وعلـى كل حـال يجـب أن ندرك أن المشـكلة الفلسـطينية كانت تعتبر مشـكلة هامشـية بالنسـبة للشـعب المصرى الـذى كان يقلقه أكثر جـلاء بريطانيا والحصول على الاسـتقلال الكامـل للبـلاد. فحتى نشـوب الحرب العالمية الثانيـة لم يكن ينظر إلى القضية الفلسـطينية على أنها مأساوية؛ لأن عدد اليهود الذين وصلوا فلسطين كان محدودًا، وسينخفض أكثر فى عام ١٩٣٩م عند إصدار البريطانيين «الكتاب الأبيض».

* * *

١ - الحرب العالمية الثانية

فلسطين فى آتون الحرب العالمية الثانية - «كنا مستمرين فى المطالبة بجلاء البريطانيين، حتى ولو كان الثمن هو الدم..» - اليهود والعرب فى مواجهة تقدم الألمان - مؤتمر صهيونى غير عادى فى نيويورك - بن جوريون البرجماتى، وبيجين الأيديولوجي - الإرهاب اليهودى - إنشاء جامعة الدول العربية - اكتشاف الإبادة.

أندريه فيرساى: فى سبتمبر ١٩٣٩م بدأت الحرب فى أوروبا. ثم تحولت إلى حرب عالمية.

بطرس بطرس غالى: نعم، وكان الرأى العام المصرى إجمالاً، فى ذلك الوقت، منقسمًا بين ثلاثة تيارات: الأول، يعتبر أن مصر لن تكسب شيئًا إن هى اشتركت فى الحرب؛ كان هذا موقف الكثير من بينهم الأصوليين الإسلاميين الذين اعتبروها حربًا بين «صليبيين». التيار الثانى، كان مؤيدًا للألمان إلى حد ما، ويعتقد أنه فى حالة انتصار ألمانيا فإن البريطانيين سيضطرون إلى التخلى عن مصر، التى ستحصل على استقلالها فى هذه الحالة. وأخيرًا يتكون التيار الثالث من أشخاص ذوى ثقافة غربية يدركون دلالة معنى النازية ومذهبها العنصرى، وخشوا من أن يؤدى انتصار ألمانيا إلى سيطرتها على مصر وجعل المصريين مواطنين درجة ثانية.

فى عامى ١٩٤٠ و١٩٤١م، فى الجامعة كنا مستمرين فى المطالبة بجلاء البريطانيين ولو كان الثمن هو الدم (دماؤنا). وأتذكر فى هذا الشأن أحد أساتذة الأدب الإنجليزى حاول أن يسخر منّا، فكتب على السبورة *«الجلاء بالدماء = الحيض»*. كنا عمليًا فى ذلك الوقت ضد البريطانيين كما كنا ضد الألمان. كنا لا نريد للألمان أن ينتصروا، ولكن فى نفس الوقت، كنا

نأمل أن تخرج بريطانيا من الحرب ضعيفة، بحيث لا يكون سوى خيار واحد، وهو إعطاء مصر استقلالها التام.

أندريه فيرساى: وفى إيشوف، كيف كنتم ترون بداية هذه الحرب ؟

شيمون بيريز: لك أن تتخيل كيف كنا نشعر بخوف شديد أمام التقدم المذهل للجيوش الألمانية فى معظم أوروبا. وبدت لنا هزيمة بولندا السريعة مسألة لا تصدق. فما بالك بانهيار فرنسا! كنا بالطبع، نشعر بالخوف أكثر من أى شىء آخر، من وصول النازيين المتوقع إلى الشرق الأوسط. وذلك كان السبب فى المشاعر الملتبسة نحو القوات البريطانية التى كنا نعتبرها جيشًا عدوًا يحتل بلدنا، ولكننا كنا فى الوقت نفسه نأمل، بكل جوارحنا، أن نراها تمنع تقدم طوابير الدبابات الألمانية. فضلا عن هذا، كنا نُكنُ إعجابا كبيرا بونستون تشرشل الذى تمكن من دفع شعبه إلى المقاومة البطولية ضد القصف الألمانى المستمر.

أندريه فيرساى: قبل إعلان الحرب العالمية الثانية ببضعة شهور، وفى ١٧ مايو عام ١٩٣٩م، نشرت لندن «الكتاب الأبيض» الذى تحدث عنه بطرس بطرس غالى، والذى حدد بشكل جذرى الحصة المسموح بها للهجرة اليهودية إلى فلسطين، وأيضًا شراء اليهود للأراضى. كيف تعايشت إيشوف مع ذلك؟

شيمون بيريز: بشكل سيِّئ بالطبع، ولكن مرة أخرى، كان علينا أن نعيش وضعا متناقضا؛ حيث إنه منذ بداية الحرب، كان شعارنا هو: *«محاربة الكتاب الأبيض» كما لو لم نكن فى حرب، ونحارب بجانب البريطانيين كما لو لم يكن هناك «كتاب أبيض»*. وقام بالفعل العديد من أعضاء إيشوف، منهم والدى، بالتطوع فى الفرقة اليهودية التى تشكلت فى الجيش البريطانى، بينما انضم آخرون إلى الهاجاناه.

وخلال الحرب، انضم ما بين ٢٥٠٠٠ و ٢٨٠٠٠ يهودى إلى الجيش البريطانى، وإن كنا فى إيشوف نعارض سياسة لندن فى فلسطين، فداخل الجيش كانت العلاقات جيدة لأنه كان يشغلنا نفس الهم، وكنا نحارب نفس العدو. ولم يكن للإنجليز سببًا للشكوى منّا، لأنه كان من الواضح أننا كنا على استعداد للقتال حتى النهاية من أجل الانتصار على النازيين.

لم يكن هناك سوى مجموعات صهيونية متطرفة، مثل: ليهى والإيرجون، تستطيع أن تحارب بنفس القناعة ونفس العنف كلًا من البريطانيين والألمان.

أندريه فيرساى: ظلت الجيوش الألمانية تنتقل بسرعة من انتصار إلى آخر لمدة شهور طويلة، إلى أن نزلت فى شمال إفريقيا. كيف كان رد الفعل فى القاهرة عندما أدركوا أن

القـوات النازية أصبحت على بعد بضعة كيلـو مترات من الأراضى المصرية؟ هل كان هناك اقتناع آنذاك بأن الألمان سينتصرون فى الحرب؟

بطـرس بطـرس غالـى: عندما وصل الألمـان إلى العلميـن، التى تبعد ٦٠ كيلـو مترا من الإسكندرية، كانت القاهرة فى حالة غليان؛ فقامت السفارات البريطانية والأمريكية بإحراق أرشيفهم، وقاموا بسـرعة بحفر خنادق عند سـفح الهرم فى محاولة لمنـع القوات الألمانية مـن دخـول القاهرة. وتصور عـدد كبير من المصريين أن ألمانيا سـوف تنتصـر فى الحرب، وبدأت تتشـكل حركات سياسـية موالية للألمان. ويجب توضيح شىء: فعلى عكس الفكرة التى سـادت فى إيشـوف، كما نقلها شـيمون بيريز، فإن فكـرة تأييد ألمانيا لـم تكن تعبر عن تعاطف بأى شكل مع الأيديولوجية النازية التى فى أغلب الأمر لم تكن معروفة، ولكن كان الأمر يتعلق أساسًـا بمسـاندة القوة التى قد تسـتطيع أن تخلصنا من الإنجليـز. لم يكن هناك تعاطـف أيديولوجى، ولكن فقط هاجـس بضرورة التخلص من الاحتـلال البريطانى، ومن الاحتلال الأجنبى بشـكل عام. هل كانت تلك الحركات مناهضة للسامية؟ ليس بالضرورة. لنقل إنهم كانوا عامة يكرهون الأجانب، وكانوا بشـكل خاص ضد الاسـتعمار. لذلك كانت تلـك الحـركات تهاجم كل ما يرمز إلى الوجـود الأجنبى أو يمثله. لهـذا الموقف علاقة بما حـدث بعد ذلك ببضع سـنوات، فى عـام ١٩٥٢م، حينما وقع حريـق القاهرة؛ فقد خرجت الجماهيـر تدمر المتاجر الكبـرى والفنادق ودور العرض، كان مـن الصعب القول إن كانت عمليات النهب تلك بسبب كراهيتهم للترف أو للأجنبى، أو على درجة أدق بسبب كراهيتهم للأجنبـى الذى يملـك الإمكانيات لارتياد تلك الأماكـن المرفهة بينمـا الغالبية العظمى من الشعب لم يكن لديها الإمكانيات لذلك.

أندريه فيرساى: اشتعلت الحرب فى العالم، وتوالت انتصارات الجيوش النازية، ورغم ذلك استـمر الصهاينة يعملون فى مشـروع إقامة دولة يهودية. متى، فى رأيك، بدأ المشـروع الصهيونى يصبح واقعيًا؟

شيمون بيريز: من الصعب تحديد تاريخ، ولكن على أية حال، أستطيع القول إنه فى مايو عام ١٩٤٢م، فى أثناء انعقاد المؤتمر الصهيونى غير العادى المسمى مؤتمر: «بيلتمور»، فى نيويورك، ترسخ اقتناعنا بأن دولتنا سوف ترى النور قريبًا. لقد أصبح واضحا لنا أن المشروع لم يعد يوتوبيا، وأن الوجود البريطانى سوف ينتهى؛ حتى الإنجليز أنفسهم بدأوا يضعفون.

وفـى أثنـاء هذا المؤتمر، ناقشـت الحركة الصهيونية العالمية فكرة تقسـيم فلسـطين إلى دولتين، والتى اقترحتها فى عام ١٩٣٧م لجنةُ التحقيق البريطانية، لجنة بيل. وبالنسبة لليمين،

وكذلـك بالنسـبة للجنـاح المرجعي فـي الحركة الصهيونيـة، وهذا منذ عهد جابوتينسـكي، مؤسـس الجناح، يجب أن تمتد الدولة اليهودية على كل أرض فلسطين، بما في ذلك الضفة الشـرقية لنهر الأردن. في المقابل بالنسـبة لبن جوريون، كان الأمر يتعلق بتعبئة سـريعة قدر الإمـكان من أجل إقامـة دولة يهودية. وبينمـا كان الاضطهاد، رأى بن جوريون أن الوسـيلة الوحيدة لإنقاذ اليهود هي إقامة دولة ملجأ تكون خاصة بهم. وعلى عكس رأى اليمين، قدر بن جوريون أن السرعة في إقامة الدولة أهم كثيرًا من حجمها.

وفـي نهايـة الأمـر، أيدت «خطـة بيلتمـور» مبدأ تقسـيم فلسـطين كما أعلنـت في نفس الوقت تأييدها للهجرة غير الشـرعية إلى أرض إسـرائيل. وبالنسبة لي، فقد تبنيت تمامًا هذه المواقف.

أندريه فيرسـاى: ومع ذلك، فلقد استمر اليمين، وخصوصًا بيجين زعيم الإرجون ابتداء من عام ١٩٤٣م، في النضال علنيا من أجل إقامة دولة يهودية على كل فلسطين.

شيمون بيريز: نعم، وظل الاتجاهان يتنافسان حتى عام ١٩٤٨.

وفـي الحقيقة، كل شـيء كان يفصل بين بيجيـن وبن جوريـون: الأول كان أيديولوجيًا؛ يهوى البلاغة الخطابية، بينما كان الثاني براجماتيًا؛ يكره أي بلاغة، ولم يكن يهتم إلا بتطور الوضع على أرض الواقع، ويقيم سياسته على أساس حقائق علاقات القوى.

أندريـه فيرسـاى: ولكن، رغم كل شـيء، لا ينكر أحـد أن أهداف بن جوريـون وبيجين كانـت تتشـابه، ويكمن الاختـلاف بينهما في الوسـائل التي تسـتخدم لتحقيقها. لـذا فقبول التقسيم بالنسبة لبن جوريون لم يكن إلا خطوة أولى، وفور إقامة الدولة يمكن للإسرائيليين العمل على توسيعها.

شـيمون بيريز: وحتى مع هذا التفسـير للأمور، كان بن جوريون، الذي يعرف كيف يميز بيـن الحلـم وبين الواقع، أكثـر واقعية من بيجين. ولا أتصور مطلقًا أنـه كان لبن جوريون نية خفيـة فـي الغزو. وأفضـل دليل على ذلك أنـه بعد الانتصار فـي حرب الأيام السـتة في عام ١٩٦٧م، أعلـن أنـه من مؤيدي إعـادة الأراضي المحتلة (باسـتثناء القدس) مقابل السـلام. وبكل صراحة، إنه اتهام ملفق ولا شـيء يثبته. كل هؤلاء الذين عرفوا بن جوريون سـيقولون لك إنه كان رجلاً يملك قدرًا كبيرًا من النزاهة.

أندريه فيرسـاى: في أثناء الحرب، أعلن تشرشـل بوضوح تأييده للمشـروع الصهيوني. وفـي أكتوبـر عـام ١٩٤١م أعلـن: «*إننـي أقولها واضحـة، إنـه إذا خرجت كل مـن بريطانيا*

والولايات المتحدة من هذه الحرب منتصرتين، فإن إقامة دولة يهودية كبرى فى فلسطين، يسكنها ملايين اليهود، ستكون إحدى النقاط الأساسية الكبرى للمناقشة فى مؤتمر السلام».

ما الذى حث تشرشل على تأييد الصهاينة؟

شيمون بيريز: كان تشرشل قريبا من هؤلاء البريطانيين الذين التفوا حول لورد بلفور، واعتبروا أن من حق الشعب اليهودى أن يكون له «وطن قومى»: لقد أنشأت بريطانيا الضفة الغربية فى عام ١٩٢١م، فلماذا ترفض إقامة دولة يهودية بجانبها؟ ثم جاء الاضطهاد النازى فأقنعه بضرورة هذه الدولة، لتكون بمثابة مأوى لهم على الأقل. وأخيرًا، كانت علاقاته بالنخبة السياسية الأمريكية، والتى لعب اليهود بينهم دورًا غير بسيط، من الأسباب التى دعمت لديه هذا الاعتقاد.

أندريه فيرساى: فى بداية عام ١٩٤٤م، عادت حركتا الإرجون وليهى إلى القتال ضد القوات البريطانية بعنف أشد، واختارنا الإرهاب عن قصد. وكانت الهجمات تستهدف مراكز الضرائب ومقار البوليس ومكاتب الهجرة. وفى القاهرة قام النشطاء فى حركة ليهى، فى ٦ نوفمبر عام ١٩٤٤م، باغتيال لورد موين، وزير مقيم فى الشرق الأوسط (وللتذكرة فإن لورد موين كان يعارض خطة إنقاذ اليهود المجريين فى شهر مايو، وهى الخطة التى اقترحت مبادلة اليهود المزمع ترحيلهم إلى المعسكرات، مقابل شاحنات). ولكن يبدو أن هذه الأعمال الإرهابية أدانتها منظمة الهاجاناه.

شيمون بيريز: لقد صدمنا الإرهاب بشكل عام، صدمة قوية، وعملية اغتيال لورد موين بشكل خاص. وذلك لأسباب أخلاقية بالطبع، ولكن أيضًا لأننا رأينا أن هذا الاغتيال خطأ سياسى بشع؛ فقد كان موين صديقًا شخصيًا لتشرشل، الذى اعتبر الاغتيال وكأنه موجه إليه شخصيًا، وشجع السلطات المصرية على الحكم بالإعدام على المذنبين. ونتيجة لهذا الاغتيال سحب تشرشل تأييده لخطة تقسيم فلسطين.

لقد كنا جميعًا ضد بريطانيا، ولكننا رفضنا الإرهاب الذى لجأ إليه ليهى والإرجون. لم تتبن الهاجاناه نفس مواقف الإرجون حول الاستراتيجية التى يجب علينا اتخاذها؛ فقد رأت الهاجاناه ضرورة إقامة مقاومة عسكرية قادرة على مواجهة العدو العربى، ولكن فى نفس الوقت، اعتبرت التعاون مع القوة البريطانية ضرورة من أجل توطيد دعائم قوتنا بشكل أفضل. فقد كانت الهاجاناه على قناعة بأن الأمر الواقع وحده هو الذى سيؤدى إلى إقامة الدولة اليهودية، ولذلك أيدت زيادة عدد المستوطنات اليهودية. أما الإرجون من

جانبها، فلم تتبن أية مستوطنة، وقاذت عمليات قليلة ضد العرب وعمليات أكثر ضد البريطانيين.

أندريه فيرساى: ولكن يوجد، رغم كل شيء، روابط بين الهاجاناه والإرجون وليهى.

شيمون بيريز: هذا صحيح، ولكنها روابط غير رسمية. من الواضح أنه فى وضعنا هذا، كان من الصعب اعتبار المحاربين فى الإرجون وليهى أعداء وأردنا بأى ثمن تجنب كل صراع خطير بيننا. ولكن رغم ذلك، فقد حدث أكثر من مرة أن أخذنا جانب البريطانيين لمحاربة الإرهابيين، وذلك عندما رأينا أن أفعالهم تضر القضية الصهيونية أكثر مما تفيدها. لذا، فبعد اغتيال لورد موين بيد أعضاء ليهى، أو بعد أن قامت الإرجون بشنق جنود بريطانيين كعملية انتقامية ضد إعدام اليهود، حاولت الهاجاناه التنسيق مع الجيش البريطانى من أجل منع اليمين المتطرف من ممارسة هذا النوع من الانتهاكات.

أندريه فيرساى: وهل كان ذلك مفيدا؟

شيمون بيريز: يمكن القول أنه كان مفيدًا أحيانًا، وأحيانًا أخرى لا.

أندريه فيرساى: على الجانب العربى، التقى ممثلو سبع دول عربية (مصر والضفة الشرقية لنهر الأردن وسوريا ولبنان والعراق والسعودية واليمن) من ٢٥ سبتمبر إلى ٧ أكتوبر عام ١٩٤٤م فى الإسكندرية، من أجل تشكيل جامعة الدول العربية (تم توقيع الميثاق رسميًا فى القاهرة فى ٢٢ مارس عام ١٩٤٥م).

بطرس بطرس غالى: نعم، كان الهدف من ذلك تشجيع وحدة الدول العربية والتنسيق بين سياسات الدول الأعضاء. ويجب ألا ننسى أنه فى وقت إنشاء جامعة الدول العربية، لم تكن هناك دولة عربية واحدة غير محتلة من قوى أجنبية. لذلك يمكن وصف الجامعة بأنها اتحاد بين دول فى طريقها إلى التحرر. وستلاحظ فيما بعد أن من بين بنود ميثاق الجامعة، تم تخصيص فقرة أساسية للقضية الفلسطينية. وتقرر إحدى مواده أن «*حقوق العرب (الفلسطينيين) لا يمكن المساس بها من غير إضرار بالسلم والاستقرار فى العالم العربى*»؛ وأن الدول العربية «*ليست أقل تألمًا من أحد لما أصاب اليهود فى أوروبا. [..]*». «*ولكن يجب أن لا يخلط بين مسألة هؤلاء اليهود وبين الصهيونية. إذ ليس أشد ظلمًا وعدوانًا من أن تحل مسألة يهود أوروبا بظلم آخر يقع على عرب فلسطين*». يمكن للمرء أن يستشرف من تلك القراءة الأهمية التى توليها الدول العربية فى تلك الفترة لفلسطين وللقدس، المهددة بالهجرة اليهودية.

أندريه فيرساى: فلسطين أم القدس؟

بطرس بطرس غالى: فلسطين والقدس.

أندريه فيرساى: كيف ينظر المصريون - على سبيل المثال - إلى القدس؟

بطرس بطرس غالى: القدس مكان مقدس ذو أهمية قصوى بالنسبة للمسلمين (حيث إنها ثالث مدينة مقدسة فى الإسلام) وبالنسبة للأقباط على حد سواء. فكما تعرف أن كل مسلم، يملك الإمكانيات، فُرض عليه الحج إلى مكة على الأقل مرة واحدة فى حياته، وعندما يعود من هناك، يطلق عليه لقب «*الحاج*». وبالنسبة للأقباط، فهم يحجون إلى القدس، وبعد عودتهم من هناك، يحتفى بهم هم أيضًا، ويحملون لقب «مقدس». لذلك فإن المدينة هى مقدسة مرتين بالنسبة للشعب المصرى: ففى نظر المسلمين، كانت مرحلة أساسية فى رحلة محمد ﷺ، وبالنسبة للأقباط هى المدينة التى تأوى قبر المسيح.

أندريه فيرساى: إن الموقف الذى ستتخذه جامعة الدول العربية لصالح الفلسطينيين شابه بعض الغموض: فإذا كانت الدول الأعضاء كلها تتضامن مع المطالب الأساسية للفلسطينيين، فقد استأثروا بحق اختيار ممثل الفلسطينيين طالما أن فلسطين لم تحصل بعد على استقلالها. لذا فإن كل مبادرة سياسية فلسطينية كانت تأتى، ولمدة طويلة، من زعماء الدول العربية؛ كما أن كل القرارات السياسية المهمة التى تخص المقاومة العربية ضد الصهيونية تتخذ فى القاهرة وليس فى القدس. لذلك فإن الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية تتحرك باسم الفلسطينيين وتحل محلهم، مما يسلب الفلسطينيين مشروعهم. فكيف تفسر هذه السياسة؟

بطرس بطرس غالى: الدول العربية حلت محل الفلسطينيين، لسبب بسيط وهو أن هؤلاء غير مسموح لهم بحضور المؤتمرات الدولية. هذه الظاهرة التى وصفتها بأنها «سلبية»، ليست مسألة استثنائية فى مثل هذه الأوضاع. فنجد أكثر من سابقة شبيهة لها فى تاريخ الاستقلال وحركات التحرير: الدول المستقلة ترعى الشعوب التى لم تستقل بعد؛ مثلما حدث بالنسبة للتونسيين والمغاربة والجزائريين.

ولكن فى نفس الوقت، من الصعب تقييم درجة التزام السلطات العربية إزاء فلسطين، لأن العالم العربى كان فى ذلك الوقت منقسمًا حول الأولويات السياسية. فقد فضل البعض النضال من أجل استقلال جميع الدول العربية؛ ولكن رأى البعض الآخر أنه من الأفضل البدء بالنضال من أجل استقلال مصر الكامل (التى كانت فى الفترة من ١٩٤٥م إلى ١٩٤٦م

لا تزال تحت السيطرة البريطانية)، لأنهم يرون أن حصول مصر على الاستقلال سوف يجعلنا فى وضع أفضل للدفاع عن القضايا العربية الأخرى؛ وأخيرًا كان المتشددون يرون أن فلسطين يجب أن يكون لها الأولوية على كل شىء آخر.

إن أردنا فهم المواقف العربية إزاء فلسطين، يجب إعادة وضع تاريخ الصراع العربى اليهودى فى الإطار الأوسع لعملية الاستقلال من الاستعمار.

أندريه فيرساى: فى تلك الفترة كانت السلطات العربية موالية للغرب ولم تكن مناهضة للاستعمار بشكل خاص. كيف تغلغل الوعى السياسى المناهض للاستعمار داخل الشعب؟

بطرس بطرس غالى: إن كانت السلطات التى تقع تحت سيطرة الاحتلال الأجنبى اضطرت إلى التعاون مع الحلفاء الذين انتصروا فى الحرب، فإن الشعب لم يكن ينظر إلى الأمور بنفس الطريقة. لقد تغلغل الشعور السياسى المناهض للاستعمار فى إفريقيا العربية غداة الحرب العالمية الأولى: عندما دعا الرئيس ويلسون فى عام ١٩١٩م، من بين نقاطه الأربع عشرة، إلى حق الشعوب فى تقرير المصير، وشعرت الشعوب المستعمرة بأن مطالبها أخذت فى الاعتبار. فى مصر؛ ظلت أقلية محدودة من السياسيين مؤيدة لعلاقات خاصة مع لندن. أما بالنسبة لسائر السياسيين فإن الشعور المناهض للاستعمار كان قويًا.

أندريه فيرساى: انتهت الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥م. ومع عودة المرُحّلين، اكتشف العالم نظام معسكرات الاعتقال النازية فى كل أبعاده، كما اكتشف فى نفس الوقت أحد آثاره الأكثر وحشية: إبادة اليهود. كيف تلقت إيشوف تلك الاكتشافات؟

شيمون بيريز: لقد كنا على علم بالاضطهاد، ولكننا لم نكن نتصور أن هناك عمليات إبادة بالمعنى الحقيقى. لم نكن نعلم عن وجود معسكرات إبادة، بجانب معسكرات الاعتقال، تستخدم فيها غرف الغاز. ولم ندرك هول المأساة إلا مع نهاية الحرب. لم يكن أحد مهيأ لمعرفة أن ثلث شعبنا، ومنهم أطفال، تم ذبحهم. وكلما تكشفت المعلومات، كان من الصعب فهم ما حدث، فما بالك بقبوله.

هذا الاكتشاف القاسى كان له، بكل تأكيد، تأثير فى تصميمنا على القتال؛ إقامة دولة يهودية بات أمرًا لا غنى عنه، وتأكدت شرعيتها .. تأكدت أكثر كلما أغلقت معظم الدول أبوابها أمام الناجين من الإبادة. حتى بدون المحرقة، كانت ستقام الدولة اليهودية، ولكن كان ذلك سيتم ببطء أكبر. المحرقة هى التى سارعت فى إتمام العملية.. كان هناك إلحاح واضح.

ومـن المؤكـد أن الإبادة الجماعية حركت تعاطف عدد لا بأس به من الشـعوب الأخرى مع القضية الصهيونية، فلم يعد أحد يستطيع إنكار حق الشعب اليهودى فى إقامة دولة.

أندريـه فيرسـاى: علـى الجانـب العربى، كيف كانـت نظرة العـرب إزاء ما تكشـف من عمليات الإبادة الجماعية؟

بطـرس بطرس غالى: فلنقل بوضوح، إنه على الرغم من بشـاعة الإبـادة، لم يكن العالم العربـى يشـعر أنه طرف فيهـا. لقد كانت بشـاعات ارتكبهـا أوروبيون ضـد أوروبيين؛ تلك المأسـاة كانت جزءًا من مآسـى الحرب، وهى حرب لم يكن العرب طرفًا فيها. هذا الشـعور بعـدم الاهتمـام قد يبدو لك صادمًـا، ولكنى أوجه نظرك إلى أنه مماثـل لعدم اهتمام الغرب إزاء الإبادات الجماعية التى شهدتها رواندا فى عام ١٩٩٤م أو دارفور فى ٢٠٠٤ و٢٠٠٥م. لاحظ أن الغربيين، بصفة عامة، ظلوا لا مبالين بالمآسى الإفريقية.

بالنسـبة لجزء من الرأى العام العربى، عمل الغرب، بتشـجيعه إقامة دولة إسـرائيل، على إرضاء ضميره على حساب العرب. وفى نفـس الوقـت، فإن تلك الدولـة اليهوديـة (الغربيـة إذن) فى فلسـطين، أُعدَّتْ بلا شـك لأن تصبح رأس جسـر يستخدم كقاعدة عسكرية غربية، والتى أصبحت أكثر استراتيجية لوجود الثروة البترولية فى المنطقة.

* * *

٢- مولد إسرائيل: إجهاض الدولة الفلسطينية

نحو تقسيم فلسطين- مساندة ترومان، عداء مارشال- إعلان الدولة الإسرائيلية- حرب ١٩٤٨م- مناخ من عدم الثقة فى المعسكر العربى- دير ياسين- إجهاض الدولة الفلسطينية- بدء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين- «الزيادة السكانية، إنها القنبلة النووية العربية».

أندريه فيرساى: دعت جامعة الدول العربية إلى النضال الشامل ضد المشروع الصهيونى. كيف كان شعور أبناء إيشوف إزاء ذلك؟

شيمون بيريز: فى الحقيقة، لم يكن ذلك مفاجأة؛ كنا نعلم أن العرب لن يقبلوا بالأمر الواقع وأن القتال سوف يستمر لوقت طويل قادم. فى هذا الوقت، كان فى رأى بن جوريون أن نستعد للحرب لأنه كان مقتنعًا بأنه حتى وإن كانت الدولة الإسرائيلية القادمة قانونية تمامًا، فإن العرب سوف يهاجموننا. منذ هذا الوقت، لم يعد هناك إلا أقلية تؤمن بإمكانية التوصل إلى حل وسط مع العرب؛ هؤلاء الذين دافعوا عن فكرة دولة تضم جنسيتين، وهو ما كان مستبعدًا تمامًا بالنسبة للأغلبية فى إيشوف.

أندريه فيرساى: اليوم، وبعد مُضى الزمن، هل تعتقد أن دولة تضم جنسيتين كان يمكن أن تكون حلاً؟ كان يمكن أن تجنب المنطقة حروبًا عديدة؟

شيمون بيريز: لا، أعتقد أنها كانت يوتوبيا. ولكى تقتنع، يكفى أن ترى المصاعب التى تواجهها الدول التى تضم جنسيتين أو أكثر مثل لبنان أو يوجوسلافيا سابقًا. لا نستطيع بناء ديمقراطية فى دولة تقوم الديموغرافيا بإملاء القانون. إن كانت الأغلبية والأقلية فى دولة ما تنتمى إلى شعب واحد، فيمكن للديمقراطية أن تنجح؛ ولكن إن كانت الأغلبية والأقلية تنقسم حسب خط تقسيم قومى أو عرقى، ففى هذه الحالة ستشوب السياسة بالضرورة مسحة عرقية. أما الديمقراطية فسوف تكون ممتهنة.

بطرس بطرس غالى: إننى أتفق معك فى رأيك. فأعتقد أنه من الصعب تعايش شعبين مختلفين إلى هذه الدرجة. فضلاً عن أنه كان سيسود إحساس باستعمار جديد. علينا أن نرى مشاكل «الأقدام السوداء» (المستوطنين الفرنسيين) فى الجزائر، رغم أن الفرنسيين على عكس اليهود فى فلسطين، أقاموا فى الجزائر لعدة أجيال. كان من الممكن أن نجد أنفسنا فى وضع مماثل: هناك من ناحية، المستوطنون المسيطرون تساندهم القوى الاستعمارية، ومن ناحية أخرى «السكان الأصليين»، كل له خلفية من الثقافات والتقاليد المختلفة اختلافًا كبيرًا.

ولكنك تقول، يا شيمون، إن فى النظام الديمقراطى، الديموغرافيا لا يمكنها أن تملى قانونها. تبعًا لمنطقك هذا، فإن إسرائيل التى هى دولة يهودية، الأغلبية فيها يهودية والأقلية عربية، لن نستطيع اعتبارها دولة ديمقراطية تمامًا.

شيمون بيريز: هذا حقيقى. الديمقراطية لا تعنى فقط أن الدولة تحكم حسب رغبة الأغلبية، ولكن أيضًا مع احترام حقوق الأقلية. إننا نعرف أنه لا يمكننا اعتبار إسرائيل دولة ديمقراطية تمامًا إلا بشرط أن تضمن الأقلية فيها حقوقها بشكل مطلق.

أندريه فيرساى: فى عامى ١٩٤٦م و١٩٤٧م هل كانت مسألة ضمان حقوق العرب تقلق جزءًا من إيشوف، أم أن الإلحاح لبناء الدولة اليهودية تغلب على أية اعتبارات أخرى؟

شيمون بيريز: المسألة لم تطرح بتلك الطريقة؛ فقد نصت خطة التقسيم على إقامة دولتين، وكان من الواضح أن المواطنين فى كل دولة من الدولتين سيتسمون «بتجانس» كبير. لذلك فإن مسألة احترام حقوق الأقلية لم تطرح.

بطرس بطرس غالى: إننى لا أشاركك الرأى. تقسيم فلسطين كان سيترك أقلية عربية فى الدولة اليهودية وغالبًا أيضًا أقلية يهودية فى الدولة العربية. والدليل على ذلك أن عددًا كبيرًا من العرب بقوا فى إسرائيل. ولا أتصور بأى اسم كان من الممكن طردهم من ديارهم، حتى ولو نشأت دولة فلسطينية. اللهم إلا إذا تم القيام بعملية «تطهير عرقى». فكون هذه المسألة لم يتم تناولها بالنقاش، لا يعنى ذلك أنها لم تكن ستطرح فى حالة وجود دولتين.

أندريه فيرساى: فى عام ١٩٤٧م، انتهت فترة الانتداب البريطانى. كيف تم التعامل مع الفترة الانتقالية على أرض الواقع؟

شيمون بيريز: شعرنا بالطبع، أن إقامة الدولة اليهودية بات وشيكًا. بعد انتهاء اضطهاد اليهود فى أوروبا، هذا الهدف جعل من عام ١٩٤٧م عامًا مثيرًا.. مثيرًا، ولكنه لم يخل بكل

تأكيد من صعوبات هائلة، ولكنها لم تأت هذه المرة من العرب أو من البريطانيين، بل من أنفسنا. ففى الحقيقة، كلما شعرنا بقرب الموعد، كلما تأججت الانقسامات السياسية داخل إيشوف. اليمين المعروف بـ «الانفصاليين» (إرجون وليهى) رفض الامتثال إلى القيادة المنتخبة لإيشوف، ودعا إلى مواصلة القتال المسلح طالما أنه لم يتم تخصيص كل فلسطين لليهود. أما فى جانب اليسار، فقد أثار قرار بن جوريون بحل قوات المنظمة المسلحة المستقلة بالماش وضمها إلى الهاجاناه، انشقاقًا بين الأحزاب، وأيضًا داخل حزب ماباى نفسه وهو حزب بن جوريون.

فى حقيقة الأمر، واجه بن جوريون صعوبة مزدوجة ومتناقضة؛ فكان يجب حث البريطانيين على الخروج من البلاد سريعًا، وبنفس السرعة يتم تأسيس جيش وطنى حقيقى تحت قيادة موحدة، وهى مسألة ضرورية إن أردنا الدفاع فعليًا عن الدولة الوليدة ضد الجيوش العربية التى لن تتردد فى الهجوم علينا، فى نفس الوقت، كان علينا أن نسرع فى بناء أسس الدولة اليهودية المقبلة، حتى نستطيع، عندما يحين الوقت، أن نرى مولد دولة ذات سيادة، تكون أيضًا ديمقراطية، بدون التعرض لمشكلات كثيرة، وأن تكون قادرة على استيعاب المهاجرين اليهود الذين يريدون الإقامة على أرض إسرائيل.

أندريه فيرساى: فى أول سبتمبر عام ١٩٤٧م، قدمت اللجنة الخاصة لفلسطين التابعة للأمم المتحدة، أونسكوب، (UNSCOP) تقريرها إلى الجمعية العامة بمنظمة الأمم المتحدة. هذا التقرير نص بالإجماع على ضرورة إنهاء الانتداب البريطانى على فلسطين، وأعلن بأغلبية ٨ أصوات من ١١ صوتًا موافقته على تقسيم فلسطين إلى دولتين.

فى هذا الوقت قام اليهود بحملة واسعة فى الولايات المتحدة واعتصموا فى واشنطن من أجل كسب الأمريكيين لصفهم. وحصلوا أخيرًا على تأييدهم. كيف تفسر أن اليهود، الذين هلك منهم عدد كبير مؤخرًا، تمكنوا من التغلب على العرب، الذين كانوا أكثر منهم عددًا ويمثلون قوة ورهانًا جيوبوليتيكى ذا دلالة مختلفة تمامًا؟ يبدو أن العرب من جهة أخرى لم يدركوا أهمية المكانة ولا الدور الذى للولايات المتحدة.

بطرس بطرس غالى: ما يجب علينا فهمه، هو أنه لم يكن للعرب، فى ذلك الوقت، اتصالات كثيرة بالعالم الخارجى، وافتقدوا ثقافة الوضع الدولى التى اكتسبها اليهود. صحيح أن اليهود قد هلكوا، ولكن هؤلاء الذين نجوا من الإبادة الجماعية، وخاصة اليهود الأمريكيين من بين آخرين، والذين كانوا من يهود الشتات النشطين، تمرسوا على إقامة

اتصالات دولية. إن اليهود الذين عملوا على تقدم القضية الصهيونية كانوا ينتمون إلى النخبة القادمة من دول متقدمة تقدمًا كبيرًا. والانتماء العالمى عند اليهود، الذى عُدّ مثلبة تؤخذ عليهم، منحهم معرفة حقيقية بآليات المجتمع الدولى، بينما احتفظ العرب بعقلية محلية. هل تعلم أنه حتى منتصف الخمسينيات، كان المصرى الذى يهاجر، ينظر إليه بعين غير راضية، لأن الهجرة من البلاد كانت تعتبر بمثابة خيانة؟! والفكرة أن المصريين فى المهجر يمثلون قوة يمكن استخدامها، لم تخطر على البال إلا بعد ذلك. كانت أوضاع مجتمعات الشتات أيضًا مختلفة. فعلى عكس يهود الشتات الذين ظلوا دائما متضامنين بقوة، فإن عرب الشتات، الذين أطلق عليهم لقب «توركوس» (أتراك)، هاجروا إلى أمريكا اللاتينية لكى يهربوا من تخلف المشرق، والذى قلما يحتفظون معه بروابط قوية.

لذلك، ربما كان العرب أكثر عددًا من اليهود، ولكنهم لا يملكون شبكات اتصال فيما بينهم، ولا المعرفة بالدبلوماسية الدولية الحديثة.

هذا العائق أمام الشعوب العربية والإسلامية بشكل عام، يمكن تفسيره جزئيا من خلال تاريخ الإمبراطورية العثمانية حيث كانت العلاقات الخارجية يكلف بها عادة، غير المسلمين، الذين يمثلون الأقليات (اليهود والبلغار واليونانيين والأرمن، ...إلخ).

أندريه فيرساى: ما الأسباب التى جعلت الولايات المتحدة تساند الصهيونية؟

شيمون بيريز: يجب أولاً الأخذ فى الاعتبار أهمية الكتاب المقدس فى الولايات المتحدة؛ فعشرات الملايين من الأمريكيين تربوا، ليس فقط على العهد الجديد ولكن أيضًا على العهد القديم. وبالنسبة لعدد كبير منهم، وبالنسبة لغالبية الأحزاب الدينية، فإن عودة اليهود إلى وطن أجدادهم يشهد على تحقيق رؤى الأنبياء.

ولكن فى نفس الوقت، يعرف الجميع أن الولايات المتحدة تضم جالية يهودية نشيطة للغاية، وأنها التزمت بكثافة بالقضية الصهيونية. بعض هؤلاء اليهود، كانوا من الأصدقاء المقربين إلى الرئيس ترومان، وقدم عدد كبير منهم مساعدة مهمة للرئيس خلال حملته للانتخابات الرئاسية، وهو ما ساهم إلى حد كبير فى انتخابه. بشكل عام، أتصور أن مساندة أمريكا للقضية الصهيونية كان للرئيس نصيب كبير فيها. فلم تكن المسألة فقط أن لترومان أصدقاء كثيرون من اليهود المؤثرين، ولكن يبدو أنه كان شخصيًا متأثرًا حدًّا من الاضطهاد الذى تعرض له اليهود خلال الحرب؛ فبدا له المشروع الصهيونى قادرًا على «حل المسألة

اليهوديـة». كمـا قدمت النقابات فى نفـس الوقت تأييدهـا للصهاينة بعد أن أبـدوا إعجابهم بالروح المعنوية للعماليين التى سـادت فى إيشـوف. وأخيرًا، عندما أعلن الاتحاد السوفيتى تأييده للصهيونية، لم يكن من الممكن أن تبقى واشنطن فى موقف اللامبالاة.

أندريـه فيرسـاى: ورغـم ذلك، فلم تفـوزوا بالمعركـة لأن وزير الخارجيـة الأمريكى ذا المكانة الكبرى، جورج مارشـال، صاحب الخطة التى تحمل اسمه، عارض بصورة جذرية فكرة إقامة دولة يهودية فى الشرق الأوسط. بالنسبة له، هذا التوطين سيفجر حروبًا لا تنتهى، وسـتخاطر الولايـات المتحـدة بالتورط فيها. وذهب مارشـال إلى حد تهديـد ترومان بعدم تأييده فى الانتخابات القادمة إذا أصر على مساندة خطة تقسيم فلسطين.

شـيمون بيريز: مارشال، ومستشار الرئيس أتشيسـون، ووزير الدفاع فوريستال، عارضوا إقامـة دولـة يهودية. من ناحية، كان فى تقديرهم أن هـذه الدولة لن تعيش طويلاً، ومن ناحية أخرى، تصوروا أنه لن يمكن تجاوز سخط العرب ومعارضتهم. ولقد ظل مارشال معارضا لنـا بشـدة بعد قيام إسـرائيل. وأتذكر أنـه، غداة الإعلان عـن قيام الدولة اليهودية، اسـتدعى مباشـرة موشـيه شـاريت وزير الخارجية فى هذا الوقت، للتأكيد عليه ألا يجعل من القدس عاصمـة لنا. وبالطبع، سـارع بـن جوريون بنقل الحكومة المؤقتة التى تشـكلت فى تل أبيب إلى القدس.

بطرس بطرس غالى: إن عدم الاسـتقرار المتأصل الذى عاشـت فيـه المنطقة، وأحداث الستين عامًا الماضية، والمآسى اليومية التى نشاهدها فى فلسطين، وأخيرًا، الواقع الذى يدل على أنه لم يتم التوصل إلى أية مؤشرات حتى الآن، كل ذلك يؤكد صحة رؤية مارشال.

شـيمون بيريـز: كان من الممكن أن يكون مارشـال على حق لو كانـت الاضطرابات فى الشرق الأوسط كلها نتيجة قيام دولة إسرائيل. ولكن من الواضح أن هذا الأمر ليس صحيحًا. فلم تكن إسـرائيل هى التى أدت إلى حالة عدم الاستقرار فى الشرق الأوسط، إنها بعيدة كل البعد عن ذلك. فالمنطقة فى حالة عدم استقرار أساسًا بسبب الخلافات والحروب الداخلية بيـن الـدول العربية والعربية الإسـلامية (التى تظل أكثر دموية من الصراعات مع إسـرائيل). لنأخذ حرب العراق وإيران كمثال: لقد استمرت سبع سنوات وأسفرت عن مليون ضحية.. هـل يمكن ربطها بإسـرائيل؟ .. لقـد وقعت حروب أخرى كثيرة: الحـرب المصرية اليمنية، والحرب الأهلية السودانية، ...إلخ. والقائمة تطول. إن الرؤية التى تقول إن الشرق الأوسط غير مستقر بسبب قيام دولة يهودية ناتجةٌ عن رؤية زائفة للتاريخ.

أندريه فيرساى: فى عام ١٩٤٧م، بدأت الحرب الباردة. ومن المدهش أن واحدة من القضايا القليلة التى التقى عليها الأمريكيون والسوفييت كانت بشكل خاص مسألة تقسيم فلسطين. كيف تفسرون هذا التوافق فى الرأى؟

بطرس بطرس غالى: بالنسبة لنا نحن العرب، كان توطين إسرائيل يعتبر شكلا من أشكال الاستعمار الجديد، بينما اعتبر الأمريكيون أن قيام دولة يهودية ودولة عربية مستقلتين فى مستعمرة بريطانية، يتناسب مع سياستهم المناهضة للاستعمار. أما بالنسبة للروس، فقد تصوروا أن وجود دولة يهودية سيسمح لهم بموضع قدم فى هذه المنطقة التى طالما اعتبرت معقل الرأسمالية الغربية.

شيمون بيريز: لنقل إن السوفييت أرادوا أن يتخلص الشرق الأوسط من البريطانيين ومن القوى الاستعمارية الغربية بشكل عام. فمنذ ذلك الحين، كان أى وضع من شأنه أن يساهم فى رحيل البريطانيين يحظى بتأييدهم.

أندريه فيرساى: فى سبتمبر عام ١٩٤٧م، أعلن البريطانيون أنهم سيغادرون تدريجيًّا فلسطين. كيف كانت ردود الفعل المحلية لهذا الإعلان؟

بطرس بطرس غالى: فى الوقت الذى استعد فيه البريطانيون لمغادرة فلسطين، كانوا ما زالوا يحتلون كلًّا من مصر والأردن. هذا التناقض صعب على العرب فهمه؛ لذا اقتنعوا بأن اليهود سوف يحلون محل البريطانيين فى دورهم كمحتلين.

شيمون بيريز: من جانبنا، لقد كنا سعداء للغاية. لأن مغادرة البريطانيين تسير فى نفس اتجاه تحرير فلسطين.

أندريه فيرساى: ألم تخافوا من أن يؤدى انسحاب القوات البريطانية، التى شكلت رغم كل شىء صمام أمان بين العرب واليهود، إلى تفجر معارك عنيفة من جانب العرب؟

شيمون بيريز: هذا التفجر مسألة حتمية، ولقد كنا مدركين لذلك. كان لرحيل البريطانيين ميزة وهى توضيح الأوضاع على أرض الواقع، كما أننا كنا نعتبر البريطانيين قريبين من العرب أكثر مما هم قريبون منا. وكانت هناك أسباب لهذا الاعتقاد؛ فقد كان الجيش البريطانى يطارد كل يوم المحاربين اليهود، سواء كانوا من الهاجاناه أو من ليهى أو الإرجون. وكنا كل يوم نرى أصحاب القبعات الحمراء يفتشون القرى اليهودية بحثًا عن مخازن الأسلحة. وأقول مضيفًا إن لندن كانت منحازة موضوعيًّا إلى جانب الضفة الشرقية من نهر الأردن.

أندريه فيرساى: وأخيرًا فى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧م، صوتت الجمعية العامة بالأمم المتحدة بالأغلبية لصالح التقسيم، وعمليًا منح اليهود ٥٥ ٪ من فلسطين، رغم أنهم يمثلون ٣٧٪ من السكان ولا يملكون إلا ما بين ٧ و٨٪ من الأراضى. وأعطت القدس وبيت لحم وضعًا دوليًا. ولكن يجب تسجيل أن الأغلبية فى الأمم المتحدة لم تكن كبيرة؛ فقد صوتت ٣٣ دولة لصالح التقسيم ضد ١٣ دولة رفضت، بينما امتنعت عشر دول عن التصويت. ومع الأخذ فى الاعتبار عدد الأصوات التى حصل عليها القرار، كانت ثلاثة أصوات أخرى تكفى لرفضه. فماذا كان رد فعل الوفود العربية؟

بطرس بطرس غالى: بالنسبة للعالم العربى، فلسطين هى أرض عربية بلا أى مناقشة، تمامًا مثل البحرين أو اليمن. وفلسطين التى أرادت أن تتحرر، مثل الدول العربية الأخرى المحتلة، وجدت نفسها وقد فقدت أكثر من نصف أرضها. لذلك فقد اعتبر العرب هذا الموقف ظالمًا ظلمًا لا يُحتمل. ففى الوقت الذى تصورنا فيه أن عصر الاستعمار على وشك الانتهاء، وأن عملية الجلاء بدأت بالفعل (الهند حصلت لتوها على الاستقلال)، ها هم الأوروبيون وقد وطنوا أنفسهم فى أرض عربية بنية إقامة دولة غربية فيها. بالنسبة لنا، من الواضح أن ما حدث يعد واقعًا استعماريًا: إنه العودة إلى مملكة الصليبيين، ولكن هذه المرة فى شكل حلف يهودى مسيحى، وهذه مسألة غير محتملة. وفى علامة احتجاج، قام ممثلو الدول العربية فى الأمم المتحدة بمغادرة الجمعية العامة وأعلنوا القرار الذى تم التصويت عليه، باطلاً.

أندريه فيرساى: ولكن ذلك لم يمنع أن يتم بعد ستة أشهر، إعلان الدولة اليهودية فى ١٤ مايو عام ١٩٤٨م. شيمون بيريز، ما هى ذكرياتك عن هذه اللحظة؟

شيمون بيريز: فى هذا اليوم، كنت مع عدد من الأصدقاء بجانب بن جوريون. وفورًا قامت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ثم تبعهما عدد آخر من الدول، بالاعتراف بالدولة الجديدة. خرج الناس يرقصون ويغنون فى الشوارع. كان الشعب متحمسًا جدًا. ولكن المشاعر كانت مختلطة؛ فقد أطلت المخاوف من بين فرحة أننا «وصلنا أخيرًا» ونجحنا فى تحقيق «المعجزة» بعد كل المعاناة التى لا يمكن تخيلها.

ولكن بن جوريون بدا حزينًا. لم يتحدث كثيرًا. كان هناك تناقض كبير بين قلقه وأصوات الفرحة التى كنا نسمعها تنطلق من كل مكان. كان هناك ثقل فى نظرته، كما لو كان إعلان الدولة أخيرًا بعد صراع طويل، لم يعد يمثل شيئًا. كان يستمع إلى الضجيج فى الخارج وعلى وجهه ابتسامة حزينة. ثم سمعته يقول: *«كل هؤلاء الذين يغنون اليوم لا يدركون*

أن غدًا، الحرب ستبدأ. غدًا، سيكون هناك دماء ودموع.. المؤسسات الدولية عاجزة؛ إنها الحرب التى سوف تحقق الدولة الإسرائيلية».

أندريه فيرساى: على الجانب العربى، كان الغضب والسخط. يقص جان لاكوتيور أنه كان فى المغرب يوم إعلان دولة إسرائيل، وكان مدعوًا بصفته صحفيًا، فى قصر السلطان محمد بن يوسف، بمناسبة زيارة الجنرال جوان. عند وصوله القصر فوجئ بمناخ الكارثة العام الذى يسود القصر (تحدث حتى عن وجود *«خليط من الحداد والعار»*) وسأل صديقه الفرنسى، المستشرق الكبير جاك بيرك الذى كان موجودًا معه أيضًا، عن السبب. فشرح له أنه تم إنشاء دولة يهودية فى فلسطين، وأن ذلك اعتبر هنا بمثابة *«إهانة غير محتملة»*. سأله لاكوتيور: *«حتى على بعد ٤ آلاف كيلومتر من هنا؟»* أجاب بيرك: *«إنها أرض «عربية» وكل عربى فى العالم يجب أن يشعر بالجرح من إقامة دولة يهودية على أرض عربية»*. ما هو الشىء الذى اعتبر «غير محتمل» و«مهينًا» إلى هذا الحد؟

بطرس بطرس غالى: يرى العرب أن هؤلاء اليهود هم مواطنون جاءوا من الدول الاستعمارية الكبرى التى أبقوا معها على روابط قوية. إسرائيل *«مستعمرة، عاصمتها الاستعمارية متناثرة»* كما قال إدجار فور ساخرًا: إن إقامة دولة يهودية على أرض عربية كسر استمرارية جغرافية، وتخوف العرب من أن إنشاء شبكات دولية غربية سيؤدى إلى أن يبقوا دائمًا فى حالة خضوع للوصاية. المشكلة لا تكمن فى الهوية اليهودية للدولة ولكن كونها دولة غير عربية. وعلى سبيل المقارنة، يمكن القول إن إقامة دولة غير عربية أثار نفس القلق الذى أثاره وجود المستوطنين الفرنسيون فى الجزائر.

أندريه فيرساى: فور إعلان دولة إسرائيل، قامت سبعة جيوش عربية منها الجيوش المصرية والسورية والأردنية والعراقية، بالهجوم على إسرائيل.

شيمون بيريز: نعم، رغم أن إعلان الدولة كان قانونيًا حيث إن أغلبية ٣٣ دولة صوتت لصالح خطة التقسيم. قامت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بفرض حظر بيع السلاح إلى المنطقة (إلى فلسطين وإلى إسرائيل) وهو ما وضعنا فى مشكلة صعبة للغاية حيث إن الدول العربية كانت من البداية أفضل حالاً منا من ناحية التسلح. كانت الولايات المتحدة تساندنا، ولكن ليس إلى حد مدنا بالسلاح لكى ندافع به عن أنفسنا. بعد نحو خمسة عشر عامًا، عندما كنت وزيرًا للدفاع، دعانى المبعوث الخاص أفريل هاريمان للغداء فى البيت الأبيض. أراد أن يقر بأن الحظر كان *«خطأ»*، وأردت أن أوجه نظره إلى أن ما اعتبرته الولايات المتحدة مجرد *«خطأ»* كاد أن يعصف بدولتنا الوليدة.. قد يكون الغرب قد هلل

حقا لمولد إسرائيل الصغيرة، ولكن ذلك لم يجعلنا أقل عزلة، وجعلنا عسكريًا مجردين من السلاح فى مواجهة العرب.

أندريه فيرساى: صدر قرار حظر السلاح إلى فلسطين، ولكن إحدى الدول أمدت السلاح «سرًا» إلى إسرائيل، هذه الدولة هى تشيكوسلوفاكيا الشيوعية.

شيمون بيريز: نعم، من سخرية التاريخ أن تكون دولة شيوعية هى التى تساندنا عسكريًا. لقد ساعدنا التشيك حقيقة؛ فقد باعوا لنا سلاحًا من كل الأنواع، حتى الطائرات ميسيرشميت، وسمحوا لرجال المظلات أن يتدربوا على أرضهم؛ ووافقوا على أن نستخدم أراضيهم كنقطة عبور للطائرات التى كنا نهربها من الولايات المتحدة، ...إلخ. ما الذى أقنع براغ أن تقيم علاقات سرية ووثيقة بقوة معنا؟ هل لأن الزعيم، رودولف سلانسكى، رغم أنه شيوعى حتى النخاع، قد شعر بالتضامن مع هذه الأمة اليهودية (التى ينتمى إليها نفسه) التى تحاول أن تعود إلى الحياة؟ هل بسبب المهارة الدبلوماسية التى مارسها شمويل ميكونيس، المسئول عن الحزب الشيوعى الإسرائيلى، والذى نجح فى الحصول من الكرملين على موافقتهم بالسماح للدولة التابعة له أن تكسر الحظر؟ أم بسبب اللباقة المتميزة لإيهود أفريل، سفيرنا فى براج؟ كل هذه العوامل لعبت دورًا بلا شك، بنسب مختلفة لن نعرفها أبدا. ولنضف فى نفس الوقت، أن تشيكوسلوفاكيا كانت تمر فى ذلك الوقت بوضع اقتصادى صعب، ولأنها تملك مصانع لتصنيع الأسلحة، لم تجد غضاضة فى فتح سوق جديد. وبلا شك كان لدفع ثمن البضاعة نقدًا وبالدولار الأمريكى، الأثر الملموس فى توثيق عرى هذه العلاقة.

خلال فترة الحرب كلها كانت مشكلتنا الأساسية هى الحصول على أسلحة. فمن أجل الالتفاف حول الحظر كان علينا اللجوء إلى سلسلة من الخدع. وهكذا توصل الإسرائيليون إلى عدة أفكار منها فكرة تأسيس شركة لإنتاج الأفلام فى إنجلترا، وادعوا أنهم سوف يصورون مشهدًا حربيًا فى أحد الأفلام، وقاموا باستعارة ثلاث طائرات. ولكن عندما بدأ الاستعداد للتصوير حلقت الطائرات فى الجو.. وهبطت فى إسرائيل.

أندريه فيرساى: إن كانت براغ تلبى بطريقة ما، أوامر موسكو، فلماذا لم يمد الاتحاد السوفيتى إسرائيل بالأسلحة مباشرة؟

شيمون بيريز: لقد كان الكرملين دائمًا حذرًا، وأعتقد أنه فضل البقاء فى الظل حتى لا يتخلى عن العرب.

أندريه فيرساى: وقعت الحرب، ولكن فى المعسكر العربى سادت الشكوك، على ما يبدو، بين مختلف الشركاء فى الجامعة العربية. فأعرب أمين الحسينى الفلسطينى عن مخاوفه من أن يؤدى التدخل المصرى والسورى والأردنى إلى أن تضم كل دولة منهم وهى دول مجاورة، جزءًا من فلسطين إلى أراضيها. ولقد بدا متخوفًا بشكل خاص من الملك عبد الله ملك الأردن، وخاف من أن يستغل الحرب للحصول على مميزات حدودية منها.

بطرس بطرس غالى: بالفعل، كان فى تلك الفترة غياب حقيقى للتعاون بين الدول العربية؛ فقد حصلت الدول العربية على استقلالها مؤخرًا، ولم يكن بينها سوى علاقات محدودة، وأدى منع اتصال المستعمرات بعضها ببعض مباشرة، إلى عرقلة بناء التضامن بين دول العالم الثالث أو بين الدول العربية. كانت الاتصالات تتم رأسيًا: الجزائر - باريس، دلهى - لندن، ولكن ممنوع الاتصال بين دلهى - الجزائر أو الجزائر - القاهرة. ولم يكن من الممكن أبدًا، على سبيل المثال، أن يسافر مصرى مباشرة إلى الجزائر. لذلك، وبينما كنت أدرس فى باريس غداة الحرب العالمية الثانية، تمكنت من إقامة علاقات مع المغاربة؛ ولكننى لم أزر الجزائر لأول مرة إلا بعد استقلالها. ذلك فضلاً عن أنه يجب عدم التقليل من نفوذ القوى الاستعمارية السابقة فى بعض الدول العربية الذى ظل قويًا فى تلك الفترة؛ فقد سعت تلك القوى إلى تغذية المنافسة بين هذه الدول.

أندريه فيرساى: لمدة عامين، كان الملك عبد الله يجرى مفاوضات سرية مع الوكالة اليهودية. كان يبدو أنه يؤيد تقسيم فلسطين، ولكن بين اليهود وبينه.

بطرس بطرس غالى: هذا صحيح، فقد كان مشروع ضم الضفة الغربية يداعب الملك عبد الله فى تلك الفترة. فى هذا الوقت، لم يكن الزعماء العرب فى المنطقة يسيرون بنفس الخطوات. وانقسمت جامعة الدول العربية بين تيارين: من ناحية، التيار الهاشمى (الأردن والعراق) الذى أيد ضم الضفة الشرقية من أجل تشكيل مملكة كبرى. ومن ناحية أخرى، التيار المصرى - السعودى والمؤيد لبناء الدولة الفلسطينية المستقلة.

شيمون بيريز: بالنسبة للملك عبد الله وكل عائلته: كان الفلسطينيون يمثلون خميرة لتفكيك الدولة الهاشمية. كان مقتنعًا أن الفلسطينيين القادمين، معظمهم من الضفة الشرقية، ينظرون بطمع إلى مملكته ويهددون سلامة أراضيها. وهو ما يفسر لماذا كان يثق فينا أكثر من ثقته فى الفلسطينيين. التقت به جولدا مائير فى عام ١٩٤٧م فى محاولة للتوصل إلى اتفاق معه، ولكن هذا الحدث، الذى كان من الممكن أن يصبح حدثًا رائعًا، لم يتحقق.

أندريه فيرساى: على الورق كان عدد العرب يبلغ ضعف عدد اليهود (٢ر١ مليون مقابل ٦٥٠٠٠٠) وكانوا أفضل تسليحًا. ومع ذلك انتصرت القوات اليهودية. كيف تفسر ذلك؟ تفوق فى التدريب؟ فى التنظيم؟ فى الحافز؟ اختلاف فى العقلية؛ ففى جانب، مجتمع تقليدى يظل الاستقلال السياسى والدولة القومية بالنسبة له قيمًا مجردة؛ وفى الجانب الآخر، مثل أعلى قومى قوى تدعمه تجربة التعرض للإبادة الجماعية؟

شيمون بيريز: النصر لم يكن نتيجة للتفوق فى التدريب، ولكن بكل تأكيد نتيجة للإصرار. لقد كان الإسرائيليون يقفون وظهورهم للجدار، أو بالأحرى للبحر. لم يكن باستطاعتهم اللجوء أو الانسحاب إلى أى مكان آخر، كانوا مدركين أن هزيمة عسكرية قد تؤدى إلى محرقة أخرى. لم نكن نحارب فقط من أجل استقلالنا ولكن أيضًا من أجل حياتنا. هذه الحرب كانت «حربًا بدون بديل».

وأعتقد أنه يجب أيضًا أخذ قوة الشعور القومى فى الحسبان. فلم تكن الحرب من أجل الحصول على الأراضى فقط. ولكن كان لدينا حقيقة شعور قوى بأننا نقوم أخيرًا ببناء بلدنا. ولنأخذ على سبيل المثال معركة القدس: لقد كانت تلك المعركة متميزة؛ ففى حين رأى عدد من الجنرالات أنه من الأفضل تركيز كل قواتنا فى النقب لما لها من أهمية عسكرية، اعتبر بن جوريون القدس بمثابة المفتاح لمستقبلنا، وقرر إعطاء معركتها الأولوية.

أندريه فيرساى: يبدو أن الجيوش العربية لم تستعد حقيقة للحرب (جلوب باشا القائد البريطانى للجيش الأردنى، أكد أنه لم يكن هناك أية استعدادات مشتركة بأى شكل من الأشكال). هل تصورت السلطات العربية أن النصر سهل؟

بطرس بطرس غالى: نعم، أتصور أن الدول العربية، نظرًا لتفوق عددها، كانت مقتنعة بأنها قادرة على الفوز بسرعة فى الحرب ضد بضعة مستوطنين ليس لديهم جيش نظامى. لقد قلل العرب بلا أدنى شك، من شأن القوة والتصميم الإسرائيليين.

ثم إننا نعود دائما إلى نفس النقطة، وهى أنك تتعامل مع شعوب لم تكن قد دخلت بعد إلى الحداثة، شعوب ما زالت متخلفة، ولم تستطع أن تنظم نفسها عسكريًّا إلا بصعوبة. إن تنظيم تحالف يتطلب درجةً عالية من الدقة العسكرية وحرصًا على التوافق الزمنى، وهو ما لم يكن متاحًا للقيادات العسكرية العربية فى ذلك الوقت. وذلك بالإضافة إلى التنافس بين السعوديين والهاشميين، وإلى الطموحات الخاصة المختلفة.

أندريه فيرساي: في ٩ أبريل عام ١٩٤٨م، قبل إقامة دولة إسرائيل ودخول الجيوش العربية في حرب، قامت فرقة من الإرجون بالهجوم على قرية دير ياسين وذبحت سكانها، أي نحو مائتي شخص.

بطرس بطرس غالي: إنها عملية استهدفت التطهير العرقي، مثلما حدث فيما بعد في يوجوسلافيا، ولكن في يوجوسلافيا تم إدانته.

شيمون بيريز: لقد كانت مذبحة، ولكنها بكل وضوح وبشكل عام، قامت إيشوف بإدانتها بقوة. وبدون أي مواربة.

أندريه فيرساي: استغلت الإذاعات العربية الحدث إعلاميًا، وضخمت من بشاعة الوقائع «*من أجل حث الجيوش العربية للتدخل*». فيما بعد أعلن حازم نسيبة، الصحفي في إذاعة فلسطين قائلاً: «*لقد كانت أكثر أخطائنا مأساوية في عام ١٩٤٨ م. فمن الواضح أننا لم نفهم عقلية شعبنا. إذ في اللحظة التي عرف فيها السكان ما حدث في دير ياسين، أصابهم الذعر*».

أيًا كان الأمر، يبدو أن دير ياسين كان لها تأثير ضخم على السكان الفلسطينيين من جانب، حيث هرب جزء منهم، ومن جانب آخر على بعض الزعماء العرب، خاصة في مصر، حيث قرر زعماؤها التدخل أكثر في الحرب ضد إيشوف.

بطرس بطرس غالي: نعم، هذه المذبحة كان لها تأثير حقيقي في مصر، وهذا التأثير سيستمر طويلاً.

أندريه فيرساي: في الذاكرة الشعبية الغربية (حتى لدى المتعاطفين مع إسرائيل) ستظل دير ياسين مثل الوصمة على وجه المغامرة الصهيونية، حتى ولو قمنا بتبرئة الهاجاناه منها.

التاريخ الرسمي الإسرائيلي يزعم أن هروب العرب خارج فلسطين كان بسبب دعوة السلطات العربية لهم بمغادرة البلاد من أجل «إخلاء» المكان والسماح للقوات العربية بمحاربة اليهود. ولكن، منذ فتح الأرشيف الإسرائيلي، أعاد هؤلاء الذين أُطلق عليهم «المؤرخون الجدد»، وبني موريس أول هؤلاء المؤرخين، تناول هذا التاريخ الرسمي. وهكذا كشف بني موريس مسئولية الإسرائيليين في هروب العرب.

شيمون بيريز: لقد قرأت لهؤلاء المؤرخين، وما أستطيع أن أقوله لك بصفتي شاهد متميز رغم كل شيء، (حيث إنني في تلك الفترة كنت بجانب بن جوريون معظم الوقت)،

إن بن جوريون لم يعط أبدًا أوامر بالطرد من أى نوع. بل بالعكس، كان يرى أن إجبار العرب على مغادرة إسرائيل سيكون خطأ جسيمًا، وغلطة فاجعة. كان لبن جوريون أخلاقيات. وكان يعتبر أن الحرب يحكم عليها مرتين: مرة فى ساحة المعركة ومرة ثانية فى التاريخ. ولم يرد، مهما كان الثمن، أن يذكر التاريخ اسمه مصحوبًا بعمليات طرد للعرب.

وفى المقابل كانت الخطب الملتهبة التى تذيعها الإذاعات، والتى كانت تدعو العرب إلى مغادرة قراهم حتى *«نلقى باليهود فى البحر»*، لم تكن قليلة، وكان يحرض عليها الزعماء مثل مفتى القدس.

فمع كل ما حدث، وكما هو الحال فى كل الحروب، كان هناك بالتأكيد تجاوزات، ولكنها كانت نتيجة مبادرات منعزلة ومن مستويات دنيا، ولم تكن بناء على أوامر من السلطات العسكرية أو السياسية.

بطرس بطرس غالى: لا أتفق معك إطلاقا فى هذا التفسير. لقد أعدت علينا الرواية الرسمية التى تهدف إلى التغطية على عمليات التطهير العرقى التى انهمك فيها الجيش الإسرائيلى. كما ذكر أندريه فيرساى، لقد كان للمؤرخين الجدد الشجاعة للاعتراف بما ارتكبه الإسرائيليون. فلنحيى شجاعة الكاتب المؤرخ بنى موريس فى هذا الشأن.

أندريه فيرساى: كان للصهاينة هدف وهو بناء دولة تكون بصفة خاصة يهودية، وبما أن عدد اليهود فى إسرائيل لم يكن بعد كبيرًا، ألم يكن واضحًا للجميع أنه كلما كان عدد العرب أقل على الأرض، كان ذلك أفضل بالنسبة لمستقبل البلاد؟ ثم حتى ولو لم تكن الأوامر قد أعطيت بشكل واضح، ألم يكن هناك اتفاق صامت داخل الجيش؟

شيمون بيريز: حتى ولو كان ذلك صحيحًا، كيف يدل على أنه وقعت عمليات طرد أو ارتكبت مذابح؟ لقد ذكرت دير ياسين؛ ولكن دير ياسين كانت، والحق يقال، إحدى الاستثناءات الفريدة التى تؤكد القاعدة. أستطيع القول أن بن جوريون أراد، بقدر الإمكان، ألا يتم إسالة دماء العدو فى تلك الحرب بلا جدوى، وألا يتم تلويث السلاح.

أندريه فيرساى: أيبدو لك ذلك ممكنا؟ هل يمكنك تصور أنه من الممكن القتال بنظافة؟

شيمون بيريز: لا أقول إنه من الممكن أن تكون هناك حرب نظيفة، ولكنى أعتقد أنه من الممكن أن يكون من مبادئ المرء رفض القتال بقذارة. سيكون هناك دائمًا قذارة، ولكنها ستكون استثناءات، ونتيجة مبادرات شخصية، ولكن ليست أسلوبًا عامًا للسلوك العسكرى.

أندريه فيرساى: فى عام ١٩٤٩م، بعد انتهاء الحرب وتوقيع الهدنة، وجدت إسرائيل نفسها على أرض أكبر كثيرًا من تلك التى كانت الأمم المتحدة قد سمحت لها بها. ورغم ذلك فإن حدودها ليست إلا خطوط هدنة.

لقد استولت إسرائيل على ٦٣٠٠ كيلومتر مربع. وامتدت الدولة الجديدة على مساحة ٢٠ ألف كيلومتر مربع، ومع تدفق المهاجرين، وصل عدد سكانها ما بين ٨٥٠ و٩٠٠ ألف نسمة، منهم نحو ١٥٠ ألف عربى. يحيط بها أربع دول عربية معادية: مصر (مليون كيلومتر مربع و٢٠ مليون نسمة)، ولبنان (١٠ آلاف كيلومتر مربع و٢ر١ مليون نسمة)، وسوريا (١٩٠ ألف كيلومتر مربع و٣ ملايين نسمة)، والأردن (٩٧ ألف كيلومتر مربع و١٥٠ ألف نسمة). (يجب التنويه إلى أن الإحصاء السكانى فى العالم العربى فى ذلك الوقت لم يكن دقيقًا تمامًا).

كيف تعامل الإسرائيليون مع تنامى بلدهم؟ هل تصور البعض أن عليهم إعادة تلك الأرض، أم أن هذا الشكل الجيوبوليتيكى الجديد الذى يلغى الدولة الفلسطينية (مع «التواطؤ الموضوعى» لمصر والأردن لاحتلال كل من غزة والضفة الغربية) قد اعتبر أمرًا واقعًا فرضه التاريخ؟

شيمون بيريز: فى عام ١٩٤٩م، قدرنا أن خطة التقسيم لم تكن، بأى حال من الأحوال، قابلة للاستمرار؛ فمن ناحية، كانت الأراضى من الجانبين متداخلة بشدة، ومن ناحية أخرى، كنا بحاجة إلى حدود يمكن الدفاع عنها. وبدت لنا حدود الهدنة الجديدة مناسبة لنا أكثر من ترسيم الحدود الذى وضعته خطة التقسيم. لقد وافقنا على خطة التقسيم تلك، ولكن بما أنها لم تحترم من قِبَل العرب الذين هاجمونا، لم يكن لدينا أى حرج فى الإقامة داخل تلك الحدود الجديدة.

أندريه فيرساى: كيف رأت الدول العربية من جانبها، هذا الواقع الإسرائيلى الجديد الذى ولد من الهدنة؟ فى تلك الفترة - ولمدة طويلة قادمة- لم تعترف الحكومات العربية بالدولة الإسرائيلية (التى كانوا يصفونها بـ «الكيان الصهيونى»). هل كان العرب يعتقدون فى تلك الفترة أن إسرائيل مجرد دولة مؤقتة؟

بطرس بطرس غالى: نعم، كان هناك عدد كبير من العرب (وأيضا من غير العرب) الذين كانوا يعتقدون أن إسرائيل دولة قصيرة العمر، ستزول مثل مملكة الصليبيين، دولة مصيرها أن يبتلعها الانفجار السكانى العربى.

أندريه فيرساى: النتيجة الأكثر مأساوية لتلك الحرب الأولى هى تدمير المجتمع الفلسطينى ونشأة مشكلة اللاجئين، الذين كان عددهم يتراوح فى حدود الـ ٧٠٠ ألف شخص. هؤلاء سوف ينقسمون بين قطاع غزة (٢٠٠ ألف) والأردن (٣٥٠ ألف تقريبًا يقيم معظمهم فى الضفة الغربية) ولبنان (١٠٠ ألف) وسوريا (٦٠ ألف). نصف اللاجئين سوف يقيمون فى المدن والقرى الموجودة بالفعل، والنصف الآخر فى معسكرات. وأخيرًا، ترسيم خطوط الهدنة سوف يفصل بين أعضاء العائلة الواحدة.

كيف إذن، كانت العلاقات بين اليهود والعرب فى داخل هذه الدولة اليهودية الجديدة؟

شيمون بيريز: مع أخذ الظروف فى الاعتبار، كانت العلاقات أفضل ما يمكن. إذ رفضت الأقليات العربية تمامًا أن تكون طابورًا خامسًا، لذلك ظلت مخلصة للدولة. وذلك يفسر لماذا خضنا الحروب التالية بدون مشاكل داخلية كبيرة.

أندريه فيرساى: فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٤٨م، أعلنت اللجنة العليا العربية إقامة «حكومة لكل فلسطين» فى قطاع غزة الذى كان فى ذلك الوقت تحت السلطة المصرية، وبعد ثمانية أيام تم تشكيل مجلس وطنى فلسطينى. فى ذلك الوقت، دعا الملك عبد الله «المؤتمر الفلسطينى الأول» إلى الانعقاد فى عمان، حيث نافس بوجوده «حكومة غزة» التى أدانها. وفى الحقيقة، «حكومة كل فلسطين» لم يكن لها إلا وجود تقديرى بصفتها قسما فرعيا داخل جامعة الدول العربية حتى عام ١٩٥٩، حين قام ناصر بحلها رسميًّا.

كيف يمكن تفسير ذلك؟ وماذا يمثل الفلسطينيون بالنسبة للدول العربية؟

بطرس بطرس غالى: إن فكرة وجود سلطتين، كل سلطة منها تريد أن تكون ممثلة للفلسطينيين، ما هو إلا دليل إضافى لانقسام العالم العربى بين التيار الهاشمى والتيار المصرى ـ السعودى الذى ذكرته من قبل.

أندريه فيرساى: أى سيادة وأى حرية حركة كانت تتمتع بها هذه «الحكومة»؟ ألا ترى أننا فى وضع يمكن أن نطلق عليه تعبير «استعمارى»؟

بطرس بطرس غالى: لا، بكل تأكيد! فمن ناحية، لم تفكر مصر أبدا فى ضم تلك الأراضى، ومن ناحية أخرى، لم يشعر الفلسطينيون بأنهم يعاملون كشعب تحت الاستعمار: إننا هنا بصدد صراع داخلى «بين العرب». إن الأمر، حتى وإن كان من الصعب فهمه، حينما «تحتل»

أو «تحمى» دولة عربية، سكانًا أو دولة عربية أخرى، فإن ذلك لا يُعدّ بمثابة استعمار. ولكن بالعكس، عندما تقوم دولة غربية بـ «احتلال» أو «حماية» دولة عربية، فإن هذا الوضع يعتبر استعمارًا.

أندريه فيرساى: تريد أن تقول إنه لا يهم أن يكون الوضع استعماريًا من الناحية الموضوعية إن كان الشعب المستعمر لا يشعر بذلك؟ ذلك قد يفسر لماذا لا يحتج أحد ضد احتلال أراضى الفلسطينيين التى لم يقم الإسرائيليون بغزوها، سواء من الجانب المصرى أو من جانب الضفة الشرقية لنهر الأردن (التى أصبحت فيما بعد الأردن) وأنه كان يجب انتظار الهزيمة العربية فى عام ١٩٦٧م واستيلاء إسرائيل على تلك الأراضى حتى يبدأ الحديث عن «احتلال»؟

بطرس بطرس غالى: لأن الوضع مختلف تمامًا: فعلى عكس الإسرائيليين، لم يحاول المصريون ولا الأردنيون، ضم هذه الأراضى ودافعوا دائما عن الكيان الفلسطينى. كما كان وجودهم مبررا لمنع إسرائيل من التوسع.

أندريه فيرساى: ولكن الضفة الشرقية من نهر الأردن ضمت برغم ذلك الضفة الغربية لتصبح الأردن. أما بالنسبة لمصر، فقد ضمت عمليًا قطاع غزة. وعلى أية حال، فقد ظلت تلك الأراضى تحت الاحتلال خلال ما يقرب من عشرين عامًا.

بطرس بطرس غالى: ليس الأمر مماثلاً! فقد كانت السلطات الفلسطينية تتمتع باستقلال لا يمكن تصوره فى وضع احتلال. فقد كانوا يشاركون فى اجتماعات جامعة الدول العربية، وأقاموا علاقات دولية، ... إلخ.

أندريه فيرساى: كيف تفسر أن غداة الهدنة فى عام ١٩٤٩م، لم يتمكن الفلسطينيون الذين يعيشون فى مصر وسوريا ولبنان، من الحصول على جنسية هذه البلاد وعوملوا كمواطنين درجة ثانية؟ أما بالنسبة لعمان، فقد منحت الجنسية للفلسطينيين الذين هاجروا إلى المملكة الهاشمية. ورغم ذلك، لم يكن وضع الفلسطينيين فى الأردن- حتى ولو كانوا يمثلون أغلبية- مثاليًا؛ فقد كانوا ممنوعين من الاشتراك فى مجموعات القتال فى الفرقة العربية، وكان من الصعب عليهم الحصول على مناصب عالية فى الإدارة المدنية. ما الذى يفسر عدم استقبال الدول العربية للمهاجرين الفلسطينيين بشكل أفضل؟

بطرس بطرس غالى: لنأخذ حالة مصر: لم يكن الفلسطينيون يعاملون كمواطنين درجة ثانية، ولكن كعرب مغتربين. لقد كانت غزة تعتبر دولة أخرى، فلم يكن سكان غزة يستطيعون

أن يقيموا بحرية فى القاهرة أو فى الإسكندرية، إلا مثلهم كمثل السوريين أو اللبنانيين. كان من الممكن وبكل سهولة ضم غزة إلى مصر، ولكننا حرصنا على الاحتفاظ بهذا القطاع كيانا مستقلا، ليكون نواة للدولة الفلسطينية.

كما لا نستطيع القول أن الفلسطينيين كانوا يعاملون كمواطنين درجة ثانية فى الأردن. فإلى اليوم، وبعد أن تخلت الأردن عن سيادتها على الضفة الغربية، فإن التمثيل الفلسطينى فى البرلمان ما زال قويًا، وهناك وزراء من أصل فلسطينى. كما يجب التنويه إلى أن ملك الأردن الحالى متزوج من فلسطينية كما فعل والده من قبل.

أندريه فيرساى: هل تعتقد أن زواجا ملكيًا يمكن أن يكون ذا دلالة بالنسبة لحالة شعب؟

بطرس بطرس غالى: إننى أعطيك هذا المثل، من بين أمثلة أخرى، لأوضح لك أنه ليس هناك أية علاقة لها صفة استعمارية بين الشعبين. هل كان من الممكن تخيل، على سبيل المثال، أن يتزوج الرئيس الفرنسى رينيه كوتى أو الجنرال ديجول من جزائرية؟

أندريه فيرساى: رغم ذلك، ما الذى يفسر عدم اهتمام العالم العربى بالفلسطينيين حتى عام ١٩٦٧م؟

بطرس بطرس غالى: الاستعمار مرة أخرى ودائما: فى الخمسينيات والستينيات .. كانت معظم دول العالم العربى ما زالت محتلة. وفى هذا الإطار، كان كل شعب عربى يقاتل أولا من أجل نفسه. من البديهى أن ينشغل الجزائريون، الذين كانوا فى حرب تحرير ضد فرنسا، بتحررهم قبل أن يفكروا فى فلسطين. ونفس الشىء بالنسبة للثورة الناصرية فى عام ١٩٥٢م التى كانت لابد وأن تركز بشكل كامل على النهوض بمصر. كما أن العالم العربى لم يكن يتمتع بالاستقرار، فكانت بعض الدول فى صراع: كانت هناك مواجهات عسكرية بين الجزائر والمغرب فى عام ١٩٦٣م، ثم كانت هناك قضية الصحراء، ... إلخ. لذا، وحسبما فرضت الأوضاع، انتقلت القضية الفلسطينية إلى مرتبة ثانوية.

أندريه فيرساى: اليوم نتحدث عن ضرورة بناء دولة فلسطينية على نفس تلك الأراضى التى كانت مصر والأردن تحتلها من قبل، فلماذا لم تقم دولة فى عام ١٩٤٩م، بينما لم يكن هناك ما يعارض؟

بطرس بطرس غالى: فى عام ١٩٤٩م، ونظرًا للاختلال فى التوازن بين مليون يهودى ومائة مليون عربى، تصور العرب أنه يكفى الانتظار، وأنه حتما خلال سنوات قليلة سيتم

اكتساح الدولة اليهودية. وفى التخيل العربى، وحتى اليوم، ما زال هناك الأمل فى «إغراق» الدولة اليهودية فى بحر عربى إسلامى. إن هذا هو شعار جبهة الرفض. فيرى العرب أن الديموغرافيا ستلعب دورًا لصالحهم. وما عليهم الآن إلا المقاومة والانتظار.

اليوم، يقبل غالبية الفلسطينيين فكرة التخلى عن دولة تقام على كافة أراضى فلسطين. فى عام ١٩٤٩م، كانت هذه الفكرة لا يمكن تصورها. فى هذا الوقت، كان رفض العرب لإسرائيل كاملاً، وإقامة دولة فلسطينية على أرض أصغر من تلك التى أقرتها خطة التقسيم، يقر وضعا لم يكن من الممكن أن تعترف به أية دولة عربية. كان تحرير فلسطين بالكامل يسبق إقامة الدولة الفلسطينية. وهو ما يفسر لماذا لم يتم توقيع معاهدات سلام بعد اتفاقيات الهدنة. فمنذ ذلك الوقت، عزل الخصوم أنفسهم داخل مواقف رافضة للآخر وهو ما منع أى نوع من الحوار؛ فالعرب من جانبهم لم يعترفوا بالدولة الإسرائيلية، التى لم تظهر على أية خريطة عربية؛ والإسرائيليون من جانبهم لم يعترفوا بوجود الشعب الفلسطينى.

أندريه فيرساى: غداة الحرب العالمية الثانية، رأينا عمليات ضخمة لنقل السكان. ٢٢ مليون شخص فى أوروبا وحدها، وقيل إن ذلك يتم لتجنب مشكلة الأقليات القومية التى سممت العلاقات الدولية فى فترة ما بين الحربين. فى هذا الوقت، كان القرار يبدو حكيمًا (وبالفعل، تمتعت تلك الدول، التى أصبحت نسبيًا أكثر تجانسًا عنها فى الماضى، بهدوء أكبر). اليوم، نتحدث عن «تطهير عرقى». أيًا كان الأمر، خلال بضعة سنوات هؤلاء الملايين من اللاجئين سيعودون إلى «الحياة الطبيعية». ما الذى منع منذ ما يقرب من خمسين عامًا، انتشال غالبية الفلسطينيين من وضعهم كلاجئين ؟

بطرس بطرس غالى: كان ذلك مقصودًا. كانت الديموغرافيا هى سلاح العرب السرى، وقنبلتهم الذرية. إنه أحد الأسباب التى دفعت مصر إلى الإبقاء على الفلسطينيين فى غزة، فى أراضى مغلقة. نشرت جامعة حيفا تقريرًا أوضح أنه مع حلول عام ٢٠١٠م ستصبح نسبة العرب ٥٣٪ من إجمالى عدد سكان إسرائيل (بما فيها الأراضى العربية المحتلة).

أندريه فيرساى: يبدو أنه بعد حرب ١٩٤٨م، كان هناك تصور فى العالم العربى، وكذلك فى إسرائيل، أن هناك جولة ثانية. إلى أى مدى كان العرب مستعدين لصراع مسلح من أجل «إنقاذ الكرامة العربية»، و«إزالة آثار العدوان الصهيونى» و«تحقيق العدالة للشعب الفلسطينى»؟

بطرس بطرس غالى: سوف أجيب عليك، بأنه قبل عام ١٩٥٢م، كان المسئولون المصريون منقسمين بين اتجاهين: هؤلاء الذين يريدون الاستمرار فى الحرب ضد إسرائيل، وهؤلاء الذين يرون أن مشاكل مصر الأساسية تكمن فى علاقاتها مع السودان وفى إدارة مياه النيل. مع مجىء ناصر، أصبحت الأمور أكثر وضوحًا: الحرب ضد إسرائيل ستعود مرة أخرى إن آجلاً أو عاجلاً.

أندريه فيرساى: من الجانب الإسرائيلى، لم يزعم أحد أن بن جوريون يتصور أنه قد يكون أضاع فرصة احتلال كل فلسطين فى فترة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، وأنه ينتظر ذريعة أو مبررًا من أجل العودة إلى حمل السلاح و«إنهاء المهمة».

شيمون بيريز: إننا بصدد تاريخ افتراضى تماما، لا يستند على أى شىء متين. أذكرك أنه فى فترة حرب الاستقلال استطعنا احتلال العريش فى مصر، وأمر بن جوريون قواتنا بالانسحاب منها. هذه الفكرة التى تردد أننا كنا نبحث عن ذريعة أو ننتظرها، من أجل العودة إلى حمل السلاح غير صحيحة بالمرة. بالإضافة إلى أن فى بداية الخمسينيات، كنا نواجه مشاكل ضخمة خاصة باستقبال المهاجرين اليهود القادمين أساسًا من العالم العربى. وأستطيع أن أؤكد لك أن هذه القضايا الملحة طغت على تفكيرنا بشدة بحيث إنها لم تترك لنا رفاهية التفكير فى العودة إلى حمل السلاح و«إنهاء» هذه «المهمة» التى تتحدث عنها.

* * *

٣- إنهاء الاستعمار وبروز العالم الثالث

سقوط فاروق - قدوم ناصر - إسرائيل تريد كسر الحظر - علاقات فرنسية/ إسرائيلية وثيقة - ناصر في باندونج: مناصرة العالم الثالث و«عدم الانحياز» - إسرائيل والعالم الثالث - مساندة ناصر للجزائريين.

أندريه فيرساى: فى يولية عام ١٩٥٢م أسقطت مجموعة من العسكريين الذين أطلقوا على أنفسهم لقب الضباط الأحرار، ملك مصر، فاروق عن العرش. كان على رأسهم محاربين قدامى فى حرب ١٩٤٨م: نجيب وناصر والسادات. لماذا هذا الانقلاب؟ وما هو المشروع الاجتماعى الذى حمله هؤلاء الضباط؟

بطرس بطرس غالى: كان الضباط الأحرار تحركهم كراهيتهم للاستعمار والإقطاع والفساد الذى اعتبروه، مع حالة الخراب التى وصل إليها الجيش، السبب فى هزيمة ١٩٤٨م. ناصر، الذى شارك فى المعارك، عاد من الجبهة وداخله شعور مرير بالخيانة. فى البداية، أراد الضباط الأحرار تطهير البلاد، وفى نفس الوقت، استعادة مكانة الجيش.

أندريه فيرساى: ما أثار الدهشة فى هذا الانقلاب، هو «النعومة» التى تم بها إسقاط الملكية؛ فقد توسلوا فعليا إلى الملك لكى يغادر المكان. يمكن حتى التحدث عن «انقلاب مخملى». أقل ما يمكن قوله هو أن الضباط الأحرار لم يكن لديهم عقلية البلاشفة. كيف كان العالم العربى يرى هذا الانقلاب العسكرى؟

بطرس بطرس غالى: كانت الدول العربية الأخرى، المحافظة بوجه عام تنظر إلى هذا الانقلاب بقلق بالغ. ولكنه كان فى نفس الوقت، يثير تعاطفًا كبيرًا وأملاً بين غالبية الشعب المصرى الذى وعى بأن ثورة حقيقية قد حدثت؛ فلم يتم فقط طرد الملك من البلاد، ولكن

أيضـا، رجال من الشـعب هـم الذين باتوا يملكون زمـام الحكم. ولقد تعهـد هؤلاء الرجال بإجراء إصلاحات، وإنهاء النظام الإقطاعى ومصادرة الأراضى من الأغنياء من أجل توزيعها على الفقراء. ولقد تم إبعاد كل رجال النظام السابق من السلطة، وسجنهم وحرمان معظمهم مـن ممارسـة حقوقهم السياسـية. لذا كان على رجـال من جيلى أن يأخـذوا زمام الأمور فى البـلاد. لاح إذن أمـام هـذا الجيـل الأمـل فى لعـب دور داخل الأمـة، مما أثـار حماس كل الطبقات الاجتماعية؛ حيث كان الشعب المصرى يضم فى ذلك الوقت أغلبية من الشباب.

فى الخارج، تعاطفت واشنطن مع الانقـلاب؛ لأن الرغبـة المعلنـة للضبـاط الأحرار فى إعادة النظام إلى البلاد وتطهيرها قد أكسبتهـم مساندة الأمريكيين والرأى العام الغربى.

شـيمون بيريز: كان الأمريكيون يتابعون باهتمام سـنوات ناصر الأولى، وحاولوا كسـب تعاطـف الرئيس الشـاب. لـذا رأينا وزيـر الخارجية الأمريكى فوسـتر دالاس، يقـوم بزيارة إلـى القاهرة، ويقـدم إلى ناصر، من بين الهدايا، مسدسـا من الفضة. هـذا الموقف أكد رأينا الخاص بتوجه واشـنطن الموالى للعرب، والذى سـيذهب إلى حد محاولة كسـب ودّ دعاة هـذا «الطريق الثالث» الخاص بالعالـم الثالث وهم نهرو وتيتو وناصـر. كان التحدى كبيرًا، وفى مواجهته لم يكن لإسرائيل وزن كبير.

أندريـه فيرسـاى: خلال هـذا الوقت، عكفت الحكومة الإسـرائيلية علـى دعم الاقتصاد الوطنـى ونشـر المثل الصهيونى الأعلى بين يهود الشـتات، بهدف دفـع أكبر عدد ممكن من اليهود، وفى *أسرع* وقت، للهجرة إلى إسرائيل.

شـيمون بيريـز: نعـم. مـع ذلك، شـهدت السـنوات التـى تلت حـرب الاسـتقلال أزمة اقتصاديـة، وهـو ما لم يسـهل بالمرة عملية اسـتقبال المهاجرين الذين كانـوا يصلون بأعداد كبيـرة (وصـل عددهم إلى ٢٠٠ ألف فى العـام)، وكان علينا توفير السـبل لإقامتهم. كنا فى حاجة ملحة إلى المال، إلى حد أننا فكرنا فى خفض ميزانية الدفاع.

لذلك، استرعى اهتمامنا قيام الضباط الأحرار بالاستيلاء على السلطة. كان للطريقة التى تخلصـوا بها من الملك فاروق، وقع طيب فى نفوسـنا. وكما ذكرتَ الآن، أنها كانت عكس مـا كان يحـدث عادة فى عمليات الانقلاب الأخرى؛ فالملك لم يُقتل، ولكن طرد من البلاد مع محظياته وممتلكاته. وأستطيع أن أصف هذه الطريقة للاستيلاء على السلطة، بأنها طريقة «راقية».

أمـا بالنسـبة لناصر؛ فقـد بدا لنا فى البداية رجـلاً له ملامح الزعامة، يهتم برفاهية شـعبه، واعتقـد بـن جوريون أنه سـوف يكـون علينا التعامـل معه وربمـا أيضا التوصل إلى سـلام. ولقـد حـاول فى أكثر من مناسـبة الاتصال بالريس، خاصة من خلال تيتـو، الذى اقترح عليه بـن جوريون تنظيم لقاء. ولكن رد تيتو كان بالرفض القاطع، لأنه كان يعلم أن ناصر لن يقبل أبدا مقابلة مسـئول إسـرائيلى. ثم تم إيفاد وزير أمريكى سـابق، آندرسـون، فى مهمة سـرية لمقابلـة الريـس. ومرة أخرى تـم إيفاد صحفى بريطانى كبير لجس نبـض الرئيس المصرى. ولكن فى كل مرة كان ناصر يرفض أية فكرة للاتصال مع إسرائيل. وفى الحقيقة، كان ناصر واثقا بأنه إذا أجرى مباحثات فهو يخاطر بحياته.

بعد ذلك، أراد ناصر تسليح بلاده، ثم أراد زيادة تسليحها، وهو ما بدا يثير فينا القلق.

أندريه فيرسـاى: بالنسـبة لناصر والضباط الأحرار، هل كانت الحرب ضد إسـرائيل مرة أخرى، هى موضوع الساعة؟

بطـرس بطرس غالى: نعم، لقـد أعلن الضباط الأحرار من البداية أنهم أسـقطوا الملكية لأنها خسـرت الحرب بسـبب الفسـاد الذى نخر عظام الجيش. كان ناصر يؤيد فكرة انتقام عسكرى وإن لم يقل ذلك صراحة.

ولكن مع ذلك، ففى البداية أعلن ناصر أنه مهتم بصفة خاصة بقضية الإصلاح الزراعى، وهو ما أكسبه شعبية مؤكدة، لأن كل مصر لم تكن تتحدث إلا عن ذلك: كبار الملاك، (منهم عائلتى) شعرت أن ممتلكاتها تغتصب منها، بينما كان الفلاح يحلم بإعادة توزيع الأرض.

أندريه فيرساى: ما السبب الذى جعل السوفييت، الذين ساندوا إيشوف ثم دولة إسرائيل عند مولدها، يديرون ظهرهم بعد وقت قصير للدولة اليهودية ليقفوا بجانب العرب؟

بطرس بطرس غالى: أعتقد أن أحد الأسـباب التى دفعت الاتحاد السوفيتى للتحول عن إسـرائيل والتقرب من العرب يرجع إلى تبعية إسـرائيل الكاملة للـدول الغربية- ذلك فضلا عن الروابط الخاصة التى تربطها مع الولايات المتحدة، خاصة من خلال ممثليها من اليهود الأمريكيين الذين يعيشون فى الشتات.

شـيمون بيريـز: السـؤال لا يطـرح بهذه الطريقـة. إن الحـرب الباردة كانت أساسـا حربا أيديولوجيـة: فكان الأمريكيون مقتنعين بأن الديمقراطية سـوف تنتصر فى النهاية، بينما كان السـوفييت على ثقة بأن الشيوعية هى مسـتقبل العالم. لذا، فإن المعركة لم يكن الهدف منها

توسيع الأراضى، ولكن انضمام أيديولوجى، وكان كل من المتنازعين يعتبر أن عدد هؤلاء الذين انضموا إليه دليل للعالم على انتصار أيديولوجيته.

لذلك، أعتقد أن السوفييت استخدموا إسرائيل من أجل جذب العرب إلى معسكرهم: «ابتعدوا عن الغرب، ونحن سوف نتخلى عن إسرائيل وسنسلحكم بلا حدود». وبالفعل، توجه الاتحاد السوفيتى الذى بدأ بمساندتنا، إلى التقرب من العرب عن طريق بيعهم أسلحة تساوى مليارات الدولارات بالتقسيط وعلى المدى الطويل.

لذلك، اتجه ناصر إلى الكتلة الشيوعية من أجل دعم التسليح. وفى سبتمبر عام ١٩٥٥م، تم توقيع اتفاقية بشأن صفقة سلاح بين مصر وتشيكوسلوفاكيا. هذه الاتفاقية ضمت أعدادًا كبيرة من الدبابات والمدافع، وطائرات مطاردة وقاذفات، مما أدى فجأة إلى تهديد توازن القوى فى المنطقة. وضعت صفقة الأسلحة الكبرى لمصر موقفنا فى خطر؛ لأن السلاح الذى لدينا لم يكن كافيًا، من حيث الكم ومن حيث الكيف ومن حيث النوعية لمواجهة التهديد.

الاتفاق الثلاثى بين واشنطن ولندن وباريس الذى أصدر قرارا بحظر بيع السلاح إلى الشرق الأوسط كان مازال ساريا.

أندريه فيرساى: كيف تفسر أن الولايات المتحدة التى ساندت المطالب الصهيونية، رفضت فيما بعد بيع أسلحة إلى دولة إسرائيل؟

شيمون بيريز: أعتقد أن السبب يعود أيضا إلى الحرب الباردة؛ فقد كان العالم فى ذلك الوقت منقسما إلى كتلتين، وكانت كل كتلة منهما قد ارتبطت بمعاهدات عسكرية. كانت الأولوية بالنسبة للولايات المتحدة هى محاربة نفوذ الاتحاد السوفيتى، وكانوا يغمرون حلفاءهم بالأسلحة من أجل حمايتهم من الشيوعية. ولكن، الخطر الذى يهدد إسرائيل، لم يكن له صلة بالشيوعية، لذا لم يشعر الأمريكيون أن عليهم دعمنا بشىء آخر غير الدعم السياسى (وفيما بعد المالى) دون عقد اتفاقيات عسكرية معنا. بالإضافة إلى أن العديد من الدول العربية مثل الأردن والعراق وبعض الإمارات العربية، كانوا فى هذا الوقت أقرب إلى بريطانيا منهم إلى الاتحاد السوفيتى، ذلك بالإضافة إلى السعودية التى كانت ترتبط ارتباطا وثيقا مع واشنطن. أما بالنسبة لمصر، ففى بداية الخمسينيات لم تكن بعد قد انضوت تحت لواء الاتحاد السوفيتى، بل كانت تتجه نحو «عدم الانحياز». وحتى لو كان «عدم الانحياز»

معاديًا للغرب الرأسمالي، فقد كان الغموض الذى يكتنف ذلك المذهب يجعل العالم العربى يقف على بعد من المعسكر السوفيتى، على الأقل فى الظاهر.

أندريه فيرساى: ترك بن جوريون السلطة فى عام ١٩٥٣م، وحل محله وزير الخارجية موشيه شاريت. أمضى شاريت طفولته بين العرب، وكان يسعى لأن يغير موقف إسرائيل إزاء جيرانها العرب. وبما أنه كان يرى أن السلام هو أفضل وسيلة لاكتساب الأمن لإسرائيل، فقد حاول موشيه شاريت إقامة اتصالات غير رسمية مع ناصر حتى يخفض حدة التوتر بين البلدين ويعمل على فتح الطريق أمام المفاوضات.

منذ ذلك الحين، بدأت تتعمق الفجوة بين «النشطاء» من ناحية مثل بن جوريون، الذين كانوا على ثقة من أن العمليات الانتقامية كانت حتمية وأن فقط إظهار القوة سيدفع العرب إلى وضع حد لهجماتهم، ومن ناحية أخرى «المعتدلين» أمثال شاريت، الذين كانوا يفضلون الرد التدريجى على هجمات الإرهابيين، التى يشكون فى فاعليتها. بعد مرور الوقت، كيف تحكم على هذين الموقفين؟

شيمون بيريز: لنقل إن رغبته فى الرهان بأى ثمن على حسن نية مفترضة من العرب، قادت موشيه شاريت إلى التقليل من شأن رفضهم العميق لوجودنا. لذلك كان من الطبيعى أن يوجه كل جهده نحو إقامة اتصالات سرية مع ناصر، بدلا من تقوية أمن البلاد من خلال الوسائل العسكرية. ولكن على العكس، لم يكن بن جوريون أو ديان أو أنا، أو آخرون كثيرون، يثقون على الإطلاق فى ناصر، الذى أظهر عداءه فى كلامه كما فى أفعاله.

أندريه فيرساى: ألا تعتقد أن التزمت الذى أبداه بن جوريون والمقربون منه، مثلك، كان عائقا أمام فتح طريق التقارب مع مصر؟

شيمون بيريز: بصراحة، لا أعتقد. فأنا لا أرى فى تاريخ ناصر الفعلى ما يمكن أن يجعلنى أتصور أن لديه رغبة فى إقامة السلام. لقد كان العالم العربى فى هذا الوقت- ولمدة طويلة قادمة- يرفض تماما وجودنا. فكما شرح بطرس، لقد كان العرب ينظرون إلينا كواقع استعمارى (وهو ما لم يكن صحيحا)، بالإضافة إلى كوننا يهود، وهو ما لم يكن محتملا بالنسبة للعرب الذين عرفوا اليهود دائما كشعب يقع تحت السيطرة. يجب أن نتذكر الحالة الذهنية التى سيطرت على العرب فى الخمسينيات والستينيات: لم يكن هناك أية ثغرة فى الجبهة المتحدة ضدنا (باستثناء طبعا موقف الرئيس التونسى بورقيبة فى الستينيات، موقف فريد من نوعه ومعزول فى الوقت نفسه). لا يدهشك بالطبع أننا نفضل أمننا قبل أى شىء

آخـر، بعد سـنوات قليلـة من الإبـادة الجماعية. إننـا لا نتخيـل أن تعتمد حياتنـا على مجرد احتمـالات وجود «رغبة فى السـلام» من البلاد العربية التى كانت، مـن ناحيتها، على درجة عالية من التسلح.

أندريه فيرسـاى: بالتأكيد، ولكن هل كانت القيادات العسـكرية العربية قادرة على تهديد إسرائيل؟

شيمون بيريز: الخطر لم يكن على الإطلاق وهما، فذهبت حكومتنا إلى حد إصدار قرار بأن يقوم الشـعب كله بالمسـاهمة مؤقتا فى دعـم التحصينـات. فتحولت البلاد إلى وطن من المتطوعين: شباب وشيوخ، عمال وتجار، مهنيون وربات بيوت، موظفون ووزراء وطلاب، الجميع اعتبروا أنفسهم متطوعين يبنون بالمعول والفأس مشروعات دفاعية.

ولكن رغم ذلك، ظللنا فى عزلة. لذا قررنا الحصول على أسلحة بأى وسيلة: من إيطاليا إلى كوبا، من أى مكان كان.

أندريه فيرساى: وكنت أنت المسئول عن إيجاد الأسلحة..؟

شـيمون بيريـز: نعـم، لقد قام بـن جوريون بتعيينـى نائب مدير عـام ثم مدير عـام وزارة الدفاع، وكلفنى بمهمة إعادة تنظيم جميع الخدمات. كان علينا تحديث تسليحنا والحصول علـى دبابـات وطائرات ومدافع. إن ذكريات المصاعب التـى قابلتنا، ما زالت أليمة؛ فخلال حرب الاسـتقلال، لم تحصل بعض الوحدات على بنادقها إلا وهى فى طريقها إلى الجبهة. كان علينا إذن تصحيح هذا النقص بإعداد أنفسنا عسكريا لاحتمالات حرب جديدة.

كان السؤال هو من الذى سيمدنا بهذه الأسلحة؟ فكرت وزارة الخارجية فى الأمريكيين؛ لاعتقادهـا بـأن الولايات المتحدة ستسـتطيع التخفيف من سياسـة الحظـر. ولكننى لم أكن مقتنعا بذلك، بالإضافة إلى أن الكونجرس كان قد أصدر وقتها قانونًا ينص على أنه إذا قامت الولايات المتحدة ببيع سلاح إلى دولة غير عضو فى حلف الأطلنطى، فإن الإدارة الأمريكية تحتفظ بحق مراقبة اسـتخدامه. وإسـرائيل كانت معنية بهذا القانون، وأدركنا أنه إذا اشـترينا سلاحا أمريكيا، فسوف نفقد أيضا حريتنا فى الحكم والتحرك.

لذلك كنت أفضل فرنسـا، التى كان أحد أهم مبادئ سياسـتها الخارجية فى هذا الوقت، هـو الاعتمـاد المتبـادل، وهو شـكل من أشـكال التحالف الـذى كنت أفضله عـن الاعتماد المباشر على أمريكا. لذا قررت مقابلة مسئولين فرنسيين.

أندريه فيرساى: فرنسا سوف تساعد إسرائيل بقوة. ما الذى يفسر اهتمام فرنسا بأن تعيركم أذنا صاغية؟

شيمون بيريز: فى الخمسينيات كانت إسرائيل تحظى بشعبية كبيرة فى فرنسا، فى الطبقة السياسية كما فى الإعلام، وطبقة المثقفين والشعب عامة (ذلك سيتغير كثيرا، وقد تكون لاحظته..). بالإضافة إلى أن عددا كبيرا من أعضاء المقاومة القدامى، مثل: موريس بورجيز - مونوريه وآبيل توما وبول رينو وجاك شابان ديلماس والجنرال مارى بيير كونيج وأندريه مالرو، كانوا فى مناصب قيادية فى الدولة، كان واضحًا أن هؤلاء يتعاطفون معنا، إذ كنا نحارب من أجل البقاء (كان أندريه مالرو أحد أقوى المؤيدين لإسرائيل: فخلال أحد لقاءاتنا قال لى إنه لو كان أصغر سنا، لكان اشترك فى القتال معنا فى حرب الاستقلال). مرت الأمور وكأنهم كانوا مسئولين نوعًا ما عن وجودنا. ولأن الاشتراكيين كانوا فى السلطة فى فرنسا وفى إسرائيل فى آن واحد، فقد اشتركنا فى رؤية واحدة للعالم، وكان لدينا فرص كثيرة للقاء خلال اجتماعات الاشتراكية الدولية.

أندريه فيرساى: هل لعبت الجالية اليهودية فى فرنسا دورًا فى هذا التقارب؟

شيمون بيريز: لا، على الإطلاق. قبل بدء العصر الذهبى فى العلاقات بين إسرائيل وفرنسا، كان أغلبية اليهود الفرنسيين يشعرون بالاندماج فى المجتمع الفرنسى. ولم يعيروا إسرائيل إلا اهتمام ضعيف ومن بعيد، والبعض كان يذهب إلى حد إخفاء يهوديته. وفى مفارقة غريبة، لم تكن الجالية اليهودية هى التى ساعدت على إجراء اتصال بين الحكومتين، كما كان يمكن أن نتوقع، ولكن بالعكس، التقارب الفرنسى - الإسرائيلى هو الذى أيقظ لديهم روح النضال.

أندريه فيرساى: كيف سار هذا التقارب من الناحية العملية؟

شيمون بيريز: ذهبت إلى فرنسا فى عام ١٩٥٤ والتقيت بجميع زعماء الأحزاب السياسية المختلفة بدون استثناء. وشرحت لهم كيف أن إسرائيل دولة صغيرة مستقلة مهددة من جيرانها المعادين لوجودها بالكامل، وفى حاجة إلى سلاح من أجل ضمان بقائها. ولا نطلب إلا شيئًا واحدًا: أن تؤدى فرنسا دورًا فى إعادة التوازن للتسلح فى الشرق الأوسط. وإن لم يحدث ذلك بشكل عاجل فإن الخلل فى التوازن سيزيد لصالح العرب الذين هم، مستمرون فى التسلح: مصر بواسطة تشيكوسلوفاكيا (إذن عبر موسكو)، والعراق عبر لندن.

فـى البداية، رفض عدد من الزعماء فهم أهمية العجلة والخطورة فى وضعنا. ولكن دان لـى الحـظ فى مقابلة آبيل تومـا، مدير عام وزارة الداخلية، الذى قدمنـى إلى وزيره، موريس بورجيز-مونورى، الذى كان مسئولا أيضا عن الشئون الجزائرية. ونظرا للوضع الصعب فى الجزائـر، كان بورجيز-مونورى والمحيطون به يهتمون بشـكل خاص بكل ما يتعلق بالعالم العربـى. مع حرب الجزائر، تكاتفـت جهودنا لمواجهة عدو عربى واحـد. ومن الطبيعى أن تتعمق علاقاتنا إلى حد وضع أسس للتعاون فى أجهزة المخابرات فى بلدينا لمحاربة عدونا المشترك المصرى سرًا.

جـاءت انتخابـات عـام ١٩٥٦م بالاشـتراكيين إلـى الحكـم، وتولـى جى موليه رئاسـة الحكومـة، وبورجيز-مونـورى تولـى وزارة الدفـاع. ولقـد قمت بشـرح موقفنـا للحكومة الجديدة، ووصلنا إلى اتفاق سرى يقضى بأن يمدنا الفرنسيون بالأسلحة التى نحن فى حاجة إليها. مع حكومة جى موليه بدأ عصر من التعاون الوثيق الفرنسى- الإسرائيلى. هذا التعاون سـمح لنا، من خلال إعادة التوازن بين القوى المتصارعة فى الشـرق الأوسط، بالتوصل إلى حل الجزء الأكبر من مشاكلنا الخاصة بالأمن.

أندريه فيرساى: ولكن رغم ذلك، كانت وزارة الخارجية تتجه تقليديا إلى سياسة، يمكن وصفها بسرعة بأنها قريبة من العالم العربى.

شيمون بيريز: نعم، منذ الصليبيين، كانت وزارة الخارجية الفرنسية تطبق سياسة «الوجود الفرنسـى فى الشام» (لاحظ أنهم فى فرنسا يتحدثون عن «الوجود»، بينما فى إنجلترا يقرون بـ «مصالح التاج»)؛ السـيطرة على شـمال إفريقيا، حفر قناة السـويس، تأثير قوى فى مصر، انتداب فى سوريا ولبنان، وفى كل هذه المنطقة، تغلغل الثقافة الفرنسية.

فضلت وزارة الخارجية انتهاج «سياسـة متحفظة» فى الشـرق الأوسـط، وهو ما انطوى عليه خفض مد الأسلحة لكل الأطراف المتصارعة. فكانت تتصور أنها تملك رؤية «مترفعة» للجيوبوليتيـك (فـى حقيقة الأمر كانت رؤية مجـردة إلى حد ما). بينما كانـت وزارة الدفاع تنظر إلى الأمور بنظرة أكثر عملية بسـبب حرب الجزائر. ولكن، حتى لا نضر بسياسـة وزارة الخارجية، تم الإبقاء سرا على اتفاق التعاون بيننا.

لأكون صادقا تماما، أضيف بأن تردد الخارجية كان مفهوما من حيث إن العملاء السريين البريطانيين كانوا يقومون بكل ما فى وسعهم لزعزعة الموقف الفرنسى فى تلك المنطقة التى تدخل فى مجال السيطرة الإنجلو ساكسونية.

أندريه فيرساي: في نفس الوقت، شهدت الخمسينيات تسارع نهاية الاستعمار وبروز أيديولوجيا العالم الثالث. في عام ١٩٥٥م، عقد في باندونج المؤتمر الإفريقي الأسيوي لدول عدم الانحياز. هذا المؤتمر سجل ظهور العالم الثالث، ومولده السياسي. حتى إن ليوبولد سيدار سنجور تحدث عن باندونج معتبرًا إياه: «الحدث الأهم منذ عصر النهضة..».

بطرس بطرس غالي: قد يكون هناك مبالغة في الصياغة، ولكنها كانت على مستوى الأمل الضخم الذي أثاره المؤتمر لدىً ملايين البشر من المحرومين: العالم الثالث بدأ يلعب أخيرًا دورًا على الساحة الدولية.

في هذا الوقت، اعتبرت باندونج المكان الذي ولد فيه عالم جديد. ولقد أَلقيتُ عشرات المحاضرات قلت فيها إنه إن كانت الحرية قد بزغت في الغرب في العالم الرأسمالي، والمساواة في الشرق في العالم الشيوعي، فإن الإخاء قد تم تناسيه. هذا الإخاء هو ما سوف نجسده، نحن دول العالم الثالث: لا يهم أن تكون مؤسساتنا ضعيفة، إذا كنا سنتجاوز ذلك بالإخاء!

أندريه فيرساي: وهل كان هناك إيمان بذلك، في هذا العهد؟

بطرس بطرس غالي: نعم، وكنت أنا أول من آمن به.

أندريه فيرساي: رغم ذلك، بين أقطاب باندونج، سنجد في الصفوف الأولى، رئيس وزراء الصين شوين لاي، الذي يمكن لومه على كل شيء، باستثناء إفراطه في مشاعره الأخوية.

بطرس بطرس غالي: بالتأكيد. ولكنني لم أكن أتحدث عن شوين لاي. سوف تتنامى أيديولوجيا العالم الثالث بين شباب العالم العربي والإفريقي، الذي قدمنا له أخيرًا أفكارًا جديدة، قادرة على حشد طاقاته بشكل رائع!

أندريه فيرساي: وفي إسرائيل، كيف كنتم ترون باندونج؟

شيمون بيريز: مثل الخدعة، بالطبع! من جهة أخرى، لا أعتقد أن العرب وضعوا في أولوياتهم النضال ضد الاستعمار. بالنسبة لهم كانت المعركة تدور حول إزالة الدولة اليهودية. لذلك وافقوا على المشاركة في حركة باندونج مقابل مقاطعة إسرائيل. كانت هناك صفقة «شيء مقابل شيء آخر»: *« ناضلوا بجانبنا ضد الدولة اليهودية التي تدرجونها بين*

الدول الإمبريالية والاستعمارية، ونحن العرب، سوف نتبنى معركتكم». وتمت الصفقة. لم يكن هناك أى سبب يدعو يوجوسلافيا أو الهند لمحاربتنا، إلا لجذب العرب إلى معركتهم. لا يتعلق الأمر هنا بتحالف أيديولوجى ولكنه كان تحالفًا تكتيكيا، تقارب مصالح بين عالمين حاولا توسيع دائرة نفوذهما.

على كل حال، إذا ابتعدنا قليلا عن الخطاب المألوف فى مناصرة العالم الثالث، من الصعب رؤية ما يمكن أن يقارب بين نهرو وناصر وتيتو وشوين لاى، إلا إذا كان الأمر متعلقًا بزعماء سياسيين أرادوا أن يلعبوا، كل بطريقته، دورًا جيوبوليتيكى مهما فى منطقتهم وفى العالم. باندونج كانت مسرحا حيث كان كل ممثل يقوم بعرض مواهبه من أجل أن يرفرف أعلى من الآخرين، ولكن أيضا بالتواطؤ معا.

ذلك فضلاً عن أن باندونج قامت على أساس أكذوبة؛ فهذا المؤتمر أراد أن يجمع دولا غير منحازة، ولكن عدم الانحياز هذا كان محض خيال؛ فقد كانت هذه الدول منحازة ضد الغرب، وأكثر من ذلك، كانت منحازة ضدنا وكانت المعركة وهما، لأن لا الصين ولا يوجوسلافيا ولا الهند لم يكونوا مهددين من الغرب.

فى الواقع، وخلال الخمسينيات والستينيات التى كانت سنوات الحرب الباردة، عدد كبير من الدول التى انضمت إلى باندونج كانت قريبة من الاتحاد السوفيتى، ولنبدأ بأهم تلك الدول وهى الصين فى عهد ماو. فى إسرائيل، تصورنا أن هذا الإطار من الحرب الباردة سيكون له عواقب وخيمة على الشرق الأوسط، لأن الاتحاد السوفيتى لم يفتأ يؤجج الصراع العربى - الإسرائيلى حتى يستطيع أن يلعب فيه دورا. لم نكن على خطأ لأن فى هذا الوقت قام شوين لاى بتقديم شيبيلوف (الذى سيصبح وزير الخارجية السوفيتية) إلى ناصر وسوف تعقد روابط متميزة بين موسكو والقاهرة. حتى هند نهرو، كانت فى هذه الفترة قريبة من موسكو. وذلك موقف «لا يمكن تفسيره وغير شريف»، حيث إن الاتحاد السوفيتى، على عكس القوى الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية التى اضطرت إلى التخلى عن مستعمراتها، انتهج منذ عام ١٩٤٥م سياسة استعمارية فى وسط أوروبا.

بطرس بطرس غالى: هناك فى رأيى ثلاثة أخطاء فى تعليقك. الخطأ الأول هو أن مؤتمر باندونج لم يزعم أبدا أنه يقوم بتكوين تجمع من دول غير منحازة، حيث إن عدد من الدول أعلنت انحيازها فى تلك المناسبة إلى العالم الغربى (باكستان والعراق والفلبين..). أما حركة عدم الانحياز، فقد ولدت بعد ست سنوات، فى عام ١٩٦١م، فى بلجراد، ولم تنضم إليها

بعض دول كانت موجودة فى باندونج. الخطأ الثانى: بالنسبة لتيتو وشوين لاى وغيرهما، اعتبر هؤلاء أن إسرائيل التى تتكون من مستوطنين قادمين من دول استعمارية سابقة، تشكل واقعًا استعماريًا جديدًا. الخطأ الأخير: خلال فترة الحرب الباردة، كان هدف دول عدم الانحياز هو التوفيق بين العالم الغربى والعالم السوفيتى. فقط أقلية صغيرة من دول عدم الانحياز هى التى كانت تشعر أنها أقرب إلى موسكو من واشنطن. أما الأغلبية الساحقة فقد كانت على مسافة متكافئة بين الكتلتين، وهذه هى فلسفة عدم الانحياز: الوقوف على مسافة متساوية والحياد بين الكتلتين، والتضامن مع دول الجنوب الفقير والتى فى طريق الاستقلال عن الاستعمار.

أندريه فيرساى: قبل باندونج بقليل، نشر ناصر كتابه *«فلسفة الثورة»*.

بطرس بطرس غالى: بهذا الكتاب أراد ناصر أن ينضم إلى حركة العالم الثالث وعدم الانحياز التى كان يدركها فى ذلك الوقت فى صورة مبسطة إلى حد ما، وكتابه يبدو مكتوبًا من قبل طالب فى السنة الأولى. ولكنه، فى فترة وجوده فى باندونج، تلقى درسا من نهرو، جعله يعى فعلا بحقيقة العالم الثالث، كما أدرك ضرورة أن تتخذ مصر قرارا بالمشاركة فى النضال ضد الاستعمار العالمى.

ولقد كانت علاقة ناصر بمؤتمر باندونج غامضة إلى حد ما. أعتقد أنه شعر هناك بالإهانة لكونه لم يكن حقيقة جزءا من الحركة، ولكونه لم يستوعب حقيقة ما يحدث. إلا أنه رغم ذلك، أدرك أن مصلحته كلها تكمن فى الانضمام إلى الحركة. وعند عودته من باندونج، بدأ يعتمد على أيديولوجيا عدم الانحياز ليجعل من نفسه زعيما فى العالم الثالث.

أندريه فيرساى: فى إسرائيل، هل كانت هناك أصوات تدعو إلى التقرب من هذه الدول «غير المنحازة»؟

شيمون بيريز: لا، لأنه حتى لو رغبنا فى ذلك، لم يكن لدينا أى فرصة فى الانضمام إلى هذه الدائرة من الدول التى أصبحت جذريا معادية لإسرائيل. فى جمعية الأمم المتحدة، كانوا يصوتون دائما ضدنا. فضلا عن أن عددا من تلك الدول، مثل الصين أو الهند، لم تعترف بنا حتى ذلك الحين.

بطرس بطرس غالى: بالفعل، فبغض النظر عن كون جزء كبير من دول عدم الانحياز لم يعترف بكم، لم يكن من الممكن انضمامكم إلى هذه الحركة حيث إنكم كنتم منحازين وحلفاء للدول الغربية والقوى الاستعمارية.

شيمون بيريز: ذلك لم يمنعنا من التقرب من بعض دول العالم الثالث من آسيا ومن إفريقيا.

أندريه فيرساى: ورغم ذلك، كان من الطبيعى أن تعتبر هذه الدول نفسها أقرب إلى دول العالم الثالث الأخرى، التى كانت معادية للإسرائيليين.

شيمون بيريز: ليس بالضرورة، لأن هذه الدول رأت ما نستطيع أن نمنحه إياها من منتجات زراعية أو عسكرية، وكانوا يرغبون فى الاستفادة من تعاوننا معهم حيث رأوا أننا لا نمثل تهديدا لهم. كما اقتنع بن جوريون أن العالم الثالث سيلعب دورا مهما فى المستقبل، وأنه سيكون عالم الغد الحقيقى. فقد قدر أن علينا واجبًا، أو على الأقل رسالة، نحو تلك الدول، وهى مساعدتهم على التنمية. وإسرائيل التى كانت، فى تلك السنوات الأولى، تعتبر بشكل ما دولة «تحصل على إعانة»، حيث إنه من أجل البقاء كان عليها الحصول على المال والسلاح والمواد الأولية، إلا أنها تمكنت من تقديم ثراء تجربتها لهم، وكانت على استعداد لتفيد تلك الدول الشابة.

أندريه فيرساى: كيف سارت الأمور؟

شيمون بيريز: بدأ انفتاحنا نحو العالم الثالث مع بورما من خلال تعاون عسكرى وزراعى استمر عامين. فقد جاء العديد من المزارعين من بورما يدرسون عندنا فى موشافيم نظم الرى ووسائل الاستثمار الزراعى، بينما أرسلت إسرائيل مدربين إلى هذا البلد من أجل المساعدة فى دعمها والنهوض بالأراضى غير المزروعة على طول الحدود والدفاع عنها. وفى إفريقيا، قمنا أولا بالاتصال بغانا، والمساعدات التى قدمناها لها كانت كثيرة. لقد أقام العديد من الوزراء الغانيين لدينا فى إسرائيل من أجل دراسة النظم التعليمية والصحية لدينا، وأيضا تنظيم زراعتنا ودفاعنا. ولقد أرسلنا خبراء إسرائيليين فى العديد من المجالات، لتدريب كوادرهم، كما أن جامعاتنا كانت مفتوحة للطلاب القادمين من غانا. لقد قمنا، وبشكل خاص، بتصدير مبادئ الشباب الرائد المحارب إلى غانا. هذا النظام الخاص بإسرائيل، يتيح إمكانية قضاء جزء من الفترة الخاصة بالخدمة العسكرية فى بناء الكيبوتز. هذا النظام تم إقامته فى غانا، خاصة من أجل استصلاح الأراضى البور.

بعد غانا، أقمنا علاقات مع غينيا والكوت ديفوار وأوغندا والسنغال وموزامبيق وتنزانيا، وأيضا مع كينيا. وكنا نقدم أيضا مساعدات زراعية وعسكرية. فقد توجه خبراؤنا إلى هناك كمعلمين، بينما جاء الشباب الإفريقى إلى إسرائيل ليتعلموا. هذه المبادلات اكتسبت تدريجيا أهمية إلى حد أننا أنشأنا قسما للشئون الإفريقية.

أندريه فيرساى: ولكن مع ذلك، هذه الأشكال من التعاون لم تستمر. لماذا؟

شيمون بيريز: بسبب الضغوط العربية التى تزايدت بقوة. كما تعرف، حدد ناصر فى كتاب *فلسفة الثورة* ثلاث دوائر كانت مصر مدعوة لأن تكون مركزًا لها: الدائرة العربية، والدائرة الإفريقية، والدائرة الإسلامية. كما أن الدول العربية التى كانت نشيطة جدا على أرض الواقع تعهدت بتقديم مساعدات مهمة إلى دول إفريقيا السوداء (تعهدات لم يلتزموا بها فى نهاية المطاف) كما أن روابطنا معهم تفككت بعد حرب الأيام الستة.

أندريه فيرساى: بدأت حرب الجزائر فى نوفمبر عام ١٩٥٤ وبسرعة أصبحت، بالنسبة لمناصرى العالم الثالث من الغربيين، حرب تحرير رمزية. فى مواجهة هؤلاء المناضلين، سينظر الفرنسيون، غير المنحازين لقضية العالم الثالث، إلى ما أطلقوا عليه ولمدة طويلة اسم «أحداث الجزائر»، محاولة لقلب النظام القائم. فى هذا الوقت، كان ناصر المتأثر بروح باندونج والذى أصبح العالم يعتبره المتحدث الرسمى باسم القومية العربية، ويعتبره العالم الثالث بشكل عام أحد زعمائه، فكانت هناك شكوك موضع اشتباه فى أنه يساعد بشدة المتمردين الجزائريين عن طريق مدهم بالسلاح وبالسماح لهم بالتدريب على الأرض المصرية.

بطرس بطرس غالى: صحيح أن مصر قامت ببيع كمية كبيرة من الأسلحة إلى جبهة التحرير الوطنية فى الجزائر. ولكن من ناحية أخرى، لم يكن هناك عدد كبير من معسكرات التدريب فى مصر.

شيمون بيريز: فى عام ١٩٥٦م، كما ذكرت من قبل، وصل جى موليه إلى السلطة. كان يشعر بالقلق تجاه ناصر. وكان يشعر بكراهية غريزية تجاه الزعيم المصرى الجديد الذى وصفه بأنه «مشروع ديكتاتور»: لم يكن يعتبر مساعدته لجبهة التحرير الوطنية الجزائرية مظهرا من مظاهر التضامن مع الجزائريين الذين يعانون من وطأة الاستعمار وإنما تعبير عن نزعة قومية عربية خطيرة. وكان جى موليه معاد لكل نزعة قومية جامعة: العروبة الشمولية، القومية العربية، القومية الألمانية، القومية السلافية، إلخ. ورغم ذلك: فقد انقسمت الآراء فى فرنسا فى مواجهة مجموعة جى موليه الذى تصور أنه من خلال هجومه على ناصر، سيقطع على جبهة التحرير الوطنية المساند الأول لهم، وتصور البعض أن إقامة روابط قوية مع العالم العربى قد تدفع ناصر إلى التخلى عن مساعدته للجزائريين، وإلى قبول فكرة أن «أحداث الجزائر» مجرد قضية فرنسية/ فرنسية.

بطرس بطرس غالى: يبدو أن لا فرنسا ولا جى موليه ولا إسرائيل فهموا الروابط التى ربطت مصر مع الجزائر. ففى هذا الوقت، كان العالم العربى متضامنا بشدة: لم يكن أبدا بهذه الدرجة من الترابط كما كان فى فترة التحرر. كان الهدف واضحا، ولم يكن الأعداء أقل وضوحًا. بدأت المشكلات بعد إنجاز التحرير. إذا كان عرفات، رغم ما واجهه من إحباطات، قد استطاع الاستمرار فى معركته والحصول على مساندة الدول العربية، فذلك لأنه فى نظر العالم العربى.. كانت معركته هى الفصل الأخير فى مسلسل حرب التحرير.

* * *

٤- السويس: من الأزمة إلى الحرب

«سوف آخذ القناة!» - «هتلر جديد!» - إسرائيل تفكر فى حرب وقائية - تحالف فرنسى/ بريطانى/ إسرائيلى- حملة السويس - ناصر: من الهزيمة العسكرية إلى «الانتصار السياسى» - إسرائيل المنتصرة، صنفت «عميلة للإمبريالية الغربية».

أندريه فيرساى: فى نفس هذا العام، ١٩٥٦م، حاول ناصر تمويل السد العالى فى أسوان بواسطة الأمريكيين. وبدأت المفاوضات، ولكن فجأة فى ١٣ يولية ١٩٥٦م، أعلن فوستر دالاس، وزير الخارجية أن واشنطن عدلت عن تمويل السد، وقال إن السبب هو الوضع الكارثى للاقتصاد المصرى.

بطرس بطرس غالى: لا أعتقد أن ذلك كان السبب الحقيقى. ولكنى أتصور أن صفقة السلاح التى أبرمت بين تشيكوسلوفاكيا ومصر منذ سبتمبر عام ١٩٥٥م، أغضبت الولايات المتحدة التى لم تكن تؤمن بعدم الانحياز واعتبرت أن على كل دولة أن تختار بوضوح المعسكر الذى تنتمى إليه.

أندريه فيرساى: بعد فترة قليلة، فى ٢٦ يولية ١٩٥٦م، فى الإسكندرية، ألقى ناصر خطابا طويلا بمناسبة الذكرى الرابعة لسقوط الملكية. وبدأ خطابه بالتنديد بـ «الإمبريالية الأمريكية التى تذل وتهين المصريين». ثم فجأة، يعلن أن الأمريكيين يرفضون منحه القرض الضرورى من أجل تمويل سد أسوان، لذا فسوف «يأخذ القناة»! وبالفعل، أمم فورا شركة قناة السويس التى كان يمتلكها إجماليا الإنجليز والفرنسيون. لقد كان ذلك ضربة مشهدية لم يتوقعها أحد فيما يبدو. ماذا كان رأيك فى هذه اللفتة فى هذا اليوم؟

بطرس بطرس غالى: فلتسمح لى فى البداية ألفت نظرك إلى أن شركة قناة السويس كانت شركة مساهمة توزع أسهمها بين عدد من المساهمين، وإنها لم تكن ملكا لا للفرنسيين ولا للإنجليز، ولكن لمصر. فضلا عن أن شركة القناة كانت، على أية حال، ستعود إلى مصر بعد ١٢ عاما، حيث إن اتفاقية التأجير التى وقعت فى عام ١٨٥٨م كانت ستنتهى فى عام ١٩٦٨م. لذا، فأتصور أنه كان يحق لناصر تأميم الشركة المسئولة عن إدارتها. بعد هذا التنويه، وردا على سؤالك، فى لحظة الإعلان عن التأميم، كنت فى لاهاى، وكان أول رد فعل لى هو تصور أننا قمنا بمجازفة بلا حدود.

أندريه فيرساى: عندما ألقى ناصر ببادرة التحدى هذه، هل كان يعتقد أن الغرب سيقوم بالرد عليه بفتور، أو على الأقل ليس بصورة عسكرية؟

بطرس بطرس غالى: فى هذا الوقت، بعد مرور عام على باندونج، كنا نعيش فى فترة كان العالم الثالث يشعر فيها بأنه يحلق فى سماء التاريخ. لذلك، فإن هذا التصرف الذى اعتبره الغرب جنونيًا، قد لا يكون كذلك فى نظر ناصر. أعتقد أنه رأى تصرفه هذا جريئًا ولكن ليس عبثيًا. ربما تصور أنه بعد المبادرة ستبدأ مفاوضات وأن مصر قد تجنى منها فوائد كثيرة.

وعلى أية حال، تفاعل الشعب المصرى مع هذه الضربة المفاجئة بحماس بالغ. بينما أعرب جزء من الطبقة السياسية السابقة، التى حرمت من ممتلكاتها واستبعدت من السلطة، عن تمنياتها بأن تؤدى تلك الأحداث إلى وضع نهاية للنظام الناصرى. أما بالنسبة لشعوب العالم العربى، فقد احتشدت بالكامل بجانب ناصر؛ لقد كان البطل الذى تجرأ وتحدى القوى الاستعمارية الكبرى.

أما بالنسبة لى، فلم يبد لى هذا التأميم مسألة غير مشروعة، ولقد أعربت عن وجهة نظرى هذه أكثر من مرة فى مجالات عامة، فى مؤتمرات أو مقالات، شرحت فيها شرعية المبادرة. لأننى، وإن كنت أعارض سياسة ناصر الاقتصادية الاشتراكية، إلا أننى تبنيت تماما سياسته الخارجية: عدم الانحياز والمساعدات لإفريقيا ومناصرة العالم الثالث والقومية العربية وخاصة انفتاح مصر على العالم الخارجى. بالنسبة لسياسته الداخلية، فقد أيدت أيضا صراعه ضد الإخوان المسلمين (وهو شىء لا يتم إبرازه كثيرا) والشيوعيين (رغم العلاقات التى تتزايد قربا مع الاتحاد السوفيتى)، بالإضافة إلى رغبته فى وقف الانطواء على الهوية. كل هذا بدا لى مهما لكى أسانده.

أندريه فيرساى: لقد كنت إذن موافقا على كل ما فعله ناصر، باستثناء سياسته الاقتصادية «الاشتراكية»؟ لماذا؟ هل لأن وريث عائلة كبيرة لا يستطيع أن يقبل إعادة توزيع الثروات؟

بطرس بطرس غالى: إن سياسة ناصر الاقتصادية لم تقتصر فقط على الإصلاح الزراعى؛ فقد كانت تعمل أساسا على استبدال القطاع الخاص بقطاع عام تقوده بيروقراطية غير مؤهلة وفاسدة، وهو ما بدا لى غير قادر على إعطاء نتائج جيدة. أما بالنسبة للإصلاح الزراعى، فلم يكن يكفى القيام بعملية إعادة توزيع للأراضى، بل كان من المفروض التأكد من أن هؤلاء الذين سيحصلون على الأراضى يملكون الحد الأدنى من الفاعلية والوسائل التى تمكنهم من رفع قيمتها، كما أن إعادة التوزيع تمت دون أن تأخذ فى الحسبان نوعية الأراضى، وهو ما ألقى البلاد فى وضع اقتصادى صعب، لأن الفلاحين لم يكونوا يملكون الوسائل التى تتيح لهم استغلال الأراضى الفقيرة، والتى هى فى حاجة إلى سماد ورعاية خاصة.

أندريه فيرساى: ولكن بالعكس، ترى أن فى مجال السياسة الخارجية، حقق ناصر تقدمًا لبلاده؟

بطرس بطرس غالى: نعم، فرغم كل شىء، بدأت مصر، مع سياساته، تلعب دورا على مستوى العالم، سواء بسبب مساندته لحركات التحرر من الاستعمار فى العالم العربى والقارة الإفريقية، أو دوره داخل حركة عدم الانحياز، أو معركته من أجل قضية التنمية، إلخ. لقد أصبحت مصر، بقوة الدفع التى أعطاها لها، لاعبا كبيرا على الساحة الدولية.

أندريه فيرساى: رغم ذلك، ناصر لم يعمل على التقارب الذى كنت تتمناه مع الغرب؟

بطرس بطرس غالى: عندما أقول إننى كنت أتمنى أن أرى مصر تنفتح على الغرب، كنت أقصد، بشكل أعم، أن تنفتح على التحديث. التقارب مع روسيا الشيوعية يمثل فى ذلك الوقت انفتاحا على الغرب. صحيح أن الاتحاد السوفيتى ليس الغرب الرأسمالى، ولكنه الغرب على كل حال (والماركسية هى أيديولوجية غربية).

أندريه فيرساى: لقد أثارت عملية تأميم قناة السويس غضب الغرب الذى وصف ناصر بأنه «هتلر الجديد»؛ هذا التأميم قورن بعسكرة مقاطعة رينانيا، وغياب رد فعل كان يماثل تصرف «أهل ميونيخ» عام ١٩٣٨م.

بطرس بطرس غالى: نعم، وفى نفس الوقت، رأينا الصحف الغربية تتباهى بفكرة أن المصريين لن يستطيعوا أبدا تشغيل القناة، وسينتهى الأمر بامتلائها بالرمال.

ولكن على أية حال يجب أن ندرك، إذا تجاوزنا هذا الشكل الكاريكاتورى، أن الخوف الذى يغذيه الغرب إزاء ناصر، كان بلا أدنى شك مبالغا فيه، ولكنه لم يكن بلا أساس تماما. فى تلك الفترة، أصبحت القاهرة، التى تقف فى قلب الجبهة المعادية للاستعمار، مركز

كل حركات التحرير أو مناصرة العالم الثالث التى تمولها أو تمدها بالسلاح. وهذا النشاط المناهض للاستعمار بدت آثاره فى كل القارة الإفريقية، فى الوقت الذى انهارت فيه كل الإمبراطوريات الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية.

أندريه فيرساى: لم يقبل الإنجليز والفرنسيون، المساهمون الأساسيون فى شركة السويس، إظهار القوة. هذا، وقرروا شن عملية عسكرية ضد مصر، تحالفوا فيها مع إسرائيل من أجل ضمان نجاحها. كيف سارت الأمور، وما هى المصالح التى دفعت إسرائيل إلى الانضمام إلى الفرنسيين والإنجليز؟

شيمون بيريز: لقد كان لنا، بكل تأكيد، مصالحنا الخاصة فى تلك الحملة. فى نهاية عام ١٩٥٥م، أغلق ناصر مضيق تيران أمامنا (ودعم الحصار عن طريق إغلاق المجال الجوى فى خليج العقبة، وهو ما أجبرنا على وقف خط الطيران المتجه إلى جنوب إفريقيا). لقد كان من الواضح أنه إعلان *حالة* حرب. فى الوقت نفسه كان من شأن التقارب بين مصر والاتحاد السوفيتى - الذى أمدها بأسلحة عالية التقنية، بينما كنا نحن لانزال ضحايا الحظر - أن يزيد درجة قلقنا. ويجب أن نضيف أيضا، العمليات الإرهابية التى كان ينفذها الفدائيون الفلسطينيون، والذين كانت القاهرة تقوم بتسليحهم، وكان معظمهم من غزة. إذن كان موقفنا عشية حملة سيناء مقلقا للغاية.

لهذا السبب أعددنا أنفسنا لكى نشن حربا وقائية ضد مصر، لتحقيق ثلاثة أهداف: إعادة فتح مضيق تيران، وتدمير قواعد الفدائيين، وكسر الجيش المصرى قبل أن يصبح قادرا على استخدام أسلحته السوفيتية الجديدة.

أندريه فيرساى: هل كانت فرنسا وإنجلترا من البداية مصممتين على التدخل عسكريا؟ ومن جانبها، كيف كانت الولايات المتحدة ترى الموقف؟

شيمون بيريز: كانت الولايات المتحدة ترى أن الوقت يلعب ضد ناصر، فكانت تفضل الانتظار حتى إسقاط الريس فى وقت لاحق، من خلال انقلاب، وكانت بريطانيا تفضل الانتظار شهرين تلجأ خلالهما للوسائل السلمية ؛ أما فرنسا، فبالعكس، دعت إلى القيام بعملية فورية، وهو ما تحققت منه شخصيا. وبالفعل، فى أغسطس عام ١٩٥٦م، وفى أثناء إحدى رحلاتى إلى باريس، فهمت من بورجيز- مونورى، وزير الدفاع، أن فرنسا عزمت على اتخاذ إجراءات عسكرية ضد ناصر. هذه الإجراءات قد تتخذ شكل عملية مباشرة ضده، مع احتمال تعاون إنجلترا. فضلا عن تأميم القناة، كانت فرنسا تلوم ناصر على مساعدته للمتمردين فى جبهة التحرير الوطنية الجزائرية. وسألنى بورجيز فى هذا الوقت:

كم من الوقت يحتاج الجيش الإسرائيلى ليصل إلى السويس عابرا سيناء، أجبته: إننا فى حاجة إلى نحو عشرة أيام. أثارت إجابتى دهشة بعض الجنرالات الذين حضروا اللقاء. بدت تقديراتى لهم قصيرة جدًّا. وقال لى بورجيز-مونورى: «*شيمون، أنت متفائل للغاية. يرى خبرائى أنه يجب حساب نحو ثلاثة أسابيع*».

أندريه فيرساى: إن كنت استطعت الرد تلقائيا وبشكل محدد كهذا، فإن ذلك يدل على أنه كانت هناك خطط معدة مسبقا، ليس فقط من أجل فض إغلاق المضيق، ولكن للهجوم صراحة ضد مصر.

شيمون بيريز: نعم، لأننا، كما قلت لك، كنا نخاف الأسلحة المصرية الجديدة التى حصلت عليها من التشيك. بعد عودتى إلى إسرائيل، أبلغت بن جوريون ودايان نتائج مباحثاتى مع الفرنسيين. كانا بالطبع مهتمين بها، ولكن بن جوريون أعلن لتوه أن الجيش الإسرائيلى لن يضع نفسه أبدا فى خدمة دولة أجنبية، إن كان يجب خوض هذه الحرب، وحتى لو كان سيتم ذلك بالتحالف مع الفرنسيين والإنجليز، فسوف نخوضها لحسابنا.

أندريه فيرساى: وكيف كان رد فعل الطبقة السياسية الإسرائيلية لهذا المشروع؟

شيمون بيريز: كان منقسما؛ فى اليمين دعا حزب حيروت مناحم بيجين إلى حرب وقائية، بينما بقى بن جوريون مترددا لأنه كان متخوفا من قيام القوات المصرية بقصف المدن الإسرائيلية.

ومع ذلك، فإننا لم نكن لنخوض حملة السويس، لولا أن قررت فرنسا وإنجلترا الغزو. فلم يكن من الممكن أن نخوض وحدنا الحرب من أجل تحرير مضيق تيران، لأن المجتمع الدولى كان سيدين إسرائيل. لقد كان تعاون كل من فرنسا وإنجلترا يسمح بوقف قرار محتمل من مجلس الأمن بالأمم المتحدة ضد إسرائيل. بالإضافة إلى أن تدخل إنجلترا بجانب إسرائيل منع بالتالى كل مناورة عسكرية بريطانية ضدنا. ولأن بن جوريون لم يثق أبدا فيما أطلق عليه «*آلبيون*»، «*خيانة آلبيون*»: كان يرى أن الحكومة البريطانية، التى وقعت اتفاقية عسكرية مع الأردن، كانت مستعدة أن تدفع أى ثمن مقابل كسب ثقة العرب الكاملة، بما فى ذلك أن تشن حربا ضدنا. هذه المخاوف تأكدت من خلال موقف رئيس وزراء بريطانيا، سير أنتونى إيدن، الذى تمسك بلا شك، بسياسة نشطة موالية للعرب، وساند رسميا الأردن: وهكذا، بعد الغارة الانتقامية التى قمنا بها ضد مقر بوليس أردنى فى قليقلة، يوم ١٠ أكتوبر عام ١٩٥٦م، وجه القائم بالأعمال البريطانى تحذيرا إلى بن جوريون:

يقضى الاتفاق العسكرى الأردنى/ البريطانى بأن تقوم بريطانيا بمساعدة الأردنيين فى حالة تعرضهم لهجمات من جانب جيشنا.

أندريه فيرساى: ما هى العوامل التى دفعت كل من فرنسا وإنجلترا إلى خوض عملية عسكرية؟

شيمون بيريز: بالنسبة لفرنسا، وقع حدثان، كان لهما بكل تأكيد تأثير: فى ٢٠ أكتوبر، قامت فرنسا باعتراض سفينة مصرية تحمل أسلحة ومتجهة إلى متمردى جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، وفى نفس اليوم، أعلنت نتائج الانتخابات التشريعية الأردنية: حصل الموالون لناصر على الأغلبية ، وبذلك، وفى ضربة واحدة، تحولت الأردن للمعسكر المصرى ومناهضة بريطانيا. هذا التطور السريع للوضع دفع فرنسا إلى التحرك وبسرعة، نظرًا لأنه كان من الصعب على القوات الفرنسية فى الجزائر أن تصل إلى السويس فى الشتاء.

أندريه فيرساى: توصلتم إذن إلى اتفاق مع الإنجليز والفرنسيين. على أى أساس؟

شيمون بيريز: لقد فرض بن جوريون شروطه، وهى أننا سنكون شركاء متساوين مع فرنسا وبريطانيا. لقد وضعنا إستراتيجية مشتركة. ولكن إذا كنا على استعداد لأن ننسق توقيت الحملة، فإننا لم نكن على استعداد لتنسيق عملياتنا. كان مبدأ الاتفاق كالآتى: إسرائيل ستشن وحدها عملية ضد القاهرة، وهذه «الذريعة الإسرائيلية» ستسمح للفرنسيين وللإنجليز بالتدخل فى مرحلة ثانية من أجل «الفصل بين القوات».

أما بن جوريون، فكما قلت لك، كان يخاف من القصف المصرى؛ فقد كان جيش ناصر يملك أعدادا كبيرة من المقاتلات طراز اليوشين، التى كانت تستطيع أن تقصف القرى الإسرائيلية بدون أن نستطيع التصدى لها لأن إسرائيل لم تكن تملك مقاتلات. لذا صمم بن جوريون على الحصول من الفرنسيين والإنجليز على مظلة جوية مقابل الحجة الإسرائيلية التى سوف نقدمها لهم.

يوم ٢٢ أكتوبر، فى مدينة سيفر بفرنسا، توصلنا أخيرا إلى اتفاق مع كل من فرنسا وإنجلترا، على غزو مصر. وبعد أسبوع كامل، يوم ٢٩ أكتوبر، دخلت القوات الإسرائيلية سيناء.

ضمت الخطة الإسرائيلية ثلاث عمليات متضامنة: إسقاط القوات بالمظلات فى ميتلا، على بعد ٥٠ كيلو مترا من قناة السويس، تقدم المدرعات غربًا عبر شبه الجزيرة للوصول إلى القناة، وأخيرا تقدم قواتنا على طول خليج إيلات وحتى شرم الشيخ.

أندريه فيرساى: والحملة، هل سارت كما حددتها الخطة؟

شيمون بيريز: نعم ولا؛ وصلت قواتنا إلى القناة فى أربعة أيام، وبعدها بيومين وصلت جنوبى خليج العقبة حيث قامت بتدمير البطاريات المصرية التى كانت تسيطر على المضيق. الجيش المصرى، بعد هزيمته، بدأ يتراجع بسرعة هاربا من ساحة المعركة وتاركا وراءه كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات. إجماليا، كان هناك نحو ٤ آلاف جندى مصرى سجين حرب، مقابل فقط أربعة محاربين إسرائيليين. كما وقع قطاع غزة فى يدنا بعد معركة شرسة. بوجه عام فقدنا ١٩٠ جنديا وأصيب ٨٠٠ جندى. ويقدر أن يكون المصريين قد فقدوا ما بين ألف إلى ثلاثة آلاف جندى.

كان من المتفق عليه أن توجه بريطانيا، يوم ٣٠ أكتوبر، إلى كل من مصر وإسرائيل، إنذارا تطالبهما فيه بوقف إطلاق النار وبالتراجع إلى ١٥ كيلومترا من القناة، على الأقل. على أن تقوم بريطانيا بعد ١٢ ساعة، بقصف المطارات العسكرية المصرية. قبلت إسرائيل الإنذار، ولكن رفضته مصر كما كان متوقعا. يوم ٢ نوفمبر استولت إسرائيل على المدينتين الكبيرتين غزة والعريش، وفى ٣ نوفمبر كانت قواتنا قد استولت على معظم سيناء. بالنسبة لنا كانت الحرب عمليا قد انتهت، ولم نكن ننتظر إلا هبوط القوات الفرنسية والبريطانية.

ولكن، لأن فرنسا وبريطانيا لم يتوقعا أن تقوم إسرائيل بحملتها بهذه السرعة، كانا قد حددا يوم ٦ نوفمبر للتدخل ولم يحاولا تقديم الموعد. وأخيرا، فى يوم ٥ نوفمبر، قبل الموعد المتفق عليه بأربع وعشرين ساعة، ولكن بتأخير ثلاثة أيام تقريبا عن الحملة الإسرائيلية فى سيناء، استولى رجال المظلات الفرنسيين والبريطانيين على بورسعيد وبور فؤاد.

أندريه فيرساى: كيف عاش المصريون هذا الغزو؟

بطرس بطرس غالى: لقد تضاعفت حدة المشاعر المناهضة للاستعمار، وفى غمرة ما حدث، ارتفعت أيضا مشاعر الكراهية المعادية للإسرائيليين. لقد احتشدت مصر وراء ناصر وكانت على استعداد للدفاع عن استقلالها الذى حصلت عليه مؤخرا: *«إنه الاستعمار الغربى فى كل صوره البشعة يعود ويريد أن يغزو مصر مرة ثانية! سوف نحارب من أجل استعادة قناة السويس هذه التى قمنا بحفرها بعرق جبيننا»!*

أندريه فيرساى: وهل كانت الدول العربية الأخرى ترى نفس الشىء؟

بطرس بطرس غالى: هنا، كانت الأمور أقل حسما؛ لنقل إجمالاً، إن هذه الدول كانت فى حالة ترقب، كما كان عدد كبير منها ما زال منضويًا تحت لواء الغرب.

أندريه فيرساى: تم الانتصار الإسرائيلى، ولكن السوفييت ظهروا على الساحة..!

شيمون بيريز: نعم، أرسل بولجانين رئيس مجلس الوزراء السوفيتى، تحذيرًا إلى باريس ولندن، يهددهم باستخدام الصواريخ النووية. كما وجه رسالة إلى بن جوريون، يهدده فيها، بتلميحات واضحة، بتدمير إسرائيل. لكم أن تتصوروا، ما أثاره احتمال تدخل سوفيتى فى المنطقة، تغذيه برقيات تشير إلى استعدادات سوفيتية لإرسال متطوعين إلى الشرق الأوسط، من اضطراب كبير فى إسرائيل.

أندريه فيرساى: هدد الاتحاد السوفيتى باستخدام السلاح النووى، الولايات المتحدة هى التى أجبرت أخيرا التحالف الثلاثى على العودة أدراجا، فأنقذت مصر وخاصة ناصر من هزيمة مهينة.

شيمون بيريز: وبالفعل، غادرت القوات الفرنسية/ البريطانية السويس بعد أسبوع بدون أن تستطيع استعادة السيطرة على القناة. أما بالنسبة لقواتنا، فقد انسحبت فقط يوم ٥ مارس عام ١٩٥٧م، بعد أن حصلت إسرائيل على ضمانات، وخاصة بعد أن التزمت القوى البحرية الكبرى (الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وكندا) بضمان حرية الملاحة للسفن الإسرائيلية فى خليج العقبة.

أندريه فيرساى: كيف عاش العالم العربى هذه الهزيمة العسكرية التى تعرضت لها مصر؟

بطرس بطرس غالى: فى البداية تصورنا أن الغزو إسرائيلى فقط. ولكننا أدركنا فيما بعد أن الإسرائيليين يساندهم الإنجليز والفرنسيون. هذا الوضع سيكون له نتيجتان: الأولى، هى أنها ستسمح لناصر بأن يحول هزيمته العسكرية إلى انتصار سياسى؛ فبالنسبة لدولة من دول العالم الثالث، الهزيمة من تحالف ثلاثة جيوش غربية حديثة لم تكن مسألة مهينة. ثانيا، الاقتناع بأنه، بدون الفرنسيين والإنجليز، ما كان من الممكن أبدا أن تهزمنا إسرائيل، بدا أنه شجع، ناصر بعد عشر سنوات على إثارة مواجهة جديدة مع إسرائيل.

أندريه فيرساى: رغم الدور الحاسم الذى لعبته واشنطن، إلا أنه فى المخيلة العربية الروس وليس الأمريكيون، هم الذين أخرجوا مصر من المشكلة.

بطرس بطرس غالى: لا، فى المخيلة العربية، لم يكن الروس ولا الأمريكيون، هم الذين أخرجوا مصر من المشكلة: السويس هى *«انتصار دبلوماسية العالم الثالث المتحد خلف مصر»*. إنها أيضا التفاف الشعب المصرى حول زعيمه الذى كانت لديه الشجاعة أن يثبت

على موقفه أمام أكبر إمبراطوريتين فى القرن التاسع عشر. وذلك ما يفسر أننا حولنا الهزيمة العسكرية إلى انتصار سياسى رائع، ليس فقط لمصر، ولكن لجميع دول العالم الثالث العربية ضد «*الإمبريالية الغربية*». لقد اعتبر تأميم القناة فى حد ذاته انتصارا؛ ففى الواقع، رغم الحرب التى شنها الغرب، فإن الإبقاء على القناة ملكا لمصر دعم الشعور بهذا النصر: «لقد انتشلنا القناة من براثن القوى الإمبريالية، ولقد نجحنا فى ذلك! لقد صمدنا! لقد اضطروا إلى الانسحاب من كل الأراضى المصرية، بما فيها قطاع غزة».

أندريه فيرساى: إذا كان الرأى العام العالمى قد اعتبر أن الفرنسيين والإنجليز أراقوا ماء وجههم، فالأمر لم يكن كذلك بالنسبة للإسرائيليين الذين حازوا على الاعتراف لهم بصورة داوود الصغير الذى هزم جوليات (جالوت) العربى.

بطرس بطرس غالى: نعم، ولكن الانتصار الإسرائيلى لم يستمر، فقد اضطر الجيش الإسرائيلى هو أيضا إلى الانسحاب من الأراضى المصرية، بما فيها قطاع غزة، بإيعاز من واشنطن.

شيمون بيريز: هذه ليست النقطة الرئيسية. فلا شىء أساسى تغير بيننا وبين العرب، هذا هو المهم. فحتى لو كان الانتصار مذهلاً وأثار فرحة كبيرة فى إسرائيل، إلا أنه - هذا هو المهم - لم يكف لضمان السلام. وعلى عكس الأغلبية الساحقة من البلاد الأخرى، بدا دوام إسرائيل غير مضمون. ووراء الانتصار يقبع التهديد بحروب جديدة. ترسخ لدينا شعور بأننا نحافظ على بقائنا كل لحظة، كما لو كان وجودنا الفعلى والسياسى موضع إعادة نظر بصورة دورية.

أندريه فيرساى: انطلاقا من هذا «الانتصار السياسى»، أصبح ناصر زعيم العالم العربى بلا منازع، وسوف يعتبر من أكثر الزعماء أهمية فى العالم الثالث.

شيمون بيريز: نعم، ولكننا نظل على مستوى الخطاب: ناصر فقد سلاحه؛ ونحن لدينا ٤ آلاف أسير؛ ولقد دمرنا قواعد الفدائيين، وبكل تأكيد، قضينا على حصار مضيق تيران. ماذا تعنى بقولك: أصبح «*زعيم بلا منازع*» إن كان هذا الزعيم قد تعرض لتوه لهزيمة عسكرية شديدة؟ ولم تكن مزاعم المصريين إلا كلمات، و«انتصار» ناصر ظل انتصارًا بلاغيًا محضًا. فما قيمة انتصار بلاغى؟ إننا بصدد دعاية.

بطرس بطرس غالى: ما هذا الكلام! إن الدعاية جزء لا يتجزأ من السياسة! فعند عودته من باندونج أُعترف بناصر زعيمًا من زعماء العالم الثالث، وبعد تأميم قناة السويس، حصل

بالفعل على مكانة البطل فى العالم الثالث. وبالنسبة للشعب المصرى، فإن كان «*العدوان الثلاثى الغادر*» الإنجليزى/ الفرنسى/ الإسرائيلى قد انتهى فى المرحلة الأولى بانتصار عسكرى، فقد تحول إلى هزيمة عسكرية وسياسية مع انسحاب القوات بعد أن أجبرتهم واشنطن عليه. منذ هذه اللحظة، بدأت مصر تلعب دورًا متزايدًا فى العالم العربى وإفريقيا، مثيرة بذلك خوف النظم العربية التى ارتبطت بالغرب.

شيمون بيريز: بالضبط، أعتقد أن هذا الوهم الذى رسخته البلاغة المتواصلة هو الذى أدى إلى مأساة مصر. وسوف يدفعها إلى انتهاج سياسة دولة عظمى، ولكنها لن تكون قادرة على الاضطلاع بمسئولياتها. والأسوء من ذلك، فإن رؤية ناصر للسلطة التى سيحوزها ستجعله يفقد كل منطق للأمور، وكما قلت، سوف تدفعه بعد ١١ عاما للدخول فى سياسة مشئومة.. سوف تؤدى إلى شن حرب الأيام الستة.

إننى أود حقيقة تصديق أن هدف ناصر الأول، بعد أن استولى على السلطة مع الضباط الأحرار، كان محاربة الفساد وبناء الدولة. ولكن للأسف، لم تكن المهمة سهلة وظهر أن فريق عمله لم يكن يتمتع بالكفاءة المطلوبة. لذلك، فبدلا من أن يكرس نفسه للعمل الشاق الذى يهدف إلى إصلاح البلاد، ومن أجل تفادى تبدد الوهم الذى عاش فيه شعبه، وجد بسرعة ملجأه فى انتهاج سياسة خارجية عدوانية تصور أنها سوف تعيد للعرب كرامتهم.

بطرس بطرس غالى: يبدو أنك ما زلت لا تقدر كثيرًا عملية الاستقلال عن الاستعمار فى العالم العربى والعالم الإفريقى والتى ساهمت فيها مصر بنشاط، كما لا تقدر سياسة عدم الانحياز. كما أنك لا تذكر الجهود التى بذلتها مصر فى مجال التصنيع وتحديث المجتمع.

أندريه فيرساى: بعد حملة السويس، طرد ناصر الأجانب من مصر. لماذا؟

بطرس بطرس غالى: فى الحقيقة، ثلاث فئات كان عليها مغادرة البلاد: اليهود والفرنسيين والإنجليز. أما الجاليات الأجنبية الأخرى مثل اليونانيين على سبيل المثال، أو الأرمن، الذين شعروا بالقلق إزاء المناخ المناهض للأجانب، فقد اختار بعضهم الهجرة.

أندريه فيرساى: لو فكرنا فى الثراء الكوزموبوليتانى والفكرى فى مدن مثل القاهرة والإسكندرية فى بداية الخمسينيات، وما آلت إليه بسرعة هذه المدن، هل يمكن أن نتحدث عن «انحطاط»؟

بطرس بطرس غالى: هذا الانحطاط لم يكن بسبب طرد الأقليات الأجنبية بقدر ما كان بسبب الانفجار السكانى. فى الواقع، هذا العصر الأسطورى للكوزموبوليتانية انتهى فى

عـام ١٩٥٢م مـع انقـلاب الضباط الأحرار. بالنسـبة لى، فقـد كنت أعتبر أن طـرد الأجانب خطأ جسيما، وكتبت عنه فى تلك الفترة. ولكن، فى الوقت ذاته، رأت البرجوازية الصغيرة وغالبية الشعب الفائدة التى سوف يجنونها منها، وهى شغل الأماكن الفارغة.

أندريه فيرسـاى: من الواضح أن قيام إسرائيل بالانضمام إلى القوى الاستعمارية السابقة فـى هجومهـم على مصر كان له الأثر فـى تصنيف الدولة اليهودية فى معسـكر الغرب. وفى نظر العرب والمناهضين للاستعمار، أصبحت إسرائيل عميلة للـ «الإمبريالية الغربية».

شيمون بيريز: بدون أدنى شك، ولكن ذلك بدأ بالفعل قبل حملة السويس.

أندريه فيرسـاى: ولكن فى هذه المرة أصبح الأمر أكثر حسما، أليس كذلك؟ كتب ناصر فى رسـالة موجهة إلى الملك حسين عاهل الأردن فى ١٣ مارس عام ١٩٦١م، يقول: «*فيما يخص [..] إسرائيل، نحن نرى أنه يجب نزع الشوكة التى زرعت فى قلب العالم العربى*».

شـيمون بيريز: مـا الفرق؟ إنه نفس الخطـاب العربى منذ عـام ١٩٤٨م. وفى مقابل هذه الاتهامات، فإن الانتصار السـاحق الذى حققه الجيش الإسـرائيلى أعطى إسرائيل مكانة بلا حدود.

بطـرس بطـرس غالـى: إننى أتفق معك، فلم تغير السـويس شـيئا كثيرا فـى الصورة التى شـكلها العالم العربى لإسـرائيل، التى من البداية، اعتبرت قوة اسـتعمارية غربية زرعت فى قلب العالم العربى.

شـيمون بيريز: سـوف أقص عليك قصة طريفـة: فى أثناء حملة سيناء فى عام ١٩٥٦م، تلقـى بـن جوريون خطابـا من نهرو قال له فيه باختصار: «*لقد اسـتمعت جيدا إلى الأسـباب التى ذكرتها لتبرير حملتكم: تضاعف العمليات الإرهابية، الوضع التصادمى مع مصر، إلخ. يمكننا تفهم تلك الأسـباب، ولكنها لا تعطيك الحق فى شـن عملية عسـكرية واسعة النطاق بهذا القدر. كان عليك التوجه إلى الأمم المتحدة: ذلك سيكون أقل تكلفة من ناحية الأرواح البشرية وأكثر فاعلية*».

بعد ذلك وقع الصراع بين الهند والصين فى لاداك، وبرر نهرو التدخل العسـكرى بتزايد عـدد الهجمات التى كانت تتفجر دوريـا فى تلك المنطقة. فأعاد بن جوريون إلى نهرو نفس الرسـالة التى أرسـلها له، وكتب له يقول: «*إنه من دواعى دهشتى أن تشن هجمات عسكرية. أعتقد أنه كان عليك التوجه إلى الأمم المتحدة: ذلك سـيكون أقل تكلفة من ناحية الأرواح البشرية وأكثر فاعلية..*».

أندريه فيرساى: بعد السويس، هل كان فى إسرائيل جدل حول السياسة الخارجية التى يجب أن تنتهجها البلاد: الاستمرار بجانب الغرب أو محاولة الاندماج فى العالم العربى؟

شيمون بيريز: فى تلك الفترة، إمكانية الاندماج فى العالم العربى كانت فكرة وهمية تماما.. لم يقتنع بها إلا الشيوعيون واليساريون، وكانوا أقلية. يجب أن نتذكر أن الرفض العربى كان فى ذلك الوقت كاملا. لم يكن فقط رفضا لإقامة السلام معنا ولكنه كان رفضا لوجود الدولة اليهودية نفسه. ولم يبدأ العالم العربى فى تصور التعايش معنا إلا بعد اندلاع أربع حروب.

ولكن فى المقابل، لقد استفدنا من انتصار السويس ومن المكانة التى منحنا إياها، من أجل دعم علاقاتنا أكثر مع الخارج وتقوية دبلوماسيتنا. وبذلك قمنا بتطوير نظرية المحيط الخارجى؛ تقوم الفكرة على بناء حزام حول إسرائيل، وخارج الدول العربية المجاورة، من الدول الصديقة والتى يمكن أن نقيم معها علاقات مستمرة، وكان الهدف على المدى الطويل أن نضم إلى هذا الحزام على الأقل بعض الدول العربية. نظرية المحيط الخارجى هذا طبقت على أربع دول: السودان وأثيوبيا وإيران وتركيا.

* * *

٥- بيــن الحربيــن

تطور السياسة الخارجية الفرنسية فى الشرق الأوسط - فشل الجمهورية العربية المتحدة - اختطاف أيخمان ومحاكمته - بولس السادس فى الأرض المقدسة، خيبة أمل اليهود - تقارب صعب بين إسرائيل والألمان.

أندريه فيرساى: مع حملة السويس، توثقت العلاقات بين القدس وباريس أكثر؛ فالفرنسيون، لن يستمروا فى تسليح إسرائيل فقط، ولكنهم أيضا، سيساعدونها فى بناء المفاعل النووى فى ديمونة. وكنت أنت، شيمون بيريز، أساس هذه المبادرة.

شيمون بيريز: كنت مقتنعًا بأن مستقبلنا يعتمد على التطوير النووى. إذ إنه سوف يحل مشكلة الطاقة وافتقارنا للمياه فى آن. وعلى الفور، اعتبرنى الجميع حالما، سواء السياسيون أو الخبراء فى مجال العلوم الذين أكدوا أن إسرائيل لن تستطيع أبدا بناء صناعة نووية لأنها تفتقد للإمكانيات وللعلماء. وبن جوريون نفسه، الذى استمع إلى وجهة نظرهم، ظل متحفظا. أما أنا، فقد راهنت على الجيل الجديد من العلماء. وكشفت لى المحادثات التى أجريتها مع عدد منهم، إلى أى حد يمكننى أن أعتمد على قوة حماسهم. وبالفعل، أدى التحدى الذى نشأ إلى إثارة حماس هؤلاء المهندسين الشبان، وفى النهاية ساند بن جوريون هذه المبادرة.

أندريه فيرساى: بعد الموافقة على المشروع، قمت أنت بالتماس مساعدة الفرنسيين وحصلت عليها. وأعتقد أنها المرة الأولى فى التاريخ الذى تقوم فيه دولة بمساعدة دولة أخرى على الحصول على السلاح النووى. لماذا قررت فرنسا الخوض فى هذا الطريق؟

شيمون بيريز: في هذا الوقت، كان الفرنسيون، الذين كانوا أكبر سند لنا، يعتبروننا حلفاء موثوقين. وأود أن أحدد هنا أن المسألة كانت تتعلق بالطاقة النووية المدنية فقط. فلم يكن يتحدث أحد عن «القنبلة الذرية». ولا أعتقد أن فرنسا قد عزمت على أن تمنحنا مساعدتها من أجل بناء القنبلة نفسها. لقد باعت لنا فرنسا مفاعلاً نوويًا من أجل أن تساعدنا على التقدم في أبحاثنا وفي تنميتنا. كما أن ديمونة لم يكن مفاعلاً كبيرًا جدًا.

أندريه فيرساي: بغض النظر عن كل هذا، فلقد استطعتم الحصول على المفاعل النووي وعلى الانتقال من النووي المدني إلى النووي العسكري، لأن الفرنسيين قاموا بتزويدكم بالعناصر.

شيمون بيريز: لم يتم بحث الخيار العسكري؛ فقد بقينا، من جانبنا وجانبهم، في جو من الغموض، حتى لا أقول من الالتباس.

أندريه فيرساي: أفهم من ذلك، إننا سنظل هنا في جو من الغموض، حتى لا نقول من الالتباس؟

شيمون بيريز: اسمع: في عام ١٩٦١م، سألني الرئيس كنيدي إن كانت إسرائيل تنوي إدخال القنبلة الذرية إلى الشرق الأوسط. وأجبته أن إسرائيل لن تكون أول دولة تدخل أسلحة نووية إلى الشرق الأوسط.

وفي أحد الأيام بعد أن أقمنا السلام مع مصر، طلب مني عمرو موسى، وزير الخارجية في ذلك الحين، والذي أقمت معه علاقات ممتازة، أن يزور ديمونة. فقلت له: «*هل هذا يعقل*، سيكون جنونًا من جانبي: *لو سمحت لك بزيارة ديمونة واكتشفت أنه* لا يوجد شيء، فعلى *الفور* سوف *نفقد أهم عوامل الردع* - وستصبحون مرة *أخرى أعداءنا*..» ولم أسمح له بزيارة ديمونة.

المهم بالنسبة لإسرائيل، ليس حقيقة مفاعل ديمونة، ولكن شبهات الآخرين حوله. ويكفينا أن يكون أعداؤنا مقتنعين بأننا قادرون على الدفاع عن أنفسنا والرد عليهم بضربة خطيرة. ذلك هو الردع.

أندريه فيرساي: الالتباس، الالتباس، إلى متى يسيطر علينا..

على أية حال، مرت السنوات، وفي عام ١٩٦٢م انتهت حرب الجزائر. وعلى الفور تغيرت السياسة الديجولية في الشرق الأوسط، وصارت في نظر الإسرائيليين «موالية للعرب».

بطرس بطرس غالى: إن فكرة أن ديجول كان صديقا كبيرا للعرب، هى فكرة إسرائيلية. ذلك أن التحول فى السياسة الفرنسية فى الشرق الأوسط لم يكن حاسما تماما كما تتصور. من جانبنا، نحن لم نعتبر أن السياسة الفرنسية أصبحت موالية للعرب: لقد أصبحت فقط أكثر اعتدالا، بعد أن كانت موالية بالكامل إلى إسرائيل. وإذا كان صحيحًا أن بعض الدبلوماسيين فى الخارجية الفرنسية اشتهروا بأنهم موالون للعرب، هناك آخرون كثيرون ليسوا كذلك. وعلى أية حال، إنك تقلل من أهمية تأثير اللوبى الصهيونى فى فرنسا.

أندريه فيرساى: أيا كان الأمر، هل فهم الإسرائيليون فى هذا الوقت، أن شهر العسل الفرنسى/ الإسرائيلى قد انتهى؟

شيمون بيريز: لا، كنا نتصور إننا قادرون على الحفاظ على روابط الصداقة مع الفرنسيين. على كل حال، لقد كنا دولة مستقلة استقلالا كاملا (كنا الدولة الوحيدة فى المنطقة التى لم يكن على أرضها قواعد أجنبية، لا أمريكية ولا سوفيتية)، ولقد ظللنا نشترى معدات عسكرية منهم، فقد أقمنا روابط حقيقية من التعاون، كما أقمنا صداقات حقيقية مع الطبقة السياسية وأيضا العسكرية.

فى الحقيقة، لقد كان كوف دى مورفيل، أكثر من ديجول، هو الذى أراد تغيير تلك العلاقات. ويمكن تقسيم السياسة الفرنسية الشرق أوسطية فى عهد ديجول إلى مرحلتين: قبل كوف دى مورفيل فى الخارجية وبعده. كوف، الذى كان ولمدة طويلة سفيرا لفرنسا فى القاهرة، تبنى الموقف العربى ولذلك تعايش بصعوبة مع حرب السويس التى شنتها فرنسا ضد مصر.

كان يوجد فى المنطقة، فى تلك الفترة، سفيران كبيران: كوف دى مورفيل فى مصر وبيير جيلبير فى إسرائيل. ونظرًا لأنهما كانا فى حالة منافسة واضحة مع بعضهما البعض، فإنهما لم يلتزما بالانضباط؛ فكان كل منهما يشعر أنه مخول لشرح السياسة الفرنسية فى الشرق الأوسط بطريقته. وبعد أن أصبح كوف وزيرًا للخارجية، والذى رأى أن سياسة فرنسا فى الشرق الأوسط خلال الجمهورية الرابعة كانت موالية بشدة لإسرائيل، وضع سياسة فرنسية جديدة فى الشرق الأوسط.

أندريه فيرساى: فى ذلك الوقت، فى عام ١٩٥٦م، حصلت كل من المغرب وتونس على استقلالهما أيضا. كيف كان موقف العالم العربى من هذه التطورات؟

بطرس بطرس غالى: حصول هذه الدول على استقلالها بدا لنا إعلانًا بتحقيق حلم بناء الأمة العربية الكبرى ومولد حركة عدم الانحياز، مع الوهم بأننا، نحن العالم الثالث، نمثل القوة الثالثة فى العالم. أما فيما يخصنى، فقد كتبت مقالات أقارن فيها اتحاد البلاد العربية المقبل مع الاتحاد الإيطالى والاتحاد الألمانى فى عام ١٨٧٠م. فمع كل الاعتبارات، كانت كل من إيطاليا وألمانيا فى القرن التاسع عشر، مقسمة إلى ممالك صغيرة تتصارع فيما بينها، تماما مثل الدول العربية فى النصف الثانى من القرن العشرين. ومثلما حدث معنا، اصطدمت حركتهم من أجل الوحدة بمؤامرات تخريب قامت بها القوى الكبرى؛ ولكنهم مثلنا أيضًا، كانوا يتمتعون باستمرارية جغرافية ووحدة لغوية. وحتى لو كانت رغبتنا فى الوحدة قد اصطدمت، مؤقتا، بمعارضة الغرب وإسرائيل، فلم يكن هناك أى سبب يمنعنا من تجاوز هذه العوائق، كما فعلت ألمانيا وإيطاليا فى القرن الأسبق. ووصلت إلى نتيجة مؤداها: إنه فى ضوء التجربتين السابقتين، العالم العربى سوف يحقق غدا الوحدة من أغادير إلى عدن.

فى عام ١٩٥٦م، مع «الانتصار السياسى» فى السويس، بدا هذا الحلم أقرب إلى التحقيق. فقد بدأ المسار يتضح ويتحرك نحو الهدف، إلى درجة أنه بعد عامين، فى فبراير عام ١٩٥٨م، اتحدت مصر وسوريا ونشأت الجمهورية العربية المتحدة، وقامت الحشود فى دمشق تهتف لناصر فى نشوة. بعد شهر، انضمت اليمن إلى الاتحاد. أمام تلك الحركة الاتحادية، اعتبرت إسرائيل منطقة فاصلة، مثل المنطقة الحرة على غرار هونج كونج فى الصين.

أندريه فيرساى: كيف تفسر فشل هذه الحركة الاتحادية، فالجمهورية العربية المتحدة لم تستمر أكثر من عامين، وبعد عدة أعوام، فى ١٩٦٥م، دخلت مصر فى حرب فى اليمن؟

بطرس بطرس غالى: فى رأيى يمكن تفسير ذلك بالصراع على الزعامة، وعدم الكفاءة الملحوظة للكوادر العربية العليا، وأخيرا المعارضة من العالم الخارجى؛ فلا فرنسا ولا بريطانيا ولا إسرائيل كان لهم مصلحة فى استمرار هذه الوحدة. ونحن نعلم جيدا، أن أى اتحاد وليد فى حاجة لمساندة القوى العظمى ودعمها.

أندريه فيرساى: نعم، ولكنك قلت لتوك، إن فى حالة إيطاليا وألمانيا، ظلت المؤامرات التخريبية الخارجية غير مؤثرة. كيف تسنى للغرب ولإسرائيل أن يمنعا وحدة العالم العربى؟ ومن جهة أخرى، تمت الوحدة بين مصر وسوريا بدون أن تتمكن أى جهة من النيل منها مهما كانت معارضتها.

بطرس بطرس غالى: لنقل الموضوع بطريقة أخرى: لم تبارك أية قوة كبرى على الإطلاق هذه الوحدة. ولا حتى الاتحاد السوفيتى الذى كان فى عام ١٩٥٨م موجودًا بالكاد فى العالم العربى، بينما شجعت بريطانيا وحدة الهند، التى كانت مكونة من عدة ممالك، وأيضا وحدة نيجيريا.

أندريه فيرساى: ألا ترى أنك تعيد بقولك هذا، خطاب الضحية الذى طالما ألقاه العالم العربى الذى من جانبه لم يتوان أبدا عن تبرير تخلفه وانقسامه وتجمده بأفعال الغرب الهدامة؟

بطرس بطرس غالى: إننى أتفق معك فى الرأى، لذلك طرحت كأول سبب ضعف الكوادر العربية الذين كان معظمهم من العسكريين الذين لا يملكون أية ثقافة سياسية. ولكن إلى جانب هذا السبب المتوطن، يجب إضافة أن العالم العربى افتقد دائما «الأخ الأكبر» الذى كان من الممكن أن يساعده.

أندريه فيرساى: بعد انسحاب سوريا من الوحدة غداة الانقلاب العسكرى فى سبتمبر عام ١٩٦١م، هل كان هذا الانفصال نتيجة للاختلاف الأيديولوجى فقط؟

بطرس بطرس غالى: هذا الانقسام كان نتيجة للتعاون السيئ والمناخ السيئ بين دمشق والقاهرة. كانت الإدارة المصرية غير قادرة على إقامة شراكة حقيقية بين مصر وسوريا، وفضلت أن تستمر فى إدارتها بالطريقة المتسلطة والمركزية.

وبالطبع، هذه النهاية بدت فى العالم العربى كالصفعة. ضع نفسك مكان أى عربى قام بمتابعة «الانتصارات» أو التقدم العربى: عام ١٩٥٢م حققت مصر الثورة، عام ١٩٥٦م قامت بتأميم شركة قناة السويس، وبعدها بقليل تمكنت من إفشال مخطط قوتين عظميين وإسرائيل، تحالفوا فى اعتداء مشترك، عام ١٩٥٨م أول وحدة عربية ذات معنى، الجمهورية العربية المتحدة. ثم فى سبتمبر عام ١٩٦١م، ومباشرة بعد انعقاد قمة دول عدم الانحياز فى بلجراد (٦ سبتمبر) تفككت الجمهورية العربية المتحدة.

وسنلاحظ هنا بسرعة، أن ناصر فى تلك الفترة بدأ يتشدد فى نظامه ويوجهه إلى اشتراكية أكثر راديكالية، كانت البرجوازية الكبيرة أول من دفع ثمنها.

أندريه فيرساى: هذا الانقسام قاد إلى الصراع بين مصر واليمن، فقد اتهم ناصر ملك اليمن بتشجيع القوى الرجعية.

في سبتمبر عام ١٩٦٢م، قام كولونيل يمنى ناصرى بإسقاط الملكية وأقام الجمهورية التى أعلن نفسه رئيسا عليها، وهو ما فجر الحرب الأهلية بين الجمهوريين والملكيين. السعودية ساندت الملكيين بينما كان ناصر يساند الجمهوريين. ماذا كانت لعبة ناصر فى هذه الحرب؟

بطرس بطرس غالى: أعتقد أنه بعد الفشل الذريع الذى مثّله انهيار الجمهورية العربية المتحدة، شعر ناصر بالحاجة إلى أن يبين أنه ما زال يلعب دور الزعيم فى العالم العربى. لذا قام بمساندة الجمهوريين، واكتفى فى البداية بإرسال بضعة قوات فى منطقة الصراع. ولكن، وعلى غرار ما كان يحدث فى فيتنام فى تلك الفترة، تطور الصراع وغاص فى مستنقع. وكانت أزمة عام ١٩٦٧م، التى اعتبرت بمثابة نذير لحرب الأيام الستة، هى التى دفعت ناصر إلى إعادة قواته.

وعلى أية حال، فإن قيام ناصر بمساندة «القوى التقدمية» لم يكن جديدا؛ فقد ساعدت مصر جبهة التحرير الوطنى الجزائرية، والصوماليين فى نضالهم من أجل الاستقلال، ومنظمتى المؤتمر الوطنى الإفريقى (ANC) والمؤتمر الإفريقى الشامل (PAC) فى جنوب إفريقيا، ...إلخ. ومنذ توليه السلطة، شارك ناصر بنشاط فى الصراع ضد الاستعمار عن طريق إرسال أسلحة إلى مختلف حركات التحرير.

يجب أن نعرف أيضا أن اليمن، وهى دولة أقدم بكثير من السعودية، كانت دوما فى منافسة مع الرياض. فمن خلال مساندة الجمهوريين، كان ناصر يهاجم فى نفس الوقت السعودية التى كانت تبدو فى شكل ملكية «رجعية» بالمقارنة مع الدول «التقدمية» فى العالم الثالث، التى كان يريد أن يكون زعيمها.

أندريه فيرساى: من جانب إسرائيل، وقع حدث أثار ضجة كبرى: فى مايو عام ١٩٦٠م، علمنا أن آدولف أيخمان، الذى لجأ سرا إلى الأرجنتين تحت اسم ريكاردو كليمنت، قد تم اختطافه من جانب المخابرات الإسرائيلية (الموساد). وللتذكرة، فان أيخمان هو الرجل الذى كان مسئولاً عن «القسم اليهودى» بالجستابو فى فيينا، ثم فى بوهيميا وفى مورافيا. وكان هو الذى قام فيما بعد بعملية ترحيل أعداد ضخمة من اليهود إلى معسكرات الإبادة. وحسب وثائق نورمبورج، فإن أيخمان كان هو المسئول عن مقتل نحو ١٤٠٠٠٠٠ (مليون وأربعمائة ألف) يهودى يحملون ١٤ جنسية. ولكن ذلك لم يمنع الحكومة الأرجنتينية من أن تغضب بشدة لأنها اعتبرت عملية الموساد بمثابة انتهاك لأراضيها. كيف علق العالم العربى على عملية اختطاف أيخمان؟

بطرس بطرس غالى: لقد أدان العرب عملية الاختطاف. فقد أظهرت كيف أن الإسرائيليين لا يحترمون لا القانون الدولى ولا سيادة دولة أجنبية. وكان يجب محاكمة أيخمان فى محكمة دولية، وليس محكمة إسرائيلية، منحازة عاطفيا بشدة بسبب الإبادة الجماعية.

كيف يمكن تصور أن يكون هؤلاء القضاة محايدين أمام أحد المسئولين عن الإبادة التى ارتكبت فى حق شعبهم؟ فعندما تحاكم محكمة دولية، سواء كانت المحكمة الدولية فى لاهاى أو محكمة أروشا، مجرم حرب، تحاول دائما تجنب أن يكون من بين القضاة أحد من بلاده أو من بلاد الضحايا. تلك مسألة أساسية! ولهذا السبب، وجهت إلى محكمة نورمبورج تهمة ممارسة «عدالة المنتصرين».

وحتى وإن اعتبر البعض أن قضاة نورمبوج أو قضاة محكمة القدس محايدين، فهى مسألة مبدأ. وحسب مبادئى، فإن قيام دولة باختطاف شخص، حتى لو كان من عتاة مجرمى الحرب، وتقرر وحدها أن تحاكمه، هى مسألة مسيئة للقانون الدولى.

شيمون بيريز: لا بأس. من الناحية النظرية، أفهم وجهة نظرك جيدا. إذا كنا فى عالم يسود فيه القانون الدولى، كان يجب محاكمة أيخمان فى محكمة دولية. ولكننا لسنا فى هذا العالم: فليس فقط إن أيخمان لم يكن مطاردا، بل وكان فى حماية السلطات الأرجنتينية. وبعد محاكمات نورمبورج، لم يعد هناك رغبة حقيقية فى العثور على مجرمى الحرب النازية. بل بالعكس، فقد تكونت شبكات عديدة سمحت لهم بالتهرب من العدالة. وبعد ذلك عثر على عدد كبير منهم فى أمريكا اللاتينية، وأيضا فى العالم العربى خصوصًا، وأنت تعلم ذلك جيدًا، فى مصر. السؤال الذى يُطرح الآن هو الآتى: لماذا لم تقدم أى من هذه الدول هؤلاء المجرمين للمحاكمة وقامت بحمايتهم؟ لو كانت هذه الدول مهتمة بتطبيق القانون الدولى، لما اضطرت إسرائيل إلى اللجوء إلى الاختطاف.

أندريه فيرساى: على العكس فى الغرب، أشادت أغلبية ساحقة من الرأى العام بالعملية، وإن كان البعض رأى فيها ما يستوجب النقد، خاصة بالنسبة للوسيلة التى قام بها الإسرائيليون بالقبض على أيخمان، إلا أن القبض على مجرم حرب بهذا الحجم، اعتبر مسألة عدالة.

بعد عدة أشهر، بدأت محاكمته فى القدس. وكانت أول محاكمة تتعلق بجريمة ضد الإنسانية منذ نورمبورج.

شيمون بيريز: نعم، ولقد عاش الناس مع الحدث بشكل مأساوى. كان للمحاكمة تأثير عميق على المجتمع الإسرائيلى. فقد غيرت بدون أدنى شك، شيئا ما فى العلاقات بين الإسرائيليين القادمين من أوروبا؛ هؤلاء الذين عرفوا النازية، وشباب الصابرا. ولأول مرة، تمكن هؤلاء الشباب الإسرائيليون من الاستماع «مباشرة» لشهادات الناجين من المحرقة. كما كان لهذه المحاكمة أيضًا تأثير عالمى. هذا التأثير على يهود الشتات بالطبع، ولكن أيضا على غير اليهود. إنها حدث ضخم.

بطرس بطرس غالى: بالطبع، خاصة بالنسبة للأوروبيين الذين يشعرون بالمسئولية عن الإبادة الجماعية، سواء بالنسبة للذين اقترفوا الذنب أو الذين سمحوا به. ولكن فى المقابل، لم تشعر دول العالم الثالث بأنها معنية إلا من بعيد جدا، إذ إن هذه المحاكمة خاصة بإبادة لم يكن لهم يد فيها على الإطلاق.

أندريه فيرساى: بعد وقت قليل، كانت إسرائيل مرة أخرى تحت الأضواء الكاشفة؛ ففى عام ١٩٦٤م، قام البابا بولس السادس بزيارة إلى الأرض المقدسة. كان الإسرائيليون ويهود الشتات ينتظرون الكثير من تلك الزيارة.

شيمون بيريز: نعم، خصوصًا والفاتيكان خلال الحرب العالمية الثانية، لم يظهر تعاطفًا كبيرًا إزاء اليهود الذين تعرضوا للاضطهاد. لقد ظل ملتزما بالحياد وبعدم اكتراث غير مقبولين. الفاتيكان، الذى يعتبر نفسه مركزا أخلاقيًا ذا قيمة عالمية، لم يستطع الاكتفاء بأن يظل مؤسسة دينية تحاول أن تتبنى مواقف تناسب مصالحها السياسية. وغداة الحرب، كان على الكنيسة أن تتعامل مع مأساة إنسانية ليس لها مثيل من قبل، وكان أقل ما يمكن أن تقوم به، هو الاعتراف بالدولة اليهودية. ولكنها لم تفعل. وفقط بعد خمسين عامًا، كان يوحنا بولس الثانى هو الذى اعترف بإسرائيل. ولكن كان يجب أن يتم هذا الاعتراف منذ إنشاء إسرائيل.

للعودة إلى زيارة بولس السادس، يجب أن نعود إلى بداية الستينيات حتى نستطيع التعرف على كل تأثيرها. فى تلك الفترة كانت إسرائيل تعانى من قطيعة مع العديد من الدول. هذه الزيارة من شخصية بهذه الأهمية كانت رائعة حقا وأحيت الكثير من الآمال لدى الإسرائيليين. توقع اليهود أن تعترف الفاتيكان بإسرائيل، ولكن البابا لم يتخذ هذه الخطوة. وكانت خيبة الأمل فى العالم اليهودى شديدة.

أندريه فيرساى: وأنت، هل أصبت بخيبة أمل؟

شيمون بيريز: نعم ولو قليلا. لاحظ أن مجرد زيارة البابا لإسرائيل كان من الممكن أن تفسر على أنها علامة أولية، إن لم يكن اعترافا بإسرائيل، فعلى الأقل كان بمثابة انفتاح للفاتيكان نحونا. بولس السادس كان أول بابا فى العصور الحديثة يزور الأماكن المقدسة المسيحية، وقام بهذه الزيارة في ظل حكومة يهودية؛ وهذا ليس بالشيء القليل. ولكن، إن كانت الزيارة فى حد ذاتها حدثًا، فيجب القول إن مجرى الزيارة كان إلى حد ما، تافها..

على أية حال، فإننى أحتفظ بذكرى قصة طريفة مضحكة: فعندما علمنا بزيارة البابا، تم إبلاغنا أيضًا بخط سيره. كان بولس السادس ينوى المرور بالأردن، وهو طريق معقد إلى حد ما. فقمنا بإيفاد رئيس جهاز الأمن إليه ليحاول أن يفهم سبب اتخاذه هذا الطريق. وفى مناقشاته مع منظمى الرحلة، لاحظ مبعوثنا أن الفاتيكان خطط للرحلة من خريطة يعود تاريخها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى! ولم نستطع أن نمنع أنفسنا من اعتبار ذلك دليلاً على ضعف قدرات الفاتيكان، الذى عادة ما يحصل على معلومات دقيقة للتغييرات الجيوسياسية، فى متابعة التطورات التى لحقت بمنطقة الأماكن المقدسة، وأن يأخذ بعين الاعتبار إقامة الدولة اليهودية.

أندريه فيرساى: كيف تفسر أن الفاتيكان لم يعترف بإسرائيل لأكثر من نصف قرن؟

شيمون بيريز: بما أن عددا كبيرا من الكاثوليك يعيشون فى البلاد العربية، فقد يكون الفاتيكان أراد أن يحتفظ بأى ثمن بعلاقات جيدة مع هذه البلاد حتى يتجنب تعرض الأقلية الكاثوليك لأى مخاطر أيا كانت. ذلك من الجانب الذى نطلق عليه «الجيوبوليتيكى» للمسألة. ولكن من الواضح، أن هناك عاملاً آخر غير ظاهر، يشترك فى تفسير هذا التردد، وهو الخلاف الكبير اليهودى المسيحى، والقديم لعدة قرون. فقد اعتبر التيه الذى عانى منه الشعب اليهودى عقابًا له، وشاهدًا على خطأه، وعلى خطيئته لأنه لم يعترف بالمسيح، وقام بقتله. وكون اليهود قد عادوا إلى وطنهم القومى، فذلك يعنى أنه لم يعد محكومًا عليهم بالتيه، وهو ما قد يستوجب إعادة النظر فى هذه العقيدة.

أندريه فيرساى: بلا شك، ولكن منذ عهد يوحنا الثالث والعشرين، ومجمع الفاتيكان الثانى (١٩٦٢ـ١٩٦٥م) تم تبرئة اليهود من تهمة قتل المسيح.

شيمون بيريز: هذا حقيقى، وعلينا بالطبع أن نحيى قرار يوحنا الثالث والعشرين. ورغم ذلك، ليس إلغاء التنويه فى الكتب الدينية هو الذى سيمحى قرونًا من معاداة السامية المسيحية.

أعتقد أنه كان من الصعب على قادة الكنيسة الكاثوليكية قبول فكرة أن اليهود يحكمون البلد الذى يأوى الأماكن المقدسة المسيحية. إذ يُعدّ ذلك شيئًا مزعجًا فى نظرهم.

بطرس بطرس غالى: بالفعل، فأنا أذكر أن المستشرق الكبير لوى ماسينيون أعرب عن حزنه لأن قبر المسيح يقوم بحراسته جنود يهود.

وبالنسبة لهذه الزيارة، أود أن أذكركم بشىء غير معروف. فقد علق العرب المسيحيون وأيضًا المسلمون، آمالاً كثيرة على هذه الزيارة، خاصة بالنسبة للمواقف التى اتخذها الفاتيكان لصالح تدويل القدس. وتصوروا أن هذه الزيارة تذهب فى نفس اتجاه هذا التدويل الذى قد يسمح، فى مرحلة ثانية، بأن يجعل من القدس عاصمة لفلسطين. ولكن ذلك لم يحدث.

أندريه فيرساى: إن كانت العلاقات بين إسرائيل والفاتيكان مضطربة، فما قولك عن العلاقات مع ألمانيا؟ ورغم ذلك، فمنذ الخمسينيات، بن جوريون سوف يبدأ تقاربًا مع بون من أجل الحصول على المعونة، ثم تطبيع هذه العلاقات، وأخيرًا إقامة علاقات دبلوماسية مع الجمهورية الفيدرالية الألمانية. كيف كان الموقف فى إسرائيل من هذه الأحداث؟

شيمون بيريز: تنوعت الآراء. من بين هؤلاء الذين عارضوا هذا التقارب، نجد بكل تأكيد العديد من الناجين من معسكرات الموت، والذين لا يستطيعون الصفح عن ألمانيا، بالإضافة إلى شريحة سياسية يمينية اصطفت خلف مناحم بيجين. أثارت هذه المحاولة من التقارب الإسرائيلى الألمانى مظاهرات غاضبة بشكل خاص، ولقد هوجم الكنيست بالحجارة. ولكن بن جوريون تمسك بموقفه، لأنه كان يرى أنه يجب الالتفات إلى الجيل الشاب الذى سوف يشكل مستقبل هذا البلد وليس العودة إلى ماضيه. إن كان يجب علينا ألا ننسى الماضى، فلا نستطيع إلا أن نأخذ المستقبل فى الاعتبار. ولدت ألمانيا الجديدة التى لا يحق لنا أن نحملها مسئولية جرائم الرايخ الثالث، ولا شىء يجمع زعماءها، ولاسيما مستشارها إديناور، بالنازية.

كان الألمان من جانبهم يدركون أنهم لن يُعتبروا قومًا متحضرين طالما أنهم لم يقدموا الدليل على الاعتراف بذنبهم تجاه اليهود، ضحايا اضطهادهم البشع. كما وجدت فى ألمانيا فى هذا الوقت حركة ألمانية تدعى: «لا نعاود الكرة أبدًا». وكان إديناور من هؤلاء الذين فهموا أن على ألمانيا إجراء تحول جاد، وأن التغيير يجب أن يكون براقا بكل المقاييس.

ومن جهة أخرى رأى بن جوريون بسرعة أنه مع إديناور يمكن إقامة علاقات على أسس سليمة. وبسرعة، تفاهم الرجلان.

أندريه فيرساى: قبل إقامة أى علاقات دبلوماسية، بدأ التقارب مع ألمانيا على أسس «عسكرية صناعية».

شيمون بيريز: نعم، كنا نسعى دائما لدعم قوتنا العسكرية، وكما شرحت من قبل، كنت من جانبى مؤيدًا للتوجه الأوروبى، أكثر من الأمريكى. فالعلاقات القوية التى تطورت مع فرنسا دفعتنى إلى السعى إلى تقوية الروابط مع أوروبا. لذا تمنيت إقامة اتصالات مع ألمانيا، ولكن الإبادة الجماعية جعلت من الصعب إقامة أى مشروع لتطبيع العلاقات بين الدولتين. كان الاتفاق الوحيد الذى تم بيننا حول التعويضات الألمانية، ولقد أثارت هذه المسألة أيضًا انفعالات عديدة فى إسرائيل.

أندريه فيرساى: إذن، سوف تعمل شخصيا على التقارب مع ألمانيا.

شيمون بيريز: نعم، بعد حرب سيناء، أردت أن أتبع طريقا مماثلا لما قمت به مع الفرنسيين، عن طريق محاولة عقد اتصالات شخصية مع المسئولين السياسيين والبدء فى إقامة علاقات بين وزارتى الدفاع. بهذه الطريقة استطعت مقابلة فرانز جوزيف شتراوس، وزير الدفاع فى هذا الوقت. فى هذه الفترة كانت هنالك فجوة ساحقة تفصل بين شعبينا، وكانت مسألة التطرق مباشرة إلى العلاقات بين إسرائيل وألمانيا من المسائل الحساسة حقيقة. ولكن، وخلال هذا اللقاء، تشكل شيئًا ما، يشبه علاقة ثقة، بينى وبين شتراوس، واستطعت نقل وجهة نظرى إليه بحرية حول الوضع الألمانى الإسرائيلى وحول الطريقة التى أرى بها تطوره. وشرحت له كيف أن فرنسا قد أمدتنا بالسلاح وبالمستشارين، بينما قدمت لنا الولايات المتحدة المال الذى اشترينا به هذا السلاح. ولذا أوضحت له أن ألمانيا المتهمة بالإبادة الجماعية، والتى تتحمل مسئوليات خاصة نحو إسرائيل، تستطيع من جهتها أن تساعدنا أيضًا. أردت الحصول على موافقة ألمانيا على مدنا بالسلاح بلا أدنى مقابل، لا مادى ولا أى شىء آخر، وأن نقيم بين وزارتينا علاقات ثقة مثل تلك التى أقمناها مع فرنسا. لقد كان بيننا نقاش طويل، ولكن بعد مرور ست ساعات أبلغنى شتراوس رسميًا: *«ياسيدى، أنا على استعداد لمساعدتك»*. لقد قبل لتوه مبدأ مدنا بأسلحة دفاعية *(ولكن ليست هجومية)*، ولكن بشرط أن تؤكد الأحزاب الألمانية الأخرى على موافقتها. بعد عدة أشهر، بدأنا نحصل فى إسرائيل على أجهزة ذات نوعية ممتازة، جاءت سواء من فائض الجيش الألمانى، أو مباشرة من مصانع السلاح. وهكذا حصلنا على طائرات لنقل القوات، وطائرات تدريب، ...إلخ.

وأريد أن أوضح أن ذلك لم يكن جزءًا من «التعويضات»، هذه الهبات كانت نتيجة للعلاقات المتميزة التى استطعنا أن نقيمها مع جمهورية ألمانيا الفيدرالية.

أندريه فيرساى: وكيف كان رد فعل الرأى العام فى إسرائيل؟

شيمون بيريز: فى البداية، قصدنا تقديم هذه الاتفاقيات بشكل غامض إلى الرأى العام؛ أولا، كما قلت من قبل، لأن الشعب الإسرائيلى لم يكن ناضجا بعد لكى يقبل فكرة تعاون وثيق مع ألمانيا، ثم لأن الأوساط السياسية الألمانية لم تكن كلها مؤيدة لتنمية التعاون مع إسرائيل، وكانت جمهورية ألمانيا الفيدرالية مهتمة كثيرا برد فعل العرب؛ أكد المسيحيون والليبراليون على موافقتهم، بينما كان الاشتراكيون - الديمقراطيون مترددين إلى حد ما، وكذلك وزارة الخارجية. من حسن حظنا أن إديناور اعتبر أن من واجب ألمانيا مساعدة إسرائيل. لذلك شجع ودافع عن موقف وزارة الدفاع. ذلك لم يمنع ألمانيا الفيدرالية من مواصلة مد مصر بالسلاح، وبكميات أكبر كثيرًا من تلك التى ترسلها إلى إسرائيل. مهما كان الأمر، فقد تجنبنا علنا، شرح ما كنا نحاول القيام به.

أندريه فيرساى: ولكن السر لن يبقى طويلاً فى الكتمان!

شيمون بيريز: إلى أن جاء يوم، نشر فيه مقال فى الصحافة الإسرائيلية طرح فيه الحوار على الرأى العام. هذه المعلومات فجرت المشاعر، فضلا عن أنه تكشف أن إسرائيل أيضا باعت لألمانيا بنادق صنعت فى إسرائيل. تحول هذا الموضوع إلى الكنيست، وندد بيجين بهذا التقارب مع ألمانيا. ولقد حاولت فى هذا الوقت أن أشرح أهمية العلاقات مع ألمانيا لإسرائيل التى كانت ما زالت ضعيفة، ولكن خطابى لم يلق تأييد نصف الكنيست. وأعتقد أن هذه النسبة كانت تعكس بشكل جيد انقسام رأى الشعب بشكل عام، وعندما زار فرانز جوزيف شتراوس إسرائيل دعوته إلى منزلى، خرجت مظاهرات تحت نافذة منزلى، وكان المتظاهرون يصيحون: «*شتراوس-بيريز، اخرجوا!!!*».

ثم ظهرت سلسلة مقالات فيما بعد فى الصحافة الأمريكية كشفت عن صفقات السلاح السرية التى تمت بين ألمانيا وإسرائيل، وهو ما أحرج حكومة بون. هذه المعلومات، كما توقعت، أثارت غضب الدول العربية، وأبلغ عدد منها أنها سوف تقطع العلاقات الدبلوماسية مع بون فى الحال. وذهب البعض إلى حد أن هدد بإقامة علاقات مع ألمانيا الشرقية. هذه التعقيدات غير المتوقعة كانت نتيجتها المباشرة تغييرًا جذريًا فى السياسة الألمانية. وقررت بون وضع حد لتعاونها مع إسرائيل فى مجال الدفاع. أثار الخبر قلقًا

متزايدًا حيث زود الاتحاد السوفيتى مصر لتوه بعدد كبير من المدرعات الإضافية الحديثة إلى أقصى حد.

وتزايد الضغط من جانب الدول العربية إلى حد أن المستشار إرهارد، الذى تولى السلطة خلفا لإديناور، وجد نفسه مضطرًا لأن يحدد بوضوح طبيعة العلاقات بين إسرائيل وألمانيا الفيدرالية. وبعد مرور عام، أى فى ١٩٦٥م، وفى تصريح علنى، قدم الإطار الذى من خلاله يرى إمكانية تطوير تلك العلاقات: اقترح إقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل، وأكد على رغبة ألمانيا بألا تقدم أسلحة فى مناطق التوتر واستبدال اتفاق إمداد إسرائيل بالأسلحة بعقد جديد يجرى التفاوض بشأنه مع إسرائيل. امتدت المفاوضات عدة أسابيع. وأخيرًا وافقت ألمانيا على قيامها بتسديد أسعار الأسلحة التى تشتريها إسرائيل من دول أخرى، وخاصة من فرنسا، ولكن بون لن تمد الدولة العبرية بأسلحة كما أن الأخيرة لن تحصل مباشرة على أموال من ألمانيا. وهكذا، ولمدة سنوات، حصلت إسرائيل على كميات كبيرة من الأسلحة بدون أن تسدد ثمنها. وأخيرًا، فى ١٣ مارس عام ١٩٦٥م، أقامت الدولتان علاقات دبلوماسية.

أندريه فيرساى: وفى الوقت الذى أقيمت فيه العلاقات، ثارت ثائرة الدول العربية.

شيمون بيريز: بالتأكيد! ولكن الدول العربية ستثور ثائرتها مرارًا ضد كل تطبيع للعلاقات بين إسرائيل والدول الأخرى.

بطرس بطرس غالى: كيف يمكن أن يكون الأمر مختلفًا؟ فكل السياسة العربية قامت على أساس أن إسرائيل غير موجودة، وأنها دولة وهمية مؤقتة. لذا فإن كل اعتراف بإسرائيل من جانب دولة أخرى يساهم فى إضعاف منطق القومية العربية. ولكن فى نفس الوقت، كان لدينا الشعور بأن هذه التعويضات، جعلت إسرائيل تتمتع بنظام من الامتيازات. فى تلك الحالة، لماذا لا يحق لأرمينيا المطالبة بتعويضات أثر الإبادة التى كانت ضحيتها؟ ولماذا لا يحق للدول الإفريقية المطالبة بتعويضات لملايين الرجال والنساء الذين ماتوا خلال نقلهم إلى العالم الجديد وخلال قرون من تجارة الرقيق؟

* * *

٦- حـرب الأيـام الستـة ونتائجهـا

موسكو، مطلق الجن؟ - ناصر يطرد القوات الدولية..- ..ثم يمنع إسرائيل من مضيق تيران - حركات أو استعدادات للحرب؟- «لن تكون وحدك، إلا إذا قررت أن تخوض وحدك» - موشيه دايان، وزير الدفاع - حسين هل كان مضطرًا لأن يتبع مصر وسوريا؟ - انتصار سريع - «أريد أن أعود مواطنا بسيطا».

أندريه فيرساى: الحرب الباردة تستمر من خلال «صراعات جانبية» متشابكة. الشرق الأوسط كان أحد تلك المناطق، ومن أخطرها. فى شهر مايو عام ١٩٦٧م، توتر الوضع بين مصر وسوريا وإسرائيل. شيمون بيريز، فى كتابك، ديفيد ومقلاعه، شرحت أن السوفييت هم الذين «أبلغوا» أنور السادات (الذى كان فى ذلك الوقت رئيس مجلس الأمة المصرى)، وكان فى زيارة إلى موسكو، أن إسرائيل تقوم بحشد قواتها عند الحدود السورية. ومع ذلك، لم يكن هناك فى تلك الفترة أية تحركات خاصة من الجنود الإسرائيليين فى هذه المنطقة، وهو ما أكده اللواء محمد فوزى، قائد القوات المصرية، بعد أن شاهد الصور الجوية.

ما هى اللعبة التى كانت موسكو تلعبها بإعطاء العرب هذه المعلومات، والتى كانت بكل وضوح، غير صحيحة؟

شيمون بيريز: بصراحة، أنا لست متأكدًا من شىء؛ فقد كان من الصعب دائما معرفة اللعبة الحقيقية التى يلعبها السوفييت، فقد كانوا دائما أساتذة فى فن تزييف الحقائق والتلاعب الدائم.

بطرس بطرس غالى: تعلم أنه عندما يقع حدث سياسى، يسود الاعتقاد أنه نتيجة لنية محددة، ولحسابات، ويتحدث الجميع عن «مؤامرة». وبالأخص فى العالم العربى حيث

نرى مؤامرات فى كل مكان. بالنسبة لى، فأنا أعتقد أن العديد من الحروب هى فى الحقيقة نتيجة لظروف لم يتم السيطرة عليها تماما من مسئولين غير أكفاء. لذا فأنا أفضل نظرية الخطأ عن نظرية المؤامرة.

شيمون بيريز: أعتقد أن تلك المناورة كانت بالنسبة لموسكو وسيلة لكى يظهروا للعرب اهتمامهم نحوهم. وفى نفس الوقت، يبدو لى من الواضح أن الكرملين أراد خلق بؤرة توتر واحتكاك فى هذه المنطقة التى يغيب عنها الأمريكيون بسبب تورطهم فى حرب فيتنام. لذلك فقد كانت وسيلة لإبقاء الدول العربية تحت الضغط، وفى نفس الوقت تقوية الروابط معهم. ورغم ذلك، لا أعتقد أن السوفييت أرادوا الحرب.

أندريه فيرساى: ومع ذلك، فيما بعد كتب يوجينى بيرلين، وزير الخارجية السوفيتى فى هذا الوقت، يقول: *«كنا نتصور أنه حتى لو لم يفز أحد فى هذه الحرب، فسوف تحصل بلادنا على مميزات عديدة على الجانب الـچيوبوليتيكى، لأن مصر سوف تظهر قدراتها فى شن الحرب بأسلحتنا ومساندتنا العسكرية والسياسية. كنا نتمنى أن يتغير توازن القوى فى الشرق الأوسط بعد هذا الصراع»*.

شيمون بيريز: أعتقد أن الأمر كان يهدف فى الأساس إلى تنظيم نوع من جبهة تضامن سوفيتية - عربية من خلال دفع المصريين إلى تعبئة قواتهم فى سيناء من أجل طمأنة السوريين الذين كانوا يزعمون أن إسرائيل تهددهم. فى الحقيقة، أصبحت سوريا أرضًا لاستقبال الإرهابيين الفلسطينيين. إذ إنها لم تسمح لهم فقط بإقامة قواعدهم ولكنها كانت أيضًا تساعدهم ماديًا، كما كانت القرى الزراعية الواقعة فى مواجهة وادى نهر الأردن هدفا لضربات المدفعية. وكانت وسيلة لتنظيم حرب عصابات ضدنا انطلاقا من مرتفعات الجولان. وفى نفس الوقت، قررت دمشق تحويل مجرى مياه نهر الأردن، التى تمثل مصدر المياه الوحيد للمناطق الشمالية فى بلادنا. وقامت إسرائيل أولا بالرد على تلك التحرشات بإطلاق النار على الجرارات التى كانت تقوم بحفر قناة التحويل، ثم بدأت قواتنا الجوية ترد فور قيام السوريين بفتح النيران على الأراضى الزراعية، وتقصف البطاريات السورية. لقد استغلت دمشق هذا الوضع لصالحها من خلال لعب دور الضحية. هذه الحملة الدعائية نظمت بشكل جيد إلى حد أن الاتحاد السوفيتى، الذى كان يساند دمشق، طلب من مصر أن تهب لنجدتها. ولكن الوضع تدهور بسرعة، وفقد السوفييت السيطرة. ولنقل إن موسكو لعبت دورًا مفجرًا للأحداث، وإنها لم تنجح حقيقة فى هذا الدور.

أندريه فيرساى: الغريب أنه، بينما تلبد المناخ مع سوريا، إلا أن ناصر هو الذى اندفع.

شيمون بيريز: نعم، فى مارس عام ١٩٦٧م، ناصر، الذى كان يتمتع فى العالم العربى بمكانة تتزايد حجمها، قرر أن يركز قواته فى سيناء.

بطرس بطرس غالى: كانت هناك القوات التى أرسلتها مصر إلى اليمن، والتى غادرتها بعد اتفاق وقف إطلاق النار بين مصر والسعودية.

شيمون بيريز: هو كذلك. فى البداية تصورنا أنها مجرد مظاهرة دعائية موجهة إلى العالم العربى. ولكن بسرعة، ومع تزايد الإمدادات الإضافية كل يوم وتضخم صفوف القوات الموجودة بالفعل فى سيناء، فهمنا أن مصر تستعد للحرب.

أندريه فيرساى: لقد بدأ التصعيد نحو الصراع المسلح فى ١٦ مايو عام ١٩٦٧م، مع طلب الرئيس المصرى سحب الـ ٣٤٠٠ جندى من جنود الأمم المتحدة الذين كانوا يتمركزون فى سيناء على الحدود مع إسرائيل منذ نهاية حرب السويس. لماذا اتخذ ناصر هذا القرار؟

بطرس بطرس غالى: أعتقد أنه كان مأخوذا بنوع من الاندفاع لم يستطع السيطرة عليه. نعرف أن هذا النوع من التحدى يشعل الجماهير. بالإضافة إلى أنه لو كانت نهاية التدخل الإنجليزى - الفرنسى - الإسرائيلى فى عام ١٩٥٦م قد اعتبرت، من الناحية السياسية، بمثابة «انتصار»، فإن الجيش المصرى لم يستطع أن يمنع نفسه من اعتبارها، عسكريًّا، هزيمة. لذلك كانت القيادة العليا تسعى إلى الانتقام. ذلك بالإضافة إلى أن الجيش، كما ذكرت من قبل، ظل مقتنعا بأنه بدون مساندة إنجلترا وفرنسا، لما استطاعت إسرائيل أبدا الاستيلاء على سيناء.

شيمون بيريز: إننى أعتقد مثلك، أن ناصر اندفع قليلاً رغمًا عنه. لست متأكدًا أنه أراد فعلاً فى البداية شن حرب جديدة. فلم يكن الأمر يتعدى نوعًا من العنترية، ولكن العالم العربى أشاد به إلى حد أنه لم يستطع التراجع، كما أنه شعر بأنه مدفوع إلى التقدم أبعد من ذلك حتى لا يفقد ماء وجهه وحتى يزيد من مصداقيته كزعيم للعالم العربى.

لقد أصابه ما يصيب الكثير من الطغاة؛ إذ ينتهى بهم الحال بأن يندمجوا مع الصورة المثالية التى تعطيها لهم الجماهير عن أنفسهم. ويفقدون عقولهم، أو على الأقل كل إحساس بحجمهم الحقيقى وبالواقع. وناصر، لم يصدق خطابه فقط، بل من خلال ظاهرة

نفسية غريبة، خطابه أصبح هو واقعه. ومن خلال إعلانه أن إسرائيل سوف تُهزم، بل وتُدمر، اعتبر الريّس أن الحرب انتهت بالفعل وأن إسرائيل دُمرت.

أندريه فيرساى: إذن طلب ناصر من القوات الدولية الرحيل، ووافق يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة، بدون تأخير، على طلب القاهرة، ليزيل بذلك الستار الرفيع الذى كان يفصل بين الدولتين.

شيمون بيريز: بالفعل، وفور إخلاء قطاع غزة وشرم الشيخ من قوات الأمم المتحدة، اتخذت أسراب طائرات الميج والسوخوى مواقعها فى القواعد الجوية التى لم تستخدم منذ وقت طويل.

أندريه فيرساى: بطرس بطرس غالى، كيف تحكم على هذه الطريقة من الامتثال الفورى لرغبات ناصر من جانب سلفك؟ هل كان أمام يوثانت فرصة للاختيار؟

بطرس بطرس غالى: بصراحة، أنا لا أفهم ما الذى دفع يوثانت إلى التصرف بهذه الطريقة. لقد كانت بلا شك خطأ فاجعًا. هل كان لديه خيار؟ لا أعرف. ولكن كان لديه، على أية حال، إمكانية للتريث؛ فمنذ اللحظة التى بدا فيها بوضوح أن تحركًا ما يمكن أن يضع أمن المنطقة فى خطر، كان من الممكن كسب وقت من خلال أن يبين، على سبيل المثال، أنه يجب تقديم طلب مصرى إلى مجلس الأمن. كسب وقت يندرج تحت ما يسمى الدبلوماسية الوقائية. بالطبع القوات الدولية لم تكن تحمى مصر ولا إسرائيل، حقيقة، ولكن كان لها قيمة رمزية فى إطار منع وقوع حدث من شأنه أن يؤدى إلى صدام.

شيمون بيريز: من الواضح أن يوثانت ارتكب خطأ كبيرا. أعتقد أنه هو أيضا وقع تحت تأثير سحر هذا الذى بدا وكأنه بطل العالم العربى.

هل كان لديه الخيار؟ نعم ولا، فكانت القوات الدولية متمركزة على الجانب المصرى من الحدود، ولا تستطيع الاستمرار هناك ضد رغبة القاهرة. ولكن فى نفس الوقت، كان وضع جنود من الأمم المتحدة على الحدود شرطًا لانسحابنا من سيناء بعد حملة السويس. فعن طريق طرد القوات الدولية، فسخ ناصر اتفاقية الهدنة التى وقعها.

أندريه فيرساى: فى ٢٢ مايو، تم تجاوز خطوة جديدة فى التصاعد؛ منع ناصر السفن الإسرائيلية من العبور فى مضيق تيران، مما أدى إلى حصار ميناء إيلات الإسرائيلى.

شيمون بيريز: وهو ما كان يمثل *حالة* حرب. فبعد حملة السويس، كما قلنا، التزمت القوى البحرية العظمى بضمان حرية الملاحة فى خليج العقبة لكل الدول. وتعهدت

بالتدخل من أجل كسر أى إغلاق جديد محتمل تفرضه مصر. لذلك عزمت الحكومة الإسرائيلية، قبل اتخاذ أى قرار، على أن تستشير الدول الأساسية التى وقعت على هذا الالتزام، حتى تعرف موقفهم. فى لندن، اقترح هارولد ويلسون رئيس الوزراء عبور دورية بحرية دولية فى مضيق تيران والحصول بذلك على إعادة فتحه. والرئيس الأمريكى جونسون، الذى أدان الإغلاق المصرى، وصفه بأنه عمل غير شرعى، وكان يفضل هو أيضًا إرسال أسطول دولى إلى الخليج، يضم سفنا تحمل أعلام عدد من القوى العظمى البحرية. وضع جونسون شرطين أولين قبل أن يتخذ قراره النهائى: من ناحية أن تطرح المسألة أمام الأمم المتحدة، ومن ناحية ثانية أن يقوم مجلس الشيوخ الأمريكى ببحثها. أما بالنسبة لفرنسا، فقد أوضح ديجول إلى أبا إيبان أن *«فرنسا عام ١٩٦٧م لم تعد هى فرنسا عام ١٩٥٦م»* وأضاف: *«لا تطلقوا النار أولاً»*. أثار موقف الرئيس الفرنسى، الذى كان بداية برود فى العلاقات الفرنسية الإسرائيلية، خيبة أمل فى إسرائيل.

ومع ذلك، بدا واضحًا أن فرصة نجاح عملية بحرية دولية من أجل إعادة فتح مضيق تيران كانت ضعيفة، فلم تكن كل من كندا والمكسيك وإيطاليا على استعداد إطلاقا للمشاركة فيها.

بطرس بطرس غالى: أعتقد أن الماريشال عامر وزير الحربية، يتحمل جزءا من المسئولية فى هذا التصعيد، حيث إنه أقنع ناصر أن الجيش المصرى سينتصر. وقام بنشر ست وحدات فى سيناء، ومئات الدبابات والمدفعيات، وأعاد على الأقل لواءين من اليمن قبل أن يعلن التعبئة العامة فى الجيش. ورغم ذلك، كانت قواته فى وضع الدفاع. أعتقد أن ناصر لم يرغب حقيقة فى الحرب، ولكنه كان يبحث من خلال مناورة سياسية إلى بث الخوف وإثناء إسرائيل عن مهاجمة سوريا.

أندريه فيرساى: هل كان يمكن لناصر أن يتصور أن الإسرائيليين لن يردوا عليه؟ أم تصور أن الأمريكيين والسوفييت سيتدخلون فى الوقت المناسب من أجل تهدئة اللعبة؟

بطرس بطرس غالى: فعلا، طرحت تلك الفرضية. انقسام الجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٦١م، ورطة اليمن، مشكلات اقتصادية داخلية جمة، كل هذه المصاعب ربما تكون قد دفعت ناصر إلى إطلاق عملية مسرحية ضخمة من أجل توجيه الأنظار، معتمدًا على أن القوتين العظميين قد يتدخلا. فى تلك الحالة كان ناصر «سيمتنع» عن المواجهة. قد يتم بدون شك التفاوض بشأن هذا «الامتناع» فى مؤتمر دولى، وكان من الممكن أن تحصل مصر منه على فوائد سياسية كبيرة.

شيمون بيريز: لست متأكدا أن ناصر كان فى ذهنه استراتيجية محددة. وأعتقد حقيقة أنه اعتبر ضرباته العشوائية نجاحًا دبلوماسيًا؛ لقد أصبح الرجل القوى الذى سيظهر إسرائيل فى حالة ضعف. وأيضا ربما يكون الحماس العربى العام (هذه الظاهرة من الهستيريا الجماعية لها دور تعبوى إلى أقصى حد وتؤدى إلى النشوة) قد خلب لبه إلى حد أنه جعله يتصور أن فى قدرته إلحاق هزيمة بإسرائيل، وأنه قد يصبح «*الرجل الذى انتقم للكرامة العربية*».

أندريه فيرساى: كيف كانت فى ذلك الوقت، الروح المعنوية للجيش المصرى؟

بطرس بطرس غالى: كانت الحالة المعنوية ممتازة. هذه الأزمة وحدت العالم العربى الذى ضم صفوفه حول ناصر: فى ٣٠ مايو عام ١٩٦٧م، سارع الملك حسين إلى القاهرة ووقع معاهدة دفاع مشتركة، وتم تعيين الجنرال المصرى عبد المنعم رياض، قائدًا عامًا للجيش الأردنى، وتم عقد معاهدة تعاون مشترك بين العراق ومصر؛ عبرت فرقة ميكانيكية عراقية حدود الأردن وتوجهت نحو نهر الأردن؛ وصلت وحدتان كوماندوز مصريتان جوًا إلى الأردن.. باختصار، كل شىء كان يشير إلى الحجم الكبير للتحالف الجديد هذا. وفى نفس الوقت، قامت وسائل الإعلام بتعبئة الجماهير العربية وأقنعتهم بالنصر. وأخيرًا، كان الرأى العام مقتنعًا بأن هذه الحرب القادمة ستجرى بمساندة الاتحاد السوفيتى، «*كما ساعدت أمريكا وأوروبا إسرائيل من قبل*». وبدا أن التوازن بين القوى العربية والقوى الإسرائيلية يتجه لصالح التحالف العربى. وفى الحقيقة، كانت مصر تملك ما بين ١٥٠ إلى ١٨٠ ألف جندى و٩٠٠ دبابة و٨٠٠ قطعة مدفعية. وكان الجيش الأردنى يملك ٥٦ ألف جندى و٢٦٤ دبابة، وأكثر من ٣٠ دبابة يملكها العراقيون، و١٩٤ قطعة مدفعية عراقية - أردنية. أما الجيش السورى، فكان يضم ٧٠ ألف جندى ونحو ٣٠٠ دبابة. وكان الجيش الإسرائيلى من ناحيته، الذى يضم ٢٥٠ ألف جندى، يتكون ثلاثة أرباعه من الاحتياطى.

أندريه فيرساى: لم نعد فى مرحلة التلويح بالحرب: إن لم تعتبر تلك استعدادات للحرب، فهى على الأقل تبدو كذلك.

بطرس بطرس غالى: نعم ولا. الجميع يعلم أن توقيع اتفاقية عسكرية ووضع إستراتيجية مشتركة بين ثلاثة جيوش مختلفة تحتاج إلى استعدادات طويلة. لذا يمكن القول إن اتفاقًا موقعًا عشية الحرب يعنى أساسًا التخويف. وأنا على يقين أن الخبراء العسكريين الإسرائيليين كانوا يعلمون تمامًا معنى تلك التحركات.

أندريه فيرساى: والشعب المصرى، كيف كان يرى هذه المسيرة نحو الحرب؟

بطرس بطرس غالى: كانت الآراء منقسمة، مثلما هى دائما. ولقد رأى جزء من الشعب أننا نتوجه إلى المغامرة، وإنها مسّ من الجنون. ولكنهم كانوا أقلية. أما الأغلبية فقد أثار الإعلام حماسها، وكانت تعتقد أن جنودنا، الذين تمرسوا على الحرب فى اليمن، سوف يسحقون القوات الإسرائيلية. وبدا ناصر على ثقة كبيرة فى نفسه إلى حد أن الكثيرين تصوروا أنه حصل على ضمانات من الاتحاد السوفيتى.

أما عن نفسى، فقد تأرجحت ما بين الاقتناع بأنها مغامرة خطيرة وبين التأكد بأن الجيش المصرى سوف يحقق نصرًا - وإن كان محدودًا - لأن الولايات المتحدة والأمم المتحدة سوف يتدخلان لفرض وقف إطلاق النار حال تدهور الوضع لصالح إسرائيل.

أندريه فيرساى: فى العالم العربى، انتشرت المظاهرات التى تدعو إلى الحرب وتزايد الحديث حول *«تدمير إسرائيل»* و*«إلقاء اليهود فى البحر»*.

بطرس بطرس غالى: كان ذلك جزءًا من الدعاية النفسية. كانت المسألة كسب الرأى العام. فنحن نعلم تمامًا، أن الولايات المتحدة لن تسمح أبدا بتدمير إسرائيل ولا طرد اليهود. وبالطبع، استغلت الدعاية الإسرائيلية بكثرة هذه المبالغات من أجل تعبئة يهود الشتات والحصول على دعم المجتمع الدولى.

أندريه فيرساى: شيمون بيريز، يقول البعض إنه فى حقيقة الأمر، اقتنص الإسرائيليون الفرصة من أجل الهجوم على مصر قبل أن تحاول الأمم المتحدة تهدئة الوضع، ولقد منح لهم استفزاز ناصر فرصة فريدة لكسر الجيش المصرى ولمدة طويلة قادمة. ولقد قص عيزرا وايزمان بعد ذلك بثلاثين عامًا، فى حديث صحفى، كيف أنه ذهب بنفسه ليرى رئيس الوزراء ليفى أشكول وقال له: *«اسمع، ليفى: وراءك يقف أفضل جيش حصلنا عليه منذ الملك داوود. هناك فرصة ذهبية قدمت لنا من أجل إنهاء المهمة والتخلص إلى الأبد من الجيش المصرى. ليس من حقنا أن نضيعها!»*.

شيمون بيريز: قد يكون ذلك ما قاله وايزمان، ولكنى أستطيع أن أؤكد لك أنه فى هذا الوقت، كانت ثقة قائد القوات، إسحاق رابين، أبعد ما تكون عن الرسوخ. وعلى أية حال، فهذه الثقة لم تكن، بالتأكيد، مشتركة بين كل قادة الجيش.

أندريه فيرساى: ولكن هل يمكننا التأكيد على أن إسرائيل كانت حقيقة فى خطر؟

شيمون بيريز: أى حرب تضع البلد فى خطر. ليس هناك أبدا ضمانات. وعلى أية حال، ففى عام ١٩٦٧م بدا الوضع خطيرًا فى الواقع. لقد ذكرت لتوك خطب الكراهية الملتهبة،

للزعماء العرب، ولاسيما زعيم منظمة التحرير الفلسطينية أحمد شقيرى، الذى وعد بإلقاء اليهود فى البحر. وانطلقت شعارات شديدة الدموية بشكل مستمر من العرب فى المنطقة.. بالطبع لم نتصور أن إسرائيل تواجه خطر الموت، ولكن يجب القول إننا، الإسرائيليين، كانت لدينا أسباب وجيهة كى لا نستهين بهذه الدعوات للتدمير، وألا نعتبرها مجرد أقوال بلاغية. لقد كنا على بعد أقل من ٣٠ عامًا من المحرقة.

أندريه فيرساى: أبا إيبان، وزير الخارجية الإسرائيلية فى ذلك الوقت، سارع إلى واشنطن لمقابلة الرئيس الأمريكى ليندون جونسون.

شيمون بيريز: نعم، كان من رأى بن جوريون أنه يجب عدم شن الحملة العسكرية طالما أننا لسنا متأكدين أن هناك قوة عظمى تقف بجانبنا، قادرة على مساندتنا فى حالة حدوث مشكلات خطيرة. وكما كان الوضع قبل حملة ١٩٥٦م، كان بن جوريون يخاف من حجم الخسائر البشرية التى سوف تؤدى إليها حرب جديدة.

أندريه فيرساى: شرح أبا إيبان للأمريكيين أن إسرائيل فى خطر. وعلى ذلك أجاب جونسون أن إسرائيل ليست إطلاقا فى أى خطر: *«لقد طلبنا من خبرائنا فى البنتاجون تقييم الوضع وتوصلوا إلى أنه إذا قمتم بالهجوم الأول، فسوف تكسبون الحرب فى فترة ما بين ٨ و١٠ أيام، أما إذا هاجمكم المصريون أولاً، فسوف تكسبون الحرب فى أقل من ١٥ يومًا»*.

شيمون بيريز: عندما ذهب أبا إيبان ليقابل الرئيس الأمريكى كان يريد أن يعرف أين تقف الولايات المتحدة بالنسبة لهذه الأزمة التى تقود بوضوح إلى مواجهة عسكرية بين مصر وإسرائيل. توجه أبا إيبان إلى واشنطن، ليس من أجل طلب مساعدات بشكل محدد، ولكن من أجل تذكير الأمريكيين أنهم التزموا، غداة حملة السويس، بضمان حرية الملاحة فى مضيق تيران. وكان جونسون يتهرب إلى حد ما من الموضوع: *«سنفعل ما نقدر عليه»* وعلى أية حال، لم يتعهد بأى شىء ملموس.

أندريه فيرساى: وقال الأمريكيون لأبا إيبان أيضًا: *«لن تكونوا وحدكم إلا إذا قررتم أن تقوموا بالمهمة وحدكم»*، بمعنى إن أخذتم المبادرة العسكرية.

شيمون بيريز: نعم، ولكن عندما توجه مائير عميت، رئيس الموساد، بدوره إلى واشنطن، ليس من أجل لقاء وزير الخارجية ولكن من أجل إجراء مباحثات مع المخابرات الأمريكية، كان الاستقبال مختلفًا. يجدر القول إن التصعيد المصرى كان قد وصل إلى نقطة اللاعودة، وهو ما يفسر هذا الاستماع المتفهم الذى أبدته المخابرات الأمريكية.

أندريه فيرساي: قبل قليل من حرب الأيام الستة، بدا أن الحكومة الإسرائيلية لم تعد تتمتع بثقة كل الشعب. وكانت تتردد طرفة على ليفي أشكول رئيس الوزراء: *«عندما نسأل أشكول: شاي أم قهوة، كان يرد: «نصف-نصف»*. هل كانت هذه الطرفة تعبر عن مشاعر الشعب الإسرائيلي الخاصة بقدرة رئيس الوزراء في اتخاذ القرارات؟

شيمون بيريز: نعم إلى حد ما. كما ترى، بينما كانت عملية تعبئة القوات المصرية تتخذ أبعادًا مقلقة. توجه أشكول، (الذي كان يتولى أيضًا منصب وزير الدفاع) إلى الإذاعة ولكنه لم يبل بلاء حسنًا. هذه الفوضى في الحديث الذي انتظره الإسرائيليون بصبر نافد كان لها أثر كارثي، وأدت إلى انهيار كبير في ثقة الشعب فيه؛ ظهر في هذا الوقت كرجل فقد كل رباطة جأشه إلى حد أنه بدا غير قادر على تقديم حججه بشكل واضح. أشكول الذي كان بريق صورته السياسية قد انطفأ، اعتبر في الحال غير أهل لقيادة البلاد.

كان الشعب يؤمن بجيشه، ولكنه لا يؤمن بحكومته. والثقة لم تعد إلا بعد تعيين دايان في منصب وزير الدفاع. ودفعت احتمالاتُ الحرب البرلمانَ إلى أن تزايدت حدة المناقشات، وسببت مناخا من عدم الاستقرار الذي رأينا أنه سيقودنا حتما إلى حكومة وحدة وطنية. واقترح البعض، مثل مناحم بيجين، عودة بن جوريون إلى الحكومة. وكان لي شخصيا مباحثات مع بيجين في هذا الشأن. كان يريد أن يعرف إن كان بن جوريون، في رأيي، قادرًا على العودة على رأس الدولة، وإن كان مستعدًا لقبول منصب رئيس الوزراء. ولقد أجبته في حينه: *«قادر، نعم، ولكن مستعد، لا أعرف»*. كنت من جانبي مؤيدًا لعودة بن جوريون، ولكني لم أكن قادرا على التكهن بقراره، حيث إنه رفض المشاركة في أي حكومة تحتفظ بليفي أشكول على رأسها، وذلك بسبب خلافه العميق مع سياسة رئيس الوزراء. وكان ذلك هو السبب الذي من أجله ترك حزب العمل، ماباي، قبل عامين، وأنشأ حزب رافي، وهو الحزب الذي انضممت إليه مع دايان.

وهكذا، فإن المعارضة المكونة من حيروت (سلف حزب الليكود) حزب بيجين، ورافي حزب بن جوريون ومافدال، لم تقتنع أبدًا أن أشكول هو الرجل القادر على قيادة البلاد في هذا الوقت من الأزمة الحادة. ولذا، توجه مناحم بيجين لمقابلة أشكول ليطلب منه: إما أن يترك منصبه لبن جوريون، أو على الأقل يعطيه وزارة الدفاع. ورفض أشكول، وقال محتجًا: إنه من غير الممكن أن يقوم رجلان يحملان آراء مختلفة إلى هذه الدرجة، بقيادة سياسة حكومية متجانسة.

ولكــن الوطــن بدا فــى حاجة إلى رجل قوى مــن أجل قيادة الحرب، وشـعر بيجين بكل تأكيد أن أشكول لم يكن لديه القدرات المناسبة. وفى البلاد كما فى البرلمان طالب الجميع بإعفائـه مـن مهامـه كوزيـر دفـاع، علـى أن يحـل مكانـه شـخص يكـون خبيـرًا حقيقيًا فى الإسـتراتيجية. كان المرشـحان المحتمـلان همـا وزير العمـل إيجال آلون، زعيـم بالماش السـابق، وموشيه دايان، الذى كان فى عام ١٩٥٦م قائد قوات الجيش. وكان الإجماع حول دايان.

وبحكمـة وافـق أشـكول، رغـم العداء الواضـح الذى يكنه لـه حزب رافـى، على تعيين موشـيه دايـان على رأس وزارة الدفـاع. ويجب الاعتراف أيضًا بقدرتـه على أن يجمع حوله رجـالاً من مختلف الأطياف السياسـية، منهم أحـد زعماء المعارضة، مناحـم بيجين، الذى سيدخل الحكومة ولكن كوزير بلا وزارة.

أندريـه فيرسـاى: فى هـذه اللحظـة، كانـت الحكومة قد قررت شـن حـرب وقائية ضد مصر؟

شـيمون بيريز: خلال الأيام التى سـبقت الحـرب، أرادت القيادة العليا برئاسـة الجنرال إسـحاق رابين، أن تشـن بالفعل، هجومًا ضد مصر فى أقرب وقت. ولكن، بسـبب الضغوط الأمريكية والأوروبية، خاصة من فرنسا، وبسبب المعلومات التى لم تكن قد تأكدت، والتى أشـارت إلـى تدخل أمريكى وشـيك مـن أجل فتـح المضيق، رفـض رئيس الـوزراء إعطاء موافقتـه على الهجوم ضد القوات المصرية. ولكن فيمـا بعد، وبعد القيام بتحليل أكثر عمقا للوضـع علـى أرض الواقـع، والتوقعـات الخاصة بـرد فعل واشـنطن فى حالـة قيامنا، رغم توصيتهم، بالهجوم العسكرى، أعطى أشكول أخيرا الضوء الأخضر للقيادة العليا.

بعـد الأحـداث، يمكن القـول أن التأخير الذى اسـتمر لنحـو ١٥ يومًـا، كان مفيدًا؛ فقد سـمح هذان الأسـبوعان للجيش أن يسـتعد بشـكل أفضل، كما انضم الرأى العـام العالمى (باسـتثناء الـدول العربية والإسـلامية بـكل تأكيد) إلى جانبنـا؛ فبدت إسـرائيل بوضوح فى وضع الدولة التى تتعرض للهجوم، وبدت مبادرتنا العسكرية مبررة.

بطـرس بطرس غالى: يجب تحديد نقطة. إن كنت تقصد بـ «الرأى العام العالمى» بعض الـدول فى أوروبا والولايـات المتحدة، فأنت على حق. ولكن العالـم الثالث بأكمله (الهند والصيـن وإفريقيا) كان يشـعر بقربـه من الفلسـطينيين والعرب أكثر من الإسـرائيليين الذين يعتبرهم مستوطنين .. *مستوطنين بيضًا*.

أندريه فيرساى: فى فجر يوم ٥ يونية، القاذفات الإسرائيلية سارعت بالهجوم على الطيران المصرى على الأرض، بينما توغلت دبابات التساحال فى سيناء. بدأت الحرب.

شيمون بيريز: نعم، وبعد ثلاث ساعات، أبلغنى دايان بالنجاح الساحق الذى أحرزته قواتنا الجوية: فى ثلاث ساعات قضت بشكل شبه كامل على القوات الجوية المصرية. وأعتقد أنها دمرت ما يقرب من ٥٠٠ طائرة وعدد كبير من ممرات الطيران المصرية أصبحت خارج الخدمة. عملية قواتنا الجوية تبعتها دباباتنا التى دخلت سيناء، ودمرت فى يومين المواقع المصرية.

ورغم ذلك، وخلال اليوم الأول، لم يعلم أحد، لا فى إسرائيل ولا فى الخارج، بالعملية العسكرية تلك؛ لأن دايان أمر المتحدث الرسمى العسكرى بالاحتفاظ بها سرًا. ولكن على العكس، نشرت القاهرة بيانات النصر، مما جعل العالم أجمع فى اليوم الأول من الحرب، وبناء على خداع تصريحات الانتصار التى كانت الإذاعة المصرية تبثها، يتصور أن إسرائيل على وشك أن تتلقى هزيمة. وفيما يبدو أن الروس أيضًا كانوا يعتقدون ذلك، ولأنهم كانوا على ثقة من أن انتصار مصر وشيكًا، قاموا بتأخير انعقاد مجلس الأمن بالأمم المتحدة.

فى الحقيقة، لقد انتصرنا فى الحرب ضد مصر، ليس فى ستة أيام ولكن فى ثلاث أو أربع ساعات. فمن اللحظة التى دمرنا فيها الطيران المصرى، كان النصر من نصيبنا. رغم ذلك كان الشعب الإسرائيلى، الذى لم يعرف أى شىء مما فعله الجيش، يشعر بالإحباط الشديد إلى أن علم بالحقيقة.

أندريه فيرساى: كيف عاش المصريون، من جانبهم، هذه الساعات الأولى من الحرب، حينما كانت الإذاعة المصرية تشيد بتقدم الجيش المنتصر نحو تل أبيب؟!

بطرس بطرس غالى: الحقيقة أن الإذاعة كانت تعلن على فترات متعاقبة عدد الطائرات الإسرائيلية التى نسقطها، وهو ما رفع الحماس فى الرأى العام. وأتذكر أن المواطنين كانوا يستوقفونك فى شوارع القاهرة ليعطونك آخر عدد للطائرات التى أسقطت.

ورغم ذلك، حين كانت الصحافة العربية ووسائل الإعلام تتحدث عن انتصار ساحق وأكيد، كان الخبراء يعلمون بالتأكيد أن الولايات المتحدة فى كل الأحوال سوف تتدخل من أجل فرض وقف إطلاق النار، وإيقاف مواجهة عسكرية إن كانت لغير صالح إسرائيل.

أندريه فيرساى: فى هذا الوقت، رغم معاهدة الدفاع المشترك، لم تقم الأردن بأى تحريك لقواتها. كما لم يبدو، فى البداية أن إسرائيل لديها النية لمهاجمة عمان.

شيمون بيريز: بالفعل، فقد اتصل أشكول بملك الأردن ليقول له إنه إن لم يورط نفسه فى تلك الحرب التى تثيرها مصر، فنحن لن نهاجمه. ولكن حسين كان بلا شك مأخوذًا بنشوة المعلومات المصرية، فقرر الاشتراك بقواته إلى جانب قوات ناصر.

أندريه فيرساى: هل الملك صدق ناصر الذى زعم له فى مكالمة تليفونية أن القوات المصرية تتقدم منتصرة؟

شيمون بيريز: زعم الملك فيما بعد أنه لم يصدق ناصر. ولكنى ما زلت مقتنعًا بأن هذه المكالمة الهاتفية ساهمت فى دخول الأردن فى الحرب. فمما لا شك فيه أن حسين كان متأثرًا بالحجج التى قدمها له ناصر عبر الهاتف.

زعم حسين أنه كان مضطرًا لأن يتبع مصر وسوريا. وسيقول أنه دُفع دفعًا إلى الحرب عبر ناصر الذى أعطاه معلومات غير صحيحة؛ زعم فيها أن الجيش الإسرائيلى يتعرض للهزيمة من المصريين.

بطرس بطرس غالى: أنا شخصيا، لا أصدق شيئا من كل هذا. هذه السذاجة المزعومة للملك حسين هى أسطورة صنعتها الدعاية الإسرائيلية من أجل أن يحتفظ الرأى العام لديهم بفكرة أن الزعماء العرب كانوا مجرد بدائيين وانفعاليين. لا أستطيع أن أتصور أن الملك حسين لم يكن لديه القدرة على الحصول على معلومات جادة عن الوضع الذى ساد على أرض العمليات، والتى لا تبعد عنه أكثر من بضعة عشرات من الكيلومترات.

أندريه فيرساى: مشكلة المعلومات هذه قد لا تكون حاسمة. المشكلة الحقيقية هى معرفة إن كان من الممكن أن يتصرف حسين بشكل مغاير.

بطرس بطرس غالى: عندك حق. فى الحقيقة، وبينما كان العالم العربى كله مشتعلاً، ويعتقد أن ساعة الانتقام والتحرير قد حانت، كان من المستحيل على الملك حسين ألا يشترك فى هذا التدخل العسكرى، أمام شعبه الذى كانت أغلبيته من الفلسطينيين.

شيمون بيريز: هذا صحيح، كان هامش المناورة للملك ضيقا للغاية. فى خطاب طويل كتبه لى فيما بعد، شرح لى حسين أنه لم يكن بإمكانه رفض الدخول فى الحرب، لأنه من المفروض أن تكون قيادتها مشتركة بين القاهرة ودمشق وعمان. فلم يكن من الممكن أن يتراجع الملك عن حركة العالم العربى التى يمثلها شخص ناصر، ولكن النتائج كانت كارثية!

بطرس بطرس غالى: الأمر لا يتعلق فقط بناصر، بل الأمر يتعلق بكل العالم العربى الذى كان ما زال معاديا بشدة لإسرائيل أكثر من ناصر.

أندريه فيرساى: كيف سايرت الحكومات العربية هذه الحرب؟

بطرس بطرس غالى: إن كانت الشعوب العربية قد أيدت ناصر بالإجماع، فإن الأمور لم تكن بالمثل بالنسبة للحكومات التى، رغم بعض التضامن، ظلت حذرة: فإن فازت مصر، سوف يقوى وضعها أكثر فى العالم العربى؛ وبالعكس، فإن هزيمة مصرية ستضعفهم هم أيضًا. فى نفس الوقت، هذه الحكومات لا تستطيع أن تسقط من حسابها توجه الرأى العام لديها.

أندريه فيرساى: شيمون بيريز، حتى لو حاولت الحكومة الإسرائيلية تفادى حدوث مواجهة عسكرية مع الأردنيين، فإن دخول عمان الحرب أعطاكم الفرصة الفريدة لغزو مدينة القدس القديمة.

شيمون بيريز: هذا أكيد. وإن كان ذلك لا يعنى أننا نحن الذين فجرنا العدوان. ولكن بالطبع، طالما تعرضنا للهجوم، فلم يكن من الممكن ألا نرد.

أندريه فيرساى: الجمعة ٩ يونية، وجه مجلس الأمن بالأمم المتحدة أمرًا بوقف إطلاق النار. كيف عاشت مصر تطورات الحرب؟

بطرس بطرس غالى: فى البداية، ونظرا لمعلومات الانتصار، كان الحماس جنونيًا. فيما بعد، كان بالطبع علينا شرح أسباب وقف إطلاق النار.

يوم توقفت الحرب، اجتمعنا نحن أساتذة الجامعة فى السادسة صباحًا، وقام رفعت المحجوب المتحدث الرسمى للحزب، بإبلاغنا أنه علم أن ما بين ألف إلى ألفين طائرة أمريكية، متمركزة فى أسبانيا، يتم طلاؤها بالألوان الإسرائيلية من أجل استخدامها لدعم القوات الإسرائيلية. وقال لنا: *«تفهمون أنه من المستحيل علينا أن نحارب الولايات المتحدة ولذا يجب التوجه نحو وقف إطلاق النار..»*. لقد استخدم هنا إحدى الاتهامات التى أطلقها الرئيس ناصر، فى اليوم السابق، والتى تقضى بأن الطائرات الأمريكية القادمة من كريت قصفت الأراضى المصرية.

أندريه فيرساى: وهل صدقتموه؟

بطرس بطرس غالى: بالطبع لا، لكنه فى نهاية الأمر كان يوجه حديثه إلى أساتذة جامعة! ولكن من أجل تجنب الأسئلة والانتقادات، قام بتعبئة مئات الطلاب الذين جلسوا فى الصفوف العليا في آخر المدرج، والذين كانوا يصيحون: «*بالروح بالدم نفديك يا ناصر!*» كان شعورنا مختلطًا ما بين الحزن بسبب الهزيمة والرغبة فى إنقاذ كرامتنا، لذا كنا نريد أن نصدقه.

أندريه فيرساى: وافقت كل من مصر وإسرائيل فورًا على وقف إطلاق النار. ولكن سوريا، من جانبها، انتظرت ٢٤ ساعة قبل أن تعطى موافقتها. وفى خلال الـ ٢٤ ساعة تلك فقدت مرتفعات الجولان.

وهكذا، فى ستة أيام، أحرزت إسرائيل انتصارات على ثلاث جبهات. وانهزمت كل من مصر وسوريا والأردن. واحتل الجيش الإسرائيلى كل سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية ـ بما فيها القدس الشرقية ـ وهضبة الجولان.

شيمون بيريز: فى الحقيقة، حرب الأيام الستة لم تكن حربا ضد ثلاث دول فى وقت واحد، ولكنها كانت سلسلة من ثلاثة حروب نظمها موشيه دايان: يومان ضد مصر، يومان ضد سوريا، ويومان ضد الأردن. فى البداية كان لدينا النية لمهاجمة مصر فقط حيث لم يكن أمامنا بديل آخر. وفى المقابل، لم يكن لدينا أية أهداف حربية ضد سوريا وبالأحرى، وكما قلت من قبل، لم يكن لدينا أهداف ضد الأردن.

أندريه فيرساى: هل تعتقد أنه كان من الممكن تجنب المواجهة العسكرية؟

شيمون بيريز: نعم، ولكن من أجل تحقيق ذلك، كان يجب على المجتمع الدولى أن يتخذ موقفا صلبا من ناصر.

أندريه فيرساى: ولكن ألم يكن ذلك ما حدث؟ حتى الاتحاد السوفيتى أمر القاهرة بعدم تفجير العداء المسلح.

شيمون بيريز: ربما، ولكن ما النتيجة؟ من الواضح أن الروس لم يمارسوا ضغوطا كافية، وناصر لم يشعر أنه يستطيع أن يفقد مساندة موسكو إن استمر فى سياسته. وبالفعل، لم يفقدها.

بطرس بطرس غالى: من وجهة نظرى، أعتقد أنه لو أصر أشكول على موقفه أمام صقور الجيش الإسرائيلى، لكان من الممكن تجنب الحرب.

وما زلت أعتقد أن الدعاية العربية الصاخبة سمحت لإسرائيل أن تبدو كضحية، وقامت بتقوية معسكر «الصقور» فى إسرائيل لصالح الحرب، بينما كان من الممكن أن يؤدى موقف أكثر اعتدالا من جانبنا أو من الجانب الآخر إلى التوصل إلى حل سلمى.

شيمون بيريز: صراحة، أشك فى ذلك. كان ناصر مجذوبًا تمامًا، ونحن لم يكن لدينا أية عوامل أو وقائع تسمح لنا بإقناع القيادة العليا بعدم الدخول فى هذه الحرب.

أندريه فيرساى: ناصر، فى يأس واضح، أعلن فى الإذاعة تنحيه عن السلطة، وقال: *«أريد أن أعود مرة أخرى مواطنًا بسيطًا»*. هل صدقته؟

شيمون بيريز: لا .. بكل تأكيد! كانت مسرحية.

بطرس بطرس غالى: أعتقد أنك على خطأ. أعتقد أن ناصر كان صادقا. ولكن عندما خرجت جماهير الشعب المصرى يدعونه إلى العدول عن قراره، وكذلك العالم العربى بأكمله من موريتانيا إلى اليمن، قرر ناصر الاستمرار فى النضال. وسواء كان الأمر مُعَدا من قبل أم لا، فالواقع أن ملايين الأشخاص، خارج مصر، قد احتشدوا لتأييد ناصر، مما يوضح أن الريس كان هو قائد المعركة من أجل تحرير فلسطين.

منذ هذا اليوم، لم يعد أحد يتحدث عن هزيمة، بل عن «حادث خطير»، أو بالعربية *«نكسة»: «لم نخسر إلا معركة - وليس ضد الإسرائيليين فقط ولكن ضد تحالف أمريكى- إسرائيلى، وإن كان ناصر قد قبل وقف إطلاق النار، فلأنه أراد أن يجنب الشعوب العربية معاناة إضافية»*. قد يبدو الأمر لكم غير معقول، ولكن رغم الهزيمة، لم يفقد ناصر للحظة شعبيته. بل بالعكس، فقد ظهرت بشكل واسع حمية التضامن العربى نحو هذا الذى فقد المعركة، والذى شهد مكانته تتزايد. هذه الحرب أدت إلى تقوية تضامن العالم العربى حول ناصر.

أندريه فيرساى: كيف يمكن تفسير ذلك؟

بطرس بطرس غالى: عندما تصاب عائلة بألم كبير، يمكن توقع أن يكون رد الفعل: إما تفاقم الانشقاق داخلها، أو توحد أعضاء العائلة من أجل مواجهة الشدائد. فضلا عن ذلك، لم يقدر الشعب فى مصر حجم الهزيمة بشكل فورى: سلطوية النظام، واحتكار الإعلام، والمساندة الحماسية لمصر من كل العالم العربى أدت إلى تخفيف وطأة هذه النكسة فى نظر المصريين. كما أن الحرب، التى كانت قصيرة وجرت خارج وادى النيل، لم تؤد إلى خسائر مدنية ذات بال. الجيش هو الذى عانى؛ الشعب فى مجمله، لن يعانى من نتائج

الهزيمة إلا فيما بعد، عندما قصف الإسرائيليون بورسعيد والإسماعيلية والسويس خلال «حرب الاستنزاف»، هذا القصف الذى أدى إلى عملية ترحيل مليون مصرى أصبحوا لاجئين فى الدلتا.

أندريه فيرساى: هناك شىء لا أفهمه. تقول من ناحية، إن العرب لم يروا حرب الأيام الستة، كهزيمة ولكن *«حادث»*. وفى نفس الوقت، لا يتوقف العرب عن الحديث عن *«الإهانة البشعة»*، وعن الانتقام للكرامة.

بطرس بطرس غالى: فى البداية تحدثنا عن حادث. وفقط فيما بعد، بدأنا نصف الهزيمة بأنها «إهانة بشعة».

شيمون بيريز: يعود الجميع إلى هذا الإحساس بالإهانة وبالانتقام للكرامة والتى تتكرر بشكل منهجى. أعتقد أن هذا الهاجس منع العرب من إدراك حجم الكارثة. ومر كل شىء كما لو كان من المستحيل عليهم مواجهة الأمر. لذلك تابعوا سياسة المقاطعة وإنكار وجودنا قائلين إنهم فى المرة القادمة سوف يدمروننا.

أندريه فيرساى: من الجانب الإسرائيلى، كيف عاش الشعب هذا النصر؟

شيمون بيريز: لقد خرج عن طوره بالمعنى الحقيقى. وكانت سعادته بنفس حجم خوفه الذى شعر به عشية الحرب. وبالطبع، شعر بفخر كبير لأن العالم ظل يهنئنا على الأداء العالى لأسلحة جيشنا.

هذه الحرب كانت فريدة فى تاريخنا. فلم تقد إسرائيل أبدا حملة بهذه الروعة وهذا الحسم. وكان الفرق بين خسائر العدو وخسائرنا ضخما؛ فقد خسر أعداؤنا ضعفين ونصف ما خسرناه فى الدبابات؛ أما عن الطائرات، فقد حسبنا خسائرنا خلال الأيام الستة، بمعدل طائرة واحدة مقابل ٥٤ من الجانب العربى. ولم يصب أسطولنا البحرى بأية خسائر، بينما فقد العرب ١١ سفينة حربية وقصفت ثلاثة موانئ. وأنا شخصيا كنت أكثر سعادة بهذا النصر، فلأول مرة أيضًا، كانت الترسانة الحربية التى استخدمت فى تلك الحرب هى نتيجة جهدى أنا فى فرنسا وفى ألمانيا وفى إسرائيل نفسها.

* * *

٧- النصـــر المسمـــوم

دروس الحرب - «لا صلح، لا اعتراف، لا تفاوض» - غموض قرار ٢٤٢.

أندريه فيرساى: ما هى الدروس التى قمتم باستخلاصها من هذه الحرب؟

شـيمون بيريـز: هذه الحـرب أظهـرت أن الضمانات الدوليـة قليلة القيمـة. فقد غادرت قوات الأمم المتحدة غزة وشـرم الشـيخ فى اللحظة التى طلب منهم ناصر مغادرتها وبدون أن يرتفـع أى صـوت بالاحتجاج. وعندما أمر الرئيس المصـرى بإغلاق مضيق تيران، ظلت القوى العظمى البحرية سلبية.

ومـع غيـاب سـلام حقيقى، قررت إسـرائيل أن تكـون حدودها هـى التى تناسـب أمنها بشكل أفضل، وانتظارًا لترسيم حدودها نهائيا، احتفظت بخطوط وقف إطلاق النار.

أندريه فيرسـاى: غداة حرب الأيام الستة، هل اعتقد الإسرائيليون أنهم بعد النصر الرائع الـذى أحـرزوه، أى بعـد إثبـات قوتهـم، يسـتطيعون أخيـرا إجـراء مفاوضـات سـلام مـع جيرانهم؟

شـيمون بيريـز: لا، فكنـا نرى أنه طالما اسـتمر ناصر فى السـلطة، فلن يكـون لدينا أدنى فرصة للتوصل إلى سـلام. ورغم ذلك، فقد اقترحت الحكومة بسرعة أن تنسحب من سيناء وهضبة الجولان فى إطار توقيع سـلام شـامل على أسـاس ترسيم حدود ٤ يونية ١٩٦٧م، ولكن الدول العربية ظلت صامتة.

بطـرس بطـرس غالى: هذا أكيـد، يجب القول إن الإسـرائيليين اقترحوا الانسـحاب من الأراضى المحتلة، ولكن بشرط أن يأتى هذا الانسحاب فى إطار سلام حقيقى.

أندريه فيرساى: كانت إسرائيل على استعداد للانسحاب من سيناء ومن هضبة الجولان، كما تقولا. ماذا عن الضفة الغربية؟

شيمون بيريز: لم نذكر الضفة الغربية، لأنها لم تكن جزءًا من الأردن. والمجتمع الدولى، فى أغلبيته الساحقة، لم يعترف بأن هذه الأراضى تعتبر جزءًا من المملكة الهاشمية.

أندريه فيرساى: رغم ضخامة الإخفاق العسكرى العربى لم يؤد إلى إعادة نظر فى السياسات العربية. بل بالعكس، فقد تبنت القمة العربية فى الخرطوم، التى عقدت من نهاية شهر أغسطس إلى بداية سبتمبر عام ١٩٦٧م، قرارا يقضى بضرورة توحيد جهودهم من أجل *«إزالة آثار العدوان»* و*«تأكيد انسحاب قوات إسرائيل الغاشمة من الأراضى العربية المحتلة منذ هجوم ٥ يونية»*. بالإضافة إلى أن قرار هذه القمة أعلن ثلاث *«لاءات»*: *«لا صلح»*، *«لا اعتراف»*، *«لا تفاوض»*.

شيمون بيريز: بالإعلان عن «لاءاتهم» الثلاثة، اتحد العرب من أجل إنكار حجم هزيمة اعتبروها عربية شاملة: *«لا، لم نتعرض لهزيمة غير قابلة للرجوع عنها، لم نفقد إلا معركة»*.

أندريه فيرساى: بطرس بطرس غالى، بعد مرور الزمن، ألم يكن ذلك خطأ تاريخيا؟

بطرس بطرس غالى: فى تلك الفترة، أن يحدث انفتاح من جانب العرب، مسألة لا يمكن تخيلها. لا يمكن بتاتا تخيلها. هذه *«اللاءات»* الثلاث تطابقت تماما مع المشاعر العامة التى أعربت عنها الشعوب العربية. لأنه، حتى عندما تكون النظم سلطوية، فإن السلطة يجب أن تأخذ فى حسبانها الرأى العام. لم يرغب العرب فى اعتبار الهزيمة أكثر من مجرد حادث، وطالبوا بالانتقام.

لن أتحدث عن «خطأ تاريخى» ولكن عن «استحالة تاريخية»: فمع تعبئة هذا الرأى العام، لم يكن من الممكن أن يخاطر أى زعيم فى الدول العربية ببدء مباحثات مع الإسرائيليين.

قد تكون بعض الأصوات تميل إلى بدء مفاوضات، ولكن بالتأكيد ليس بعد الهزيمة. فعلى عكس تحليل شيمون بيريز، أقول إنه لم يكن شعورًا بالإهانة هذا الذى ساد فى الخرطوم، ولكن بالعكس كان يقينًا بأن الوقت يلعب فى صالح العالم العربى، وأنه سوف ينتقم آجلاً أم عاجلاً.

أندريه فيرساي: ألا تعتقد أن النخب العربية هي المسئولة عن هذا التجمد العقائدي الذي يبدو أنهم سجنوا شعوبهم فيه؟

بطرس بطرس غالي: الحقيقة أن الشعوب العربية من أغادير إلى عدن، هبت كلها كرجل واحد من أجل تأكيد تضامنها الكامل مع ناصر، هل يمكن أن نعزو ذلك إلى النخب؟ أعتقد أنك، مثل جميع الغربيين ، تجد صعوبة في فهم أنه مهما كانت الخلافات الداخلية التي تمزق العالم العربي، إلا أن هناك شعورًا حقيقيًا داخليًا بالإخاء. الكراهية تجاه الاستعمار الغربي(وبشكل خاص الإسرائيلي) ليست نتيجة لحشو الأدمغة، إنها مسألة تشعر بها الشعوب في أعماقها وعلى جميع مستوياتها.

وسوف نرى فيما بعد، حينما حاول السادات تهدئة هذه الكراهية، كيف فجرها مرة أخرى الأصوليون. كل شعارات الكراهية تلك الموجهة ضد اليهود، والتي بدأ يتخلى عنها تدريجيًا الزعماء السياسيون العرب، سوف يستعيدها الأصوليون الذين سيستغلونها لدعم سيطرتهم على النفوس. هذه الشعارات قادرة بشكل رهيب على تعبئة المواطنين؛ لأنها تلتصق بالمشاعر العميقة للشعب. لماذا تقوم إيران، التي ليس لها أية مواضع خلاف أو حتى حدود مع إسرائيل، بقضاء وقتها في التنديد بإسرائيل واعتبارها الشيطان، وسرطان العالم الإسلامي، إن لم يكن ذلك يتوافق مع الرأي العام؟

إن سُمِح غدًا للأصوليين المصريين بتشكيل حزب سياسي - والذي سيكون مناهضًا للديمقراطية حيث إنهم من دعاة الثيوقراطية (الحكم الديني) - فإن جزءًا ما من الشعب سيعطيهم دون شك صوته. وهذه الكراهية تجاه إسرائيل تزيد قوة يوما بعد يوم بسبب البشاعات التي يرتكبها الجنود الإسرائيليون في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

أندريه فيرساي: مهما كانت الأسباب التي من أجلها يكره العرب إسرائيل، هذا الموقف من الرفض الكامل، ألا يعزلهم داخل هذا الجمود المجحف لهم، حيث إنه يساعد على جعل الإسرائيليين أكثر تشددًا، وبضمير مستريح علاوة على ذلك؟

بطرس بطرس غالي: أنا أوافقك الرأي تمامًا. التركيز المستمر على غرس إسرائيل في قلب العالم العربي هو أحد أسباب التأخر والتخلف الذي يعاني منه هذا العالم العربي. كما أنه، منذ أول حرب بين العرب وإسرائيل وحتى زيارة السادات إلى القدس، في عام ١٩٧٧م، ركزت مصر كل طاقتها على محاربة إسرائيل، وذلك على حساب المشاكل الداخلية والسياسة المصرية السودانية. وعندما وقع السادات معاهدة السلام، لم يحرر فقط

الأراضـي المصريـة التـي احتلتهـا إسـرائيل، بـل أيضًـا حـرر المخيلـة المصريـة. بالطبع، الإخفاقات المتلاحقة في العثور على حل للمشكلة الفلسطينية سوف ينشط مرة أخرى هذا الهوس المعادي لإسرائيل.

أندريه فيرساي: على الجانب الإسرائيلي، هل كان العرض بالسلام مسألة حاسمة وكاملة، أو أنه كان مجرد اقتراح شكلي، طرح بدون مخاطر، حيث إن الرفض العربي كان متوقعًا؟

شيمون بيريز: فيما يخص مصر وسوريا، فأنا متأكد أن الإسرائيليين كانوا على استعداد لتوقيع السلام، وأكرر مصر وسوريا، وليس مع الفلسطينيين. هذا فضلاً عن أن هناك حدودًا دولية مع مصر وسوريا، ولا توجد حدود مع الضفة الغربية.

لا أعـرف إن كان كل المسئولين الإسرائيليين فكـروا جديًـا فـي هـذا العـرض بشكل ديناميكي وحاسـم، ولكن على كل حال ارتدى العرب فورًا مسـوح الرفض الكامل. الفرحة من ناحية، والمرارة من ناحية أخرى، منعا الطرفين من مواجهة الأمور بشكل واقعي وبنّاء.

أندريه فيرساي: في يـوم ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٧م، وافق مجلس الأمـن بالأمم المتحدة بالإجماع على قرار رقم ٢٤٢ الذي يؤكد على بعض المبادئ التي من المفترض أن يؤدي تطبيقها إلى إقامة *«سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط»*: انسحاب القوات الإسرائيلية من *أراضٍ محتلة* (النسخة الإنجلوساكسونية) ومـن *الأراضي المحتلة* (النسخة الفرنسية)، وقفُ كل أشكال الحرب؛ الاعتراف بسيادة وسلامة أراضي واستقلال كل دولة في المنطقة وحقها في الحياة في سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها، وفي حماية من كل تهديد أو أعمال قوة. هذا القرار يؤكد بالإضافة إلى ذلك، على ضرورة *«التوصل إلى تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين»*.

الملاحظة الأولى: الانسحاب من أراضٍ محتلة أو من الأراضي المحتلة. من أين أتى هذا الاختلاف بين النسختين الإنجليزية والفرنسية؟

بطرس بطرس غالي: بالفرنسية: *الأراضي*، وبالعربية: *الأراضي*، وبالروسية: *الأراضي*، وبالصينية: *الأراضي*، ..إلخ. إنه جيديون رافائيل، سفير إسرائيل في الأمم المتحدة في ذلك الحين، الذي تدخل من أجل ألا تضم النسخة الإنجليزية «ال» التعريف.

شيمون بيريز: في الحقيقة هذا «الإبهام» هو جزء مما أطلق عليه كيسينجر *«الغموض البناء»*: فنتفق على نص غامض حيث كل طرف يفسره كما يراه مناسبًا له. هذه الطريقة في

التصـرف لهـا فضل العمـل على انفـراج الوضـع. والأطـراف المعنية تشـعر بالرضـا لأنها أحـرزت تقدمـا، حيث إننا توصلنا رغم كل شـيء إلى «اتفاق»، مـع الأمل فى أن تتقارب مع الوقت وجهات النظر.

بطـرس بطرس غالى: نعم، ولكن هذا الغموض البناء سـلاح ذو حدين: يمكن أن يكون إيجابيًا حينما يسـمح الوقت بالتوصل إلى حل سـلمى، ولكنه أيضًا يمكن أن يكون له نتائج سلبية إن لم تتطور الأمور؛ فى تلك الحالة سوف يزيد حدة الصراع.

أندريـه فيرسـاى: يتحدث القرار عن *«مشـكلة اللاجئيـن»*، بدون حتـى أن يذكر هويتهم الفلسـطينية، كما لم يذكر فى أى مكان الحقوق القومية الفلسـطينية. وحتى الدول العربية لا تطلب إعادة صياغة هذه الفقرة. كيف تفسـر ذلك؟ هل ذلك يعنى أنه حتى عام ١٩٦٧م، لم يكن المجتمع الدولى، ولا العالم العربى، يعتبر الفلسـطينيين شـعبًا محددًا، ولكن شـريحة لاجئة من الشعب الأردنى أو المصرى ؟

شـيمون بيريـز: بالفعـل حتى ذلك الوقـت، لم ينظر المجتمـع الدولى إلى الفلسـطينيين كشعب محدد؟

بطـرس بطرس غالى: هذا ليس صحيحًا. المجتمع الدولى فـى غالبيته العظمى لم يعتبر المشـكلة الفلسـطينية مشـكلة لاجئيـن. ومن جهة أخـرى، فإن القـرار الأول الـذى اتخذته الجمعية العامة بالأمم المتحدة بخصوص إسـرائيل وفلسـطين (القرار رقم ١٨١) يقر بإقامة دولتين من أجل شـعبين: دولة فلسـطينية من أجل الشـعب الفلسـطينى، ودولة إسرائيلية من أجـل الشـعب اليهـودى. أمـا بالنسـبة للـدول العربيـة، فقـد اعتبـروا دائمـا فلسـطين دولـة والفلسطينيين شعب كامل الأهلية.

ومع ذلك، كانت الحكومات العربية منقسـمة حول مسـألة الضفـة الغربية: هل هى جزء عضـوى من الأردن، أم يجب عودتها إلى الفلسـطينيين؟ وفى غياب الإجماع، تم التصويت علـى القـرار كما هو. وقد رئى أن عملية إعـادة النظر فيه تؤدى إلى إجـراء تغييرات جوهرية قد تعقد الأمور. كما أن الدول العربية لم ترض إضافة قضايا جديدة من شأنها تعقيد الوضع القائم. وقد اعتبروا عملية إعادة الأراضى أهم من ذكر الحقوق القومية للفلسـطينيين، حيث إن المطالبة بالنص عليها قد تؤدى إلى فشل كل شىء.

أندريه فيرساى: *«غموض بنّاء»* هنا أيضًا؟

بطرس بطرس غالى: بشكل ما، نعم.

أندريه فيرساى: إن كنت فهمتك تماما، ذلك يعنى أن الدول العربية كانت معنية أكثر باستعادة الأراضى من الاعتراف بـ *«الحقوق الشرعية»* للفلسطينيين؟

بطرس بطرس غالى: لا، هذا يعنى أن الدول العربية اعتبرت أن استعادة الأراضى المحتلة أولوية ضرورية تسبق إصلاح الضرر الذى كان الفلسطينيون ضحاياه. حقوق الفلسطينيين لم يتم إهمالها، ولكن البراجماتية هى التى سادت.

أندريه فيرساى: فى ذلك الوقت أيضًا، هل كان الإسرائيليون يعتبرون المشكلة الفلسطينية مشكلة لاجئين، أم بدأوا يفهمون أنهم بصدد مسألة قومية؟

شيمون بيريز: لا، لم تكن أبدا مشكلة قومية. أقر أننا لم نكن أكثر تقدمًا من الأمم المتحدة.

* * *

٨- احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة

بدأت سياسة استعمار الأراضى المحتلة - احتلال «ذو وجه إنسانى»؟ - إسرائيل، «واقع استعمارى»؟ - إسرائيل، «حليف موثوق لواشنطن»؟

أندريه فيرساى: فى حديث صحفى يوم ١٧ يونية عام ١٩٦٧م، وردًّا على سؤال طرحه صحفى يتعلق برغبة إسرائيل المحتملة فى الاحتفاظ بالأراضى التى احتلتها وتوسيع مساحة أرضها، أجاب ليفى أشكول: *«لا يا سيدى، إسرائيل ليست فى حاجة على الإطلاق لأراضٍ أخرى. إننا نريد أن ننمى الأرض التى نملكها. هذه الأراضى فى حاجة إلى أن نضع فيها كمًا كبيرًا من الطاقة والمال والذكاء فهى تكفينا. نحن إذن لسنا فى حاجة إطلاقًا لأراضٍ جديدة مهما كانت»*. هذا النوع من التفكير، هل كان مسألة عامة فى إسرائيل فى ذلك الوقت؟

شيمون بيريز: فى إسرائيل، كانت هناك رؤيتان للأمور: الأولى يدافع عنها ليفى أشكول، الذى لم يكن يرغب فى الاحتفاظ بالأراضى المحتلة، والأخرى يدافع عنها حيروت (حزب بيجين) ورجال الدين، الذين لا ينوون إعادتها. دعا حيروت إلى ضم كل الأراضى حتى يمكن الحصول على *«عمق إستراتيجى»* رأى أنه بدونه لن نستطيع الدفاع عن بلدنا؛ أما بالنسبة لرجال الدين فقد رفضوا تمامًا إعادة أية أراضٍ لأنهم يعتبرونها مقدسة.

أندريه فيرساى: ولكن فيما يبدو سرعان ما تعود الإسرائيليون، بعد زوال المفاجأة، تعودوا على إسرائيل الجديدة؛ تلك التى زادت مساحتها أكثر من أربعة أضعاف. ثم ما لبثت الحركات القومية أو الدينية، أن اعتبرت هذه *«الغزوات المعجزة»* بداية للتفكير الإلهى، فبدأت التحرك من أجل زرع مستوطنات فى *«الأراضى المحررة»*. هذه المستوطنات التى

أقيمت عشوائيًا، اعتبرت واقعًا لا رجعة فيه، سوف يؤدى بالضرورة إلى ضم الأراضى المستعمرة.

شيمون بيريز، بعد مرور الزمن، ألا تعتقد أن سياسة الاستيطان تلك قد ساهمت جديًا فى وقف كل إمكانية فى تسوية سلمية؟

شيمون بيريز: بعد مرور الزمن، يمكن أن نقول هذا، نعم هذا حقيقى. ولكن إن أردنا فهم الأمور، فيجب أن نضع أنفسنا فى الوضع والحالة الذهنية قبل أربعين عامًا. فى تلك الفترة، لم تكن هناك عروض مطروحة لأى نوع من السلام. وعلى كل حال، بل إننا فى البداية، كنا ننظر إلى المستوطنات بصورة أساسية على أنها منشآت عسكرية دفاعية.

وهكذا، وعلى عكس ما يمكن أن نتصوره اليوم، كانت المستوطنات الواقعة شرقى القدس، تعتبر فى البداية كنقاط متقدمة لثكنات عسكرية يتم إقامتها فى تلك المناطق من أجل منع محاولات التسلل الفلسطينية القادمة من معسكرات الضفة الشرقية من نهر الأردن. وبالنسبة لمستوطنة ياميت، فى سيناء، لم يتصور أحد، حتى دايان نفسه، أن تصبح ورقة مساومة حال وجود إمكانية للتوصل إلى حل وسط مع مصر. ذلك فضلاً عن أن ياميت كانت تفصل مصر عن غزة، وهو ما أعطاها أيضًا دورًا استراتيجيًا. وأنا أود أن أشير هنا إلى أننا نحن، حزب العمل، لم نبن سوى عدد قليل من المستوطنات؛ كنا ضد زيادة عدد المستوطنات ولاسيما فى المناطق ذات الكثافة السكانية العربية.

أندريه فيرساى: ولكن عليك أن تقر رغم كل شىء، وبينما كان حزب العمل مازال فى الحكم، تحولت المستوطنات بسرعة جدا إلى مستعمرات سكانية حقيقية وتكاثرت بسرعة عالية. ومع ذلك لم يكن الأمر سياسة ضم متعمدة، ألا تعتقد أن «ترك الحبل على الغارب» من قبل السلطات الإسرائيلية لهؤلاء المستوطنين، يمكن وصفه بأنه تخلٍ عن المسئولية؟ وأن هذا التخلى خلق وضعًا متعذرًا، لم يعد من الممكن حله؟

شيمون بيريز: إننا لا نعيد صناعة التاريخ، وبالتأكيد فإنه مع التجربة التاريخية التى اكتسبناها، سوف أفكر اليوم بطريقة مختلفة. ومع ذلك، أكرر، من أجل فهم معنى هذه السياسة من بداياتها، يجب أن تنتقل إلى الحالة الذهنية للإسرائيليين فى مواجهة بلاد عربية قاسينا منها ثلاث حروب، ورفضوا فى ذلك الحين أية فكرة ليس فقط لإقامة السلام ولكن حتى الاعتراف بوجودنا. نشعر بصورة مطلقة، بشرعية رغبتنا فى إنشاء مستوطنات على الأراضى التى نعتزم حمايتها ضد الهجمات الخارجية. وعلى أية حال، ففى هذه الفترة، لم

تكن المستوطنات تمثل مجمعات كبيرة، ولكن مستعمرات صغيرة متفرقة. في عام ١٩٧٧م، عندما حصل بيجين على السلطة، لم يكن في الضفة الغربية أكثر من حوالى ثلاثين مستعمرة. اصطف معظمها على طول الوادى الأردنى، وشكل حاجزًا ضد التسلل المحتمل القادم من الشرق، من العراق ومن الأردن. نمو حركة المستوطنات تم تنظيمه فى حقيقة الأمر بواسطة الليكود. كان آريل شارون، وزير الزراعة فى ذلك الوقت ورئيس اللجنة الوزارية المسئولة عن المستوطنات الإسكانية، هو الذى شرع بعمق فى هذه العملية التى غيرت خارطة الضفة الغربية.

أندريه فيرساى: ولكن فى هذه الفترة، إن لم أكن مخطئًا، أيدت أنت هجرة جماعية للإسرائيليين اليهود إلى مدينة القدس القديمة، القدس العربية؟

شيمون بيريز: لا، لقد كنت أؤيد زيادة عدد السكان اليهود الإسرائيليين فى القدس عامة، ولكن ليس المدينة القديمة بشكل خاص.

بطرس بطرس غالى: مهما كانت الأسباب التاريخية التى تطرحها اليوم، شيمون، المستوطنات السكانية فى الضفة الغربية وفى غزة تمثل العائق الأساسى لتسوية سلمية للصراع.

أندريه فيرساى: فى تلك الفترة، هل اتفق الجميع فى إسرائيل على «ضرورة» وجود تلك المستوطنات؟

شيمون بيريز: نعم، كان إجماع الطبقة السياسية قويًا، وقد كنا فى إطار حكومة وحدة وطنية.

من ناحية أخرى، كنا قد استمعنا إلى بن جوريون يعلن أنه فى مقابل سلام حقيقى، يجب على إسرائيل أن تعيد الأراضى المحتلة - باستثناء القدس.

أندريه فيرساى: تساحال حقق انتصارًا «مبهرًا»، ولكنه قد يكون أيضًا «مسمومًا»، حيث إنه منذ ذلك الحين لم تعد إسرائيل قادرة على تجاهل الفلسطينيين الذين يعيش جزء كبير منهم الآن داخل الأراضى المحتلة. أصبحت إسرائيل الدولة التى عليها إدارة أكبر عدد من السكان الفلسطينيين. كيف واجهت السلطات الإسرائيلية هذه الظاهرة الجديدة؟

شيمون بيريز: لقد أقمنا حوارا حقيقيا حول مستقبل هذه الأراضى، وتم طرح عددًا لا بأس به من المشاريع، مثل خطة آلون (يولية ١٩٦٧م) التى نادت بإعادة بعض الأراضى،

ولكن مع الاحتفاظ بمنطقة عازلة شمالى سيناء وعلى طول وادى الأردن. وأوصت الخطط الأخرى بما أطلقنا عليه فى هذا الوقت *«حل وسط عملى»*: أن نشكل مع الأردنيين حكومة مشتركة من أجل إدارة الضفة الغربية.

أندريه فيرساى: وماذا كان رأى رجل الشارع فى تلك الخطط؟

شيمون بيريز: لا أتذكر أن الرأى العام فى غالبيته، اهتم كثيرا بهذه القضايا. فكما أن أحدًا لم يتوقع انتصارًا باهرًا مثل ذلك، لم يخطر ببال الكثير من الناس انتقاد الحكومة. لنقل إن رجل الشارع تصور أنه من المستحسن إيجاد حلول ولكن ذلك لم يكن مُلحًا.

أندريه فيرساى: وفى العالم العربى، كيف كان الناس يرون الأمور؟

بطرس بطرس غالى: بشكل مختلف تماما، بالطبع.. بالنسبة للبعض كان يرى أن إسرائيل تسعى آجلا أو عاجلا لعملية تطهير عرقى وسوف تطرد الفلسطينيين إلى الأردن، أو ستشجع النخبة على الهجرة إلى أوروبا والولايات المتحدة، والبعض الآخر كان يتخوف من تشكيل احتياطى، وأخيرًا كان هناك من يرى أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، وأن العالم العربى سوف يضطر إلى التدخل عسكريًا من أجل تحرير فلسطين.

أندريه فيرساى: فى البداية كان هذا الاحتلال «محتملاً» إلى حد ما فى الأراضى المحتلة، وكان موشيه دايان، الذى كان مسئولاً عن إدارتها عسكريًا، يزعم أنه يريد أن يقيم «نظام احتلال ذا وجه إنسانى».

شيمون بيريز: نعم، وخلال الأيام الأولى من الاحتلال، كان التعايش اليومى بين الإسرائيليين والفلسطينيين جيدًا بقدر الإمكان. ولكن يجب توضيح أن الفلسطينيين كانوا مصدومين تمامًا بحجم الهزيمة، إلى درجة أنه لم يحاول أحد أن يتمرد.

بطرس بطرس غالى: بالتأكيد! بعد كارثة الهزيمة، كان الشعب الفلسطينى مدمرًا. وإن لم يثر فى الحال، فذلك لأنه كان يتوقع الأسوء، وأن هذا «الأسوء» فى الحقيقة، لم يحدث بعد. ولكنه سوف يحدث مع طرد ٣٥٠ ألف لاجئ جديد، أضيفوا إلى ٧٠٠ ألف فلسطينى كانوا قد طردوا فى عام ١٩٤٨م .. سوف يحدث ذلك مع بناء المستوطنات الإسرائيلية على الأراضى الفلسطينية. هذا التطهير أثار سخط الفلسطينيين.

شيمون بيريز: ليس فقط أن «الأسوء» لم يحدث، ولكننا كنا سنفعل كل شىء من أجل جعل هذا الاحتلال محتملاً إلى أقصى حد. وكبداية، قررنا أن نترك الجسور التى على نهر

الأردن، مفتوحة، بشكل يسمح للفلسطينيين الاستمرار فى قيامهم بالتبادل التجارى مع شركائهم على الضفة الشرقية من النهر، والشىء الجديد، هو السماح للفلسطينيين فى الضفة الغربية بالعمل فى إسرائيل. وبسرعة سيصبح هذا العمل بالنسبة للشعب الفلسطينى، المصدر الأساسى للدخل.

وبصفتى وزيرًا بلا وزارة، كنت مسئولاً عن التنمية الاقتصادية للأراضى الجديدة وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. وكانت توقعاتنا بأن عددهم كان نحو ٣٥٠ ألفا فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة. كان من المستحيل تقديم رقم محدد؛ فقد كانت القوائم التى قدمتها وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين الفلسطينيين، غير صحيحة، حيث إنها لم تأخذ فى الاعتبار اللاجئين الذين وافتهم المنية أو غادروا المعسكر. فليس من مصلحة أحد التبليغ عن مغادرة البعض أو وفاة البعض الآخر، لأن ذلك كان سيحرم العائلات من الدعم المخصص للشخص الغائب والذى تمنحه الوكالة. لقد قمت بزيارة معسكرات الضفة الغربية وغزة عدة مرات، ورغم الدعاية القوية المعادية لإسرائيل، كنت أجد بوجه عام استقبالاً حارًا. كنت أتلقى دعوات لزيارة العائلات، وكنت أشعر أن هؤلاء الرجال والنساء كانوا يسعون لإقامة اتصال مباشر وودى. كان اللاجئون يعيشون فى ظروف صعبة جدًا، فى مبانٍ بائسة، تفتقد للمياه والكهرباء. رجال عاطلون يتسكعون فى ملل، ويجلسون فى ظل المنازل الملتهبة بحرارة الشمس الحارقة. لم يرد أحد من اللاجئين أن يعمل، لأنه طالما أنهم عاطلون عن العمل كانوا يحصلون على مساعدات من وكالة الغوث. وعلى أية حال، كانت الدعاية تشجع على عدم العمل حتى يمكن التنديد بشكل أفضل، بالـ «المأساة البشعة» لتلك العائلات التى لجأت إلى المعسكرات. كان لابد أولاً من تحسين ظروف حياتهم مع الاحتفاظ بالحذر الشديد؛ لأن كل إجراء إيجابى قد يبدو محاولة لاحتواء اللاجئين سياسيًا. كان لابد من إتاحة إمكانية العمل أمام الرجال من أجل رفع مستوى معيشتهم، ولكن بدون أن يؤدى العمل إلى حرمانهم من المساعدات التى تقدمها لهم وكالة الغوث التى لا يريدون أن يفقدوها. ولقد تحايلنا على المشكلة من خلال السماح لهم بالعمل بدون تسجيلهم فى سجلات العمل، وبذلك يظلون بالنسبة لوكالة الغوث، عاطلين عن العمل. والهدف الثانى الذى حددته هو السماح لهم باكتساب مهارات مهنية، لأنه كان من الواضح أن افتقادهم للمهارات والكفاءات، سيفرض عليهم أن يظلوا يعملون فى المهن الدنيا. لذلك أقمنا لهؤلاء اللاجئين مدارس مهنية. وفى نفس الوقت، تم إعادة بناء المنازل تدريجيًا، ومد المياه الجارية والكهرباء للمعسكرات. ثم قمنا ببناء مستشفى فى غزة، وكذلك مركز تجارى شجع على التبادل التجارى بين اليهود والعرب. كما أدخلنا

أسـلوبنا فى الزراعة مما أدى إلى مضاعفة المحاصيل فى تلك الأراضى، سـتة وسبعة أمثال، بينمـا تـم القيام بتجارب رائدة بالنسـبة لمحاصيل جديـدة. وخلال سـنوات قليلة تغير وجه المعسكر، فبدأت تظهر فيه السيارات وأجهزة الراديو والتليفزيون.

أندريه فيرسـاى: ورغم ذلك، فقد سارع المعارضون بالتنديد برغبة فى *«الضم السريع»*. ويبـدو أن الجنـرال دايـان والقيـادة العليـا العسـكرية، حاولوا جاهديـن إثـارة عملية هجرة فلسطينية على نطاق واسع.

شيمون بيريز: لا بالتأكيد! هذه رؤية أيديولوجية بحتة.

بطـرس بطـرس غالـى: لا أعتقـد بتاتـا أن الأمر يتعلـق برؤيـة أيديولوجيـة. ومن جهـة أخـرى، لا يبـدو لـى أن تعبيـر «هجرة على نطاق واسـع» مناسـبًا. سـنكون أكثر دقـة عندما نتحـدث عن *«تطهير عرقى»*: فخلال الحرب والأسـابيع التالية لهـا، تم دفع ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ ألـف فلسـطينى يقيمون فـى الضفة الغربية وقطاع غزة إلى المنفـى، وأقام معظمهم فى الأردن.

أندريه فيرسـاى: نتيجة أخرى للانتصار الإسـرائيلى، هى تغير النظر إلى إسرائيل بصورة جذريـة: فعلـى مسـتوى المنطقـة، تحولـت الدولـة اليهودية إلى قـوة عظمى، ولـم يعد من الممكن الاحتفاظ بصورة ديفيد الصغير الذى يحارب جوليات العملاق العربى.

خلال حرب الأيام السـتة، ارتفعت شعبية إسرائيل فى الغرب إلى الذروة، وخلال بضعة أيـام، كانت واحـدة من أكثر الدول التى تحظى بالحب. ولكـن انتصارها الباهر جعل العالم الغربى يعتبرها بشـكل متزايد كـ *«واقع استعمارى»*، حسـب التعبير الذى استخدمه ماكسيم رودنسـون فى مقاله الشـهير فى مجلة *«الأزمنة الحديثة»* بتاريخ مايو عام ١٩٦٧م. وبسرعة، علـى غرار الأغلبية السـاحقة لدول العالم الثالث، جزء كبير مـن «التقدميين» وجميع أنصار العالـم الثالـث، اعتبر إسـرائيل دولة إمبرياليـة متواطئة مـع الولايات المتحـدة لقمع العالم الثالث.

حقيقـة، كمـا كتب والتر لاكور: *«ليس هناك ما هو أسـوء من الانتصار الكبير، إن لم يكن بالطبع هزيمة كبيرة»*. وبالفعل، إسرائيل سوف تفقد «معركة الصور».

شـيمون بيريـز: هذا يعتمد علـى الدول. هذا صحيح بالنسـبـة لفرنسـا وإيطاليا، ولكنـه ليـس صحيحًـا بالمـرة بالنسـبة للولايات المتحـدة. هناك، إسـرائيل لـم تفقـد إطلاقًا معركة الصور.

فى حقيقة الأمر، بعد فيتنام، كان اليسار الدولى يبحث عن شعب، ضحية، واختار الفلسطينيين. منذ تلك اللحظة، أثارت إسرائيل شهية صحافة العالم كله. إنه شىء لا يصدق، ولكن حسب دراسة أعدتها منظمة الأمم المتحدة، كانت إسرائيل هى ثالث بلد فى العالم من حيث إثارة المعلومات، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

بطرس بطرس غالى: كانت إسرائيل تثير دائما مشاعر عنيفة ومتناقضة فى الغرب: حب، عداء، شعور بالذنب، إلخ. لذا لم يكن مستغربا أن هذا الخليط المتنافر من المشاعر يمكنه أن ينتقل من أقصى انفعال إلى أقصاه من الطرف المقابل. وعلى العكس، بالنسبة للعرب، لم يتغير فى الأمر شيئًا. بل وليس مؤكدًا أن العرب لاحظوا التغيير فى الرأى العام الغربى.

أندريه فيرساى: وكيف كان إحساس الإسرائيليين تجاه حركة فتور حب الغرب، تلك؟

شيمون بيريز: أعتقد أنه، إجماليًا، فضّل الإسرائيليون تشييد أمة قوية مقابل أن يفقدوا التعاطف العالمى .. فضل الإسرائيليون التضحية بهذا التعاطف على أن يجدوا أنفسهم فى حالة ضعف.

أندريه فيرساى: نعم، ولكن فقد التعاطف هذا، ألا يفسر أيضًا بالموقف المتشدد الذى تبنته إسرائيل فى رغبتها فى الاحتفاظ بالأراضى المحتلة؟

شيمون بيريز: كانت غالبية الإسرائيليين دائما على استعداد للانسحاب من الأراضى، ولكن فى مقابل سلام حقيقى مع جيراننا. ولقد أثبتنا هذا بالانسحاب من سيناء بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد فى عام ١٩٧٩م.

أندريه فيرساى: من سيناء، نعم، ولكن ليس من الضفة الغربية، وبالتأكيد أيضًا ليس من القدس.

شيمون بيريز: عن القدس، سأوافقك الرأى، ولكن فيما يتعلق بالضفة الغربية، إن لم نكن على استعداد للتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية، كنا نتجه إلى التوصل إلى صيغة للتعايش مع الأردن.

فى هذه الفترة، كنا نتصور إمكانية بدء مفاوضات سلام مع الأردنيين، ولكن بالتأكيد ليس مع المنظمات الفلسطينية التى لا نعتبرها مفاوضًا ذا مصداقية. كنا نعتبر المنظمات الوطنية الفلسطينية مثل: فتح، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ثم منظمة التحرير

الفلسطينية، مثل حركات إرهابية - وكانوا بالفعل كذلك - وأي مباحثات معهم مسألة لا يمكن تصورها. كما أنهم هم أيضًا لم يتصوروا أية إمكانية للتفاوض معنا.

أندريه فيرساى: من بين نتائج الهزيمة العربية، السماح للاتحاد السوفيتى بالتغلغل بعمق فى مصر وسوريا. بعد قطع العلاقات الدبلوماسية بين القدس وموسكو فى ١٠ يونية ١٩٦٧م، ثم تلاها قطع العلاقات الدبلوماسية للدول الأخرى أعضاء حلف وارسو باستثناء رومانيا، أصبح الاتحاد السوفيتى القوة الكبرى التى تحمى العرب.

بطرس بطرس غالى: هذا التغلغل للاتحاد السوفيتى فى العالم العربى، الذى بدأ فى الواقع فى عام ١٩٥٥م مع صفقة الأسلحة لمصر عبر تشيكوسلوفاكيا، سوف يتسارع بعد حرب الأيام الستة. وبناء على طلب من القاهرة، أرسل لها الاتحاد السوفيتى كميات كبيرة من الأسلحة، كما أرسل خبراء إلى المنطقة، وانتهى بإقامة قواعد. كانت الدول العربية «التقدمية» تؤيد هذا التقارب. بينما كانت الدول «المحافظة» قلقة، بل معادية، ولكنها لم تحاول أن تظهر هذا الموقف لأن عداؤها تجاه إسرائيل غطى على كل شيء آخر.

أندريه فيرساى: بعد حرب ١٩٥٦م، أجبرت الضغوط المشتركة للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الإسرائيليين على إعادة سيناء إلى المصريين. فى عام ١٩٦٧م، لم تمارس الولايات المتحدة ضغطًا مماثلاً، بينما احتلت إسرائيل أراضى أكبر من تلك التى احتلتها فى عام ١٩٥٦م. ما الذى تغير؟

شيمون بيريز: فى عام ١٩٥٦م، اعتبرنا الأمريكيون معتدين، بينما فى ١٩٦٧م، بدا لهم واضحًا أننا نحن الذين اعتدى علينا؛ بالإضافة إلى أننا أعلنا بوضوح أننا على استعداد للتفاوض بشأن انسحابنا مقابل إقامة سلام حقيقى، بينما الدول العربية أطلقت *«لاءاتها»* الثلاث.

أندريه فيرساى: ألم يكن هنا بالأخص سببًا جيوستراتيجيا أكثر حسما؟ ففى مواجهة مصر وسوريا اللتين فيما يبدو، دخلتا نهائيًا إلى المدار السوفيتى، ألم تتوصل الولايات المتحدة إلى نتيجة مؤداها أن إسرائيل فقط يمكنها أن تكون الحليف المؤكد والمستقر فى المنطقة؟

بطرس بطرس غالى: أنا أشاركك تحليلك هذا. فى عام ١٩٥٦م، اتخذت الولايات المتحدة فى عهد أيزنهاور موقفًا أكثر تشددًا إزاء الأوروبيين والإسرائيليين الذين كانت

تشعر بالتأكيد تجاههم بالتعاطف، ولكنهم لم يكونوا بعد الحليف بلا شروط، وهو ما أصبحوا عليه فيما بعد.

وأضيف أنه إن كانت واشنطن قد قبلت فكرة أن ناصر يمكن أن يكون قد ارتكب خطأ فى عام ١٩٥٦م، فهى لن تغفر له مساندته العسكرية للقوى الجمهورية اليمنية، التى كانت تمثل تهديدا للبترول السعودى، وكذلك لن تغفر له سلوكه العدائى فى عام ١٩٦٧م.

وبعد أن جعل ناصر من نفسه شخصية غير شعبية أمام الغربيين، الذين اعتبروه بشكل قاطع ديكتاتورًا، فإن الأمريكيين لن يشعروا بالانزعاج من «الدرس المفيد» الذى أعطته إسرائيل له.

شيمون بيريز: نعم، وبالإضافة إلى تقارب ناصر من السوفييت وإقامة علاقات شخصية مع زعمائهم، فإن مصر جزء من هذه الحركة التى تطلق على نفسها *«عدم الانحياز»*، وتعتبر نفسها قوة *«متشددة»* تحاول توحيد العالم العربى فى كتلة معادية لأمريكا.

* * *

٩- ازدهار حركة فلسطينية وطنية

السياسة الفلسطينية للدول العربية - «حنين استثنائى» فلسطينى - تطور العقلية الفلسطينية - تكاثر المنظمات الفلسطينية - معركة الكرامة - ياسر عرفات زعيم فتح - سبتمبر الأسود - ألعاب أولومبية دموية فى ميونخ - الإرهاب الفلسطينى يتطور.

أندريه فيرساى: من عام ١٩٤٨م وحتى ١٩٦٧م لم يفعل العرب شيئًا ذا شأن لإخراج الفلسطينيين من وضعهم كلاجئين..

بطرس بطرس غالى: إننى غير متفق معك على الإطلاق. فالعرب لم يعتبروا الفلسطينيين أبدًا كلاجئين، ولكن كمواطنى دولة فلسطينية يستعمرها الصهاينة.

وكما رأينا، فى أثناء الأعمال التحضيرية لوثيقة جامعة الدول العربية، فى فبراير عام ١٩٤٥م، اقترح مندوب مصر انضمام فلسطين كعضو فى الجامعة. ولكن مندوب لبنان صاغ اعتراضات قانونية وعملية. وتم الاتفاق على حل وسط، ظهر فى ملحق خاص، نص على أنه «*إذا كان وجود فلسطين لم يمكنه أن يتجسد فى مظاهر خارجية لأسباب خارجة عن الإرادة، فإن هذا الظرف ليس مسوغًا يحول دون اشتراك فلسطين فى أعمال مجلس الجامعة*». وبعد إقامة دولة إسرائيل، رأينا من الضرورى أن يبقى الشعب الفلسطينى فى داخل أرضه. ومن هذا المنطق، رفضت كل من دمشق والقاهرة وبغداد والكويت منح جنسيتها إلى اللاجئين الفلسطينيين. فقط الأردن انفصل عن هذا الخط، وأعطى مسئوليات سياسية وبرلمانية إلى الفلسطينيين المقيمين فى الأردن. إن رفض دمج الفلسطينيين فى الدول العربية وإعطائهم جنسياتها، تم تحديدًا باسم احترام وحماية الفلسطينيين الذين من حقهم أن يكون لهم دولة شرعية.

أندريه فيرساى: حتى ولو بالتضحية بجيل أو اثنين أو ثلاثة؟

بطرس بطرس غالى: ولكن، رفض اللاجئون الفلسطينيون أنفسهم فى غالبيتهم العظمى الحصول على جنسية أخرى. لأن ذلك يعنى تخليهم عن حق العودة ومقامرتهم بمستقبل الدولة الفلسطينية.

أندريه فيرساى: لقد كان هناك لاجئون، ضحايا الحروب، منذ فجر التاريخ، وفى كل مكان من العالم. بشكل عام، الحنين يستمر فترة من الزمن، ثم فى النهاية يقوم هؤلاء اللاجئون ببناء حياة لهم تحت سماوات أخرى. ولكن الفلسطينيين على العكس من ذلك يحنون لأرضهم بصورة استثنائية. فهم، ليسوا فقط لا يتخيلون إمكانية الحياة فى دولة عربية أخرى، ووسط شعوب يشاركونهم اللغة والدين وجزء كبير من الثقافة، ولكنهم يظهرون ارتباطًا مبطنًا لقطعة الأرض التى كانوا يملكونها، ولمنزلهم فى قريتهم، حتى ولو لم يعد أى منها موجودا.

كيف تفسر هذا «الحنين الاستثنائى» الفلسطينى الذى يستمر منذ أكثر من نصف قرن؟

بطرس بطرس غالى: أريد أولا أن أذكرك بالمادة ١٣ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والتى تنص على أن *«يحق لكل فرد أن يغادر أى بلد بما فى ذلك بلده كما يحق له العودة إليه»*. وهل يجب أيضًا التذكير بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩٤ الذى يعطى الفلسطينيين الحق فى العودة إلى وطنهم؟

والآن، ردًا على سؤالك، أعتقد أن هذا الحنين، والذى كان طبيعيا فى البداية، تم تغذيته بأيديولوجية قومية حادة اتسع انتشارها فى معسكرات اللاجئين. هذا التذكير بالوطن المفقود، الذى لا يفتأ القوميون التحدث عنه كل يوم، وقد اختلط به شعور بكراهية المحتل، تأصل ورسخ بعمق فى المشاعر إلى حد أنه لم يترك للفلسطينيين الفرصة لتخيل أنفسهم يعيشون خارج «الوطن». بالإضافة إلى كون اليهود قد استطاعوا العودة إلى أرض عاش عليها أجدادهم قبل ألفى عام، أكّد أكثر على حق عودة الفلسطينيين إلى نفس هذه الأرض التى عاش عليها آباؤهم، بالكاد قبل نصف قرن. ***«إن كان اليهود انتظروا ألفى عام لإقامة دولتهم، فإننا نحن الفلسطينيون، نستطيع أيضًا انتظار جيل أو اثنين أو ثلاثة، أو حتى أربعة من أجل بناء دولتنا»***.

أندريه فيرساى: حتى عام ١٩٦٧م، لم يكن المجتمع الدولى يذكر بالكاد الحقوق «القومية» للفلسطينيين؛ كانت المسألة الفلسطينية تعتبر فى الأساس مشكلة لاجئين. كما

لم نكن نتحدث حتى هذا الوقت عن صراع إسرائيلى-فلسطينى، بل عن صراع إسرائيلى-عربى.

بطرس بطرس غالى: المجتمع الدولى يتحدث عن الصراع الإسرائيلى-العربى، ولكن العالم العربى يستخدم أيضًا كلمة الصراع الإسرائيلى-الفلسطينى. ولكنك على حق، فهناك بالتأكيد فجوة زمنية بين خطاب المجتمع الدولى الذى يتحدث عن حق «اللاجئين» والخطاب العربى الذى يتحدث عن «حقوق قومية».

أندريه فيرساى: *أثارت* الهزيمة العربية فى ١٩٦٧م تغييرًا فى عقلية جزء كبير من الفلسطينيين؛ فقد بدأ هؤلاء يتصرفون تدريجيًا أقل ثم أقل كلاجئين يتلقون المعونة، وأكثر ثم أكثر كمحاربين وطنيين. وفى نفس الوقت، تحررت الحركات الفلسطينية من وصاية الحكومات العربية.

أقترح عليك أن تعود للحظة، إلى نشأة أهم تلك الحركات، وهى منظمة التحرير الفلسطينية. فقد نشأت المنظمة بقرار اتخذه ناصر فى القمة العربية بالقاهرة التى عقدت فى الفترة من ١٣ إلى ١٦ يناير عام ١٩٦٤م. وبالتعاون مع رئيس الوزراء السورى أمين الحافظ، والرئيس العراقى عبد السلام عارف، شكل ناصر منظمة فلسطينية ولكن تابعة له. أراد بالطبع، التشجيع على بناء قوة فلسطينية مقاتلة قادرة على التحرك فى إسرائيل، على أن يحتوى، فى نفس الوقت، احتمالات وهن عزيمتهم من أجل الاستقلال. هذه القوة سوف يتم الإبقاء عليها فى كنف الدولتين المصرية والسورية. هذه الوصاية كانت واضحة إلى حد أن العمليات الأولى التى قامت بها المجموعات الوطنية مثل فتح أو العاصفة، تمت جزئيًا كرد فعل لإقامة منظمة التحرير الفلسطينية، ولكى يظهروا للعالم أن المقاتلين الفلسطينيين يرفضون أن يكونوا قوة تابعة للعالم العربى.

منذ ذلك الوقت، ماذا ستكون لعبة العالم العربى تجاه الفلسطينيين؟ أحيانا يأتينا انطباع بأن منظمة التحرير الفلسطينية نشأت، ليس بمساعدة الحكومات العربية الواضحة، ولكن فيما يبدو رغما عنها. ألا تعتقد أن الفلسطينيين قد فرضوا هم أيضًا، قضيتهم على الدول والحكومات العربية، التى اتخذت من ناحيتها الفلسطينيين ذريعة من أجل رفض الحوار مع الإسرائيليين؟

بطرس بطرس غالى: أتصور أنه يجب التمييز بين هؤلاء الذين أرادوا الاحتفاظ بالأراضى التى كانوا يديرونها، فلا يتحدثون عن طيب خاطر عن «دولة فلسطينية»، وهؤلاء

الذيـن، بالعكـس، اهتموا بمعارضـة الرغبة نحو الضـم التدريجي ودعوا صراحـة إلى إقامة دولة فلسطينية.

كما قلت من قبل، كانت فلسـطين تتمتع بوضع خاص كعضو مشـارك في جامعة الدول العربيـة. وكان مجلـس الجامعـة فقـط هـو الذي من حقـه اختيـار مندوبي فلسـطين. ولكن بسـرعة تبين أن هذا الاختيار كان صعبًا، بسبب الخلافات بين الأجنحة السياسية الفلسطينية المختلفة. لذلك اضطرت الجامعة أن تشـكل جبهة تحرير تضم هذه الاتجاهات المختلفة. في ١٢ مارس عام ١٩٦٩م، اعترفت جامعة الدول العربية بياسـر عرفات كممثل لفلسـطين. إنـه هـو الذي سـينجح في اسـتبعاد وصايـة الجامعـة العربية. فـي الحقيقة، إننـا ندين بذلك للسـعودية. فقـد اعتبـرت أن مندوب فلسـطين، منـذ ذلك الحيـن فصاعدًا، ينبغـي أن يكون منتخبًا من الشـعب الفلسـطيني ولا تقوم الجامعـة بتعيينه. منذ هذا الوقـت، اعتبرت الدول العربية الفلسطينيين رهانًا چيوبوليتيكيًا. هذا الرهان كان عُرضة للتأرجح - بالطبع - حسب الانقسـامات التي سـتخترق العالم العربي. كل حكومة سترغب في الاحتفاظ بالفلسطينيين في كنفها، لأنهم كانوا يشـكلون بلا أدنى شـك، ورقة دبلوماسـية رابحـة. وكلما مر الوقت، كلمـا بـات واضحًا أنه مـن مصلحة أي دولـة عربية أن تكـون قريبة من الفلسـطينيين. ولأن الولايات المتحدة كانت ترغب في أن تعيش هذه المنطقة في سلام، فإن البلاد التي تقبل أن تكون مفاوضًا كانت تضمن بأن ترتفع أسـهمها لدى واشنطن. وهكذا دخلت الدول العربية في منافسـة. وأخيرًا، وبصرف النظر عن التضامـن العربي، أو عن هموم اللاجئين، أو العداء العام إزاء إسـرائيل، سـمحت المسـألة الفلسـطينية للحكومات بتحويل انتباه مواطنيهم عن المشـاكل الداخلية. كان الشـعار الذي يتردد في تلك الفترة هو: «*لا صوت يعلو فوق صوت المعركة*».

أندريه فيرسـاي: في هذه الفترة، كان ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية ينص على أن قرار تقسـيم فلسـطين لعـام ١٩٤٧م ليـس لـه أي سـند، وهـدف المنظمـة هـو تدميـر «الكيـان الصهيونـي» من خلال الكفاح المسـلح. ذلـك فضلاً عن أنها تنكر مبـدأ أن اليهود يمكن أن يكـون لهم أية رابطـة تاريخية أو حتى روحانية مع فلسـطين. وبالتالي، بعـد التدمير المتوقع لإسرائيل، فإن أقلية من اليهود تستطيع البقاء في فلسطين، ولكن فقط كأقلية دينية، وبالتأكيد ليس كقومية.

بعد الهزيمة الكبرى في عام ١٩٦٧م، هل مشروع تدمير الدولة اليهودية هذا، سيكون له أية مصداقية في نظر العرب، أو أنه مجرد بلاغة لغوية؟

بطرس بطرس غالى: فى عام ١٩٦٨م، هذا «البرنامج» لم يبد أقل واقعية للبعض عن كفاح الجزائر من أجل الاستقلال قبل ١٥ عامًا. وبالنسبة للمتطرفين والأصوليين يظل هذا المشروع محتفظًا بكل مصداقيته. ولكن فى المقابل، فقد تنامى لدى المعتدلين شعور بأن السلام يمر عبر الاعتراف والتعايش مع الدولة الإسرائيلية.

أندريه فيرساى: تكاثرت الحركات الفلسطينية وكانت تتمايز فيما بينها باختلافاتها الأيديولوجية: فتح منظمة ياسر عرفات، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لجورج حبش، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين لنايف حواتمى، والصاعقة التابعة لسوريا، إلخ. هذه الحركات القومية ليست إسلامية. بل نجدها أقرب إلى اليسار المتطرف. وإن كانت تلك المنظمات مناهضة بعنف للإسرائيليين، فإن العديد منهم (الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية) لم تدخر ألفاظًا قاسية للهجوم على النظم الملكية العربية التى كانوا يعتبرونها رجعية.

بطرس بطرس غالى: هذا حقيقى تماما. يجب أن نتذكر أن الشيوعية كانت فى ذلك الوقت فى ذروتها، وكان اليسار العربى يتصور أن تحرير فلسطين لا ينفصل عن تغيير نظام الحكم فى القاهرة وعمان والرياض... ورأى اليسار أن النكبة عام ١٩٤٨م لم تكن بسبب التقدم التكنولوجى الإسرائيلى بقدر ما كانت بسبب تخلف العالم العربى.

هل كانوا مخطئين تمامًا؟ لو كان العالم العربى قد استطاع تحديث نفسه واكتساب التكنولوجيا المتطورة مثلما فعل الإسرائيليون، لكان أصبح قوة. لذا فمن الواضح أن الهزائم العربية المتتالية هى أيضًا بسبب تأخر العالم العربى. إننا نجد أنفسنا هنا من جديد أمام الصيغة الاستعمارية: إن كانت إسرائيل قد انتصرت فى حروبها، فلأنها تواجه دولًا كانت خاضعة للاستعمار، وأيضًا متخلفة.

أندريه فيرساى: انطلاقًا من بداية السبعينيات، لجأت منظمة التحرير الفلسطينية والمنظمات الوطنية الفلسطينية، بوجه عام، تدريجيًا إلى الإرهاب.

شيمون بيريز: نعم، فبعد أن رأوا أن الدول العربية لم تستطع «تخليصهم» من إسرائيل، بدأت الحركات الفلسطينية ترفع معدلات عملياتهم الإرهابية بلا شفقة ولا تمييز، حيث إنهم كانوا يذهبون إلى حد تنفيذ هجمات دموية ضد المعابد اليهودية والمدارس الابتدائية اليهودية خارج إسرائيل. شكلت المنظمات الفلسطينية تحالفًا قاتلاً يتحكم فيه متعصبون دينيون ومتطرفون قوميون. وبالطبع، أدى اتساع هذا الإرهاب إلى إغلاق المزيد من كل

إمكانية للحوار بين منظمة التحرير الفلسطينية، أو أية منظمة فلسطينية أيًا كانت، وبيننا. من جانبنا، اعتبرنا أنفسنا فى حالة الدفاع الشرعى عن النفس، مع الاحتفاظ بحقنا فى تصفية الفدائيين. فقط أقلية صغيرة من الإسرائيليين لم تكره منظمة التحرير وتصورت إمكانية التفاوض معها. بينما ساند سائر أفراد الشعب مقاومة الحكومة ودفاعها عنهم.

هذه العمليات الإرهابية تلقت مساندة متزايدة من الدول العربية المجاورة. ومنذ ذلك الوقت، وبما أن الكوماندوز كانوا يعملون انطلاقا من الأردن أو سوريا أو مصر، كنا نرد عليهم بشكل متزايد فى أعماق تلك البلاد، وذلك بهدف إجبار الحكومات على كبح الحركات الفلسطينية ومنعها من إطلاق عملياتها من أراضيهم.

ولكن فى تواز مع هذه العمليات الانتقامية، كنا نريد أن نعالج «أسباب» هذا الإرهاب. فقمنا بمضاعفة ميزانية التعليم؛ وفتحنا جامعات، بالاختصار عملنا على رفع مستوى معيشة الفلسطينيين عمومًا.

أندريه فيرساى: ماذا كانت آمال الدول العربية عندما قامت بتسليح الفدائيين؟

بطرس بطرس غالى: لم تكن الدول العربية تأمل فى أى شىء. فلم يكن لديها فكرة محددة عن الخروج من هذا الصراع. بالعكس، كانوا يشعرون بأن عليهم مساعدة الفلسطينيين فى حربهم من أجل التحرير، عن طريق منحهم مساعدة دبلوماسية لدى المجتمع الدولى ومنظماته، ومساعدة مالية ومادية. وذلك برغم الصراعات الداخلية التى ذكرتها من قبل. وكما قلت لك، يتعلق الأمر، بالنسبة للعالم العربى، بحرب استقلال من الاستعمار.

أندريه فيرساى: ستتزايد الاشتباكات بين الفدائيين والجنود الإسرائيليين. ومن بين تلك الاشتباكات، يجب أن نذكر هذا الذى وقع فى ٢١ مارس عام ١٩٦٨م: ففى عملية انتقامية ردًا على تفجير أوتوبيس مدرسة بلغم حيث لقى شخصان مصرعهما وأصيب عشرة أطفال، قرر الإسرائيليون تدمير معسكر «الكرامة» الفلسطينى، الذى يقع غربى الأردن. ولكن، لأن مقاومة الفدائيين كانت أكثر عنادًا مما توقع الجنود الإسرائيليون، اضطر هؤلاء إلى الانسحاب بدون إنجاز مهمتهم. ولم يحتج الفلسطينيون إلى أكثر من ذلك لكى يحولوا الواقعة إلى أسطورة ستظل فى ذاكرة جيل من الفلسطينيين كرمز للمقاومة البطولية ودليل على هشاشة التساحال.

شيمون بيريز: الكرامة كانت انتصارًا أردنيًا - فلسطينيًا، أكثر منه انتصارًا فلسطينيًا، لأن الجيش الأردنى تدخل بشكل واسع فى المعركة. وعلى أية حال، يجب ألا نبالغ فى دلالته؛ فقد كان نصرًا محليًا ومحدودًا.

بطرس بطرس غالى: سواء كان محليًا ومحدودًا أم لا، فإن الكرامة تمثل لحظة عظيمة بالنسبة للفلسطينيين. إنه تاريخ شعب مستعمَر استطاع أن يدفع القوة الاستعمارية إلى التقهقر. سواء كان وهمًا أم لا، هذا «الانتصار» سيثير حماس العديد من الفلسطينيين الشبان. والآلاف منهم سيتركون المدارس والجامعات من أجل الانخراط فى صفوف الفدائيين، وسيزيد عدد النشطاء خلال أشهر قليلة من ألفين أو ثلاثة آلاف إلى عشرة آلاف، بل ١٥ ألف رجل. هذا «الانتصار» كان له أيضًا تأثير فى التفاف، على الأقل مؤقتًا، صفوف المجتمع العربى حول الفلسطينيين. وهكذا، أعلن الملك حسين نفسه: *«لقد أصبحت من المقاومة!»*. وأخيرًا، تمكنت منظمة التحرير من تحرير نفسها قليلاً من وصاية الدول العربية، وكسب مكانة، والحصول على دعم أفضل؛ فقد منحتها الكويت ٥٪ من الضرائب المقررة على الفلسطينيين المقيمين فيها.

أندريه فيرساى: كان ياسر عرفات من بين فدائى الكرامة، وقد كان عضوا مؤسسا بمنظمة فتح، أحد أهم الأجنحة بمنظمة التحرير. وبعد عدة أشهر، فى فبراير عام ١٩٦٩م، تم انتخابه على رأس اللجنة التنفيذية بمنظمة التحرير. لماذا هو؟ من هو إذن عرفات، وكيف كان العرب ينظرون إليه؟

بطرس بطرس غالى: درس عرفات الهندسة فى جامعة القاهرة. وكان قريبًا أكثر من الإخوان المسلمين المصريين، ولم يكن مقبولاً إلى حد ما من المثقفين الفلسطينيين الذين رأوا أنه ليس على مستوى تمثيلهم، ولكنه سوف يظهر مع ذلك بعض القدرات التى ستسمح له تدريجيًا أن يفرض نفسه ويصبح زعيمًا للفلسطينيين. ولم تضعف سلطته حتى وفاته، رغم العديد من الأزمات والانتقادات التى تعرض لها طوال حياته العملية. وحال توليه رئاسة منظمة التحرير، بدأ يتمتع أكثر بدعم الغالبية العظمى فى دول العالم العربى.

أندريه فيرساى: توطنت منظمة التحرير بقوة أكبر فى الأردن (انتقل المقر الرئيسى لفتح من دمشق إلى عمان) وتحولت خلال شهور قليلة إلى دولة داخل الدولة. كيف تم التعايش بين القوميين الفلسطينيين المسلحين والأردنيين؟

بطرس بطرس غالى: العلاقات كانت صعبة. لقد كانت العائلة المالكة هاشمية والجيش كان مكونًا أساسًا من أردنيين، لذا قام الملك حسين، رجل الدولة الحاذق، بتعيين فلسطينيين فى مناصب عامة مهمة. ونجح بسهولة فى دمج الموجة الأولى من اللاجئين الفلسطينيين، ولكن فيما يبدو أن الموجة الثانية كانت بحاجة إلى وقت أكثر.

أندريه فيرساى: كلما زادت قوة الحركات الفلسطينية، تزايدت المصادمات مع القوى الأردنية. ألم يبدو أن السلطة الهاشمية تترنح؟

بطرس بطرس غالى: لا أعتقد. أولاً، كان الجيش الأردنى أكثر تنظيمًا من الحركة الفلسطينية، التى كانت مقسمة إلى عدة أجنحة؛ ثم إن الفاعلين الرئيسيين فى الشرق الأوسط، وكذلك المجتمع الدولى، لم يكن فى مصلحتهم تغيير النظام فى الأردن، ومصلحتهم أقل فى أن يروا الفلسطينيين يقلبون نظام الحكم الملكى.

أندريه فيرساى: يبدو أن حسين كان يقوم بتنازل بعد تنازل. إذ إنه بعد عملية اختطاف ٣٣ شخصًا رهينة فى ١١ يونية عام ١٩٧٠م، التى قامت بها الجبهة الشعبية برئاسة جورج حبش، استسلم لمطالب النشطاء وأقال القائد الأعلى للقوات المسلحة، ووزير الداخلية وجنرال الفرقة التى قامت دباباتها بفتح النيران على معسكرات الفلسطينيين. ثم فيما بعد، يوم ١٠ يولية، وقعت الحكومة الأردنية اتفاق حل وسط مع عرفات، حصلت منظمة التحرير بمقتضاه على السيطرة الكاملة على معسكرات اللاجئين، بينما التزم الفدائيون على إبقاء رجالهم المسلحين بعيدا عن وسط مدينة عمان.

فى سبتمبر، ارتفعت حدة التوتر أكثر وأكثر. وأعلن حسين أن جيشه لن يتحمل بعد الآن أية مظاهر للتحدى. ولكن الجبهة الشعبية لم تعر اهتمامًا للتصريحات الملكية. وبعد محاولة اغتيال ضد الملك، قررت الجبهة فى نفس الوقت اختطاف ثلاث طائرات تابعة لخطوط جوية غربية (شركات تى دبليو إيه، وسويس إير، وبان أم) وحولت مسارهم إلى الأردن. ونفذت العملية وقام الكوماندوز الفلسطينيون بالاحتفاظ بمئات الرهائن من بريطانيين وأمريكيين وألمان. ثم بعد الإفراج عن معظم الرهائن، والاحتفاظ بـ ٥٤ منهم، قامت الجبهة بتفجير الطائرات الثلاث (وكانت خالية من الركاب) على أرض مطار الزرقاء، وتحت بصر آلات تصوير تليفزيونات العالم أجمع.

كان ذلك أكثر مما يمكن أن يتحمله الملك، فقام بإطلاق جيشه فى هجوم على نطاق واسع ضد قواعد منظمة التحرير. كانت المعارك عنيفة جدًا، إلى حد أن المحاربين الفلسطينيين لجأوا إلى إسرائيل هربًا من ضربات القوات الأردنية البدوية.

هددت سوريا بالتدخل من أجل مساندة منظمة التحرير. ولكن من أجل منع سوريا، قام نيكسون ومستشاره هنرى كيسنجر، بالاتصال بالإسرائيليين وحثهم على التحليق فى سماء الأردن من أجل إجبار دبابات دمشق، التى عبرت الحدود، على العودة أدراجها. وبعد أن تحررت الأردن من التهديد السورى، تابعت بعنف حربها ضد الحركات الفلسطينية. ومن مخبئه فى عمان، وجه ياسر عرفات عبر الإذاعة الفلسطينية، نداء إلى الحكومات العربية يدعوهم فيه إلى التدخل. واجتمعت الحكومات العربية فى القاهرة من أجل عقد قمة عربية طارئة يرأسها ناصر. وقرر الاجتماع أن يرسل وفدًا إلى عمان لكى يطلب من الملك حسين أن يوقف الحرب. هذا الوفد رأسه الرئيس السودانى النميرى. ويقص النميرى فيما بعد، أن مناقشته مع حسين استمرت طوال الليل وحتى الفجر، ولكن الملك لم يتنازل عن موقفه. فقرر النميرى أن يلتقى سرًا بعرفات فى مخبئه، من أجل أن يرافقه إلى السفارة المصرية. وهناك، سيتنكر رئيس منظمة التحرير، ثم ها هو يتسلل إلى الوفد العربى، حاملاً طفلاً بين ذراعيه، وبجانبه «زوجة»، يعبر متخفيًا عن أعين الرقابة فى مطار الأردن ويركب الطائرة التى ستقله إلى القاهرة.

بطرس بطرس غالى: نعم، وأمام هذا الصدام سينقسم العالم العربى مرة أخرى. البعض أدان بقوة «سبتمبر الأسود» هذا الذى اعتبروه حربًا بين الأخوة من شأنها أن تضعف العالم العربى. والبعض الآخر، أيد بحذر أكبر، رد الفعل القوى للملك حسين لأنه يعمل على الحفاظ على الأمر الواقع فى المنطقة. فى نفس الوقت، أيدت النظم الاستبدادية هذا الرد القوى الذى يعد بمثابة إنذار إلى الشعوب التى قد تظهر رغبة فى التمرد ضد نظمها. ومع ذلك فقد تحدثت الصحف قليلاً عن الأحداث وبشكل غامض: كان الأمر يتطلب ضرورة طى الصفحة بأسرع ما يمكن.

أندريه فيرساى: ما رأيك فى رد فعل الملك؟ وبعد الأحداث، هل يبدو لك أن لديه بعض الشرعية؟

شيمون بيريز: لا يمكن لأى سلطة دولة أن تتسامح فى قيام أقلية أجنبية بتكوين دولة داخل الدولة وفرض قانونها على السلطات الشرعية. هذه الحرب كانت بالتأكيد ستقع إن آجلاً أو عاجلاً. وبقيامهم تفجير الطائرات الثلاث على أرض المطار الأردنى، لا يمكن للكوماندوز أن يتجاهلوا أنهم قد أقدموا على عمل لا تستطيع أية دولة أن تقبله، وبالتالى فإن الحكومة سترد، وبعنف شديد.

بطرس بطرس غالى: صحيح أن هذه الأحداث لو وقعت فى مصر أو سوريا، لردت السلطات بنفس الطريقة. ولكن مع ذلك، فلم يكن الأمر يتعلق بـ «أقلية أجنبية». إن رؤيتكم لا تنطبق على واقع العالم العربى. كل تلك الأراضى شكلت إقليمًا من أقاليم الإمبراطورية العثمانية. وعاش الفلسطينيون والأردنيون والعراقيون والسوريون تحت نفس النظام، وكانوا ينتمون إلى نفس الإمبراطورية، ويشتركون فى نفس الدين ونفس التقاليد ونفس اللغة ونفس الثقافة.

أندريه فيرساى: نعم. ولكن إن كان العالم العربى منذ عهد النبى محمد، يعيش فى حرب مستمرة مع نفسه، هل من الممكن اعتباره كيانًا حقيقيًا، فتكون حروبه مجرد حروب «أهلية»؟ الوضع يشبه إلى حد ما كما لو أننا اعتبرنا الحروب الأوروبية منذ القرن الثامن عشر «حروبًا أهلية»، بزعم أن الأمر يتعلق بنفس العالم الذى يعتنق نفس الديانة.

بطرس بطرس غالى: الأمر مختلف تماما. كما قلت لك من قبل، إنه نفس الشعب الذى يتحدث نفس اللغة وارتبط بزيجات مختلطة. لا تستطيع مقارنة الأقاليم العثمانية فى المشرق العربى بالدول الأوروبية. إنه الاستعمار البريطانى والفرنسى الذى قسم كل تلك المنطقة من أجل إنشاء دول مصطنعة كما فعل فى إفريقيا...

أندريه فيرساى: أيا كان الأمر، «تصالحت» الأطراف. ونتائج هذه الحرب التى سوف يطلق عليها اسم «سبتمبر الأسود»، ستكون ثقيلة: ٣٥٠٠ مدنى و٩٠٠ محارب قتلوا من الجانب الفلسطينى حسب أرقام منظمة التحرير (تتحدث مصادر أخرى عن نحو عشرة آلاف قتيل). وسوف يتدخل ناصر بنفسه من أجل مصالحة الطرفين. وفى ٢٧ سبتمبر، جمع ناصر فى القاهرة الملك حسين وياسر عرفات وجعلهما يوقعان على اتفاق يضع مؤقتًا نهاية للعداء بينهما.

هذه «المصالحة» ستكون آخر عمل سياسى يقوم به ناصر. ففى اليوم الأخير من مؤتمر القاهرة، توفى فجأة، تحت وطأة أزمة قلبية. وأدت وفاته، بعد ١٨ عامًا من الحكم بلا شريك، إلى أن يسود شعور فى العالم العربى بالإحباط التام.

ورغم ذلك، قبل عام، وفى يولية عام ١٩٧١م، قررت السلطات الأردنية أن تقضى جذريًا على القواعد الفلسطينية. وبعد عدة أيام من المعارك الضارية، طُردت منظمة التحرير نهائيًا من الأردن. وفشلت المحاولات الفلسطينية فى أن تجعل من الأردن قاعدة لها ضد إسرائيل.

وتوجهت المنظمات الفلسطينية للإقامة فى لبنان. هناك تحولت المعسكرات الفلسطينية إلى قبلة للإرهاب حيث ستأتى جماعات إرهابية من جميع أنحاء العالم (الألوية الحمراء وعصابة بادر، إلخ) للتدريب فيها. كيف رأى العرب هذا الإرهاب، الذى أصبح مألوفًا ؟

بطرس بطرس غالى: بداية، هذا الوجود للإرهابيين الأجانب مغالى فيه جدا. فهو يحمل قيمة رمزية أكثر منه حقيقية. أما بالنسبة للإرهاب الفلسطينى، فكما تتصور، لم يتم إدانته إطلاقًا فى العالم العربى كما حدث فى الغرب. وبالنسبة للرأى العام العربى، الإرهابيون الفلسطينيون هم مجموعة رجال من المقاومة، الذين يخاطرون بحياتهم من أجل «قضية مقدسة». إنهم أبطال، وكان هناك شعور، فى أى مكان آخر، بأن «الإرهاب هو سلاح الفقراء».

أندريه فيرساى: فى العالم العربى، لم يكن من الممكن تخيل تحرير فلسطين بدون اللجوء إلى الإرهاب؟

بطرس بطرس غالى: لقد وجد الإرهاب فى كل العصور. والإرهابى لا يفرق كثيرًا بين قيامه بقتل جندى (الذى فى كل الحالات قد لا يكون إلا مدنيا يؤدى الخدمة العسكرية فى تلك الفترة) أو قتل مدنى. الهدف هو ضرب العدو فى المكان الذى يؤلمه أكثر.

هناك لدى هؤلاء الذين يدينون الإرهاب (وأنا منهم) تمييزًا من الأساس. فنحن لا ننظر إطلاقًا بنفس الطريقة إلى «الإرهاب الفردى» و«إرهاب الدولة». فإن تفجير حافلة تحمل مدنيين سوف يروعنا أكثر من إسقاط قنبلة تؤدى إلى قتل نفس عدد الضحايا المدنيين. وأكرر هنا، إننى شخصيا أدين الإرهاب. ولكن رغم ذلك، فأنا أعتقد أن «الإرهاب الفردى» يثيره فى أغلب الأحيان «إرهاب الدولة». تمامًا مثلما أثارت المعاملة السيئة للمسجونين الأيرلنديين فى السجون البريطانية، الميول الإرهابية لديهم، ويبدو لى أن الإرهاب الفلسطينى هو بالتأكيد الرد على الاحتلال الإسرائيلى. نعم، فأنا أعتقد أن هناك رابطة بين السبب والنتيجة فى هذه الحالات. ثم إن الإرهاب يبقى هو سلاح اليأس.

أندريه فيرساى: هل تشعر حقيقة أن أبا نضال أو كارلوس أو بن لادن يشعرون بيأس كبير؟ ألا تعتقد أن هذه الرؤية الدوستايفسكية للإرهاب هى رؤية رومانسية وخاطئة؟ وإن أراد المرء تجنب الإرهاب، يجب التعامل معه بكل تعقيداته، والتفرقة بين الإرهاب الذى

يستهدف رئيس شرطة يقوم بالتعذيب، والجنرال المسئول عن عمليات قتل ما، وبين الإرهاب الأعمى الذى يفجر حافلات أو يضع قنبلة فى مبنى سكنى مدنى؟

ما رأيك، على سبيل المثال، فى عمليات الإرهاب التى قام بها الجيش الأحمر اليابانى الذى تدرب فى لبنان والذى فتح النار يوم ٣٠ مايو عام ١٩٧٢م فى مطار اللد فى إسرائيل وقتل ٢٧ شخصًا وأصاب ٧١ آخرين، معظمهم كان كاثوليك من بورتوريكو جاءوا للحج فى الأراضى المقدسة؟ هل تعتبر هؤلاء اليابانيين أشخاصًا يائسين؟

بطرس بطرس غالى: لكل موقف خصوصيته. وأصر على القول إننى أول من يدين الإرهاب. فهو يؤذى القضية التى يريد الدفاع عنها أكثر مما يخدمها.

أندريه فيرساى: فى السبعينيات، شهدنا تطورًا خطيرًا للإرهاب الفلسطينى، وكما ذكرت، شيمون بيريز، فإنه لم يكن يميز بين الأشخاص. ورغم ذلك، لم تكن إسرائيل فى تلك الفترة، تتمتع بمساندة كبيرة من الدول الغربية فى حربها ضد الإرهاب.

شيمون بيريز: لم تشعر الدول الغربية بأنها معنية. فكانوا يقولون إن هذا الإرهاب فى النهاية هو نتيجة للانتصار الإسرائيلى، لندع الإسرائيليين يتصرفون مع هذه المشكلة التى لا تخص أحدا سواهم. لذا كان الإرهاب يعتبر مشكلة محلية، ولم يتصور الغرب أنه يمكن أن يصبح خطرًا دوليًا.

بالنسبة للإسرائيليين، لم يكن هناك أدنى شك فى أن هذا التوسع فى الإرهاب هو من عمل منظمة التحرير وياسر عرفات، الذى يعتبر عدوًا لدودًا.

أندريه فيرساى: فى أثناء الألعاب الأولمبية فى ميونيخ عام ١٩٧٢م، قام عدد من الكوماندوز الفلسطينيين باحتجاز الرياضيين الإسرائيليين وطلبوا الإفراج عن ٢٠٠ سجين فلسطينى فى السجون الإسرائيلية، مقابل إطلاق سراح الرهائن. ورفض الإسرائيليون التفاوض. وقامت وحدة كوماندوز من الشرطة الألمانية بالهجوم فى محاولة لإنقاذ الرهائن، ولكن المحاولة فشلت: فقد قتل الإرهابيون الرياضيين الإسرائيليين قبل سقوطهم بنيران قوات الأمن.

شيمون بيريز: فى ميونيخ.. يجب أن تقر أن المكان لم يكن قد اختير بذكاء. هذا الهجوم تحول ليكون رمزا للإرهاب الفلسطينى. إنه أكثر الأمثلة وضوحا على محاولة استغلال الإعلام لصالح القضية الفلسطينية. ولكن اختطاف الرهائن هذا تم إدانته بشدة من قبل الرأى العام العالمى، وساهم بالتأكيد فى ربط حركات الفدائيين بالإرهاب.

بطـرس بطرس غالى: لقد قمنـا بإدانة هذا العمل الإرهابى بسـبب الجريمة الدموية التى اقترفهـا، وأيضًـا لأنه أضر بالقضية الفلسـطينية ودعم الصورة التى تظهر الإسـرائيليين بأنهم هم الضحايا، بينما الضحايا هم الفلسطينيون.

أندريـه فيرسـاى: وفيمـا يبـدو، فى ذلـك الوقت، أعطـت جولدا مائيـر، رئيسـة الوزراء الإسـرائيلية، الأمر إلى الموسـاد لتصفية عدد كبير من المسئولين الفلسطينيين، فى أى مكان كانوا.

شيمون بيريز: جولدا لم تعط مثل هذا الأمر أبدًا. الحقيقة هى أنه تم تكليف من الموساد بتصفيـة المسـئولين عن مذبحـة ميونيخ، ولكن ليـس كل القادة الفلسـطينيين. لم يكن هناك أبدًا قرار بتصفية عامة.

بطـرس بطـرس غالى: حسـب معلوماتى، جولـدا مائير ولجنـة الدفاع التابعـة للحكومة قرروا سـرًا إعطاء الموساد الأمر بقتل زعماء سـبتمبر الأسود والجبهة الشعبية، وفى المكان الـذى يوجـدون فيـه. وتلقت فرقة كوماندوز خاصة، شـكلتها الموسـاد، مهمـة العثور على الإرهابييـن وقتلهـم. «*فليضعوا قائمة سـوداء ويبدأوا العمل*». فتم إرسـال خطابات مفخخة إلـى زعماء منظمة التحرير فـى الجزائر وفى ليبيا، وإلى زعيم الهلال الأحمر فى كوبنهاجن. يمكننى سـرد أمثلة على هذه الاغتيالات: فى ٨ ديسـمبر عـام ١٩٧٢م ممثل منظمة التحرير الفلسـطينية فى باريس محمد الهمشـرى، فى ٩ أبريل عام ١٩٧٣م، فى بيروت، أبو يوسف، وكمال عدوات، وكمال ناصر المتحدث باسـم منظمة التحرير، ويوم ٢٨ يونية عام ١٩٧٣م محمد بوضياء، الزعيم المفترض لعمليات سـبتمبر الأسود فى أوروبا. كما ترى، إن إرهاب الدولة الإسرائيلية فى نفس قسوة إرهاب منظمة التحرير.

شـيمون بيريز: لا، لأن كل الأشـخاص الذين ذكرتهم كانوا إرهابيين ومسـئولين بصورة أو بأخـرى عـن مختلف التجاوزات. هـذه الاغتيالات كانت موجهة إلى أشـخاص بعينهم، وعملاؤنـا لـم يمارسـوا أبدا الإرهـاب الأعمى الذى يضـرب المدنيين والنسـاء والأطفال، إلخ.

أندريه فيرسـاى: شـيمون بيريز، بعد مضى الزمن، هل تعتبر أن الإرهاب، رغم قسـوته، حقق فى النهاية «*نتيجة*»؟

شيمون بيريز: لا. بالعكس، أعتقد أن الفلسطينيين لو كانوا قد اختاروا الطريق السياسى، لخرجـوا رابحين فـى الوقت والفاعلية. لقد تسـبب الإرهابيـون فى إيلامنـا، بالطبع، ولكن

إرهابهم كان يثيرنا للانتقام ضده، وذلك كان يؤدى إلى إيلامهم هم أيضا. لقد أعطى الإرهاب نتيجة عكسية، بمعنى أنه كان يعطى شرعية للعمليات الانتقامية الأكثر حدة التى كنا نقوم بها، ودفع بالصقور إلى رأس الحكومة الإسرائيلية. حتى هؤلاء الذين كان من الممكن أن يقنعوا الحكومة بالتوجه نحو انفتاح أكبر، تشددوا. كان من الممكن ألاّ تلجأ المنظمات الفلسطينية إلى الإرهاب الأعمى، ويحولوا أنفسهم إلى حركة سياسية حقيقية، لكنا - على أية حال - كنّا قد بدأنا معهم المفاوضات فى وقت سابق. وعلى أية حال كان المجتمع الدولى سوف يمارس علينا ضغوطًا من أجل البدء فيها. كان أكبر خطأ وقع فيه الفلسطينيون هو أنهم قدروا قوتهم العسكرية بأكثر من حقيقتها، وقدروا قوتهم السياسية بأقل من حجمها. قارن بين سياسة نيلسون مانديلا وسياسة ياسر عرفات: من منهما كان الأكثر ذكاء وفى النهاية الأكثر فاعلية؟

بطرس بطرس غالى: أعتقد أن مقارنتك مضللة. لقد كان نيلسون مانديلا يتمتع بمساندة غالبية شعب جنوب إفريقيا والمجتمع الدولى، بينما لم يحصل عرفات إلا على تأييد أقلية من الفلسطينيين المضطهدين، ولم يتمتع بمساندة المجتمع الدولى.

شيمون بيريز: هذا بالضبط ما أزعمه. فلأنهم توجهوا إلى أبشع أنواع الإرهاب، لم تحصل المنظمات الفلسطينية إلا على تأييد أقلية ولم يتمتعوا بمساندة المجتمع الدولى.

بطرس بطرس غالى: إننى ما زلت مقتنعًا بأن العمليات الإرهابية، مثل اختطاف ثلاث طائرات فوق عمان، هى التى نبهت العالم إلى وضع الفلسطينيين. فمن هذه النقطة بدأ الغرب حقيقة، يتحدث عن الفلسطينيين، ويهتم بمصيرهم.

* * *

١٠- حـرب أكتوبـر ١٩٧٣

مجىء أنور السـادات - السـادات يريد تحريك الأمور - القاهرة تطرد الخبراء السوفييت - «كنـا جميعـا نعتبر السـادات كالمهرج..» - دايـان كان لا يعتقد أن العرب سـيجرأون على خـوض حـرب جديدة - ٦ أكتوبـر ١٩٧٣م، الطائرات المصرية والسـورية تهاجم - مزاج مظلـم فـى إسـرائيل، أفراح فى مصـر - نتائج الحرب - إسـرائيل، هل كانـت فى خطر؟ - «حرب تمثيلية»؟

أندريه فيرساى: يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠م، أى غداة «المصالحة» بين حسين وعرفات، توفـى ناصـر، كمـا قلنا، توفى نتيجـة لأزمة قلبية. وخلفه على رأس السـلطة فـى مصر، أنور السـادات، نائب الرئيس. كيف كانت نظرة الغرب له؟ يحكى جان لاكوتيور، أنه أجرى معه حديثًـا، وكان برفقتـه إيريك رولـو، فى الجزائر، خـلال انعقاد مؤتمر العالـم الثالث فى عام ١٩٧٢م، وكيـف أنهمـا خرجا من اللقاء وهمـا مذهولان، إذ بدا السـادات لهما رجلا إمعة. وبالفعل، يبدو أن الكثيرين رأوا أن الريس الجديد مجرد «رئيس مؤقت».

بطـرس بطرس غالـى: فى البداية، اعتبره المصريون أيضًا، رئيسًـا مؤقتًا. ولكن الشـعب المصرى فى مجموعه اعتبره رئيس دولة، عليه مواصلة العمل الذى بدأه سلفه، وقبلوا به فى هـذا الإطـار. ورغم ذلك، يجب القـول إن النخبة المصرية، وحتى حـرب أكتوبر، لم تأخذه مأخذ الجد بسبب الصور العديدة التى كان يعطيها عن نفسه.

شـيمون بيريز: حقيقى أن الوجوه المتعددة التى كان يحب أن يعطيها عن نفسـه (فهو فى يـوم نابليـون العالم العربى وفى اليوم التالى هو نهرو هذا العالم) جعلتنا نحن أيضًا لا نأخذه مأخذ الجد. ولكن كان علينا، رغم كل شـىء، أن نلاحظ تغييرًا كبيرًا فى سياسـته: تقربه من الأمريكيين والأوروبيين الغربيين.

أندريه فيرساى: منذ تولى أنور السادات السلطة، أراد بالفعل التقرب من الأمريكيين والغربيين، وحاول من خلال وساطتهم البدء فى عملية سلام مع الإسرائيليين، الذين بقوا فيما يبدو فى حالة صمم أمام الرغبات السلمية التى أبداها.

قام السادات بعدة محاولات سرية للانفتاح نحو الإسرائيليين. إذ ذكر، فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٧٠م، أى بعد ثلاثة أشهر من توليه السلطة، فى صحيفة النيويورك تايمز، إمكانية التوصل إلى اتفاقية سلام مع إسرائيل بشرط أن تنسحب من كل الأراضى التى احتلتها فى عام ١٩٦٧م. لقد كان ذلك خروجًا على «اللاءات» الثلاث التى طرحت فى الخرطوم. وبعد عدة أشهر، قدم السادات فى خطابه أمام البرلمان المصرى يوم ٤ فبراير عام ١٩٧١م، ما أطلق عليه *«مبادرة السلام»*. وتتعلق بانسحاب إسرائيل من منطقة قناة السويس، وإعادة فتح المعبر المائى، وفرض وضع وقف إطلاق نار مستديم. فيما يبدو أن هذا الاتفاق المؤقت بالنسبة للسادات من شأنه أن يؤدى إلى بدء عملية المفاوضات نحو السلام. وأخيرًا، فى رد على مذكرة تقدم بها جونار يارنج (مبعوث الأمم المتحدة فى مهمة سلام فى الشرق الأوسط) أعربت مصر بلا أى غموض، ولأول مرة فى وثيقة رسمية، عن رغبتها فى السلام مع إسرائيل بشرط أن تنسحب تماما من كافة الأراضى المحتلة.

بطرس بطرس غالى: ستلاحظ أن هذه المحاولات لم تثر اهتمامًا كبيرًا. أذكر أنه بعد زيارته للقدس فى عام ١٩٧٧م، طلب منى السادات أن أصيغ «كتاب أبيض» أدون فيه المبادرات التى قام باتخاذها من أجل السلام منذ وصوله إلى سدة الحكم. كان نشر هذا «الكتاب الأبيض» من شأنه أن يظهر للرأى العام العالمى أن زيارة القدس لم تكن خبطة عشوائية أو محدودة كما بدت. إلا أنها على الرغم من - الإبهار الذى رافقها - فهى لم تكن سوى واحدة من محاولات عديدة سبقتها للحوار مع الإسرائيليين. ورغم ذلك، فإن إسرائيل لم تعط أهمية لكل تلك المحاولات .. ولا حتى العالم العربى، على أية حال.

أندريه فيرساى: لم يبدُ أن إسرائيل كانت تثق فى رغبة السلام التى أبدتها القاهرة، ورفضت كل فكرة للعودة إلى خطوط يونية لعام ١٩٦٧م. فقد قررت حكومة جولدا مائير أن تختار الإبقاء على *الوضع الراهن*، بدلاً من أن تتخلى عن الأراضى المحتلة. ولكن، وزير الخارجية الأمريكية روجرز، بدا مقتنعًا بصدق السادات. أما وكيل وزارة الخارجية الأمريكية جوزيف سيسكو، فقد قال: ***«إسرائيل سوف تكون مسئولة عن صد أجمل فرصة للسلام منذ إنشاء الدولة»***. وكان أبا إيبان، وزير الخارجية الإسرائيلية فى ذلك الوقت، قد

تعـود أن يقول إن *«العرب لا يضيعون أبدًا فرصة لإضاعة فرصة للسـلام»*. فى هذا السـياق، يبدو أن الإسرائيليين هم الذين « أضاعوا فرصًا كثيرة».

شـيمون بيريز: هذا صحيح، فالأحكام المسـبقة التى تغذينا عليهـا تجاه الحكام العرب، وخاصة تجاه السـادات، قد أعمت بصيرتنا، فلم نتمكن من رؤية الوضع بشـكل موضوعى. لقـد أخطأنا تمامًا فى حكمنا على الرئيس المصرى الجديد. فقد تصورناه حقيقة، كرجل بلا شخصية، إمعة، رئيس لفترة انتقالية، كما تقول. لم نلتفت البتة إلى إمكانيات السادات.

إننى أتذكر لقاء مع كيسنجر، وقد كان عائدا من لقاء مع الرئيس المصرى (كان ذلك بعد حرب الغفران). وتحدث معنا عن الريس بكلمات دافئة، وقال إنه رجل ذكى جدًّا، بل رجل له رؤية مستقبلية. ولكننا لم نصدقه؛ كنا نتصور أن كيسنجر يحاول مرة أخرى أن يلعب علينا إحدى ألاعيبه التى لا يعرف سـرها إلا هو. باختصار، لقد أخذنا وقتًا طويلاً قبل أن نفهم أن السادات كان رئيسًا من نسيج مختلف عن ذلك الذى عودنا عليه الحكام العرب.

أندريه فيرسـاى: فى وقت لاحق، قص رئيس أركان حرب القوات المصرية، الشـاذلى، أن السادات، عندما رأى أن كيسنجر رفض إعطاء اهتمامه للصراع الإسرائيلى العربى، *«لأنه لـم يكن متفجـرًا»* (كان الأمريكيون فى ذلك الوقت متورطين فـى فيتنام)، أدرك أن أزمة فى الشـرق الأوسـط من شـأنها وحدها أن تدفع واشـنطن إلى التدخل فى الصراع. فى مايو عام ١٩٧١م، يبدو أن السادات توصل إلى الاقتناع بأن حربًا قد تؤدى إلى انفراج فى الوضع. فى يونية عام ١٩٧١م، قال إنه على استعداد *«للتضحية بمليون جندى مصرى»* من أجل استعادة الأراضى المحتلة. ثم فى مارس عام ١٩٧٢م، أعلن أمام البرلمان المصرى: *«الحرب مسألة حتميـة. ومهما كانـت التضحيات وأيًّا كان الثمن الذى يجب علينـا أن ندفعه، لن نتنازل عن شبر واحد من أرضنا أو الأرض العربية»*.

فـى هـذه الفترة، كان الاتحاد السـوفيتى الذى التـزم منذ عام ١٩٦٧م، بأن يسـاعد مصر على *«إزالة آثار العدوان الإسرائيلى»*، يمد القاهرة بالسلاح ويرسل لها الخبراء العسكريين. ولكـن رغـم ذلك، لم تبد العلاقـات بين الـروس والمصرييـن جيـدة علـى أرض الواقـع. ما هى الأسـباب؟ وكيف رأى الشـعب المصرى، بشـكل عام، هذا الوجود السـوفيتى على أرضه؟

بطرس بطرس غالى: لم يكن التعايش بين العسكريين المصريين والسوفييت سهلاً دائمًا. لنقل إن عقلية كل من الطرفين كانت مختلفة تماما. أما بالنسـبة للشـعب، فكان يرى الروس

كأجانب لا يستطيع الحصول منهم على أية فائدة اقتصادية، على عكس السياح الغربيين الأغنياء.

أندريه فيرساي: *فى لحظة ما*، اعتبر السادات أن المساعدات السوفيتية تمثل أعباء أكثر مما تقدم مزايا، وقرر أن يطرد أغلبية المستشارين السوفييت. غادر هؤلاء مصر فى ١٨ يولية عام ١٩٧٢م. هل رأى السادات أن وجود موسكو هذا يضر بعلاقاته مع الولايات المتحدة، القوة الوحيدة فى نظره القادرة على التأثير على إسرائيل؟

بطرس بطرس غالى: لقد كان السادات مقتنعًا بالفعل، بأن حل المشكلة العربية - الإسرائيلية يعتمد على الولايات المتحدة. ولكن يجب أن نضيف هنا سببًا آخر لهذا الطرد: وهو محاولة الانقلاب التى قام بها فريق من العسكريين الموالين للسوفييت بعد عام من تولى السادات الحكم، قادها على صبرى وشجعته موسكو. محاولة الانقلاب هذه هى التى دفعت السادات أساسًا إلى تهميش - ثم القضاء على - الوجود السوفيتى. وما اعتبره التاريخ عملية سياسية خارجية على مستوى عال، الباعث عليها اعتبارات تتعلق بالسياسة الداخلية وحماية الذات أيضًا.

أندريه فيرساي: هذا القرار بطرد عدد كبير من المستشارين العسكريين السوفييت، لم يكن من الممكن أن يتخذ بدون حصوله على ضمانات بمساندته من جانب واشنطن.

بطرس بطرس غالى: من المحتمل أن يكون السادات قد حصل قبل التخلص من المستشارين السوفييت، على ضمانات من الجانب الأمريكى، ولكنى لا أعرف عنها شيئًا. لقد كان السادات يمقت تقديم التماسات مباشرة. وأتذكر أنه فى أثناء مفاوضات كامب ديفيد، طلبت منه كثيرًا أن يكون أكثر وضوحًا نحو واشنطن. كنت أقول له: «*يا سيدى الرئيس، إن لم تطلب بوضوح من الأمريكيين، ومن خلال نص مكتوب، ما تريد أن تحصل عليه منهم، فلن يوافقوا لك على شىء*». ولكن السادات، الذى كان لديه هذا الإحساس بالكرامة الخاص بعالمنا، وجد أنه من الإهانة أن يضع نفسه فى وضع مَن يطلب. أعتقد إذن أن حوارًا جرى بين القاهرة وواشنطن ولكن بشكل غير رسمى، وأن السادات جعل الأمريكيين على علم إلى حد ما بنيته فى طرد السوفييت.

شيمون بيريز: هناك احتمال كبير أن السادات لم يتلق ضمانات رسمية من واشنطن. ورغم ذلك، لم يستطع تجاهل فكرة أن الأمريكيين سوف يساعدونه بعد طرده السوفييت.

بعد مرور السنوات، أرى أن طرد السوفييت كان علامة واضحة للدور التاريخى الذى يمكن أن يلعبه السادات فى المنطقة. اليوم، وبعد سنوات من انهيار الإمبراطورية السوفيتية، نجد صعوبة فى التذكير بأهمية التغلغل السوفيتى فى المنطقة، وبالتالى بقياس جرأة السادات التى لا يمكن تصديقها. ورغم ذلك، فلم نعر، نحن الإسرائيليون، هذا القرار الاهتمام الذى يستحقه.

أندريه فيرساى: كيف رأى العالم العربى هذه المبادرة؟

بطرس بطرس غالى: لست متأكدًا أن الدول العربية استطاعت أن تفهم كل أبعادها. ومع ذلك، فبما أن نصف تلك الدول كان معاديًا للشيوعية والنصف الآخر تابع للولايات المتحدة، كان التقارب المصرى - الأمريكى مرحبًا به إلى حد كبير.

أندريه فيرساى: قد يبدو أن السادات بطرده السوفييت، أمكن له أن يكسب على جميع الجبهات: فمن ناحية، تتقارب واشنطن من القاهرة، ومن ناحية أخرى، تستمر موسكو فى إمداد مصر بالأسلحة خوفًا من أن تضر بوضعها فى الشرق الأوسط. وأخيرًا، بالنسبة للإسرائيليين، اعتبروا أن التقارب بين القاهرة وواشنطن سيجعل أى مبادرة عسكرية ضدهم غير واردة، مما سيدفعهم إلى أن يخفضوا نسبة التأهب.

ومع ذلك، بطريقة سرية وبالتعاون مع سوريا، قامت مصر بالإعداد للهجوم العسكرى.

لم يبد أن المخابرات الإسرائيلية كانت تشك فى أى شىء. ألم تتصور القدس أنه فى غياب بدء المفاوضات، ستعود الدول العربية إلى السلاح، إن آجلاً أو عاجلاً؟ ويبدو أن الجنرال إيلى زئيرى، رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية، ظل إلى النهاية، مقتنعًا بأن هناك احتمالاً ضعيفًا للغاية للهجوم العربى. ووصف هؤلاء الذين كانوا يتخوفون من هذا الهجوم، بأنهم *«مذعورون»* أو *«مروجون للشائعات»*. وهكذا، سوف يتجاهل الإسرائيليون عدة إنذارات، منها تحذير الملك حسين عاهل الأردن، الذى قابل سرًا جولدا مائير لينبهها إلى تحركات مشبوهة للقوات السورية. ومن الغريب، أن جولدا مائير لم تكلف نفسها عناء التحقق من تلك المعلومات.

شيمون بيريز: فى أثناء هذا اللقاء، أعرب الملك عن «مخاوفه»، بدون أن يوضح أكثر. لك أن تتخيل، لو كان حسين فى ذلك الوقت، أكثر دقة، لما أفرجت لجنة التحقيق، التى تشكلت بعد حرب الغفران لتحديد مسئوليات السلطة الإسرائيلية فى هذه الحرب، عن جولدا مائير وموشيه دايان أبدا.

أندريه فيرساى: منذ توليها منصب رئاسة الحكومة، التقت جولدا مائير سرًا ثمانى مرات مع ملك الأردن. ماذا كانت العلاقات فى هذه الفترة بين السلطات الإسرائيلية وحسين؟

شيمون بيريز: لقد كانت علاقاتنا مليئة بالمفارقات حيث إنها كانت غير رسمية وفى نفس الوقت مقربة جدًّا. لا تنس أن حسينا، (وقبله عبد الله) لم يكونا مقبولين تمامًا من العالم العربى. فكانا يشعران بأنهما محاطان بدول عربية تشكك فى شرعية حكم عائلتهما، وهو ما لم تفعله إسرائيل. لقد كان معظم زعماء منظمة التحرير الفلسطينية يعتبرون الملك «*رجعيا يعمل لحساب الغرب*». لقد رأينا كيف تفجرت العلاقات بين الحركات الفلسطينية وعمان فى سبتمبر عام ١٩٧٠م.

تلك العلاقات بيننا وبين الملك، والتى أصبحت أخيرا قوية رغم صفتها غير الرسمية، كانت مناسبة لنا مثلما كانت له. فقد كانت أوثق ما يمكن، نظرًا لوضع حسين الحساس فى العالم العربى. فلم تكن الأردن قادرة فى أى وقت من الأوقات، بأن تسمح لنفسها لتكون أول دولة عربية تقيم سلامًا مع إسرائيل.

أندريه فيرساى: مهما كان الأمر، قبل وقت قليل من الهجوم المشترك للجيشين المصرى والسورى، كانت كل المعلومات تقريبًا فى متناول يد الإسرائيليين. ولكنهم رغم ذلك، لم يخرجوا منها بالنتائج التى تفرض نفسها. كيف تفسر ذلك؟ هل فى تلك الفترة، كان الموساد يكرس طاقة أكبر فى مراقبة تحركات الإرهابيين، أكثر مما يكرس للتجسس على الدول العربية؟ وهل قيادة الأركان الإسرائيلية، لم تتوقع بعد انتصار عام ١٩٦٧م، أن يشن العرب بدون تروٍ، حربًا جديدة؟ وفيما بعد أعلن زفى زامير، رئيس الموساد: «*لم نستطع أن نصدق أنهم قادرون على شن الحرب. لقد كنا نحتقرهم*». *هذا الاحتقار كان موجهًا فى الأساس إلى السادات، وكان الأمريكيون يشاركونهم هذا الإحساس. اعترف هنرى كيسنجر فيما بعد قائلاً: «لقد اعتبرنا جميعنا السادات كمهرج، أراجوز. لقد كنت أتصور السادات كشخصية من شخصيات أوبرا عايدة»!*

بطرس بطرس غالى: أتذكر أنه قبل شن الحرب بوقت قليل، كان الرأى العام المصرى يتحدث عن السادات بالكثير من الشك. لم نكن نأخذ تطلعاته لمهاجمة إسرائيل مأخذ الجد: «***يعدنا السادات بشن الحرب ولكنه لن يقوم بها أبدًا! إنها مجرد كلمات!***»، ***وذلك يعنى أن سرية الإعداد العسكرى كانت محفوظة.***

شيمون بيريز: صحيح أننا، قبل أيام قليلة من الهجوم، استشعرنا استعدادات عسكرية في مصر وسوريا. ولكننا كنا قد اعتدنا أن نتلقى معلومات من هذا القبيل، وكنا نكتشف إنها في الغالب غير صحيحة. لذلك كنا نتعامل معها بتحفظ. ولكن المعلومات التي تلقيناها في سبتمبر كانت دقيقة جدًّا حيث إنها أعطت تاريخ الهجوم. ورغم ذلك، حيث إنه لا شيء حدث في هذا اليوم، تصورنا مرة أخرى أنها عملية تمويه. وعندما أكدت لنا مخابراتنا أن الهجوم قد أعد جيدًا، ولكن التاريخ تأجل، لم نعد نصدقها.

على أية حال، موشيه دايان، وزير الدفاع في ذلك الوقت، لم يصدق إطلاقًا أن العرب، بعد هزيمة ١٩٦٧م، سيجرؤون على الدخول مرة أخرى في مبادرة عسكرية هوجاء.

أندريه فيرساي: ورغم ذلك، ستشن الحرب في ٦ أكتوبر. كيف عشت هذا اليوم؟

شيمون بيريز: صباح يوم السبت ٦ أكتوبر، عيد الغفران، أبلغتنا أجهزة مخابراتنا أن المسئولين السوفييت في مصر (فكلهم لم يتركوا الأراضي المصرية في ١٨ يولية عام ١٩٧٢م) أعادوا أفراد عائلاتهم إلى روسيا. أمام هذا المؤشر، جمعت جولدا مائير الوزراء الموجودين في تل أبيب (لم تكن تريد أن تقلق هؤلاء الذين كانوا في القدس لأن معظمهم كانوا متدينين). كنا حوالي ١٢ وزيرًا حولها، منقسمين حول التفسير الذي سنعطيه لهذا الحدث. هل من الممكن أن يكون نذيرًا بتفجر الحرب؟ كان معنا رئيس جهاز المخابرات، وكانت تلك الأجهزة متهمة عامة بنشر شائعات مفرطة في التحذير، ولكن في هذا اليوم كنا نتعامل مع أحد ممثليهم الذي أراد أن يطمئننا، فأكد لنا أن الحرب ليست واردة على جدول الأعمال. كنت أجلس بجانب الوزير جاليلي، أكثر المقربين من جولدا مائير: نقل إليّ كلمة صغيرة يسألني عن رأيي؛ فأجبته بأنني على العكس، أرى أن الحرب سوف تبدأ. فنقل ردي إلى جولدا مائير، ولكن لا دايان ولا قائد القوات ولا ممثل جهاز المخابرات، اعتقدوا في هجوم عربي. بل تصوروا جميعًا أن الأمر مرة أخرى إنذار غير صحيح.

أبلغت جولدا الحكومة أنها أجرت، رغم كل شيء، اتصالاً مع سفير الولايات المتحدة لتلتمس منه تدخلاً دبلوماسيًا أمريكيًا لدى مصر. لقد فكرت أن المصريين قد يتخلون عن مناورتهم إن أدركوا أن إسرائيل باتت على علم بنواياهم. ورغم ذلك، أعلنت الحكومة تعبئة جزئية لجنود الاحتياطي. في الساعة الثانية بعد الظهر تقريبا، وبينما كانت هناك مناقشات حامية بين مؤيدي ومعارضي هجوم ضد سوريا في حالة غزو مصري، أعلن السكرتير العسكري لدى رئيسة الوزراء أن الطائرات السورية والمصرية بدأت تقصف إسرائيل. كان من الصعب تصديقه، ومع ذلك، كانت الحرب قد بدأت بالفعل.

وفي الحال، وجهت جولدا خطابًا عبر الإذاعة والتليفزيون إلى الشعب، شرحت فيه الوضع بوضوح. وبعد ذلك ألقى موشيه دايان كلمة.

أندريه فيرساى: فى بداية العمليات العسكرية، اتضح أن تلك الحرب مختلفة تمامًا عن الحربين السابقين، حيث إن الجيوش العربية بدت أنها تنتصر.

شيمون بيريز: لقد مثّل ذلك صدمة كبيرة بالنسبة لنا. لم نتوقع أن نشهد على هزيمة أولى بهذا الحجم. ومما زاد من وقع المفاجأة أن الهجوم قد وقع فى اليوم المقدس بالنسبة لليهود.

في المساء، وخلال اجتماع آخر للحكومة، أبلغنا قائد القوات العسكرية أن كثافة القصف المصرى تضاعفت، وأنه اضطر إلى إرسال طائراتنا العسكرية المتمركزة على الجبهة الشمالية لدعم قواتنا على القناة. وكان يوم الأحد يومًا كئيبًا. بدأت وحدات المشاة والدبابات المصرية عبور القناة، بينما الجيش السورى كان يتقدم تجاه الجولان. ولم يكن معظم جنود الاحتياطى قد وصلوا بعد إلى الجبهة، والجيش النظامى كان عليه وحده مواجهة هجومين من القوات العربية القوية فى الرجال ومجهزة بجيل جديد من المعدات العسكرية السوفيتية الحديثة، وعالية التقنية، والتى نجهل تماما مدى قدرتها على إحداث الضرر. أما بالنسبة لقواتنا الجوية، فكانت تحارب على جبهتين فى وقت واحد، فى محاولة لمنع تقدم الدبابات السورية من ناحية ودك المواقع المصرية على طول الشاطئ من ناحية أخرى.

أندريه فيرساى: ما هى إذن المناقشات التى تمت فى قيادة الأركان؟

شيمون بيريز: توقع خبراؤنا العسكريون أن الـ٤٨ ساعة القادمة ستكون الأصعب؛ كان علينا انتظار يومين تقريبًا قبل أن يصل الاحتياطى إلى المواقع. أما دايان، الذى خاف من أن يكون قد أفرط فى تقديره لقوتنا وأبخس تقديره للعدو، عاد من السويس فى نهاية اليوم حاملًا أخبارًا أكثر مدعاة للقلق: المصريون قاموا الآن بقصف مركز الاتصالات التابع لنا فى شرم الشيخ. كما تفاقم الوضع فى الشمال حيث هاجمنا السوريون على خطوط هدنة ١٩٦٧م.

يوم الثلاثاء، اقترح دايان أن نركز جهودنا للدفاع عن خطوطنا فى الجولان، لأنه بات من الصعب المقاومة على جبهتين فى آن واحد. ولقد توجت هذه التحركات بالنجاح، لأنه ابتداء من اليوم التالى، بدأ الجيش السورى يتراجع مخلفًا وراءه نحو ٧٠٠ دبابة، أى نحو نصف قواته المدرعة. وبدأ دايان يدعو إلى وقف هجومنا فى الشمال، لأنه قدر أن تقدمًا عنيفًا

لقواتنا على الأراضى السورية سوف يدفع بالأردن إلى الدخول فى الحرب، وسيكون من الصعب علينا القتال على جبهة ثالثة. لقد كان متخوفًا من دخول عمان الحرب، حيث إنها بدت غير قادرة على مقاومة الضغوط التى تفرضها عليها سوريا ومصر، بينما بدأ العراقيون إرسال إمدادات عسكرية إلى سوريا.

بدا لنا واضحًا أن على بلادنا الاستعداد لأن تعيش حربًا طويلة المدى، وقررنا إطلاق حملة كبيرة لدى المجتمعات اليهودية فى أوروبا وأمريكا من أجل جمع التبرعات.

يوم الخميس، خامس أيام الحرب، كان المزاج الوطنى قاتمًا: وجدت إسرائيل نفسها معزولة تماما، لم يعل صوت واحد فى الأمم المتحدة من أجل الدفاع عنا. بالعكس، كل يوم تعلن حكومة أجنبية قطع علاقاتها الدبلوماسية معنا. وطلب رئيس الوزراء البريطانى من إسرائيل إعادة الأراضى المحتلة فى عام ١٩٦٧م، بينما دعا بريجنيف الجزائريين إلى التحرك بجانب أشقائهم المصريين والسوريين. وأضاف إلى البلبلة العامة إشاعات بانتحار دايان. وكانت الصحافة تعبر عن تساؤلات وشكوك الرأى العام: لماذا لم تأخذ الحكومة بجدية المعلومات التى أعلنت، عشية يوم الغفران، أن حربًا أصبحت وشيكة؟ ماذا سيكون موقفنا فى مواجهة ١٢٠ مليون عربى يملكون نصف ثروات العالم البترولية؟ وجاءتنا أخبار متناقضة جديدة من الجبهة أدت إلى بث مناخ من الحيرة.

أندريه فيرساى: ومن الجانب المصرى، كيف كان المناخ السائد فى بداية هذه الحرب الجديدة؟

بطرس بطرس غالى: لأن الشعب لم يصدق أن السادات سوف يدخل فى حرب، أثار شنها تأثيرًا رائعًا. المفاجأة الثانية: الإعلان عن الانتصارات الأولى. بعد صدمة هزيمة ١٩٦٧م، لم يتخيل أحد أن القوات المصرية تستطيع عبور قناة السويس بتلك السهولة وتخترق خط بارليف المعروف بأنه حصن منيع. لذلك اعتبر الانتصار فى الهجوم الأول هذا أهم كثيرًا، وأكثر حسمًا مما كان فى الحقيقة. كان الشعب المصرى فى حالة ابتهاج، وفى الحال انتقل أنور السادات إلى مقام البطل القومى. فيما بعد، ظللنا نتحدث عن هذه المعركة الأولى بعبارات تقريظية، ولكننا لن نبالى كثيرًا بعواقب تلك الحرب.

أندريه فيرساى: وكيف كان رد فعل واشنطن وموسكو؟

شيمون بيريز: ستمضى الولايات المتحدة بعض الوقت قبل أن تعى خطورة الوضع. وعندما أدركوا أبعاد الهجوم العربى المشترك، حاول كيسنجر وقف المعارك، وحاول على

وجه الخصوص إقناع السوفييت بألا يتورطوا فى الصراع. فى نفس الوقت، كانت الولايات المتحدة ترسل لنا الإمدادات التى بدأنا نحتاجها.

مع ذلك، بدأ الوضع يتحول ببطء لصالحنا. فبعد أن مضى تأثير مفاجأة الهجمات الأولى، نظم دفاعنا نفسه بشكل أكثر منهجية وبات يتوقع مناورات الأعداء. كان الجيش المصرى - الذى كان أفضل خلال حرب الاستنزاف - قد بدا أنه غير قادر على الرد على هجوم جيش الدفاع الإسرائيلى الذى احتل فى هذا الوقت ثغرة على مساحة ١٢٠٠ كيلو متر مربع على الشاطئ الغربى للقناة وحاصر الجيش الثالث المصرى.

أما بالنسبة للجبهة الشمالية، بدأنا نكسب عدة مواقع، ولكن خسائرنا كانت تزداد.

عندما وصلت الجيوش الإسرائيلية على بعد ٥٠ كيلومترا من العاصمة السورية، وجه دوبرينين السفير السوفيتى فى واشنطن تحذيرًا إلى الولايات المتحدة قال فيه: إن دخل الجيش الإسرائيلى إلى دمشق، فإن الاتحاد السوفيتى سوف يتدخل فورًا فى الصراع. (وعلى كل حال، قام السوفييت بالفعل، بتعبئة ثلاث فرق معدة للانطلاق جوّا، بينما وصل عسكريون روس إلى مصر من أجل وضع صواريخ أرض- أرض، يصل مداها إلى ٣٠٠ كيلومتر)، ورد كيسنجر: إن أى تدخل سوفيتى سيؤدى إلى تدخل الولايات المتحدة فورًا.

بعد أن أدركوا أن الوضع انقلب، طلب السوفييت فرض وقف إطلاق النار بسرعة. ولقد تم تنفيذه فى ٢٣ أكتوبر مع مصر ويوم ٢٤ مع سوريا.

فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٣م، أصدر مجلس الأمن بالأمم المتحدة القرار رقم ٣٣٨ الذى أكد على القرار رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧م ودعا الأطراف المتحاربة إلى بدء المفاوضات. وفى نفس الوقت، تقرر إرسال قوات دولية إلى المنطقة.

فى ١١ نوفمبر، وقع ممثلون عسكريون مصريون وإسرائيليون اتفاقية وقف إطلاق النار عند «الكيلو ١٠١» على طريق القاهرة - السويس، تنص على ضرورة التوصل إلى اتفاق لفك اشتباك القوات وتبادل أسرى الحرب. ثم فى ١٨ يناير عام ١٩٧٤م، تم توقيع اتفاق مبدأى مصرى - إسرائيلى حول فك الاشتباك بين القوات، يدعو إلى إقامة منطقة عازلة بين الخطوط الإسرائيلية والمصرية، تقع تحت مراقبة قوات الأمم المتحدة، وإعادة فتح قناة السويس والسماح للبضائع الإسرائيلية بالمرور عبر القناة.

أندريه فيرساى: حرب أكتوبر ١٩٧٣م انتهت. ما هى نتائجها بالنسبة للأطراف المتحاربة وبالنسبة لسائر العالم العربى؟

شيمون بيريز: لم نخسر الحرب، ولكنها كانت أكثر الحروب ثقلاً منذ الاستقلال، لأن عددًا كبيرًا من الجنود والضباط قتل فيها. بالإضافة إلى أنها أثارت عددًا كبيرًا من التساؤلات: فالشعب الإسرائيلى الذى كان متعودًا على حروب ينتصر فيها سريعًا، بدأ بالطبع يتساءل عن مسئوليات السلطات الحكومية والعسكرية. وفى نفس الوقت، كانت هناك مناقشات كثيرة داخل الجيش من أجل محاولة فهم لماذا وصلنا إلى هذه النقطة. لقد شعرنا جميعًا، فى الحكومة وأيضًا فى القيادة العسكرية، بالذنب الشديد بسبب نصف الهزيمة تلك.

بسرعة، تم تشكيل لجنة تقصى حقائق يرأسها رئيس المحكمة العليا، من أجل تحديد المسئوليات السياسية والعسكرية. فى أبريل من العام التالى، قدمت تلك اللجنة تقريرها الذى أدت النتائج التى توصل إليها إلى تفاقم أزمة الثقة فى البلاد نحو الحكومة. أما بالنسبة لجيشنا، فقد تدهورت معنوياته وكان عليه أن يعانى، لأول مرة فى تاريخه، من انتقادات وجهتها له الصحافة، والتى كانت أقسى كثيرًا من تقرير لجنة تقصى الحقائق، الذى توصل إلى ضرورة تغيير عدد من الضباط، منهم قائد القوات المسلحة.

بعد صدمة يوم الغفران، تهيبنا بشدة أن نفاجأ مرة أخرى بهجوم عربى ضدنا، فأنشأنا داخل قسمنا وحدة خاصة مهمتها إعادة تقييم كل تحليلاتنا بشكل ألا تخدعنا مرة أخرى الأمور البديهية أو التأكيدات المتسرعة.

نعم، حرب الغفران هذه هزت البلاد بشكل خطير. حتى إن سلطة جولدا مائير نفسها اهتزت داخل الحزب، وخلال اجتماع المجموعة البرلمانية للحزب، رُفِضَ لأول مرة إعطاءها الكلمة. أعتقد أن هذا الحدث جعل جولدا مائير تقرر الانسحاب نهائيًا من الحياة السياسية؛ وهو ما سوف تقوم به فى ربيع عام ١٩٧٤م.

بطرس بطرس غالى: بالنسبة للعالم العربى بشكل عام، كان قيام الجيوش المصرية بعبور قناة السويس، واقتحام خط ماجينو، الذى هو خط بارليف، قد حوّل هذه الحرب إلى انتصار عربى عظيم. وحتى إن لم تنته حرب أكتوبر، بالطبع، بانتصار مصرى، إلا أنه كان لها أهمية رئيسية؛ لأنها هزت الجيش الإسرائيلى المشهور بأنه لا يقهر، كما هزت الثقة العمياء التى كان الشعب الإسرائيلى يشعر بها نحوه. لذلك، فقد كان لهذه الحرب تأثير كبير على إعادة التوازن، ليس للقوى *العسكرية*، ولكن للقوى *النفسية الدبلوماسية*.

كما سمح هذا «الانتصار» لمصر باستعادة كرامتها ودعم دورها كزعيم بلا منازع للعالم العربى. وتم نسيان الخلافات بين الدول العربية (على الأقل مؤقتًا) ووقفت الدول العربية كلها كتلة واحدة وراء مصر.

أندريه فيرساى: وبالنسبة لسوريا؟ إن كانت مصر تستطيع اعتبار نتائج الحرب شبه انتصار، فإنه من الصعب على سوريا أن تتبنى خطابًا مماثلًا، حيث إنها فى النهاية لم تحرز تقدمًا كبيرًا على الأرض.

بطرس بطرس غالى: تعلم أنه فى النظم السلطوية، مسألة أن تجعل نصف الهزائم تبدو انتصارات، مسألة غير معقدة.

شيمون بيريز: صحيح أنه من وجهة النظر الرمزية، كان أصعب كثيرًا الحصول على انتصار سورى، حيث إنه كان على سوريا استعادة كل الجولان. وبما أنه لم تكن هناك خطوط تعبرها، فإن تقدم بضعة كيلومترات لم يكن له دلالة كبيرة.

أندريه فيرساى: وبالنسبة للقوتين العظميين، ما الذى غيرته هذه الحرب؟

شيمون بيريز: فى تلك الفترة، كانت السياسة الخارجية الأمريكية تتحدد فى أغلب الأحيان بناء على مواقف الروس. وبالنسبة لكيسنجر كان كسب أرض على حساب موسكو يتطلب تحسين العلاقات، من ناحية مع الصينيين، ومن ناحية أخرى، مع العالم العربى. فقد رأى كيسنجر أن هناك مبالغة فى تقدير مواقف الاتحاد السوفيتى، وأن موسكو لم تكن بتلك القوة ولا بهذا الحضور، ولا بهذا التنظيم فى تلك البقعة من العالم، كما تصور البعض. وكان مما يزيد من فرص الولايات المتحدة لتحل محل السوفييت فى العالم العربى، أن هؤلاء فى النهاية، لم يعد لديهم الكثير ليقدمونه لهم، باستثناء بعض المعدات الحربية. وذلك ما شجع كيسنجر على محاولة تغيير المعطيات فى المنطقة.

بطرس بطرس غالى: نعم، كان لهذه الحرب تأثير على الدبلوماسية الأمريكية. وسوف تسعى واشنطن إلى التدخل أكثر فى مصر وأيضًا فى الصراع الإسرائيلى - العربى.

شيمون بيريز: وحيث إن المعارك قد أدت إلى تدمير السلاح السوفيتى (للمرة الثالثة)، فإن هذه الحرب لم تخدم إطلاقًا لا موسكو ولا العالم الشيوعى. وبالنسبة لذوى البصيرة الثاقبة، بات واضحًا أن السوفييت لم يعد لهم مستقبل كبير فى الشرق الأوسط. خصوصًا وأنه بالرغم من مساعداتهم لمصر وأيضًا لسوريا، ظلت الأحزاب الشيوعية محظورة فى هاتين الدولتين. هذه الحرب سجلت إذن بداية إجلاء الروس من هذه المنطقة.

أندريه فيرساى: من بين التساؤلات التى ما زالت مطروحة، تساؤل حول تأخر الأمريكيين فى تقديم الإمدادات التى كانت تحتاجها إسرائيل. العديد من الخبراء المتخصصين فى هذه

القضايا تحدثوا عن تأخير متعمد بسبب كيسنجر حتى لا يكون انتصار إسرائيل انتصارًا كاملًا: لقد بدا بالفعل أن وزير الخارجية الأمريكية قدر أن «شبه انتصار» عربى قد يؤدى على المدى القصير إلى بدء عملية التفاوض.

بطرس بطرس غالى: نظرًا للمتانة البالغة للعلاقات الإسرائيلية - الأمريكية الوثيقة، إذ إن إسرائيل هى فعليًا الولاية الـ ٥١ للاتحاد الأمريكى، فلا أعتقد أن هذا التأخير كان مقصودًا.

شيمون بيريز: صحيح أن الإمدادات وصلت متأخرة إلى حد ما. ولقد تبادل كل من وزير الدفاع شليزينجر، ووزير الخارجية كيسنجر اتهامات بالمسئولية عن بطء الإرسال. وأنا شخصيًا بحثت الموضوع مع كل منهما، ولقد أكدا لى أنهما لم يكن لديهما أية نية فى إبطاء عملية إرسال المؤن.

إحدى أهم المشاكل التى نواجهها عندما ندرس السياسة الدولية، هى الشبهات التى تحوم حول الخصوم، وأيضًا حول الحلفاء. ينبغى بالطبع ألا نتصور أن الكل ملائكة، ولكن فى نفس الوقت، أعتقد أنه من الخطأ أن نفسر التاريخ عبر سلسلة من الضربات الملتوية. وبصراحة شديدة، أنا أجد صعوبة كبيرة فى تصور أن كيسنجر أو شليزينجر (وهما الاثنان يهوديان على أية حال) قد قاما عن قصد بوضع إسرائيل فى خطر.

أندريه فيرساى: لا يتعلق الأمر بوضع إسرائيل فى خطر، ولكن بالعمل على ألا يتعرض العرب لإهانة أخرى من شأنها أن تمنعهم من بدء عملية السلام. ألم يبد لكم ممكنا أن يقوم كيسنجر، الذى كان من أنصار «السياسة الواقعية»، أن يفكر فى الأمر بتلك الطريقة؟

شيمون بيريز: لا، لا أعتقد. الحرب ليست مباراة شطرنج حيث يمكن للجميع أن يروا الوضع الدقيق للخصمين الموجودين، ويكون لديه الوقت لكى يفكر، وهو على وعى تام بالموقف، فى الحركات المقبلة. عند اندلاع حرب، توجد أشياء كثيرة لا يمكن توقعها، ولا نملك ترف تنظيم خطط «ماكيافيلّية». أضيف هنا، فيما يخص كيسنجر، أنه كان مرتبطًا بإسرائيل إلى حد أنه لا يمكن تصور أن يتعامل معها بتلك الوسيلة. لقد رأيت كيسنجر يذكر فى لقاءات حميمة روابطه مع إسرائيل، وعيناه تدمعان، نعم، كيسنجر العظيم وريث ميترنيخ يحمل لنا عواطف صادقة. ألا تصدق ذلك؟

أندريه فيرساى: بصعوبة فى الحقيقة! ولكن طالما أنك تقوله.. أيا كان الأمر: فى بداية هذه الحرب، هل كانت إسرائيل حقيقة فى خطر؟

شيمون بيريز: إذا كنت تريد أن تقول إن كانت واجهت خطر الموت، فلا، لأنه يبقى لديها اللجوء إلى الأسلحة الاستثنائية (لم تطرح مسألة استخدامها فى حالتنا هذه). فى المقابل، حينما تفجر الهجوم، كنا حقيقة فى وضع خطير للغاية. لم يكن هناك أدنى شك فى ذلك.

الوضع فى منطقة القناة لم يكن قاتلًا، فإن صحراء سيناء أعطتنا عمقًا إستراتيجيًا سمح لنا أن «نرى الحدث ونتأهب له». ولكن فى المقابل، كان الوضع على الجبهة السورية خطيرًا بشكل خاص: فلو كان السوريون قد تمكنوا من الهبوط من الجولان، لكانوا وجدوا أنفسهم فى الجليل، وهى منطقة ذات كثافة سكانية عالية. كان الخطر بالغًا لدرجة أنه جعل جولدا مائير تدعو فورًا حاييم بارلييف، الذى كانت تعتبره أفضل جنرال فى إسرائيل، لكى تطلب منه تولى قيادة الجيش الموجود على مرتفعات الجولان.

أندريه فيرساى: هناك سؤال أثار جدلا عن الهدف الحقيقى من هذه الحرب بالنسبة للسادات. فى الواقع، بعد أن عبر المصريون القناة واخترقوا خط بارليف، توقفوا. هل أهداف الحرب كانت واحدة بالنسبة للمصريين وبالنسبة للسوريين؟ شرح الجنرال طلاس، وزير الدفاع السورى فيما بعد، أن دمشق كانت تهدف إلى تحرير كل الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل، بينما مصر أرادت فقط عبور قناة السويس والبقاء عند ضفتى القناة على أمل أن تحرز تقدمًا للأمور على الساحة الدولية.

بطرس بطرس غالى: أعتقد أن السادات كان حكيمًا عندما أدرك أنه من الضرورى الحد من تقدم القوات، وذلك كان ضد رأى بعض القواد الذين أرادوا أن يواصل الجيش المصرى تقدمه حتى ممرات سيناء.

أندريه فيرساى: قد يبدو، رغم ذلك، أن السادات عندما اقترح على الأسد تحالفًا عسكريًا من أجل استعادة الأراضى التى ضاعت، لم يتحدث البتة عن وقف تقدم جنوده بعد عشرة كيلومترات من عبورهم القناة. وذلك ما يؤكد على أن السوريين كانوا فى غاية الدهشة والغضب عندما أدركوا توقف الجيش المصرى، وهو ما سمح للإسرائيليين أن يسحبوا جزءًا من قواتهم المتمركزة فى سيناء لإرسالها لتعزيز القوات فى الشمال الشرقى.

بطرس بطرس غالى: لقد قرأت فى الواقع، دراسات تسير فى هذا الاتجاه، ولكنى أعترف لك أننى لا أعرف كثيرًا ماذا أقول. ولكنى لا أعتقد، رغم ذلك، أن خطط المعارك قد تم تحديدها والتنسيق فيما بينها. أعتقد، أنه خوفًا من أن يتكشف السر، تجنب قائدا

القوات العسكرية على الجانبين، إعداد خطط تفصيلية عديدة؛ واكتفيا بالاتفاق على النقاط العريضة، بدون أن يتفقوا تفصيليًا على الإستراتيجية التى يجب عليهم اتخاذها فيما بعد. ولدى انطباع أن المرحلة الثانية من الحرب كانت نتيجة غياب التنسيق، أكثر مما كانت إستراتيجية محسومة. ولكنى لست خبيرًا عسكريًا، ومعلوماتى حول الإعداد لهذه الحرب ثم سيرها، محدودة جدًا.

أندريه فيرساى: رغم ذلك، أليس من المنطقى أنه فى هذا التحالف، يقوم قادة القوات من الجانبين بدفع قواتهم إلى أبعد نقطة ممكنة داخل الأراضى المحتلة؟ وأن سوريا كانت على حق فى أن تتوقع من مصر ألا تتوقف فى منتصف الطريق؟ من جهة أخرى، فى مرحلة ثانية، وتحت ضغوط مزدوجة من سوريا ومن السوفييت، تقدم الجيش المصرى أكثر داخل سيناء وخرج بذلك من المحيط الذى يقع تحت حماية المظلة الجوية، وهو ما جعل دباباته مكشوفة للهجوم من قبل القوات الجوية الإسرائيلية.

شيمون بيريز: من جانبى، لا أعتقد أن القاهرة ودمشق قد قامتا بالتنسيق معا بدقة فى جميع المراحل. أعتقد أنهما، بدلا من وضع خطة حقيقية يشترك فيها حليفان، كانت هناك رغبة فى القيام معا بهجوم مفاجئ ضد إسرائيل. أما بالنسبة للنوايا الخفية السرية، فلابد أنه كان هناك بعض منها على الجانبين.

وذلك ليس فيه ما يدهش على الإطلاق. فإن من الصعب قيادة تحالف. كان نابليون يقول إنه من الأفضل محاربة تحالف، عن الحرب داخل تحالف. فإن تحالفًا عسكريًا، يعيقه دائما الاختلافات فى الرأى بين المتحالفين. فكل دولة تشارك فى العمليات المشتركة، تحتفظ فى قرارة نفسها ببعض الخطط التى قد تنفذها أم لا، حسب الفرص المتاحة وبناءً على ما تقتضيه مصلحتها الخاصة. فلا توجد شفافية حقيقية فى مثل هذا النوع من التحالفات.

أما بالنسبة لمعرفة الأسباب التى دفعت السادات إلى أن يقرر فى النهاية أن يتجاوز بجيشه حد الكيلومترات العشرة، فلا أعتقد أنه قام بذلك تحت ضغط من السوفييت أو السوريين. أعتقد أنه نفسه كان مندهشا من السهولة التى عبر بها جنوده القناة ووصلوا إلى قلب قواتنا. ربما تصور فى تلك اللحظة أن بإمكانه أن يذهب إلى أبعد من ذلك. من الخطأ التصور أن الحكام يحددون سلفًا ويفكرون فى كل تحركاتهم؛ بل فى معظم الأحيان، ما يبدو وكأنه عمل منطقى، ليس إلا نتيجة للظروف. وفيما بعد، يجد المعلقون تماسكًا بينما لا يعدو الأمر أن يكون أكثر من توافق ظروف قد تكون سعيدة أم لا تكون.

أندريه فيرساى: لقد احتفظ التاريخ بفرضية حرب فجرها السادات من أجل الخروج من الطريق المسدود حيث تأزم الصراع، ويستطيع فيما بعد، إطلاق عملية جديدة من المفاوضات، لن يكون العرب فيها فى موقع ضعف.

شيمون بيريز: فى الواقع، بالنسبة للمصريين، كان لهذه الحرب هدفان أساسيان: أن تسمح بفتح قناة السويس التى أغلقت منذ عام ١٩٦٧م، وإحراز انتصارات رمزية، باهرة بشكل كاف لمحو الإهانة التى نتجت عن هزيمة يونية عام ١٩٦٧م. فى تلك الحالة، فإن عملية عبور القناة والتمركز حتى ولو فى جزء صغير من سيناء، يمكن أن يعتبر انتصارًا.

ثم بعد ذلك، وفقط بعد ذلك، يمكن للسادات الذى أعاد للعرب كرامتهم، أن يتحسس فكرة أن يبدأ، على أساس من التكافؤ، عملية تفاوض مع إسرائيل. وذلك ما تصوره بعضنا، بعد الحرب بعدة أشهر. ولكن فيما يخص النقطة الأخيرة، ما أتاحه السياق فيما بعد لم تكن الظروف وقتها تسمح بالتكهن به.

بطرس بطرس غالى: حقيقة، لقد زعمنا فى الكثير من الأحيان، أنه بالنسبة للسادات هذه الحرب كانت «تمثيلية». لا أظن ذلك، لأنه فى أثناء اجتماع لمنظمة الوحدة الإفريقية فى مونروفيا عام ١٩٧٩م (الذى جاء بعد توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل) ، طرح الرئيس النيجيرى السؤال بكل صراحة على السادات. ولقد ذهل السادات من السؤال، وأجاب قائلاً: *«أيها السادة، حسب التقاليد المصرية، إن كان لدينا شقيق أصغر كثيرًا، نعتبره بمثابة الابن. ولقد كان شقيقى الأصغر من بين قادة الطيران الأولين الذين قتلوا فى هذه الحرب. فلكم أن تتخيلوا إن كانت الحرب مجرد «تمثيلية» لما كان قد لقى «ابنى» حتفه فيها».*

أندريه فيرساى: بعد عدة شهور من نهاية الحرب، فى ١١ أبريل عام ١٩٧٤م، قدمت جولدا مائير استقالتها، ومعها كافة أعضاء الحكومة. ما هى النتائج التى تستخلصها من فترة حكمها؟

شيمون بيريز: لا يمكن إنكار الدور المهم الذى لعبته جولدا مائير فى تاريخ إسرائيل. وسنظل مدينين لها. ولكن يجب علينا، رغم كل شىء، أن نقر بتصلب رأيها فيما يخص العالم العربى، وكذلك بعض السلطوية فى تعاملها مع الوزراء عندما كانت على رأس الدولة. ولأنها لم تكن تثق فى أى من الزعماء العرب، فقد ظلت معارضة بشدة لأى انتقاص من الأراضى، وذلك مهما كانت الظروف. وكانت ترى أن انسحاب مبدأى سيكون بدون

أدنى شك البداية لانسحاب كامل من الأراضى المحتلة، وذلك سوف يؤدى طبيعيا إلى إنشاء دولة فلسطينية. لذا فقد رفضت تماما أن يكون لها دور فى هذه الدوامة.

من جانب آخر، كانت جولدا مائير سيدة ذات شجاعة استثنائية. ففى سنوات حياتها الأخيرة، ورغم أنها كانت مصابة بالسرطان، حيث كانت تتلقى دوريًا علاجًا كيماويًا، استمرت فى قيادة حكومتها بيد من حديد.

بعد حرب الغفران، واجهت انتقادات عنيفة من اليمين الإسرائيلى الذى أدانها بشدة. وفى النهاية تركت السلطة، سيدة جريحة، تحمل داخلها مشاعر كثيرة من المرارة.

أندريه فيرساى: وفى العالم العربى، كيف كان ينظر إليها؟

بطرس بطرس غالى: بشكل سيئ للغاية. كنا نجدها متعجرفة، تحتقر العرب بشكل عام، والفلسطينيين بشكل خاص. تذكر الطريقة الصلفة التى زعمت بها أنه لا يوجد ما يطلق عليه الشعب الفلسطينى. وأضافت: *«أنا، فلسطينية!»*.

أندريه فيرساى: وهكذا تركت جولدا مائير السلطة فى ربيع عام ١٩٧٤م. وعلى رأس الحكومة، حل محلها، هى التى كانت تعتبر من الصقور، إسحاق رابين، الذى كان إلى حد ما أكثر اعتدالاً. وأنت نفسك، شيمون بيريز، حللت محل دايان فى منصب وزير الدفاع.

* * *

١١- رحلة السادات إلى القدس

كيسنجر، «مفاوض مخيف ومناور من الدرجة الأولى» - أولى علامات الاسترخاء بين إسرائيل ومصر - إعادة فتح القناة في احتفال مهيب - الأمم المتحدة تقرن بين الصهيونية والعنصرية - انتخابات محلية في الأراضي المحتلة - سقوط حزب العمل - «أي أراض محتلة؟ هذه الأراضي هي أراض محررة!» - دايان ينضم إلى بيجين - مساعي حميدة للمستشار كرايسكي - تطور منظمة التحرير - لقاء سري في المغرب - «إنني على استعداد للتوجه إلى الكنيست!» - ذهول وتنديد في العالم العربي - «لقد عينتك الآن وزير دولة للشئون الخارجية» - «لا تذهب إلى القدس! سوف تقتل مثل جدك» - الإسرائيليون يهتفون للسادات - بعض العرب ما زالوا يبكون على سقوط الأندلس - القدس مغطاة بأعلام مصر - خطاب مبهر - عشاء شديد البرودة.

أندريه فيرساي: في نهاية عام ١٩٧٤م وبداية ١٩٧٥م، لعب هنري كيسنجر دور الوسيط بين إسرائيل ومصر من أجل التوصل إلى اتفاق «مؤقت». ما هي نظرة الحكام العرب إلى اللعبة الدبلوماسية التي يلعبها هنري كيسنجر في الشرق الأوسط؟

بطرس بطرس غالي: تعلم أن خصوصية اللعبة الدبلوماسية لكيسنجر، وصورته كـ«ميترنيخ جديد»، كما أطلق عليه الغرب، لم تكن حقيقة ملحوظة بين المصريين. باستثناء بعض المثقفين، لم يكن أحد يعلق أهمية على هذه الناحية من الأمور. ومع ذلك، كان لكيسنجر ميزة حقيقية لدينا، وهي أنه كان يهوديًا. من هذا المنطلق، كان يطمئن الإسرائيليين. ولكن الروابط الجيدة التي كنا قد أقمناها معه تؤكد على عقليتنا المتفتحة، بعكس ما يمكن لبعض المسئولين الإسرائيليين أن يعلنوا.

شيمون بيريز: كان مشروع كيسنجر الكبير هو تحييد الاتحاد السوفيتي الذي كان يمثل له الخطر الأساسي. ميترنيخ كان يقول: «*في صراع بين ثلاثة أطراف، يجب أن نحاول التحالف*

مـع *أحد الاثنين الآخرين*». كان الأطراف الثلاثة هم الولايات المتحدة والاتحاد السـوفيتى والصين. فمن أجل تحييد موسـكو، عمل كيسـنجر على التقارب مع بكين. ونجح فى ذلك. ولقد كانت الحرب الباردة هى التى دفعت كيسـنجر إلى الاهتمام بالشـرق الأوسط. لم يكن مخطئـا، لأن فـى الصراع الذى يضع الشـرق والغرب فى مواجهة، كان الصراع الإسـرائيلى - العربـى صراعًا محيطيًا فى منطقة إسـتراتيجية ذات حساسـية خاصـة. وكان تأثير الحرب البـاردة على الصراع فى الشـرق الأوسـط بالغ التأثيـر. والعكس صحيـح. فيمكن القول إن الصراع الإسرائيلى- العربى غذى بدوره الحرب الباردة.

لذلك لم يتوان كيسـنجر عن محاولة اسـتبعاد الاتحاد السـوفيتى من الشـرق الأوسـط، ولكـن ببعـض اللين، ومع الكثير من الحذر. لقد أدرك أن «العالم الحر» سـوف يكسـب كل شيء مع تحويل المنطقة إلى منطقة سلام، بينما كانت مصلحة الاتحاد السوفيتى فى استمرار الصـراع. بالإضافة إلى أن كيسنجر فهـم أن العرب لن يقبلوا إسـرائيل إلا إذا اقتنعوا أنها لن تهزم أبدًا بالسـلاح. لذلك، سـاند إسـرائيل وعمل فى نفس الوقت على إقامة السـلام. وفى أثناء وجوده فى السـلطة سـتلبى الولايات المتحدة جميع احتياجاتنـا فى قطاعات الاقتصاد والطاقة والدفاع (إمدادنا بالبترول والطائرات أف - ١٦ عالية التقنية، إلخ.). كما التزموا بألا يعترفوا بمنظمة التحرير طالما أنها لا تعترف ولا تقبل بحق إسرائيل فى الوجود.

كان كيسـنجر مفاوضًـا مخيفًا ومنـاورًا من الدرجة الأولى. ولذلـك، ففى كل مرة يهبط فيها فى إسرائيل، كان يبدأ برسم لوحة سوداء للوضع: الجميع ضد إسرائيل؛ معاداة السامية لـم تكـن أبدا بمثل هذا الانتشـار، إلـخ. وبعد أن يحبطنا نفسيًا، يبدأ فـى «التفاوض». وكان يسـاوم. كان يطلـب منّا دائما ضعف مـا كان يريد الحصول عليه. ثـم، بعد الحصول على ما يريـده، يتوجـه ليرى الزعمـاء العرب ويقترح عليهم نصـف ما نجح فى الحصـول عليه منّا، ويحثهـم علـى القبول خوفًا مـن أن نرجع فى التزاماتنـا. نعم، لقد كان بالفعل منـاورًا كبيرًا، ولكن فى خدمة قضية كبرى.

أندريه فيرساى: هل كان الإسرائيليون يحبونه؟

شيمون بيريز: البعض، نعم، بكل تأكيد. لقد كان يحظى بالإعجاب. ولكن البعض الآخر، مـن اليميـن، لم يقبلـوا أن يكون يهوديًـا، حتى لو كان وزيـر الخارجية الأمريكيـة، ولا يؤيد إسـرائيل مائة فى المئة. لذلك، ففى كل مرة يأتى فيها إلى إسـرائيل، كانوا ينظمون مظاهرات ويهتفون ضده ويحملون لافتات كتب عليها: «أيها الولد اليهودى، عد إلى وطنك!».

أندريه فيرساى: تدريجيا، لاحظنا بعض التقدم فى التقارب بين إسرائيل ومصر. فى ٤ سبتمبر عام ١٩٧٥م، تم توقيع اتفاق التزمت فيه الدولتان بـ «*ألا تهدد الواحدة الأخرى أو تستخدم القوة أو الحصار العسكرى ضدها*». لقد اتفقوا على مبدأ «*أن الصراع يجب ألا يحل عن طريق القوة المسلحة ولكن بالطرق السلمية*»؛ وأخيرًا اتفقوا على التوصل إلى «*اتفاق سلام نهائى وعادل*» على أساس القرار رقم ٣٣٨ لمجلس الأمن. وقطاع سيناء الذى يقع تحت السيطرة المصرية لن يتسع، ولكن المنطقة العازلة التى تتمركز فيها القوات التابعة للأمم المتحدة ستتسع نحو الشرق ما بين ١٥ و٤٠ كيلو مترا، ويمكن للجانبين أن يضعا فى هذه المنطقة محطات إنذار مبكر. من ناحية أخرى، ستحصل القاهرة على الانتفاع بحقول البترول فى «أبو رديس» الواقعة فى تلك المنطقة نفسها. وافقت مصر على تجديد مهمة قوات الأمم المتحدة سنويًا خلال ثلاث سنوات على الأقل، وأكدت موافقتها على مرور البضائع الإسرائيلية عبر قناة السويس.

إنه بدون أدنى شك، تقدم، ولكن لماذا لم يكن من الممكن الذهاب إلى أبعد من هذا، وبدء عملية سلام حقيقية؟

شيمون بيريز: فى الحقيقة، نحن ما زلنا نشك فى كلمة العرب؛ نحن نرى أنه من الممكن التوصل إلى هدنة ولكن ليس إلى السلام. لقد اقتنعنا بأن العرب لا يريدون السلام، بل على العكس، إنهم يستعدون للحرب القادمة. وأتصور أن العرب من جانبهم، أيضًا لا يؤمنون فى رغبتنا فى السلام.

بطرس بطرس غالى: هذا لا يعبر عن كل شىء! ولكن علينا أيضًا أن نأخذ فى الحسبان ثقل حركة العالم العربى وتطوره البطىء، وكونه ضحية المنافسات الداخلية التى تمثل عائقا أمام أى عمل مشترك. ثم، يبقى، بكل تأكيد، الجرح الحى دائما وهو القضية الوطنية الفلسطينية.

أندريه فيرساى: من الممكن استشعار تقارب بين إسرائيل ومصر، ولكن الأمور لم تسر بنفس الطريقة بين إسرائيل وسوريا.

بطرس بطرس غالى: لا يمكن مقارنة الأوضاع المصرية والسورية: الاختلافات الجغرافية تحدد السياسة فى كل دولة. أولا، كانت سوريا تشعر أنها معرضة للهجوم أكثر من مصر؛ فالقوات الإسرائيلية لا تبعد عن دمشق أكثر من ٦٠ كيلو مترًا، بينما كل من سيناء وقناة السويس تحميان القاهرة. وإن كان من الممكن تمامًا تصور تنفيذ عملية الانسحاب

علـى خمس مراحل فى سـيناء، فـإن هذا النوع مـن العمليات صعب تطبيقـه على مرتفعات الجولان. ثانيًا، لأن دمشق متداخلة أكثر فى العالم العربى، فهى تشعر بتضامن أكبر مع الأردن والفلسـطينيين. وعلـى أية حال، فإن دمشـق منخرطة أكثر من مصر فى القضية الفلسـطينية. وأخيرًا، بالنسـبة لسوريا، لا يعنى الصراع مع إسرائيل الجولان فقط؛ ولكن سوريا تشعر أنها معنية أيضا بلبنان وباللاجئين وبمشكلة المياه، إلخ.

أندريـه فيرسـاى: ببطء، اسـتقر الاسـترخاء بين إسـرائيل ومصر. فى عـام ١٩٧٥م أعاد السادات فتح قناة السويس، وجعل من هذا الافتتاح حدثًا وطنيًا. كيف كان رد فعل الصحافة والشعب المصريين؟

بطرس بطرس غالى: اعتبر إعادة افتتاح قناة السويس بمثابة الخطوة الأولى نحو استعادة السيادة على كامل الأراضى، وتم تغطية الحدث إعلاميًا بشكل واسع.

لقد ارتفعت شـعبية السـادات كثيرا خـلال حرب أكتوبر، والتى كانت مـن حيث المبدأ، مبشـرًا بتحـول فى الأوضاع. ولكن فـى حقيقة الأمر لم يتغير شـىء. إذن كان السـادات فى حاجـة إلى أحداث تطمئن المصريين إلى أن الأوضـاع تتحرك، وأننا نتقدم فى عملية تحرير الأراضـى المصريـة. لذلـك كان إعادة فتح قناة السـويس من شـأنه أن يجعل مـن «انتصار» ١٩٧٣م واقعًا راهنًا، و«يجسـده». بالنسبة للشعب، فإعادة فتح قناة السويس الذى تزامن مع استعادة الأنشطة الاقتصادية والتجارية، من شأنه أن يجلب لمصر مليارى دولار سنويا، وهو ما حسّن الأوضاع الاقتصادية فى مصر.

أندريـه فيرسـاى: فى نفس هـذا العام، ١٩٧٥م، أصـدرت الجمعية العامة قـرارًا بأغلبية ٧٢ صوتًـا مقابـل ٣٥ ضد و٣٢ امتناع، يقر بأن «*الصهيونية هى شـكل من أشـكال العنصرية* والتمييز العنصرى». كيف استقبل الإسرائيليون هذا النبأ؟

شيمون بيريز: لقد كان بالطبع، صدمة. وهذا القرار كانت نتيجته أننا لم نعد نثق فى الأمم المتحدة، وأننا سنرفض منذ ذلك الحين اشتراكها فى المفاوضات الإسرائيلية ـ العربية.

أندريه فيرساى: كيف تفسر هذا القرار الذى سوف يُلغى فى عام ١٩٩١م؟

شـيمون بيريـز: الواقـع أن فى الأمـم المتحدة ٢٣ دولـة عربية أعضاء فـى جامعة الدول العربيـة، و٥٥ دولـة جـزءًا من الكتلة الإسـلامية، و١١٠ مـن الدول التى تطلق على نفسـها «عـدم الانحياز».. كان مـن تأثيرها أن أصدرت الأمم المتحدة سلسـلة من القرارات معادية

لإسرائيل، وهى ظالمة تمامًا أو غير متوازنة قامت بتصرفات غير منطقية: تذكر السرعة التى قرر بها سكرتير عام الأمم المتحدة يوثانت، عام ١٩٦٧م، الامتثال إلى طلب ناصر بسحب قوات الأمم المتحدة التى تفصل بين مصر وإسرائيل. لقد كنا إذن فى مواجهة تحالف متكاتف معادٍ لإسرائيل، لم يكن من الممكن تخيل مقاومته.

أندريه فيرساى: إن كان الأمر كذلك، وبغض النظر عن التمويه، ما الجديد الذى جاء به هذا القرار أساسًا بالنسبة لإسرائيل، سواء من وجهة النظر الدبلوماسية أو الاقتصادية أو السياسية؟

شيمون بيريز: بداية، هذا القرار سيبرر فى نظر العديد من الحكومات، خاصة فى العالم الثالث، مقاطعة إسرائيل اقتصاديًا وسياسيًا. ثم، سيسمح بهذا الانزلاق المشئوم من معاداة الصهيونية إلى معاداة سامية حقيقية؛ فما إن يتم اختزال التعبير القومى لليهود فى شكل من أشكال العنصرية، يصبح من الممكن وبضمير صافٍ تمامًا أن يعلن المرء بكل الحدة الممكنة «معاداته للصهيونية»، وما ترتب على ذلك من التجاوزات المعادية للسامية التى رأيناها.

بطرس بطرس غالى: لنواجه الأمور بشكل مباشر: الفلسطينيون الذين عاشوا على هذه الأرض منذ قرون عدة، ليس من حقهم العودة إليها، بينما اليهود فى العالم كله، الذين فى غالبيتهم ليسوا أصلا من هذه المنطقة، يحصلون آليا على «حق العودة» وعلى المواطنة؛ فى إسرائيل هناك تمييز أساسى يقسم بين اليهود وبين العرب الإسرائيليين. لقد قام الصهاينة ببناء دولة رسخوا فيها عن قصد تمييزًا بين اليهود وغير اليهود (جوييم). كيف يمكن لنا أن ننكر أننا هنا إزاء عنصرية دينية وعرقية؟ الصهيونية تأسست على هذا التمييز.

لذلك، فلن ندهش من أن يرى العالم العربى بأكمله فى الصهيونية عقيدة تمييزية، وعنصرية فى جوهرها. من أخرى ترسخ الجمع بين الصهيونية والعزل العنصرى (الأبرتايد) فى جنوب إفريقيا فى المخيلة العربية والإسلامية والعالم الثالث.

لذلك، ففى العالم العربى، اعتبر قرار الأمم المتحدة ليس كـ «انتصار للمعسكر العربى»، ولكن اعتراف (متأخر) بقضية بديهية.

أندريه فيرساى: لقد نشأت إسرائيل من أجل إصلاح وضع غير طبيعى، وذلك بإعطاء دولة لشعب، تشرد فى كل مكان فى العالم، ولم يكن لديه دولة. وفى اللحظة التى نعترف فيها بأن اليهود، كأى شعب آخر، لهم حق فى وطن لهم، هل يمكن أن نلومهم فى «حق العودة» هذا؟

بطرس بطرس غالى: المشكلة هى أننا أردنا أن نصلح وضعًا غير طبيعى عن طريق خلق وضع آخر غير طبيعى، وأننا تسببنا فى ظلم كبير جدا بطرد الفلسطينيين من أرضهم ومنعهم من العودة إليها.

الصهيونية ليست قومية «طبيعية». لقد نشأت الدولة اليهودية على حساب شعب آخر، على غرار ما حدث فى أمريكا اللاتينية، التى تم فيها تدمير ممالك المايا والإنكا. ولكن تلك الظواهر وقعت فى زمن كان الاستعمار فيه مسألة مقبولة. ولكن، حتى لا أكرر نفسى، إسرائيل نشأت فى نفس الزمن الذى شهد حركة التحرر من الاستعمار، وبعد أقل من ٣٠ عامًا منذ أن أعلن الرئيس الأمريكى ويلسون حق الشعوب فى تقرير المصير.

أندريه فيرساى: فى عام ١٩٧٦م، أى فى ظل حكومة رابين، سمحت إسرائيل بإجراء أول انتخابات محلية فى الأراضى المحتلة. شيمون بيريز، لقد كنت فى ذلك الوقت وزيرًا للدفاع، وكنت أنت الذى أخذت مبادرة تلك الانتخابات.

شيمون بيريز: كانت مسألة الانتخابات الحرة فى الضفة الغربية وفى غزة موضوع خلاف بين رابين وبينى. وأتيحت لى شخصيا الفرصة أن التقى مع شباب فلسطينى بدوا لى متطلعين إلى المستقبل، وكانوا، بعكس سياسيين فلسطينيين آخرين، غير فاسدين. كان هؤلاء الشباب يشكلون نخبة من التكنوقراط الذين كان لنا بالفعل الفرصة أن نعمل معهم. من بينهم كان من تولى منصب عمدة أريحا فيما بعد، والذى كان قد ترك عندى انطباعًا إيجابيًا. لذلك كنت أؤيد إجراء هذه الانتخابات، بينما كان يعترض عليها رابين، لخوفه من أن تسقط المحليات فى أيدى رجال مقربين من منظمة التحرير. ومع ذلك، وافقت الحكومة على اقتراحى.

لم تتدخل السلطات الإسرائيلية فى تلك الانتخابات التى كانت حرة تماما والتى جرت فى ظروف جيدة جدا؛ إذ، ليس فقط لم تقع فيها أية عمليات عنف، ولكن أيضا كان المناخ جيدا إلى حد أننى شخصيا كنت أتمتع بترف التنقل بدون حراسة خاصة.

ورغم ذلك، منذ بدء الحملة الانتخابية، تبنى المرشحون «المعتدلون» لهجة عنيفة، تشبه لهجة منظمة التحرير. ولكن ذلك لم يدهشنا كثيرًا، حيث إنهم وجدوا أنفسهم فى منافسة مع منظمة التحرير، فكان عليهم كسب الرهانات أمام منتخبيهم.

لقد تعرضت بالطبع، لخصومات حادة من أعضاء الحكومة: «*لقد زعمت أن هؤلاء الشباب كانوا جيلاً جديدًا، وأنهم من المعتدلين. ولكنهم ليسوا كذلك! استمع إليهم: فهم متطرفون تمامًا مثل أسوء النشطاء من منظمة التحرير!*» ولقد حاولت كثيرًا أن أبين أنهم فى

حملـة انتخابيـة وأنهم لا يسـتطيعون أن يتحملـوا أن توجه لهم تهمة أنهـم «المتعاونون» مع إسـرائيل: «*ليس من المعقول أن تنتظروا منهم أن يدلوا بتصريحات حب لإسـرائيل؟*» ولكن لم ينفع شـيئًا. هذه الانتقادات لـم تأت فقط من الأعضاء الأكثر تطرفًا فى الحكومة، بل أيضًا من «المعتدلين».

أندريه فيرساى: وأنت كيف كان شعورك؟

شيمون بيريز: ماذا يمكننى أن أقول لك؟ بالطبع، كنت أفضل تصريحات أقل عنفًا! ولكن فى النهاية، كانت تلك هى اللعبة ويجب المشاركة فيها. بشكل شخصى، قمت بالحفاظ على علاقات جيدة مع هؤلاء المرشحين، وفى لقاءات ثنائية، شرحوا مسلكهم بكل صراحة. ومع ذلـك، كان رابيـن على حق جزئيًا، حيث إنه مع نهاية التصويت، كان نصف العمد المنتخبين متعاطفين مع منظمة التحرير. ورغم ذلك، سـمحت هذه الانتخابات بإقامة سـلطات محلية مسئولة إلى حد ما وأكثر اعتدالاً وأقل فسادًا من هؤلاء، وهو شىء ليس بالقليل. ذلك فضلاً عـن أن هؤلاء العمـد كانوا ممتازيـن وكان بإمكاننا العمل معهم بـذكاء وبفاعلية على أرض الواقع. باختصار، هذه الانتخابات الحرة أظهرت أنه من الممكن تحسـين العلاقات تحسينًا مؤكدًا. ونضيف إلى أنه لأول مرة فى تاريخهم يسمح للفلسطينيين أن يدلوا بأصواتهم.

بطرس بطرس غالى: نعم، ولكنى يؤسفنى أن أقول لك إن ذلك لا يدهش العالم العربى. فالأمـر يتعلق بانتخابـات محلية منظمة تحت الاحتلال العسـكرى؛ وعلـى كل حال، ظلت السـلطة فى يد السـلطات العسكرية الإسرائيلية التى ستظل تسيطر على العمد، سواء انتُخبوا ديمقراطيا أم لا.

أندريه فيرسـاى: فى العام التالى، فى مايو ١٩٧٧م، جرت انتخابات جديدة فى إسـرائيل أعطت السـلطة إلى اليمين، وأصبح مناحم بيجين، زعيم حزب الليكود، رئيسًا للوزراء. بعد نحو ٣٠ عامًا من حكم حزب العمل الذى كان حتى تلك اللحظة يمثل كل تاريخ إسـرائيل، إنـه تغييـر خطير. ما الذى يفسـر هزيمة العمـل؟ لقد أرجع البعض أحيانا السـبب إلى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م؟

شـيمون بيريـز: لا أعتقد إنها السـبب الرئيسـى. أعتقـد أن هزيمتنا فى عـام ١٩٧٧م هى أساسًا بسبب تزايد قضايا الفساد والفضائح التى كان حزب العمل متهمًا فيها، عن خطأ، بأنه مسـئول عنها أو مسـئول عن التغطية عليها. فقد تفجرت سلسـلة من الفضائح التى تورطت فيها شخصيات من العالم السياسى والمالى، وخرجت إلى السطح فى الصحافة، وكان لدى

الرأى العام انطباع أن الحكومة وكذلك حزب العمل قد نخر الفساد عظامهم. من جهة أخرى على المستوى الاقتصادى والاجتماعى ارتفع التضخم تدريجيًا، وزادت الإضرابات. وذلك فضلاً عن المستوطنات العشوائية فى الضفة الغربية التى أثارت حوادث متكررة وأدت إلى تدهور المناخ السياسى. لذلك شعر الشعب أن الحكومة كانت غير قادرة على إدارة البلاد. وأخيرًا، تم الإعداد لتلك الانتخابات بشكل سيئ جدًّا: رابين الذى كان فى هذا الوقت رئيسا للحزب، قدم فجأة استقالة الحكومة، وذلك قبل ثلاثة أسابيع من الانتخابات. ولقد اعتبرنا تلك الهزيمة بمثابة عقوبة متأخرة عن حرب الغفران، فقد كان تدهور المناخ الذى ساد فى حزبنا وافتقادنا للإعداد، هو الذى تسبب فى هزيمتنا.

يجب بالإضافة إلى ذلك، الأخذ فى الاعتبار مشاعر الإحباط القوية التى كان يشعر بها اليهود السفارديم، الذين وصلوا مؤخرا من شمال إفريقيا والذين - بشكل عام - لم تستطع الطبقة السياسية أو الإدارية فى السلطة - والذين كانوا فى غالبيتهم من أصول أشكينازية - الاهتمام بهم أو فهمهم كما يجب. هؤلاء السفارديم، أعطاهم بيجين اهتمامًا كبيرًا، ولقد شعروا تجاهه بامتنان. فقد تبناهم وهم تبنوه، إلى حد أن صنعوا منه بطلهم.

من المهم أيضًا الأخذ فى الاعتبار إنشاء حزب جديد فى عام ١٩٧٧م، حزب داش، يرأسه جنرال ذو مكانة عالية ويلقى احتراما كبيرا، هو إيجال يادين. ويضم العديد من الشخصيات المتميزة التى تنتمى إلى المجال المدنى أو العسكرى. هذا الحزب، الذى كان يرمز، فى نفس الوقت، إلى التغيير والتجديد، وجد جمهوره يتسع، وأصبح هو الحكم فى الانتخابات. وعندما قرر داش أن ينضم إلى الائتلاف مع الليكود، حزب بيجين، كان من الواضح أن بيجين سوف يصبح رئيس الوزراء الجديد.

من المفارقات أن مناحم بيجين كان هو الغائب الأكبر فى تلك الانتخابات. فقد كان مريضًا، بعد إصابته بأزمة قلبية، ولم يستطع المشاركة فى أى من الاجتماعات، ولم نره يظهر على شاشة التليفزيون إلا نادرًا. ولكن حزبه دعا أكبر مكتب استشارى فى العلاقات العامة فى إسرائيل، ليقدم خدماته. ولقد قام المكتب بتوجيه حملة الحزب بشكل ممتاز. فى نفس الوقت، عمل عيزرا وايزمان، الذى يقف على يسار الساحة السياسية من بيجين، من خلال تداخلاته التليفزيونية، على إعطاء بيجين صورة مطمئنة لرب أسرة يحمل الكثير من الحس السليم ومن الاعتدال.

أندريه فيرساى: صحيح، لقد قام بيجين، هذا الراديكالى، بحشد السياسيين القادمين من نواحٍ مختلفة.

شيمون بيريز: بالضبط، ولأن بيجين قد بقى فى السلطة كل هذا الوقت، فلأنه أيضا عرف كيـف يختار الأشـخاص المحيطيـن به. فبدلا مـن أن يكتفى بأصدقائه القدامـى من اليمين، بـل من أقصى اليمين، جمع حول نفسـه مجموعة من الجنـرالات البارزين، الذين لا ينتمون إلى معسـكره: مثل إيجال يادين وعيزرا وايزمان، كما قلنا، وأيضا موشيه دايان، الذى سوف يعرض عليه منصب وزير خارجية.

أندريه فيرسـاى: موشـيه دايـان (الذى كان، رغم كل شـىء، مثلك، شـيمون بيريز، أحد المقربين من بن جوريون وكان يمقت بيجين) قبل هذا المنصب، فيما يبدو بدون حرج كبير. كيف كان رد فعلك على إعلان قبول دايان هذا المنصب؟

شـيمون بيريـز: اتصل بى دايـان هاتفيا وقال لى: «شـيمون، *إننى أطلبـك لكى أقول لك إننى قبلت الدخول فى حكومة بيجين. أعرف أنك ستغضب منى لأننى لم أستشيرك، ولكن لنكن واضحين: لو كنت استشرتك، لكنت حاولت أن تقصينى عن هذا القرار. وبما أننى لن أستمع إليك، لكنت لمتنى مرتين..*».

يجـب أن أقول إننى، نعم، غضبت منه. ولكن فى نفس الوقت، أسـتطيع أن أتفهم وجهة نظـره. بعـد انتصاره، فهم بيجيـن أن دايان يمكن أن يكون ورقة رابحـة فى حكومته، ولذلك اقترح عليه هذا المنصب.

لقـد كنـا، أنا ودايان، أصدقاء مقربيـن جدًّا. ولأنى أعرفه، فأعتقد أننى أسـتطيع القول إن قـراره لـم يكن مدفوعا بأى رغبة، أيا كانت، فى السـلطة. وفى الحقيقـة، دايان لم يتصور أنه قادر على الشـفاء من حرب الغفران، التى تركت فيه أثرًا قويًا، إلا إذا اسـتطاع المسـاهمة فى إحـلال السـلام فى بلاده. تصور أنـه، بعودته إلى الخارجية سيسـتطيع ، بشـكل ما، إصلاح الأمـور. كما قدر أنـه، بالانضمام إلى حكومة بيجين، سـيتمكن من تشـكيل جبهة لمواجهة المتطرفيـن الذيـن كانوا يحيطـون برئيس الـوزراء ويخفف من سياسـات الحكومة. وهو ما فعلـه، علـى أى حال. إننـى واثق أن دايان هو عضـو الحكومة الذى دفع بيجيـن أكثر من أى شخص آخر نحو طريق التصالح.

أندريه فيرساى: أكثر من وايزمان؟

شـيمون بيريز: نعم، أكثـر كثيرًا. فإن دايان كان «أهم الأعضـاء وزنًا» فى حكومة بيجين. لأن بيجين كان يكن لدايان احترامًا كبيرًا. لا أعتقد أنه كان يكن نفس الاحترام لأى شـخص آخـر. ورغـم أن العلاقات بين الرجلين يمكـن، بالطبع، أن تكون مضطربـة أحيانا. كما كان

دايان، هو الذى استطاع، فى أحاديثه مع الأمريكيين أن يجعلهم يفهمون أن إسرائيل سوف تذهب إلى أبعد مما صرح به بيجين.

بطرس بطرس غالى: إننى أشاركك رأيك هذا. كان دايان يمثل «العقل» بينما كان وايزمان، الذى كان يملك الموهبة الاستثنائية لرجل *«العلاقات العامة»*، هو «حلقة الوصل المهمة».

أندريه فيرساى: وأنت نفسك، شيمون بيريز، هل أردت الانضمام إلى حكومة بيجين؟

شيمون بيريز: على المستوى الشخصى، كنت على علاقة ممتازة مع بيجين. وعندما أصبح رئيس وزراء، دعانى لمقابلته. وقال لى: « *اسمع، شيمون، لقد خسر العمال الانتخابات. لماذا لا تنضم إلينا؟ وأقترح عليك منصب نائب رئيس وزراء ووزير دفاع*». أجبته بأن ذلك ليس ممكنا بالنسبة لى، لأن نتيجة الانتخابات أشارت بوضوح إلى أن الشعب الإسرائيلى أراد لنا أن نأخذ دورة فى موقع المعارضة، وإن تملصت من هذا الواجب، لكان سلوكى غير شريف.

أندريه فيرساى: من بين التصريحات الأولى لبيجين، هذه الجملة: *«أراض محتلة؟ أى أراض محتلة؟ إن كنت تريد أن تتحدث عن يهودا والسامرة* (هو لا ينطق اسم «الضفة الغربية») *هذه الأراضى هى أراضى محررة. إنها يهودية تمامًا مثل تل أبيب..*». إنه هو أيضا الذى أعلن، غداة حرب الأيام الستة، قائلا: *«أبدا، إسرائيل لن تعيد شبرا واحدا من هذه الأراضى التى رواها دم أفضل أبنائها..»*. ومنطقيا جدا أن يجعل من إقامة مستوطنات فى الأراضى المحتلة أولويته السياسية. فى أغسطس، قام الكنيست بمد القانون الإسرائيلى إلى منطقة القدس. باختصار، من الممكن أن نجد بعض «الصقور» فى قلب حزب العمل (جولدا مائير، على سبيل المثال)، فمع بيجين نحن أمام «صقر أعظم» (سوبر).

بطرس بطرس غالى: «صقر أعظم»، ولكن من يحيطون به لم يكونوا أقل منه. بيجين لم يكن أبدا الوحيد الذى يلفظ عبارات متطرفة. ألم يكن دايان هو الذى أعلن: *«أفضل حالة الحرب مع شرم الشيخ عن السلام بدون شرم الشيخ..»*؟ وعيزرا وايزمان، الذى نصوره بأنه أحد المتعاطفين الحميمين للسلام، كان يكرر كثيرًا أن المطارات الثلاثة التى قامت إسرائيل ببنائها فى سيناء *«كانوا مهمين بالنسبة لأمن إسرائيل..»* ويمكن إيجاد أمثلة كثيرة على هذا.

أندريه فيرساى: كيف كانت نظرة العرب إلى بيجين وحكومته الجديدة؟

بطرس بطرس غالي: يجب القول إننا لم نكن نجد اختلافا كبيرا بين الليكود والعمل، بالإضافة إلى أننا فى النهاية لم نكن نعلم الكثير عما يفرق بينهما. بشكل عام، تصور العرب أنه إن كانت الوسائل تتغير بين «اليمين» و«اليسار» فإن فى الجوهر، الماباى والليكود كانا يتفقان تماما على الأهداف الأساسية.

أندريه فيرساى: فى ١٦ سبتمبر عام ١٩٧٧م، التقى موشيه دايان سرًا فى المغرب مع حسن التهامى، نائب رئيس الوزراء المصرى، والمقرب من السادات. ماذا كان يعنى هذا اللقاء؟

بطرس بطرس غالي: هذا اللقاء كان نتيجة لمبادرة مشتركة من الملك حسن الثانى عاهل المغرب والمستشار النمساوى كرايسكى، اللذان أرادا، كل بطريقته، أن يلعبا دورًا فى إطلاق عملية السلام. ولقد اختار السادات التهامى لأنه كان قد قام بالفعل بمهام سرية من هذا النوع.

أندريه فيرساى: بخصوص كرايسكى، الذى كانت له علاقات خاصة جدًا مع إسرائيل، ما هو الدور الذى لعبه فى محاولة التقارب الإسرائيلية العربية؟

شيمون بيريز: كرايسكى، أحد كبار الشخصيات فى الاشتراكية الدولية (كان بالنسبة لى هو الأكبر بعد المستشار الألمانى فيلى برانت)، نجح فى الحفاظ على علاقات ممتازة مع الشرق ومع الغرب، مع الشمال ومع الجنوب، ولكنه كانت له علاقات معقدة جدًا، ليس فقط مع إسرائيل ولكن مع يهوديته. لنقل إنه كان يهوديًا متميزًا فى يهوديته، ومن هذا المنطلق، لم يكن أبدًا فى سلام مع نفسه. كان يعتبر نفسه نمساويًا كاملاً، وفى نفس الوقت، لم يكن يستطيع منع نفسه من الشعور بالجرح من معاداة السامية النمساوية والتى لم يرد أبدا أن يجعل منها حالة علنية. لقد قال لى برانت يوما عنه، بالرغم من كل مواهبه، كرايسكى لن يستطيع أبدا التخلص من نزوعه اليهودى فى تدمير نفسه.

كانت علاقته بإسرائيل معقدة، ومتناقضة؛ كان معجبا بإحياء دولة يهودية، ولكنه فى نفس الوقت، لم يكن يدخر انتقاداته إلى حد أنه كان يبدو وكأنه رئيس الدولة الغربى الأكثر عداء لإسرائيل.

ولأنه كان حاد البصيرة، لم يستطع الحفاظ على روحه الانتقادية إزاء منظمة التحرير، وبشكل خاص إزاء عرفات الذى أصبح كرايسكى بالنسبة له بمثابة حامل المباخر. ومع

اعتبار عرفات صديقًا مقربًا جدًا، بل شخصيًا (وهو شعور يبدو أن عرفات يبادله إياه، على كل حال) لم يتوان فى دفعى إلى الاعتراف بمنظمة التحرير التى يبدو أنه تبنى مواقفها.

أندريه فيرساى: يجب القول إنه فى نفس الوقت، كانت منظمة التحرير تتطور. وإن كانت تتطور بخطوات بطيئة إلا أنها كانت ملحوظة، على الأقل فى عيون الرأى العام الغربى. وأذكر باختصار الوقائع: بعد عام من الهجوم الذى وقع فى أثناء الألعاب الأولمبية فى ميونيخ، بدأت منظمة التحرير الفلسطينية تفهم أن الإرهاب ليس، أو لم يعد، يأتى بنتائج، وقامت بحل منظمة سبتمبر (أيلول) الأسود. فى نفس الوقت، أطلقت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م اهتمام الرأى العام الدولى بالقضية الفلسطينية، وهو ما بدا يطرح إمكانية الحلول الدبلوماسية. وهو بدون شك ما دفع عرفات إلى الإدلاء بحديث صحفى مع صحيفة نمساوية فى مارس عام ١٩٧٤م، حيث أعلن عداءه للإرهاب الدولى. هذا الموقف سوف تؤكد عليه منظمة التحرير، فى يولية، حين تعلن إنها ضد الإرهاب الدولى مع الدعوة فى نفس الوقت إلى التوسع فى النضال المسلح فى الأراضى المحتلة. بعد عدة أشهر، وفى أكتوبر عام ١٩٧٤م، حصلت منظمة التحرير أخيرًا على اعتراف الدول العربية بها كممثل وحيد للشعب الفلسطينى، وبعد ذلك حصلت على صفة مراقب فى الأمم المتحدة. وبالتالى، استُقبل ياسر عرفات فى ١٣ نوفمبر عام ١٩٧٤م فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى نيويورك، وألقى هناك خطابًا سُمى بخطاب «البندقية وغصن الزيتون»، وفيه دعا إلى حل سلمى فى الشرق الأوسط. بعد نحو عشرة أيام، فى ٢٢ نوفمبر، أصدرت الجمعية العامة بالأمم المتحدة قرارها رقم ٣٢٣٦ الذى تعترف فيه بحق الفلسطينيين فى تقرير المصير وفى السيادة والاستقلال الوطنى.

شيمون بيريز: نعم، ولكننا بقينا على مستوى التصريحات. لنعيد سرد الوقائع مرة أخرى: فى أغسطس عام ١٩٧٤م، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (عضو فى منظمة التحرير) نفذت عدة هجمات بالسيارات المفخخة ضد مصالح إسرائيلية، وفى يناير ١٩٧٥م، فى باريس، وقع هجومان بالصواريخ، ولحسن الحظ أخطأ الهدف، ضد طائرتين من طائرات شركة العال. هذه الهجمات ضد ركاب العال ستتكرر فى إسطنبول وفى باريس عام ١٩٧٨م. فى نفس الوقت، تم اختطاف طائرة من طراز إيرباص فوق عنتيبى فى أوغندا، حيث تم احتجاز مائة راكب إسرائيلى كرهائن. واستمر الإرهاب الدولى لمدة طويلة أخرى، حيث إنه فى أكتوبر عام ١٩٨٥م، أى عشر سنوات بعد خطاب البندقية والغصن، سيقوم عدد

من المقربين من عرفات باختطاف السفينة *آكيلى لاورو*، والقبض على رجل يهودى مسن، مشلول ويجلس على مقعد متحرك، ويلقون به إلى البحر من فوق السفينة.

مهما يمكن أن يقوله كرايسكى، الوقائع هناك: الإرهاب الدولى استمر، وتصريحات عرفات لم تكن إلا ذرًا للرماد فى عيون الغربيين.

ومرة أخرى، لقد عميت بصيرة كرايسكى، بسبب رغبته الشديدة فى أن يكون بالقرب من المعسكر العربى حيث كان يقدر عددا من زعمائه، بداية بالسادات الذى كان معجبًا به أيما إعجاب.

بطرس بطرس غالى: الأمر كان متبادلاً، السادات كان يقدره كثيرا. وكان يتوجه كثيرا إلى فيينا ويقول: «*سوف أذهب لأرى صديقى كرايسكى*».

وأنا شخصيًا، لقد جذبتنى كثيرا شخصية كرايسكى الذى نجح فى كسب صداقة أغلب زعماء العالم العربى. لقد قابلته فى فيينا. كان ذلك بعد توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل، وخلال المفاوضات حول سيادة فلسطين. كنت متعبا ومحبطا، وشكوت من بطء المفاوضات: «*ذلك مستمر منذ ثلاث سنوات وما زلنا عند نفس النقطة*». كان لكرايسكى كلمات مطمئنة لسياسى عقر فى مجال الدبلوماسية، وفى النهاية قال: «*الصبر وحدة الذهن هما مفتاحا الدبلوماسية. لقد تفاوضت أكثر من عشر سنوات على انسحاب القوات السوفيتية والأمريكية من النمسا. أما أنتم فما زلتم فى عامكم الثالث من المفاوضات..*».

شيمون بيريز: لقد دعم كرايسكى روابطه القوية مع الزعماء العرب إلى حد أن العديد من الإسرائيليين كانوا يكرهونه. ولكنهم كانوا مخطئين؛ لأننا إذا عدنا إلى تصريحاته، يبدو كرايسكى، كما قلت من قبل، وكأنه عدو لإسرائيل؛ ولكن إذا نظرنا إلى أفعاله ومبادراته، سنكتشف فيه رجلا وقف بجانبنا فى كل مرة كنا فى حاجة إليه. لقد قام بأفعال شجاعة جدا لصالح إسرائيل، مثل قيامه بتحويل النمسا خلال السبعينيات إلى طريق مرور لليهود السوفييت الذين كانوا يريدون الهجرة إلى إسرائيل، وذلك فى فترة لم يحاول أى رئيس دولة أخرى مساعدتنا فيها. كما كان هو الذى يتحرك فى كل مرة كنا فى حاجة فيها لشخص يتدخل لدى السلطات السوفيتية لصالح معارض يهودى معتقل.

وفى أحد الأيام، تحدثت معه فى هذا الموضوع بشكل خاص. وقلت له: «*ولكن فى النهاية، إن كنت موافقًا على مساعدتنا، لماذا تطلق كل تلك التصريحات العنيفة المعادية*

لإسـرائيل؟» فأجابنـي: *«ولكن شـيمون، بدون ذلـك، كيف يمكننى أن أسـاعدكم بكل هذه الفاعلية؟»*.

ولقد كان هو المصدر الذى نظم لقاء التهامى ودايان، ثم فيما بعد، بين السـادات وبيني، فـى فيينا، فى منتصف عام ١٩٧٨م، عندما بدت أن المفاوضات بين مصر وإسـرائيل وكأنها فى منحدر.

أندريه فيرساى: بعد لقائه مع التهامى، طار دايان إلى واشنطن.

شـيمون بيريز: نعم، كان يقوم بإبلاغ الرئيس كارتر بفحوى اللقاء. وقال له: *«لقد التقيت بمسئول مصرى كبير يستمع السادات له، واتضح لى أن تقدمًا جادًا ممكنًا، وبلا شك، هناك أيضـا احتمـالات إقامة مفاوضات حقيقية قبل وقت طويل»*. يبـدو أن كارتر اهتم كثيرًا بتلك الأخبار، لأنه أراد حقيقة تحقيق تقارب إسرائيلى عربى.

أعتقد أن دايان أراد أن يظـهر قدرتـه فـى الحـوار مع العرب. فكونه توجه - حتى لو سرًا - إلـى دولـة عربية، كان لذلك معنى تاريخى بالنسـبة له. على أية حال، بـدا أن الاجتماع مر جيـدا، وإن أثار بعض الغموض. لا أعرف بالضبط ماذا قيل، ولكن أعطى التهامى إحساسًـا بأن كل شـيء يمكن أن يحل بسـرعة وعلى أفضل وجه بالنسـبة للمصالح العربية. بدا دايان متعاطفًا جدًّا، وأعلن أن كل شيء *«مفتوح للتفاوض»*. ولكن هذا *«الانفتاح»*، مناخ التصالح هذا الذى استطاع أن يبثه خلال الاجتماع، أعتقد أنه دفع التهامى إلى الاعتقاد بأن الإسرائيليين وافقوا منذ البدء على مطالب المصريين، أى إعادة الأراضى مقابل السلام.

أندريه فيرساى: لقد كان جذابا؟

شـيمون بيريـز: بالتأكيـد! وأكثـر ممـا يمكـن أن تتخيـل.. دايـان، بالإضافة إلـى قدراته العسـكرية، لديـه بـدون أدنى شـك، موهبة دبلوماسـى. كان يعـرف كيف يدفـع الأمور إلى الطريـق الذى اختاره، سـواء كان ذلك حشـود عسـكرية أو مواقف سياسـية. كمـا أنه يملك القـدرة علـى جعل محدثه يشـعر بعلاقـة وثيقة معه، فلا يشـك لحظة فى حسـن نيته، وحتى بصورة قد تتجاوز العقل أو الواقعية.

بطرس بطرس غالى: مهما كان الأمر، لا أعتقد أن هذا الحديث، الذى لم يتعد لقاء سريا بيـن لقاءات كثيرة أخرى، كان له أهمية خاصة. لقد كان، بالنسـبة للمصريين، وسـيلة لإقامة حوار، وكما أنه بوجه خاص وسـيلة لإظهار حسـن نوايانا للأمريكييـن، وأخيرًا، تلبية لرغبة ملك المغرب والمستشار كرايسكى.

أندريه فيرساى: فى ٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ م، فى خطابه أمام مجلس الشعب المصرى، فى حضور ياسر عرفات الذى كان مدعوًا بوجه خاص لهذه المناسبة، أصدر السادات تصريحًا مذهلاً: «*مستعد للذهاب إلى آخر الدنيا*، وسيدهش *الإسرائيليون حينما يسمعوننى الآن أقول.. إننى مستعد أن أذهب إلى بيتهم إلى الكنيست ذاته ومناقشتهم*».

بطرس بطرس غالى، لقد كنت فى هذا الوقت، وزيرًا وكنت موجودًا فى هذا اليوم فى المجلس. كيف استقبل أعضاء المجلس هذا الإعلان، وخاصة عرفات؟

بطرس بطرس غالى: لقد صفق الجميع، لأن أحدًا لم يأخذ ذلك التصريح مأخذ الجد. لقد تصورنا جميعا أنه نوع من البلاغة الخطابية: «*إننى مستعد للذهاب إلى آخر الدنيا، إن كان فى هذا ما يمنع أن يجرح عسكرى أو ضابط من أولادى..*».. ذلك لا يعنى شيئا. لقد عاتبنا كثيرا ياسر عرفات لأنه لم يكن له رد فعل، ولأنه صفق مثل كل الآخرين بعد سماعهم تصريحات السادات، ولكن لو نظرنا إلى السياق ونبرة الخطاب، لم يكن من الممكن أن يتصور، لا هو ولا أى أحد آخر، أن الرئيس يسعى جديا إلى الذهاب إلى إسرائيل، فما بالك بالكنيست! كان الأمر، على أرجح تقدير، يتعلق باستعارة تعرب عن رغبته فى عمل كل ما فى وسعه من أجل التوصل إلى سلام.

بعد انتهاء الجلسة، قام عدد منّا، وزراء وبرلمانيون، بمناقشة الخطاب. فى تلك اللحظة، طرح البعض السؤال، لمعرفة إن كان وراء البلاغة مشروع حقيقى للذهاب إلى بيت العدو. يجب أن أقول إننى شخصيًا لم أصدق على الإطلاق. قدرت أن الأمر لا يتجاوز مجرد شطحة غنائية!

وعلى كل حال، لقد طرح السادات هذه الفكرة من قبل أمام مستشاريه المقربين، مثل: إسماعيل فهمى وزير الخارجية، والجمسى وزير الدفاع، اللذين كانا بلا شك، مذهولين تمامًا، كما كان أيضًا السفير الأمريكى فى القاهرة!

أندريه فيرساى: إذن بدت الفكرة مجنونة إلى هذه الدرجة فى أعين المسئولين المصريين؟!

بطرس بطرس غالى: بالتأكيد! الخطورة أن تبدو تلك الرحلة وكأنها اعتراف بالهزيمة واعتراف ضمنى بإسرائيل! وهذا التحرك من شأنه أن يعزل مصر عن العالم العربى. فهمى، أدرك أنه لن يستطيع أن يثنى الرئيس عن فكرته، فاقترح عقد مجلس الأمن فى القدس. لقد كانت وسيلة لتغيير مبادرة السادات وفى نفس الوقت الحصول على إدراج الأمم

المتحدة. فقد عاد فهمى إلى الطريقة الكلاسيكية لوزارة الخارجية المصرية التى ترفض كل حوار منفصل مع الإسرائيليين: إن كان لابد من إقامة حوار، فيجب أن يتم فى إطار الأمم المتحدة.

وافق السادات على التفكير فى هذا الاقتراح الذى نقله إلى كارتر. ولكن لم يبد أن واشنطن أعرته الكثير من الاهتمام.

أندريه فيرساى: كيف نقلت الصحافة المصرية التصريح الذى أدلى به الرئيس السادات فى مجلس الشعب؟

بطرس بطرس غالى: لم تذكره على الإطلاق، حيث أن أحدًا لم يصدقه حقيقة.

أندريه فيرساى: وفى إسرائيل، كيف فهم خطاب السادات هذا؟

شيمون بيريز: لقد كان أكبر خبر خارق للعادة سمعته إسرائيل. كان من الصعب فهم أو تصديق أن السادات، الذى شارك فى السياسة المصرية منذ ربع قرن، الذى قاد البلاد منذ ما يقرب من عشر سنوات، والذى فجر حرب الغفران، كان مستعدًا أن يقوم بتلك الحركة الثورية.

أندريه فيرساى: هل كانت الطبقة السياسية مقتنعة به، أو هل تصورت، على غرار المصريين، أنه مجرد بلاغة خطابية؟

شيمون بيريز: لقد صدقته لأن بيجين تلقى تأكيدات من النمساويين أن السادات كان جادًا. ولهذا السبب قام فورًا بتوجيه دعوة رسمية إلى الرئيس المصرى للحضور إلى القدس.

بطرس بطرس غالى: فى الصحافة المصرية، مرت دعوة بيجين فى صمت. وقدمت مبادرة السادات كمبادرة مصرية صرفة، تثبت رغبة مصر فى السلام.

أندريه فيرساى: ورحبت الصحافة بهذه المبادرة؟

بطرس بطرس غالى: لقد هللت الصحافة لشجاعة السادات الذى أشعلت بادرته الأمل فى سلام ممكن وفى تجديد الاقتصاد.

أندريه فيرساى: كيف كان رد فعل الأمريكيين؟

بطرس بطرس غالى: كان خليط من الاهتمام ومن التشكك: «*على كل حال، لنجرب، ولنرى*». لن يخسر الأمريكيون شيئًا. إن لم تصل الأمور إلى نتيجة، فذلك لن يضر إلا مصر، وليس إسرائيل.

أندريه فيرساى: ما الذى يفسر معارضة الطبقة السياسية المصرية لمشروع السادات؟

بطرس بطرس غالى: لا تنخدع بتلك المسألة: هذه المعارضة لم تكن إطلاقًا رفضا للقيام بمباحثات سلام. بكل بساطة، لم يتصور أحد أن هذه الطريقة، المسرحية إلى حد ما، فى قيادة السياسة الخارجية يمكنها أن تصل إلى نتيجة تعبر عن الفشل، الذى هو بكل تأكيد هو مصير ذلك الفعل. لذلك، فقد كانت هذه المبادرة مخاطرة ضخمة ستؤدى إلى أن تخسر مصر الكثير، وأول شىء كانت ستخسره هو كرامتها.

أندريه فيرساى: أبدت العواصم العربية رفضها التام. لذا توجه السادات إلى دمشق فى محاولة لإقناع الرئيس حافظ الأسد. ويقص الجنرال طلاس، وزير الدفاع السورى، فيما بعد أنه دعا الأسد مباشرة لأن يسارع باحتجاز السادات سجينا حتى لا يستطيع أن يرتكب ما «لا يمكن تصحيحه».

بطرس بطرس غالى: إننى أعرف تلك القصة، ولكننى بصراحة، أشك فى صحتها. أنا شخصيًّا لا أعطى لتلك التصريحات مصداقية كبيرة.

أندريه فيرساى: مهما كان الأمر، بعد سبع ساعات من المناقشات، لم يقتنع الأسد والرئيس المصرى عاد لبلاده. كما اتصل السادات بالملك حسين عاهل الأردن الذى لم يؤيده هو أيضا. كيف تفسر هذا الرفض، رغم أن الأردن كانت منذ مدة طويلة الدولة العربية الأقل عداء لإسرائيل، وحسين كان الحاكم الأكثر استعدادًا لفتح مفاوضات سلام؟

شيمون بيريز: لنفس السبب: هذا المشروع بدا مجنونًا إلى حد أن أحدا لم يصدقه. كما أن الملك بمساندته السادات، قد يتعرض إلى مخاطر أخرى أكثر من تلك التى قد يتعرض لها الرئيس المصرى. حسين، الذى لم تكلل هامته أمجاد «المنتصر» فى حرب أكتوبر، كان سيعامل بكل تأكيد كخائن فى العالم العربى بأسره. وأضيف إلى ذلك أن العلاقات بين الرجلين كانت سيئة؛ فيما سبق وصف السادات حسين بأنه ملك غير شرعى. لذلك كان لدى الملك كل الأسباب ليتوخى الحذر.

أندريه فيرساى: لماذا قضى السادات أربع سنوات كاملة قبل أن يأخذ هذا القرار، رغم أننا رأينا كيف كان يظهر رغبته فى التقدم، والقيام بعملية تفاوض مع إسرائيل.

بطرس بطرس غالى: خلال تلك السنوات، بقى السادات متضامنا بشدة مع العالم العربى؛ لم يكن يريد التخلى عن العرب. كان يعرف أن العالم العربى من مصلحته أن يتحد وأن يتحدث بصوت واحد إن أراد أن يكون قويا، وأى تفكك لن يؤدى إلا إلى إضعافه.

لذا، فخلال أربع سنوات، حاول السادات أن يقيم جبهة مشتركة وفاعلة تضم الدول العربية والفلسطينيين.

كان يحتاج إلى الوقت قبل أن يقر بأن العالم العربى، الذى توطنت فيه المتناقضات، لن يحقق وحدته إلا بصعوبة. وكان يقول: « *إن كان علينا الانتظار لتحقيق هذه الجبهة المشتركة، فلن نتقدم أبدا* ». لذا، فى ذلك الحين، بدأ يفكر فى إستراتيجية غير مسبوقة وشخصية تماما.

أندريه فيرساى: وكيف توصل إلى هذه الفكرة، والتى كانت ضد كل السياسة العربية التقليدية؟

بطرس بطرس غالى: لقد طرحت عليه هذا السؤال، ودايان طرح عليه نفس السؤال، وآخرون أيضا، وفى كل مرة كان يعطى إجابة مختلفة. فكان يقص على سبيل المثال، أنه فى عودته من رحلة فى بوخارست، حيث قال له تشاوتشيسكو إنه يستطيع أن يثق فى مناحم بيجين، وبينما كان يتأمل السحب من نافذة طائرته، اتخذ قرار التوجه إلى القدس. مهما كان الأمر، يجب أن نعرف أن السادات قبل إعلانه القرار بستة أشهر، كان يبحث بالفعل عن تحرك متميز من أجل حل الصراع.

أندريه فيرساى: حاول جميع أعضاء الطبقة السياسية الذين كانوا حول السادات، أن يبتعدوا عن مشروع رحلته إلى القدس. وأنت بطرس بطرس غالى، الذى لم تكن جزءا من المقربين من الرئيس، قررت أن ترافقه. لماذا؟

بطرس بطرس غالى: «قررت»، هذا من باب تحميل الأمر أكثر مما يحتمل.. الأمور سارت بالطريقة التالية: فى ١٦ نوفمبر، بعد عدة أيام من الإعلان عن رحلة القدس، تلقيت مكالمة هاتفية حيث أُبلِغتُ أن حسنى مبارك نائب الرئيس يريد أن يرانى فى أسرع وقت. فتوجهت إلى مقر سكنه فى مصر الجديدة، حيث استقبلنى بلطف كبير. وشرح لى بدون مواربة ما هو المتوقع منى. «*الرئيس السادات معجب بكتاباتك العلمية والسياسية وهو يعرف العلاقات التى أقمتها فى المجتمعات الدولية. لذلك قرر أن يكلفك بمهمة غاية فى الأهمية، والتى يجب أن تظل سرية. أراد منك أن تعد الخطوط العريضة للخطاب الذى يجب أن يلقيه فى إسرائيل يوم الأحد المقبل*».

لك أن تتخيل المفاجأة، بل المفاجأة المضاعفة. وفى ذلك الحين فقط أدركت أن السادات سوف يتوجه حقيقة إلى القدس، وفى نفس الوقت، وجدت أنه أوكل لى مسئولية الخطاب الذى يجب أن يلقيه.

إعداد خطاب؟ ولكن فى أى مضمون؟ ما الذى يفكر فيه السادات؟ ما هى الرسالة التى يريد أن ينقلها إلى الإسرائيليين؟ حدد لى مبارك أن هذا الخطاب يجب أن يفهم منه أنه بادرة سلام، ولكن يجب ألا يفسر - بأى حال من الأحوال- بأنه تنازل عن الأراضى التى احتلتها إسرائيل منذ عام ١٩٦٧م، *كل الأراضى*، ويجب ألا يفسر بأنه تخلٍ عن القضية الفلسطينية. يجب أن أعترف بأننى تركت مبارك وأنا مضطرب للغاية.

بعد عودتى إلى المنزل بدأت أفكر: كيف يمكن لرئيس دولة أن يخاطب عدوه؟ بأى نبرة؟ كيف يعبر عن نفسه كرجل مؤمن بما يفعل، وفى نفس الوقت العمل على ألا يظهر فى ثنايا خطابه أى ضعف أو تخاذل؟ وماذا يمكن أن يقوله عن الماضى وأيضًا عن المستقبل؟ ومما زاد من شعورى بالانزعاج أنه لا يوجد خطاب مماثل يمكننى على الأقل أن أرجع إليه، حيث إنه، حسب معلوماتى، هذا الوضع لم يكن له مثيل من قبل. لذلك قضيت ساعات فى البحث فى كتب قانونية وفلسفية عن السلام: الوثائق التمهيدية لمؤتمر سان فرانسيسكو الذى شهد مولد الأمم المتحدة، مقدمة ميثاق الأمم المتحدة التى تتحدث عن الحرب وعن السلام، نصوص تاريخية حول القضية الفلسطينية، الكتابات الأساسية للزعماء الصهاينة مثل: هرتزل وحاييم ووايزمان وبن جوريون وبيجين، إلخ. لم أخرج منها بأى فائدة.

يومان كاملان قضيتهما فى صياغة الخطاب، تلقيت خلالهما العديد من الاتصالات من مكتب مبارك تحثنى على الانتهاء منه، وأن الرئيس فى حاجة له فورًا.

فى نهاية اليومين، رن الهاتف مرة أخرى؛ فى هذه المرة كان مبارك نفسه فى الناحية الأخرى من الخط. وبدأت أعتذر عن التأخير، ولكنه قاطعنى قائلاً: «*إننى لا أطلبك من أجل الخطاب. لقد تم تعيينك لتوك، بقرار رئاسى، وزير دولة للشئون الخارجية ووزير خارجية بالإنابة. وبهذه الصفة سوف تنضم إلى الوفد الذى يرافق الرئيس فى إسرائيل غدا، السبت*».

كنت أنتقل من دهشة إلى دهشة، وهو ما لم يساعد فى استرخاء أعصابى. وأخيرًا، أوشكت بصعوبة شديدة على الانتهاء من خطاب بدا لى مناسبًا. فى الساعة السابعة مساء بالضبط، دق على باب منزلى ضابط من الرئاسة وسلمته النص.

ها هى ذى الظروف التى قادتنى ليس إلى أن «أقرر» مرافقة السادات، كما قلت، ولكن لكى أنضم إلى الوفد الرسمى الذى سيذهب إلى القدس.

أندريه فيرساى: كيف كان رد فعل المحيطين بك؟

بطرس بطرس غالى: لنحدد أولا أن ترقيتى المضاعفة كانت بسبب استقالة وزير الخارجية إسماعيل فهمى، ووزير الدولة للشئون الخارجية محمود رياض، اللذان فضلا التنحى عن مناصبهما عن مرافقة السادات إلى إسرائيل. أما بالنسبة لردود الفعل، فكانت متناقضة، ولم يتوقف هاتفى عن الرنين. بعض الأصدقاء قالوا لى: «*لا تذهب إلى القدس! ستغتال مثل جدك!*».. والعديدون منهم اتصلوا بزوجتى ليا، وطلبوا منها إقناعى بالعدول عن المشاركة فى هذا الجنون. وآخرون، بالعكس، شجعونى على هذه المهمة التاريخية. ومن جهة أخرى، لم تدخر بعض الصحف وسعًا فى الهجوم علىّ: «*لأنه لم يوافق مسلم واحد على مرافقة السادات، فقد وقع الاختيار على بطرس غالى، القبطى!*».

قررت زوجتى مساندتى فى اختيارى، مهما كان. وأنا شخصيًا، كنت مصممًا على ألا أتخلى عن هذه المهمة. يجب القول إننى كنت متحمسا بشكل خاص للرهان غير العادى الذى تمثله هذه الرحلة، ولم أرد أن أتغيب بأى حال من الأحوال عن تلك التجربة. ولكن، كان هذا التحدى يهمنى بشكل خاص، لأنه يصادف قلق سياسى يكمن فى نفسى دائما، وهو قناعتى منذ زمن طويل أن القضايا الحقيقية التى يجب على مصر أن تحلها توجد، ليس فى الشرق مع إسرائيل، ولكن فى الجنوب مع السودان.

ولوقت طويل، حاربت من أجل أن تكف مصر عن اعتبار إسرائيل هاجسًا مسيطرًا عليها. قد لا يدرك الغرب، إلى أى حد لا تفكر النخبة المصرية فى السياسة الخارجية للبلاد إلا فى صلتها بإسرائيل. يكفى أن تفتح إسرائيل سفارة فى باراجواى حتى نشعر أن علينا نحن أيضا فتح سفارة فى باراجواى. كنت أقضى وقتى فى إلقاء محاضرات، ولاسيما فى الأوساط العسكرية، فى محاولة لإقناع المستمعين أن مشكلة مصر، ليست هى إسرائيل، وأن المشاكل الرئيسية التى على الدولة أن تحلها، لا تكمن مع جارنا فى الشرق، ولكن مع هذا الذى يقبع فى الجنوب. على أية حال، كنا دائما منذ أزمان سحيقة، نهتم بعلاقاتنا مع السودان أكثر من فلسطين. وحتى عام ١٩٥٥م، كانت السياسة المصرية تدور حول سيادة مصر على السودان، التى هى بوابة إفريقيا والطريق نحو منابع النيل الأبيض فى أوغندا، والنيل الأزرق فى أثيوبيا. والأمن القومى المصرى يمر عبر مياه النيل. وكما ذكر هيرودوت، مصر هبة النيل. ناصر هو الذى تخلى عن السودان، وهو ما يمثل بالنسبة لى خطأ جسيما.

أندريه فيرساى: الوفد المصرى طار إذن إلى القدس. هل كان وفدًا كبيرًا؟

بطرس بطرس غالى: نعم، نسبيًا. وهو ما ليس بلا دلالة تمامًا؛ مرافقة السادات إلى القدس كان دليلا على التضامن وحتى على الارتباط بشخص الريس، لأنه لا أحد يجهل أن الرئيس يخاطر بحياته.

أندريه فيرساى: كيف مرت الأمور خلال رحلة الطيران؟

بطرس بطرس غالى: أدهشنى هدوء السادات، الظاهرى على أى حال. لا شىء يكشف عن أنه على وشك إنجاز عمل ذى أبعاد غير عادية إطلاقًا. كان يجلس بهدوء كما لو كان يمضى رحلة طيران عادية، يتبادل الحديث والنكات مع صديقه رجل الأعمال عثمان أحمد عثمان. لقد أدهشنى كثيرًا هذا الترفع.

أتذكر أننى سألته إن كان راضيًا عن الخطاب الذى أعددته له. أجابنى: «*أه نعم، راضٍ تماما!*». ذلك أسعدنى بالطبع.

بعد ساعة من التحليق من الإسماعيلية، بدأت الطائرة الهبوط نحو مطار بن جوريون وظهرت أضواء تل أبيب عبر النوافذ. أبهذه السرعة؟ كل ذلك بدا لى لا يمكن تصديقه. وهكذا، كنا حقيقة فى طريقنا إلى الهبوط فى إسرائيل. فى عقر دار عدونا! ماذا أقول! فى هذه «الآفة غير المحتملة» التى غرزت فى العالم العربى والتى أردنا بكل ضراوة إزالتها منذ نحو ثلاثين عامًا. وها نحن! هنا، فى الطريق إلى الهبوط ببطء من الطائرة ويستقبلنا- حقيقة يستقبلنا! هذا الشعب الذى تعلمنا أن نكرهه منذ وقت طويل!

ظل السادات هادئا كما كان، لم يظهر عليه أية علامة من العصبية أو الانفعال خلال هذه اللحظة التى أدركنا بالفعل أنها تاريخية!

أتذكر الأضواء القوية التى انطلقت من مئات الكشافات، والتى عزلنا إشعاعها عن الحشد الذى يعيش حالة من الابتهاج، والذين كنا نسمعهم ولا نراهم. لقد كان الأمر فعلاً غير واقعى.

أندريه فيرساى: من هناك توجه الوفد إلى القدس. ماذا كان شعورك؟

بطرس بطرس غالى: كانت مراسم الاستقبال سريعة ووجدت نفسى بسرعة أجلس بجانب موشيه دايان، فى سيارة تقلنا إلى القدس. لقد حاولت عبثا أن أستعد نفسيا للقاء كبار المسئولين الإسرائيليين، ولقد انتابنى شعور فريد وأنا أجلس بهدوء بجانب الشخصية

الرمزيـة للجيش الإسـرائيلى، هـذا الذى كان القائـد الأعلى للقوات خلال حملة السـويس ووزير الدفاع خلال حرب الأيام الستة.

لم يكن سهلاً فى هذا السياق، مضغوطًا فى سيارة، أن أقيم حوارًا بدون أن يبدو مصطنعًا. ولأنـى كنـت أعـرف أن دايـان كان مغرمًـا بالآثار، بـدأت أتحـدث إليه عن بعـض عمليات التنقيـب، التـى أتيحت لى الفرصة أن أراها بفضل زوجتـى الأولى التى كانت متخصصة فى الآثار. وها نحن ننطلق فى حديث عن الآثار.

اقتربنا من القدس. لازلت أشـعر بالدهشـة لرؤية هذا الحشـد مـن المواطنين على طول الطريق يحركون الأعلام المصرية والإسـرائيلية، الأمهات اللاتى حملن أطفالهن إلى أعلى حتى يستطيعون رؤية قافلتنا تمر..

بعـد كسـر الثلـوج، تحدثت مع دايـان عـن اهتمامى الشـخصى، والعميـق، إزاء القضية الفلسـطينية، قضية أعكف على دراستها منذ وقت طويل، حيث إننى خلال عملى فى جامعة كولومبيا بنيويورك، ١٩٥٤ـ١٩٥٥م، خصصت هذا العام لهذه المشكلة. ويبدو أن الحديث عـن القضيـة لم يرق لمحدثى الذى بدا أنه لم يكن راغبًا على الإطلاق فى رؤية مصر تتدخل فى مشـكلة، فى نظـره، لا تعنيها على الإطلاق. فكرة أن القضية الفلسـطينية يمكن أن يكون لهـا أبعاد عربية وإسـلامية بدت له غير مفهومـة. وكان من الصعب عليه أن يفهم أنه رغم كل الاختلافات، فإن العرب متضامنون فيما بينهم، وأنهم، إزاء المأسـاة الفلسـطينية، يشـعرون بوحـدة حتمية ضد عدو غير مسـلم. «*هـل يمكن أن تتخيل أن بعض العـرب ما زالوا يبكون اليوم على سقوط الأندلس؟*» .. لا، من الواضح أنه لا يستطيع أن يتخيل ذلك!

أندريه فيرساى: أما زال هناك كثير من العرب يبكون على سقوط الأندلس؟

بطـرس بطـرس غالى: القليل، بالتأكيد، يبكون، ولكن الأسـطورة ما زالت حية. فنجدها فى الأشـعار، وأيضًا يقوم بترويجها بعض الأصوليين، سـأقص عليـك قصة طريفة: فى عام ١٩٥٥م، عقد مؤتمر عربى فى القدس. كنت عضوًا فى الوفد الذى يرأسـه الشـيخ الباقورى (شـخصية دينية لامعة وفى نفس الوقت تقدمية جـدًا ينتمى إلى فريق ناصر). وبصفتى رجل قانون، كنت مسئولاً عن صياغة القرار الذى كان يطالب باستقلال تونس والمغرب والجزائر. فجاءنى أحد الأصوليين وطلب منى أن أضيف الأندلس. أجبته فى حذر أن إضافة الأندلس سـوف يضعف من طلب الاستقلال للدول الثلاث الأخرى. فقال إنه لا يفهم: «*ماذا تريد أن تقول؟ هل لأن تلك المنطقة سلبت منّا قبل خمسة قرون يجب أن نتنازل عنها؟ إن الوقت لا يؤثـر فى القضية: إن العدالة مسـألة مبدأ*». فقلت لـه إنه قد يكون من الأفضل أن نتحرك على

مراحـل: *«لنبدأ بالقضية الأكثـر إلحاحًا، وهى الجزائر والمغرب وتونـس، وفى مرحلة ثانية نسـتطيع أن نكرس وقتنا للأندلس»*. ولكنه رفض أن يسـتمع إلىّ، يجب بأى شـكل أن نذكر الأندلس. تخيل الإحراج الذى كنت فيه. فذهبت لأرى الشـيخ الباقورى وأبلغته بطلب هذا الشـخص. فأجابنى أننى أنا المسـئول عن صياغة القرار وأنه علىّ أنا اتخاذ القرار. قابلت فى هذا الوقت دبلوماسيّا قديمًا، متمرسًـا فى هذا النوع من المشـاكل، وقصصت عليه القصة، فقال: *«اسـمع، عد لترى الشيخ واشـرح له أنك لن تذكر الأندلس. وبالطبع عندما تنتهى من قـراءة القرار، سيسـارع هذا المتطرف برفع يـده لكى يطلب الكلمة. ويجب على الشـيخ أن يتظاهـر بأنـه لا يراه ويصرح فـورًا بأن القرار قد حصـل على الموافقة»*. لقد سـارت الأمور بالضبـط كما قال. وبالطبع بعد الموافقة على القرار، جاء المدافع عن الأندلس ليرانى، وهو غاضب. وظللت أعتذر له بقولى إننى نسيت، ولكنى تعهدت بأن أصحح هذا الخطأ..

ألا تـرى إلى أى حد، تظل الأراضى التى فقدها العرب، راسـخة فـى الذاكرة الجماعية، تماما مثل العودة إلى القدس ظلت تستحوذ على ذاكرة اليهود الجماعية؟!

وللعـودة إلـى رحلة القدس، طلب منى دايـان، البراجماتى، أن أقول للسـادات ألا يذكر منظمة التحرير الفلسـطينية فى خطابه، لأن ذلك يمكن أن يضر بشدة بمناخ المصالحة الذى نريـد إقامته بيننـا. لم أجرؤ أن أجيبـه أن الخطاب الذى قمت بصياغته يذكـر منظمة التحرير عدة مرات.

وصلنـا إلـى القدس. كانـت القدس مغطـاة بأعلام مصريـة يحملها حشـد ضخم يهتف لنا. وجدت صعوبة شـديدة فى تصديق عينىَّ. فلم أر أبدًا ابتهاجًا شـعبيًا مثل هذا. أو مشاعر متدفقة مثل هذه. ونحن فى بلاد العدو!!

عنـد وصولنا إلى فندق الملك داود، اسـتطعت أخيرًا أن أتأمـل من نافذتى، تلك القدس التـى لـم أسـتطع أن أجوبهـا منـذ وقت طويـل. أمـام كل تلـك المنشـآت الجديدة التـى بناها الإسـرائيليون، والتـى بدلـت هـذه المدينـة التى كانت عزيـزة علينـا، وتسـاءلت إن كان من الممكـن إدمـاج القـدس قريبًا فـى العالـم العربى.. كان من الصعـب علىّ أن أعى ما رأيته. وما كنت أمر به!

فـى اليـوم التالى اسـتيقظنا مبكـرًا وتوجهنـا إلى المسـجد الأقصى حيث أراد السـادات والمقربـون منـه إقامـة الصـلاة. لم يسـعنى إلا أن أفكر فـى الملك عبـد الله ملـك الأردن، والـذى اغتيل فى نفس هذا المكان قبل ٣٠ عامًا بيد الفلسـطينيين الذيـن اتهموه «بالتعاون» مع الإسـرائيليين. ألم يكن الوضع فى تلك اللحظة مماثلاً؟ السـادات، أليس هناك خطر بأن

يغتال هو أيضًا، ولنفس الأسباب؟ وعندما رأيت إجراءات الأمن الضخمة، قلت لنفسي إن نفس الفكرة مرت بذهن الإسرائيليين. ومع ذلك، فعند خروجنا من المسجد، رأينا بعض المجموعات الفلسطينية يظهرون استنكارهم بلا مواربة.

توجهنا فيما بعد إلى ياد فاشيم، وهى محطة إجبارية لكل ضيف مهم يقوم بزيارة رسمية فى إسرائيل. فى هذا المكان الذى كرس لذكرى ضحايا الإبادة الجماعية اليهودية، لم يظهر على السادات أى تأثر. ورفض ارتداء الطاقية اليهودية، وهو ما سمح لى بأن أفعل نفس الشىء.

أندريه فيرساى: كيف تفسر الاستقبال الذى لا يصدق للشعب الإسرائيلى؟ لقد تلقى السادات ترحيبًا لم يحلم به أى رجل دولة آخر، حتى لو كان الأكثر شعبية فى العالم؟!

بطرس بطرس غالى: لأن الإسرائيليين حلموا دائما بالسلام مع مصر. أعتقد أن مصر تحتل مكانة خاصة فى المخيلة الإسرائيلية؛ ففى التوراة، مصر تلعب دورًا كبيرًا. ولكن بالطبع، هناك أيضا أسباب عقلانية، جيوبوليتيكية. لا أريد أن أقلل من شأن التلقائية الشعبية الإسرائيلية، ولكنى أعتقد أن تحت هذا الحماس الكبير يكمن الأمل فى أن إقامة السلام المنفصل معنا، سوف يجنب إسرائيل كل حرب فى المستقبل. أتذكر كلمات كيسنجر: «*بدون سوريا، لن يكون هناك سلام فى الشرق الأوسط، ولكن بدون مصر، لن يكون هناك حرب..*».

شيمون بيريز: على أية حال، فإن الشعب الإسرائيلى فى أغلبيته الساحقة كان يتطلع إلى السلام. هذا الحماس الهائل يفسر أيضا بتأثير المفاجأة؛ فلم يتخيل أحد فى بلادنا مبادرة مماثلة من زعيم أول دولة عدو لإسرائيل. مع دولة نعيش معها فى حالة حرب منذ ٣٠ عامًا وخضنا معها أربعة حروب. وها هو عدونا اللدود يأتى إلينا ليعرض السلام. لقد هز خبر زيارة السادات قلب كل الإسرائيليين. وعندما ظهر السادات، يوم ٢١ نوفمبر، من باب الطائرة، وبدأت الفرقة الموسيقية العسكرية الإسرائيلية تعزف السلام الوطنى المصرى، كتمت إسرائيل كلها أنفاسها. كان من الصعب على العيون أن تحيد عن وجه الرئيس المصرى. لم يكن من الممكن أن يصدق الإسرائيليون عيونهم: «*ماذا؟ إنه هو؟! حقيقة هو؟ هنا؟! فى بلدنا؟!*» حتى الصحافة الأكثر إمعانًا فى التحليلات فوجئت بالموقف. لم يكن هناك أى شخص بإمكانه النظر إلى الموقف من بعيد بحيث يستطيع أن يقوم بتحليل دقيق له. قلنا إن السادات بمجيئه إلى القدس كسر كل المحرمات العربية، هذا صحيح، ولكن بشكل ما قام أيضًا بقلب المحرمات الإسرائيلية، وبالأخص بدد الأحكام المسبقة الأكثر حدة.

أندريه فيرساى: سمعنا البعض فى إسرائيل يتخوفون من «عملية ملتوية»: فبدلاً من الرئيس المصرى والوفد المرافق له، ستحمل الطائرة التى ستهبط فى تل أبيب فرقة كوماندوز

انتحارية، مهمتها التخلص من النخبة السياسية الإسرائيلية التى ستكون موجودة فى كامل هيئتها على أرض المطار.

شيمون بيريز: لقد ترددت هذه الأقاويل بالفعل، ولكن بصراحة، لا أعتقد أن عددًا كبيرًا شارك هذه المخاوف، لأن الجميع كان يعلم أن هذه المبادرة اتخذها السادات شخصيًّا وهو وحده، ضد رأى كل الزعماء العرب وضد رأى موسكو.

أندريه فيرساى: توجه الوفد المصرى بعد الظهر إلى الكنيست حيث سيلقى السادات خطابًا تاريخيًّا.

بطرس بطرس غالى: نعم، هناك، بعد تقديم قصير قام به إسحق شامير، رئيس الجمعية الوطنية، طلب من السادات أن يأخذ الكلمة. توقعت بالطبع أن يلقى الخطاب الذى كنت قد أعددته له، ولكن فى مفاجأة كبيرة لى، ألقى بالعربية، خطابًا جميلاً جدًّا، ملىء بالمشاعر، ولم يستخدم أى من العناصر أو الأفكار التى كنت قد قضيت يومين كاملين فى صياغتها. وفى الحقيقة، طلب السادات من شخصين آخرين إعداد الخطاب، وفى النهاية ألقى النص الذى أعده موسى صبرى، رئيس تحرير *الأخبار*، إحدى كبرى صحفنا اليومية.

لقد أكد السادات بكل حزم على قراره بالحصول على كل الأراضى التى احتلتها إسرائيل، بما فيها القدس الشرقية، مقابل السلام. لقد كان خطابًا براقًا وعبقريًا، وبلا شك، تاريخيًّا.

بعد الانتهاء منه، وقف بيجين، وألقى بدوره خطابًا كان واضحًا أنه كان مرتجلاً، وبلا ملامح واضحة. كان فيه شيئًا صلبًا، ضيق الأفق، غير ملائم للظرف الاستثنائى الذى كنا نعيشه. ومن الواضح، أن الرأى العام العالمى كان لديه نفس الانطباع. يمكن القول إذن، إن هذين الخطابين كانا، بالطبع، وقبل كل شىء، موجهين إلى الرأى العام فى بلدينا.

أندريه فيرساى: يبدو أن هذا الخطاب أدهش الإسرائيليين. قص عيزرا وايزمان فيما بعد، أنه أثناء استماعه إلى السادات، أرسل بورقة إلى رابين قال له فيها إنه يجب جديًا التفكير فى تعبئة جنود الاحتياطى. ما الذى لم يعجب الطبقة السياسية الإسرائيلية؟ وأى نوع من الخطب توقعته؟

شيمون بيريز: أشياء عديدة ضايقتنا، بداية، للأهمية الكبيرة التى أعطاها السادات لإقامة الدولة الفلسطينية. مع ذلك، فقد فهمنا تماما، كما قال بطرس حالاً، أن خطابه كان موجها أيضًا وقبل كل شىء إلى العرب. ولكن فيما وراء الصلابة فى الخطاب، فقد كانت فكرة أن يكون لزعيم أول دولة عدو لإسرائيل، الشجاعة لأن يأتى حتى القدس ويلقى خطابا فى

الكنيست، ضد الرأى الجماعى للعالم العربى، هو موضع الأهمية. لقد أخذ الرجل مخاطرة جسيمة، ولم يكن من الممكن أن يترك مكانًا لأى التباس، حتى لا يعتبر خائنا للقضية العربية. ذلك فهمه الجميع. والدليل، أنه، على عكس التقاليد المعمول بها فى الكنيست، والتى لا تسمح بالتصفيق، قوبل الخطاب بتصفيق حاد من قبل كل أعضاء المجلس.

أما بالنسبة لبيجين، فلم يقم بإعداد خطابه، ولذلك ألقى خطابًا، أشارك بطرس الرأى فى أنه، كان ضعيفًا جدًّا، ولا يصل إطلاقًا إلى مستوى الموقف. لأنه، كما كان خطابًا مرتجلاً، تم صياغة الترجمة الإنجليزية «الرسمية» على عجل، مما أعطى مضمونًا أكثر ضعفًا. باختصار، لم نكن فخورين جدًّا بالرد باستجابة رئيس وزرائنا.

بطرس بطرس غالى: رغم كل الظروف، هبط الحماس. من الواضح أن السادات، كان مستاء جدا من خطاب بيجين: لقد اختار المصرى أن يسجل نفسه فى سجل الخطب التاريخية الكبرى، بينما رد عليه الإسرائيلى بطريقة سطحية وبراجماتية. فلا الشكل ولا المضمون كانا على مستوى الحدث الذى أراد السادات أن يخلقه. واعتبر السادات ذلك بأنه قلة احترام، وعدم فهم لمبادرته. فعندما لم يضع بيجين نفسه على المستوى، عمل على تسطيح الحدث بشكل ما.

بالنسبة للسادات، كان يجب أن تقوم هذه الرحلة بكسر الحواجز النفسية ثم السياسية التى كانت تفصل بين الإسرائيليين والمصريين. وكان من المفروض أن تصل إلى هذه النتيجة، ليس من خلال محاولات تقارب متتابعة، ولكن من خلال نوع من التحول فى الوضع من شأنه أن يقوم بتأثير الصدمة الكهربائية. أما ما يأتى بعد ذلك، لن يكون إلا تفاصيل يتم تسويتها بين الخبراء.

شيمون بيريز: لقد تصور السادات أن الصراع بيننا كان مسألة نفسية أكثر مما هى مسألة حدودية. لقد كان أحد هؤلاء الرجال الذين لم يفقدوا تماما براءة الطفولة. ذكى جدا، قادر على الحكم جيدًا على الأشخاص، ولكنه ظل فى نفس الوقت، حالما. ولأنه كان كريما، فقد توقع أن يبادله الآخرون كرما بكرم. أتذكر قوله لى فيما بعد، فى عام ١٩٧٨م، فى أثناء حوارنا فى فيينا: «*هيا يا شيمون، كن أكثر كرما فى تعاملك. قدمت لفتة، فسوف أرد عليك بسبع لفتات*».

بطرس بطرس غالى: فى المساء، كان العشاء الذى أقيم على شرفنا، مغلفا بالبرودة. قام وايزمان بجهد من أجل تخفيف التوتر فى المناخ، فكان يسرد قصصا طريفة ويطلق النكات. ولكن بلا نتيجة: فقد جلس السادات وبيجين جنبا إلى جنب، ولم يتبادلا كلمة واحدة. شعر

أعضاء الوفد المصرى، وأنا بشكل خاص، بأنه من الضرورى جدا أن نحاول إنقاذ الموقف. فلم يكن من الممكن أن نعود إلى القاهرة وقد فشلنا. فى هذا الوقت اقترح علىّ مصطفى خليل، سكرتير عام الاتحاد الاشتراكى الحاكم فى مصر، دعوة وايزمان فى أحد أجنحتنا بالفندق حتى نحاول التقريب بين وجهات نظرنا. لقد كنت موافقا بالطبع واقترحت على يادين أن ينضم إلينا.

أندريه فيرساى: ألم تدعو دايان؟

بطرس بطرس غالى: لا، لأن دايان بدا لى رجلاً معقدًا جدًّا، ومغلقًا جدًّا على نفسه بصورة لا تتناسب مع هذه المحاولة الأولى لتدفئة العلاقات. وايزمان ويادين بديا لى بالتأكيد، أكثر انفتاحا وودًا.

لقد فكرنا أن إقامة اتصالات شخصية مباشرة يمكنها أن تكسر الارتياب المتبادل. من ناحيتى، أردت أن أقنع محدثى بصدق مسعانا. وأكثر من ذلك، باحتياجنا للسلام. وهكذا، وعندما بدأ وايزمان الحديث عن القاهرة التى عرفها خلال الحرب العالمية الثانية، عندما كان قائدًا جويًا فى القوات الجوية الملكية البريطانية والتى احتفظ منها بذكريات جميلة، أجبته قائلاً: «*هل تعرف أن القاهرة لم تعد هذه المدينة الراقية - والتى كانت أوروبية إلى حد ما - التى عرفتها. اليوم هى عاصمة كبيرة مزدحمة بالسكان، تحمل كل المشاكل المتوطنة فى المدن ذات الكثافة السكانية العالية: تزايد مستمر فى السكان، مشاكل اقتصادية جمة، فقر، بطالة، عدم أمان، إلخ. وأضفت، لهذا السبب، فنحن فى حاجة ملحة إلى السلام؛ حتى نستطيع أن نكرس أنفسنا لحل مشاكلنا*».

أندريه فيرساى: وهل نجحت فى إقناع الوزيرين الإسرائيليين؟

بطرس بطرس غالى: نعم. انتهى لقاؤنا فى الساعة الثانية صباحًا، وأعتقد حقًا أن هذه المناقشة الطويلة على غير ميعاد حول كأس من الويسكى قد حددت البداية الحقيقية لعملية مفاوضات السلام بين بلدينا. وعلى أية حال، بيننا نحن الأربعة، تبدد الحذر بصورة كبيرة.

لقد أراحنا كثيرًا تفاؤل وايزمان المتحمس، وفى اليوم التالى، جعله مصطفى خليل يلتقى مع السادات. وبسرعة جدًّا تفاهم الرجلان. لقد كان فى وايزمان شيئًا ما، قريب من الشخصية المصرية التى يحبها السادات، الذى كان، قبل رحلة القدس، يعتبر الجنرال من الصقور. ولقد استمر الرجلان يكنان لبعضهما الكثير من التعاطف.

وبالعكس، شعر السادات بجاذبية أقل نحو دايان. فقد كانت شخصية هذا الأخير، والتى تحمل الكثير من الغموض، والحساسية، لم تعجب إطلاقا الرئيس الذى كان يفضل العلاقات الصريحة والودية. ومن البداية، أراد دايان الحديث عن تحديد الموضوعات، ووضع إطار من العمل، ومراحل مفاوضات، وجدول زمنى. ولكن السادات أجابه فورًا أنه جاء لكى يتحدث عن الأهم ليس لكى يضيع الوقت فى سلسلة من التفاصيل.

شيمون بيريز: صحيح أن السادات لم يكن الرجل الذى يهتم بالتفاصيل؛ ما كان يهمه، هو أن يرى الأشياء فى صورتها العريضة والكبيرة. وبالفعل، كانت علاقته مع دايان صعبة إلى حد ما. أتذكر قصة تعبر جيدًا عن الصورة التى شكلها الرئيس المصرى عن موشيه: بعد رحلة السادات إلى القدس، طلب منى دايان فى محاولة لتحسين علاقتهما أن أتصل بالسادات لكى أتعرف على مشاعره نحوه. فالتقيت بالسادات وأعربت له عن دهشتى من طريقته إزاء دايان. وبعد أن استمع إلىّ بهدوء، نفث السادات دخانًا كثيرًا من غليونه، وقال لى: «*بصراحة، شيمون، هل رأيت موشيه دايان من قبل، يدرس مشكلة ولا يجعلها أكثر تعقيدًا مما كانت عليه فى البداية؟*».

بطرس بطرس غالى: كنت أعرف أن دايان كان سيسبب لنا المتاعب، ولكنى لم أجهل أهميته ودوره فى قلب حكومة بيجين. ولذا حاولت استغلال طريق العودة نحو المطار من أجل أن أقنعه بضرورة السلام الشامل فى المنطقة. ولكن كان واضحًا أن دايان أراد أن يتوصل بسرعة إلى سلام منفصل مع مصر، أكثر مما أراد أن يجد حلاً شاملاً للصراع الإسرائيلى العربى، يتضمن بالطبع حل القضية القومية الفلسطينية. كما أنه لم يترك فرصة يذكرنا فيها بعزلتنا: «*لا السوريون ولا الأردنيون ولا الفلسطينيون، لن يوافقوا حتى على مبدأ التفاوض. فبأى حق تزعم أنك تتحدث أيضًا باسمهم؟*» لم أستطع بالطبع أن أنكر صحة كلامه فى تلك النقطة المحددة، ولكنى حاولت أن أشرح له أنه إذا استطاعت إسرائيل أن تكون شريكًا حقيقيًا فى إقامة بناء من السلام الإقليمى، فنحن المصريون، سنجد الفرصة كلها لإقناع الدول العربية الأخرى إلى الانضمام إلينا. فقبل كل شىء، مصر كانت فى قلب حركة القومية العربية، والقاهرة، هى العاصمة التى نشأت فيها جامعة الدول العربية. وبصفتها تلك لها تأثير كبير. من الواضح أن دايان لم يقتنع.

* * *

١٢ـ سـلام كامـب ديفيـد

«الاعتـراض علـى هـذه الخيانة للعالـم العربى ! » ـ «باسـتثناء بعض التفاصيل، كل شـىء تـم تسـويته!» ـ السياسـة الجديدة للقاهـرة ـ «قريبًا لن يسـاند أحد مصـر» ـ المفاوضات الإسـرائيلية المصريـة تتعقـد ـ مولد حركـة «السـلام الآن» ـ كارتر يحاول القيـام بتحرك الفرصـة الأخيـرة ـ الحياة اليومية فى كامـب ديفيد ـ شـخصيات المتفاوضين ـ «وايزمان لا يمكن أن يكون يهوديًا، إنه شـقيقى الأصغر!» ـ تباين حاسـم بين بيجين ودايان ـ «بدأنا نشـعر وكأننا فى معسـكر اعتقال!» ـ السـادات يعلن مغادرة وفده ـ المفاوضات من زاوية نفسـية ـ «لماذا تراجعت؟ إنك لم تعد عند موقفك فى البداية! ـ توقيع اتفاقيات السـلام ـ خيبة أمل فى الرباط ـ جدال مرير فى إسـرائيل ـ تفكيك مروع لمسـتوطنة ـ أى حكم ذاتى للفلسطينيين ـ خيار «غزة أولاً» ـ إعادة بناء المستوطنات ـ «مفاوضات الحكم الذاتى» ـ «نوبل لبيجين؟ ولكن كيف، إنه يسـتحق الأوسـكار..» ـ «لقد تخليت عن الفلسـطينيين!» ـ جدال فى مجلس الشـعب ـ مقاطعة عربية، ولكن مسـاندة مالية أمريكية ـ ثوابت اليمين فى الحكومة الإسرائيلية الجديدة ـ اغتيال السادات ـ السلام الهش ـ السلام البارد ـ ناصر والسـادات، رؤيتان للعالم العربى.

أندريه فيرساى: كيف كان شعور العرب إزاء رحلة السادات إلى القدس وخطابه فيها؟

بطـرس بطرس غالـى: لقد أدانت الدول العربيـة ومنظمة التحرير رحلة السـادات، وقام كل من الأسـد وعرفات بتوجيه نداء إلى الشعب المصرى لكى «*يعارض هذه الخيانة للعالم العربـى*»؟ لـم يجر تعليق علـى الخطاب نفسـه؛ ولكن أصابت هـذه الرحلة العالـم العربى بصدمـة. لـم يكن الاهتمام بفحـوى الخطاب، ولكـن المهم هو أن الرئيس السـادات ذهب إلى العدو، والأنكى من ذلك إلى القدس. وعلى الفور، اعتبرت هذه الرحلة كمقدمة لسلام منفصل: «*ها هى مصر تتخلى عن العالم العربى!*».

شيمون بيريز: لست متأكدًا أن التأثير كان بهذا الشكل السلبى الذى تشير إليه. فقد تم نقل الخطاب مباشرة وبالكامل على جميع موجات العالم العربى، وكان له تأثير إيجابى حقيقى على الشعوب. لقد كان لى فرصة متابعة هذا التأثير بنفسى فيما بعد، عندما ذهبت إلى المغرب: هناك، وبينما كنت أجلس فى إحدى مقاهى الرباط، رأيت نحو عشرة مواطنين مغاربة يتوجهون نحوى، فقد تعرفوا علىّ بعد مشاهدتى على شاشات التليفزيون. وأؤكد لك، أن سلوكهم معى لم يشوبه أى عدوانية، بل على العكس، كانوا راغبين ومهتمين بلقائى، إلى حد أن بعضهم صفق لى.

أعتقد أن علينا التميز ما بين الخطاب الرسمى الذى يدين مبادرة السادات، والحركات التلقائية للشعب التى وجدت فيها وعودًا بالسلام.

بطرس بطرس غالى: لا أريد أن أدخل فى جدال، ولكنى بصراحة، لا أعتقد أنه كان هناك فى هذه اللحظة، فى العالم العربى، حركة واحدة مهمة تؤيد السلام. إننى أريد فعلا أن أصدق أن المغاربة كانوا سعداء بمقابلة شخصية إسرائيلية مشهورة. إن ذلك واضح. تقول إنهم صفقوا؟ ولكنهم صفقوا لك، لأنك جئت إلى الرباط. وذلك ليس له علاقة بأى حركة من أجل السلام.

أعتقد أنه يجب علينا التمييز بين الأشياء. فباستثناء أقلية صغيرة جدًّا، كان كل العالم العربى مصدوما بهذه الزيارة، فقد شعر الجميع بالخيانة. لقد سمعت خلال مؤتمر صحفى من يقول: «*ولكن فى النهاية، مصر هى أم العالم العربى، وها هى تترك أبناءها من أجل أن تعيش مغامرة مع رجل غريب!*» فى الحقيقة، فى تلك اللحظة، العالم العربى لم يكن مهيئًا لبدء عملية سلام. فقط أبناء وطنى كانوا مستعدين لذلك. ولكن مرة أخرى، ليس الجميع.

أندريه فيرساى: لنعد إذن إلى مصر: عاد الوفد إلى القاهرة، كيف تم استقباله؟

بطرس بطرس غالى: كانت مصر تعيش فى فرح، واعتبر السادات بطلاً، لأن السلام أعلن ونتائجه ستؤدى إلى تحقيق الاستقرار والتنمية والرفاهية فى مصر.

ومع ذلك، فإن جزءًا من الشعب بقى معارضا بشدة للرحلة. هذه المعارضة ضمت – فى نفس الوقت – الأصوليين الذين لا يريدون قبول فكرة وجود دولة يهودية على أرض عربية، والناصريين، الذين رأوا أن السادات بهذا التحرك الذى قام به تجاه إسرائيل، قد قطع الصلة مع سياسة سلفه، وأخيرا الشيوعيين، لأن الاتحاد السوفيتى لم يشارك فى هذه المبادرة. ولكن الأصوليين والناصريين والشيوعيين، كانوا «حلفاء غاية» من أجل المناسبة، كانوا

هم النشطاء الأكثر تحركًا والأكثر ضوضاءً. وهم الذين نسمع ونقرأ لهم فى معظم الأحيان. ثم كانت هناك تصريحات الحكومات العربية التى تمسكت برفضها، نسمعها فى الإذاعات وعلى شاشات التليفزيون.

بجانب من اعتبروا السادات خائنًا، آخرون أكدوا لنا أن هذا التحرك لن يؤدى إلى شىء. حتى نحن، الذين رافقناه فى رحلته، لم نكن واثقين تمامًا بأن الخطوة الأولى هذه تسير فى الاتجاه الصحيح. وخصوصًا وأننا وجدنا أنفسنا أمام رئيس يعلن لنا بكل ثقة أنه *«تم حل كل شىء»*، وأنه لم يتبق إلا مناقشة بعض النقاط التفصيلية. من الواضح أنه لم يكن مدركا لحجم المشكلات الفنية والعسكرية وغيرها التى كان ينبغى حلها من أجل التوصل إلى السلام.

شيمون بيريز: السادات لم يكن أبدا تكنوقراطيًا، ولم يكن بيروقراطيًا. لقد كان رجلاً ذا رؤية، ينتقل بسهولة مذهلة من رؤية سياسية إلى أخرى. أراد أن يظل مترفعا عن الأمور الجارية، وأن يحتفظ بنقاء الذهن حتى يستطيع التفكير فى القرارات الكبرى التى كان يتخذها وحده، وصياغة مقترحات، بالتأكيد، لم يفكر فيها الآخرون، كما كان لا يترك فرصة لمفاجأة المحيطين به. هذا الترفع عن المسائل اليومية الملموسة نلاحظها فى الطريقة التى كان يتصرف بها. فهو لا يقرأ كثيرًا الصحف، وعلاقته مع السياسيين المحيطين به كانت إلى حد ما فضفاضة: كان يذهب للتريض مع بعض مستشاريه الذين يترك لهم مسئولية الشئون العامة، والذين كانوا يقدمون له التقارير عن أعمالهم. هكذا، حدد بوضوح الأدوار بينه وبين نائبه حسنى مبارك: مبارك مسئول عن الأمور الجارية، بينما هو ينظر إلى الأشياء فى صورتها الكبيرة ويأخذ القرارات التى يرى أنها أساسية لمستقبل البلاد.

بطرس بطرس غالى: لك أن تتخيل، كيف أن ذلك لم يسهل عمل طاقمه.

عند عودتنا إلى القاهرة، اقترحت على الرئيس أن يرسل وفودًا إلى مختلف العواصم العربية من أجل شرح وجهة نظرنا، ولكنه اعترض على الاقتراح. وطوال فترة المفاوضات، كان السادات يرفض إعطاء أية تفسيرات إلى الدول العربية. ما السبب، لا أعرف. ربما تصور أن التقرب من بعض الدول العربية قد يعقد المباحثات التى بدأت بصعوبة جدا. أو ربما كانت طريقته لكى يظهر لإسرائيل كم يكلفه تحركه هذا نحو السلام؛ لقد كان يريد أن يؤكد للإسرائيليين الذين يزعمون أن كل التنازلات تأتى منهم، حجم التضحية التى رضت مصر أن تقوم بها، بما إنها باتت معزولة.

شـيمون بيريـز: ربما لم يكن فى ذهن السـادات أى نوايا مبيتـة، وكان يقدر فقط أن مصر قـد ضحت بمـا فيه الكفاية من أجل «القضيـة العربية»، بينما فى النهاية، لم يسـاعدها العالم العربى كثيرًا.

يجب أن نذكر أن فى حرب ١٩٤٨م، رأى عدد من كبار المسئولين المصريين ضرورة ألا تشـارك مصر فى الهجوم العربى ضدنا. كان ذلك هو رأى رئيس الوزراء إسـماعيل صدقى. والحـق يقـال إن الحملة الفلسـطينية التـى قامت بها مصـر، كلفت القاهرة كثيـرا من الناحية البشرية وأيضًا من الناحية الاقتصادية والمالية والعسكرية. ورغم ذلك فإن العالم العربى لم يعترف حقيقة بالدور الأساسى الذى لعبته مصر فى هذه الحرب من أجل فلسطين.

ومـع ذلـك، فـإن تحالف مصر مع دمشـق لم يمنـع علاقتهما مـن أن تظل، أقـل ما يقال عنهـا، إنها غامضة، حيث إن العاصمتين ظلتا متنافسـتين، ولقـد رأينا ماذا حدث فى محاولة الوحدة.

أعتقـد أن السـادات قدر أن مصر، فى متابعتها سياسـة العالم العربـى العامة، دفعت ثمنا أعلـى بكثيـر بجميع المقاييس، وأنه أراد أن يمنح بلده قوتها ومكانتها الأصلية على السـاحة الدولية عن طريق تطوير سياسة تكون مصرية أكثر منها عربية.

أندريه فيرساى: من بين الأسباب التى دفعت السادات إلى البحث عن سلام مع إسرائيل، يمكن أن نذكر أيضًا الوضع الاقتصادى فى مصر فى عام ١٩٧٧م، والذى لم يكن مبهرا.

بطرس بطرس غالى: كان الانفجار السكانى هو السبب فى توقف الاقتصاد المصرى عن النمو منذ عدة سنوات. ولكن صحيح، لقد شهدنا مظاهرات ضخمة ضد ارتفاع الأسعار فى يناير عام ١٩٧٧م. هل أثارت هذه الحركات الشعبية قلق النظام، وهل دفعت السادات لكى يحاول إيجاد حل وسـط مع إسـرائيل من أجل تخفيف الميزانية العسكرية وإعطاء الاقتصاد دفعـة؟ قـد يكون ذلك أحد العوامل التى نسـتطيع أخذها فى الاعتبـار، لأن حرب أكتوبر فى النهايـة لم تؤد إلـى تقدم فى الاقتصاد المصرى، ومنذ أربع سـنوات يقف الوضع السياسـى الإسـرائيلى المصـرى محلـك سـر. أعتقد أن هـذا الجمود الـذى لا يصدق، هـو الذى دفع السادات إلى البحث عن مبادرة قوية قادرة على أن تدفع الأمور إلى الأمام، ليس «بخطوات صغيرة» ولكن بخطوات عملاقة، ولذلك أطلق هذه الفكرة الباهرة التى هى بحجم شخصيته صاحبة الرؤية.

كان دورى، كحلقة اتصال، أن أشرح تحركنا هذا إلى الحكومات الأجنبية، العربية والإفريقية والأوروبية والآسيوية. كان علينا أن نكون واضحين تماما أمام الدول الصديقة مثلما كان يجب أن نكون أيضا أمام الدول المعادية. لذا، بدأت فور عودتنا فى تنظيم سلسلة من اللقاءات مع المجتمع الدبلوماسى الذى قسمته إلى مجموعات جغرافية: الدول الإفريقية، الدول العربية، دول أوروبا الغربية، دول الكتلة السوفيتية، الدول الآسيوية، إلخ.

يجب أن أقول إن الأمور سارت جيدًا فى مجمل هذه اللقاءات. واهتم الدبلوماسيون بها اهتماما حقيقيا؛ ففى النهاية، كنا نحاول إطلاق عملية سلام، إن نجحت، فسوف تعم فوائدها الجميع.

أندريه فيرساى: بلا شك، ولكن فى هذا الوقت، أبدى عدد قليل من الدول استعداده لمساندة مصر؛ فبالإضافة إلى الدول العربية ودول عدم الانحياز، وقف العديد من دول أوروبا الغربية ضد مبادرة السادات. وبشكل خاص فرنسا: الرئيس جيسكار ديستان أظهر برودة شديدة.

بطرس بطرس غالى: حقيقى، فقد كانت فرنسا، مثل سائر دول أوروبا الغربية، ضد هذه المبادرة التى عملت على تهميش دور أوروبا. ولأننا شرعنا فى العملية بدون الأوروبيين أو السوفييت، الذين لم يتم حتى إبلاغهم بها، فقد شعروا باستياء شديد وتعاملوا مع مبادرة السادات ببرود شديد. ولكن المسألة لم تكن تتعلق فقط بالكرامة الدبلوماسية، إذ كان الشعور السائد بشكل شبه جماعى، هو أنها مغامرة بلا مستقبل. وهذا التشكك تناقض مع الصدى العالمى الشعبى الذى أثارته مبادرة الرئيس المصرى، فيمكن القول إن التقليل من الأحداث التاريخية أثار مثل هذا الاهتمام، ومثل هذا الحماس فى أنحاء الكون.

فى البداية، حتى الأمريكيون لم يقدموا مساندتهم الكاملة لنا. فخصومنا أبدوا تصميما متزايدا، وحلفاؤنا فقدوا هذا التصميم تدريجيا. وبسرعة، بدأت السفارات تبتعد عن مصر: الدول العربية والدول الإسلامية، والدول الشيوعية، والأوروبيون والأفارقة.. باختصار، بعد مضى وقت قصير لم تجد مصر أحدًا يساندها فى مبادرتها.

ورغم ذلك، لم يبد السادات أى قلق. وكان يقول لى دائما: «*لا تخف، يا بطرس، ودع لديك ثقة!*».

حتى دول عدم الانحياز، مثل يوجوسلافيا، ابتعدت عنا. عندما التقيت مع تيتو، رئيس حركة عدم الانحياز، فى بلجراد فى يناير عام ١٩٧٨م، قال لى إنه على ثقة تامة بأن إسرائيل

ليس لديها أية نية فى التوصل إلى اتفاق سلام شامل مع العرب، حيث إنها ترفض الاعتراف بالشعب الفلسطينى وبحقه فى تقرير المصير. كان تيتو يرى أن المقدمة الأساسية لأى عملية سلام هى الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. وصرح لى قائلاً: إن إسرائيل، فى حقيقة الأمر، لا تسعى إلا إلى إضعاف الجانب العربى عن طريق التوصل إلى سلام منفصل مع عدوها الأقوى. إن إسرائيل تملك التفوق العسكرى، وتساندها واشنطن، وتحتل جزءًا من مصر، والسادات يقدم لها الآن الفرصة لكى تعمل على تعميق الانقسام بين العرب.. وأضاف قائلا: «*سوف تعزلون أنفسكم عن العالم العربى ولن تحصلوا على شىء من الإسرائيليين لأنكم ستكونون فى موقف ضعف. ولن تستطيعوا أن تتفاوضوا معهم إلا من موقف قوة*». لذا بدا مشروع السادات الذى قسم العالم العربى (والذى سيضر، على المدى القصير، بجبهة دول عدم الانحياز) خطيرًا على مستويين.

كانت رؤية تيتو تسترشد بأيديولوجية العالم الثالث للدول المستعمرة: هذه الأيديولوجية التى تؤمن أن القوة فقط هى التى تستطيع تحريك الشعوب ضد الدول الاستعمارية. ولكن السادات كان فى صف السياسة الواقعية، وتخلى عن أية رؤية أيديولوجية للصراع الذى أراد أن يجد له حلاً بطريقة عملية. لقد حاولت كثيرًا إقناع تيتو بأهمية مبادرة القاهرة، ولكن بلا جدوى.

أعترف أن هذه المناقشة مع الزعيم اليوجوسلافى التى استمرت ما يقرب من ساعتين، أثارت اضطرابى. وماذا إن كان على حق .. ونحن نسير فى الطريق الخطأ؟ مهما كان الأمر، بدا لى واضحًا أن مصر كانت على وشك أن تعزل نفسها، ليس فقط عن المعسكر العربى، ولكن أيضًا عن معسكر عدم الانحياز.

أندريه فيرساى: لأن السادات سيواصل الحركة..؟

بطرس بطرس غالى: نعم، فقد قرر السادات أن ينظم اجتماعًا «غير رسمى» فى القاهرة من أجل الإعداد لاستئناف مؤتمر جنيف لعام ١٩٧٣م والذى مازال أحد أهداف الدبلوماسية المصرية. فى الحقيقة، عقد مؤتمر جنيف حول الشرق الأوسط قبل أربع سنوات فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٧٣م، تحت رعاية سكرتير عام الأمم المتحدة وتحت الرئاسة المشتركة لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. ولم ينعقد مرة أخرى منذ ذلك الحين، ولكنه ظل رمزا لمشروع التسوية الشامل.

لذلك وجهت فى ٢٦ نوفمبر عام ١٩٧٧م رسالة إلى كل من سوريا والأردن ولبنان والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والأمم المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية

وإسـرائيل (نفـس الرسـالة للجميع)، أقتـرح عليهم عقـد مؤتمر فـى القاهـرة للتمهيد لقمة جنيف. شـرحت فى هذه الرسـالة أننا المصريون، نعتبر دائما حل مشـكلة الفلسـطينيين هى الهـدف الرئيسـى للمفاوضـات التى نقـوم بها، وأننا نناضـل من أجل حل شـامل وليس من أجـل سـلام منفرد. عقد المؤتمر التمهيدى أخيرًا فى ١٤ ديسـمبر، وضـم أربعة وفود: مصر والولايـات المتحـدة وإسـرائيل والأمم المتحـدة. ورفضت كل من سـوريا والأردن ولبنان والاتحاد السوفيتى ومنظمة التحرير المشاركة فيه.

لقـد قدرت فى هذا الوقت، أنهم برفضهم المشـاركة فى هذا المؤتمـر التمهيدى، أضاع الفلسـطينيون فرصـة تاريخيـة لإقامـة اتصالات، حتـى ولو غير مباشـرة، مع الإسـرائيليين. ولكن، بالنظر إلى هذه الفترة بعد مرور الوقت، يجب أن أعترف أنه لو كان الفلسـطينيون قد قبلوا، فإن الإسرائيليين هم الذين كانوا سيرفضون المشاركة فيه.

أندريه فيرساى: إن كان رفض الشركاء العرب الأربعة مفهوما، فما تفسير رفض الاتحاد السوفيتى؟

بطرس بطرس غالى: أنكرت موسـكو شرعية هذا المؤتمر، لأنها ترى أن رئاسة مثل هذا المؤتمـر تتمثـل فى الاتحاد السـوفيتى والولايات المتحـدة فقط، فهما اللـذان يملكان حق طلب انعقاد هذا المؤتمر. وحاولت لفت نظر السـفير السـوفيتى إلى أنه مؤتمر غير رسـمى. ولكن هيهات.

وهكـذا قرر السـادات، ردًا على المقاطعـة العربية، قطع العلاقات الدبلوماسـية مع عدد من الدول.

بالنسـبة لى شـخصيًا، لقد حاربت من أجل الحفاظ على مكانة القاهرة المهيمنة فى قلب حركة عدم الانحياز، ولكنى أدركت أن السـادات لم يكن يشـاركنى قلقى.. كنت أخشـى أن يترك السـادات حركة عدم الانحياز التى كان يرى أنهـا فى أيدى متطرفين يتحالفون إلى حد ما مع الاتحاد السـوفيتى، حتى ولو لم تُدن الحركة مصر. كل شـىء سار وكأن السادات أراد أن تنقلب مصر على كل تحالفاتها السابقة.

أندريـه فيرسـاى: بعـد اجتماع القاهرة، نظم السـادات اجتمـاع قمة إسـرائيلى عربى فى الإسـماعيلية يومى ٢٥ و٢٦ ديسـمبر. اشـترك فى هـذا الاجتماع كل من السـادات وبيجين وديان ووايزمان ووزير الدفاع المصرى، الجمسى، وأنت، بطرس بطرس غالى. ماذا كانت نتائج الاجتماع؟ تحدث الجمسى عن «*فشل كامل!*».

بطرس بطرس غالى: مؤتمر الإسماعيلية لم يعط، فى الواقع، النتائج المرجوة. يجب القول أنه نظم بشكل سيئ للغاية وكانت المفاوضات تجرى بشكل غير منظم. ورغم ذلك، حرص السادات وبيجين فى نهاية الاجتماع على إقامة مؤتمر صحفى مشترك لكى يظهرا أن العملية متواصلة. تقرر فى الاجتماع إنشاء لجنتين: واحدة عسكرية معنية بمسألة الانسحاب الإسرائيلى من سيناء، والأخرى سياسية تهدف إلى دراسة كافة المشاكل العربية الإسرائيلية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

لقد سمحت لى قمة الإسماعيلية أن أفهم بشكل أفضل نفسية الرئيس المصرى. واكتشفت أنه يتفاوض معنا نحن أعضاء فريقه، بنفس القدر، بل أكثر مما يتفاوض مع الإسرائيليين. وكأنه أراد أن يقوم فى نفس الوقت بتحبيذ الخلافات التى كانت تفصلنا عنه والسيطرة عليها. أعتقد أن تفاقم الخلافات تلك سمحت له بأن يظهر للإسرائيليين بأنه يواجه مقاومة، ليس فقط داخل العالم العربى بأسره، ولكن أيضا داخل فريقه الخاص.

وفى الإسماعيلية أيضا، استشعرت أن الإسرائيليين لا ينوون التوصل إلا إلى سلام منفصل. وهو ما أكد عليه إصرار بيجين على تفضيل العلاقات الثنائية، ورفض اشتراك الأمم المتحدة، وحتى خفض مشاركة الولايات المتحدة إلى أقل نسبة ممكنة.

من جهة أخرى، ومع مرور الوقت، وضح لنا تدريجيًا أن الهم الأساسى الذى كان يشغل الرئيس المصرى كان استعادة كافة الأراضى المصرية، أما القضايا الأخرى فقد بدا أن هناك إمكانية لترحيلها إلى وقت لاحق، بما فيها قضية السيادة الفلسطينية التى كنا، نحن ضباطه، متمسكين بها بشدة. لم يتملص السادات من الفلسطينيين، ولكنه ظل مقتنعًا أن مصر لن تستطيع العمل بفاعلية لكسب حقوقهم، إلا إذا تخلصت أولاً من الاحتلال الإسرائيلى لسيناء.

أما بالنسبة لى، فقد كنت مقتنعًا بأن أى سلام لن يكون دائما إلا إذا سعينا فى نفس الوقت، بتسوية المسألة الوطنية الفلسطينية.

أندريه فيرساى: كان الفلسطينيون مستثارين ضد السادات بصورة عميقة. فى ١٨ فبراير عام ١٩٧٨م، فى قبرص، اغتال الإرهابيون الفلسطينيون يوسف السباعى، رئيس تحرير الجريدة اليومية الكبرى *الأهرام*. كان السباعى من المقربين للسادات ورافقه فى رحلته إلى القدس. غضب السادات بشدة، واتهم منظمة التحرير الفلسطينية بارتكابها.

بطرس بطرس غالى: صدم المصريون بشدة. فلم تخدم عملية الاغتيال تلك القضية الفلسطينية لدى الشعب وأثارت أزمة عميقة بين مصر ومنظمة التحرير. وفى جنازة يوسف السباعى خرجت مظاهرات كبيرة ضد الفلسطينيين: «*لا فلسطين بعد اليوم!*».. هكذا صاح المتظاهرون غاضبين لرؤية مصر تصبح هدفًا للإرهاب الفلسطينى.

أندريه فيرساى: تواصلت المفاوضات الإسرائيلية - المصرية، ولكن رغم تفاؤل السادات، ظهر بسرعة أن مواقف كل من القدس والقاهرة متنافرة. ليس فقط بالنسبة للقضية الوطنية الفلسطينية بل أيضا بالنسبة لاستعادة سيناء. يبدو أن التصلب الإسرائيلى أدى على الجانب العربى، إلى إبعاد عدد من الزعماء العرب المعتدلين، مثل: الملك حسين والملك فهد ملك السعودية، من عملية السلام.

بطرس بطرس غالى: نعم، فى نفس الوقت، أدى تتابع الفشل فى المفاوضات إلى إعطاء العالم العربى الأمل فى أن تعدل مصر فى النهاية عن مبادرتها. وظلت فكرة عودة الابن الضال تراود العالم العربى طوال الفترة من نوفمبر ١٩٧٧م إلى سبتمبر ١٩٧٨م، تاريخ توقيع اتفاقيات كامب ديفيد.

أندريه فيرساى: ومن الجانب الإسرائيلى، بدأت تعلو الأصوات لصالح السلام؛ عبَّر قطاع متزايد من الشعب، عن معارضته لموقف بيجين الذى رأوه متشددًا. هذا التشدد واجه انتقادات داخل الحكومة نفسها، ومن عيزرا وايزمان.

شهدت تلك الفترة مولد *شالوم آرشاف*، «السلام الآن». تأسست تلك الحركة يوم ٧ مارس عام ١٩٧٨م، بعد أن قام ٣٤٨ ضابطًا وجندى احتياطى بنشر رسالة مفتوحة إلى بيجين أعربوا فيها عن احتجاجهم على سياساته. وبسرعة اتخذت الحركة أبعادًا خطيرة، حيث إنها بعد عدة أيام، فى أول أبريل، بدأ أول تجمع شعبى نظمته «السلام الآن» نحو ٤٠ ألف متظاهر، وهو ما جعل منها أكبر مظاهرة سياسية تشهدها إسرائيل حتى ذلك الحين.

هذه الرسالة المفتوحة والحركة التى اقترنت بها، هل عرف عنها المصريون والعرب بشكل عام، شيئا؟

بطرس بطرس غالى: كانت النخب فى مصر بشكل أساسى هى التى تعرف تلك الرسالة والحركة اللتين دعمتا موقف المفاوضين المصريين لدى الطبقة السياسية. ولكن إن كان الرأى العام المصرى قد تابع التطورات الإسرائيلية وحركة «السلام الآن»، إلا أنه لم يعرها أهمية كبيرة؛ فقد كان الرأى العام المصرى مشغولاً أكثر برفض العرب ومعارضتهم

لمصر، والنتائج المحتملة لذلك على المصريين الذين يعملون فى الدول العربية: الأطباء والمهندسين ورجال الأعمال، وأيضًا مئات الآلاف من العمال الذين أصبحوا مهددين بالطرد.

أندريه فيرساى: بدت المواقف الإسرائيلية والمصرية متباعدة إلى حد أنه فى نهاية شهر يولية عام ١٩٧٨م، أبلغ السادات كارتر أن مواصلة الحوار مع الإسرائيليين بدا له بلا فائدة.

ولكن خوفًا من أن تفشل المفاوضات، قام الرئيس الأمريكى بمحاولة أخيرة. ما الذى جعل كارتر يخاطر بتوريط نفسه فى تلك المفاوضات التى بدا مصيرها الفشل (كتب كارتر فيما بعد يقول: «*لم يعتقد أى منا أن هناك فرصة للنجاح*») وهو احتمال يمكن أن يضر بمكانته؟

بطرس بطرس غالى: لقد كان هذا الصراع يسكن فعليا داخل كارتر، حتى إنه قام بوضع خريطة للمنطقة على الجدار فى حجرة نومه. بالنسبة لهذا التقى، هذه القضية قد تكون لها أبعاد دينية. على كل حال، لقد كرس نفسه لها بكل إصرار وانفعال.

أندريه فيرساى: ربما استشعر أيضا، أن الجانبين، وبرغم المواقف المعلنة، كانا يأملان فى تحقيق سلام منفصل، ولو *الحد الأدنى منه*، أى سلام إسرائيلى-مصرى مقابل عودة سيناء. سيكون هذا هو الحد الأدنى من السلام، وهو على الرغم من شىء أيضًا يعد خطوة مهمة، بل سابقة مثالية يمكن للدول العربية المتنازعة الأخرى أن تحذو حذوها على فترات زمنية مناسبة طالت أم قصرت. مهما كان الأمر، قرر الرئيس الأمريكى أن يجمع فى كامب ديفيد، بالقرب من واشنطن، قمة ثلاثية: السادات وبيجين وهو، ومع كل منهم مستشاريه المقربين.

بطرس بطرس غالى: أثارت مبادرته اهتمامنا حيث إن السادات أراد دائما المشاركة الفعالة للدبلوماسية الأمريكية فى عملية السلام. لذا فإن دعوة كارتر لعقد قمة فى كامب ديفيد اعتبرت بمثابة تتويج للجهود المصرية.

أندريه فيرساى: كيف كانت الحالة الذهنية للوفد المصرى عشية مغادرته البلاد متوجها إلى كامب ديفيد؟

بطرس بطرس غالى: كنا فى هذه اللحظة عند مفترق الطرق. السادات، الذى أراد أن يشهد مبادرته وقد أدت إلى حل شامل للمشكلة العربية - الإسرائيلية، كان واثقا من نفسه؛

فإن رفضت إسرائيل خطته للسلام، سيتحول الرأى العام الأمريكى والعالمى ضد الدولة اليهودية، ومصر ستكسب مساندته. ففى الحقيقة، السادات هو الذى اتخذ الخطوة الأولى بذهابه إلى القدس، والإسرائيليون هم الذين لم يتمكنوا من الصعود إلى قطار التاريخ. هل شك السادات فى أى وقت، فى مبادرته؟ لا أعرف. وعلى أية حال، لم يظهر أبدا أى شىء من ذلك حتى لأقرب معاونيه.

أما بالنسبة لنا، أعضاء وفده، الذين كنا لا نزال نعتبر السلام المنفصل مسألة لا يمكن تصورها، فقد كنا نشعر بشىء من القلق، لأننا لم نر إمكانية للتراجع فى حالة فشل المفاوضات. وهذا الفشل كان يبدو لنا ممكنا، بنفس القدر الذى كان المعسكر الذى فى مواجهتنا، الإسرائيليون، لا يؤمن برغبة السادات فى السلام، كما ألمح لى كثيرا موشيه دايان. لهذا السبب كان أملنا كبيرا فى الحصول على تأييد بعض الدول العربية، خاصة المغرب والأردن اللذين كانا لهما بالفعل اتصالات سرية مع إسرائيل.

أندريه فيرساى: ماذا كان تعليق الرأى العام العربى، حتى هذه اللحظة؟

بطرس بطرس غالى: بكل الحماس، ساندت الصحافة المصرية السادات. ولكن المعارضة المصرية، سواء من الأصوليين أو اليساريين، فهؤلاء لم يتخلوا عن موقفهم: هذه المفاوضات خطأ، وذهبوا إلى حد الأمل فى تغيير النظام. أما بالنسبة للصحافة فى العالم العربى، فقد واصلت تنديدها المتشدد لهذه المرحلة الجديدة من «*الخيانة المصرية*».

أندريه فيرساى: وفى إسرائيل؟

شيمون بيريز: فى إسرائيل، فى يوم ٢ سبتمبر، عشية مغادرة بيجين متوجها إلى كامب ديفيد، نظمت حركة «السلام الآن» مظاهرة فى تل أبيب اشترك فيها أكثر من مائة ألف شخص، كان الهدف منها دفع رئيس الوزراء إلى تقديم التنازلات الضرورية من أجل التوصل إلى اتفاقية سلام مع مصر.

فى البرلمان، كان الانقسام بين اليسار واليمين واضحًا تمامًا: اليمين رفض أن يقدم بيجين تنازلات، بينما شجع اليسار بشكل عام رئيس الوزراء على انتهاج سياسة أكثر انفتاحا.

أندريه فيرساى: وصل الوفدان إلى كامب ديفيد. على الجانب الإسرائيلى، جاء مناحم بيجين، يرافقه موشيه دايان وزير الخارجية، وعيزرا وايزمان وزير الدفاع، وأهارون باراك المدعى العام الإسرائيلى. من الجانب المصرى، جاء السادات مع مستشاره حسن التهامى، ومحمد كامل وزير الخارجية، وأسامة الباز نائب وزير الخارجية، وأنت بطرس بطرس غالى

وزير الدولة للشئون الخارجية. أما بالنسبة للرئيس كارتر، فكان معه سيروس فانس وزير خارجيته، وزبيجنيو بريجينسكى مستشاره لشئون الأمن القومى، وهارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية، كيف مرت الأمور فى يوم الوصول؟

بطرس بطرس غالى: وصلنا بالطائرات المروحية من واشنطن واكتشفنا كامب ديفيد، حيث تناثرت أكواخ فردية مريحة للغاية فى كل مكان فى الغابة. يجب أن أقول إن هذا المكان بدا لى غير مألوف لإجراء مفاوضات دبلوماسية؛ ولكنها كانت فكرة كارتر أن يعزلنا فى هذا المكان الذى يشبه معسكر اعتقالات، فقد منعت عنه الصحافة، ولم يكن هناك إمكانية إجراء أية اتصالات مع العالم الخارجى.

شيمون بيريز: هذا حقيقى، فباستثناء رئيس الوفد الذى كان يحق له استخدام الهاتف، لم يستطع المفاوضون الخروج أو الاتصال بالهاتف أو لقاء الإعلام. أذكر أننى تحدثت مع الرئيس الأمريكى بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد وقلت له: «*سيدى الرئيس، تزعم أنك تدافع عن حقوق الإنسان، ولكنك كنت رئيس الدولة الوحيد الذى لم يتردد فى أن يحرم المفاوضين من حريتهم ويحبسهم فى معسكر اعتقال!*».

بغض النظر عن الجانب الطريف، أعتقد أن كارتر كان على حق عندما خلق وضع جلسة سرية، وفرض العزلة والسرية، وذلك لكى يمنع الصحافة من التدخل فى الأمر مما قد يؤدى إلى إفشال المفاوضات.

بطرس بطرس غالى: بلا شك، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت طريقة غريبة لإقامة مؤتمر.

يجب التنويه إلى أن كل شىء فى كامب ديفيد كان غير معتاد. فى داخل المنطقة، كنا أحرارا، نتحرك فى مناخ من الاستجمام التام، جعل من الممكن أن نتقابل بالصدفة ونحن بملابس النوم أو فى أثناء ممارسة رياضة الركض، أو على الدراجة، إلخ. أما بالنسبة للمفاوضات نفسها، فبالإضافة إلى أن المسافات التى تبعد الأكواخ عن بعضها لا تسهل الاتصالات، كان من مظاهر اللقاء الفوضى التامة فى تنظيم الاجتماعات. فلم نكن إطلاقًا فى وضع مفاوضات تقليدية، حيث تجرى سلسلة من الجلسات اليومية محددة فى ساعتين صباحا وثلاث ساعات بعد الظهر، يتم بعدها تقديم تقرير محاضر الجلسات؛ لا، كان السائد هو الفوضى مع الاستجمام.. كل ذلك خلق مناخا خاصا بعض الشىء، بدا غريبا لهؤلاء الذين تعودوا على التفاوض حول مائدة مع تدوين النقاط.

أندريه فيرساى: كيف كانت العلاقات بين أعضاء الوفود الثلاثة؟

بطرس بطرس غالى: بالنسبة لى شخصيا، كانت العلاقات ممتازة. باستثناء محمد كامل الذى أصابه إحباط تام وكان يرفض مقابلة أحد، كنا نتريض معا، ونذهب إلى حمام السباحة معـا، وكنـا أحيانا نذهب لنشـاهد فيلما معا. كان مناخًا يشبه إلى حد مـا الرحلات البحرية. كانت سفينة كامب ديفيد تفرض علينا أن نتعايش.

كنا نحن أيضًا، أعضاء الوفد المصرى، نتبادل الآراء فيما بيننا، ولكن ذلك ظل هامشـيا. لـم يكـن السـادات يبلغنـا دائمـا بالمباحثـات الخاصة التـى كان يجريهـا مع كارتـر، أو مع سـايروس فانس أو مع بريجينسـكى. من جهة أخرى كان واضحًا، أن اللقاءات التى كنا نقوم بهـا مع الوفد الإسـرائيلى لم يكـن لها تأثير كبير على الاتفاق النهائـى، حيث إن هذا الاتفاق قام بصياغته ثلاثة أشـخاص: جيمى كارتر وأسـامة الباز وأهارون باراك، قبل تقديم الاتفاق إلى أعضاء الوفدين.

كان وايزمان هو المفاوض الإسـرائيلى الذى شعرت أننى قريب منه أكثر من أى شخص آخر. وبعكس دايان، الذى كان يستطيع أحيانا أن يكون فجا، كان وايزمان يبدو دائما ذا طبيعة مسالمة. كان هو الذى يستطيع، عندما يتوتر المناخ، إعادة جو المودة بين الخصوم. وعندما لا يستطيع أحد أعضاء وفدنا التفاهم مع عضو من الوفد الإسرائيلى، كان وايزمان يذهب إليه ويقول له: «*هيا بنا، تعال. نحتسى كأسًا من الويسكى ونتحدث عن كل شىء بهدوء..*» حتى وإن بدأنا بالرفض، فإن سحره يطغى وفى النهاية نستسلم دائما. على عكس دايان، الذى كان متشائما فى أعماقه، ظل وايزمان متفائلاً دائمًا، وكان يهتم بإعطاء أهمية لأى تقدم مهما كان بسـيطًا، ويؤكد للجميع على وجود مخرج سـعيد فى نهاية المفاوضات. كان وايزمان يلعب هـذا الـدور التصالحى طوال فترة القمـة، يعمل بصبر وروح دعابة كبيـرة، على التقريب بين أعضاء الوفدين.

شـيمون بيريز: تصور وايزمان أن سـحره الشـخصى يسـتطيع المسـاهمة بشـكل حاسم فـى هذه المفاوضات. وكان معتقدا أن السـادات، الذى كان يناديـه عيزرا، يحبه أكثر من أى شخص آخر فى العالم.

بطـرس بطـرس غالى: هنـاك الكثير من الحقيقة فـى ذلك: كان يحلو للسـادات أن يقول دائمًا: «*وايزمان هو الإسـرائيلى الوحيد الذى أسـتطيع التعامل معه*». وأتذكر فى مرة ثانية أنه قال: «*لا يمكن أن يكون وايزمان يهوديًا، إنه أخى الأصغر!*».

شيمون بيريز: وايزمان كان مقتنعًا أنه فى حالة حدوث أزمة بين الوفدين، فهو الوحيد الذى يمكنه تهدئة اللعب. كان رجلا يتميز بمرونة كبيرة، ولكنه كان أيضًا أكثر أعضاء الوفد انتماء إلى اليسار، وأكثرهم استعدادًا لأن يذهب إلى أبعد نقطة من أجل إرضاء العرب. كان فى ذلك مختلفا عن دايان الذى كان أكثر حذرًا، وعن بيجين الذى كان أقل استعدادًا لتقديم تنازلات.

بالإضافة إلى ذلك، كانت العلاقات بين وايزمان وكارتر ممتازة. كان كل منهما يقدر الآخر ويكن له صداقة حقيقية. نعم، أنت على حق، كان وايزمان لديه حس العلاقات الإنسانية.

بطرس بطرس غالى: على أى حال أكثر من موشيه دايان!

شيمون بيريز: موشيه دايان، هذا وضع آخر. بالنسبة له، العلاقات الإنسانية ما هى إلا جزء من كل كبير. وأتذكر جيدًا، (فى الخمسينيات) فى أحد الأيام قال بن جوريون لدايان، إذ كان يعتبره غريب الأطوار، إن عليه، بصفته زعيمًا عسكريًا، أن يكون مثلاً يحتذى به الآخرون. فأجابه دايان: «*لا يا سيدى، لا أستطيع أن أتصرف بناء على صورة يتوقعها منى الآخرون. إننى أتصرف حسب شخصيتى أنا*». نعم كان موشيه دايان يعطى نفسه الحق فى أن يصبح كل يوم بشخصية جديدة. كان سحره الواضح هو نتيجة نزعته الفردية. كانت الصحافة مفتونة به: نجم مبتسم، صورته على غلاف العديد من المجلات، وليس فقط فى إسرائيل. تصريحاته فى الإذاعات وعلى شاشات التليفزيون تجذب أعدادا من المشاهدين والمستمعين لا يمكن تخيلها. فى فترة ما، كان أكثر شخصية عسكرية وسياسية شهرة وشعبية فى الكون. أذكر فى إحدى رحلاتى، وخلال مرورى فى سان فرانسيسكو، رأيت فى واجهة أحد المتاجر صورًا كبيرة لماو وتشى جيفارا، ومعهم دايان! ومن ناحية أخرى، وبشكل أكثر جنونًا: شاهدت فى جنوب إفريقيا بعد حملة السويس، تحويرًا لدعاية عن شركة البترول «إسو». ولكن بدلاً من الشعار الشهير: «*ضع نمرًا فى المحرك*»، قال الإعلان: «*ضع دايان فى المحرك*»!

من بين الصفات التى تصنع سحره، صراحته المحيرة. سأقص عليكم قصة طريفة تصفه بشكل كامل: وقعت هذه الأحداث قبل حرب الأيام الستة بقليل. فى هذه الفترة كنا، أنا وهو، أعضاء فى حزب رافى الذى يرأسه بن جوريون، وهو الحزب الذى كما قلت من قبل انشق عن ماباى. وكان هناك احتمال أن يعود مرة أخرى لينضم إلى ماباى. وفى أثناء إحدى مناقشاتنا، قال لى دايان: «*اسمع، شيمون، يجب أن نأخذ قرارًا: إن كنت ترى أنه من الأفضل أن يحتفظ الحزب باستقلاله، سأبقى معك. وإن رأيت العكس، وإنه من الأفضل على رافى*

الانضمام إلى حزب العمل، فأتعهد بأن أتبعك». ثم أضاف قائلا بابتسامة: «*ولكن تذكر: أنا لست رجلًا يمكن الثقة فيه ..*». كان فى هذه الدعابة خليط من صفاء الذهن والحرية التى تجعل منه شخصية ليس لها مثيل، والتى أحببتها كثيرا.

بطرس بطرس غالى: عنى شخصيًا، لم أنظر إلى موشيه دايان بتلك الطريقة. كنت أراه رجلا متعجرفا، ولكنى لا أعرف بالضبط إن كانت تلك العجرفة بسبب الخجل أم بسبب شعور بالتفوق.

شيمون بيريز: هناك تناقض بين الطريقة التى يمكن أن ترى بها دايان، وحقيقة شخصيته.

أنت تتحدث عن «عجرفته». ولكنك مثل معظم الأشخاص، لا تعرف أن دايان أصيب بضرر كبير جعله يعانى معاناة بشعة. الجرح الذى أضاع عينه كان يسبب له صداعا عنيفا. وبعد حرب الغفران، اقترن الألم الجسدى بالمعاناة النفسية بسبب إحساسه بالذنب لأنه لم ير الخطر قادمًا. وذلك ما يفسر هذه التشنجات، سواء كانت خافية أو ظاهرة، والتى قد تعطيه هذا المظهر المتعجرف الذى تلومه عليه.

بطرس بطرس غالى: نعم، ربما. أود أن أحدد فورًا أنه رغم الانتقادات التى قلتها، يجب علىّ أن أعترف بأن دايان كان هو العقل المفكر فى الوفد؛ ففى كل مرة كنا نجد أنفسنا فى طريق مسدود، كان يخرج إلينا بالحل، حيلة جديدة لكى نعاود المفاوضات. ولقد أسر لىّ أنه رغم علاقته الوثيقة برئيس وزرائه، إلا أنه لم يتفق معه فى الرأى حول عدد غير قليل من المسائل الخاصة بعملية السلام.

شيمون بيريز: لقد أراد دايان التوصل إلى اتفاق سلام مع مصر، ولكنه كان يعرف أنه إذا اتخذ خطوة واحدة خطأ، فإنه يخاطر بأن يفقد كل الثقة التى كان يوليها له بيجين. لأنه، فى الواقع لم يكن علينا إقناع السادات فقط بتحقيق تسوية، ولكن أيضا بيجين. وفى واقع الأمر، لقد تطور بيجين كثيرًا فى مواقفه، وذلك بفضل موشيه دايان بشكل خاص. ومن ناحية أخرى، لم يقدّر دايان موقف الأمريكيين كثيرا. إذ رأى أنهم لم يفهموا طريقة الإسرائيليين كما لم يفهموا طريقة المصريين. كل تلك التناقضات جعلته يتمسك بموقف صعب.

بطرس بطرس غالى: فى هذا الإطار، وايزمان ودايان، اللذان رأيتهما فى بادئ الأمر كقطبين سياسيين متعارضين، كانا فى الحقيقة متضامنين جدا. كان الاختلاف بينهما يكمن أساسا فى الطباع.

أندريه فيرساي: وبيجين؟ كان كارتر في *مذكراته*، يرى رئيس الوزراء الإسرائيلي كشخص «*يبدو أنه يعتبر نفسه رجل المصير، مكلفًا بمهمة مقدسة، وهي أن يأخذ على عاتقه مسئولية مستقبل شعب الله المختار*».

بطرس بطرس غالي: لنقل إن بيجين كان يبدي جمودًا حتى في أبسط حركاته أو كلماته. كان لديه أيضا جانب نطلق عليه تعبير «بولندا القديمة»: فهو مهذب جدًا، بل فارس، يحترم الآخرين، استعراضيٌّ في بعض الأحيان ويمارس طوعيا تقبيل الأيادي. من الواضح أنه كان يريد أن يكسب الإعجاب.

لاحظ بيجين أن السادات كان يناديني أحيانا بطرس وأحيانا أخرى بيتر (بطرس هو الاسم العربي لبيتر الحواري). وحينما علم أن السادات يناديني ببيتر عندما يكون راضيا عني، وبطرس حينما لا يكون، وجد ذلك طريفًا، وقرر أن يستخدم هو أيضًا هذين الاسمين، ولكن بالعكس: بيتر عندما يغضب مني، أي حينما يجدني أضع عائقًا أمام دبلوماسيته (اسم بيتر جاء من اللاتينية بتروس والتي تعني «حجر») ويناديني بطرس عندما يرى أنني كنت مسالمًا. هذه الطريقة لاستعارة أسلوب السادات في التعامل معي أسعدت كثيرًا الريس. لذلك قام بيجين في كامب ديفيد باستخدام هذه الطرفة بإفراط. وتحولت إلى شيء ثقيل، ولكنها كانت طريقته في خلق نوع من التقارب مع السادات.

شيمون بيريز: في رأيي، كان بيجين يملك صفات كثيرة جميلة، ولكنه كان يجد صعوبة في مواجهة الحقيقة. كان يملك موهبة الكلمة وعاش في عالم الكلمات. وعلى غرار راقصي الباليه الذين يعتبرون سيقانهم هي أهم جزء في جسدهم، حيث إنها هي التي تسمح لهم بممارسة هذا الفن، كان بيجين يرى السياسة من خلال البلاغة. أنت لا تتخيل الاهتمام والعناية التي كان يوليها للكلمة وللمعاني والتفسيرات. خلال سنوات نضاله ضد البريطانيين، قضى وقتًا طويلاً جدًا في الاستماع إلى الحوارات التي كانت تدور في البرلمان الإنجليزي. كان يعتبر التقاليد البرلمانية البريطانية هي النموذج الذي يتمنى أن تحتذيه إسرائيل.

الفروق بين بيجين ودايان كانت بيننا؛ عندما جاء دايان إلى مصر، نظر إلى النيل والنخيل وكل تلك الطبيعة التي كان يحبها؛ وبجانبه وقف بيجين ينظر إلى مصر عبر قراءاته للتوراة.

بطرس بطرس غالي: تقول إنه كان خطيبًا موهوبًا جدًا. هذا حقيقي، ولكن ذلك أعطاه نوعًا من «التشويه المهني»: حتى لو تحدث معك وحدك، كان يعطي الانطباع بأنه يلقي خطابًا.

أندريه فيرساي: وماذا عن الوفد الأمريكي؟

بطرس بطرس غالي: في داخل وفدهم، كان كل شخص يتعامل معنا وكأنه الرجل الأكثر قدرة على دفع الأمور إلى الأمام. ولكن لأن المفاوضات كانت تتخذ كثيرًا شكل «الترقيع»، فكان من الصعب تحديد استحقاقات كل واحد منهم في تقدم العملية.

أندريه فيرساي: يبدو أن الأيام الأولى مرت بصعوبة؛ فقد بدا أن أيًا من الجانبين لم يكن يريد تقديم تنازلات.

بطرس بطرس غالي: نعم هذا حقيقي. رفض الوفد الإسرائيلي اعتبار القضية الفلسطينية قضية سياسية، مفضلاً التعامل معها فقط من وجهة النظر الإنسانية، وتقليصها بالتالي، لتصبح مجرد تفصيلات عملية للإدارة المحلية. عمى البصيرة هذا إزاء الواقع الفلسطيني بدا لنا مثيرًا للدهشة، فقد كان يماثل تماما موقف العرب الذي أنكر وجود الدولة الإسرائيلية خلال كل تلك السنوات، والذي أثار بشدة غضب الإسرائيليين واليهود في العالم أجمع.

ولكن الاختلافات بين الوفدين لم تختزل فقط في المسألة الفلسطينية. بل كان هناك تعارض كبير في طريقة تعاملنا مع المشكلات، حتى تلك الخاصة بالمسار الإسرائيلي- المصري. كان الإسرائيليون يريدون التوصل في البداية إلى اتفاق حول المسائل العملية والتجارية والدبلوماسية والسياحية، إلخ.، قبل التفكير في أي انسحاب من سيناء. ولكن بالطبع، لم يكن ممكنا بالنسبة لنا مناقشة تطبيع العلاقات بين بلدينا قبل الاتفاق على إنهاء احتلال سيناء.

وبسرعة، بدأ يسود مناخ ثقيل، يوما بعد يوم، وفي النهاية تحول إلى شعور بفوبيا الحصار. وصاح بيجين: «*لقد بدأنا نشعر وكأننا في معسكر اعتقال!*»... ذلك فضلاً عن أن عدم التنظيم والتداخل في الاجتماعات، جعل من الصعب ملاحظة أية تقدم.

فيما يخصني، قدرت أنه من الضروري ربط الانسحاب من سيناء مع الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة، حتى يمكننا التوصل إلى حل شامل. من أجل أن يتم ذلك، كان على السادات أن يطالب بالربط بين الانسحاب من الأراضي المصرية والفلسطينية.

ومع توالي المناقشات، استطعت تحديد النقاط التي تميز خصومنا، فقد كانوا يملكون في أيديهم كل أوراق اللعب، وكانوا يتقدمون بناء على مشروع متجانس.

أندريه فيرساى: فى لحظة ما، بدت مواقف الوفدين بعيدة جدا الواحدة عن الأخرى، إلى حد أن السادات، الذى لم يعد يرى أهمية فى الاستمرار فى المفاوضات، أعلن مغادرة وفده.

بطرس بطرس غالى: كان واضحًا أنه غاضب جدا، ولكننى لا أعلم إن كان قد قرر حقا مغادرة كامب ديفيد أو إنها كانت وسيلة منه لإثارة كارتر لكى يدفع الإسرائيليين إلى اتخاذ طريق أكثر تعقلا. قدم محمد كامل استقالته من منصب وزير الخارجية، ولكنه أكد للسادات أنها لن تكون سارية المفعول إلا عندما يقرر الريس. هذه «الاستقالة» ستسمح للسادات بأن يدفع كارتر إلى التدخل: «*أنت ترى جيدًا أن التشدد الإسرائيلى قد أحبط أعضاء وفدى*».

ولكن كارتر نجح فى إقناع السادات بألا يغادر كامب ديفيد. لا أعرف بالضبط الحجج التى استخدمها، ولكن أعتقد أن الرئيس الأمريكى تعهد بأن يساعد السادات بعد إعادة انتخابه. «*قبولك حل الوسط هذا سيساعد إعادة انتخابى، وأتعهد لك، بعد إعادة انتخابى، أن أعمل معك من أجل تسوية كل المشاكل المعلقة..*» بدا أيضا أن الدبلوماسية الأمريكية كانت مقتنعة بأن نجاح بداية عملية السلام الحقيقية، سوف يجعل من السهل الحصول على تأييد العديد من الدول العربية مثل: الأردن والسعودية والمغرب.

أندريه فيرساى: فى النهاية بقى السادات، ولكن كارتر فهم أنها الفرصة الأخيرة، وأن الساعة حانت من أجل التوصل إلى حل وسط حاسم. فقرر ألا يجمع بعد ذلك معا رئيسا الدولة، ولكن أن يقوم بنفسه بدور «الوسيط» بينهما. كيف مرت هذه الأيام العشرة الأخيرة من المفاوضات التى لعب فيها كارتر دور الوسيط؟

بطرس بطرس غالى: لم تكن الأمور بهذا الوضوح. فقد كانت أكثر فوضى لأن سيروس فانس وبريجينسكى واصلا فى نفس الوقت المباحثات مع كل وفد على حدة من أجل الحصول على موافقتهما حول بعض جوانب الإعلان المبدئى وإبلاغ الرئيس كارتر الذى كان من جانبه، يقوم بالتفاوض مع رئيسى الوفدين.

أندريه فيرساى: فى أثناء المفاوضات قال أهارون باراك لبريجينسكى: «*العديد من المواقف الإسرائيلية لا تقدم أية مميزات، ولكنها تنبع من أسباب نفسية فقط*».

شيمون بيريز: ٩٠ ٪ من المشاكل التى تطرح فى أى صراع تنبع من عوامل نفسية. ومما يزيد من أهمية الجانب النفسى هو أننا نتفاوض فى أحيان كثيرة تبعا لرؤية عامة للمعسكر الذى نتبعه أكثر مما نتفاوض على أساس الواقع. وكل جانب له أولوياته ومحرماته وعناصره

المقدسـة، وطريقته فى رؤية الأمـور، وعقليته... بالإضافة إلى أننا نجهـل الدوافع الحقيقية التى تحرك المعسـكر الآخر، وما هى الأشـياء التى تهمه بالفعل، والأشـياء التى يسـتخدمها كخدعة أو عنصر مسـاومة. وبسـرعة تستقر الشـكوك؛ فى المفاوضات السياسية يسود دائما الشك، هذا المرض الذى يصيب السياسيين.

بطـرس بطرس غالى: هـذا حقيقى، وإن أردنا أن نتقدم، فيجب أن تسـتقر الثقة تدريجيا. كان كل مفاوض يريد إصلاح الأمور، ولكن فى أحيان كثيرة لم يكن ذلك لأن وراءها منفعة واقعية، ولكن بالأحرى بهدف إرضاء الحالة الذهنية للرأى العام فى بلده. وهكذا، قد تطلب منى أن أغير جملة على سبيل المثال، بدون أن أعرف السبب الذى دفعك لهذا الطلب. لهذا سـوف أفسـر رغباتك بطرق مختلفة. ولكن من ناحية أخرى، إن توصلت إلى خلق مناخ من الثقة، سوف تشرح لى بصراحة لماذا هذه الفقرة غير مقبولة بالنسبة للرأى العام لديك. وهذا التفسـير، أسـتطيع أن أفهمه وأن أفكر معك فـى إعادة صياغته ليصبح مقبـولا أكثر. لا أزعم بالتأكيد، أن وجود مناخ من الثقة يسـمح بحل جميع المشـاكل، ولكنه بالتأكيد سـيقلل كثيرا العوائق النفسـية. إن معرفة دوافع الآخر يسـهل عملية المفاوضات. وهكـذا، فأنا مقتنع بأن الثقة التى سادت بين أسامة الباز وأهارون باراك كانت مهمة من أجل التوصل إلى اتفاق.

أندريه فيرسـاى: بشـكل عام، هـل كان لديك الانطبـاع بأن الثقة بدأت تسـود فى كامب ديفيد؟

بطـرس بطرس غالى: كانت الثقة تسـود فـى المباحثات الثنائية. ولكن فـى اللحظة التى ينضـم فيها كل منا إلى وفده، لا نسـتطيع السـماح لأنفسـنا أن نظل بهذا الانفتـاح. إننى أذكر نقاشـا أجريتـه مـع وايزمان فى لقـاء ثنائى، وكنـا نتحدث بحرية تامة وسـاد اللقـاء مناخ من الثقة سـمح لنا بأن نلغى الأقنعة وأن نناقـش بصراحة كل قضايا الخلاف، ومنها قضية الأمن الإسـرائيلى المحاطة بهالة من التقديس. ولقد أبـرزت لوايزمان أن هذا الهاجس بات مبالغا فيـه، نظرا للتفاوت الكبير بين القوى الموجودة، وقلت لـه: «*ولكن فى النهاية، لقد انتصرتم فـى حرب السـويس وحرب الأيام الستة بدون أن تكون لديكم الضفـة الغربية ولا غزة التى تكـرر دائمـا أهميتها لأمنكم*». وفـى النهاية أقر وايزمان أن الإجـراءات الوقائية التى تتخذها إسرائيل فى المسـألة الأمنية كانت مبالغة فيها. كما شرحت له أيضا أهمية الروابط الاقتصادية والإسـتراتيجية والسياسـية والثقافيـة التى تربط مصـر بالعالم العربى، وأبرزت لـه أننا لو لم نتوصل إلى تسـوية للقضية الوطنية الفلسـطينية، فإن مصر سـتجد نفسـها فـى عزلة تامة عن جيرانهـا، وأن ذلـك قـد يؤدى إلى إضعاف النظام، وهو ما من شـأنه أن يجعل السـلام الذى

نريد تحقيقه، هشا. ولكن بالطبع هذه الصراحة التى سادتها الثقة، هذه الحرية فى الحديث، لم تكن ممكنة لولا أن الجلسة كانت خاصة لم يحضرها إلا بريجينسكى.

ولكن بالعكس، عندما كان ينشأ بيننا سوء الظن، كانت تظهر العراقيل فى المباحثات. وهذا ما حدث لى شخصيا بعد كامب ديفيد، فى واشنطن، خلال المفاوضات التى انتهت بتوقيع اتفاق السلام فى مارس عام ١٩٧٩. فى ذلك الوقت وجدت دايان متصلبًا بشكل خاص. وكان التوتر قد وصل إلى حد أننى لم أعد أرغب فى مواصلة المناقشة معه. وفى هذا الوقت تدخل وايزمان بطريقته اللطيفة من أجل التوفيق بيننا. ولكن من منا سيأخذ الخطوة الأولى؟ كنا نقيم فى فندق ماديسون فى طابقين مختلفين. هل موشيه دايان سيهبط للقائى، أو سيكون علىّ أنا أن أصعد نحوه؟ أى تحرك أيا كان، سيأخذ بالضرورة تفسيرا رمزيا مبالغا فيه وعبثيًا.

ومع ذلك، فى إطار المفاوضات العامة، كنا نتعامل على مستويات مختلفة من المساومات، التى تتفجر بين عدد من المفاوضين الذين، رغم وجودهم فى نفس المعسكر، ليس لديهم بالضرورة نفس الأولويات. وأحيانًا كانت صعوبة تنسيق المواقف بين أعضاء المجموعة الواحدة، بنفس قدر صعوبة المفاوضات مع الخصم. وحتى فى أثناء المناقشات الثنائية، قد تعانى أحيانا من عرقلة فى حرية حركتك بسبب معارضة محتملة من أعضاء فريقك الذين يلومونك على أنك قدمت تنازلات أكثر من اللازم، وأنك لم تكن حاسمًا بما فيه الكفاية، إلخ. وتظل تدافع عن نفسك وتشرح أن مناخ الثقة سمح بإحراز تقدمًا فى المفاوضات، مقابل بعض التنازلات المتبادلة، ولكنهم يظلون مقتنعين بأنهم إن كانوا مكانك، لكانوا حصلوا على أفضل مما حصلت عليه. وبسرعة تسود الشكوك داخل الوفد الذى تنتمى إليه. ويضاف إلى ذلك مسألة الكرامة الشخصية. فى البداية، يتصور المرء أنه مفاوض أفضل من زميله. ثم هناك مبدأ الإجماع الذى لم تعره اهتمامك: لماذا قابل فلانا وحده؟ بأى حق؟ وأحيانا من أجل تعقيد الأمور أكثر، كان السادات أو كارتر يدعوان أحدنا. فيتساءل الآخرون: «*لماذا هو؟ ماذا سيقولون له؟*» وعند عودته تنطلق الأسئلة: «*ماذا قال لك؟ لماذا لم يدعنا نحن أيضًا؟*».

شيمون بيريز: إنك تتحدث عن الأعضاء الموجودين فى وفد واحد، ولكن يجب أيضا الأخذ فى الاعتبار المعسكر الذى تنتمى إليه بشكل عام. فإن إحدى المشكلات الكبيرة التى تواجهك عندما تكون فى مفاوضات سياسية، هى أنك فى نفس الوقت الذى تتفاوض فيه مع عدوك، عليك أن تتفاوض مع أعضاء المعسكر الذى تنتمى إليه، وأحيانا أيضا بشكل أكثر

حدة. وبما أنك ستضطر إلى الموافقة على تنازلات ضرورية، ولكنها غير متوقعة، وعليك فيما بعد أن «تبيعها» إلى أصدقائك، فإن هؤلاء سوف يلومونك دائما عليها ويتهمونك بأنك «ضعيف»: *«لماذا تراجعت؟ لم تعد عند مواقفك الأولى، إلخ»*. وبالطبع، أنت لم تعد عند مواقفك الأولى، لأنك توجهت إلى هناك لكى تتفاوض، وإن «التفاوض» يعنى بالضرورة تقديم تنازلات والتخلى عن مواقف.

لذلك، من أجل إيجاد مخرج، علينا أن نعود إلى هذه الفكرة الكيسنجرية *«الغموض البنّاء»*.

بطرس بطرس غالى: هو ذا، نكتفى بصياغات مبهمة، تسمح بتأجيل القضايا إلى وقت لاحق، على أمل أنه مع الوقت، ستتقارب الأطراف، وما لم يكن مقبولا اليوم قد يكون كذلك فيما بعد. ومما لا شك فيه أن الطرفين التزما عن وعى وعن قصد، وحتى بتواطؤ، بهذا الغموض. هناك طريقتان فى تصور المفاوضات: هناك مفاوضات تدعوك إلى التركيز على القضايا التى يمكن التوصل إلى اتفاق بشأنها، على أن يتم تأجيل المشاكل الأصعب. وهناك مفاوضات توصى، بالعكس، على البدء بالجزء الأصعب، لأنه طالما أن هذا الجزء لم يتم حله، فإن أى اتفاق يتم التوصل إليه لن يمكن تطبيقه.

أندريه فيرساى: فى أثناء وجودك فى كامب ديفيد، هل كان لديك أحيانا الانطباع بأن عملية السلام ستفشل؟

بطرس بطرس غالى: لا، لأننى كنت مقتنعًا بأن السادات لا يريد ولا يستطيع التراجع؛ كان من الصعب عليه، بعد أن تورط إلى تلك النقطة، أن يعود إلى القاهرة فاشلاً.

شيمون بيريز: وبيجين من جانبه أيضًا كان عليه أن ينجح. كان على الرجلين أن يعودا إلى وطنيهما باتفاق مقبول لكل جانب. لاحظ أن بيجين كان، بطريقة ما، أقل حرية من السادات؛ فكان عليه أن يأخذ فى الاعتبار حزبه وعقيدته وتاريخه وناخبيه وتعهداته، إلخ.

بطرس بطرس غالى: لا تقلل من شأن مشاكل السادات. فإن عليه هو أيضا أن يأخذ فى الحسبان مؤشرات كثيرة: الرأى العام فى بلده، الموقف المعادى للعالم العربى، المعارضة العنيفة للفلسطينيين، إلخ. لا، موقفه لم يكن سهلاً على الإطلاق.

أندريه فيرساى: بعد أسبوعين من المفاوضات الصعبة فى كامب ديفيد، تم توقيع اتفاقيات أولية فى واشنطن فى سبتمبر عام ١٩٧٨م. هذه الاتفاقيات تضم جزءين: الأول خاص بانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء وكذلك مشروع معاهدة السلام بين إسرائيل

ومصر؛ إسرائيل تنسحب تدريجيًا من كافة شبه جزيرة سيناء خلال الفترة المقبلة وحتى عام ١٩٨٢م وتقوم بحل المستوطنات الإسرائيلية التى قاموا ببنائها هناك (مستوطنة ياميت). أما الجزء الثانى فيخص مواصلة المفاوضات حول الحكم الذاتى الفلسطينى (*مفاوضات الحكم الذاتى*).

وقعت القاهرة اتفاق سلام مقابل استعادة كل أرض سيناء. هل كان المصريون يفضلون فى النهاية توقيع سلام منفصل عن إفشال المفاوضات؟

بطرس بطرس غالى: لا، لأننا كما قلت للتوّ، لقد قمنا بالتوقيع على اتفاقين، أحدهما خاص بالحكم الذاتى للفلسطينيين. هذا الاتفاق الأخير كان مرتبطًا بالأول من حيث إنه يجب أن يحصل على توقيع نفس الأشخاص وأن يكون له نفس الأسس القانونية، ويقوم على أساس القرار رقم ٢٤٢ لمجلس الأمن بالأمم المتحدة؛ فضلا عن أن الولايات المتحدة كانت هى التى تضمن تطبيق الاتفاقين. وبناء على ذلك، كانت مخاوفى، فى تلك اللحظة، والتى شاركنى فيها زملائى أعضاء الوفد، تتركز فى أن تحاول إسرائيل حبس مصر فى إطار ثنائى، بدون أن تلتزم بمشروع تسوية سلام شامل فى المنطقة.

أندريه فيرساى: تمت جلسة توقيع الاتفاقية. كيف سارت الأمور؟

بطرس بطرس غالى: انتقلنا بالطائرات المروحية من كامب ديفيد إلى واشنطن، وهناك توجهنا إلى البيت الأبيض بالسيارات. وقد رفض محمد كامل وزير الخارجية الذى استقال، أن يحضر الاحتفال. وتردد أيضًا أن كل الوفد المصرى استقال احتجاجًا. ولكن ذلك لم يكن صحيحًا بالطبع.

جرت المراسم فى الدور الأول من البيت الأبيض. على المنصة، ألقى كارتر وبيجين والسادات، كلمة صغيرة، ثم بدأ التوقيع على الوثائق، وسط التصفيق.

يجب أن أقول إن التباين فى المزاج بين الوفود الثلاثة كان واضحًا: فقد كان الأمريكيون والإسرائيليون سعداء، ولكننا كنا أقل منهم سعادة، خاصة وأن استقالة محمد كامل أعطت الانطباع بأن هناك خلافًا داخل فريقنا. فى الحقيقة، بعضنا (ومنهم محمد كامل بالتحديد) تصور أنه طالما أن إسرائيل فى موقف قوة، فقد كان من الأفضل أن ننتظر إلى أن نقوى أنفسنا حتى نتفاوض ونحن فى حالة تكافؤ. كما كان «الرفض العربى» فى مواجهة إسرائيل يمثل مادة التلاحم للوحدة العربية، حتى إننا جعلنا التفاوض فى ظل وجود خلاف عربى يفقدنا نصف المعركة حتى من قبل أن نبدأ.

ولكن، كما قلت لكم، السادات كان يرى أنه بالعكس، حينما نستعيد سيناء ستصبح مصر أقوى، وذلك سيسمح لها فى المفاوضات المقبلة، أن تناقش إسرائيل على مستوى متكافئ، وهو ما سيسمح لها بالدفاع عن القضية العربية بشكل أفضل.

أندريه فيرساى: انتهت الجلسة فى واشنطن، ثم أخذ الوفد المصرى انعطافا فى اتجاه الرباط. لماذا؟

بطرس بطرس غالى: كانت الفكرة أن يستقبل كل من الملك الحسن الثانى عاهل المغرب والملك حسين عاهل الأردن، السادات فى الرباط بعد كامب ديفيد، لإظهار مساندتهما لاتفاقيات كامب ديفيد. ولكن ملك الأردن لم يأت. نصحه البريطانيون بعدم التوجه إلى المغرب، وقالوا له: «*العملية مجازفة كبيرة بالنسبة لك، انتظر لترى كيف تتطور الأمور*». وبالطبع، أدى غياب الملك حسين إلى خيبة أمل كبيرة للسادات. وكانت خيبة الأمل الثانية هو رفض الملك الحسن الثانى أن يصدر بيانًا مشتركا معنا؛ أى أن يمنحنا بكل وضوح مساندته. وفى غياب الأردنيين، لم يرض المغاربة أن يورطوا أنفسهم؛ كما أنهم عاتبونا لأننا لم نحصل على شىء بخصوص القدس، وهو ما لم يكن دقيقًا تمامًا حيث إنه فى *ملحق* لاتفاقيات كامب ديفيد، تم النص على الموقف بخصوص القدس، وقد أيده الأمريكيون.

من ناحية أخرى، عند وصول السادات إلى القاهرة، استقبل بحفاوة كبيرة بالطبع؛ فقد كان فى انتظارنا بالمطار الآلاف من المواطنين، وتحدثت الصحافة عن انتصار كبير. صفق المواطنون لأنهم رأوا أن هذا السلام سيسمح للبلاد الغارقة فى كساد اقتصادى، لأن تنهض مرة أخرى. فلنتذكر أن المدن الثلاث التى تقع على القناة، بورسعيد والإسماعيلية والسويس، تعرضت للقصف مما دفع نحو مليون شخص إلى الهجرة الداخلية، وترك تلك المدن خاوية. لذا كان لأبناء وطنى نظرة اقتصادية لهذا السلام، وليس أيديولوجية. «*سنستطيع أخيرًا الخروج من الأزمة، ولا يهم إن قاطعتنا البلاد العربية. على كل حال، إننا نحن الأمة العربية الكبرى، وكل هذه البلاد تعترض لأنها لا تفهم شيئًا، ولأنها بلاد متخلفة، وسينتهى بها الحال إن آجلاً أو عاجلاً إلى الانضمام إلينا لتقيم هى أيضًا حوارًا مع إسرائيل*».

أندريه فيرساى: ومع ذلك، أظهر الجمسى، وزير الدفاع، تفاؤلاً أقل كثيرًا. وكتب فى مذكراته يقول إن هذا الاتفاق «*أضعف الموقف العربى على الجانبين السياسى والعسكرى*»، وأنه «*وضع إسرائيل فى وضع متفوق إستراتيجيًا، وحرر يديها لكى تبتلع، على فترات قصيرة، سائر فلسطين وتتوسع على حساب جيرانها العرب*».

بطرس بطرس غالى: لقد قال ذلك فى *مذكراته* التى كتبها بعد الأحداث بوقت طويل. ولكن فى اللحظة نفسها، كان الرأى العام عامة يرى أنه سيستطيع قريبا الاستفادة من نتائج السلام.

أندريه فيرساى: ورغم ذلك، اصطدم مستقبل هذا السلام، الذى اعتبر سلامًا «منفصلاً»، ليس فقط بعداء العالم العربى والعالم الثالث، ولكن أيضا، بطريقة لم تكن متوقعة، بشكوك العديد من الدول الغربية.

بطرس بطرس غالى: فى هذا الوقت، لم يكن بعد سلامًا منفصلاً، حيث إننا لم نكن قد بدأنا بعد فى التفاوض بشأن معاهدة السلام النهائى. وعلى هذا، أتذكر أن جان فرانسوا بونسيه، سكرتير عام الرئاسة الفرنسية، قال لى: «*إن لم تتوصلوا إلى عقد اتفاق بخصوص الفلسطينيين قبل توقيع معاهدة سلام إسرائيلية ـ مصرية، تأكد أنكم لن تستطيعوا الحصول فيما بعد، من الإسرائيليين على أى شىء لصالحهم*».

لم يكن مخطئًا، حتى ولو كان موقف فرنسا ناتج عن كونها، كما قلت لكم، استبعدت من هذه المفاوضات، مثل الدول الأوروبية الأخرى. والحق يقال إن الأمريكيين والإسرائيليين كان لهم من الأوروبيين موقفًا مماثلاً لموقف السادات من الدول العربية: «دعونا نستبعدهم *من تلك المفاوضات المعقدة بما فيه الكفاية، فإن كل ما سيفعلونه هو خلط الأوراق*». وجهة النظر هذه كانت على كل حال، مشتركة بين السادات وبيجين وكارتر.

وكما قلت، تصور الأمريكيون أنهم قادرون على ضم السعودية بسهولة إلى صفهم، وسوف يستطيعون من خلالها ضم العديد من البلاد العربية المعتدلة الأخرى. ولكنهم، فى هذه النقطة، قللوا كثيرا من قيمة تصميم المعارضة العربية. وأعتقد، حقيقة، أنه لا الأمريكيين ولا الإسرائيليين لم يفهموا الحالة الذهنية ولا العقلية العربية. وعلى سبيل المثال: أراد الإسرائيليون (وكان يساندهم الأمريكيون فى ذلك) إقامة علاقات دبلوماسية فى أقرب وقت بين بلدينا. ولقد حاولت كثيرًا أن أشرح لهم أنه نظرًا للحساسية المفرطة للعرب إزاء هذه المسألة، فمن الأفضل أن نتجه فى الأمور تدريجيًا، وترك وقت يمكن من خلاله إحراز تقدم على الجبهة الفلسطينية، ولكن لم يكن هنا سبيل لإقناعهم. حتى إن كارتر اتهمنى بأننى أحاول تعقيد الأمور.

أندريه فيرساى: من جانبه، كيف تم استقبال بيجين فى إسرائيل؟

شيمون بيريز: استقبل بيجن عند عودته من كامب ديفيد، بشيء من البرود من جانب اليمين الإسرائيلي وأيضًا من جزء كبير من أنصاره. وفى تناقض غريب، تعرض للانتقاد من جانب جزء من أعضاء حزبه بينما هنأه خصومه، بالأخص أعضاء حزب العمل. ولكن الصحافة فى مجملها ساندته. ويجب علينا، رغم كل شىء، الإعجاب به لأنه نجح فى إقامة السلام مع عدوه الأول والأساسى، ودفع فى مقابل ذلك ثمنًا غاليًا. لأنه إن كانت الغالبية العظمى من الإسرائيليين تؤيد اتفاقيات السلام، فإن قرار تفكيك مستوطنة ياميت فى سيناء أصابت عددا منهم بالصدمة. بالإضافة إلى خوفهم من رؤية البلاد تتقلص بسرعة (مساحة سيناء تمثل أكثر من ضعف مساحة إسرائيل) .. وهذا يعنى أن يفقدوا فى وقت واحد العمق الإستراتيجى الذى استفادوا منه منذ عام ١٩٦٧م.

أندريه فيرساى: ما الذى حث بيجين، رغم تعهداته، أن يقبل فى النهاية إعادة سيناء وأيضًا، تفكيك ياميت؟. يقول بريجينسكى فى *مذكراته*: إنه فى أثناء مناقشة خاصة، أقسم له بيجين قائلاً: «*ستسقط عينى اليمنى ويدى اليمنى قبل أن أوقع على تفكيك أصغر مستوطنة يهودية*». وتحدث البعض - فى الوقت نفسه - عن حديث هاتفى بين رئيس الوزراء الإسرائيلى وآرييل شارون الذى تعهد له بمساندته فى تنازلاته.

شيمون بيريز: إلى حد ما، أعتقد أن سيناء لم تكن بتلك الأهمية بالنسبة لبيجين، كما كان يقول: وفى النهاية، سيناء ليست جزءًا من الأرض الموعودة، لذلك، نستطيع أن نقول إنه لم يفشل فيما اعتبره مهمته التاريخية. أما بالنسبة لمستوطنة ياميت، فلم يكن بيجين هو الذى اتخذ قرار تفكيكها. كان بيجين يعلم تماما أنه لن يقنع حتى أصدقاءه هو بضرورة تفكيكها، لذلك ترك الأمر للبرلمان ليأخذ فيها قرارًا. وذلك لا يمنع أن بيجين استغل كل موهبته فى الخطابة من أجل إقناعهم بـ «السلام» الذى حققه. ولا تنخدعوا بالمظاهر، كان الثمن الذى دفعه الجانب الإسرائيلى أكبر بكثير مما توقع المفاوضون. لقد كان السادات مصمما على استعادة سيناء بالكامل: لم يرض بالتنازل عن شبر واحد من الأرض. قال أحد أدبائنا، إيزهار سميلانسكى، الذى كان يؤيد السلام مع مصر: «*ولكن ليتنازل على الأقل، عن واحد من ألف من الأرض إن كان يريد أن يثبت رغبته فى السلام!*» ولكن السادات لم يتنازل عن شىء، حتى آبار البترول استعادها، بينما كنا نشعر بالخوف من أن نحتاج إلى البترول.

أندريه فيرساى: قلت إن حزب العمل ساند مناحم بيجين. ولكنه رغم ذلك، لم يمتنع عن توجيه الانتقادات إليه. أنت نفسك، قمت بإدانة الطريقة التى قام بها بيجين بإدارة المفاوضات، وزعمت أنه كان يستطيع الحصول على شروط أفضل لإسرائيل. هل كنت

حقيقة تؤمن بذلك، أم كنت ببساطة تلعب دورك كزعيم المعارضة؟ ولقد عاتبت بيجين لأنه قبل تفكيك ياميت؟

شيمون بيريز: لقد سارت الأمور على النحو التالى: كان هناك انقسام فى الحزب بخصوص هذه الاتفاقيات، وأنا عن نفسى، أدرك ذلك، كنت كارهًا قبول تفكيك ياميت. ورغم ذلك، إن كان رفض تفكيك المستوطنة سيؤدى إلى إلغاء اتفاقية السلام، فإننى أذعن لفقدان ياميت. ولأن بيجين لم يكن يتمتع بأغلبية، فقد وقفنا بجانبه وصوتنا لصالح اتفاقية السلام، ومعها الجزء الخاص بياميت.

أندريه فيرساى: بعد بضعة أشهر، ومع الانسحاب من سيناء، ستقوم إسرائيل بتدمير قرى ياميت عن آخرها. بينما كان المصريون قد اقترحوا شراءها كلها بخمسين مليون دولار. ولقد رفض الإسرائيليون. لماذا؟

شيمون بيريز: لقد فكرنا: *«إن كان علينا إعادة ياميت، فيجب أن نعيدها كما كانت قبل يونية عام ١٩٦٧ م»*. لقد كانت طريقة للاعتراض على تفكيك المستوطنة. يجب القول، لقد ارتكبنا خطأ. لقد كان أحد تلك القرارات التى اتخذت بدون تفكير طويل.

ولكن كل قصة إعادة ياميت كانت لا تصدق. فمن أجل إقناع المستوطنين بضرورة التخلى عن مستوطناتهم، أرسل بيجين لهم أكثر مساعديه الدينيين تطرفًا، الحاخام ليفينجر، ولكن بلا جدوى: لقد كانوا مستوطنين متطرفين حقيقة. وأمام هذه المقاومة الشرسة، جاء الجيش ومعه أقفاصًا تعمل برافعات، وهكذا تم رفع سكان ياميت. لقد كان الحادث مهولاً ورهيبًا! البعض بدأ يتخوف من حرب أهلية...

أندريه فيرساى: هل كان هناك فعلاً خطر الحرب الأهلية؟

شيمون بيريز: أنا شخصيًا لا أعتقد، ولكن بعض الإسرائيليين كانوا خائفين حقا منها. وعلى أية حال، فإن احتمال وقوع أزمة لم يكن مستبعدًا تمامًا. تخيل مثلا مقتل خمسة أو ستة مستوطنين فى أثناء الاضطرابات، لكان ذلك قد تحول إلى مأساة ووضع إسرائيل كلها فى حالة من الانفعال. مقتل شخص واحد فقط كان سيؤدى إلى أزمة قومية، لأن قرار تفكيك ياميت لم يكن مقبولا تماما من جزء كبير من الشعب الإسرائيلى.

من كان يتخيل أن ترويكا، تضم ثلاثة رجال من أكثر المعارضين للانسحاب من الأراضى المحتلة، بيجين وشارون ورافائيل إيتان (رئيس الأركان) يمكنهم أن ينفذوا إخلاء المستوطنة

ثم تدميرها؟ وحتى فى أسوأ كوابيسهم، لم يفكر أى من الرجال الثلاثة أنه يوما ما سيستطيع القيام بهذا «العمل المشين». لم يتخيل أحد هذا الوضع، وأنا، أقل من أى شخص آخر. لقد كنت أرى أنه: «*مستحيل، لن يقبل بيجين أبدًا مثل هذا العمل. وبالأحرى شارون أو إيتان!*»، ولكنهم قاموا به. الثلاثة معا. إنها من تلك الأشياء التى لا يتوقعها أحد فى التاريخ..!

لماذا قبلوا بهذا؟ شارون أراد بلا شك أن يظهر ولائه إلى بيجين؛ أما إيتان، فقد كان جنديًا لا يقبل بغير الانضباط فوق كل انفعال. بيجين؟ الدور التاريخى، ربما.. لأن بيجين قَبِل فى النهاية تنازلات لم يكن يتصور قط أنه سيقبلها. ومهما بدا متشددا، إلا أنه تطور بطريقة غير متوقعة. ومرة أخرى، لقد رأينا رجلاً يأتى من اليمين ويقوم فى النهاية رغما عنه، بتطبيق سياسة اليسار.

لقد أظهر كل من السادات وبيجين شجاعة حقيقية، لأن هذا السلام، أقاماه فى تناقض كامل مع قناعاتهما العميقة، وبرغم من أفكارهما المسبقة والمحرمات، وبالأخص ضد جزء كبير من الرأى العام فى معسكر كل منهما.

أندريه فيرساى: فى هذا السلام، لعب كارتر دورا لا يستهان به. وايزمان أشاد بالرئيس الأمريكى، وأعلن أنه شخص لا يتعب، ويعمل ٢٤ ساعة فى اليوم، وأظهر «*عنادًا فريدًا لا يوجد إلا لدى كلاب البولدوج*»، كما أظهر معرفة جادة لكل مسألة طرحت وكل نقطة خلاف.

شيمون بيريز: لقد لعب كارتر دورًا مهمًا: كان يتحلى بصدق لا غبار عليه وبعدم تحيز صارم، كان متمسكا تماما بإنهاء عملية السلام. وحقق المستشاران، أهارون باراك وأسامة الباز من جانبهما أيضًا، إنجازًا مهمًا. ورغم ذلك، فإذا كان التوقيع أخيرًا قد تم على اتفاقيات كامب ديفيد، فذلك بفضل السادات؛ لأنه برغم كل تصريحاته، فى اللحظات الأخيرة، قدم السادات تنازلات بدونها كانت فشلت كل المفاوضات. وبرغم الرأى العام والضغوط العربية، فقد كان السادات يتحلى بالشجاعة الكافية لكى يتقدم إلى الأمام وينجز عملا تاريخيا.

بطرس بطرس غالى: هذا حقيقى، ولكن لنتذكر، على كل حال أن المفاوضات لم تسر على أساس متكافئ؛ لقد كان الإسرائيليون يحتلون الأراضى التى لم يكن يستطيع العرب استعادتها بالقوة. والجميع كان يعلم ذلك تماما. بالإضافة إلى أنه نظرًا لكون المبادرة قد جاءت من السادات، فإن التنازلات لا يمكن أن تأتى إلا منه هو أيضًا.

أندريه فيرساى: بعد تسوية قضية إعادة سيناء، بقت مسألة الحكم الذاتى الفلسطينى. المسار الثانى من اتفاقيات كامب ديفيد بعنوان: «*اتفاق ـ إطار من أجل السلام*»، وفيه تم ذكر إجراء مفاوضات فى المستقبل حول «*تقرير المصير للشعب الفلسطينى*». فى هذه المرحلة، ماذا يعنى بالضبط «*الحكم الذاتى*» هذا، بالنسبة للإسرائيليين؟

شيمون بيريز: لقد تعاملنا بحذر بالنسبة لتفسير «تقرير المصير». فبالنسبة لجزء من الإسرائيليين، كانت هذه الكلمة غير مقبولة على الإطلاق والاعتراف بها كان يعتبر انتهاكا حقيقيا للمقدسات!

فيما بعد، عندما قام بيجين بإحراز تقدم فى اتجاه حل وسط حول «الحكم الذاتى» للفلسطينيين، فإن الأمر كان مجرد حكم ذاتى محلى ودينى، أما الأراضى فستظل خاضعة للقانون الإسرائيلى، لأنه تمسك بأن تظل السلطة على الأراضى فى يدنا. كانت الصيغة التى يستخدمها هى: «*نعم للحكم الذاتى للشعب، لا للحكم الذاتى للأرض*». لم يكن هذا الموقف عاقلا جدا؛ فالشعوب لا تعيش فى الهواء، *كما هو الحال فى لوحات شاجال*..

مسألة الحكم الذاتى الفلسطينى هذه أصبحت بالنسبة لنا، من المحرمات. وهكذا، عندما اضطررنا فيما بعد إلى مواجهة مسألة بطاقات الهوية الفلسطينية، أردنا أن يكتفوا ببطاقة مرور، بينما كانوا متمسكين بأن تحمل تلك البطاقات كلمة «*جواز سفر*». توقفت المفاوضات. واقترحت فى ذلك الوقت على البرلمان أن تذكر البطاقة الصيغتين. وهو ما تم الموافقة عليه، على أن تظهر، بالطبع، كلمة «مرور» بحروف كبيرة بينما تظهر كلما جواز سفر بحروف صغيرة. وتم طبع بطاقات الهوية. ولكن بعكس ما تقرر، ظهرت كلمة جواز سفر بحروف كبيرة وبارزة، بينما كلمة مرور بحجم صغير.. ماذا يمكننا أن نفعل؟ اليوم، أتحدث عن ذلك وأنا أضحك بالطبع، ولكن فى ذلك الوقت، بدا لى الأمر خطيرًا.

وكذلك، فيما يخص تعبير «*الشعب الفلسطينى*». هذا التعبير لم يكن مقبولا بالمرة! إلى حد أن بيجين طلب من كارتر أن يكتب فى الوثيقة الإسرائيلية بالعبرية: «*الفلسطينيون*» وليس «*الشعب الفلسطينى*». وبما أن كارتر لم يجد اختلافًا كبيرًا بين التعبيرين، لم يعترض عليه. وهو ما سمح لبيجين أن يعلن فى الكنيست أنه لم يعترف بـ «*الشعب*» الفلسطينى.

فى نظرة إلى الأمر بعد مرور الوقت، ندرك بالتأكيد أن هذا العائق كان على أقل تقدير مبالغًا فيه.

أندريه فيرساى: فى هذه الفترة، لم يكن أعضاء حزب العمل ولا أنت شخصيا، على استعداد للاعتراف بالفلسطينيين كشعب ولا قبول إقامة دولة فلسطينية بجانب إسرائيل فى الضفة الغربية وغزة؟

شيمون بيريز: لقد كنا بالطبع لصالح «الخيار الأردنى» الذى تحدثت عنه معك. أى أننا كنا على استعداد للتفاوض حول «تقسيم» السيادة على الأراضى المحتلة، ولكن مع عمان. ولكننا لم نكن على استعداد بالتأكيد، لبدء مباحثات مع منظمة التحرير الفلسطينية التى كنا لانزال نعتبرها منظمة إرهابية تتمسك بالإشارة فى ميثاقها إلى مشروع تدمير إسرائيل.

لذا فلم يكن الأمر رفض التفاوض بخصوص وضع الضفة الغربية وقطاع غزة، ولكن معرفة مع أى شريك نتفاوض.

بطرس بطرس غالى: من جانبنا، كنا مقتنعين أنه إن أحرزت المفاوضات على الحكم الذاتى أى تقدم وأعطت نتائج، فإن الفلسطينيين والأردنيين سوف ينضمون إلى عملية السلام. كان السادات مقتنعا بأنه إذا حصلت الأردن، عبر أراضى غزة، على معبر نحو البحر المتوسط، فسوف تعطى كل التنازلات من أجل التوصل إلى حل فيدرالى أو كونفدرالى يرضى الفلسطينيين.

أندريه فيرساى: أمام المشاكل التى أثارتها مسألة الحكم الذاتى الفلسطينى، يبدو لنا أننا نتجه - إذن - نحو خيار جديد.

بطرس بطرس غالى: نعم، لقد أردت، فى ذلك الوقت، أن نتفق على خيار «*غزة أولاً*». أتذكر أنَّ موشيه دايان قال لى، إنه إذا كان ما زال يعتبر مناقشة الضفة الغربية مسألة سابقة لأوانها، فهو مستعد من ناحيته أن يتخلى عن غزة، بدون أن يكون متأكدًا، رغم ذلك، أن حكومته والرأى العام لديه سوف يتفقان معه.. وأخيرا أذعن السادات لمسألة لم تكن هينة، لأنه كان بالأحرى مشغولاً بخياره الخاص، «*مصر أولاً*». ولقد اقترحنا عليه، فى هذا الوقت، بألا يقيم علاقات دبلوماسية بين مصر وإسرائيل إلا بعد أن تصبح غزة منطقة ذات سيادة وأن تتم فيها أول انتخابات. ولكن بيجين اعترض على مبدأ «*غزة أولاً*»، مشيرًا إلى أن غزة والضفة الغربية كانتا مرتبطتين ارتباطًا وثيقًا فى اتفاقيات كامب ديفيد. ولا نستطيع إذن أن نقيم الحكم الذاتى الفلسطينى على مرحلتين. ومن ناحية ثانية، رفض عرفات أيضا هذا الخيار خوفًا من أن يؤدى تسوية وضع غزة إلى تأجيل الضفة الغربية إلى أجل غير مسمى. وأمام هذين الرفضين، قال لى السادات: «*بطرس، أنت لا تريد، على كل حال، أن تكون*

ملكيا أكثر من الملك؟» ولكنى صممت وقلت إننا «المصريون» كنا مسئولين عن غزة، حيث إننـا احتلّينا هذا القطـاع من الأرض من عام ١٩٤٨م إلى عام ١٩٦٧م. ولقد كانت الوسـيلة الوحيدة للرد على الهجوم الذى تشنه الدول العربية ضدنا، والذى كان يتزايد عنفا (حتى ولو تظاهر السادات بتجاهله، فقد كنا نعانى منه بشكل مستمر)، هى تسوية مسألة غزة.

ومن ناحية أخرى، وفى إطار اهتمامنا بإظهار أن مصر ما زالت معنية بوضع الفلسطينيين، تحولت لدراسة مصير العائلات المنقسمة على جانبى خطوط الهدنة. وكان هذا السبب هو ما جعلنى أطلب من إسحاق رابين، بعد وقت طويل من اتفاقيات كامب ديفيد، أن يساعدنا: «*إن كنا نريد إقامة أفضل العلاقات بين بلدينا، ساعدنى على أن أظهر للرأى العام لدينا، أننا، نحن المصريون، مشـغولون بالفلسـطينيين. على سـبيل المثال، اسمح لسـفارتنا أن تتدخل مـن أجل جمع شـمل العائـلات واعطهم السـلطة الضرورية لتحقيق هـذا التجميع العائلى. إن أظهرنا قدرتنا على أن نفيد الفلسـطينيين، فذلك سـوف يؤخذ فى الاعتبار، وسنستطيع أن نحصل على ثقة المزيد من الفلسـطينيين الذين فى النهاية، سـيقرون بأن مبادرة السـلام التى قمنـا بها هى شـىء جيد بالنسـبة لهم أيضًا. سـاعدنا علـى أن نلعب هذا الدور. ذلك سـوف يسـهل بلا شك المسائل بين بلدينا*». فأجابنى قائلا: «*سيد بطرس غالى، أنت لا تستطيع أبدا منافسـة الملك حسـين الذى ينفق ٣٧ مليون دولار سنويًا، ولا عرفات الذى ينفق ٣٢ أو ٤٢ مليون دولار سنويًا*». لست متأكدًا من دقة الأرقام التى ذكرتها. ولكن هذا لا يهم، إن قيمتها الرمزية، والصراحة التى تحدث بها معى رابين، هذا ما أثر فىّ.

أندريه فيرساى: ما الذى يجعل الأردن قادرة على مساعدة الفلسطينيين، وليس مصر؟

شيمون بيريز: لأن الفلسطينيين بالضفة الغربية بقوا رسميا مواطنين أردنيين. لذلك استمر حسـين فى دفع رواتب الأساتذة والموظفين الأردنيين بالضفة الغربية بعد عام ١٩٦٧م. إنها وسـيلة لمواصلـة مسـاعدة الفلسـطينيين والحفـاظ على ولائهم لـه. ولكن مصـر، كما ذكر بطرس، لم تعط حق المواطنة للفلسطينيين فى قطاع غزة.

إن كنـا، بعـد سـلام كامب ديفيـد، قد رفضنـا أن تقوم مصـر بلعب دور فى مسـألة جمع شـمل العائلات؛ فذلك لأننا كنا مقتنعين أنه لحظة فتح الباب للفلسطينيين لكى ينضموا إلى عائلاتهم، لن يتوقف التدفق، وفى اليوم الذى سنرفض فيه دخول فلان أو فلان، فإننا نخاطر بإثارة أزمة مع القاهرة.

كما كان أملنا، فى إطار الخيار الأردنى دائمًا، أن يقوم حسين بإدارة غزة. فتستطيع الأردن هكذا بالاستفادة من الانفتاح نحو البحر. وسكان غزة سيحصلون على الجنسية الأردنية، هؤلاء الذين حتى تلك اللحظة لم يكن لديهم حتى جواز سفر، وبالتالى لا يستطيعون التنقل من مكان إلى مكان آخر. ولقد اتخذت عدة مبادرات فى هذا الاتجاه، حيث إن عمان منحت بالفعل نحو ٣٥ ألف جواز سفر إلى سكان غزة، وهو ما سمح لهم بالتنقل والحصول على عمل فى البلاد العربية؛ حيث الرواتب كانت أعلى كثيرًا منها فى غزة. لقد بدأت تلك السياسة بهدف منح فلسطينيّ غزة نفس الوضع مثل فلسطينيّ الضفة الغربية.

ورغم ذلك، فالمسألة لم تحرز نجاحا كبيرا؛ فلقد اضطر حسين نفسه أن يقوم بعملية اختيار بين الفلسطينيين المرشحين للحصول على الجنسية الأردنية، وهو ما أثار توترات فى غزة.

أندريه فيرساى: فى الوقت الذى تتواصل المباحثات حول الحكم الذاتى الفلسطينى، سمح بيجين بتوسع جديد للمستوطنات القائمة فى الضفة الغربية (لقد أقر بيجين بموافقته على وقف إقامة مستوطنات جديدة ولكنه لم يمنع توسيع تلك الموجودة بالفعل). هذا التوسع أثار غضب كارتر. وكتب لبيجين يوم ٢٦ أكتوبر عام ١٩٧٨م يقول: «*فى الوقت الذى نحاول أن ننظم فيه مفاوضات حول الضفة الغربية وغزة*، لا يوجد *ما هو أكثر ضررًا* من هذا الإجراء من جانب *الحكومة الإسرائيلية. إننى آسف لأن أعلن لك أن هذا القرار*، فى *هذا الوقت بالتحديد*، سيكون *له عواقب مؤسفة للغاية على علاقاتنا*».

بطرس بطرس غالى: وبالطبع، التهديدات التى وجهها الرئيس كارتر لم تسفر عن أية نتائج.. فمن خلال التسريع بعملية إقامة المستوطنات فى الضفة الغربية، كان بيجين يبحث فى حقيقة الأمر عن خلق وضع «الأمر الواقع» الذى يصعب الرجوع فيه.

شيمون بيريز: فى الحقيقة، كان هناك احتجاج شديد من جانب الدول العربية ضد هذه المفاوضات، إلى حد أن بيجين لم يتصور على الإطلاق أن السادات قادر على التحدث باسم كل العرب، ولا بالتأكيد، أن يتحرك بشكل شامل بدلا منهم. تصور السادات أنه قادر على أن يجعل بيجين يتطور فى موقفه حول الوضع النهائى للقدس، وحول مسألة تفكيك المستوطنات، وأخيرا حول حق تقرير المصير للفلسطينيين وحقهم فى المشاركة فى المفاوضات الخاصة بمستقبلهم. ولكنه اصطدم برؤية بيجين، التى تؤكد أنه ليس هناك شعب فلسطينى. ومن البداية، دخل بيجين فى مفاوضات مع السادات، ليس من أجل التوصل إلى سلام شامل مع العرب، ولكن من أجل السلام مع مصر. وكما قلت من قبل،

كان يبدو مرنًا إلى حد ما حول مسألة إعادة سيناء ولكنه ظل متشددا حول الضفة الغربية، يهودا والسامرة هذه التى كان يعتبرها بمثابة أراضٍ مقدسة، ولم يكن يرى فى الحقيقة، لماذا تهتم مصر حين تقيم إسرائيل مستوطنات فيها!

بطرس بطرس غالى: منذ مفاوضات كامب ديفيد، كنا نقول للإسرائيليين: «*كيف تريدون إعطاء أمل للفلسطينيين بالتوصل إلى حل لمشاكلهم إن كنتم تقومون كل يوم بتكوين مستوطنة سكانية جديدة؟ إنكم لا تستطيعون أن تزعموا أنكم تريدون التوصل لحل مشاكل الفلسطينيين وفى نفس الوقت تضعونا يوميا أمام أمر واقع*». وعلى سبيل الرد، كنا نجد أنفسنا فى مواجهة سلسلة من الحجج مثل: «*لم نقم مستوطنة جديدة، لقد وسعنا القديمة*»، إلخ. وكان تأثير ذلك بمثابة الكارثة. كان يمكن فهم أن تقوموا ببناء مستوطناتكم خلال حالة الحرب بين العرب وإسرائيل. ولكن أن تواصلوا استيطان الأراضى فى نفس الوقت الذى كنتم تقومون فيه بالتفاوض من أجل السلام ومستقبل الضفة الغربية وغزة، هذا يجعلنا، أنتم ونحن، نفقد كل مصداقية فى نظر العرب، وخاصة الفلسطينيين.

لقد قالت لنا الحكومات العربية إن الإسرائيليين لن يتخلوا أبدا عن الأراضى المحتلة؛ وإننا نضيع وقتنا، وإن علينا بدلا من ذلك أن نعد أنفسنا لمواجهة جديدة. وعندما لم تصل «*مباحثات الحكم الذاتى*» إلى شىء ملموس، تضاعفت الانتقادات: «*كيف تعودون إلى تل أبيب للمباحثات؟ ماذا، هل سيعود أصدقاؤكم إلى الإسكندرية؟ ولكن فى النهاية، إنكم تفتقدون للعقل! وتزعمون أنكم تتحدثون باسم الفلسطينيين، بينما هم لم يعطوكم أبدا توكيل بذلك ؟ على من تضحكون؟ أم أن لديكم نيات مبيتة: المزايدة على القضية الفلسطينية من أجل التأكد أن الإسرائيليين سينسحبون على الأقل من سيناء كلها*».

وكنت أجيب قائلاً: «*يا سادة: دايان قال إنه يفضل الحرب مع شرم الشيخ عن السلام بدونها. وايزمان زعم أنه لن يتنازل عن المطارات العسكرية فى سيناء. وأعلن بيجين عن نيته قضاء أيامه الأخيرة فىياميت؛ إلخ. ورغم ذلك حصلنا على الانسحاب من سيناء بالكامل. لا تحكموا مسبقا على مواقف المستقبل، استنادا على تصريحات سياسية تعمل للاستخدام المحلى. اتركوا لنا الفرصة! وإلا قدموا أنتم بديلاً أكثر إيجابية*».

وكنت أضيف أننا على عكس ما كانوا يعتقدون، كنا على اتصال مع الفلسطينيين الذين سيسارعون بالانضمام إلينا عندما نحقق تقدما. ذلك كان مبالغًا فيه جدًا، لقد كانت العلاقات التى يمكننا إقامتها مع الفلسطينيين علاقات ملتزمة جدًا. باختصار، لقد كنا فى موقف غير مريح على الإطلاق.

كانت مخاوفى خلال فترة *«مباحثات الحكم الذاتى»* تتركز فى أن يعارض بيجين أى شكل من أشكال الحكم الذاتى السياسى أيا كان. كان يرفض حتميا التنازل عن السيطرة العسكرية على الضفة الغربية وغزة، وتمسك بمبدأ القدس الموحدة *«العاصمة الأبدية لإسرائيل»*. باختصار، كان يتراءى لى بشكل أوضح، أن فى كل الأحوال، لم يكن الإسرائيليون يسعون إلا من أجل شىء واحد: كسب وقت بخصوص قضية الفلسطينيين حتى يتمكنوا من توقيع اتفاق سلام منفصل مع مصر.

ولتبرير هذا الموقف، كان يحلو للإسرائيليين أن يذكرونا دائما برفض الفلسطينيين. قال لى دايان: «*كيف يمكن لمصر أن يكون لها مطالب لصالح الفلسطينيين، بينما هؤلاء يرفضون ليس فقط التفاوض مع إسرائيل، ولكن أيضا مساندة مصر فى إطار كامب ديفيد؟*». لقد كان على حق طبعا، ولكنى كنت أريد بشدة إحراز تقدم فى المفاوضات حول الحكم الذاتى والحصول على نتائج للفلسطينيين، حتى أستطيع أن أوحى لهم ببداية ثقة، وللعرب أيضا بشكل عام، كى ينضموا إلينا فى عملية السلام. ولكن كان لدى انطباع غير مريح، بأن التشدد العربى قد التقى بالتشدد الإسرائيلى فى «جبهة رفض» واحدة..

أندريه فيرساى: قبل توقيع اتفاقية السلام بقليل، منحت جائزة نوبل للسلام لكل من السادات وبيجين.

بطرس بطرس غالى: لم يتوجه السادات إلى ستوكهولم، بل كان يمثله هناك سيد مرعى رئيس مجلس الشعب. ففى قرارة نفسه، شعر السادات أن السفر إلى القدس، نقطة الانطلاق نحو السلام، كان نابعًا من مبادرة شخصية منه هو فقط، ولم يبد أنه قبل أن يتساوى بيجين معه.

شيمون بيريز: عندما أعلنت النبأ بنفسى لجولدا مائير، نظرت إلىّ، ثم قالت بعد لحظات: «*نوبل للسلام لبيجين؟ كيف؟ كان يجب منحه جائزة الأوسكار..*»!

أندريه فيرساى: جاء يوم ٢٦ مارس عام ١٩٧٩م: أقيمت مراسم الاحتفال الرسمى بتوقيع معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر فى البيت الأبيض.

بطرس بطرس غالى: نعم، كنت أجلس بجانب كيسنجر الذى كان يتصرف وكأنه شاهد على عقد زواج. بعد سنوات من الحدث، قص لى السفير الأمريكى فى القاهرة أن كيسنجر قال له فى هذا اليوم: «*لماذا، بحق السماء، وقع السادات على هذه المعاهدة؟ كنت سأستطيع الحصول له على أفضل من ذلك..*».

ومـن الغريـب أننى لم أشـعر أنى جزء مشـارك فى هـذه الاحتفالية. شـعرت كما لو أننى مجرد مشـاهد ولسـت لاعبًا. وبينمـا كانت تتم عمليـة التوقيع علـى المعاهدة، سـمعنا فى الخـارج مظاهرات معادية بشـدة لاتفاق السـلام: «*لقد تخليتم عن العـرب! لقد تخليتم عن الفلسطينيين!*» ولقد آلمنى ذلك. فكيف شعر السادات إزاء ذلك؟ هذا ما لا أعرفه.

فـى المسـاء، نظم البيـت الأبيض حفل عشـاء كبيـر. وجاء مجلسـى مع زعمـاء الجالية اليهوديـة الأمريكية الذين لم يتوقفوا عن ترديد إلى أى حد هم سـعداء بهذا السـلام. ولكنى كنت معنويا مرهقا جدا ولـم أستطع مشاركتهم، ولو بقدر قليل، فى فرحتهم.

أندريـه فيرسـاى: عـاد الوفد المصـرى إلى القاهرة حيـث من المقـرر أن يناقش مجلس الشعب معاهدة السلام.

بطـرس بطـرس غالي: نعـم، ألقى العديد مـن النواب خطبا، سـواء للإشـادة بالمعاهدة أو انتقادهـا: هـذه المعاهـدة، ألا تنتهك التزاماتنا التـى تربطنا بأعضاء جامعـة الدول العربية الآخريـن، خاصـة القـرار رقم ٢٩٢ الذى ينص علـى أنه ليس من حـق أى دولة أن تتفاوض على سلام منفصل مع إسرائيل؟ ألا تضع هذه المعاهدة المصريين المغتربين الذين يعملون فى البلاد العربية فى خطر؟ ألا تؤدى إلى تزايد مخاطر الصراع المسلح بين إسرائيل وجيراننا العـرب؟ ألـن تؤدى إلـى وقـف المسـاعدات الاقتصاديـة العربية إلـى مصر؟ منـع الدعاية المناهضـة لإسـرائيل، ألا يعنى ذلك أن نخضـع بعض الآيات القرآنية التى تشـير إلى اليهود للرقابـة؟ وأخيرًا، هـذه المعاهدة، ألا تفتـح الطريق إلى الهيمنة الأمريكيـة على مصر وعلى كل المنطقة؟

أندريه فيرسـاى: معاهدة السلام هذه، هل كانت متوافقة مع المعاهدات التى تم التوصل إليها من قبل مع بعض الدول العربية ومع جامعة الدول العربية؟

بطـرس بطـرس غالي: المشـكلة كلها تكمن فـى توافق المعاهدات. فمـن حيث المبدأ، يَجُـبُّ الاتفـاق الأخير كل المعاهدات التى سـبقته. ولكنـه لا يَجُبُّ الحقـوق التى لا يجوز التفريـط فيهـا، مثل حق الدفاع الشـرعى. لذلك، فـإن الاتفاق العربى حول الأمن المشـترك والذى قام على أسـاس حق الدفاع الشرعى، يسود فى حالة هجوم إسرائيلى محتمل. وعلى أيـة حـال، سـنرى أن الحرب فى لبنان سـتتجنب هـذه القاعدة، لأنهـا لا تعتبـر حربا بمعنى الكلمـة، ولكن سلسـلة من الإجـراءات الانتقامية. والدليل على ذلك، حسـب ما أعرفه، أن جامعة الدول العربية لم تعقد لبحث هذه المشكلة.

وعنى شخصيًا، فقد قدرت أن مصر، فى نهاية الأمر، بذلت ما يكفى من طاقة ومن أرواح بشرية ومن أموال للدول العربية بشكل عام وللقضية الفلسطينية بشكل خاص، وأنه جاء الوقت لأن تفكر فى نفسها. ولقد تبنيت خيار «*مصر أولا*» للسادات وأنا مقتنع أن أنصار جبهة الرفض سوف يدركون فى النهاية خطأهم، ويعترفون أن الحوار مع إسرائيل هو فى النهاية الفرصة الوحيدة لحل هذا الوضع المعقد والدموى.

فى نهاية المناقشات التى جرت فى مجلس الشعب، تم الموافقة على معاهدة السلام بأغلبية ٣٢٩ صوتًا مقابل ١٥ صوتًا، وامتناع صوت واحد. وفى هذه اللحظة أصاب المجلس هيستيريا جماعية. ووقفت فايدة كامل المطربة المصرية ونائب فى المجلس، على المقعد وصاحت: «*يحيا السادات! تحيا مصر!*»، كلمات رددها وراءها أعضاء المجلس. ثم بدأت تنشد: «*بلادى بلادى بلادى، لك حبى وفؤادى!*» أغنية وطنية كانت تعتبر بمثابة النشيد الوطنى. وبدأ جميع أعضاء المجلس ينشدون الأغنية فى مناخ مُحمّل بالكثير من المشاعر. بعد بضعة أيام، قرر السادات أن يكون نشيد بلادى..بلادى..هو النشيد الوطنى لمصر بداية من هذا اليوم.

وعلى أية حال، رأى الريس أن موافقة مجلس الشعب على معاهدة السلام ليست كافية. وأراد أن يوافق عليها الشعب فى استفتاء شعبى، حتى ترى المعارضة أن الشعب المصرى كان موافقا على المعاهدة، كما أن ذلك سوف يؤكد، أيضا، للإسرائيليين على رغبة مصر فى السلام.

فى يوم الاستفتاء، ١٩ إبريل، كنت أتجول بين حشود الناخبين الذين بدوا سعداء بشكل خاص. كنت أريد أن أسأل بعضهم عن رأيه. البعض، الذين فقدوا أبناء لهم فى الحرب، قالوا إنهم يشعرون بالراحة لأنه لن تكون هناك حرب أخرى، وآخرون أكدوا لى أن الأمريكيين سوف يبنون مصانع فى مصر، وهو ما سوف يعطى الجميع فرص عمل، وآخرون أيضا، كانوا راضين لأنهم يرون أن مصر حاربت بما فيه الكفاية من أجل البلاد العربية الأخرى التى، من جانبها، لم تفعل شيئا لأجلها، إلخ. فى الفترة التى قاطعنا فيها العالم العربى، وبينما كان الاستبعاد والعزلة الدبلوماسية التى جاءت من الدول الشقيقة يجرح كرامتنا، جاءت هذه التصريحات لتؤكد لنا أن الشعب المصرى يشعر بالتضامن مع مبادرتنا، وأعترف لك أن ذلك جعلنى أشعر بالسعادة. فعلى الأقل كان الشعب على نفس الخط معنا.

ولأول مرة، فهمت شعور الوحدة الذى كان بالتأكيد يشعر به الإسرائيليون الذين ظلوا مستبعدين تمامًا من جزء كبير من المجتمع الدولى.

أندريه فيرساى: كيف ستسير إذن، العلاقات بين مصر والدول العربية؟

بطرس بطرس غالى: لقد كان العالم العربى يقدس مصر التى كانت دائمًا زعيمة له. ولكنها ما بين ليلة وضحاها، بدأت تعانى من المقاطعة، ليس فقط فى العالم العربى ولكن أيضا فى العالم الإسلامى، ولدى الأفارقة وفى دول عدم الانحياز. وأصبح وضعها الدبلوماسى صعبًا جدًا: فقد تم استبعادها من جامعة الدول العربية (التى تأسست، كما ذكرت، فى القاهرة) ورُفض حضورها إلى المؤتمر الإسلامى، وتم تهديدها بالطرد من منظمة الوحدة الإفريقية ومن حركة عدم الانحياز... باختصار، كان هذا الوضع، بالنسبة للدبلوماسيين المصريين، مؤلمًا حقًا. وكنت، كلما دخلت إلى قاعة فى مؤتمر دولى، يقف كل ممثلى الدول العربية ويغادرون القاعة. لم يعد أحد يتحدث إلىّ. وأتذكر فى أثناء مؤتمر جامعة الدول العربية الذى انعقد فى يناير عام ١٩٧٩ فى الكويت، أى قبل توقيع معاهدة السلام، حيانى وزير الخارجية العراقى، الذى تصادف وجوده معى فى نفس الوقت فى دورة المياه، بلطف شديد ولكن فى الخفاء، ثم غادر المكان بسرعة قبل أن يفاجئه أحد وهو يتحدث إلىّ.

أندريه فيرساى: إن كان توقيع معاهدة السلام قد دفع جامعة الدول العربية إلى مقاطعة مصر، فإنه سيسمح للقاهرة بخفض الميزانية العسكرية. وبعد توقيع المعاهدة حصل الإسرائيليون والمصريون على مساعدات اقتصادية أمريكية كبيرة: فقد حصلت مصر على ٥ر١ مليار دولار وإسرائيل على ٣ مليارات دولار (منها ٨٠٠ مليون فى شكل مساعدات مالية والباقى كقروض). فى النهاية، كان هذا السلام مفيدًا بالنسبة لمصر، أليس كذلك؟

بطرس بطرس غالى: مفيد جدًا، حيث إن مصر استعادت سيناء وآبار بترولها، كما حصلت على مساعدات أمريكية سنوية تصل إلى حوالى ٣ مليارات دولار. إلا أننى لست متأكدًا تمامًا من دقة هذا الرقم. لقد قدر الجنرال كمال حسن على المساعدات التى قدمتها الولايات المتحدة إلى مصر فى الفترة من عام ١٩٧٨م إلى عام ١٩٨٢م إلى ٦ر٦ مليارات دولار، وبعد ذلك ما بين ٥ر١ و٢ مليار دولار كل عام. فى مواجهة ذلك، لم يبد أن المقاطعة الاقتصادية العربية لمصر أثرت كثيرًا، كما أن البلاد العربية، على عكس ما توعدت القيام به، لم تستطع، أو لم ترغب فى إعادة العمال المصريين الذين كانوا يعملون هناك. لذا لم تخسر مصر العملة الأجنبية التى كان يرسلها هؤلاء المغتربين إلى عائلاتهم، والتى كانت تصل إلى ما بين ٢ و٣ مليارات دولار حسب السنوات. وذلك بالإضافة إلى أن صادراتنا، رغم كل الاتهامات اللاذعة التى كانت الحكومات العربية توجهها إلينا، لم تتوقف أبدا إلى

العراق، زعيمة جبهة المعارضة. بل سوف تزداد بفضل شرائهم للأسلحة خلال الحرب الإيرانية - العراقية..

ثم مع الوقت، بدأت العزلة الدبلوماسية لمصر تضعف تدريجيا وعادت القاهرة فى النهاية لتلعب دورها كزعيمة عائلة الدول العربية.

لذلك، وبالطبع، بدون التقليل من شأن المساعدة الأمريكية، كانت الفائدة الحقيقية التى عادت على مصر من السلام، هى أنها لم تعد تعيش فى هاجس المواجهة العسكرية والسياسية مع إسرائيل، وأصبحت قادرة على تكريس نفسها للمشاكل الحقيقية للأمة: مثل الانفجار السكانى والإصلاح الإدارى ومشكلة المياه وعلاقات مصر مع بلاد وادى النيل، إلخ.

أندريه فيرساى: لنعد إلى إسرائيل: فى بداية عام ١٩٨١، بدأت الحملة الانتخابية. كيف تابعتها مصر؟

بطرس بطرس غالى: نحن، المحيطين بالسادات، كنا نؤيد فوز حزب العمل. ولكن بالعكس، كان السادات، من جانبه، لا يثق إطلاقًا فى حزب العمل. كان يؤمن ببيجين وخاصة بعيزرا وايزمان الذى قال له إن الحكومة سوف تتنازل فى النهاية عن الضفة الغربية وقطاع غزة، وأنه، لو حدث عكس ذلك، سوف يقدم استقالته (وهو ما فعله على أية حال).

لقد كنت أقول للسادات: «*ولكن، يا سيدى الرئيس، لماذا لا تقيم أيضًا علاقات مع المعارضة العمالية، الذين أبدوا مواقف أفضل لنا كثيرا؟*» فكان يجيب أنه يفضل مواصلة العمل مع بيجين، وكان يردد لى: «*سوف ترى، أنهم سوف ينسحبون من الأراضى الفلسطينية المحتلة*». هذا الاعتقاد كان يستند على حقيقة أن بيجين، الذى كان يعد من المتطرفين، سيكون أسهل عليه كثيرًا أن يقدم تنازلات. بالإضافة إلى أن السادات، باعتباره رئيسًا متسلطًا، كان يتجنب المعارضة بشكل عام. أذكر أنه فى الفترة التى لم يكن فيها ميتران بعد فى الحكم، أبدى لى رغبته فى مقابلة السادات. وبعد عودتى إلى القاهرة، أبلغت الريس بذلك، ولكنه رفض تماما فكرة أن يستقبل زعيم المعارضة الفرنسية. «*ولكن لماذا، يا سيدى الرئيس؟ لا شىء يمنع ميتران من أن يكون غدًا رئيسًا للجمهورية. - لأننى لا أريد أن أغضب الرئيس جيسكار ديستان*». أجبته أن الأمر فى فرنسا، كما فى إسرائيل، مختلف عن الأمر عندنا؛ لن يغضب أحد إن التقيت بزعيم المعارضة. ولكن السادات أنهى الحديث بقوله: «*السياسة المصرية تجرى هنا. ليس فى فرنسا. ولا فى إسرائيل*».

أندريه فيرساى: وفاز الليكود بالانتخابات.

بطرس بطرس غالى: نعم، وسوف يستقبل السادات حكومة بيجين الجديدة بحفاوة كبيرة، هذه الحكومة التى بدت توجها أكبر إلى اليمين، وانضم إليها آرييل شارون وآخرون أكثر تشددا. وقام السادات بتنظيم حفل الاستقبال بنفسه...

أندريه فيرساى: فى النهاية، هذا السلام سيكون حقيقة «سلامًا منفصلا». فى رأيك، بطرس بطرس غالى، هل كان الريس يتصور هذه الفكرة للسلام المنفصل، فى بداية مبادرته؟

بطرس بطرس غالى: قد أكون مخطئا بالتأكيد، ولكنى بصراحة، لا أعتقد إطلاقا أن السادات تصور من البداية أى سلام منفصل. لا، بل على العكس، كان يرى أنه بسبب وجوده على رأس أكبر بلد عربى، كان عليه مسئولية تجاه الشعب الفلسطينى، وأنه كان يرى أنه أفضل من يستطيع أن يتحدث بفاعلية لصالحهم. ومرة أخرى، كان السادات يأمل فى إعطاء دفعة لمسيرة السلام التى كان من الممكن أن تبدأ بإقامة حكم ذاتى، ثم تنتهى بإقامة دولة فلسطينية. وكان يأمل حتى فى التقريب بين السوريين والإسرائيليين، وأن يلعب دورًا فى مفاوضات محتملة بين البلدين.

أندريه فيرساى: ولكنه لن تتاح له الفرصة: ففى ٦ أكتوبر عام ١٩٨١م، اغتيل السادات فى أثناء العرض العسكرى.

بطرس بطرس غالى: منذ عام ١٩٧٤م نحتفل فى يوم ٦ أكتوبر، باختراق خط بارليف عند جبهة سيناء الذى حققناه فى عام ١٩٧٣م، وذلك بإقامة عرض عسكرى مهيب، ولقد تحول هذا اليوم ليكون هو العيد الوطنى المصرى الرئيسى.

ولقد انتهزت فرصة الاحتفال فى هذا العام، لأخلد للراحة بضعة أيام. فى أكتوبر عام ١٩٨١م، توجهت مع زوجتى إلى الإسكندرية لرؤية بعض الأصدقاء. هؤلاء الأصدقاء كانوا ينتقدون السادات وسياسة الحكومة بشدة. وقالوا لى إن النظام تتثاقل خطواته، وإن السادات فقد شعبيته ومصداقيته فى آن واحد، وبدا لهم أنه يتحول كل يوم ليصبح أكثر استبدادًا، إلخ. كانوا ينتقدون انغلاقه على نفسه فى برج عاجى، وكان مثله مثل أعضاء الحكومة، قد فقد كل واحد فيها اتصاله بواقع البلاد.

فى يوم الاحتفال، سارت شائعات تقول إن أحداثًا خطيرة وقعت خلال العرض، ولكن الإذاعة المصرية لم تعلن شيئًا بالتحديد. وبالرغم من ذلك، جاءنى رجال الأمن يشرحون

لى أن وجودى مطلوب فى القاهرة. توجهت إلى القاهرة، وحال وصولى، علمت أن الرئيس السادات توفى فى المستشفى.

أصبت بصدمة شديدة. وتذكرت ، حينما ذهبنا للصلاة فى المسجد الأقصى، خلال رحلتنا للقدس، والمخاوف التى ألمت بى فى هذا اليوم. بعد أربع سنوات، حدثت عملية الاغتيال التى طالما كنا نخاف أن تحدث، والسادات لن يرى أبدا عودة سيناء إلى مصر التى حارب كثيرا من أجلها..(فى هذا التاريخ لم يكن الإسرائيليون قد انسحبوا كلية من شبه الجزيرة)، كما فكرت أيضًا فى جدى..

ذهبت لأرى الجنرال كمال حسن على (رئيس جهاز المخابرات السابق، والذى أصبح وزير الحربية، ثم وزير الخارجية) من أجل أن أستعلم عما حدث. شرح لى أن الأمر كان محاولة حقيقية لقلب نظام الحكم: «*إنك محظوظ لأنك لم تكن موجودًا خلال العرض: كان هناك عدد كبير من القتلى والمصابين فى المقصورة الرئاسية*». ثم طمأننى على ولاء الجيش قائلاً: « *إنه لم يتم اختراقه بالمتطرفين*، «*ولا بالشيوعيين*». وأضاف أنهم عثروا على قائمة تضم أسماء الشخصيات التى كانوا سيقومون باغتيالها: كان اسمى على رأس القائمة، وكان اسمه هو الثانى..

السادات، الذى كان هدفًا متزايدًا للهجوم العنيف من المتطرفين المسلمين خلال خطبة صلاة الجمعة فى المسجد، اغتيل بيد أصوليين معادين بشدة للنظام وله هو شخصيّا: فقد انتقدوا قيامه باضطهادهم وبالانضواء تحت لواء الأمريكيين وبإقامة السلام مع إسرائيل.

لقد كانت عملية الاغتيال بالتأكيد، صدمة كبيرة للشعب المصرى.

شيمون بيريز: لقد كانت بالطبع أيضا، صدمة هائلة فى إسرائيل، وعدد كبير من الإسرائيليين شعروا بالحداد وكأن الأمر يتعلق بزعيم إسرائيلى كبير. لأن السادات بالنسبة لنا، سيظل الرجل الذى أظهر أن مصر، أكبر أعدائنا، تستطيع أن تقدم لنا السلام. لم يحدث أن قام أى زعيم عربى بهذا التوجه نحونا.

لقد ذكّرنا بطرس بالأمل الذى أثاره اتفاق السلام فى مصر، وتطلعات الشعب: فى الحقيقة، من الجانب الإسرائيلى، أستطيع أن أقول لك إن التطلعات كانت على نفس القدر من الأهمية، وربما أكثر. فمع توقيع اتفاقية السلام، سادت إسرائيل رياح من التفاؤل وبات ممكنا تحقيق أشياء كثيرة، لأنه من الممكن أن يكون هذا التوقيع الخطوة الأولى نحو سلام شامل، ومقدمة لوضع جيوبوليتيكى واقتصادى فى الشرق الأوسط.

كما أثار خبر الاغتيال مشاعر أسى كثيرة فى الولايات المتحدة وفى أوروبا؛ فبشكل ما، أصبح السادات الشخصية العزيزة على قلب الغرب.

بطرس بطرس غالى: عندك حق، لقد أصبح السادات أكثر شعبية فى إسرائيل والولايات المتحدة وأوروبا مما هو فى العالم العربى. وستجمع جنازته كل النخبة السياسية الأوروبية والغربية: فسيحضر عدد كبير من الملوك والقادة القادمين من جميع أنحاء الدول الأوروبية، وبعثت الولايات المتحدة بثلاثة رؤساء، نيكسون وفورد وكارتر، وجاء من إسرائيل وفد كبير مكون من مناحم بيجين ويوسف بورج، إلخ. ولكن من ناحية أخرى، لم يحضر الجنازة أى رئيس دولة عربية واحد، ولا رئيس دولة إسلامية واحد..

أراد البعض أن يصور أن السادات لم تكن له شعبية، بمقارنة جنازته التى غاب عنها الشعب، بجنازة ناصر الذى جذب إليه حشودا هائلة. إن ذلك ينبع من سوء النية أو عدم كفاءة الصحفيين. ففى الحقيقة، لقد تم تهديد كل من يشارك فى الجنازة بالموت. لذا قمنا باتخاذ إجراءات أمنية، وأخلينا السكان من كل المبانى الواقعة على الطريق الذى ستسير فيه الجنازة، وكان المدعوون الرسميون فقط هم الذين يستطيعون حضور الجنازة. وذلك هو الذى أعطى الشعور بالفراغ فى مراسم الجنازة، وجعل الإعلام الدولى يتصور أن الشعب المصرى لم يتأثر بمصرع السادات.

أندريه فيرساى: فى إسرائيل، ومع خبر اغتيال السادات، خرجت أصوات من اليمين تطالب بإلغاء معاهدة السلام.

شيمون بيريز: هذه الأصوات أعربت عن نفسها حتى قبل الاغتيال: «*كيف يمكن أن يكون قويا هذا السلام الذى يعتمد على إرادة زعيم واحد معزول، وقد يتم اغتياله غدا؟*». كانت تلك هى رؤية المتطرفين اليمينيين خلال فترة المفاوضات. ونفس تلك الأصوات خرجت مرة أخرى لتقول نفس الشىء، ولكن لم يتم أخذهم فى الاعتبار.

بطرس بطرس غالى: فى الجانب الإسرائيلى، أعتقد أن عملية الاغتيال تلك أثارت أزمة؛ حيث اعتبر الجميع أن السلام كان سلام رئيس دولة معزول. ولكن، الذى لم يكن معروفًا بنفس القدر هو أنه فى مقابل المخاوف الإسرائيلية، كانت هناك أيضا مخاوف مصرية مماثلة. بالنسبة للإسرائيليين هذا السلام الذى تعبنا كثيرا فى تحقيقه، كان صنع السادات، أكثر مما هو صنع مصر. لذلك خاف الكثيرون من أن يقوم الرئيس الجديد بإعادة نظر فيه. والآن، وبعد اختفاء السادات، ألن يحاول الإسرائيليون إعادة نظر فى المعاهدة؟ هل سيواصلون انسحابهم من سيناء؟

لذلـك، قضيت سـتة أشـهر صعبة فى محاولـة إقناع الإسـرائيليين (ولكن أيضـا المئات مـن زعمـاء المنظمـات اليهودية فـى كل مكان فى العالـم) أن نفس فريق الحكومة سـيبقى، وأن مبـارك ملتـزم تماما بعملية السـلام، بنفس القـدر الذى كان عليه السـادات، وإننى، عن نفسى، ما زلت فى منصبى فى وزارة الخارجية، وإننى لم أتغير، وبالتالى ليس هناك أى سبب يجعلهم يتصورون أن مصر ستتراجع عن السلام مع إسرائيل.

لم تكن المسألة إقناع الإسرائيليين والعالم اليهودى فقط، ولكن أيضا الرأى العام الغربى والعربى. لأن من الواضح، أن العرب كانوا يأملون فى أن مصر، بعد اغتيال السادات، ستعود إلـى أحضـان العرب. كما تصور المتطرفون المصريون أن مصر لن تسـتطيع الاسـتمرار فى هذا الطريق المشئوم. لقد جرت عملية اتصالات دولية بالغة الصعوبة.

أندريه فيرساى: قلت إنك التقيت أيضًا بمئات من زعماء المنظمات اليهودية؟ لماذا؟

بطرس بطرس غالى: لأننا فى مصر، اعتقدنا أن السـلطة فى إسرائيل كانت ذات وجهين، منقسـمة ما بين الحكومـة وزعماء المنظمات اليهوديـة الكبيرة والشـتات. بالطبع، فيما بعد عدنا عن خطأنا وفهمنا أن السـلطة الإسرائيلية كانت، كما هو الحال فى كل البلاد، فى أيدى الحكومة فقط وأن الشـتات اليهودى لم يكن إلا وسـيط يسـاعد على تهيئة اتصالات أفضل للدبلوماسية فى تل أبيب.

أندريـه فيرسـاى: وأنـت نفسـك، هـل كنـت مقتنعًـا أن مصـر سـوف تواصـل سياسـة السادات؟

بطرس بطرس غالى: بكل تأكيد. لم يكن لدى أدنى شـك فى تلك المسـألة. بالطبع، كان يمكن طرح السؤال لو كانت محاولة الانقلاب نجحت.

أندريه فيرسـاى: وأنت شيمون بيريز، هل شعرت بالخوف من أن يؤدى اغتيال السادات إلى إعادة نظر فى معاهدة السلام مع مصر؟

شـيمون بيريز: كنـت أعرف بالطبع أن هناك بعض السياسـيين المصريين المهمين الذين لم يعترفوا بعد بهذا السلام، وأفكر بصفة خاصة فى إسماعيل فهمى، الذى كان حادًا جدًّا فى هذا الأمر. ولكن كانت لدى ثقة، ففى التاريخ السياسى، نضج الأشياء يعزز ويقوى الأوضاع الجديـدة. لقـد وصلنا، نحن والمصريـون، إلى درجة من النضج تمنعنا مـن العودة أدراجنا. ومهمـا كانـت البلاغة، كنا نعرف، هم ونحـن أيضًا، أن حربًا جديدة سـتكون كارثة ـ خاصة أنها لن تحل شيئًا.

ولكن لا شك، أن الاتفاق الذى تم التوصل إليه كان مختلفا عن هذا الذى تصور كل منا فى بداية المفاوضات، إمكانية توقيعه. ولكن ذلك لا يمنع أن هذا السلام، كما هو، حتى ولو كان منفصلا، وحتى لو كان غير كامل، أفضل من مواصلة الحرب، حتى لو كانت مستترة. من الواضح أنه يبدو لى أنَّ بدون هذا السلام، كان من الممكن أن تعود الحرب بنفس موكب القتلى والمعاناة.

أندريه فيرساى: ومع ذلك، السلام الإسرائيلى- المصرى، بقى «سلامًا باردًا».

بطرس بطرس غالى: هذا حقيقى. بالنسبة لىّ شخصيًا، حاولت تحسين هذا الوضع. لقد بذلت كل ما فى وسعى فى محاولة بناء الجسور بين مصر وإسرائيل. ولهذا السبب طلبت من موشيه دايان أن يساعدنى فى إقامة مركز ثقافى مصرى فى تل أبيب، وعملت على إقامة مركز إسرائيلى فى القاهرة. ولقد أقيم المركز الثقافى الإسرائيلى ويعمل حتى اليوم، ولكن من جهة أخرى، كنا غير قادرين على فتح مركز مصرى فى تل أبيب. لماذا؟ عدم كفاءة؟ غياب رغبة حقيقية؟ صراع بين الأجهزة؟ لا أعرف.

أندريه فيرساى: الأمر ليس فقط «سلام بارد»: المصريون قاطعوا إسرائيل. فإن كان يزور مصر عدد كبير من الإسرائيليين، فإننا لا نرى إلا عددًا قليلاً جدًّا من السياح المصريين فى إسرائيل.

بطرس بطرس غالى: إنها إحدى المسائل التى يلومنى عليها دائما المسئولون والصحفيون الإسرائيليون. وأجيب عليهم بأن مصر أكبر دولة جاذبة سياحيا فى العالم: الأهرامات ومعابد الفراعنة، الرحلات النيلية.. كل ذلك يجذب كل عام الملايين من السائحين. ولكن فى إسرائيل، باستثناء الأماكن المقدسة الدينية، يجب أن تعترفوا أن هناك أسبابا قليلة لجذب السائحين إلى إسرائيل.

وعلى الجانب الآخر، بالتأكيد يشعر الإسرائيليون الذين يعيشون كما يقال فى الجيتو، بالسعادة لأن باستطاعتهم الخروج من بلادهم لزيارة مصر. من تلك اللحظة، بدأ الإسرائيليون يأتون بأعداد كبيرة لزيارة مصر، إلى حد أننى طلبت من موشيه دايان الحد من السياحة، فى ذلك الوقت على الأقل، لمنع وقوع أية حوادث. ففى نظر المتطرفين، فإن هذه السياحة بأعداد كبيرة يمكن أن تثير استفزازات. تخيل التأثير الكارثى الذى يمكن أن يحدث فى حالة وقوع هجوم على إسرائيليين فى مصر، بينما قمنا لتونا بتوقيع معاهدة سلام معهم.

ورغم ذلك، فهذا السلام سيظل باردا طالما أن مشكلة الفلسطينيين لم تحل. وطالما أن هؤلاء سيظلون مكدسون فى معسكرات اللاجئين، فإن الرأى العام المصرى سيظل معاديا بشدة لأى تطبيع فى العلاقات مع الدولة الإسرائيلية: البطريرك القبطى سيظل يمنع الأقباط من القيام بالحج فى القدس، ونقابات الصحفيين والمحامين والمهندسين والأطباء لن يلغوا قرار منع أعضائهم من أى اتصال مع إسرائيل، وسوف يوجهون تنديدا علنيا لهؤلاء الذين ينتهكون قرار المنع. وأخيرًا، الصحافة المصرية ستظل تغذى عداء الرأى العام المصرى إزاء إسرائيل.

أندريه فيرساى: ماذا تعتقد بشأن هذه المفارقة: ناصر، الذى كان مسئولا على الأقل جزئيا عن حرب الأيام الستة، فقد الحرب وبالتالى كل سيناء. وعند وفاته، أقامت له مصر جنازة مهيبة. ومن جانبه، السادات، الذى لم يكن له نفس الهالة، سوف يخلص البلاد من السوفييت ويضع الإسرائيليين فى عام ١٩٧٣م فى وضع صعب، وينجح فى الوصول إلى سلام معهم، ويستعيد كافة سيناء ويحصل على مساعدات قيمة من الولايات المتحدة. سيموت مقتولا. لقد مر الوقت: ناصر بقى بطلاً، بينما السادات سيظل محصورًا فى المطهر. ماذا يلهمك «المصير التاريخى» لهذين الرئيسين؟

بطرس بطرس غالى: لست متفقا تماما مع طريقتك فى المقارنة. فى مصر، الهالة التى كانت لناصر ليست على الإطلاق هى نفسها اليوم كما كانت فى الماضى. إن كنت تقرأ الصحافة المصرية، التى تكتب بحرية كبيرة فى هذا الموضوع، سترى كل يوم مقالات فى صحيفة الوفد تهاجم ناصر ونظامه بشراسة: فهم ينتقدون معسكرات الاعتقال التى أقامها، والاغتيالات السياسية، وهزيمته فى عام ١٩٦٧م، إلخ. وفى نفس الوقت، بدأ الرأى العام يدرك تدريجيا عبقرية السادات الذى بذهابه إلى القدس تمكن من استعادة كافة الأراضى المصرية ومحو إهانة هزيمة عام ١٩٦٧م.

أندريه فيرساى: ولكن أسطورة ناصر ما زالت أبعد ما تكون عن الانطفاء. انظر إلى المظاهرات الشعبية التى تجرى فى العالم العربى؛ نرى كثيرا تتصدرها صور ناصر، ولا نرى أبدا، على حد علمى، صورا للسادات. لنذكر على سبيل المثال، المظاهرات التى جرت لمساندة صدام حسين فى أثناء حرب الخليج الأولى.

بطرس بطرس غالى: لنقل إنه بالنسبة للغالبية العظمى من المصريين، جمال عبد الناصر يبقى الرجل العظيم الذى أمم قناة السويس، والذى وزع الأراضى الزراعية، إلخ. باختصار هو أحد زعماء العالم الثالث من اليسار المتطرف ، بكل ما لديه من كاريزما. ولكن بالعكس،

النخبة، الشغوفة بالجيوبوليتيك، وبواقع العالم العربى، تفضل السادات الذى حقق السلام وأعاد فتح قناة السويس وأعاد سيناء وآبار بترولها.

شيمون بيريز: ناصر كان ثوريًا ذا كاريزما واضحة. كانت لديه هالة حقيقية وأعطى آمالا حقيقية، ليس فقط للمصريين، ولكن لكل العالم العربى. ومع ذلك، لم يبق من ثورته شىء ذو بال.

أندريه فيرساى: باستثناء ذكرى حلم عظيم...

شيمون بيريز: نعم، ولكنه حلم لم يتحقق على الإطلاق. ولكن على العكس، السادات سيترك فى التاريخ أثرا ملموسا. فى الحقيقة، ناصر كان ينتمى إلى ثوار اشتراكية العالم الثالث - أو بالأحرى الطوباوية - بينما السادات كان بالطبع، أقرب إلى الحداثة الغربية.

بطرس بطرس غالى: ناصر كان فى أعماقه مناهضًا للاستعمار وللغرب، بينما انبهر السادات بالغرب عندما اكتشف الحداثة والعالم الغربى. هذا الانجذاب الذى شعر به السادات لهذا العالم، كان واضحا فى الفترة التى كان فيها نائبا للرئيس، فقد عاد من رحلته للولايات المتحدة متحمسا للغاية.

سنفهم أن السادات نظرًا لمشاعره تجاه الغرب، تمكن بدون صعوبة كبيرة من إثارة إعجاب الغرب به. لقد أراد أن يعترف به الغرب، ونستطيع القول إنه نجح فى ذلك؛ وتشهد على ذلك جنازته التى ذكرناها قبل قليل، التى حضر فيها عدد كبير من الزعماء الغربيين.

ومن جهة أخرى، على الساحة الداخلية، كان السادات، سواء بسبب ذوقه أو بسبب أفكاره، يشعر على سجيته تماما مع البرجوازية الكبيرة فى مصر ذات الميول الغربية. لذلك فقد كان مختلفا تماما عن ناصر الذى كان جزءا من هذه البرجوازية الصغيرة جدا والتى كانت تشعر بالإحباط، وأيضا بالإهمال من طبقة الباشوات، لذلك كانت تشعر بالعداء لهذه البرجوازية، وأيضًا للعادات الغربية التى كانت غريبة عنها تمامًا.

شيمون بيريز: كما كان هناك فرق كبير جدًا بين رؤية كل منهما للعالم العربى: فبينما كان ناصر يرى فيه مقومات لمصر، كان السادات لا يجد فيه إلا حملاً ثقيلاً، بالإضافة إلى أنه يكلفه كثيرًا جدًا.

بطرس بطرس غالى: وأضيف أيضا أن السادات بعكس ناصر، لم يرغب كثيرًا فى أن يلعب دور زعيم العالم العربى. ناصر فضل أن يصبح الأول فى قريته- أى فى العالم الثالث- بينما اختار السادات أن يكون الثانى فى روما- أى بين القوى العظمى.

خلاصة القول، ناصر وصل إلى السلطة فى زمن عظيم للنضال ضد القوى الاستعمارية، والسادات جاء فى عصر المصالحة. ناصر عاش فى زمن كان من الممكن أن نؤمن بتفوق دور مصر فى العالم العربى، بينما عاش السادات فى زمن لا يؤمن بذلك كثيرًا.

ولأن أمريكا، امتداد لأوروبا، عاد السادات إلى تلك السياسة التقليدية التى كانت تنتهكها القاهرة، والتى كانت تربط مستقبل مصر باندماجها فى أوروبا، السياسة التقليدية المصرية التى تخلى عنها ناصر لصالح سياسة عربية شاملة. ولنذكر، أنه حتى تاريخ إنشاء جامعة الدول العربية، فى عام ١٩٤٥، لم تكن مصر مهتمة كثيرًا بالعالم العربى، وكانت ترغب فى إقامة علاقات متميزة مع الدول الأوروبية الكبرى. كاتبنا الكبير طه حسين أعلن فى كتابه «*مستقبل الثقافة فى مصر*» والذى نشر فى نهاية الثلاثينات: أن المستقبل الثقافى لمصر مرتبط بالثقافة الغربية، كما كان الخديوى إسماعيل يحب أن يردد أن حلمه هو أن يرى مصر قطعة من أوروبا. وأخيرًا، سوف تلاحظ أنه عندما سقط فاروق، لم يختر أن يعيش حياته فى المنفى فى العالم العربى، ولكن فى إيطاليا.

ورغم ذلك، سياسة «*مصر أولا*» تلك سيكون من نتائجها إبعاد القاهرة عن العالم العربى. ليس لأن السادات رفض العالم العربى، ولكن لأن العالم العربى سوف يعتبر أن السادات بتوجهه هذا، قد استبعد نفسه، وهو ما دفعهم إلى تهميشه.

* * *

١٣- حـــرب لبنـــان

يهود إيشوف ولبنان - فتح تصل إلى لبنان - حرب لبنان الأولى - المارونيون فى إسرائيل - عملية «السلام فى الجليل» - الإسـرائيليون فى بيروت - عرفات ومنظمة فتح يطردان من لبنان - بشـير الجميل، «مرشح إسـرائيل»؟ - صابرا وشاتيلا - استقالة بيجين، بيريز رئيس وزراء - المستنقع اللبنانى - حافظ الأسد، «محل للسلام» فى لبنان؟

أندريه فيرسـاى: قبل أن نتحـدث عن حروب لبنان، أقترح عليكمـا أن نعود أدراجنا إلى الفتـرة عندما كانت فلسـطين لا تزال تحت الانتداب البريطانى. فـى هذه الفترة، ما هى رؤية إيشوف للبنان؟

شيمون بيريز: لقد كنا نفرق بين لبنان وباقى الدول العربية. كنا نتصور أنها ليست بالكامل جزءًا من المجتمع الإسلامى، حيث إن شعبها كان فى غالبيته مسيحيا. كنا نعتبر أن اللبنانيين يركـزون أكثـر على الاقتصـاد والتجـارة، وأنهـم غير مقيديـن داخل الخطـاب الأيديولوجى الراديكالى السائد حولهم.

بشـكل عام، كانت علاقاتنا معهم جيدة جدًّا، وكان المسـيحيون بشـكل خاص ينظرون إلينا بتجاوب، إلى حد أنهم قاموا ببيعنا أراض، خاصة فى منطقة هانيتا شـمالى إسـرائيل. لم يستطيعوا بالتأكيد الإعلان عنها، ولكن بصفتهم أقلية فى عالم إسلامى، كانوا يشعرون بالخوف من الشيعة، وأيضًا من جارهم الكبير السورى الذى كان يعتبر لبنان جزءًا لا يتجزأ منه. لذلك فكرنا أننا نستطيع إقامة علاقات جيدة جدًّا مع بيروت بعد إنشاء دولة إسرائيل مباشرة.

بطرس بطرس غالى: نعم، دعنى أقول لك إن كل السياسـة الإسـرائيلية تجاه لبنان قامت على سلسلة من الأخطاء فى الرؤية وفى التحليل.

أولاً: العرب المسيحيون كانوا معادين للإسرائيليين من أعماقهم أكثر من العرب المسلمين، لأن الشعب اليهودى طبقا للعقيدة المسيحية، كان يعتبر أنه قاتل المسيح. ورغم تغيير موقف الفاتيكان فى مجمع الفاتيكان الثانى، الذى ذكرناه، اعتبر المسيحيون فى العالم العربى كله، احتلال الجنود اليهود لقبر المسيح بمثابة تدنيس له، وإهانة واستفزاز. هذا بالنسبة للقاعدة الأساسية. من جهة أخرى، يشعر اللبنانيون بخوف شديد من قيام الإسرائيليين بضم جنوب لبنان. ربما ترى ذلك ضربًا من الخيال؟ أعتقد أنك مخطئ، وأن هذا الخوف ليس بدون أساس: تذكر أن خارطة دولة إسرائيل الجديدة، والتى قدمتها منظمة الصهيونية العالمية إلى مؤتمر السلام فى فيرساى عام ١٩١٩م، تضم جنوب لبنان حتى نهر الليطانى؛ وبالإضافة إلى ذلك، كان حلم الصهاينة هو رؤية دولتهم تجاور حدود المنطقة ذات الأغلبية المسيحية فى لبنان، شمالى نهر الليطانى.

أرادت المخيلة الإسرائيلية دائما محو الأبعاد العربية الشاملة فى لبنان، متناسين أن المسيحيين فى لبنان، مثل هؤلاء فى سوريا، هم لاعبون أساسيون فى فكر القومية العربية. الأقليات العربية، سواء كانت مارونية أم قبطية أم درزية أم علوية، أدركت أن تحالفا مع محتل الساعة - فرنسيين أو إنجليز أو إسرائيليين - لا يدوم، وأن من مصلحتهم التعايش بأفضل ما يكون مع الأغلبية المسلمة رغم صعوبة هذا التعايش. وإن كان بعض الزعماء المسيحيين قد تفاوضوا مع الإسرائيليين فذلك ليس معناه أنهم قبلوا الواقع الإسرائيلى: فقد كانوا يبحثون فحسب عن إمكان الحصول، عبر هذه التحالفات الدقيقة، على وسيلة لتقوية وضعهم فى الصراع الدائر داخل لبنان.

أندريه فيرساى: خلال السنوات الأولى لإنشاء الدولة اليهودية، هل كان الإسرائيليون يأملون فى تشكيل نظام مسيحى فى لبنان والدفع فى اتجاهه؟ إننى أطرح عليك هذا السؤال لأن موشيه شاريت قص أنه فى عام ١٩٥٥م (كان رئيس وزراء فى ذلك الوقت بينما كان بن جوريون وزير الدفاع وديان رئيس الأركان) صرح له ديان قائلا: «*كل ما نحتاجه، هو أن نجد ضابطا، ولو برتبة نقيب، لنكسبه فى صفنا، أو أن نرشوه لكى يقدم نفسه على أنه منقذ الشعب المارونى. فى هذه الحالة يمكن أن يدخل الجيش الإسرائيلى لبنان، ويصبح سيدًا على الأراضى الضرورية ويقيم حكومة مسيحية تكون حليفا لإسرائيل. أما المنطقة التى تقع جنوبى نهر الليطانى فنضمها بالكامل إلى إسرائيل*».

شيمون بيريز: نعم. وماذا فى ذلك؟ تعرف أنه ممكن أن يتبادر لرجال السياسة العديد من الخواطر. ما يهم فى التاريخ، ليس الأمانى الخفية ولا الرغبات، ولا حتى الكلمات، ولكن

الأفعال. وفقط وفقا لتلك الأفعال، يمكن الحكم على رجل السياسة. لذلك، فإن كان دايان قد حلم بما قام بالتعبير عنه فى نقاش خاص، فإن النتيجة التى توصل إليها شاريت ليس لها أية أهمية. لأن الواقع هو أن الإسرائيليين لم يستولوا على لبنان.

بطرس بطرس غالى: هذا لا يمنع؛ فمنذ عام ١٩١٩م داعبت الصهاينة فكرة إقامة تحالف خاص مع لبنان المسيحى.

شيمون بيريز: يمكننا أن نداعب أى حلم نريد، ولكن المهم هو أننا عندما تدخلنا فى لبنان، كان ذلك ردًا على العمليات الإرهابية الفلسطينية التى كانت تنطلق من جنوب لبنان ومن أجل محاربة إرهابيى حزب الله. لم يكن لدينا أبدا أية أهداف فى الأراضى اللبنانية ولا فى مياهها. ولكن، ما هو حقيقى، هو أننا كنا نريد أن نقيم علاقات طيبة مع هذا البلد، الذى نستطيع منه شراء مياه نهر الليطانى التى تنساب بدون أن تستغل، لتضيع تمامًا. إن ذلك يبدو لنا إهدارًا مجنونًا خاصة حينما ندرك مدى حاجة هذه المنطقة للمياه. ولكنى لست فى حاجة للقول أننا لم نرغب قط فى الحصول على هذه المياه بالقوة.

قبل عام ١٩٧٠م، كانت علاقتنا مع اللبنانيين جيدة إلى حد ما، بالرغم من كل شىء. وأقص عليكم قصة طريفة، وأذكركم هنا بأن تلك العلاقات بدأت بين قطاع الطرق: والمهربين الإسرائيليين واللبنانيين، الذين تفاهموا مثل اللصوص فى الأسواق لأن مصلحتهم كانت فى سيادة السلام بين البلدين، حيث إن الأعمال التجارية تنتعش مع السلام أيًا كانت طبيعته.

لذلك كنا متفائلين جدا بالنسبة لمستقبل العلاقات اللبنانية-الإسرائيلية. ولكن فى نهاية عام ١٩٧٠، وصل الفلسطينيون وأقاموا معسكراتهم فى بيروت وفى جنوب لبنان. وبسرعة عبروا الحدود وبدأوا ينظمون غزوات دموية داخل إسرائيل. ورغم أنهم كانوا يمثلون خطرا بالنسبة لشعبنا، إلا أن ردنا عليهم كان محسوبًا، لأننا قدرنا أنه على اللبنانيين، وليس علينا، تسوية المشكلة مع الإرهابيين الفلسطينيين.

أندريه فيرساى: فى بداية السبعينيات، استقرت، إذن، المنظمات الفلسطينية التى طردت من الأردن، فى لبنان. لماذا فى لبنان وليس فى مكان آخر، مثل سوريا، حيث كانت الصاعقة، قاعدة فلسطينية مهمة، مستقرة بالفعل؟

شيمون بيريز: لم يكن ذلك ممكنا! لك أن تتخيل. الأسد لن يستقبلهم أبدا لأنه كان يعرف أنهم سيكونون عنصرًا مثيرًا للمشاكل. يمكن بالكاد اعتبار الصاعقة منظمة فلسطينية، وكانت أولاً تحت سيطرة السلطات السورية.

إن كانت المنظمات الفلسطينية قد اختارت لبنان، فذلك لأن هذه الدولة المفتوحة على جميع التيارات، تشترك فيها مجتمعات شيعية ومارونية ودرزية، وكانت منقسمة بين مختلف المصالح، وضحية ألف مؤامرة، وبالتالى لم يكن من الممكن تحديد قدرتها على المقاومة. باختصار، كانت على عكس الدولة المركزية القوية، التى كانت عليها سوريا.

بطرس بطرس غالى: أو مصر أو العراق أو دول المغرب التى كان لديها الوسائل للسيطرة على النشاط الفلسطينى على أراضى كل منها.

شيمون بيريز: بالضبط. بالإضافة إلى أن اللبنانيين لم يستطيعوا معارضة دخول المحاربين الفلسطينيين إلى أراضيهم، لأن رفضهم كان سيجعل العالم العربى يدينهم. ولا ننسى أنه بالنسبة للعديد من العرب، كانت المملكة الهاشمية تعتبر طفل العالم العربى غير الشرعى، وكان على لبنان، الذى يتكون نصف سكانه من مسيحيين، أن يبرهن دائما على ولائه. وأى قضية كانت أكثر تقديسًا، على الأقل شفهيا، من القضية الفلسطينية؟

بالنسبة لى، أعتقد أن اللبنانيين اقترفوا خطأ كبيرا: ليس لأنهم استقبلوا المحاربين الفلسطينيين الذى طردوا لتوهم من الأردن، ولكن لموافقتهم على أن يقيموا على أرضهم قواعدهم العسكرية. وتدريجيا، هذه القواعد بدأت تكبر إلى حد أن أصبحت بمثابة دولة داخل الدولة، *أرض فتح* Fathland، وعلى غرار ما حدث من قبل فى الأردن. إن الفلسطينيين هم الذين كانوا المصدر الأساسى لحرب لبنان، وهى الحرب التى وصفت بأنها «أهلية» والتى أدت إلى تدمير البلاد. فى البداية، لم تكن بالطبع حربا «أهلية»: كانت حربًا مستوردة، حربًا شنتها ميليشيات بالوساطة.

بطرس بطرس غالى: لا، لقد كانت حربًا أهلية. ولكنى أقر بأنه فى حالة لبنان، من الصعب جدا التفرقة بدقة بين حرب «تقليدية» وحرب أهلية.

أندريه فيرساى: كيف رأت البلاد العربية «المعتدلة» إقامة الحركات الفلسطينية تلك فى لبنان؟

بطرس بطرس غالى: بصراحة؟ أعتقد أن غالبية الدول العربية، المعتدلة مثل غير المعتدلة، كانوا سعداء بأن المنظمات الفلسطينية أقامت فى لبنان، بدلاً من الإقامة فى بلادهم.

أندريه فيرساى: فى أبريل عام ١٩٧٥م، توسعت عمليات التراشق بين الفلسطينيين والمارونيين إلى حد أنها فجرت ما يمكن أن نطلق عليه حرب لبنان الأولى. هذه الحرب

بدأت بعملية مارونية معادية للفلسطينيين. ما الذى دفع المسيحيين إلى أن ينتقلوا إلى هجوم عسكرى حقيقى ضد الفلسطينيين؟

شيمون بيريز: بكل بساطة الوجود المتعجرف للحركات الفلسطينية. فكما حدث فى الأردن، بدأت الأجنحة المختلفة التابعة لمنظمة فتح تتحول إلى غزاة، وتتصرف كما لو كانت فى دولة مستعمرة، ولأنهم يعدون أنفسهم، شهداء القضية العربية. لذلك بات كل شىء مستباحًا لهم. فى هذا الوقت فهم المسيحيون أن فتح تهدد لبنان الهش، فقرروا أن يتحركوا.

أندريه فيرساى: لقد تدهور الوضع، ودعا رئيس لبنان، كميل شمعون، المسيحى - كما نذكر - دمشق للتدخل. دخل السوريون لبنان فى ليلة ٣١ مايو عام ١٩٧٦م، بموافقة الجميع فيما يبدو: المسيحيون اللبنانيون والعالم العربى والأمريكيون وحتى الإسرائيليون.

شيمون بيريز: هذا صحيح. فقد أثار الوجود الفلسطينى الفوضى الشاملة فى لبنان، مما أدى إلى كسر التوازن الاجتماعى الضعيف، وأصبح الوضع العام للبلاد مهددًا بالتفسخ. أما بالنسبة لنا، فنحن لم نكن قادرين على لعب دور فى لبنان، إلا، بالطبع، إذا أصبح الوضع خطيرا لإسرائيل. كنا نرى أن السوريين لديهم، هم أيضا، مصلحة فى خفض الوجود الفلسطينى حتى لا تتحول لبنان إلى مستودع ذخيرة لا يمكن السيطرة عليه. لذلك، كان تدخلهم من أجل إعادة النظام إلى البلاد واحتواء فتح، وإن لم يكن حلاً مثاليا، فهو أقرب إلى ذلك إزاء الظروف الراهنة. هذه المبادرة كان بإمكانها تحسين الوضع.. على الأقل مؤقتًا.

بطرس بطرس غالى: من الجانب العربى، كان يسيطر على العرب الخوف من أن تنتقل الحرب الأهلية اللبنانية إلى داخل حدودهم، لذلك كان من مصلحة كل الدول العربية أن تقبل بالتدخل السورى. ولقد استقبلت القوات السورية فى لبنان، التى أطلق عليها «قوات الردع العربية»، بشكل إيجابى للغاية، إذ إن وجودها هناك، اعتبر فى نفس الوقت، حاجزًا وقائيًا ضد أى رغبة إسرائيلية لضم جنوب لبنان. لا تنس أن التوسع الإسرائيلى هاجس يسيطر على العالم العربى.

أما بالنسبة للمجتمع الدولى الذى سعى إلى التهدئة كما لو كان ذلك هدفا فى حد ذاته، أعتبر هذا التدخل بمثابة أقل الحلول سوءا.

أندريه فيرساى: السوريون سوف يحاربون الفلسطينيين، ولكنهم لن يدمروا قواعد فتح، يبدو أن الأسد فضل المراوغة بين الأطراف المختلفة بدلا من أن يستبعد جانبا منهم. وبسرعة، بدأ المسيحيون يشعرون بخيبة أمل: فالسوريون الذين دعوهم للمساعدة بدوا لهم الآن كمحتلين غير محتملين، بالإضافة إلى أنهم بدأوا يتحولون ضدهم. لماذا هذا التحول الفجائى فى موقف دمشق؟ هل أراد الأسد أن يحد من تفوق المسيحيين فى لبنان؟

شيمون بيريز: سوف أقص عليك قصة طريفة توضح لك الأمور. لأسباب، سيطول شرحها، استطاع الإسرائيليون الحصول على رسائل متبادلة بين فيدل كاسترو وحافظ الأسد، مؤرخة فى سنوات السبعينيات. فى خطابه، يقول كاسترو إنه لا يفهم لماذا يقوم الأسد بقمع المسيحيين فى لبنان، ولا الأسباب التى من أجلها تريد دمشق بأى ثمن السيطرة على هذه البلاد. فأجابه الأسد بخطاب من ١٥ صفحة، قام فيه بشرح تفصيلى، قال فيه إن الشرق الأوسط أرض عربية وإسلامية؛ وإنه للأسف، فقد نشأت دولة يهودية على هذه الأرض، وحتى الآن لم يكن من الممكن إزالتها. وبالتالى، فإن العرب المسلمين لن يسمحوا أبدا أن تقام دولة أخرى مسيحية فى هذه المنطقة. قراءة هذه الرسالة جعلتنا نتأمل الوضع. وكان لها تأثير غير مباشر فى تقاربنا مع مسيحيى لبنان.

بطرس بطرس غالى: لا أعتقد أن هذه الرسالة هى التى شجعت الإسرائيليين على التحالف مع المسيحيين فى لبنان. مرة أخرى، إنه حلم يسيطر على الخيال الصهيونى منذ سنوات، حتى قبل إقامة الدولة اليهودية. لقد اخترت هذه الرسالة، ولكن يمكننا أن نذكر العديد من التصريحات التى أدلى بها الأسد لصالح مسيحيى المشرق العربى، والتحالف الواقعى بين الأقلية العلوية والأقلية المسيحية فى سوريا. إن المسألة لا تطرح بهذا الشكل. فطبقا للعقيدة البعثية، لا يمكن أن تكون هناك دولة مسيحية، أو دولة علوية أو دولة درزية، لأن أعضاء هذه الطوائف الدينية مواطنون كاملو المواطنة فى نفس القومية، وليسوا من الأقليات الخاضعة للتمييز التى تجد نفسها تشكل قوميات صغرى، يجعلها تسهل وجود الاستعمار الجديد فى المنطقة.

أندريه فيرساى: ستتواصل الحرب، وسيقودها الجيش السورى، ولكن من الواضح، أنه سيقودها بدم بارد: فالعمليات الانتقامية تجرى بصورة مبالغ فيها ويبدو أن الجنود القادمين من دمشق لم يهتموا كثيرا بالمدنيين الذين كانت تسحقهم القنابل، خاصة فى الأحياء المسيحية فى بيروت الشرقية. كيف كان العالم العربى يرى هذا الوضع المتفجر؟

بطرس بطرس غالى: كان القمع الذى تمارسه دمشق شديدًا نظرًا لأن السوريين اعتبروا دائما لبنان جزءا لا يتجزأ من بلادهم («سوريا الكبرى»)، وأن الاستقلال الذى حصل عليه بعد الحرب العالمية الأولى، كان نتيجة لتمزيق الإمبراطورية العثمانية. ولكن العالم العربى شعر بالأسف إزاء عنف هذه الحرب التى كسرت كل وحدة وأضرت بمصداقية تضامنها، وهو ما دعم موقف إسرائيل فى المنطقة.

أندريه فيرساى: تطورت الحرب بين المارونيين والفلسطينيين والسوريين. ومع الوقت، وجدت المليشيات المسيحية نفسها فى وضع سيئ. فطلبت هذه الميليشيات المساعدة، خاصة من فرنسا، ولكن بلا جدوى. لماذا ظلت فرنسا ذات الصلة الوثيقة بلبنان ولاسيما بالمارونيين، صماء إزاء هذه النداءات؟

بطرس بطرس غالى: لا فرنسا ولا أى دولة أوروبية أخرى ستتدخل، لأن هذه الحرب اعتبرت حربًا أهلية، داخلية، وهى ما كانت بالفعل. كما أنها لم تكن مشتعلة بحدة مما يستدعى التدخل. لقد أشرت إلى فرنسا، ليكن. ولكن من الممكن التحدث عن الولايات المتحدة. فإن كانت هناك دولة حاضرة فى لبنان، وأيضا قادرة على التدخل بفاعلية، فهى أمريكا. ولكن واشنطن لن تفعل شيئا. فى الحقيقة، الغرب لا يهمه مشاكل العالم الثالث، ولا أحد يريد أن يجازف بالتدخل فى المستنقع اللبنانى. كما أن أحدا لا يرى حلا للمشكلة. بل – بالعكس – الكثيرون يرون أن التدخل الأجنبى سوف يعقد المشكلة، وأنه من الأفضل ترك المتنازعين يحلون المشكلة فيما بينهم.

أندريه فيرساى: ولكن بالعكس، بيجين، بدا أنه تأثر بمصير المسيحيين.

شيمون بيريز: نعم، عندما أصبح رئيس وزارة، سيذهب بيجين إلى حد تشبيه الخطر الذى يتعرض له المارونيون بالإبادة الجماعية التى تعرض لها اليهود، وسيعلن أن إسرائيل لن تقبل «هولوكوست مسيحيا».

أندريه فيرساى: هل كان صادقا، أم أن الأمر لا يعدو مجرد مؤثرات بلاغية؟

شيمون بيريز: لدى بيجين، البلاغة يمكن أن تكون صادقة: إنه رجل يميل بطبيعية وبصدق إلى البلاغة والمبالغة. ولقد كنت أحيانًا أحذره من مخاطر أن يعطى آمالاً زائفة للمارونيين.

أندريه فيرساى: لذا ستتحالف الكتائب اللبنانية مع إسرائيل رغم أنهم لا يحبون إسرائيل. بيير الجميل، زعيم الكتائب سوف يقولها بصراحة: «*إننى أتوجه إليكم، ولكن ذلك على كره منى*».

شيمون بيريز: نعم، ولكن هناك تصريحات أخرى كثيرة.. مهما كان الأمر، فإن المارونيين سيسعون إلى توريطنا فى الصراع الذى فجروه والذى نعتبره انتحاريًا.

فحتى الستينيات، كان المسيحيون يملكون السلطة (الدستور ينص على أن رئيس الوزراء يجب أن يكون سنيا، والرئيس يجب أن يكون مسيحيًا)، ولكن بسبب الصراعات التى لا تنتهى بين العائلات المارونية القوية والتى تتنافس (عائلات الجميل، شمعون وفرنجيه) كانوا يقضون وقتهم فى القتال ضد بعضهم بعضا، ولذلك بدأ المسيحيون يفقدون تفوقهم.

من بين هذه العائلات، كان لعائلتين منهما ابن بكر دعته لكى يخلف والده: أحدهما بشير الجميل، والثانى دانى شمعون. وحدث أنه فى عام ١٩٧٤ جاءا معًا لمقابلتى سرًا (كنت فى ذلك الوقت وزير دفاع). كان الرجلان يتمتعان بالذكاء والزعامة، وقد أسعدنى كثيرا أن أستطيع التحاور معهما. وقالا لى إنهما فهما درس الخلافات بين والديهما وإنهما على استعداد لأن يتحدا ويتعاونا. ولكنهما أضافا، إننا فى حاجة إلى مساعدتك، إننا نحارب نفس الأعداء. أجبتهما قائلا: «*اسمعا، يجب أن تعلما أننا لن نذهب لنحارب بدلا عنكما. فلا تتصورا شيئا غير صحيح، إن لديكما مصالحكما، حاربا من أجل مصالحكما. وإن كنت أستطيع تقديم نصيحة لكما، فلا تلقيا بأنفسكما فى المعركة قبل أن تكونا متأكدين أنكما على قدر كاف من القوة حتى تستطيعا الفوز. ولا تتورطا فى قتال عسكرى طالما أنكما لم تشكلا بعد قوتكما: الرغبة والتصميم والشجاعة ليست كافية، يجب عليكما بناء جيش حقيقى. ورغم ذلك، فنحن نشعر بالقلق على موقفكما، ونحن على استعداد لمساعدتكما: ولكن بقدر ما فقط، أى بتقديم النصائح وتدريب رجالكما وإعطائكما السلاح. لا أكثر: لا تتصوروا أننا سوف نقوم عنكما بعملكما. ولكن، إن حدث مكروه، وكنتم حقيقة فى خطر الموت، فى هذه الحالة، وفقط فى هذه الحالة، سوف نتدخل*».

عندما بدأت الحرب اللبنانية ـ الفلسطينية، قمت ببناء مدرستين ومستشفيين عند الحدود مفتوحة للاجئين اللبنانيين الهاربين من لبنان، وقد أدى ذلك الى إقامة علاقات ممتازة مع اللبنانيين المسيحيين، إلى حد أن بعض المسئولين الإسرائيليين تصور أن بإمكاننا بسرعة إقامة سلام *واقع* مع لبنان.

أندريه فيرساى: **فى ١٩ مارس عام ١٩٧٨م، وحسب نص القرار رقم ٤٢٥ لمجلس الأمن، ستتمركز القوات المؤقتة التابعة للأمم المتحدة فى لبنان (فينول)، فى جنوب لبنان. كيف رأى الإسرائيليون قوات الأمم المتحدة؟ هل كان من الممكن اعتبارها ضمانًا للهدوء فى المنطقة؟**

شيمون بيريز: لا، إننا لا نعتقد أن قوة من الأمم المتحدة تستطيع منع أى شىء، ولا حتى أن تكون ذات فائدة أيا كانت. قوى الأمم المتحدة هى مجرد وسيلة قياس أكثر مما هى وسيلة وقاية: فهى تعبر عن الوضع ولكنها غير قادرة على تغييره: ما هو معنى الجيش إن كان لا يملك الحق فى التدخل وإن كان جنوده لا يملكون الحق فى إطلاق النار، إلا فى الحالات القصوى من الدفاع الشرعى عن النفس؟ لم نكن ضد وضع قوات من الأمم المتحدة، ولكن ليس لدينا أى وهم بشأنها.

ومع ذلك، حينما وقع فى ٢٣ أكتوبر عام ١٩٨٣م، هجومان دمويان ضد القوات الدولية، أسفرا عن مقتل ٥٩ جنديا فرنسيا و٢٤١ جنديا أمريكيا، أعلن المتطرفون الدينيون مسئوليتهم عنهما، وبعدها غادرت قوات الفينول المكان: وبعد ستة أشهر، فى مارس عام ١٩٨٤م، تم سحب كل قوات الفينول. هذا الانسحاب السريع أقنعنا بأنه، مهما تقول الأمم المتحدة، ففى حالة الحرب لا يستطيع المرء أن يعتمد إلا على نفسه.

بطرس بطرس غالى: قوات الأمم المتحدة هى قوات لفصل المتنازعين ولا تستطيع أن تلعب دورًا إلا بموافقة الخصوم فى الصراع. فى هذه الحالة يمكنها أن تنجح فى مهمتها فى حفظ السلام، كما هو الحال فى الجولان، حيث نجح ذوو القبعات الزرقاء فى الحفاظ على وقف إطلاق النار بين السوريين والإسرائيليين.

أندريه فيرساى: المارونيون الذين هزمتهم سوريا، سيكونون هم أكبر الخاسرين فى هذه الحرب. ومع مرور الزمن، هل أخطأ كميل شمعون فى دعوة السوريين أم هل كان تدخل دمشق، على أية حال، تفرضه طبيعة الأمور ؟

شيمون بيريز: هل كان خطأ تاريخيا؟ لا أعرف. لقد قلت لتوك، ساند الأسد فى البداية المارونيين، وهو ما كان على أية حال، طريقة جيدة له لكى يظهر للعالم أن المسلمين يحمون المسيحيين. ولكن العالم يعرف أن سوريا لم تعترف أبدًا بالسيادة اللبنانية، نعم، أعتقد أن تدخل سوريا كانت تفرضه طبيعة الأمور.

أندريه فيرساى: السوريون المنتصرون سوف يبقون فى لبنان ويحتلون البلاد. من جانبهم، سيزيد المحاربون الفلسطينيون المقيمون فى جنوب لبنان عملياتهم ضد إسرائيل، ويواصلون عملياتهم الإرهابية. وقررت حكومة بيجين الجديدة، والتى كانت متطرفة أكثر من السابقة، حيث إنها ضمت صقورا أمثال آرييل شارون فى منصب وزير الدفاع، أن

تقود عملية واسعة النطاق تهدف إلى تدمير القواعد الفلسطينية فى لبنان: فى ٦ يونية عام ١٩٨٢م، وبعد قصف لجنوب لبنان استمر يومين، قام الجيش الإسرائيلى باحتلاله. وهكذا بدأت عملية «سلام فى الجليل».

شيمون بيريز: نعم. يجب أن أذكركم أنه قبل ثلاثة أيام، شلومو آرجوف، سفيرنا فى لندن، كان ضحية هجوم أصابه بالشلل. كان بيجين مقتنعا أن عرفات هو الذى قاد الهجوم انطلاقًا من بيروت. لذا كان من الملائم أن يتوجه الجيش الإسرائيلى لكى يغزو لبنان ويخلصها نهائيا من القواعد الفلسطينية.

بطرس بطرس غالى: كان كوماندوز مجموعة أبو نضال، المعارضة لفتح، هو الذى قاد الهجوم ضد السفير الإسرائيلى. ولكن هذا الفرق لم يلاحظه بيجين، أو أنه على الأقل زعم أنه لا يعرفه، حتى يجد مبررا للتدخل فى لبنان.

شيمون بيريز: حقيقى، شارون كان يريد أن ينهى وجودهم، وأعتقد أنه وجد فى هذا الهجوم فرصة لكى يتخلص من عدوه اللدود، عرفات.

ورغم أننى كنت فى المعارضة، إلا أن علاقاتى الشخصية مع كثير من الضباط سمحت لى أن أكون على علم بما يتم بحثه فى حكومة بيجين: فى الحقيقة، لم تكن هناك خطة هجوم، بل خطتان: واحدة «صغيرة» وأخرى «كبيرة». «الصغيرة» تخطط لاجتياح محدود على بعد ٤٠ كيلومترا من الحدود. ٤٠ كيلومترا، لأن ذلك يتطابق مع المسافة القصوى التى تستطيع الكاتيوشا الفلسطينية تغطيتها. ويجب على هذه العملية أن تنفذ خلال أربعة أيام، تعود قواتنا إلى إسرائيل فى نهايتها. وكما هى العادة لدينا، دعانى بيجين للقائه بصفتى زعيم حزب المعارضة الرئيسى، ولبيت دعوته مصحوبًا بالجنرالين رابين وبارليف. وهناك أكدنا موافقتنا على هذه الخطة، ولكن بشرط واضح، هو أن الاجتياح لا يتجاوز الأربعين كيلومترا، وأن تعود قواتنا حتى قبل أربعة أيام. مع ملاحظة أنه إذا كان لابد للتدخل أن يكون فى العمق أو أن تمتد العملية إلى وقت أطول، فكنا سنعارضها. ولكن كما قلت لكما، كان لدى الحكومة خطة ثانية احتياطية.

أندريه فيرساى: الحكومة أم شارون؟

شيمون بيريز: شارون كان جزءا من الحكومة. ولكن عندك حق أن تطرح السؤال حيث إن هذه النقطة تظل حتى اليوم، مادة للجدل. فالمقربون من بيجين يؤكدون أن شارون ذهب إلى أبعد مما أراده بيجين، بينما كان شارون يزعم دائما أنه أخذ موافقة رئيس الوزراء.

عنى شخصيًا أعتقد أن شارون ذهب إلى أبعد مما أراد بيجين. المسألة ليست أنه يفعل ما فى رأسه فقط، ولكنه قد يكون نظم العملية على أساس أن يذهب كل مرة أبعد مما يقتضيه الوضع. فى الواقع، تم تطبيق الخطة الثانية فورا. ولكن كان شارون يشرح لنا تدريجيًا، كيف أن الفلسطينيين كانوا يتحرشون به كل يوم، وأن عليه أن يتوغل بشكل أعمق فى البلاد. ولكنها كانت تبريرات زائفة.

أتذكر ما قاله لى فى هذا الوقت، منديس فرانس (رئيس وزراء فرنسا الأسبق)، الذى توفى بعد عدة أشهر: «*إن بدأت هذه الحملة، فسيقول لك جنودك أنهم عقدوا صداقات مع السكان، وأن العلاقات معهم جيدة بشكل عام. وذلك قد يكون حقيقة فى الأيام الأولى. ولكن بعد ذلك، سينتقدك هؤلاء السكان تدريجيا وبشكل أكثر عنفا، وحتى شعبك نفسه سينتقدك عندما يرى الجنود الإسرائيليين يموتون كل يوم بأعداد متزايدة. من هذه اللحظة، ستكون قد خسرت الحرب*».

وحقيقى، فى البداية، كان جماهير الشيعة يصفقون لجيشنا، وكانوا يقذفونه بالأرز، كعلامة ترحيب، واستمر ذلك عدة أيام.

أندريه فيرساى: نعم، إننا نتذكر هذه الصور المذهلة. كيف كان رد فعل العالم العربى على هذه الصور؟

بطرس بطرس غالى: سيقوم الإسرائيليون بالطبع باستغلال هذه الصور التى تخدم دعاياتهم، والعرب سوف يقومون بالطبع بالتقليل من شأنها، ولن يراها عدد كبير فى العالم العربى. لو كانت تلك الصور عرضت فى محطات التليفزيون العربية، لكانت شاركت فى لعبة إسرائيل، كما أن مظاهر الترحيب هذه لم تظهر إلا خلال فترة قصيرة.

شيمون بيريز: يجب أن نعترف أن تشويه المعلومات لا يحدث فقط لدى العرب. لقد كنا نحن أيضا ضحية تشويه المعلومات الذى قام شارون بترتيبه. كان شارون يقدر أن تدمير فتح أمر أساسى من أجل أمن إسرائيل، وأن كل ما عدا ذلك، كل شىء، يجب أن يحتل مرتبة ثانوية. أعتقد أن الفكرة أصبحت مسيطرة عليه. فى الحقيقة، فكر شارون أنه من خلال قيادته لهذه الحرب اللبنانية ضد فتح سيستطيع تغيير المعطيات فى الشرق الأوسط. وعندما تحول الشعب اللبنانى ضدنا، كانت تصدر تقارير عسكرية غير صحيحة، من شأنها أن تظهر أن السكان راضون دائما عن وجودنا. فى البداية، تصور الجنود أن هذه المعلومات الخطأ كانت تهدف إلى خداع العدو، حيث إن كل حرب ترافقها حرب نفسية. ولكن اتضح أنها

موجهة للاستهلاك المحلى من أجل تعزيز عمل الجيش لدى الحكومة والشعب الإسرائيلى. ذلك جعل الجنود يشعرون بالمرارة والإحباط.

أندريه فيرساى: بطرس بطرس غالى، كيف تشرح الأسباب التى من أجلها لم يتدخل العرب إلا عندما دخلت القوات الإسرائيلية إلى لبنان؟ وفى الحقيقة، من ٦ إلى ١٠ يونية عام ١٩٨٢م، عندما وصل التساحال إلى أبواب بيروت، وقفت فتح وحدها تحارب القوات الإسرائيلية. لم تتدخل الدول العربية باستثناء سوريا، التى سرعان ما بدأت تتراجع، بشكل عسكرى، ولكنها أيضا لم ترسل أية مساعدات عينية ذات قيمة. وكانت الطائرات التى تحمل أسلحة ومعدات طبية القادمة من السعودية والجزائر، تهبط فى دمشق وليس فى بيروت. وحتى الميليشيات الشيعية والسنة والدروز ظلت خارج ساحة المعركة.

بطرس بطرس غالى: بداية، من وجهة النظر العسكرية، الدول العربية لم تكن تملك الإمكانيات الفنية للتدخل. ثانيا، التدخل الإسرائيلى تم بموافقة فصيل لبنانى، مما أعطى الانطباع بأننا بصدد امتداد للصراع الداخلى اللبنانى. ورغم ذلك، فإن الرأى العام والإعلام اعتبرا الهجوم الإسرائيلى بمثابة دليل جديد على إرادتها التوسعية. وبدأت جبهة الرفض العربية، بما فيها المصريون، تتشدد ورأت فى هذا التدخل مبررًا جديدًا لإدانة «السلام المنفصل» الذى تم بين مصر وإسرائيل على حساب التضامن العربى. لأنه لم يكن هناك مجال للشك بالنسبة للعالم العربى أن سلام كامب ديفيد الذى قام بتحييد مصر، سمح للإسرائيليين بشن حرب فى لبنان. وبالطبع، أعطى هذا الوضع قوة أكبر للأصوليين المصريين، ودعم مواقع هؤلاء الذين أرادوا للقاهرة أن تبتعد عن إسرائيل.

أندريه فيرساى: فى يولية، حاصر الإسرائيليون بيروت الغربية، التى اعتبرها بيجين وشارون *«عاصمة الإرهاب فى العالم»*. هذا الحصار سوف يستمر سبعين يومًا خلال هذه الفترة سيقوم الجيش الاسرائيلى بقصف المدينة. المعارك ستتصاعد، والسكان المدنيون سوف يعانون بشدة بلا شك. وأدان المجتمع الدولى بأكمله، بما فى ذلك الولايات المتحدة، هذا الهجوم، ووجدت إسرائيل نفسها معزولة تماما.

شيمون بيريز: نعم، هذه الحرب لم تكن لها شعبية إطلاقا فى بلادنا: وعدد كبير من الإسرائيليين سوف يدين هذا الهجوم. والأخطر أن الاحتجاجات وصلت الجيش نفسه. ولأول مرة سيجد جنودنا صعوبة كبيرة فى التعرف على أهداف الحرب. وهكذا، طلب الكولونيل جيفا إعفاءه من منصبه حتى لا يشارك فى الهجوم على بيروت. وتمت إقالته. ولأنه كان قائد لواء يحظى باحترام كبير فى الجيش، سببت هذه الإقالة لغطًا كثيرًا فى

إسـرائيل. أما بالنسبة للصحافة، فقد انتقدت كثيرًا الطريقة التى قادت بها الحكومة، وخاصة شارون، هذه الحرب.

أندريه فيرسـاى: من العجيب أن الدول العربية لـم تبد انفعالا بالوضع فى بيروت. كيف يمكن شرح ذلك؟

بطـرس بطرس غالى: لأن الجميع رأى أن لبنان تحولت إلى ورطة لا يرى أحد أنه يمكن أن يكون فعالا فيها. لذا، اكتفى الجميع بالإدانة، كما رأى العرب هذه العملية كمظهر جديد من مظاهر التوسـع الإسـرائيلى، لأن جزءًا من الرأى العام كان مقتنعًا بأن التدخل كان خطوة أولى نحو ضم جنوب لبنان إلى إسرائيل.

شيمون بيريز: وهو ما ظهر أنه ليس صحيحا على الإطلاق.

بطـرس بطـرس غالـى: أنا متفق. ولكـن ذلك لا يمنع أنهـا كانت الرؤية التى سـادت فى مخيلة العرب فى ذلك الوقت.

أندريـه فيرسـاى: سـيتغلب الجيـش الإسـرائيلى علـى القـوات الفلسـطينية. قواعدهم سـتدمر والنشـطاء بعـد هزيمتهم سـوف يهربون من لبنـان. حـاول عرفات كثيـرًا التفاوض على الانسـحاب الكامل للقوات الفلسـطينية من لبنـان مقابل اعتراف الأمـم المتحدة بحق الفلسطينيين فى تقرير المصير، ولكن الأمريكيين لجأوا إلى حق النقض خوفا من أن تتحول الهزيمة العسـكرية إلى «انتصار سياسـى». لذلك، سـيتم الانسحاب الفلسـطينى بلا مقابل، وسيتم تحت سيطرة قوة وسيطة أمريكية ـ إيطالية ـ فرنسية: فى ٢١ أغسطس، عرفات و١٥ ألـف مقاتل فلسـطينى، يحملون أسـلحتهم الخفيفة فقط، سـوف يغـادرون بيروت، البعض سيتوجه إلى الجزائر والبعض الآخر إلى اليمن، والبعض الأخير إلى تونس، بينما سينسحب ٤٥٠٠ ناشط فلسطينى تابع لسوريا إلى البقاع، منطقة يسيطر عليها السوريون بقوة.

شـيمون بيريز: كانت الحكومة الإسـرائيلية وشارون بصفة خاصة، مسـيطرا عليها بشدة هاجـس عرفات ووجود فتـح فى لبنان. ولكن تم التوصل إلى اتفاق بين المبعوث الأمريكى فيليب حبيب وبيجين من أجل ترك عرفات ورجاله يغادرون لبنان بأسـلحتهم الخفيفة، وهو مـا حـرر لبنان من فتح. لسـت متأكداً إن كانت هذه التسـوية قد راقت كثيرا لشـارون، ولكن بيجين وافق عليها.

سوف أقص عليكم شيئًا لا يعرفه الكثيرون: غادر عرفات بيروت عبر طريق لا يبعد أكثر من مترين من قواتنا. فى داخل قواتنا كان هناك قناصون، فعند رؤيتهم للزعيم الفلسطينى يسير

قريبا منهم، صوبوا عليه بنادقهم فى انتظار أمر إطلاق النار. وتم الاتصال ببيجين للحصول على موافقته، ولكن بيجين رفض، لأن ذلك سيعنى انتهاك الاتفاق الذى وقع عليه، كما أنه أعطى كلمته. ولكن رئيس الوزراء سيعانى فيما بعد من انتقادات بعض أصدقائه لإضاعته فرصة للتخلص أخيرا من هذا الذى يعتبر أسوأ أعداء إسرائيل، ولكن بيجين، الذى يجب علينا الاعتراف بهذه الخصلة فيه، كان رجل كلمة.

أندريه فيرساى: إذن عرفات سيغادر بيروت، وأنت، بطرس بطرس غالى، الذى ستكون فى استقباله عندما توقف فى مصر.

بطرس بطرس غالى: نعم. توجه عرفات ورجاله إلى قبرص على متن سفينة فرنسية: من هناك جاءوا إلى بورسعيد وعبروا قناة السويس ليرسوا أخيرا فى الإسماعيلية حيث ذهبت لاستقبالهم يرافقنى أسامة الباز. ثم رافقتهم بطائرة مروحية إلى قصر القبة. كان الحديث مع مبارك صعبا، لأن الرئيس المصرى لم يغفر لعرفات أنه أظهر سعادته أمام آلات تصوير التليفزيون فى العالم أجمع عندما أعلن عن مصرع السادات. ومع ذلك، أجرى الرجلان مباحثات خاصة استمرت ساعتين. ولا أعرف ماذا قيل خلال هذا اللقاء، وهو الأول منذ زيارة السادات للقدس، وهناك احتمال ضعيف أن نعرفه يوما ما (فعندنا، المباحثات السرية، هى سرية فعلاً، ولا أحد يحفظ تقريرًا بالحرف الواحد «verbatim»). مهما كان الأمر، فقد تمت المصالحة بين الزعيمين. ثم أقيم حفل غداء حيث اشتركنا فى تناول العيش والملح، رمز التصالح. بعدها رافقت عرفات إلى السويس بالطائرة المروحية. كان يبدو متعبا، ولكننا تحدثنا وأعرب لى عن تفاؤله القوى بالمستقبل. كما دعانى أن أطلب من مبارك الموافقة على تخصيص سفينة حربية مصرية ترافق سفينته عبر البحر الأحمر إلى أن يصل إلى اليمن. وقال لى: «*أعتقد أنه من المهم لمصر أن تظهر للرأى العام العالمى أن القضية الفلسطينية يمكن أن تعتمد على مساندتها..*»، ولكن مبارك لم يوافق على الطلب: كان من الصعب إعداد سفينة حربية للتحرك فى اللحظة الأخيرة.

ركب عرفات سفينة فرنسية وسط هتافات أنصاره. وتعانقنا بكل تعاطف، ثم عدت إلى الطائرة المروحية حيث تابعت السفينة وهى تبتعد ببطء تقود ياسر عرفات إلى منفى آخر.

أندريه فيرساى: فى اليوم التالى لانسحاب مقاتلى فتح، انتخب البرلمان اللبنانى بشير الجميل رئيسًا. كان من الواضح أنه «مرشح إسرائيل». زعم البعض أن الإسرائيليين كان لهم يد فى هذه الانتخابات.

شيمون بيريز: بصراحة لا أعتقد. فالانتخابات اللبنانية مسألة خاصة جدا، حيث تتداخل مؤثرات متناقضة - عائلية وعلاقات شخصية ومالية وشبكات، إلخ. - لذا لا أعتقد أن أكثر الإسرائيليين حذقا يمكنه أن يجد مدخلا فيها.

بطرس بطرس غالي: أنا لا أتفق معك في هذا الرأي. فحسب معلوماتي، لعب الإسرائيليون دورًا أساسيًا في انتخاب بشير الجميل. أولا، قامت القوات الإسرائيلية بحراسة عدد من النواب في أثناء توجههم إلى جلسة البرلمان؛ ثم قامت المخابرات الإسرائيلية بشراء بعض الأصوات؛ وأخيرا، تم نقل نائب أو اثنين من البقاع بالطائرات المروحية الإسرائيلية إلى المدرسة الحربية في بعبدا حيث تمت الانتخابات. فلا يقل لي أحد إن الإسرائيليين لم يلعبوا دورًا في انتخاب بشير الجميل!

ولكن الأخطر من ذلك، هو أن بشير الجميل في كل العالم العربي، سوف يعتبر أول رئيس دولة عربية يتم اختياره ومساندته من قبل إسرائيل، وهو ما أثبت، في نظر دول جبهة الرفض رغبة إسرائيل في الهيمنة على العالم العربي، مع كل ما يمثله ذلك من مخاطر على مستقبل العروبة.

شيمون بيريز: لندع جانبا هذه الخيالات السخيفة، ولنعد إلى هذه الانتخابات. أعتقد حقيقة أنك مخطئ. حتى على فرض أن بيجين أو شارون أرادا ممارسة تأثير ما، فكيف يستطيعان القيام به؟ إنه تخطيط نظري تماما. كان للزعماء اللبنانيين تحالفات غريبة ولم يرتبط أي منهم بأي حزب سياسي. وكانت الاتصالات والترتيبات متعددة. لبنان لم يكن دولة، بل شبكة معقدة من النفوذ.

ما كان صحيحا، من ناحية أخرى، هو أن بيجين وشارون كانا يأملان بقوة في انتخاب بشير، معتقدين أن ذلك سوف يسمح بالتوصل إلى سلام حقيقي مع اتفاقيات التعاون التي تم إعدادها. ومع ذلك، قبل الانتخابات بوقت قليل، أجرى بيجين اتصالا مع بشير. أتذكر أنه اختفى خلال ليلة بأكملها، وعندما سألناه عن السبب أجاب قائلاً: «يجب *ألا تسألوا رجلاً محترمًا أين قضى الليلة*». الحقيقة أنه ذهب لمقابلة بشير ومعه شارون، وعاد من اللقاء سعيدًا جدًّا، وأدلى بتصريحات حالمة، ألمح فيها إلى أننا سنقيم سلاما مع لبنان. كان ذلك وهما، لم أصدقه إطلاقًا.

أندريه فيرساي: ماذا كان يتوقع الإسرائيليون من بشير؟ يبدو أن بيجين أراد أن يتوصل بسرعة إلى معاهدة سلام مع لبنان وأن بشير رفض. هل كان ذلك خوفا من أن يفقد مكانته

لدى نصف الشعب؟ وما هى الروابط التى أراد الزعيم المارونى الجديد أن يقيمها مع الإسرائيليين؟

بطرس بطرس غالى: قبل الانتخابات، كان بشير فى حاجة إلى مساعدة الإسرائيليين. ولكن من اليوم التالى، لم يعد فى حاجة إليها. لذا فمن الطبيعى أن يبتعد عن إسرائيل، وهو الشرط الذى لا غنى عنه إن كان يريد أن يكون رئيسا لكل اللبنانيين وليس متعاونا مع إسرائيل. لذا سيرفض توقيع معاهدة سلام وكذلك كل مشروع تحالف لبنانى- إسرائيلى.

شيمون بيريز: أعتقد أن الجانبين عاشا فى أوهام حول الالتزامات العسكرية والسياسية التى كان كل جانب على استعداد لاتخاذها: تصور المارونيون أننا سوف نأخذ مسئولية حربهم، وبيجين تصور أن المارونيين سوف يتبنون مواقفنا ويصبحون على الفور نوعا من الطليعة الموالية لإسرائيل. ذلك كان يفتقد للحصافة: فكان لابد لكل جانب أن يراعى مصالحه الخاصة ويحارب بنفسه من أجل الدفاع عنها. وأقصى ما كان يمكننا أن نأمل فيه هو أن تسمح الوحدة بين العائلتين المارونيتين الكبيرتين، الجميل وشمعون، بإعادة بناء لبنان الموحد والسلمى. ذلك كان كافيا جدا. كانت علاقاتنا مع المارونيين جيدة جدا، ولكن لا ينبغى أن نتصور أن ذلك سيمكننا قريبا من التوصل إلى سلام حقيقى.. الشىء الوحيد الذى بإمكاننا أن نأمل فيه بواقعية هو إقامة وضع عابر للا حرب واللا سلم.

أندريه فيرساى: ولكن فى ١٤ سبتمبر عام ١٩٨٢م، قُتِل بشير وخلفه فى رئاسة لبنان شقيقه أمين. هل وضع هذا الاغتيال حدا لآمال الإسرائيليين فى إقامة السلام؟

شيمون بيريز: لقد كانت ضربة قوية تلقاها الليكود الذى وضع آمالاً كبيرة فيه، وأقل بالنسبة لنا، فى المعارضة، حيث إننا لم نكن نصدق أحلام بيجين.

بطرس بطرس غالى: على أية حال، كان من الواضح أن دمشق لن توافق أبدا على هذا السلام! بيجين وشارون، اللذان كانت لديهما رؤية مشوهة للواقع فى المنطقة، تأرجحا فى الأوهام. لقد كانت معاهدة السلام بين مصر واسرائيل تمثل بالفعل هزيمة سياسية للأسد. فتصور ماذا ستمثل معاهدة سلام بين إسرائيل ولبنان!

أندريه فيرساى: وجهت لسوريا تهمة قيادة عملية الاغتيال. كيف يبدو لك هذا؟

بطرس بطرس غالى: كل ما أتصور معرفته، هو أن حبيب طانيوس شارتومى، ناشط شاب من الحزب القومى السورى، ومعادٍ لبشير الجميل، قام بوضع عبوة ديناميت فى الحجرة التى تطل على المكان الذى كان فيه بشير الجميل، ولقد قتل فى الحال. أظهرت

التحقيقات أنه كان يعمل حسب تعليمات من عملاء سوريين لم يرغبوا قط فى أن يكون لهم رئيس لبنانى معاد لهم، كما فى حالة بشير.

شيمون بيريز: أعتقد أنه لا مجال للشك فى أن هذا الاغتيال كان بفعل السوريين: أنت على حق، كان من الواضح أن بشير سينتهج سياسة مستقلة لا تروق لدمشق التى لم تكن لتتصور ألا تكون لبنان تحت سيطرتها تماما.

أندريه فيرساى: فى ليلة ١٦ و١٧ سبتمبر عام ١٩٨٢م، قامت قوات الكتائب بقيادة المسيحى حبيقة، مدفوعة برغبة فى الانتقام من عملية اغتيال بشير الجميل، بالهجوم على معسكرات الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا. وقاموا بذبح المئات من المدنيين (نتحدث عن حوالى ١٢٠٠ قتيل) منهم عدد كبير من النساء والأطفال (وربعهم من الشيعة اللبنانيين). كان الجيش الإسرائيلى يقف بالقرب منهم ولكنه لم يتحرك.

هذه المذابح، التى سيغطيها الإعلام فى أنحاء العالم، فجرت غضبا شديدا فى كل العالم، وأيضا داخل إسرائيل.

شيمون بيريز: نعم، صابرا وشاتيلا فجرت غضبا شديدا فى إسرائيل. كانت صدمة ترجمت بعد أسبوع، فى ٢٥ سبتمبر، فى أكبر مظاهرة احتجاج تشهدها إسرائيل، خرج فى الشوارع نحو ٤٠٠ ألف شخص للمطالبة بالكشف عن دور الجيش الإسرائيلى فى هذه المذبحة.

كما سينضم العديد من العسكريين إلى المتظاهرين. لقد كانوا فى صدمة قوية لما حدث فى صابرا وشاتيلا الذى لطخ سمعة الجيش. وبشكل عام، رأى العديد منهم أن هذه المذبحة تشهد على تورطنا فى حرب لن تفيدنا فى شىء.

أندريه فيرساى: هذا التصرف من فرقة من الجيش، سيؤدى إلى أول شرخ كبير بين الإسرائيليين. وتلاشى تماما الإجماع الذى كان حول التساحال، والذى كان يعتبر «جيشًا شعبيًا وأخلاقيًا»: سوف يعتبر موقف التساحال بمثابة خيانة للمثل الأعلى الصهيونى للجيش. ماذا يفسر سلبية، إن لم نقل تواطؤ، الجيش الإسرائيلى؟ ما هى مصلحته فى هذه المذابح؟

بطرس بطرس غالى: بالنسبة لى، ليس هناك سلبية، بل تواطؤ من الإسرائيليين. بداية، انطلقت صواريخ مضيئة من الجيش الإسرائيلى من أجل تسهيل عملية دخول الكتائب إلى

المعسكر. ثم بعد الانتهاء من المذبحة، تدخلت البولدوزورات الإسرائيلية لتدمير المنازل الصفيح للمعسكرات. وأخيرا، هذه البولدوزورات قامت بحفر قبور جماعية حيث تم إلقاء جثث ضحايا المذبحة. وبناء على التقارير التى حصلنا عليها، تمت إزالة كل علامة تسمح بتحديد هوية البولدوزورات الإسرائيلية. وفى التصريحات التى أدلت بها الحكومة الإسرائيلية بعد المذبحة، وجدت أنه من الأفضل ألا تدين حلفاءها، الكتائب، وأكدت أن المجزرة هى من عمل وحدات لبنانية تم إدخالها إلى المعسكرات. ولكن كان ذلك جهدًا ضائعًا، لأن مذبحة معسكرى صابرا وشاتيلا للفلسطينيين سوف تلطخ إلى الأبد صورة إسرائيل وتثير استهجان المجتمع الدولى.

أندريه فيرساى: من المدهش، أنه بينما خرج ٤٠٠ ألف شخص فى مظاهرات فى إسرائيل، منعت الدول العربية المظاهرات. كيف يمكن تفسير ذلك؟

بطرس بطرس غالى: إنها مسألة بسيطة. أولا، ليس من مصلحة العالم العربى أن يهيج الأزمة الخطيرة التى نتجت عن تلك المذابح بين عرب مسيحيين وعرب مسلمين، وهى أزمة سعت إسرائيل من ناحيتها أن تؤججها بقولها: «*غير اليهود يقتلون غير يهود، إنها مسألة لبنانية داخلية*». بعد ذلك، فإن المظاهرات فى العالم العربى، حتى تلك الموجهة ضد إسرائيل، كان يتم قمعها على الفور، لأن هذه النظم المتسلطة تخاف أكثر من أى شىء آخر، من الانفلاتات الشعبية. المظاهرات ممنوعة. انتهى الموضوع.

أندريه فيرساى: بضغط من الرأى العام الإسرائيلى، كلفت حكومة بيجين اسحق كاهانا، رئيس المحكمة العليا، بتشكيل لجنة تقصى حقائق من أجل إلقاء الضوء على كل تلك الأحداث. ولقد توصلت اللجنة إلى مسئولية الجيش الإسرائيلى وإسرائيل غير المباشرة فى تلك المذابح. وستذهب إلى حد مقارنة دور إسرائيل مع دور السلطات الروسية والبولندية فى أثناء المذابح التى نظمت ضد اليهود فى القرن التاسع عشر. كيف تفسر أن تتم هذه المذابح تحت بصر - وإشراف - الجيش الإسرائيلى؟

شيمون بيريز: يجب أن أقول لك، بعيدا عن التقرير الذى وضعته اللجنة الإسرائيلية، إنه ليس لدينا إلا معلومات قليلة للغاية عن تلك المسألة. فى البداية، تصورنا أننا كنا متورطين جدا. واتضح أننا كنا بالفعل كذلك، ولكننا لم نكن نحن أساس هذه المذابح: لم يكن التساحال هو الذى أمر بها. أعلنت لجنة تقصى الحقائق أن الجيش مدان لأنه لم يكن متيقظًا بما فيه الكفاية؛ ولم يسهر على أمن السكان. وهو ما يعد خطيرًا جدًّا أيضًا.

إنه الجنرال شارون الذى وجهت إليه التهمة بشكل خاص: وأوصت اللجنة باستقالته وفى حالة رفضه، يقوم رئيس الحكومة بإقالته. وكما رفض شارون الاستقالة ، قام بيجين، تحت ضغط من الرأى العام بسحب وزارة الدفاع منه، مع الاحتفاظ به فى الحكومة وزيرًا بلا حقيبة.

أندريه فيرساى: فى رأيك، هل الحكم الذى توصلت إليه المحكمة كان منصفًا؟

شيمون بيريز: نعم. أعتقد حقيقة أن القضاة أكدوا على استقلاليتهم بتمسكهم بالكشف عن تلك المأساة، مع الرغبة فى التعرف بدقة بقدر الإمكان، على كل المسئوليات.

بطرس بطرس غالى: بالنسبة للعالم العربى، هذا الحكم لم يغير شيئًا من نظرته لهذه «المذبحة»: لقد كانت دليلاً إضافيًا على أن ضحايا الأمس تحولوا إلى جلادى اليوم.

أندريه فيرساى: فى سبتمبر عام ١٩٨٣، مناحم بيجين قدم استقالته. لماذا؟ ذكر البعض حزنه العميق على وفاة زوجته، والبعض الآخر ذكر أن السبب هو المستنقع اللبنانى!

شيمون بيريز: فى حقيقة الأمر، لا أعرف، وأعتقد أن لا أحد يعرف شيئا عن هذا. صحيح أن انسحابه من الحياة السياسية بدا غريبًا جدًا. وأعلن أنه كان يريد كتابة مذكراته، وهو ما لم يفعله. لم يكن فيه أى شىء من بيجين الذى كنا نعرفه. وعندما مرض عاش فى عزلة تامة، لم يكن يريد أن يرى أى شخص. أعتقد أن الإخفاق التام فى لبنان قد أضناه: لم يكن سهلا أن تكون زعيم دولة متورطة فى حرب ليس فيها أى أمل أن تنتهى بالانتصار، ولم يستطع إيجاد حل «لقضيتنا» اللبنانية.

أندريه فيرساى: كيف ترى كشف الحساب السياسى لمناحم بيجين؟

شيمون بيريز: إن استثنينا، سلامه مع مصر، والذى هو بالطبع شىء رئيسى، أعتقد أنه كان دائمًا على خطأ، أعتقد أن أيديولوجيته المتطرفة منعته من أن تكون له رؤية سياسية واقعية. لقد كان منافسا لبن جوريون، ولكن بدون بن جوريون لما نشأت دولة إسرائيل. لقد ساهم بيجين فى إنشاء إسرائيل، ولكنى لا أعتقد أننا نستطيع اعتباره واحدًا من «آبائها المؤسسين».

وأضيف فورًا، أنه برغم أيديولوجيته، كان بيجين ديمقراطيا حقيقيا، ولكن فى نهاية الأمر، لقد كان «خطيبًا بليغًا» أكثر مما كان رجل دولة.

سلامه مع مصر كان مهمًّا، ولكن يجب القول أنه كان محظوظا لأنه تعامل مع السادات. لو كان لدينا «سادات» فلسطيني نواجهه، لكنا توصلنا إلى السلام منذ وقت طويل. ولكن على الجانب الآخر حربه اللبنانية كانت خطأً جسيمًا.

بالنسبة للسياسة الداخلية، لم يكن قيامه بتغذية الخلافات بين السفارديم والاشكينازى، شيئا جميلا. لقد كان يجامل يهود شمال إفريقيا، وعزز إحساسهم بأنهم ضحية مرددًا على مسامعهم أنهم تعرضوا للتمييز، وذلك حتى يصبح هو بطلهم ويكسب أصواتهم فى الانتخابات. صحيح أنهم تعرضوا للتمييز ولكن ليس لأنهم سفارديم. فى الحقيقة لقد عانوا من التمييز «الطبيعى» الخاص بوضع كل هجرة جديدة: فمع كل موجة من الهجرات، كان المهاجرون الجدد يشعرون بالتمييز ضدهم، لأنهم بكل بساطة يجدون صعوبة فى التكيف وإقامة علاقات وخلق شبكات اتصال، ...إلخ، وهو ما كان يضعهم فى دونية بالنسبة للإسرائيليين الذين استقروا واندمجوا. أرى أن القيام باستغلال هذا الوضع من أجل زيادة الرصيد السياسى، مسألة غير براقة على الإطلاق.

بطرس بطرس غالى: بالنسبة لى، بيجين الذى كانت لى معه فرص كثيرة للحديث، كان بدايةً هو الرجل الذى وقع على معاهدة السلام مع مصر، والذى حافظ على كلمته حول انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى المصرية. وأريد فعلاً أن أصدق أن شارون خدعه فيما يخص حرب لبنان. ولكن ذلك لا يمنع أن خياله قد تسلط عليه وجعله يتصور أن منظمة التحرير الفلسطينية ما هى إلا صورة لإحياء النازية، وأن عرفات ما هو إلا هتلر العصور الحديثة، وأن الميثاق الوطنى الفلسطينى ما هو إلا كتاب «كفاحى» الجديد. هذا الهاجس لدى بيجين، كان واضحًا إلى حد أن الكاتب الإسرائيلى الكبير عموس عوز، الذى أقدر كتبه كثيرا، وجه له يوما خطابا، كتب فيه يقول: «*سيدى رئيس الوزراء [..] هتلر لا يختبئ لا فى النبطية ولا فى صيدا ولا فى بيروت.. لقد مات، منذ ٣٧ عامًا*».

أندريه فيرساى: فى عام ١٩٨٤م، بعد انتخابات مبكرة، تشكلت فى إسرائيل حكومة ائتلافية ذات «قيادة دوّارة»: ففى خلال العامين الأولين، من ١٩٨٤م إلى ١٩٨٦م، كنت أنت شيمون بيريز، رئيس وزراء، وكان اسحق شامير وزيرًا للخارجية (أما عن اسحق رابين، فسيكون وزير دفاع). ومن عام ١٩٨٦م إلى ١٩٨٨م، شامير هو الذى سيتولى منصب رئيس الوزراء، وأنت ستتولى وزارة الخارجية. هذا التعايش بالتبادل لم يحدث من قبل. كيف تراه؟

شيمون بيريز: فى البداية، كنت متخوفا بعض الشىء، ولكن أوفاديا يوسف، حاخام كبير فى إسرائيل طمأننى. فقد قال لى: «*تعرف يا شيمون، يمكن للتعايش أن يعطى نتائج جيدة جدا. فهناك مثلٌ على ذلك فى التوراة- فى التوراة؟ أين ذلك؟- فى التكوين. - أنا لا أرى ذلك.- عندما أدرك آدم أن حواء هى المرأة الوحيدة على الأرض، وأدركت حواء أنه ليس هناك رجل آخر على الأرض إلا آدم، قررا أن يتعايشا. وأطلقا على ذلك اسم «لجنة». واستمر ذلك وقتا طويلا إلى حد ما قبل أن تأتى الحية وتتدخل بينهما..*».

وبشكل أكثر جدية، عندما أصبحت رئيسا للوزراء، تعهدت بأربعة أشياء: مغادرة لبنان خلال ستة أشهر؛ خفض التضخم فى تسعة أشهر؛ تسوية العلاقات مع مصر؛ وبدء المفاوضات مع الفلسطينيين (ولكن ليس مع منظمة التحرير الفلسطينية). إن الاتهامات الموجهة إلى المنظمة وصلت إلى حد أنه فى سبتمبر عام ١٩٨٥م، أقر الكنيست قانون معاداة منظمة التحرير الفلسطينية الذى يمنع المواطنين الإسرائيليين من القيام بأى اتصال مع أعضاء من تلك المنظمة.

أندريه فيرساى: هل تعتقد أن هذا القانون كان حكيما؟

شيمون بيريز: حتى لو تصورنا أنه غير حكيم، كيف تستطيع معارضته؟ فمن اللحظة التى اعتبر فيها محاربى منظمة التحرير الفلسطينية مجرمين، أصبح من الطبيعى أن ندرجهم على القائمة السوداء ونمنع كل اتصال معهم.

أندريه فيرساى: من الناحية التاريخية، كان من الأمور الطبيعية أن تعتبر كل حركات التحرير الوطنية مجرمة. وبعد عدة سنوات، هؤلاء «المجرمون» أنفسهم أصبحوا من الحكام «المحترمين». بيجين وشامير ارتكبا هما أيضًا أعمالاً إرهابية.

شيمون بيريز: صحيح أن معظم حركات التحرير الوطنى قامت بتجاوزات ولجأت إلى الإرهاب. ولكنى أكرر لك، منظمة التحرير الفلسطينية، فتح، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومنظمات فلسطينية أخرى ذهبوا أبعد كثيرًا فى أعمالهم الإرهابية العمياء. فلم يكتفوا بالتصدى للجنود، بل كانوا يهاجمون كثيرا المدنيين والنساء والأطفال. بالإضافة إلى أنهم، كما قلنا من قبل، لم يحددوا أعمالهم داخل الأراضى الإسرائيلية: بل قاموا بقذف المعابد اليهودية والمدارس اليهودية خارج إسرائيل بالقنابل. لذلك كانوا يتسمون بقسوة عمياء أكبر كثيرًا من حركات التحرير الوطنى الأخرى مثل «المؤتمر الوطنى الإفريقى» فى جنوب إفريقيا على سبيل المثال.

فلنعد إلى موضوع لبنان مرة أخرى، خلال ستة أشهر غادرناها، وتركنا جنوب لبنان فى أيدى الجيش المسيحى بقيادة سعد حداد. (للأسف، نظرًا للهجمات التى كنا لا نزال نعانى منها، فإن قواتنا ستضطر إلى العودة مرة أخرى تدريجيًّا إلى المنطقة الحدودية للبنان).

يجب القول إن الجيش الإسرائيلى فى إجماله، تصرف بشكل جيد جدًّا إزاء أوامر الانسحاب تلك. كان رابين موافقا والجنود سعداء، لأن جيشنا لم يكن يُكِنُّ أى عداء تجاه اللبنانيين: وإذا كان شارون عنيفًا، فإن القيادة العليا لم تكن كذلك، كما لم تكن أيضًا الوحدات العسكرية.

ومع ذلك، ولأننا كنا ملتزمين، فقد ساندنا المحاربين المسيحيين وبالأخص محاربى جيش جنوب لبنان التابع لسعد حداد الذى قمنا بتدريبه. وكنا نسمح لضباطه بالدخول إلى إسرائيل لندربهم قبل أن يعودوا للالتحاق بجيشهم.

أندريه فيرساى: لنتحدث عن هذا الجيش الصغير المسيحى الذى نشأ بالتعاون مع الإسرائيليين. فقد سمح له الإسرائيليون بأن يُنشئ منطقة نفوذ مستقلة بشكل شبه كامل فى جنوب لبنان، إلى حد أنه فى ١٨ أبريل عام ١٩٧٩م، أعلن سعد حداد مولد «دولة لبنان الحرة». هل لذلك أى معنى؟ هل كان لسعد حداد أى شرعية؟ وهل دولة لبنانية مسيحية صغيرة تستطيع أن تطمح فى أن يعترف بها يوما ما المجتمع الدولى؟

شيمون بيريز: لنضع أنفسنا فى سياق العصر: لقد تفجرت الدولة السياسية اللبنانية وأصبح لكل طائفة، ولكل جناح، منطقة نفوذ كبرت أم صغرت: كان حزب الله فى الجنوب الغربى، والدروز فى المختارة والسوريون فى البقاع، ...إلخ. فى تلك الظروف كنا نريد أن تظل المنطقة الحدودية تحت سيطرة حلفاء لنا. كان ذلك هو السبب الذى من أجله ساندنا جيش جنوب لبنان الذى، مع ذلك، كان يحمى سكانه أنفسهم من الخطر.

إنك تتحدث عن الشرعية، ولكن فى دولة، فقدت كل السلطات فيها شرعيتها، أى شخص يمكن أن يدعى الشرعية. لبنان لم يعد دولة متحدة، إنها منطقة تتكون من محميات صغيرة، كلها دول داخل الدولة، التى من جانبها لم تعد موجودة.

بطرس بطرس غالى: القضية ليست هنا: لقد أنشأ الإسرائيليون جيشًا لبنانيًّا من أوله إلى آخره يعمل لحسابهم، وبات عليه، بعد أن يحتل جنوب لبنان، أن يخدمها كقوة وسيطة فى تلك المنطقة «الأمنية». هذا النظام ليس جديدًا: فخلال غزو الألمان لروسيا قاموا بتشكيل

قوى عسكرية تتكون من الأقليات فى الاتحاد السوفيتى . وليس بعيدًا عنا، قام الفرنسيون خلال حرب الجزائر، بتجنيد مجموعة من الجزائريين «الحاركيين». وفى المقابل، كان الإعلان يوم ١٨ أبريل عام ١٩٧٩م بإنشاء دولة لبنان الحرة، شيئًا خطيرًا حيث إنه غذى الهواجس التى فى العالم العربى بخصوص رغبة إسرائيل فى التوسع: الدولة اليهودية لم تتردد فى تقسيم دولة عربية من أجل أن تستطيع السيطرة عليها، وذلك على غرار ما فعله الفرنسيون خلال فترة انتدابهم فى سوريا.

أندريه فيرساى: شيمون بيريز، فى تلك الفترة، هل كنت ترى أن الحملة الإسرائيلية فى لبنان كان لها ما يبررها؟

شيمون بيريز: نعم، لو كانت توقفت عند حدود أربعين كيلومترا. كان من الممكن أن تكون ناجحة. ولكنها توسعت، ومن هذا الوقت غاصت فى المستنقع. تكلفت كثيرًا، خاصة فى الأرواح البشرية، من الجانب اللبنانى بالطبع، ولكن أيضًا من الجانب الإسرائيلى، حيث إنها أسفرت فى العام الأول عن مقتل ما يقرب من ٦٥٠ شخصا من جنودنا!

وفى نهاية المطاف، كل هذه الحملة كانت خطأً كبيرًا. شارون تصور أنه بمحاصرة لبنان، سيستطيع القضاء على القواعد الفلسطينية ويؤمن شمال إسرائيل، ولكن ذلك فشل! ولقد تورطنا فى حرب لا تنتهى؛ وذلك بالإضافة إلى أننا قمنا بتعقيد حياتنا بالاتحاد مع حلفاء لا نستطيع الاعتماد عليهم. لأن ما أراده المسيحيون اللبنانيون ـ كما قلت ـ هو أن نخوض نحن حربهم.

كان علينا بالطبع أن نحاول تحسين العلاقات مع اللبنانيين. مساعدة المسيحيين، ليكن، ولكن مع الحذر الشديد بألا نتدخل فى السياسة اللبنانية بزعم القيام فيها بدور. وحتى لو كنا أردنا ذلك، لكان مستحيلا. إن المصالح المتناقضة تتداخل فى لبنان بشكل كبير: أى شخص يمكن أن يتحالف مع أى شخص آخر، ثم يخونه فيما بعد. الكذب كان هو القاعدة. فى تلك الظروف، لماذا تورطنا فى عش الدبابير هذا؟!

أندريه فيرساى: فى نهاية الأمر، حافظ الأسد، ألم يفز واقعيا باللعبة؟ لقد منع لبنان من أن تتوصل إلى سلام أو حتى معاهدة عدم اعتداء مع إسرائيل؛ وفرض «السلام السورى» وكانت قبضته على لبنان أقوى كثيرًا مما كانت عليه حتى تلك اللحظة. ومع نهاية الثمانينيات وحتى نهاية عام ٢٠٠٤م، سيطرت دمشق على كل الرؤساء ورؤساء الحكومات اللبنانية.

شيمون بيريز: ماذا تعنى بكلمة «فاز»؟ إن كنت تقصد بها المعنى العسكرى الضيق، فأنت بلا شك على حق. ولكن تبعية دولة لدولة أخرى، هل يمكن أن تعتبر حقيقة انتصارًا؟ أنا عن نفسى، لا أعتبر أن انتصارًا عسكريًّا يعد انتصارًا: فالانتصار يجب أن يكون سياسيًّا، أو لا يكون.

لقد بقى السوريون فى لبنان حتى عام ٢٠٠٥م. ونتيجة لعملية اغتيال رفيق الحريرى، من المؤكد أنها تمت بتواطؤ (على الأقل!) مع أجهزة المخابرات فى دمشق، كان عليهم المغادرة بلا أمجاد. واليوم، ما هو حال لبنان؟ اقتصادها كان مهما لدمشق حيث إن مئات الآلاف من السوريين كانوا يعملون فى لبنان ومرتباتهم كانت تثرى سوريا. ولكن لفرط ثقل السوريين على هذا الاقتصاد، قاموا بتدميره. وطبيعى، أن ينتهى الحال بلبنان إلى بلد ينخر فيه الفساد وتجارة المخدرات.

وسوريا، أين هى الآن؟ يحكمها أقلية، العلويون؛ لقد احتفظت إلى حد ما بقوة ضاربة، ولكنها ليست مؤثرة كثيرا، كما أنها لا تتمتع بزعامة حقيقية. لا سلام، لا رخاء: بل إن الدولة ازدادت فقرًا.

أنت تتحدث عن انتصار...

بطرس بطرس غالى: إن ذلك تفسير شخصى جدا للتاريخ. إننى أرى الأشياء بشكل مختلف. فبالرغم من الهزائم العسكرية، عرف الرئيس الأسد، الذى ينتمى إلى أقلية، كيف يحافظ على السلطة حتى مماته. ورغم التفوق العسكرى للإسرائيليين، استطاعت دمشق أن تصمد فى وجههم بالسيطرة، عند الحدود الإسرائيلية اللبنانية، على حرب استنزاف يقودها حزب الله. بالإضافة إلى أن خلافة الرئيس الأسد تمت بهدوء، وإن قارنت وضع سوريا بوضع الدول الأخرى فى العالم الثالث، يمكن أن نقول إن دمشق استطاعت الخروج من المأزق بشكل جيد إلى حد ما. وحتى لو كانت قواتها قد اضطرت إلى مغادرة لبنان، فهى ما زالت تحتفظ بالسيطرة عليها: فهناك عدد كبير من العملاء السوريين الذين حصلوا على الجنسية اللبنانية..

ويجب أن نلاحظ، فى كلمة لصالح الأسد، أن سلامه الذى فرضه أدى إلى القضاء على المعارك الداخلية التى مزقت لبنان منذ عام ١٩٧٥م.

شيمون بيريز: وماذا كان الثمن..؟!

بطرس بطرس غالى: هذا السلام لم يؤد فقط إلى القضاء على الصراعات الداخلية، ولكنه سمح للبنان أن ينهض مرة أخرى بعد أن تمزق أشلاء، وأن يجعل من بيروت مركزًا ماليًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا. ورغم تكاليفه البشرية والاقتصادية، فإن هذا الوجود كان بالأحرى إيجابيًّا. فلا التدخل الإسرائيلى ولا تدخل الأمم المتحدة سمحا بالوصول إلى هذه النتيجة. لذلك فأعتقد أنه خلال فترة النقاهة اللبنانية، لعبت سوريا دورًا بناءً، إلى حد كبير، وساعدت نسبيًّا على إحلال السلام.

ورغم ذلك، الوجه الآخر من العملة، بعد «إحلال السلام» فى لبنان، لم يشأ السوريون مغادرته، وتصرفوا كمحتلين حتى انسحابهم فى ٢٠٠٥م!

* * *

١٤- الشـرق الأوسـط فى العاصفـة

ظهـور حـزب اللـه - سـقوط الشـاه والثورة الإسـلامية - السـادات ليـس قلقا مـن الخطر الإسـلامى - الغرب أقل قلقًا - الحرب الإيرانية - العراقية - مفاوضات سـرية بين شيمون بيريز والملك حسين - تخريب شامير.

أندريه فيرسـاى: بعد طرد منظمة التحرير الفلسـطينية من لبنان، رأينا ظهور الميليشـيات الشيعية، ولاسيما حزب الله، التى تمولها إيران، وتندرج تحت لواء حراس الثورة الإسلامية الإيرانيـة. مـع حزب الله، انتقلت المعركة ضد إسـرائيل، التى كان يقوم بها حتى هذا الوقت الفلسـطينيون، الذيـن إن لـم يكونـوا «علمانيين» فهـم على الأقل ليسـوا أصوليـين، إلى يد مجموعات دينية.

بطرس بطرس غالى: لست متفقا معك عندما تقول إن المعركة ضد إسرائيل كان يقودها قبـل ذلـك علمانيـون، أو إلى حـد ما هكذا: لا، لقـد كانت دائما مسـألة دينية. هنـاك بالطبع الجبهة الشـعبية لجورج حداد أو الجبهة الديمقراطية الشـعبية لنايف حواتمه، ولكنهم كانوا أقلية جدًّا. كانت الحركات الفلسـطينية فى مجملها، ليسـت أصولية، ولكن مسلمة، والدين كان عنصرًا محركًا للحركة الوطنية الفلسطينية.

شـيمون بيريز: على كل حال، مشروع فلسـطين العلمانية والديمقراطية، التى يعيش فيها معا فى انسجام، المسيحيون والمسلمون واليهود، كان خطابا للاستهلاك الغربى. ففى نهاية السبعينيات، أراد عرفات، الذى أدرك ثقل الرأى العام الغربى، الأوروبى أو الأمريكى، بكل قوة أن يجعله يقبل منظمة التحرير. لذلك لم يسـتطع أن يظهر كإسـلامى متطرف. ومن جهة أخـرى، أوضـح له الزعماء الأوروبيون الذين ذهب يحاول كسـب ودهم، قائلين: «*إن كنت ستتصرف كإسلامى، فلن يكون لديك فرصة فى أن تقنع الغربيين*».

وبالفعل، عندما قدمت الحركات الوطنية بوصفها «تقدمية»، حاملة مشروع فلسطين «علمانية وديمقراطية»، بدأت الحركات تكسب تدريجيًا تعاطف الدوائر التقدمية الأوروبية.

أندريه فيرساى: مهما كان الأمر، إن حزب الله الشيعى هو الذى أصبح الحركة الرئيسية المعادية للإسرائيليين فى لبنان. ولقد ظهر بفضل تمويلات الجمهورية الإيرانية الإسلامية التى نشرت موجة التطرف الإسلامى. أقترح عليكما أن تعودا إلى تكوين هذه الموجة.

فى خلال عام ١٩٧٨م، تحركت الأمور فى إيران. وبدأ النظام يواجه مقاومة شعبية تزداد عنفا. بالإضافة إلى ذلك، بدأ الرأى العام العالمى، ولاسيما الأوروبى، ينظر إلى الشاه باعتباره أحد الطغاة الأكثر دموية فى العالم. فى نفس الوقت، بدأ أحد آيات الله، يدعى الخمينى، يثير لغطًا كثيرًا حوله. لقد بدا أنه يرمز إلى أمل ملايين الإيرانيين. النظام الملكى مهدد بالتأرجح. ولأن الشاه كان حليفا لإسرائيل، فإن القدس كانت تتابع عن قرب الأحداث الإيرانية.

شيمون بيريز: نعم، لقد أقمنا علاقات قوية مع إيران الشاه؛ كانت مما نطلق عليها «علاقات محيطية»: فبما أن جيراننا المباشرين كانوا أعداءنا، فبدا لنا من الأهمية بمكان أن نقيم علاقات مع الدول التى تحيط بعالم عربى معادى.

بطرس بطرس غالى: توجد حكمة قديمة فى الدبلوماسية الهندية توصى بأن يكون الجار على علاقة جيدة مع جار الجار.

شيمون بيريز: بالضبط، خاصة إن كان الجار عدوا. لهذا السبب، كما قلت لك، قمنا بطبيعة الأمور، فى الخمسينيات والستينيات، بتغذية علاقات طيبة مع إيران وأثيوبيا النجاشى، والسودان والمغرب، إلخ. ولكن كانت إيران الأقرب إلينا، حيث قمنا بتطوير تعاون على عدة مستويات وفى قطاعات مختلفة: عسكرية واقتصادية، إلخ. كما قمنا معا بمد خط أنابيب يربط ما بين البحر الأحمر والمتوسط.

أندريه فيرساى: شيمون بيريز، لقد زرت إيران حتى عام ١٩٧٨م عدة مرات لمقابلة الشاه،. هل كنت تتوقع سقوطه؟

شيمون بيريز: عنى شخصيًا، لا. ولكن سفيرنا الذى كان يعرف البلاد جيدا ويتحدث الفارسية بطلاقة، نعم. وظل يحذرنا، بقوله إن وضع الشاه أصبح غير مستقر، وإن أعدادًا متزايدة من المواطنين كانوا معادين له بشدة. لم يكن هناك إلا الترف الفج لقصوره التى تشبه قصور ألف ليلة وليلة يغطيها المرمر والذهب (وأتذكر دائما جبال الفستق والملبن،

إلخ) لقد كان هناك فساد كبير. لقد كنت أسمع قصصًا عجيبة بخصوص الفساد الذى ساد حول الشاه.

بطرس بطرس غالى: أين كان من كل هذا، نصيب الواقع ونصيب الخيال؟ وهل تستطيع أن تذكر لى دولة واحدة ليس فيها فساد؟

شيمون بيريز: ليس بهذا الحجم. فى إيران، كان الوضع حقيقة خاصًا. لم يكن فسادًا على مستوى بضعة قروش: ولكن كان الفساد على مستوى مئات الملايين من الدولارات. أعتقد أن الشاه لم يدرك حقيقة ما كان يحدث فى بلاده. لقد عمى عن بعض الأشياء وكان يجد صعوبة فى اختيار سياسة منسجمة: كان ذا نزعة تسلطية مطلقة، يفرض السيطرة الكاملة على كل ما يمكن، كما ظل فى نفس الوقت مترددًا جدًّا فى قراراته. عدم الترابط هذا فى الحكم، لم يساعد على الاستقرار.

ظل الشاه يحكم حكما مطلقا، بينما كانت الأرض تميد تحت أقدامه، وبدأ تأثير الخمينى (الذى كان، مع ذلك، فى نظر العديدين رجلاً مقدسًا) يظهر، فكانت تتنقل أفلام الفيديو التى تظهر الإمام فى خطبه النارية بين المواطنين. كان فى الجامعة ٥٠٠ ألف طالب يدعون إلى تحرير النظام، وفى نفس الوقت انتشر ٥٠٠ ألف رجل دين فى أنحاء البلاد، ليصلوا إلى أصغر قرية، لترويج رسالة الخمينى. كان السؤال هو معرفة أى من الجانبين سيفوز على الآخر. أما بالنسبة للجيش، فقد تأرجح بين الاثنين، وكان الشاه متحكمًا فيه ومهتمًا به كثيرًا، ويعرفه جيدًا.

أندريه فيرساى: كان الشاه حليفًا مخلصًا للولايات المتحدة؛ ورغم ذلك فقد تخلت عنه واشنطن. لماذا؟ جيمى كارتر، الذى أراد أن يكون زعيم حقوق الإنسان، سيذكر أسبابًا أخلاقية.

بطرس بطرس غالى: لا أعتقد أن الولايات المتحدة تخلت عن الشاه لأسباب أخلاقية. أعتقد أن الأمريكيين أدركوا أن الشاه، الذى كان مريضًا مرضًا خطيرًا، بدأ يفقد تدريجيًّا السيطرة على بلاده.

شيمون بيريز: بلا شك. ولكن ذلك لا يمنع أن الرئيس الأمريكى كان صادقًا فى حملته من أجل حقوق الإنسان.

أندريه فيرساى: ما هى نظرتك إزاء سياسة كارتر تلك الخاصة بحقوق الإنسان ؟

شيمون بيريز: كما ترى، يمكن للمرء أن يتفق مع هذه الأيديولوجية أو ينتقدها، وفى هذا الوقت لم يدخر عدد كبير من الأمريكيين انتقادها، وذهبوا إلى حد اعتبار كارتر واعظًا وليس رئيسًا. ولكن رغم ذلك، فلا يمكن إنكار أن تلك الأيديولوجية كانت فعّالة، فقد رأينا كيف أدى انتشارها إلى قلب النظام الشيوعى. ولكن على الجانب الثانى من العملة، هذه الأيديولوجية أضعفت عددًا كبيرًا من حلفاء واشنطن، منهم الشاه. والحقيقة أن الروابط بين الولايات المتحدة وإيران تغيرت فى عصر كارتر. فلقد أدانت الولايات المتحدة بشدة، وبعدها أوروبا، كل الممارسات؛ المؤامرات التى كانت تمزق الزعامة الإيرانية، نظام الفساد الذى انتشر واعتمدت عليه النخبة المدنية والعسكرية، وأخيرًا القسوة التى عرف بها البوليس السرى السافاك.

كان الشاه يشكو من الصحافة الأمريكية التى لم تكف عن نشر مقالات انتقادية عنيفة. ولقد أرانى بعضا منها: ولأنه اعتقد أننا نحن الإسرائيليين لدينا تأثير على تلك الصحافة، أراد منا أن نتدخل لدى الصحفيين. ألا ترى أن الأساطير تعيش حياة صعبة...؟!

أندريه فيرساى: خرجت الحركات الشعبية تهتف ضده، وتخلى عنه أصدقاؤه الغربيون والعرب، اضطر الشاه لترك السلطة ومغادرة البلاد إلى المنفى. عاد آية الله الخمينى إلى إيران وأرسى فورًا الجمهورية الإسلامية. كيف كان رد الفعل فى إسرائيل؟

شيمون بيريز: كان الانتصار من نصيب ٥٠٠ ألف رجل دين. سوف نرى بسرعة أن الأمر ليس انقلابًا تقليديًا حركته معارضة تقليدية، ولكنه كان تحريكًا لموجة حقيقية ذات عمق دينى متطرف. فى إسرائيل، كنا بالطبع، قلقين للغاية إزاء هذا الوضع الذى سيحكم فيه البلاد متعصبون مستبدون. وطالما استمعنا إلى هذه الخطب التى تبث كراهية، والتى يعتبر فيها إسرائيل «*الشيطان الأصغر*» (الولايات المتحدة هى «*الشيطان الأكبر*»).

بطرس بطرس غالى: ومن الجانب المصرى، كانت الحكومة غير سعيدة على الإطلاق لأنها فقدت حليفًا، ولكن السادات لم يكن قلقًا. ذلك لا يمنع أن هذا الانتصار جاء ليعزز موقف الأصوليين المصريين، فى فكرة إمكانية وصولهم إلى السلطة.

بعد سقوط الشاه، الذى كان على علاقة ممتازة مع السادات، سيستقبل فى القاهرة. كان الزعيمان قد حققا معا فى الماضى مشاريع عديدة. وأتذكر أنه فى ٩ يناير عام ١٩٧٨م، بعد رحلتنا إلى القدس بعدة أسابيع، جاء الشاه فى زيارة رسمية إلى أسوان حيث استقبل استقبالاً مهيبًا: ٢١ طلقة مدفع، النشيد القومى الإمبراطورى، النشيد القومى المصرى.

الرئيس السادات والشاه، اللذان كان يحكمان دولتين قويتين فى الشرق الأوسط، قضيا فى تلك الزيارة وقتًا طويلاً فى مناقشات ثنائية. وفى خلال تلك المناقشات، عقدا معًا نوعًا من التحالف المقدس يهدف إلى محاربة الشيوعية، وكان أولى مبادراته إرسال أسلحة إلى الصومال الموالية للأمريكيين فى مواجهاتها مع أثيوبيا الموالية للسوفييت.

ومن سخريات القدر، بعد عام بالكاد، فى ١٦ يناير عام ١٩٧٩م، وقبل عدة أشهر من توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل، جاء الشاه إلى مصر مرة ثانية فى زيارة رسمية، بنفس الأبهة. ولكن هذه المرة، لم يكن الحديث يدور حول التحالف الذى عقد قبل عام، ولكن حول إعداد منفى الشاه الذى جاء لاجئًا إلى مصر حيث سيجد الترحيب الذى حرمه إياه المجتمع الدولى. وفى مصر أيضًا، سيموت الشاه.

عندما قرر السادات أن يستقبل الشاه كلاجئ، اتصلت به لكى أبلغه عن مخاوفى بصفتى وزير دولة للشئون الخارجية. كنت أخشى فى حقيقة الأمر من أن تؤدى هذه البادرة إلى تفجير موجة من الهجمات من قبل الجماعات الأصولية ضد سفاراتنا. غضب: «*ألا تشعر بأى شعور بالامتنان!*» (لقد ساعدنا الشاه خلال حرب عام ١٩٧٣م بإمدادنا بالبترول). اعتذرت وشرحت له أننى لا أستنكر قراره لاستقبال الشاه، ولكنى سمحت لنفسى فقط أن أحذره من العواقب المحتملة لهذه البادرة. فأجابنى: «*مسألة حماية السفارات، هذه مشكلتك، وذلك لن يجعلنى أتراجع عن قرارى بتقديم واجب الضيافة لأخى الشاه!*».

أندريه فيرساى: تقول إن السادات لم يكن قلقًا من تطورات إيران: ألم يخش إذن، العدوى الأصولية؟

بطرس بطرس غالى: أتيحت لى الفرصة، فيما بعد، لأن أتحدث مع السادات عن الخطر الأصولى، ولكنه لم يبد أنه قلق من وصول آيات الله فى إيران. لقد كان يعتبر أن مصر، لكونها سنية، والثوريين الإيرانيين، لكونهم شيعيين، لم لا يجعل هناك سببًا لأن يخاف من عدوى. حاولت مع موسى صبرى، رئيس تحرير الصحيفة اليومية *الأخبار*، أن نقنع السادات بالخطر الذى يمثله الإخوان المسلمون فى مصر. ولكن هيهات. بالنسبة للسادات، كان الخطر الحقيقى يأتى من الشيوعيين وحلفائهم. ولأنه قلل من قدرة الأصوليين على إثارة القلق، ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه الشاه، الذى رفض أن يرى خطر الخمينى. ولقد كان الاثنان ضحية هذا العمى. يبدو أنهما أخذا على عاتقهما الهاجس المناهض للشيوعية الذى بثه الأمريكيون، هاجس لم أكن أشاركه فيه. فبالنسبة لى، فإن عدم الاستقرار الذى آلت إليه النظم العربية المعتدلة كان بسبب الأصوليين الإسلاميين، وليس بكل تأكيد بسبب

الشيوعيين. بدا لى واضحًا أنه، برغم الاختلافات المذهبية بين الحركات الأصولية، اتفقت على محاربة التغريب. لذلك، فعندما ذهب الزعيم الأصولى السودانى، حسن الترابى، الذى كان سنى المذهب، لمقابلة آية الله الخمينى، الشيعى، حصل على كل المساعدات العسكرية التى كان فى حاجة إليها من أجل محاربة المسيحيين والوثنيين فى جنوب السودان. هذا الخطر الأصولى بدا لى دائمًا واضحًا. لقد كان، بكل تأكيد، انفتاحى على الغرب وتمسكى بالعلمانية، هو ما سمح لى أن أستشعر هذا الخطر أكثر من بقية أبناء وطنى.

أندريه فيرساى: بادرة السادات لاستقبال الشاه فى المنفى، هل كانت تنبع فقط من شعور بالامتنان أم أنه كانت هناك تعويضات مالية؟

بطرس بطرس غالى: لا أعتقد للحظة أن هذه البادرة بالاستقبال الحافل كان لها أية مبررات ذات اعتبارات مالية. لقد كان للسادات إحساس عميق بالضيافة وبالامتنان. كما أراد أيضًا أن يظهر بوضوح جحود المجتمع الغربى الذى كان يحتفى بالشاه طالما أنه كان فى السلطة، وكان مستعدًا الآن لأن يتركه لانتقام آيات الله بعد أن سقط. لقد أراد السادات أن يظهر أنه تحرك باسم الأخلاقيات السياسية، وهى رؤية أصبح حساسًا تجاهها بشكل خاص، منذ أن تم إقراره كرجل دولة ذى مكانة دولية.

أندريه فيرساى: هذا التقليل من الخطر الأصولى، أليس السبب فيه العودة إلى الحرب الباردة؟ ففى هذا العام نفسه، ١٩٧٩م، دخل السوفييت إلى أفغانستان؛ ومن أجل وقف زحفهم، ساندت الولايات المتحدة كل أجنحة المقاومة الأفغانية، بلا تمييز، بمن فيهم الطالبان. باسم نفس المبدأ: «نحن نستطيع دائما التفاهم مع المتدينين (الذين على كل حال، لم يكونوا يمثلون قوة مهمة جدا) بينما لا يمكن التوصل إلى أى حل وسط مع الشيوعيين التابعين للقوة العظمى السوفيتية». وبالنسبة للغرب، فبشكل عام، بدا خطر الانتشار السوفيتى فى ذلك الحين، واضحًا أكثر من تطور الأصولية الإسلامية، والتى لم تكن محسوسة آنذاك كثيرا فى الغرب.

بطرس بطرس غالى: أنت على حق، ولكنى سوف أشير إلى أن تأثيرها لم يكن محصورًا فى الحرب الباردة: فحتى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م كانت الولايات المتحدة تقلل تمامًا من شأن الخطر الأصولى.

أندريه فيرساى: ما الذى يفسر أن الغرب لم يستشعر خطر الخمينى؟ على أية حال، لا يستطيع أحد أن يقول إن الإمام قد تحرك فى الخفاء: فلقد عرف الجميع بمشروع الثورة

الإسلامية قبل أن يستولى الخمينى على السلطة. الحكومة الفرنسية فى عهد جيسكار ديستان استقبلت الخمينى لعدة أشهر فى نوفل لو شاتو، حيث كان يدعو إلى الحرب المقدسة، دون أن يبدو أن ذلك حرك الطبقة السياسية أو الرأى العام الفرنسى.

بطرس بطرس غالى: أعتقد أن الجهل وصل إلى حد أن الفرنسيين والغربيين بشكل عام رأوا فى الحركة الخمينية ظاهرة ثانوية عابرة. من ناحية أخرى، رأوا أنه طالما أن بعض الأحزاب السياسية الغربية تنسب نفسها للقيم المسيحية فإنه من الطبيعى أن الاحزاب السياسية فى العالم العربى تنسب نفسها للقيم الإسلامية.

أندريه فيرساى: إلا أن هذا «الإحياء الإسلامى» يريد العودة إلى إسلام من العصور الوسطى يتعارض مع القيم الديمقراطية الحديثة لحقوق الإنسان، والمساواة بين الرجل والمرأة، إلخ.

بطرس بطرس غالى: نعم، بالتأكيد، ولكن الغرب لم يدرك إلا قليلاً البعد الماضوى لهذه الحركة، وأقل أيضا، بعدها العدوانى تجاه الغرب - حتى ولو قام العديد من الخبراء فى تلك الفترة بدق ناقوس الخطر. ولكن السياسيين ينصتون قليلاً إلى الخبراء الذين يرون أنهم منغلقون داخل تخصصهم المنقطع عن الواقع. كل ذلك كان مبهمًا، ثم إن ذلك يجرى بعيدًا، «*هناك، لدى شعوب ليس لديهم نفس القيم مثلنا، إلخ*».

أندريه فيرساى: التسامح باسم «الحق فى الاختلاف» مقابل المركزية الغربية، بشكل ما.

بطرس بطرس غالى: بالضبط.

أندريه فيرساى: بدا أن العالم كله فوجئ بعنف تطرف الثورة الإسلامية. مع أننا كنا نعلم أن الخمينى أراد - ليس فقط قلب الملكية ولكن أيضًا - إقامة جمهورية إسلامية أصولية.

شيمون بيريز: أنت على حق، ولكنى أعتقد أن أحدًا لم يتصور أنه سوف يقوم فعلاً بتأسيس ديكتاتورية دينية بهذا العنف. كما تعلم، يقول الكثير من الناس أشياء مغالى فيها عندما يكونون فى المنفى، وتوضع هذه الرسائل اللاذعة على حساب البلاغة. وحتى هؤلاء الذين كانوا يتصورونه صادقًا ومصممًا، لم يتصوروا أنه سيحقق أهدافه.

بطرس بطرس غالى: كنت أتصور أن الخمينى يعتبر رجلاً مجذوبًا يعيش فى المنفى فى فرنسا. لم يأخذه أحد على محمل الجد، لا فى الخارج ولا فى الطبقة الحاكمة الإيرانية.

جاءنـى بعض الأصدقاء الإيرانيين لزيارتى فى القاهرة، فـى نهاية عام ١٩٧٨م، لكى يقدموا لـى مشـاريعهم للتنميـة. وقلت لهـم: *«أأنتم مجانين؟ فى السـنوات المقبلة هنـاك خطر قيام ثورة لديكم، سواء من اليسار أو من اليمين!»* فأجابوا: *«لا البتة! الشيوعيون هؤلاء ليس لهم أهمية، أما بالنسـبة للملالى، فهم مهمشـون للغاية، وسـيظلون كذلك!»* لم يتوقع أحد، إذن، حتى ولو من بعيد، الأمواج الخمينية التى كانت على وشك أن تتدفق على البلاد.

شـيمون بيريـز: أما فيما يتعلق بنـا، فقد كان المثل التركى يطمئننا: فـى تركيا، الجيش هو الضامـن للدسـتور العلمانى، وأكثر من مرة قـام بالتصدى لرجال الدين. تركيا هى، حسـب معلوماتـى، الدولـة الوحيـدة فـى العالـم التـى تقـوم فيها مؤسسـة غيـر ديمقراطيـة بحماية الديمقراطيـة، أو شـبه الديمقراطيـة. إنها إحـدى موروثات أتاتـورك حتى اليـوم. لذلك كنا واثقيـن من أن الجيـش الإيرانى، الذى تدربـت نخبته فى الغرب، فى الولايـات المتحدة أو انجلترا، لن يترك أبدا رجال الدين يستولون على السلطة ولن يقبل أبدا الخمينى...

وأصبحـت إيران هى الدولة التـى لديها أعنف قدرة على الإيذاء فى الصراع الذى يضعنا فـى مواجهـة مع العرب. لقـد حاولت تخريب أى تقارب بيننا وبيـن العرب، عن طريق إثارة المتشـددين من حزب الله فى لبنان وهؤلاء من حماس فى الأراضى المحتلة من أجل زيادة الأعمـال الإرهابيـة. لأن الخمينى، الـذى ترتكز عقيدته على رفض الحداثـة وكراهية كل ما يرمـز إلـى الثقافة الأوروبية، أراد منـع كل تقارب بين الثقافات الغربية والشـرقية، عن طريق حمل، راية «الثورة المقدسـة» فى العالم الإسـلامى وخارجه، وهو ما يشـكل تهديدًا خطيرًا ضد السلام والاستقرار فى المنطقة.

أندريـه فيرسـاى: فورًا بعد الانقـلاب، توجه عرفات إلـى طهران، فى رحلـة تم تغطيتها إعلاميا على نطاق واسـع، من أجل تحية الثورة الخمينية. لماذا؟ ما الذى كانت الثورة تمثله للفلسطينيين الذين كانوا فى أغلبيتهم من السنة؟

بطـرس بطـرس غالى: لم يكن الأمر يتعلـق بالانضمام إليهم، ولقد فهـم الحكام العرب ذلـك بـكل وضوح. لقد عرفوا أن عرفـات كان وحيدًا، ولهذا كان بحاجة إلى حلفاء، سـواء كانـوا أصولييـن، شـيوعيين، أفارقة، من جنوب أمريكا، أو أى شـخص آخـر، من أجل دعم وجوده على السـاحة الدولية. فى مواجهة القوة العسـكرية الإسـرائيلية، التى تسـاندها القوة العظمـى الأمريكية، كان على اسـتعداد لإجراء أكثـر الارتباطات غرابة، مـن أجل أن يحقق حلمه فى تحالف بين «المعذبين فى الأرض».

أندريه فيرساى: مجىء الثورة الإسلامية فى إيران سيكون الفرصة لكى تشن بغداد حربا ضد طهران. جذور الصراع تعود لعدة قرون سابقة، حينما تصاعد الخلاف بين عرب بلاد الرافدين وبين الفرس حول المنطقة الحدودية لشط العرب، والتى تطالب بها كل من إيران والعراق. فى عام ١٩٧٥م، تم توقيع معاهدتين بين بغداد وطهران، تقضيان بتحديد الحدود الأرضية والبحرية وإقامة علاقة حسن الجوار بين الدولتين. بالرغم من ذلك، ستتدهور العلاقات بسرعة جدا بعد قيام الجمهورية الإسلامية، إلى حد أن ألغت بغداد الاتفاقيات، منذ أكتوبر عام ١٩٧٩م. وتزايدت الاشتباكات الحدودية إلى أن دخلت القوات العراقية إلى الأراضى الإيرانية فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠م. لماذا اندفع صدام حسين فى هذه الحرب؟

بطرس بطرس غالى: لعدة أسباب. أولاً، لأن بعض الجنرالات الإيرانيين المعارضين للنظام الجديد، أقنعوا السلطات العراقية بأن الجيش الإيرانى كان منهارًا تمامًا وأن انتصارًا عراقيًا سيكون سهلاً. ثانيًا، أراد الأمريكيون هذه الحرب التى قد تنهى نظام الخمينى. وأخيرًا، يجب أن نأخذ فى الحسبان جنون العظمة الخاص بصدام حسين.

شيمون بيريز: أتفق معك. فى هذه الفترة، حصل صدام حسين على أصوات الغرب، لا لشىء إلا لعلمانية نظامه. وفى مواجهته كان برنامج الثورة الإسلامية ومسألة الرهائن المحجوزين داخل السفارة الأمريكية[1] قد جعل إيران الخمينى تبدو وكأنها أسوأ النظم؛ وفى المقابل بدت صورة صدام حسين وكأنها الصورة الـ «متحضرة».

أندريه فيرساى: ما هى الرهانات العربية لتلك الحرب؟

بطرس بطرس غالى: فى هذه الحرب، كان هناك تداخل بين ثلاث مواجهات: العرب ضد الفرس؛ العلمانية ضد الأصولية؛ السنة ضد الشيعة. البلاد العربية سوف تساند العراق، باسم التضامن بين العرب، ولكن أيضًا خوفًا من الأصولية الشيعية. التماسك بين الدول العربية كان قويًا جدًّا. القاهرة ساندت العراق إيجابيًا، رغم أن العراق كانت هى أول دولة تدين وتقاطع مصر، بعد زيارة السادات للقدس. بمناسبة هذه الأزمة، قمت بزيارة العراق فى مهمة، حيث قابلت وزير الخارجية طارق عزيز، فى محاولة لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين بلدينا: «*سوف نقدم لكم مساعدات عسكرية كبيرة فى هذه الحرب. لذا فمن الطبيعى أن*

(١) فى ٤ نوفمبر ١٩٧٩م تسلل عشرة طلاب من الإسلاميين الراديكاليين إلى السفارة الأمريكية فى طهران وأخذوا العاملين فيها رهائن. هذا الاحتجاز للرهائن الذى استمر ٤٤٤ يومًا قد هز بشدة صورة الرئيس كارتر إلى حد ساهم فى خسارته للانتخابات أمام ريجان.

نعيد علاقاتنا الدبلوماسية*». ولكن طارق عزيز أجابنى: «*لقد كنا أول دولة تدين مصر، لذا لن يكون من الممكن القيام بالمصالحة قبل الدول العربية الأخرى*». بعد عدة ساعات، التقيت بصدام حسين الذى قدم نفس الأسباب مثل وزير خارجيته، وأوضح إنها مسألة حساسة فى تلك اللحظة أن نعلن عودة العلاقات رسميًا بين بغداد والقاهرة. ورغم ذلك، فإن المصانع المصرية ستدور بأقصى قدراتها من أجل إعطاء العراق الإمدادات العسكرية، التى ستنتقل إلى العراق سرًا بالطبع: لا القاهرة ولا بغداد، أرادا أن يعرف الرأى العام لديهما بأمر هذه الصفقات.

مع ذلك، أدت هذه الحرب، إلى إظهار صورة دولتين إسلاميتين فى صراع دموى، والتأكيد على انقسام وضعف العالم العربى ـ الإسلامى، كما أظهرت إنها تؤجل مرة أخرى جهد هؤلاء الذين يعملون من أجل التحديث.

أندريه فيرساى: ما هى رهانات هذه الحرب بالنسبة للغرب بشكل عام والأمريكيين بشكل خاص؟

شيمون بيريز: إضعاف إيران الإسلامية التى كانت قد بدأت تصدر ثورتها. فكما ترى، بالنسبة للغرب، المهم ليس نوع النظام بقدر ما هى خطورته: الدكتاتور الذى يقمع مواطنيه لا يثير بالكاد ردود فعل غربية؛ ولكن إذا حاول النظام نشر «قيمه»، ويعمل من خلال ذلك، على هز استقرار المنطقة أو تهديد المصالح الغربية، فإن الغرب سيدافع عن نفسه وسوف يرد بشكل أو بآخر.

أندريه فيرساى: العراق سيهاجم إيران مع مباركة الغربيين، وخاصة الأمريكيين، الذين سوف يساندون جميعا بغداد. من ناحية أخرى، إسرائيل، «*الشيطان الأصغر*» بدا وكأنه كان يفضل انتصار طهران. لماذا؟ هل تصور البعض أن الخمينية لم تكن إلا أزمة عابرة؟ وأنه يجب الثقة فى التوجهات الجيوبوليتيكية الثقيلة؟

شيمون بيريز: لقد فوجئنا بضعف الجيش الإيرانى، وكنا قلقين إزاء مستقبل الخليج، لان انتصار كامل لصدام حسين، وهو ما كنا نخشاه مثل الطاعون، كان سيمثل خطرا كبيرا لإسرائيل. من بين العدوين، بدت بغداد الأكثر خطورة. كما أن العراق تتشارك فى حدودها مع الأردن، والمملكة الهاشمية لا تبدو لنا قوية بشكل يسمح لها بمنع القوات العراقية من عبور البلاد، إن حدث أن قرر صدام خوض مغامرة الهجوم ضدنا. إن هذا الخوف من غزو محتمل للأردن عبر الجيش العراقى، هو السبب الذى من أجله كنا نريد دائما الحفاظ على السيطرة على وادى نهر الأردن. إن تحالفا عراقيًا ـ أردنيًا ـ سوريًا يستطيع أن يضعنا

حقيقة فى خطر. ولذلك فمنذ سنوات نساند الأكراد فى العراق، أقلية مضطهدة ومعزولة، تتمرد ضد صدام، وذلك عن طريق إمدادهم بالسلاح، وتدريب مقاتليهم، وإرسال ضباطنا لتدريبهم على أرضهم، إلخ.

بطرس بطرس غالى: نعم ذلك يبدو لى واضحًا: بالنسبة للإسرائيليين، تمثل بغداد خطرًا أكبر من طهران. ففى النهاية، إسرائيل ليست فى حالة حرب مع إيران التى كانت لها معها علاقات طيبة حتى سقوط الشاه، ولكنها فى حالة حرب مع العراق التى تدخل جيشها إلى جانب جيوش دمشق فى أثناء حرب أكتوبر فى عام ١٩٧٣م. لذا فمن المنطقى أن تفضل إسرائيل انتصارًا إيرانيًا. مع الأخذ فى الاعتبار أن الإضعاف المحتوم لهاتين الدولتين، بعد الانتهاء من الحرب القاتلة، يبقى لصالح إسرائيل..

أندريه فيرساى: هذه الحرب لا نتحدث عنها كثيرًا فى الغرب. كيف يتم التعليق عليها فى العالم العربى؟

بطرس بطرس غالى: اختلفت الصحافة العربية فى تقييمها للحرب، ولكنى لا أتذكر أن أخبار الحرب احتلت أكثر من ثلاثة أعمدة فى الصفحة الأولى. يجب القول أيضًا إننى فى تلك الفترة كنت شخصيا مشغولاً جدًّا فى محاولة إخراج مصر من عزلتها فى العالم العربى وفى العالم الثالث بشكل عام، لذلك لم أنتبه كثيرا إلى الطريقة التى غطت بها الصحافة العربية هذه الحرب. ومع ذلك، فقد بدا لى أن التعامل معها لم يكن متناسبًا مع الخطورة التى تمثلها.

أندريه فيرساى: نعم لأن هذه الحرب ستكون دموية بشكل مفزع. إذ سنتحدث عما يقرب من مليون قتيل. إننا هنا بصدد حرب خارج كل حدود التكافؤ مع الحروب العربية - الإسرائيلية، وعنفها حتى أكثر من العنف الإسرائيلى - الفلسطينى.

بطرس بطرس غالى: ها نحن نعود مرة أخرى إلى الثنائية التى تحدثت عنها من قبل والخاصة بالأوضاع الاستعمارية والديكتاتوريات فى البلاد التى استقلت عن الاستعمار. ونفس الشىء فى الدول التى كانت مستعمرة فى الماضى، حيث لا نجد أن تجاوزات الزعيم المحلى تجاه شعبه تثير الصدمة، مثل تجاوزات مسئول مستعمر تجاه نفس هذا الشعب، ويمكن القول، ببعض المبالغات وبعض التبسط، إن الحرب الإيرانية - العراقية كانت تعتبر بشكل ما مثل «حرب أهلية» إسلامية. بينما الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى الذى يظهر يهودًا يقمعون عربًا، ينظر إليه على أنه حرب استعمارية.

أندريه فيرساى: بصراحة، هذه الرغبة فى التغطية على خطورة الأشياء التى من المفترض أنهـا تجـرى «داخل العائلـة»، ألا يعتبر ذلك نوعـا من الاغتراب؟ ومرة أخـرى، الأمر يتعلق بمـوت نحو مليون شـخص، بينمـا منذ عام ١٩٦٧م إلـى اليوم عدد القتلى الفلسـطينيين فى الأراضى المحتلة لا يتجاوز ١٢ ألف قتيل.

بطرس بطرس غالى: يجب أن نفرق بين المواجهة بين الجيوش النظامية، وحرب يعانى الشعب المدنى فيها من التجاوزات العمياء والقاسية لقوة احتلال عسكرية.

أندريـه فيرسـاى: ما علينا. شـيمون بيريز، فى عـام ١٩٧٨م، أصبح شـامير رئيس وزراء وأنت وزيرا للخارجية. بهذه الصفة، سـوف تلتقى سـرًا مع الملك حسـين من أجل محاولة التفاوض على اتفاق سلام مع عمان، وتحقيق «الخيار الأردنى» المقرب من حزب العمل.

شـيمون بيريـز: نعم، كما قلت لـك، الخيار الأردنى يتطلب تقسـيم الأراضى، ولكن مع الأردن. ونحن نرى أن إقامة كونفدرالية مع عمان على المدى المتوسط مسألة قابلة للتطبيق تمامًـا. مصلحتنـا الأولى، بالطبع، كان وضع الفلسـطينيين تحت السـلطة الأردنية: فى تلك الحالـة لـن يكونوا شـعبًا محتلاً من الإسـرائيليين، من اليهـود، ولكن من حسـين الذى كان سـيحكمهم وفى نفس الوقت يقوم بإدارة الحركات الوطنية. لقد قابلت بالفعل سـرًا الملك حسـين عـدة مرات، فى لندن وفـى العقبة أو فى أى أماكن أخرى، وعلاقاتى الشـخصية معه كانت ممتازة، بل كانت ودية.

أندريه فيرساى: هذه المقابلات هل كانت معروفة فى الأوساط العربية؟

شيمون بيريز: لنقل إلى حد ما.

بطـرس بطرس غالـى: نعم، بالطبـع! وأيضًا، كان السـادات يدافع عن الخيـار الأردنى، خـلال المفاوضـات التى أدت إلى توقيع معاهدة السـلام فى عـام ١٩٧٩م: هو أيضا تصور حل للمشكلة الفلسطينية فى إطار فيدرالية أردنية - فلسطينية. كما كان مقتنعا أكثر بمصلحة هـذا المشـروع للأردن، الذى سيسـمح له بعد ضم قطـاع غزة له، بأن يكون لـه مخرج على البحر المتوسـط. كان السـادات يقول عن صدق: «*سـوف اسـترد غزة بالإضافة إلى سـيناء، وسوف أهديها إلى حسين. فى تلك الحالة سوف ينضم إلينا فى مشروعنا للسلام*».

أندريه فيرساى: وهل كان يعتقد أن سوريا سوف توافق على هذا؟

بطرس بطرس غالى: لقد اسـتبعد السادات سـوريا فى المرحلة الأولى من أجل السماح بإقامة هذه الفيدرالية الأردنية-الفلسطينية.

شيمون بيريز: صحيح أنه ما كان للأسد أن يوافق أبدًا على هذا المشروع. فلم يكن يثق لا فى حسين ولا فى عرفات، وبالطبع لم يثق أكثر فينا نحن. لم يكن على استعداد للتحرك بأى طريقة كانت، طالما لم يسترد الجولان بالكامل: لقد رأينا كيف نظر إلى سلام كامب ديفيد.

أندريه فيرساى: ولكن ذلك لم يمنعكم من محاولة إقامة هذه الفيدرالية.

شيمون بيريز: نعم، فى أبريل عام ١٩٨٧م، التقيت بحسين. تم اللقاء فى منزل أحد أصدقائه فى ضواحى لندن. خلال الساعات الأولى من جلسات عمل طويلة، ناقشنا ما يمكن أن يكون حلاً ممكنًا. إحدى نقاط الخلاف بيننا كانت احتمال عقد مؤتمر دولى. كان إسحق شامير معاديا له بشدة لأنه كان يخشى أن يجد نفسه مضطرًا لقبول شىء ما. من جانبه، تصور حسين أنه بدون عقد مؤتمر فلن نستطيع أن نحرز أى تقدم. لذلك اقترحت عقد مؤتمر دولى بشرط واضح وهو ألا يتم فرض أى شىء فيه، وأن نحدد إطاره مسبقًا.

جاء حسين إلى الاجتماعات مع رئيس وزرائه، زيد الرفاعى. رجل ذكى جدًّا وحاذق، كان زيد بمثابة «تاليران»[1] أردنى، وكنت أكن له احترامًا كبيرًا.

استمرت الجلسة الأولى قرابة أربع ساعات. وكان حسين لديه موعد غداء مع مبعوث سوفيتى مهم لم يستطع إلغاءه. وقبل التوجه إلى موعده، قال لنا: «*اسمعوا، إننا قريبون جدا من حل. خلال غيابى، حاولا إذن، صياغة الخطوط العريضة للبروتوكول*».

وذهب إلى موعده، ومع زيد، بدأنا نكتب نصا. قد يكون زيد رجلاً جذابًا، ولكنه كان مفاوضًا عنيدًا وتصادمنا حول عدة نقاط. عندما عاد الملك، أبلغناه بما تم حول المشروع، كما أبلغناه بالخلافات بيننا. يجب القول إن حسين أيدنى حول أكثر من نقطة. وقد بيّن ذلك إلى أى حد كان يرغب فى الوصول إلى حل وسط، لأنه كان يعلم تمامًا أننى لا أستطيع العودة إلى القدس لمواجهة شامير المتصلب ويداى فارغتان.

لذلك، قمنا بوضع بروتوكول متوازن إلى حد ما، يدعو إلى صياغة نوع من الحكم الثلاثى (الأردنيون، ومعهم فلسطينيو الداخل والإسرائيليون). أرسلنا هذا البروتوكول إلى الأمريكيين، خاصة إلى بيكيرينج، (سفير الولايات المتحدة فى القدس، وقبل ذلك فى

---

(١) تاليران (١٧٥٤ـ١٨٣٨) وزير خارجية فرنسا المخضرم فى نهاية سنوات الثورة الفرنسية وفى عهد الإمبراطورية النابوليونية ثم بعد ذلك فى عهد عودة الملكية (المراجع).

عمان، وكان بيكيرينج يحظى باحترام الطرفين)، الذى ذهل تماما عندما وجد أننا توصلنا بالفعل إلى اتفاقية. ولذا، تم إبلاغ جورج شولتز وزير الخارجية، واتفقنا أن نقدم الاتفاقية ليس على إنه تم صياغتها بينى وبين حسين، ولكن على إنها خطة يقترحها الأمريكيون على الأطراف المعنية.

كان اليوم السبت، وعدت إلى القدس صباح الأحد، وأرسلت فورًا مساعدى يوسى بيلين، حاملا البروتوكول، لمقابلة جورج شولتز فى هلسنكى. (ففى الطريق إلى موسكو، توقف شولتز فى فنلندا).

أندريه فيرساى: وكيف استقبل شامير هذه الخطة؟

شيمون بيريز: ذهبت لأرى شامير وأبلغه بالنتائج السعيدة للمباحثات التى أجريتها مع ملك الأردن، وأسررت إليه بفحوى الاتفاقية والتى من المفروض أن تكون قد تمت صياغتها فى واشنطن. وسألنى إن كنت أستطيع أن أترك معه الوثيقة. وأجبت بالنفى، وقلت له إننى أعلم تماما أنه لن يكشف عنها لأحد، ولكنى كنت أخشى من احتمال تسرب معلومات. لذلك، قمت بقراءة النص عليه. وكما هى عادته، لم يجب شامير لا بالموافقة ولا بالرفض.

فى هذا الوقت، وصل بيلين إلى هلسنكى، وأعطى البروتوكول إلى جورج شولتز الذى قرأه ووافق على أن يقدمه رسميّا كاقتراح أمريكى.

ولكن تم ذلك دون أخذ شامير فى الاعتبار. وبدون إبلاغى بشىء، أرسل رئيس الوزراء وزيره بلا حقيبة، موشيه أرنز، إلى واشنطن لمقابلة شولتز وإقناعه بأن الخطة كارثة، وتوصل ارنز إلى أن يثنى عزم شولتز عن إعلان الوثيقة. لذلك وجدت نفسى فى موقف صعب للغاية إزاء حسين. ولم أستطع حتى أن أقدم استقالتى التى كانت ستصحبها ضجة كبيرة، بدون أن أبدو وكأننى قمت بخيانة الملك الذى كان بكل تأكيد غاضبًا بشدة بعد أن تعهدت له بأن تظل مسألة البروتوكول فى السر.

فى الحقيقة، شامير لم يرغب فى توقيع أية اتفاقية تحتوى أى تنازل عن السيادة الإسرائيلية على أى قطعة من الأرض المحتلة. وإلى اليوم يرفض شامير أى فكرة لإعادة الأراضى. وبعد ذلك، التقى هو أيضا مع حسين لمناقشة عدة نقاط خاصة بالعلاقات بين بلدينا، ولكنه استمر يعارض أى انسحاب إسرائيلى من الأراضى المحتلة.

لقد كان ذلك، فى رَأيى، أحد الأخطاء الكبيرة التى ارتكبناها، وأعتقد أننا أضعنا هنا فرصة فريدة: لو كان شامير وافق على هذه الاتفاقية مع حسين، لكان الأردنيون قد سيطروا

فورًا على الضفة الغربية، ولكنّا وفرنا ست سنوات من الانتفاضة ومقتل كل هذا العدد من الأشخاص. فى الحقيقة، شامير دمر أهم تقدم أمكن إحرازه منذ رحلة السادات إلى القدس. نعم، بالتأكيد كانت خسارة حقيقية.

أندريه فيرساى: ولكن، فى حقيقة الأمر، ألم تكن نهاية النظام الملكى مرتبطة بهذا «الخيار الأردنى»؟ ألا يعنى ذلك إقامة الجمهورية على المدى المتوسط، وبالتالى وضع نهاية للنظام الهاشمى؟

بطرس بطرس غالى: لا أعتقد أن الخيار الأردنى يعنى بالضرورة إقامة الجمهورية. ولكن صحيحا أن إحدى الوسائل التى تنجح فى تعبئة جماهير معظمها من الفلسطينيين، كان تعيين رئيس فلسطينى على رأس جمهورية فلسطينية - أردنية. ولكن مع ذلك يمكن بسهولة جدًّا لملك هاشمى يجلس على رأس هذه الفيدرالية، أن يتمتع بمساندة كل من الأمريكيين ودول الخليج والإسرائيليين.

شيمون بيريز: لاحظ أن حسين أجرى بهذا الشأن مباحثات عديدة مع عرفات؛ ولقد توصلا إلى ما يقرب من اتفاقية. ولكن عرفات ارتكب خطأ: بخصوص التمتع بالسلطة، قال عرفات للملك: «*ولماذا لا نفعل مثل إسرائيل، إدارة دوارة: عامين أنت وعامين أنا؟*» أن يكون المرء ملكا نصف الوقت، كان اقتراحًا إلى حد ما مبالغا فيه بالنسبة لحسين وتوقفت المفاوضات هنا.

* * *

١٥- زمـن الانتفاضـة

انتفاضـة شـعبية ضد الاحتلال الإسـرائيلى - نتائج الاحتلال - شـعب يعانى مـن التمييز - ظروف معيشة الفلسطينيين - الفلسطينيون، هم المجتمع العربى الأكثر تقدمًا فى المنطقـة! - القمع الإسـرائيلى يجرى تصحيحه إعلاميًا! - شـرعية منظمة التحرير الفلسطينية مهددة بالانتفاضـة! - نتائج الانتفاضة - «القمع الإسـرائيلى يضعف معسـكر السـلام العربى» - صورة التساحال ملطخة فى تزايد مستمر - قضية التعذيب - تصاعد الأصوليين، هل شجعه الإسرائيليون؟ - نحو اعتراف إسرائيلى بالحقوق الوطنية الفلسطينية!

أندريه فيرسـاى: *«لكنا وفرنا سـت سـنوات من الانتفاضة»* هكذا قلـت. وبالفعل، فى ٩ ديسـمبر ١٩٨٧م، يكون قد مر بالضبط عشـرون عامًا منذ أن دعى عرفات إلى فتح فلسطين، وانتفض الشـعب الفلسـطينى. لقد اندلعت الانتفاضة الأولى. لم تكن متوقعة. الشرارة التى أشـعلت البارود كانت حادثًا «عاديًا» من حوادث المرور: صباح يوم ٨ ديسـمبر، فى شـمال قطـاع غـزة، اصطدم حامل دبابات بعدد من الشـاحنات التى تنقل العمال الفلسـطينيين نحو مواقـع أعمـال بناء إسـرائيلية. ولقـد أدى الحـادث إلى مقتل أربعـة وإصابة سـتة، جميعهم عرب. وبسـرعة ترددت شـائعة: الأمر ليس حادثـًا، بل عملية انتقامية مقصـودة تم القيام بها ردًا علـى مقتـل إسـرائيلى قبل يومين. ومـن اليوم التالى مباشـرة، يوم ٩، خـرج الآلاف من الفلسـطينيين مـن مخيمـات اللاجئيـن يشـتركون فى مراسـم الدفـن، ويهتفـون: *«الجهاد، الجهاد!»* بقى الجيش الإسرائيلى هادئًا. فى اليوم التالى رشق الشبان الفلسطينيون شاحنات نقـل القوات الإسـرائيلية بالحجارة. فقام الجنود بإطلاق النار على الحشـد، مما أسـفر عن إصابـة عدد منهم وقتل شـاب يبلغ مـن العمر ١٩ عامًا. فى تلك اللحظـة اتخذت الانتفاضة أبعادًا لم تشهدها من قبل وبلغت بسرعة القرى الفلسطينية الأخرى.

كيف تم التعامل مع هذا الحدث فى إسرائيل وفى مصر؟

شيمون بيريز: فى إسـرائيل، لم نر فيه على الإطلاق حدثًا ذا دلالة. وعلى هذا الأساس، لم يشـعر رابين الذى كان فى زيارة للولايات المتحدة، بضرورة قطع زيارته ولـم يعد إلا بعد أسـبوع من بدء الانتفاضة. بالنسـبة لشامير، لم تكن استجابته مختلفة. يجب القول أن شامير رجل غير متسـرع أبدًا: يعتبر نفسـه لينينيًا بصورة ما (كان لينين يقول إنه لا يجب اتخاذ عدم الصبر كاسـتراتيجية..)؛ بـارد الأعصـاب، لا يتعجـل أبدا أى شـىء، ويسـرع دائمًـا بهدوء حكيـم. فـى بدايـة الانتفاضـة، حتـى المراقبين فـى الصحافـة الإسـرائيلية، لم يقـدروا قوة وتصميـم الحركة: فقد تحملنا من قبل عـدة انفجارات من العنف، وكانت تظل دائما قصيرة العمـر ومحصورة فى المـكان. لذلك اعتبرنـا الانتفاضة مجرد عملية تمـرد أخرى، هذا هو كل شـىء. لـم يتصور أحد العاصفة التى كانت تعد. حتى الزعماء الفلسـطينيين أنفسـهم لم يتوقعوا شيئا، حيث إن هذه الحركة التى لم تكن مخططة، خرجت تلقائيا من الشعب.

بطـرس بطـرس غالـى: لـم تكـن المـرة الأولـى التـى تتمـرد فيهـا عناصر من الشـعب الفلسطينى، ولكن هذه المرة، كان التمرد قد انتشر بشكل عام.

كل العالـم العربى سـاند الانتفاضة، بما فيهم مصر: فقد مرت فترة المعاداة للفلسطينيين: العمليات التى ارتكبت فى مصر، اغتيال يوسـف السـباعى، عرفات الذى أعرب عن سعادته لحظـة إعـلان مصـرع السـادات، كل ذلك نسـيناه. وممـا زاد مـن الحماس العـام المصرى للانتفاضة أن تبين أن نتائج السلام المصرى - الإسرائيلى مجرد أوهام.

أندريه فيرساى: بالنسبة لك، على ماذا تشهد الانتفاضة؟

بطرس بطرس غالى: تشـهد الانتفاضة على الجانب الذى لم يسـتكمل من سـلام كامب ديفيد، الذى زعم أنه الحلقة الأولى من سـلام إسـرائيلى - عربى شـامل، بينما لم يكن قادرًا على حل المشكلة الفلسطينية.

أندريـه فيرسـاى: ألا يمكن النظر إلى الانتفاضة أيضا، ليس فقـط على أنها احتجاج ضد منظمة التحرير ولكن بشـكل أوسع، ضد الحكومات العربية عامة، التى أثبتت عدم فاعليتها فـى مسـاعدة الفلسـطينيين: «*علينـا الآن أن نتحكـم فـى مصيرنا بأنفسـنا*». وبالفعـل، قاموا بـ «فلسطنة» الصراع العربى - الإسرائيلى.

شـيمون بيريز: أعتقد أنك على حق. لقد فوجئ عرفات ومكتب منظمة التحرير بتونس، وأدت تلـك الحركـة إلـى بلبلتهـم. وأعتقد أنهم شـعروا بالخـوف منها، لأنهـا خرجت عن

سيطرتهم، وبشكل ما طعنت فى سلطتهم. فى الحقيقة، رأى الفلسطينيون أن العرب لن يخوضوا حربًا بعد الآن لصالح القضية الفلسطينية ضد إسرائيل مثلما حدث فى عام ١٩٤٨م، وإن حملوا سلاحهم مرة أخرى، فسيكون فقط من أجل استرداد أرضهم التى فقدوها. لذلك كانت الانتفاضة تعبيرًا عن رغبة سكان الأراضى فى ألا يعتمدوا على الآخرين بعد الآن، وأن يحاربوا بأنفسهم، مقتنعين بأن أحدًا لن يدافع حقيقة عنهم.

بطرس بطرس غالى: نعم، ولكن ببساطة أكثر، الانتفاضة تشهد أساسًا على يأس شعب يعيش تحت الاحتلال، يتعرض يوميًا للإذلال والقهر، ولم يعد يستطيع أن يتحمل الوضع أكثر من هذا. ولقد أصبحت نتائج الاحتلال غير محتملة على الإطلاق: التجاوزات العسكرية تتكرر فى تزايد مستمر، الطريقة التى تدار بها الأراضى المحتلة التى تتسم بصورة عميقة من اللامساواة، وأيضًا الارتفاع الجنونى للبطالة (وصلت إلى ٤٠٪)، وسوء الخدمات الصحية بصورة عامة، كل ذلك جعل وضع الفلسطينيين غير محتمل، كما يشهد عليه أيضًا المراقبون الأجانب. هؤلاء العصاة هم فى حقيقة الأمر مستثارون أكثر مما هم ثوار.

أندريه فيرساى: يجب التنويه إلى أنه خلال السنوات التى سبقت الانتفاضة مباشرة، شهدت الأراضى المحتلة كسادا اقتصاديا عميقا. بعض خبراء السياسة الإسرائيليين، مثل زييف شيف وإيهود يعارى، انتقدوا بقسوة السياسة الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة، ووصفوها بأنها سياسة جشعة وأنانية، وشبهوا تلك الأراضى بسوق للرقيق لصالح الاقتصاد الإسرائيلى. وطبقًا لما ذكروه منعت هذه السياسة تنمية الزراعة الفلسطينية بهدف منعها من منافسة زراعة المستوطنين، والتى - من جهة أخرى - تتلقى دعمًا. وكما يستخدم المستوطنون ١٢ ضعفًا مما يستخدمه الفلسطينيون من المياه، وهو ما تسبب فى مشاكل كبيرة فى ريّ الأراضى الفلسطينية.

بطرس بطرس غالى: هذا واضح! وبصراحة، لا داعى للجوء إلى هؤلاء الخبراء السياسيين الكبار (والذين لا يسعنى إلا أن أشيد بشجاعتهم الفكرية) يكفى أن نقرأ شهادات المراقبين التى تنشر بانتظام: فهى كلها تسير فى نفس الاتجاه.

شيمون بيريز: للرد بشكل ملموس على هذه المسألة الخاصة باستخدام المياه، فإننى أقر عن طيب خاطر أن الإسرائيليين يستخدمون المياه أكثر من الفلسطينيين، ولكن ذلك ليس مقصودا على الإطلاق: فإننا لا نقسم المياه كما نقسم أرضا. المياه تتدفق من الجبال وتوجد فى طبقات الأرض الجوفية. إننا لسنا مالكين لهذه المياه الجوفية، ولكنها مشاع

بيننا. ولكن لأن مستوى معيشتنا أعلى كثيرًا من مستوى معيشة الفلسطينيين، فإننا نستخدم بطبيعة الحال، كميات أكثر من المياه. ذلك فضلاً عن أن نظام توزيع المياه عندنا أكثر كفاءة من نظامهم. إن الأمر ليس عدم تكافؤ فى التوزيع، ولكن عدم تكافؤ بين مستويات المعيشة. كلما كانت حياتك حضرية، أهدرت مياها أكثر. ويضاف إلى ذلك العامل الصناعى: كلما تطورت الصناعة، استهلكنا أيضًا.

هذا التمييز الحقيقى، يعكس عدم التكافؤ، ولكنه لا يخلقه. هناك قيود على المزارعين اليهود فى استخدام المياه، مثلما هناك قيود على المزارعين العرب. ومع ذلك، يعتبر العرب هذه القيود إجراءات تمييزية ضدهم. فمثل أى دولة فى العالم، هناك إجراءات إدارية عديدة لا تُرضى المواطنين. وعندما يكون المواطن من نفس طائفة الحكومة، فإنه يشكو من الحكومة، هذا هو كل الموضوع. أما إن لم يكونوا من نفس الطائفة، ففى هذه الحالة سيشعرون بالتمييز ضدهم.

كما يجب أن نذكر أمرًا بديهيًا، وهو أن الإسرائيليين يجدون سهولة أكبر فى حل مشاكلهم داخل نظام الإدارة الإسرائيلية، عن فلسطينيى الأراضى. إنها نفس الظاهرة التى تتكرر كلما جاءت إلى إسرائيل موجة جديدة من المهاجرين اليهود القادمين من إفريقيا. هؤلاء الإسرائيليون الجدد يشعرون هم أيضا بالتمييز ضدهم (لقد تحدثنا فى هذا الموضوع). فى الحقيقة، التمييز هو نتيجة تعقيد الوضع، أكثر منه نتيجة رغبة سياسية.

بطرس بطرس غالى: هذا الشرح يتعارض مع عشرات التقارير التى قرأتها والتى تدين حالة تمييز بشع فى تقسيم المياه بين المستوطنين الإسرائيليين والمزارعين الفلسطينيين. وهو ما يفسر أن مساحة الأراضى العربية المزروعة فى الضفة الغربية انخفضت ٣٠٪ فى الفترة من عام ١٩٦٧م إلى عام ١٩٨٧م.

شيمون بيريز: أعتقد حقيقة أنك ترسم صورة كاريكاتورية للوضع. أنا لا أنكر على الإطلاق أن هناك تمييزا، ولكن إن أردنا أن يكون لنا صورة كاملة للوضع، يجب أيضا أن نذكر الأعمال الإيجابية التى يقوم بها بكل وضوح الجيش الإسرائيلى. قد يدهشك هذا، ولكن جيشنا الذى يتداخل كثيرًا فى القرى الفلسطينية، كان دائمًا يدافع بفاعلية عن الفلسطينيين: وبما أنه هناك لكى يضمن الهدوء والسكينة، ولأن الجيش يعلم تمامًا إلى أى حد يثير التمييز التمرد، أى يقوده إلى خطر عدم الاستقرار فى المنطقة، فهو (أى الجيش) يقوم بالسهر على إمداد الفلسطينيين بالمياه بصورة منصفة.

ويبقى من المؤكد أن هذا التمييز، واقع. لم ننتبه إلى حقيقة أننا انطلقنا ابتداء من مستويين مختلفين للمعيشة. كان يجب علينا أن نمارس التمييز الإيجابي -وهو- ما قمنا به، ولكن بشكل متأخر جدًّا. لقد كنا نتحرك ببطء شديد، ومع الوقت، توسعت الفجوة بين المجتمعين. منذ هذا الوقت، ورغم الجهود التى نبذلها، التى كانت كبيرة، كانت الفجوة تقل ولكن ببطء شديد. وأكرر هنا: التمييز لم يكن مخططا له، ولكن صحيح أنه تصاعد.

بطرس بطرس غالى: سواء كان مخططا أم لا، بالنسبة للفلسطينيين، النتيجة واحدة بكل المقاييس. فالواقع هو هو: العرب ضحايا لضروب من التمييز المستمر والمستفز، ومشكلة المياه ليست إلا واحدة من بين العديد من المشكلات الأخرى: الرقابة على بطاقات الهوية، الإهانات، التفتيش الذاتى، العنف الجسدى، العقوبات الجماعية، حظر التجول الممتد لعدة أيام، تدمير المنازل، كل ذلك هو الواقع اليومى للفلسطينيين فى الأراضى المحتلة.

شيمون بيريز: يجب وضع القضايا فى تسلسل: إن قمنا بالخلط بين كل الأمور لن نفهم شيئا منها. فرض الرقابة على بطاقات الهوية والتفتيش وحظر التجول، تلك إجراءات تقع كلما وقعت عملية. ولا أنكر أن هذا الوضع من الصعب تحمله، ولكنى أريد، رغم ذلك، أن أذكر أن النظام الديمقراطى الإسرائيلى يسمح للفلسطينيين بالدفاع عن أنفسهم. فالعديد من العرب الذين قدموا شكاوى إلى المحكمة العليا، كسبوا الدعوى ضد الحكومة الإسرائيلية. أنت تتحدث عن تدمير منازل الإرهابيين أو المتواطئين مع الانتحاريين: ولقد حدث أكثر من مرة، أنه برغم قرار الحكومة بتدمير منزل، تتدخل المحكمة العليا لمنعه. هذه الأحكام ليست نادرة تماما، إلى حد أن بعض الإسرائيليين يعتبرون المحكمة العليا متحيزة جدا، وتأخذ فى الكثير من الأحيان جانب العرب ضد الجيش. وكذلك، يرى المتدينون المتطرفون بشكل خاص، أن المحكمة العليا ليست فى تناغم مع ما يرون أنه القانون اليهودى، ولقد حاولوا أن يعلنوا عدم شرعيتها...

بطرس بطرس غالى: ما قيمة الحق فى الدفاع، إن كان الضرر قد وقع بالفعل؟

شيمون بيريز: بطرس، أنت تعرف أن الديمقراطية لا تمنع الضرر، ولكنها تعمل فقط على معالجته.

بطرس بطرس غالى: أنت تقف عند مستوى المبادئ. ولكن المشكلة فى حقيقتها هى أن الفلسطينيين يعانون من التمييز. انطلاقًا من هذه النقطة، ليس مستغربا أن ترتكب

التجاوزات بكثرة ضدهم. ولكنك بالطبع سوف تسرد لى هذه القضية أو ذاك الفلسطينى الذى استطاع فى النهاية كسب الدعوى. ليكن، ولكن كم من الضحايا، الذين سلبت ونهبت أملاكهم دوريًا، لديهم الإمكانيات لرفع دعوى قضائية؟ اقرأ التقارير التى تنشرها منظمتكم أنتم لحقوق الإنسان، وسوف تستنير كثيرًا. إن نظام القمع نظام بغيض والجنود غير المنضبطين يتصرفون كأى جيش احتلال!

وأليس غريبًا أيضًا ألا يعتبر العرب الإسرائيليون، حتى الآن، متساوين مع اليهود؟!

شيمون بيريز: إنك تتناول هنا مسألة أخرى. إن وضع العرب الإسرائيليين يتحسن من عام إلى عام، ومع ذلك أقر أننا كنا بطيئين جدًّا فى المساواة بين أوضاع العرب واليهود الإسرائيليين. فى المجال الدبلوماسى، على سبيل المثال، أخذنا وقتًا طويلاً قبل تعيين سفير عربى.

بطرس بطرس غالى: فى أى بلد مارس مهام عمله؟

شيمون بيريز: فى فنلندا. وهذا التعيين أثار استنكارًا كبيرًا لدى أصدقائنا فى الدول الاسكندنافية.

بطرس بطرس غالى: هل هو مسلم أم مسيحى أم من الدروز؟

شيمون بيريز: إنه مسلم. وكذلك بالنسبة للقضاء العالى، فقد أخذنا أيضًا وقتًا طويلاً قبل تعيين أحد غير يهودى. هذا التطور نحو انفتاح الخدمة العامة إلى غير اليهود بدأ فى عهد جولدا مائير، عندما كانت رئيسة للوزراء. عندما شكلت حكومتها فى عام ١٩٦٩م، كانت تريد تعيين درزى فى منصب وزارى. وكنت أنا الوحيد الذى وافق، وأصبح نائب وزير الاتصالات معى.

بطرس بطرس غالى: ليكن، ثم ماذا؟ إنهم «عرب (أو دروز) البلاط» كما كان فى الماضى ما يطلق عليهم «يهود البلاط». هل تعرف يا شيمون أن أحد مستشارى عرفات كان يهوديًا. مرة أخرى، أن يكون هناك بعض العرب فى التسلسل الوظيفى الإسرائيلى، ماذا يثبت ذلك؟ ألا يعتبرون رموزًا مرئية، من شأنها التغطية على الواقع الأليم؟ إن أردت أن ترى الأمر من وجهة نظرنا، هؤلاء العرب «الذين حصلوا على مناصب عالية» ليسوا إلا «عرب إثبات براءة». العرب الإسرائيليون يعتبرون أنفسهم ضحايا للتمييز، حتى إنهم يعيشون كمواطنين درجة ثالثة. وهذه الضروب من عدم المساواة هى أشد قسوة من الوضع الذى كان يعانى منه الأفارقة السود فى جنوب إفريقيا فى أثناء فترة الأبرتهايد.

شيمون بيريز: بصراحة، بطرس، إن كنا سنقارن الوضع مع الأبرتهايد، فيجب علىّ أن أشير إلى وضع اليهود فى العالم العربى.

بطرس بطرس غالى: أولاً، باستثناء المغرب، لم يعد هناك يهود فى العالم العربى. فقد هاجروا جميعًا.

شيمون بيريز: لقد اضطروا جميعًا للهجرة.

بطرس بطرس غالى: ليكن، ولكن ذلك لا يغير فى شىء الوضع المزرى لعرب إسرائيل والفلسطينيين الموجودين فى الأراضى المحتلة.

أندريه فيرساى: حتى نستطيع أن نرسم صورة إجمالية مفهومة للمسألة، فأقترح عليكما أن نعاود شرح وضع الفلسطينيين منذ بداية الاحتلال، فى خطوط عريضة.

شيمون بيريز: موافق. بعد انتصار يونية عام ١٩٦٧م، نحن، اليسار، قدرنا أننا لا نملك لا الحق المعنوى ولا الضرورة السياسية لأن نبقى فى الضفة الغربية وقطاع غزة. بالإضافة إلى أننا رأينا أن علينا تحسين وضع الفلسطينيين ورفع مستوى معيشتهم، وهو ما تحقق بالفعل فى عدد من القطاعات: حيث تمكن ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ ألف فلسطينى من التوجه للعمل فى إسرائيل، والحصول من هذا العمل على أهم جزء من دخله. وحتى بداية الثمانينيات، أعتقد أن هذا الاحتلال كان «محتملاً»، وأن وضع الفلسطينيين لم يكن بهذا السوء.

فى هذه الفترة، كان موشيه دايان مسئولاً عن إدارة الأراضى، وكان حريصًا على ألا يدفع العرب الأبرياء الثمن بدلاً من الإرهابيين. بالإضافة إلى ذلك، نجح فى إقامة علاقات طيبة مع العديد من المسئولين الفلسطينيين المهمين مثل عمدة مدينة أريحا، وعائلة المصرى فى نابلس أو الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان. فى نفس الوقت، ورغم أن ذلك قد يبدو لك غريبا، فإن العديد من الضباط الإسرائيليين المسئولين عن الشعب الفلسطينى، كانوا يشعرون أنهم مكلفون بمهمة إنسانية وليس فقط عسكرية، وكانوا مهتمين بتخفيف الوضع عن الفلسطينيين المحتلين. ولكن فى نفس الوقت، كانوا مدركين تمامًا أنهم لا يستطيعون غض الطرف فى مواجهة منظمة التحرير.

أندريه فيرساى: هذا الوضع كان بلا شك، صحيحًا، غداة حرب الأيام الستة. طالما أن الفلسطينيين ظلوا هادئين، كان الإسرائيليون يزعمون أنهم يقيمون احتلالاً «ذا وجه

إنسانى». ولكن عندما بدأ الفلسطينيون يحتجون على الاحتلال الإسرائيلى، تحول إلى احتلال «تقليدى»، مع ما يواكبه من فرض الإذلال والمعاناة.

شيمون بيريز: هذا ليس صحيحًا تمامًا حيث إن المساعدات استمرت. لقد أقمنا مشاريع مشتركة؛ وساعدنا عشرة آلاف صياد فى غزة حيث أقمنا لهم ثلاجات بتمويل من الجيش؛ وساعدناهم على رفع فاعلية سفنهم عن طريق السماح لهم بالحصول على محركات. وبشكل عام، ساعدنا المواطنين على تحديث القرى عن طريق إقامة شبكة مجارى، ومنحهم بلا مقابل المواد اللازمة لبناء منازل؛ لقد أقمنا علاقات جيدة مع عمد عدد من المدن، إلخ. وأخيرًا، حاولنا نقل عدة آلاف من سكان غزة إلى الضفة الغربية، من أجل التخفيف من كثافة السكان فى هذا القطاع من الأراضى، الذى كان يعانى من التضخم السكانى فى هذه الفترة؛ وإن كان ذلك لم ينجح، فلأن فلسطينيى الضفة الغربية اعتبروا أن الغزاويين محبطون وأقل منهم تعليما، إلخ، ورفضوا قيامنا ببناء مدينة لهم فى شمال الضفة.

بطرس بطرس غالى: فى الحقيقة يا شيمون، التميز الذى يعانى منه الفلسطينيون يكمن فى منطق التمييز الذى عانى منه العرب الإسرائيليون خلال السنوات التى أعقبت إنشاء دولة إسرائيل. وهذا التمييز ينبع من حقيقة أن الإسرائيليين يعتبرون وجودهم شرعيًا تمامًا انطلاقًا من «*حقهم فى العودة إلى أرض أجدادهم*». انطلاقًا من هذه النقطة، فإن الفلسطينيين الذين، من وجهة نظركم، «*عرب مثل سائر العرب» ما عليهم إلا أن يذهبوا ليقيموا* فى أى دولة عربية أخرى.

شيمون بيريز: صحيح أنه خلال الخمسينيات والستينيات، كان العرب الإسرائيليون يقعون تحت وطأة السلطة العسكرية. وكان السبب الرئيسى لهذا التمييز ينبع، بطبيعة الحال، من الحرب بيننا وبين العرب. لقد كان العرب الإسرائيليون فى وضع صعب: أن يكونوا مواطنين فى دولة فى حالة حرب مع الجماعة التى ينتمون إليها. وطالما بقينا فى صراع مع الدول العربية، لم يكن من الممكن توقع أن يشعر العرب الإسرائيليون بأنهم إسرائيليون بالكامل. ثم فى نهاية الستينيات، تم حل الحكم العسكرى، ولكن العرب ظلوا هدفًا للعديد من الإجراءات التمييزية فى حياتهم اليومية. حارب الكثيرون منّا نحن فى الحركة العمالية، من أجل المساواة فى الحقوق بين العرب واليهود. كنا نريد خفض عدم المساواة والظلم: كانت القضية الأساسية بالنسبة للعرب، هى مصادرة الأراضى، التى تعتبر

فـى كل العالـم العربى، مقدسـة. صدر قانون يمنع نـزع الملكية، باسـتثناء حالات الضرورة (بسـبب بنـاء محطـة لتوليد الكهربـاء أو بناء طريق، على سـبيل المثال، كمـا يحدث فى كل البـلاد). فى عام ١٩٨٤م، من أجل التدريبات العسـكرية، كنا قد اسـتولينا على منطقة كبيرة مـن الأراضى فـى الجليل كانت ملـكا لمزارعين عرب. وكما تعهدنا بعـدم مصادرة أراضى الفلسطينيين، قررنا إعادتها إلى ملاكها.

فى نفس الوقت، كان العرب الإسـرائيليون يشـكون من أنهم يعانون من التمييز فى إطار المسـاعدات المحليـة، وهو ما كان صحيحـا: ولقد حاولنا إقامة نظـام متكافئ. كانت هناك أيضا مشـكلة قلـة المدارس: لم نقم ببناء مبانٍ مدرسـية كافية للعرب الإسـرائيليين، لأننا لم نحسـب حسـاب نموهم الديموغرافى؛ ولقد شعروا أن ذلك تمييز ضدهم، ونحن رأينا أنهم على حق.

كما كانت هناك مسألة المساعدات العائلية والتى يتمتع بها هؤلاء الذين يقومون بالخدمة العسـكرية؛ وبما أن العرب الإسرائيليين أعفوا من الخدمة العسكرية، فهـم لا يحصلون على مساعدات، وذلك أيضًا يدخل ضمن عدم المساواة التى قمنا بتصحيحها فى التسعينيات.

فـى الوقـت الحالى، يجب أيضـا أن نذكر الحريـات الديمقراطية التى يتمتـع بها العرب الإسرائيليون، والتى لا يتمتع بها المواطنون العرب فى كثير من البلاد الأخرى فى المنطقة، وهـى الحريات المدنية والسياسـية التـى يكفلها لهم القانـون. وهكذا، بالإضافـة إلى حرية الصحافة، الكاملة، يملك العرب الإسـرائيليون إمكانيـة إقامة أحزابهم، وبالتالى يمكنهـم أن يكون لهـم أعضاء فى الكنيست يدافعون عن حقوق الأقلية العربية.

بعـد حـرب الأيـام السـتة، كنـا نأمـل أن يلعـب العـرب الإسـرائيليون دور الوسـيط مع فلسـطينيى الأراضـى المحتلـة. ولكن ذلك بدا لهـم صعبًا، لأن منظمـة التحرير، التى يجب عـدم التقليـل من ضغطها، كانت سـتصمهم بشـبهة أنهـم «متعاونون» أو كان الإسـرائيليون اليهـود سـينظرون إليهم على أنهـم «خونة» للبـلاد، إن أبدوا تقاربًـا كبيرًا مع الفلسـطينيين. لذلك كان وضعهم حساسًا للغاية.

عودة إلى فلسـطينيى الأراضـى، لم تكن تأثيرات الاحتلال كلها سـلبية على أوضاعهم، ولكـن كانـت هناك أيضًا إيجابيات، لأن الاتصال مع الإسـرائيليين سـمح لهم بالدخول إلى الحداثة، وذلك أدى إلى تحول كبير فى المجتمع الفلسـطينى. وسـوف نلاحظ فى غزة وفى الضفة، أن ما بين ٩٥ إلى ٩٩٪ من الأطفال يذهبون إلى المدارس.

بطرس بطرس غالى: هذا صحيح، ولكن ذلك ليس بفضل الإسرائيليين ولكن بفضل المنظمات العديدة التابعة للأمم المتحدة، مثل وكالة غوث اللاجئين.

شيمون بيريز: نعم وكالة الغوث، ومنظمات أخرى غير حكومية. ولكن ما أردت أن أشير إليه، هو أن الفلسطينيين مقتنعون بأنهم لن يستطيعوا منافسة الإسرائيليين إن لم يقوموا بتحديث مجتمعهم، وإن لم يعيدوا التفكير فى نظام التعليم الذى يعد الأجيال الشابة. وفى هذا المجال أيضا، قمنا بمساعدتهم فى بناء مراكز تكنولوجية فى مختلف القرى، حيث يقوم الأطفال والكبار بالتدريب على التكنولوجيا الحديثة. ولا تزعم أن ذلك مجرد إجراءات رمزية، بما أنه فى ظل الاحتلال، ستنشأ الجامعات الفلسطينية.

بطرس بطرس غالى: ليكن. والفلسطينيون سوف ينظرون إلى المجتمع الإسرائيلى كنموذج يحتذون به من أجل النضال بشكل أفضل ضد استعبادهم. هذه الظاهرة ليست فريدة من نوعها إطلاقا، فهى موجودة فى كل الأوضاع الاستعمارية، سواء كانت فرنسية أو إنجليزية أو برتغالية أو أسبانية.

شيمون بيريز: نعم، وهى ليست أقل المفارقات. فبشكل عام، يمثل الفلسطينيون، رغم وجودهم تحت الاحتلال، أكثر المجتمعات العربية تقدما فى المنطقة. الزراعة الفلسطينية، التى يمكن القول إنها تسير على نفس نظام زراعتنا، هى أكثر الزراعات كفاءة فى العالم. واليوم، المزارعون الفلسطينيون أصبحوا هم أيضا بنفس كفاءة المزارعين الإسرائيليين، وبالتالى أفضل كثيرا من أشقائهم المقيمين على الجانب الآخر من الحدود. يعاتبنا الفلسطينيون لأننا نصادر أراضيهم، ولكن بالسماح لهم بالانتقال إلى الحداثة، أرضهم باتت تنتج ثمانية أضعاف ما كانت تنتجه من قبل.

بطرس بطرس غالى: أعتقد أنه لا مجال للشك فى أن الاتصال مع المجتمع الإسرائيلى، والذى يتمتع بديناميكية خاصة، كان وسيظل من عوامل التحديث. ولكن بأى ثمن! إنك تقلل تماما من وطأة الاحتلال التى لا تحتمل: مهما كانت مزايا العيش فى الاتصال مع مجتمع متطور مثل المجتمع الإسرائيلى، فإن واقع النظام العسكرى يظل لا يمكن التسامح فيه. ومن جهة أخرى، عندما نرى الارتفاع الرهيب فى نسبة البطالة بين الفلسطينيين، يمكن طرح تساؤلات حول هذه «المزايا»!

شيمون بيريز: لا نستطيع أن نحمل الاحتلال كل المشاكل. أعتقد حقيقة أن أحد أسباب البطالة العربية يعود إلى العقلية القروية للفلسطينيين. فهم ليسوا فقط يحتفظون بأسلوب

حياة تقليدية للغاية، ولكن أيضا لديهم الشعور أن طريقتنا الحضرية هى انتهاك لقيمهم. ثم إن هناك التبعية الشديدة للدين. وأجد دليلا على ذلك الفرق بين المسلمين والمسيحيين. فالعائلات المسيحية الفلسطينية يقل عدد أفرادها عن العائلات المسلمة، وتعيش فى مستوى حياة أعلى كثيرا؛ كما أن بعض المبادرات الصناعية التى تمت كانت فى معظم الأحيان من عمل المسيحيين. والمسيحيون لأنهم أكثر انفتاحا من المسلمين، يعيشون بطريقة أكثر حداثة. ولهذا، تجاوزت كل من مدينة بيت لحم ورام الله، اقتصاديًا واجتماعيًا، المدن الأخرى التى لها نفس الحجم، وذلك بفضل ديناميكية الطوائف المسيحية التى تمثل الأغلبية فيهم.

من وجهة نظر النمو العمرانى ، مازال أمام الفلسطينيين الكثير من التأخر عليهم تجاوزه، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى تمسكهم بقريتهم، التى لا يفكر معظمهم فى إمكانية مغادرتها للذهاب إلى المدينة. وفى حين أن العمران والتصنيع مقترنان. انظر إلى نابلس: «نابلس الكبيرة»، مع قراها التى تحيط بها، يصل عدد سكانها إلى ٢٠٠ ألف نسمة، بينما المدينة نفسها لا تضم أكثر من ١٠٠ ألف، وإن كانت الزراعة فيها تحولت إلى النظم الحديثة، تظل الصناعات وشركات الخدمات قليلة. وكما أن القطاع الزراعى لا يكفى للعمل، يضطر كثير من السكان (أكثر من ١٥ ألف فلسطينى) إلى مغادرة الأراضى المحتلة كل عام، للمجىء إلى إسرائيل للعمل.

بطرس بطرس غالى: تعرف، رغم هذه «العقلية القروية»، حتى الغزو العراقى للكويت، كان أكثر من ١٥٠٠٠ فلسطينى فى العام يتركون الأراضى المحتلة ليذهبوا للعمل فى دول الخليج ويرسلوا إلى عائلاتهم مئات الملايين من الدولارات.

ثم بماذا تفسر، أنه برغم رغبتكم فى انتهاج سياسة إحلال للسلام والمساواة، وصلتم إلى أن تفرض على الفلسطينيين ظروف حياة مهينة بهذا الشكل؟ المنازل مدمرة، أشجار الزيتون تم اقتلاعها، عمليات التفتيش الدائمة التى تمتد إلى ما لا نهاية عند كل نقطة تفتيش، إلى حد أن حتى سيارات الإسعاف التى تقل المرضى، تظل تنتظر المرور لساعات طويلة، القائمة طويلة جدًّا... كيف تفسر الأسباب التى أوصلتكم إلى ذلك؟

شيمون بيريز: بسبب التجاوزات التى يرتكبها الإرهابيون. لأنه خلال هذا الوقت، كانت منظمة التحرير والجماعات الفلسطينية الأخرى تتزايد قوتها وتتكاثر عملياتها. بيد أنه، رغم أننا كنا نريد حقا رفع مستوى معيشة الفلسطينيين، إلا أنه لم يكن من المتصور ألا نسخّر كل شىء من أجل محاربة هؤلاء الإرهابيين. وبالتالى للرد على هذه العمليات التى كانت

تتزايد دمويتها، وينظمها أنصار عرفات وحبش وجبريل، إلخ.. شدد الاحتلال قبضته تدريجيا.

بطرس بطرس غالى: ألا تعتقد أنه الاحتلال العسكرى ومصادرة الأراضى والتوسع فى المستوطنات السكانية والعجرفة وعدوانية المستوطنين والسلطات الإسرائيلية هى التى غذت الإرهاب، بقيامها بالقضاء على كل أمل فى العثور على حل لهذا البؤس؟!

أنا لا أجزم بشىء ولكن أطرح عليك السؤال:

هل تستطيع أن تفهم أن العنف والقمع الإسرائيليين اللذين نشاهدهما كل يوم على شاشات التليفزيون، قد أدى إلى زيادة تشدد الرأى العام العربى؟

شيمون بيريز: نعم، بشرط أن نأخذ أيضا فى الاعتبار الطريقة التى يتم بها عرض هذا القمع إعلاميا.

أندريه فيرساى: ألا تعتقد أن إسرائيل تعانى من شكل من أشكال المبالغة الإعلامية؟ قال محمود درويش يوما ما: «*فى شقائنا، نحن محظوظون، لأن هؤلاء الذين يمارسون علينا القمع يهود، وإلا لما تحدث عنا أحد*».

بطرس بطرس غالى: يقول الصحفيون الأمريكيون: «اليهود يصنعون الأخبار»، هذا شىء معروف.

شيمون بيريز: لنتحدث عن جدلية العمليات/ القمع. لنأخذ الهجوم على ناد ليلى فى تل أبيب، الدولفيناريوم، فى يونية ٢٠٠١، الذى أدى إلى مقتل ٢٢ شخصا من الشباب: أنت فى الحكومة، هل كنت تتصور أنه كان بإمكاننا تجاهله؟ يمكننا تأجيل عملية الانتقام، ربما ليومين، لثلاثة أيام، ولكن لم يكن من الممكن استبعاد رد عسكرى، وهذا الرد سيتم بلا شك تغطيته إعلاميًا.

الأمريكيون والبريطانيون فهموا أن السلاح الأخطر أثناء اندلاع حرب، هو آلات التصوير التليفزيونية. وهو السبب الذى من أجله منعت مارجريت تاتشر التليفزيون من تغطية حرب المالوين. ومرت هذه الحرب وكأنها «حرب مجردة». فى بلادنا، نحن نسمح للتليفزيون أن يصور الجنود وهم يفجرون منزلاً فلسطينيًا.

بطرس بطرس غالى: ولكن الإعلام لا يخترع القمع! الاحتلال الإسرائيلى والمنازل الفلسطينية التى يقوم جنودكم بتفجيرها، والاغتيالات المستهدفة.. كل ذلك واقع حقيقى.

شبكات التليفزيون فى العالم كله، تقوم بعرضها. ثم، على عكس ما أردت أن تقول، الإعلام يعرض صورا أكثر كثيرًا للهجمات الفلسطينية من صور القمع الإسرائيلى.

شيمون بيريز: ما يراه المشاهد، هو جيش يقوم بتفجير منزل مدنيين. ولكنه لا يرى الأحداث التى دفعت بهذا الجيش إلى التصرف بهذا الشكل. أحيانا نشرح له الأمر، ولكن ذلك لن يكون له أبدا نفس تأثير صدمة الصور.

هل تتذكر الطريقة التى تم بها نقل أحداث جنين عام ٢٠٠٣: هذه الأحداث نشرت على الصفحات الأولى من الصحف لمدة أيام، وتحدث الجميع عن «مذابح»، بينما كان العدد النهائى لا يزيد عن ٥٣ قتيلا من الجانب الفلسطينى، و٢٨ من الجانب الإسرائيلى، وهو ما يثبت أن الأمر كان مواجهة مسلحة، وليس مذبحة. ولكن لأن المعركة امتدت مدة طويلة، كانت صور الجنود الإسرائيليين هى التى يراها المشاهد على مدى عدة أيام، على جميع قنوات التليفزيون.

وبحكم الأشياء، حتى أكثر التليفزيونات صدقًا، لا يستطيع أن يقيم التوازن بين الصور: الهجمات لا تحدث أبدا أمام آلات التصوير، بينما الرد العسكرى، هو الذى يتم تصويره طويلا. تلك هى مشكلة حرية الصحافة فى أثناء الصراع. إننى أتحدث هنا عن التليفزيون «الأكثر صدقا». وأعتقد أن أحدًا لن ينكر أن جزءًا كبيرًا من الصحافيين الأوروبيين، سواء عن حق أو عن باطل، سواء عن حسن نية أو عن سوء نية، أظهروا موالاة كبيرة للفلسطينيين، وفى الكثير من الأحيان معاداة كبيرة للإسرائيليين. لذلك، يميلون إلى اختيار أحداث بعينها بدلا من أخرى. إنه شعور إنسانى، فيشعر المرء فى أحيان كثيرة بالقرب من الضعيف، لا لسبب إلا لأنه ضعيف، بدلا من القوى، مهما كانت مسئوليات كل منهما. إنه شعور إنسانى، ولكنه، بالتأكيد، ظالم: فليس لأن المرء هو الأضعف يصبح هو بالضرورة الذى على حق.

هذه التغطية الإعلامية الكبيرة، كانت بالنسبة لعدد كبير من الإسرائيليين، منحازة، وسيكون لها تأثير مشوه، ذو نتائج عكسية، حيث إنها ستساهم فى تحويل جزء متزايد من الإسرائيليين إلى التطرف، حتى من بين الأكثر تقدمية.

نحن الإسرائيليون، بكل تأكيد، ملتزمون بأن نفعل كل ما هو ممكن إنسانيا من أجل الحفاظ على أرواح المدنيين الأبرياء. إننا من حيث المبدأ، لا نهاجم منزلاً أو سيارة إن كان فيها أبرياء. إننا نوجه التحذيرات، ثم نترك الوقت الكافى ليخرج الأشخاص من المنزل.

ولكـن يحدث بالطبع أن تقع أحداث مؤسـفة: فنتصـور أن بيتًا خالٍ، بينمـا لا يكون كذلك، وتقوم وسـائل الإعلام بتغطية هذا الحدث وتعرضه جميع الشـبكات التليفزيونية فى العالم. ابتداء بشبكاتنا...

أندريه فيرسـاى: ألا تعتقـد أن هناك تفاوتًا فى هـذا الصراع، بين الخطـورة الموضوعية للأحداث وبين تغطيتها الإعلامية؟ لنقل الأشـياء بشـكل آخر، بالنسـبة لعدد الضحايا، وإن قارنـا، على سـبيل المثال بحروب إفريقيا السـوداء (الكونجـو ورواندا) التـى راح ضحيتها مئـات الآلاف مـن القتلـى، يمكن وصف الصراع الإسـرائيلى - الفلسـطينى بأنه «صراع ذو كثافة منخفضة».

ومـع ذلك، نتحدث عما يحدث هنا، أكثر مما يحدث فى أى مكان آخر. ليس فقط أكثر، ولكـن أيضًـا بصورة محسوسـة: كل العالم يعرف أن الحرب فى الشيشـان كانت أكثر دموية مـن قمـع الانتفاضة، ولكن لأنه عمليًا لا توجد صور، سـتظل هذه الحـرب مجردة ولن تثير إلا القليل من ردود الفعل الدالة.

بطـرس بطـرس غالـى: ابتداء من أى نقطة يمكـن لنا أن نقدر أن هناك مراعاة للنسـبة بين كثافـة الصـراع والتغطية الإعلاميـة التى يحظى بها. هل بدافع الشـعور بالفضيحة من أننا فى أحيـان كثيـرة، مرّرنا فى صمت الحـروب الدموية التى تتفجر فـى إفريقيا، وما هو أخطر منها أى، الإبـادة الجماعيـة فـى رواندا؟ على أية حـال، يبقى أن نعرف أين تقـف آلات التصوير. وأى صور يتم اختيارها لتعرض علينا؟

أندريه فيرسـاى: لنعود إلى الانتفاضة، التى تتطور بسـرعة كبيرة. لقد تحطم النظام الذى سـمح باحتـلال استـمر ٢٠ عامًـا وأراد أن يكـون «ذا وجـه إنسـانى». لـم تعـد تتظاهر تلك المجموعات المعزولة، بل أصبحت تتمرد شرائح كاملة من الشعب. وتدريجيا بدأت تظهر فى أنحاء كثيرة الكوفية الفلسطينية، رمز المقاومة الفلسطينية منذ الثلاثينيات.

وفـى نفس الوقت، سـتضع الانتفاضة الفلسـطينية أيضا إدارة منظمـة التحرير فى تونس، أمام اختبار صعب: إذ سـيصبح عليها أن تتوصل إلى اكتساب احترام المقاتلين فى الأراضى المحتلة، وفى نفس الوقت، ألا تترك مكانها فى قلب الشعب تحتله المنظمات المتطرفة.

شـيمون بيريز: لقد انتزعت الانتفاضة شـرعية منظمة التحرير، حينما أظهرت أنها لـم تعد تمثـل إطلاقًـا فلسـطينيى الداخل. ولكن يجـب القـول إن الانتفاضة حينمـا أرادت أن تظل

حركة تلقائية وغير منظمة، وبالتالى بلا برنامج سياسى أو إدارة مركزية، منعت أى إمكانية للتفاوض.

بطرس بطرس غالى: أنا لم أقلل أبدا من قيمة المصاعب التى نلاقيها فى التفاوض مع حركة تحرير، لأننى اضطررت فى وقت ما أن أتفاوض مع «جبهة التحرير الوطنى فارابوندو مارتى FMLN» فى السلفادور، ومع «رينامو» فى موزمبيق، أو مع سافيمبى فى أنجولا. كما يجب أن توجد الإرادة السياسية لأن تعترف، حتى من باب الإقرار بالحقائق، بهذه الحركة الـ «تلقائية وغير المنظمة». ولكنكم لم يكن لديكم هذه الإرادة السياسية.

شيمون بيريز: المشكلة ليست فى كون هذه الحركة ثورية، ولكن فى كونها بلا رأس. لقد كانت حركة تمرد تتحرك فى جميع الاتجاهات، ولم يكن هناك أى شخص يمثل المتمردين. الحركات التى ذكرتها كانت لها بنية وقيادة، ولكن الانتفاضة لم تكن لها لا هذه ولا تلك.

أندريه فيرساى: ومع ذلك، سيقوم عرفات وإدارته فى تونس، رغم أنهم لم يفجروا الانتفاضة، باستغلال الموقف بدون تأخير.

بطرس بطرس غالى: نعم، عرفات ركب قطار الانتفاضة الذى يسير، واستطاع المناورة: لقد قام بسرعة بتوزيع ملايين الدولارات فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة حتى يبنى لنفسه قاعدة قوية فى قلب الحركة. ومع ذلك، يجب ألا نقلل من شأن الخلافات والتناقضات بين الأجنحة المتنافسة فى قلب الانتفاضة.

أندريه فيرساى: بدت الانتفاضة وكأنها ستبقى لمدة طويلة: بعد شهرين أو ثلاثة منذ تفجرها، كيف كان الإسرائيليون ينظرون إليها؟

شيمون بيريز: كان أول تأثير للانتفاضة هو شلّ معسكر السلام: عندما كان الجيش يشرح للسكان أن الإجراءات التى يتخذها ضرورية للأمن، ماذا تستطيع أن تجيب؟ بسرعة صارت دورة التجاوز فالقمع.. دورة جهنمية، ألجمت معسكر السلام.

أندريه فيرساى: ولكن مع ذلك، لم تكن غالبية أفعال الانتفاضة عنيفة، كانت فى الكثير من الأحيان «مقاومة سلبية». ولقد دعا أحد قادة الانتفاضة، وهو سارى نسيبة، بنفسه إلى عدم اللجوء إلى الأسلحة النارية. الأمر بعيد جدا عن عنف الانتحاريين الذى ساد فى الانتفاضة الثانية.

شيمون بيريز: بالضبط، ولكن حتى لو كانت الانتفاضة الأولى أقل عنفا من الثانية، لا نستطيع أن نزعم أنها كانت مجرد «مقاومة سلبية»: قد لا تكون الحجارة من الأسلحة النارية، ولكن هؤلاء الذين استهدفتهم، أصيبوا بإصابات خطيرة. والمقاتلون لم يكونوا يستهدفون الجنود فقط، فقد كانت الحافلات المدنية تتعرض أيضًا لقذف الحجارة. بدون أن نتحدث أيضا عن التجاوزات المتكررة. لا، كان هناك عنف.

ومع ذلك، كنا مدركين أن ردنا القمعي كان غير متناسب. كنا نعيش حالة من التناقض، وكان الإسرائيليون منقسمين. كان الجميع متفقا على أنه لابد من التوصل إلى حل للمسألة الفلسطينية، ولكن في نفس الوقت، الكثيرون، حتى من بين هؤلاء الذين كانوا ينتمون إلى معسكر السلام، رأوا أنه في الوقت الحالي، وفي مواجهة تزايد التجاوزات، كان يجب علينا أن نتماسك.

بطرس بطرس غالي: أنت تتحدث طوال الوقت عن معسكر السلام الإسرائيلي الذي تضرر بسبب الانتفاضة. ولكن هناك أيضا معسكر السلام العربي الذي سيضعفه الوضع اليومي للفلسطينيين وقسوة القمع الإسرائيلي. السلام بين مصر وإسرائيل كان قد بدأ بالفعل يكون «باردا»، سوف تتزايد برودته كلما زاد قمع الانتفاضة: سنرى أيضا نقابات الأطباء والمحامين والصحفيين والمهندسين تعارض أي اتصال مع إسرائيل، والأصوليون يشكون في تواطؤ الجميع مع إسرائيل، وخيانة القضية الفلسطينية: وطلب البعض استدعاء السفير المصري في إسرائيل، بل وطالبوا بقطع العلاقات الدبلوماسية. بعد حرب لبنان، وضعت الانتفاضة مرة أخرى مصر في وضع خطير مع العالم العربي، وأيضًا مع شعبها الذي أبدى تضامنا كاملا مع «ثورة الحجارة» هذه. ما لم يستطع الإسرائيليون فهمه، هو أن العنف الذي يتعرض له الفلسطينيون يقوي الأصوليين والمتطرفين، ويضعف معسكر السلام العربي الذي سيواجه انتقادات تتزايد حدة من جانب كل هؤلاء الذين رفضوا، علنيا أو بتحفظ، تطبيع العلاقات مع إسرائيل. كانت صور القمع، التي تنقلها وتضخمها شاشات التليفزيون والصحافة والأدب، تثير المصريين الذين سوف ينتقدون بشكل متزايد ضعف وسلبية الحكومة، وفي النهاية سينددون بعملية السلام إلى حد الدعوة للمواجهة مع هذه «الدولة المجرمة». ويأتي الشك في حسن نوايا الإسرائيليين، ليضاف إلى الإيمان بالأصوليين الذين لم يتوانوا في رفضهم لوجود الدولة اليهودية... كما يأتي استمرار عملية الاستيطان في الأراضي الفلسطينية المحتلة بلا توقف ليدعم كل ذلك.

أندريه فيرساي: بالنسبة للرأى العام العالمى، لم تكن المستوطنات فقط غير قانونية، ولكن كانت أيضا تشكل الكثير من العوائق أمام تسوية سلمية للصراع. بيد أن تلك المستوطنات، لم تكن من عمل اليمين وحده، فلقد بدأ حزب العمل منذ انتصار عام ١٩٦٧م فى بناء المستوطنات. من بين هذه المستوطنات، نتساريم فى غزة، والتى تقع بالقرب من مخيم النصيرات الفلسطينى، والتى أقيمت فى فترة حكومة جولدا مائير. ألا تشعر، شيمون بيريز، أن حزب العمل يتحمل مسئولية خطيرة فى إقامة هذه المستوطنات؟

شيمون بيريز: مسئولية، نعم، ولكن يجب ألا نبالغ. عندما تركنا السلطة فى عام ١٩٧٧م، لم يكن هناك إلا ٣٥٠٠ مستوطن فى الضفة الغربية. اليوم هناك أكثر من ٢٠٠ ألف. نحن أعضاء العمل، كنا دائما ضد إقامة مستوطنات فى المناطق ذات الكثافة السكانية العربية العالية، أو فى السامرة، شمالى الضفة الغربية. فى المقابل، لأننا كنا مهمومين بالدفاع عن القدس والحفاظ عليها موحدة، بدا لنا من المهم أن نبنى مستوطنات حول المدينة العربية القديمة. كان وضع القدس يبدو لنا مقلقا بسبب تدفق الفلسطينيين إليها قادمين من أريحا، جاءوا ليستقروا فيها، وبنوا منازل لهم، حتى بطريقة غير قانونية. أما بالنسبة للمستوطنات فى الضفة الغربية، فلم يتم بناؤها بدون جدل. وأعطيك مثلا. فى بداية السبعينيات، نشأ خلاف فى قلب حزب العمل بخصوص أريحا. كان فى أريحا فى الماضى، مستوطنة يهودية، استقرت هناك منذ قرون وفى عام ١٩٢٩م جرى ذبح سكانها. هل تصفية جماعة يهودية مقيمة من قديم الزمان، يسقط عن اليهود حقهم فى أملاكهم؟ عارض موشيه دايان بناء أية مستوطنة فى أريحا. واقترح إيجال ألون بدلا من بناء مستوطنات فى أريحا نفسها، بناءها حول المدينة. وهكذا نشأت قرية كيريات آربا.

لذلك يجب بحث هذه المسائل تبعا لاختلاف الأزمنة ورؤية الأمور التى تتطور، والحكومات وأولوياتها وأهدافها. فى إطار «الخيار الأردنى» كنت أعتقد بصدق، أنه طالما أن العرب يعيشون تحت سلطة يهودية، فإنه من الممكن تصور أن يعيش اليهود هم أيضا تحت سلطة عربية فى الضفة الغربية. فى المقابل، كنت أعارض إقامة مستوطنات فى غزة مثل بن جوريون الذى أراد منذ عام ١٩٥٦م أن ينسحب من هذا القطاع.

ولذا، فإننى أقر أن تزايد المستوطنات كان خطأ وضعنا فى موقف معقد بشكل خاص.

بطرس بطرس غالى: أعتقد من جانبى، أن حزب العمل عليه مسئولية جمة فى سياسة الاستيطان: فابتداء من اللحظة التى سمحوا فيها ببناء المستوطنات فى بداية الاحتلال، بدأت حركة بناء المستوطنات تتزايد. ومع مجىء اليمين إلى السلطة بعد عشر سنوات،

بـدأوا يتوسـعون فـى عمليـة كانـت موجـودة بالفعل. ومهمـا تكن الأسـباب التـى تقدمها، شـيمون، فـإن الوقائع موجودة: نحن العـرب نرى أن حركة الاسـتيطان للأراضى بدأت فى ظـل حكم حزب العمـل، ومن هذا الوقت بدأت تتضخم مثل كـرة الثلج. وعندما عدتم إلى السلطة فى عام ١٩٩٢م، قمتم بمواصلة سياسة المستوطنات التى ينتهجها الليكود.

شـيمون بيريـز: عندمـا عدنا إلى السـلطة فـى عـام ١٩٩٢م، كانت الحكومة السـابقة قد أعطـت تصاريـح بناء المسـتوطنات لعـدد وصل إلى ٢٤ ألف مسـتوطن. لقـد حاولنا وقف العملية عن طريق إلغاء تصاريح بناء المساكن التى لم تكن قد وضعت أساساتها بعد. وبهذا قمنـا بإلغـاء ١٢ ألـف تصريح للبناء. ولكن بالنسـبة للآخريـن، فقد كنا مضطريـن لقبولهم، وإلا انتهكنا القانون.

بطرس بطرس غالى: فى الحقيقة، أنت لا تتخيل ما فى هذا الوضع من مأسـاوية ويأس: فبينما أنتم تقومون ببناء مبانٍ سـكنية جديدة (ومستغلين الأيدى العاملة الفلسطينية..)، كنتم فى نفس الوقت تقومون بتدمير مساكن الفلسطينيين.

أندريه فيرسـاى: سـيكون للانتفاضة أيضا عواقب على الجيش. فحتى حرب لبنان، كان التسـاحال مقدسـا بالنسـبة للإسـرائيليين. مع حـرب لبنان، ولاسـيما بعد صابرا وشـاتيلا، تعرضت صورته كجيش شـعبى ومثالى، لضربة شـديدة. مع الانتفاضة، لم يعد أحد يتحدث كثيرا عن جيش «أخلاقى».

شـيمون بيريـز: ذلك يعود إلـى خصوصية الوضـع: عندما يواجه جيش جيشـا آخر، فإن الأمـور تكـون واضحة. مثل الانتصـار والهزيمـة. وعندما يقـوم جيش بالقمـع، ليس هناك انتصار، إنها حرب اسـتنزاف مسـتمرة، والشعب لا يستطيع أن يشعر بالحماس كما شعر بعد انتصار حرب الأيام الستة. ولكن مع ذلك، لا أعتقد أن الاحترام للجيش تراجع.

أندريه فيرسـاى: يبدو أن الانتفاضة، مع ذلك، أصابت جديا صورة الجيش الإسـرائيلى. الجيـش الذى هزم دائمـا الجيوش العربية، التى كانت أكثر منه فـى العدد، والذى كان يحلو له أن يقارن نفسـه بداود الذى يحارب ضد جولياث، يظهر الآن غير قادر على السـيطرة على مراهقين فلسـطينيين مسـلحين بالحجارة. إن المقارنة مع داود وجولياث انعكسـت فى هذه الحالـة. بـدأ الجنود يـردون بعنف، وبدأت سـمعة الجيش يخبـو بريقها، إلـى حد أن بعض الضباط والجنود سـيرفضون الخدمة فى الأراضى المحتلة. أما عن الرأى العام الغربى، بما فيه الأمريكى أيضًا، فقد صدمته قسـوة القمع، بينما العديد من الإسـرائيليين شعروا هم أيضًا بالصدمة بسبب تصرفات جنودهم.

شيمون بيريز: لقد كان وضع الجيش، فى حقيقة الأمر، صعبًا للغاية فى مواجهة قاذفى الحجارة. فقد وجد جنودنا أنفسهم أمام شباب متمرد، بينما لم يتدربوا على عمليات القمع البوليسى. وتضخم القلق عندما كان الجنود يشاهدون صور الأخبار تظهر عمليات القمع التى تُمارس ضد مراهقين يقذفون الدبابات بالحجارة. (أود أن أذكر بالمناسبة أن الجيش لم يكن هو الذى يقوم بالعمل الأساسى، كان ذلك يقوم به الشين بيت[1] التى كانت تلاحق الإرهابيين والقياديين).

بطرس بطرس غالى: لا تطلب من العالم العربى أن يفرق ما بين الشين بيت والجيش. إن كل ما نراه، هو الاحتلال وما يواكبه من معاناة وتدمير. بل علمنا أن أوامر صدرت للعسكريين الإسرائيليين بتكسير عظام المتمردين الشباب...

شيمون بيريز: كان واضحًا أن ذلك معنى مجازى. أما بالنسبة لرفض بعض العسكريين الخدمة فى الأراضى المحتلة، فبصراحة، كانت أقلية - وظلت كذلك. ولكن، حيث إن للجيش مكانة فى الرأى العام الإسرائيلى، فإن هذا الرفض أثار ضجة.

نحن فى حزب العمل، كان لنا توجه بألا نتشدد مع الجنود. الليكود نعم. وبالنسبة لى شخصيا، فإننى أرى أن هؤلاء الجنود كانوا يعانون فعلا من مشكلة ضمير، كان علينا احترامها. وبشكل عام، أدركت الطبقة السياسية أنها تواجه مشكلة كبيرة. لقد أحزننا كثيرًا أن نرى جنودنا مضطرين لأن يطاردوا هؤلاء الفلسطينيين الذين يقذفون الحجارة. لقد كان الأمر غير محتمل، لأننا لم نرد أبدا أن نكون أمة مهيمنة. نحن، حيث المثال الصهيونى كان يهدف إلى بناء بلد تكون الأخلاق فيه هى القاعدة، نشعر بعدم ارتياح شديد عندما نجد أننا تحولنا فجأة إلى أمة تقمع شعبا آخر.

أندريه فيرساى: الإرهاب يتطور فى الأراضى المحتلة ولكن أيضا فى إسرائيل نفسها. ولقد أصبح أكثر دموية. الأعمال الأكثر إزهاقًا للأرواح كانت بشكل خاص من الحركات الأصولية مثل حماس والجهاد. وهكذا أطلقت حماس العمليات العسكرية ابتداء من مارس عام ١٩٨٨م والجهاد بدأت الهجمات الانتحارية ابتداء من صيف عام ١٩٨٨م. كما كانت عمليات القمع أكثر قسوة وعدد كبير من المحاربين الفلسطينيين سوف يلقى القبض عليهم (نتحدث عن حوالى ٥٠ ألفا اعتقلوا خلال الانتفاضة الأولى). فى نفس الوقت،

---

(١) الشين بيت، قوات الأمن الداخلى الإسرائيلية (المراجع).

ستتهم إسرائيل بأنها تمارس التعذيب (وسيوجه إليها هذا الاتهام محامون إسرائيليون ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان).

شيمون بيريز: لقد فتح ذلك جدلاً فى إسرائيل. كنا نعرف أن هناك عملية يتم الإعداد لها. ألقى القبض على إرهابى. إن تكلم، يمكننا إحباط العملية. ماذا يمكن أن نفعل؟ فى هذه الحالة وافقت المحكمة العليا أنه، فى تلك الحالة، كان من حقنا أن نلجأ إلى «ضغوط خفيفة»: وذلك يعنى أنه لم يكن من حقنا أن نفرض على المعتقلين إساءة جسدية، ولكن كان مسموحًا لنا، على سبيل المثال، أن نعصب عينيه لمدة طويلة. إن ما يجب أن نعرفه هو أن كل شكل من أشكال التعذيب قد منع بأمر من مناحم بيجين. إنه هو الذى جعل التعذيب غير قانونى، وقام بإجراء تعديل على القانون. وساندنا نحن حزب العمل القانون، ولكن يجب أن أقر أن المبادرة جاءت منه.

أعلم أنه كان هناك عدد من الشكاوى من استخدام التعذيب، ولكن فى معظم الوقت، كانت التحقيقات تؤكد فيما بعد غياب أى دليل واضح على التعذيب بل تؤكد على وجود اختلاقات من الخيال. إننى لا أنكر أنه قد تم بالفعل ممارسة بعض تجاوزات يجب إدانتها بلا شك، وما أود أن أقوله هو أن التعذيب الذى كان يمارس فى العراق فى ظل صدام حسين، وفى سوريا أو فى روسيا، ليس له أى أثر فى إسرائيل. ويكفى للاقتناع بذلك الرجوع إلى التقارير السنوية التى تنشرها منظمة حقوق الإنسان.

بطرس بطرس غالى: هذه حجة غريبة! يبدو أنكم شرعتم «التعذيب الخفيف» فى إسرائيل مبررين ذلك بأنه أقل خطورة من ذلك الذى يمارس فى العراق أو سوريا. إن ذلك تضليل!

شيمون بيريز: إننى لا أضفى شرعية على التعذيب. إننى أشرح التعذيب فى إسرائيل الذى هو مختلف تماما عن ذلك الذى يمارس فى أماكن أخرى. هذه الكلمة «التعذيب»، يمكن أن تدل على وقائع عديدة ومختلفة. إن كنا نريد أن نلقى أحكامًا، فيبدو لى أنه من المهم تفسير الأشياء، وإعطاء العنف حجمه وإقامة مقارنات مع ما يحدث فى بلاد أخرى. بدون ذلك، سنبقى فى حالة اضطراب.

أندريه فيرساى: ومع ذلك، لم تحقق هذه السياسة القمعية، فيما يبدو، نتائج رادعة. بل يبدو أن القمع أدى إلى تقوية تصميم المتمردين. وتحولت السجون الإسرائيلية بسرعة إلى أماكن يتم فيها التجنيد الأيديولوجى. وبعد الإفراج عنهم يصبح النشطاء أكثر تصميما على

النضال عما كانوا قبل سجنهم. البعض أكد أنهم قاموا داخل هذه السجون، بنسج العلاقات التى سمحت بتكوين أو تقوية شبكات النشطاء.

شيمون بيريز: ما يمكن قوله هو أن الانتفاضة كانت الدليل على أن إبقاء الوضع على ما هو عليه بوصفه ضمانًا لأمن إسرائيل، كان بالقطع وهمًا. وبالفعل، لقد كلفنا الاحتفاظ بالأراضى من حياة البشر أكثر كثيرا من غزوها، وبدا أن عملية إرساء السلام مستحيلة. وانتهى بنا الأمر أن أصبحنا مصممين على شقائنا. وبدلاً من العمل من أجل رفعة البلاد، قمنا بتعبئة جميع قوانا من أجل حصارها ومحاربة التهديد الداخلى بدون نتيجة. بالطبع، لن تكون هناك أية محاولة لعقد معاهدة مع الإرهاب، ولكن وضع سياسة عسكرية تكون عادة غير مناسبة، أدى إلى إثارة وزيادة الكراهية ضد الإسرائيليين.

أندريه فيرساى: أقترح عليكم أن نعود إلى العدوى الأصولية. بين عامى ١٩٦٧م و١٩٨٧م، تضاعف عدد أبناء المجتمع الإسلامى فى قطاع غزة، بينما زاد عدد المساجد من ٧٧ مسجدًا إلى ١٦٠. فى الثمانينيات، تم بناء ٤٠ مسجدًا جديدًا كل عام فى الضفة الغربية. ومع تفجر الانتفاضة، بدأ ظهور قوى فلسطينية جديدة. لم تكن تلك القوى متدينة فقط، ولكنها كانت متطرفة، إنها حالة حماس والجهاد الإسلامى.

بالإضافة إلى ذلك، بدأت حماس نشاطًا كبيرًا على المستوى الاجتماعى، فقامت بإنشاء مدارس ابتدائية وثانوية؛ وبناء مكتبات وعيادات طبية وحضانات؛ كما قامت بتنظيم أندية رياضية بل وفتحت بنكا للدم. باختصار، بدأت حماس تتنافس جديًا مع منظمة التحرير- على أرض الواقع، وأيضًا فى قلوب السكان.

مع ذلك، فقد أظهر كل من حماس والجهاد، مواقفهما المعادية بشدة تجاه إسرائيل أكثر من منظمة التحرير. رفضت حماس، فى حقيقة الأمر، أى فكرة للسلام مع إسرائيل التى تحاربها حربا مقدسة كاملة. هدفها الرسمى والمعلن هو تدمير إسرائيل التى تشبهها بـ«الشر». وتستشهد بكتاب *بروتوكولات حكماء صهيون* كتفسير للأهداف التوسعية لليهود الذين كما تزعم، يريدون السيطرة على المنطقة من النيل إلى الفرات ثم تغزو العالم أجمع. وتنسب حماس حتى الآن لليهود تفجر الثورة الفرنسية، والثورة البولشفية والحرب العالمية الأولى (والتى افترض أن اليهود أرادوا من خلالها تدمير الخلافة العثمانية)، والحرب العالمية الثانية، والأمم المتحدة ومجلس الأمن من أجل السيطرة على العالم. مع ذلك، فكما تقوم الشين بيت بتجنيد مخبريها من بين تجار المخدرات أو العاهرات، ربطت حماس السلطات الإسرائيلية بانتشار المخدرات وانهيار الأخلاقيات بين العرب.

ورغـم كل ذلـك، يبـدو أن الإسـرائيليين فضلوا تطـور هذه الحـركات الدينيـة من أجل منافسـة منظمة التحرير والتوصل إلى إضعافها. هـؤلاء الذين اتهموا الحكومة الإسـرائيلية بتفضيل حماس والجهاد الإسـلامى يشـرحون أنها كانت تسـتهدف تحويل الصراع ليصبح متطرفـا حتـى تثبت للرأى العام العالمى أنه، فى حقيقة الأمر، لا يوجد شـريك على الجانب الفلسـطينى. ويبدو أن القمع الإسـرائيلى سيصبح أكثر قسوة إزاء النشطاء فى منظمة التحرير عنه إزاء نشطاء حماس.

شـيمون بيريز: لا، الأشـياء لا تطرح كذلك. لا أعتقد على الإطلاق أنه كان هناك سياسة «تشـجيع» الجماعـات الدينية من أجل إضعـاف منظمة التحرير. فى البدايـة، كانت حماس تقدم نفسـها على أسـاس أنها منظمة دينية لم تبد لنا خطيرة بوجه خاص. وبلا شـك، خلال وقـت طويـل، كنـا نعتبرهم أكثـر تدينا وأكثـر اجتماعية عـن منظمـة التحرير - وهـو ما كان بالفعل، وما زالوا كذلك رغم كل شـىء. ومع ذلك، إن كانت حماس والجهاد الإسلامى قد كسبتا أرضًا بالمقارنة مع منظمة التحرير، فذلك ليس بسـبب أى نوع مـن أنواع الماكيافيلية الإسـرائيلية، ولكن بسـبب تجاوزاتهم الإرهابية، التى أعطتهم شهرة فى التشدد فى رفضهم لإسـرائيل، كما أنهم كانوا يعملون فى المجال الاجتماعى مع الفلسـطينيين الأكثر فقرًا، كما قلت.

بطـرس بطـرس غالى: بالنسـبة لى شـخصيا، فليـس لدى معلومـات كافيـة تؤهلنى لأن أعـرف إلـى أى مـدى قامت إسـرائيل بتشـجيع، أو لا، منظمتـى حماس والجهـاد من أجل إضعاف منظمة التحرير، حتى ولو كان ذلك يبدو لى منطقيًا جدًا.

ولكنى أريد أن أشـير إلى نقطـة لا يلاحظها الكثيرون، خاصة بالفلسـطينيين المتطرفين: فإن كانت الدولة الإسـرائيلية نشـأت على أسـس دينية .. وإن قد نجح ذلك، فقد شـجع هذا الأصوليين. إن ظهـور حمـاس لـم يكـن منفصلاً عن وجود جنـاح دينى قوى فى إسـرائيل. وبطريقة مفارقة إلى حد ما، كان اليهود الأصوليون الإسـرائيليون هم «النموذج» للأصوليين الفلسـطينيين. وإن نجاح اليهود فى إنشـاء دولة لهم على أسـاس الدين، شـجع الفلسطينيين لأن يسـيروا فـى نفس الطريق: «إذا كانـوا قد نجحوا فى بناء دولتهم على أسـس دينية، لماذا لا ننجح نحن أيضا؟». وفى لحظة اسـتقرار الجنـاح الأصولى، أتى نجاح الموجة الأصولية الإيرانيـة ليقـوى تصميم الأصولية الفلسـطينية، وسـتبلغ الـذروة مع ظهور حمـاس فى عام ١٩٨٧م.

شيمون بيريز: إننى أوافقك الرأى إلى حد ما. ومع ذلك فمن أجل فهم نجاح هؤلاء الأصوليين، يجب أيضًا الأخذ فى الاعتبار تجانسهم. إن النشطاء فى حماس وفى الجهاد يشكلون مجموعة أكثر تماسكا عن منظمة التحرير، التى تتشكل من عدة مذاهب: ففيها شيوعيون سابقون، علمانيون، نشطاء تدربوا فى الاتحاد السوفيتى، إلخ.. ولقد قص علىّ عرفات أنه فى أثناء ذهابه للحج فى مكة، أدرك أن بعض معاونيه لا يعرفون حتى الصلاة: كانوا ينظرون للآخرين ويقلدونهم.

أندريه فيرساى: قوى وجودهم تدريجيا فى الأراضى المحتلة، وبدأت لجان الصدمة الفلسطينية تفرض قانونها: سوف يفرضون الإضرابات وإغلاق المتاجر كعلامة على الاحتجاج. وسوف يغلقون دور السينما، ويخربون المتاجر التى تعرض على واجهاتها تماثيل عارضات يرتدين ملابس خفيفة، ويحرقون المقاهى التى تبيع الخمور. وأخيرًا سوف يقنعون التجار بألا يدفعوا الضرائب، وإجبار مسئول الضرائب إلى الاستقالة. وهكذا رغم القمع الإسرائيلى، سنرى كيف يطيع التجار الأوامر القادمة من الأصوليين إلى درجة أن فى يولية عام ١٩٨٨م أعلن رابين فى الكنيست أن الفواتير المالية القادمة من الأراضى هبطت ٤٠٪ منذ بداية الانتفاضة.

كيف كان رد فعل الرأى العام عند اكتشاف هؤلاء السادة الجدد على الشارع؟

شيمون بيريز: الصورة ليست بهذه القتامة كما تصفها. ولكن حقيقى إن حماس لم تدخر جهدا من أجل أن تحاول، بكل الطرق، إقناع كل الفلسطينيين المؤيدين للسلام الرجوع عن هذا الطريق. لقد قتلوا المئات والمئات، معظمهم على أساس اتهامات غير صحيحة «بالتعاون».

أندريه فيرساى: فى عام ١٩٦٧م، أدرك الإسرائيليون أن هناك بالفعل شعبا فلسطينيا؛ من عام ١٩٦٧م إلى ١٩٨٧م، يتحدث الجميع عن «المسألة الفلسطينية»؛ مع الانتفاضة، أصبح من الواضح أن هذه «المسألة الفلسطينية» هى مسألة قومية: لن يمكن بعد الآن التظاهر بأنها مجرد مشكلة لاجئين. هل بدأ الرأى العام الإسرائيلى يقول إن السلام يمر عبر الحكم الذاتى، ثم عبر إقامة دولة فلسطينية؟

شيمون بيريز: فى عام ١٩٨٧م، لم يكن الليكود يريد سماع أى شىء عن الحكم الذاتى، ولا بالأحرى عن الدولة. نحن، حزب العمل (الذين سنغادر الحكومة فى عام ١٩٨٨م) سنؤيد «الحكم الذاتى». ومن خلال التحدث فقط عن «الحكم الذاتى» كنا نأمل أن نكسب

أصواتا كافية من أجل الحصول على الأغلبية، وهو ما كان مستحيلا إن تحدثنا عن «الدولة».

مهما كان الأمر، فى نهاية الثمانينيات، أصبح من الواضح بشكل متزايد، أننا نسير نحو إنشاء الدولة الفلسطينية، حتى ولو كنا مستمرين رسميّا فى رفضها. ولأننا كنا لازلنا غير قادرين على إدخال كلمة «تقرير المصير»، فستتكلم عن «الحل الدائم». رئيس الحزب اليسارى المابام، فيكتور شيمتوف، وزير الصحة، وآرون ياريف، رئيس المخابرات، اللذان كانا أول من تحدثا بصراحة عن «تقرير المصير»، وهو ما تضمن بناء الدولة الفلسطينية. نحن فى حزب العمل، سوف نقضى سنوات أخرى قبل أن نذعن إلى هذا الأمر.

أندريه فيرساى: من بين نتائج الانتفاضة، سنلاحظ تحول المجتمع الفلسطينى. فقد أدى توحيد فلسطينيي الأراضى إلى تقوية الشعور بالجماعة، بل أيضا بالهوية: طبقة جديدة من النشطاء جاءت مكان طبقة «الأعيان» التى شكلت كوادر السلطات؛ وأخيرًا، المرأة رأت إلى حد ما وضعها يتغير وأصبح العديد منهن شخصيات سياسية بارزة: إننى أفكر بشكل خاص فى حنان عشراوى، التى أصبحت شخصية سياسية معترفا بها، وكذلك فى كل هؤلاء اللاتى لعبن دورا نشيطا فى المظاهرات التى وقعت فى الأراضى المحتلة.

فى نفس الوقت، يوم ٣١ يولية عام ١٩٨٨ م، فى فترة تصاعدت فيها الانتفاضة بشدة، أعلن الملك حسين أن الأردن تقطع روابطها «القانونية والإدارية» مع الضفة الغربية «وفقا لرغبة منظمة التحرير». لماذا هذه البادرة؟ ولماذا فى تلك اللحظة؟

بطرس بطرس غالى: أعتقد أن هذه القطيعة يجب ربطها بالتخريب الذى قام به شامير للمفاوضات التى قام بها شيمون بيريز فى لندن عام ١٩٨٧ م. بعد رفض شامير للخيار الأردنى، أقنعت الأبعاد التى اتخذتها الانتفاضة الملك حسين أن هذا الخيار ليس مطروحًا. وبدا أن العالم العربى، بكامله، تلقى هذا القرار بشكل إيجابى.

* * *

١٦- منعطفـات جيوبوليتيكيـــة

مجيء جورباتشوف فى الاتحاد السوفيتى - فتح تتطور - «لا البحر ولا العرب تغيرا» - رقم البيت الأبيض ٢٠٢٤٥٦١٤١٤ - صدام حسـين يغـزو الكويت - حرب الخليج الأولى - صدام حسـين، ناصر نهاية القرن العشـرين؟ - حرب الخليج من وجهة النظر الإسرائيلية - لا تقترب من التوازن الإقليمى - بوش يريد اطلاق مفاوضات السلام - مؤتمر إسرائيلى - عربى فى مدريد: إجراء لم يفض إلى شىء؟ - رابين، رئيس وزراء، وكلينتون رئيس - نحو فترة جديدة من التجمد!

أندريه فيرسـاى: فى أثناء هذا الوقت، فى عام ١٩٨٥م، جاء جورباتشـوف إلى السـلطة فى الاتحاد السـوفيتى، وسـندرك بسرعة وبكل وضوح، أن لديه وسيلة أخرى فى تصور العلاقات الدولية.

بعد أربع سـنوات، سـقط حائط برلين وفهمنا أن الكتلة الشـرقية لم تعد ما كانت عليه فى الماضى: أما بالنسـبة للشـرق الأوسـط، فقد كان واضحًا أنه إذا استمرت الأمور على ما هى عليه، فإن العرب سـيفقدون قريبًا سـندهم الأول. منذ ذلك الحين، لم يعد الخيار العسكرى خيارًا محتملاً ولسنوات طويلة قادمة.

شـيمون بيريز: ربمـا يجـب تحديـد شـىء: فى هـذا الوقت، لم يعـد فى مقـدور الاتحاد السوفيتى تقديم مساندته العسكرية الفعالة إلى العرب بدون مقابل مادى، وذلك أولاً بسبب المشاكل الاقتصادية.

بطرس بطرس غالى: تعلم، أنه منذ أن توصلت مصر إلى السلام مع إسرائيل، فإن الخيار العسـكرى لـم يعد خيـارًا محتملاً. لذلك فـإن نهاية الحرب البـاردة كان لها نتائـج أقل مما تصورناهـا بالنسبة للـدول العربيـة، أو بالنسـبة للفلسـطينيين. بالعكـس، فـإن إضعـاف

الإمبراطورية السوفيتية كان لابد أن يطمئن هؤلاء الذين يعتبرون المفاوضات هى الحل الوحيد للصراع. ومع ذلك، كان لنهاية الحرب الباردة نتيجة أخرى، ولكنها غير متوقعة: أن يحل الإرهاب الدولى محل المواجهة العسكرية.

أندريه فيرساى: ولكن هل يجب أن نفهم، غداة سقوط حائط برلين، أنه لن يعود هناك إلا قوة عظمى واحدة، هى الولايات المتحدة، وأن هذه القوة تساند الإسرائيليين بتصميم؟

شيمون بيريز: لا، ليس فى هذا التوقيت. لقد أدركنا تمامًا أن شيئًا ما غاية فى الأهمية، يحدث، ولكننا لم نستخلص منه بالضرورة، النتائج المتعلقة بصراعنا فى مواجهة العرب.

بطرس بطرس غالى: وكذلك فى العالم العربى، باستثناء الرئيس السادات، الذى فهم مبكرًا جدًّا أن حل المشكلة كان، رغم كل شىء، فى أيدى الأمريكيين. ولم نعِ هذه «القطبية الأحادية» إلا مع حرب الخليج الأولى فى عام ١٩٩١، ثم مع انهيار الإمبراطورية السوفيتية. وذلك سيتأكد بشكل مذهل عندما نرى دول وسط أوروبا، على رأسها بولندا، مركز حلف وارسو، تريد الانضمام إلى حلف الأطلنطى. وكما أخذنا وقتًا طويلاً قبل أن نعى ضعف الاتحاد السوفيتى، فسوف نأخذ وقتًا أيضًا قبل أن نفهم نهاية القطبية الثنائية.

أندريه فيرساى: التأثير الآخر لسياسة جورباتشوف الخارجية، هو سماح الاتحاد السوفيتى لليهود السوفييت الراغبين، فى الهجرة إلى إسرائيل.

شيمون بيريز: إن صانع هذا التقارب هو شيفرنادزه، الرئيس القادم لجورجيا، والذى كان فى هذا الوقت وزير خارجية جورباتشوف. منذ أن كان شيفرنادزة على رأس المكتب السياسى الجيورجى، أظهر صداقة كبيرة نحو اليهود، وكان أول من طرح مسألة هجرة اليهود السوفييت. بالإضافة إلى أن موسكو كانت تواجه ضغوطًا من العديد من الحكام الغربيين يطالبونه بالإسراع فى هذا القرار: ريجان بالطبع، ولكن أيضًا كرايسكى وتاتشر، إلخ.، طلبوا من الاتحاد السوفيتى السماح لليهود بالهجرة. أنت تعلم، أن الكثيرين بالغوا تماما فى أهمية تأثير اليهود فى العالم، ولاسيما فى الولايات المتحدة. قد يكون منهم شيفرنادزه. ولكن أيًا كان الأمر، فقد توصل إلى أنها ورقة مهمة يستطيع أن يلعب بها. فى نفس الوقت، بدأ الاتحاد السوفيتى، الذى كان يتطلع إلى الخروج من الحرب الباردة والتسابق مع الولايات المتحدة وهو ما استنفده، يعيد النظر فى دبلوماسيته. فتراجع عن سياسة مساندة الدول العربية التى استثمر فيها الكثير. ومن هذا الوقت، لم يعد هناك ما

يعترض سماح الاتحاد السوفيتى لليهود بالهجرة. وبالفعل فى هذا الوقت، بدأت، شخصيًا، أستشعر تغييرًا فى السياسة السوفيتية.

مما لا شك فيه، أن العالم العربى تلقى هذا القرار باستياء شديد، واعتبرها بمثابة بادرة عدائية تجاهه.

بطرس بطرس غالى: وكيف يمكن أن يكون الأمر مختلفًا؟ فمنذ عام ١٩٤٨م وضع العرب، الذين لم يستطيعوا أبدا فرض إرادتهم السياسية، كل آمالهم فى التطور الديموغرافى. وفجأة، ها هو الاتحاد السوفيتى يسمح ليهوده بالهجرة إلى إسرائيل، وهو ما سوف يؤخر التأثيرات المتوقعة والمأمولة للانفجار السكانى الفلسطينى. لك أن تتخيل غضب الفلسطينيين!

ذلك فضلاً عن أن العديد من اليهود السوفييت الذين جاءوا إلى إسرائيل تخصصوا فى الأعمال الصغيرة التى كانت حتى هذا الوقت يعهد بها إلى الفلسطينيين الذين رأوا معدلات البطالة ترتفع مرة أخرى.

أندريه فيرساى: فى أثناء هذا الوقت، تطورت منظمة التحرير الفلسطينية. فى يونية عام ١٩٨٨م، أطلق بسام أبو شريف، المستشار السياسى لعرفات، بالون اختبار: فمع رفضه قرارى الأمم المتحدة رقمى ٢٤٢ و٣٣٨ كأساس للتفاوض، دعا إلى «سلام دائم» واعترف بضرورة وشرعية الأمن بالنسبة لإسرائيل. وأعرب عن تفهمه لما وصفه بأنه «*قرون من المعاناة للشعب اليهودى*»، ودعا إلى إقامة دولة فلسطينية جنبًا إلى جنب مع الدولة اليهودية على أساس خطة تقسيم فلسطين لعام ١٩٤٧م.

وكان عرفات من منفاه فى تونس، يحاول التوفيق بين أمور لا يمكن التوفيق بينها وهى: الاستجابة للمطالب الإسرائيلية والأمريكية، أى الاعتراف بإسرائيل والتخلى عن الإرهاب بدون أن يقوم رغم ذلك، بالقطيعة مع القاعدة الفلسطينية. البعض اتهمه بالخيانة، ولكن رويدا رويدا، بدأ ينضم إليه تيار يضم أغلبية فلسطينية. ومن أجل تشجيع أنصاره، أعلن عرفات فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٨٨م فى أثناء جلسة المجلس الوطنى الفلسطينى بالجزائر العاصمة، الاستقلال الفلسطينى وإقامة دولة فلسطينية على جزء من فلسطين (ولكن على أساس خطة التقسيم لعام ١٩٤٧م)، تكون عاصمتها «*فى القدس*». يقر هذا الإعلان، فى الوقت الذى يقوم فيه بتجميد الانتفاضة، بضرورة «*تسوية شاملة*»، وعقد مفاوضات مباشرة مع إسرائيل. ولكن، رغم ذلك، أكد عرفات مرة أخرى على حق الكفاح من أجل الاستقلال

وضـد الاحتـلال الأجنبـى - وهـو مـا بـدا عـودة إلـى الموافقة علـى العنـف الـذى ترتكبه الانتفاضـة. ولقد حصل على هذا القرار على موافقـة بأغلبية ٢٥٣ صوتًا مقابل ٤٦ معارضًا و١٠ امتنع.

بعـد عدة أسـابيع، فى حديـث أجرته معه مجلة شـبيجل، قال عرفات إنه يؤيـد قيام دولة عربية فى فلسـطين جنبًا إلى جنب مع الدولة اليهوديـة. وخلال بضعة أيام، اعترفت ٥٥ بلدًا من بينها الاتحاد السوفيتى والصين والهند بـ «الدولة» الفلسطينية.

كان حـل تقسـيم فلسـطين إلـى دولتين قد طـرح بالفعـل فـى السـبعينيات والثمانينيات بواسـطة عدد من المسئولين الفلسـطينيين - وبالأخص من فتح - ولكن العديد منهم اغتيلوا بيـد أعضاء مجموعة أبـو نضال مما أجبر الزعماء الفلسـطينيين «الواقعييـن» الذين يتجهون إلى التفاوض، بالتزام الصمت.

بطـرس بطـرس غالى: كما يمكـن أن تتخيل، هذا التطـور لمنظمة التحرير، أسـعد مصر كثيرًا: فإن استعداد منظمة التحرير لأن تتفاوض مع إسرائيل، بينما قامت بإدانتنا بشدة عندما قمنا بنفس الشىء فى عام ١٩٧٧م، أظهر أننا كنا على حق.

أندريه فيرسـاى: ولكن الإسـرائيليين لن يؤيدوا ظهور قوى لجنـاح معتدل داخل منظمة التحرير. لماذا؟ شـكوك من خطاب مزدوج؟ أو - مرة أخرى - رفض سـلام قد يورطها فى إعادة الأراضى؟

شيمون بيريز: لقد كانت منظمة التحرير عبارة عن تحالف من عدة مجموعات، ورئيسها كان هـو نفسـه يمثـل تحالفًـا وحـده مـن عـدة رؤى متباينة. لقـد كان عرفـات، مـن الناحية الفلسـفية، الشـخص الأقـل انضباطًا فـى الوجود. لقـد كان حقيقة مشـبعًا بالتناقضات. كان مـرات يعد نفسـه نبيًا، وفى مرات أخرى، يرى أنه أكبر الجنـرالات، ومرات ثالثة بأنه الزعيم الأساسـى فـى كل العالم العربى. وحسـب مزاجه، كان يتصرف كإحدى تلك الشـخصيات التـى كان مقتنعـا أنـه يجسـدها. لقـد كانـت منظمـة التحريـر خليطًـا مـن القوى تفتقـد إلى الانضبـاط وإلـى الوحدة، ولـم يكن ممكنا أبدًا أن نعقد مفاوضات مع منظمة بهذا المسـتوى من عدم الانضباط وعدم التجانس.

كمـا سـيطلق عرفـات أو آخـرون، «عبـارات صغيـرة» سـتبدو للغربييـن، ومنهـم أيضًا الاشـتراكيون، كما لو كانت خطوات للأمام، كما لو كانت شـهادة علـى الانفتاح. لقد أعلن عرفـات فـى حديث لـه مع التليفزيون الفرنسـى فى عـام ١٩٨٩م، أن ميثـاق منظمة التحرير

«عفى عليه الزمن». ليكن، ولكن منظمة التحرير ليست ملزمة بهذا الكلام: والدليل على ذلك أنها قضت سنوات قبل أن تقوم بإصلاح هذا الميثاق.

لا أنكر أنه كان هناك بعض بالونات اختبار، بعض رغبات فى الانفتاح. ولكنى أزعم أن ذلك لا يعنى أن جميع الأجنحة التى تتكون منها منظمة التحرير على استعداد للاعتراف بنا والدخول معنا فى عملية حقيقية للمفاوضات. فى هذه الفترة، كل سياسات عرفات صنعت من كلمات مبهمة، كما لو كان غير قادر على استخدام لغة واضحة. وفى الحقيقة، هو لا يستطيع، لأنه إن فعل لما أيدته الأغلبية فى منظمة التحرير.

أندريه فيرساى: فى نفس العام، عام ١٩٨٨م، أراد عرفات أن يعيد وضعية منظمة التحرير خلال انعقاد الجمعية العامة بالأمم المتحدة. ولكن الولايات المتحدة التى قدرت أن التقدم فى المواقف الذى قام به عرفات ضعيف للغاية، رفضت إعطاءه تأشيرة للمشاركة فى الجلسة التالية للجمعية العامة بالأمم المتحدة بنيويورك لأنها كانت لا تزال تعتبره إرهابيًا. ورغم ذلك، لاحظت الخارجية الأمريكية تغييرا فى النبرة، ودفعت منظمة التحرير، بشكل غير رسمى، لأن توضح موقفها، حتى تستطيع تغيير تعاملها معها. كان المناخ يدعو إلى الحلول الوسط. وتم الاتفاق على أن تعقد الجمعية العامة للأمم المتحدة، جلسة خاصة فى جنيف (هذا الانتقال هل كان مطروحًا بشكل واضح لكى يسمح لعرفات بالمشاركة فى الجلسة؟) فى نفس الوقت، بدأ يتشكل إيقاع دبلوماسى من تصوير مستندات إلى كتابة نصوص وترجمات، بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير.

ولقد أصر شولتز، وزير الخارجية الأمريكية، على أن يعلن عرفات بوضوح وبلا مواربة أن منظمة التحرير تتخلى نهائيا عن الإرهاب وتعترف لإسرائيل بحقها فى الوجود، وبالعيش داخل حدود آمنة ومعترف بها، فى سلام واستقرار. وقال شولتز: «*إن أعلن الرئيس عرفات ذلك، فإن الولايات المتحدة ستعترف بمنظمة التحرير وتبدأ معها حوارًا*».

فى ١٣ ديسمبر عام ١٩٨٨م، خلال جلسة الجمعية العامة المنعقدة فى جنيف، وجه عرفات كلمته إلى الإسرائيليين بقوله: «*أتيت إليكم باسم شعبى، أمد لكم يدى حتى نستطيع التوصل إلى سلام حقيقى، سلام قائم على العدل*».

لم تقتنع واشنطن: عرفات لم يوضح موقفه بخصوص القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ فيما يخص بحق إسرائيل فى الوجود وموضوع الإرهاب. بعد يومين، فى ١٥ ديسمبر، أعلن عرفات فى مؤتمر صحفى فى جنيف: «*إننا ندين الإرهاب بكافة أشكاله، سواء كان فرديًا أو*

جماعيًا أو إرهاب دولة». وأضاف أن المجلس الوطنى الفلسطينى يعترف بقرارى الأمم المتحدة رقمى ٢٤٢ و٣٣٨ «كأساس للتفاوض مع إسرائيل فى إطار مؤتمر دولى».

رضى الأمريكيون. وخلال مؤتمر صحفى فى نفس اليوم، اعترف شولتز بالتقدم الحاسم لمنظمة التحرير وقرر بدء «حوار ضمنى مع ممثلى منظمة التحرير».

قدر المجتمع الدولى، بكامله، أن عرفات قام بالضرورى: الزعيم الفلسطينى أصبح أخيرًا شخصية مقبولة، بل ومحترمة. حتى حكومة ثاتشر خصصت له استقبالاً خاصًا، وأرسلت وزير الخارجية ليكون فى استقباله. ولكن، فى المقابل، بدا لنا أن هذا التوجه من جانب منظمة التحرير نحو الاعتراف بإسرائيل، لم يثر حماسا كبيرا فى حكومة إسرائيل، خاصة رئيس الوزراء شامير، الذى لم يكن مستعدًا لأن يسير على خطى الأمريكيين. ولأنه قدر أن عرفات يستخدم خطابا مزدوجا. لم يرغب اسحق شامير أن يسمع عن عرفات أو منظمة التحرير.

شيمون بيريز: هذا صحيح: كان شامير يقول: «*لا البحر تغير ولا العرب تغيروا*». وكان يرى أن التفاوض مع عرفات يشبه «*إدخال خنزير إلى المعبد اليهودى*» بنص كلامه. ولكن يجب أن أقول دفاعًا عنه، إن الرأى العام الإسرائيلى لم يصدق هو أيضًا، أن عرفات تغير.

بطرس بطرس غالى: نعم، الشكوك الإسرائيلية لا تتلاشى بسهولة. لقد رأينا أن الرأى العام الإسرائيلى والفريق الذى كان فى السلطة، احتاج إلى عدة شهور قبل أن يقتنع بصدق السادات فى عرضه للسلام ، وذلك برغم زيارته التاريخية للقدس.

أندريه فيرساى: من الواضح أن عيزرا وايزمان كان هو الوزير الوحيد فى التحالف الذى رحب ببادرة عرفات، واعتبر هذا التطور وكأنه «*بداية عصر جديد*».

شيمون بيريز: نعم، ولكن فى هذا الوقت لم يكن وايزمان له تمثيل كبير، وكان يقود حزبا صغيرا، لم يكن له هو أيضا تمثيل كبير.

أندريه فيرساى: ربما، ولكنه يبقى شخصية تحظى بتقدير واحترام كبيرين لدى الإسرائيليين.

شيمون بيريز: صحيح أنه كان محبوبًا جدًا، وكان يملك جاذبية حقيقية. ولكن ذلك لا يمنع أنه لم يكن يعتبر رجل دولة بحق. وفى النهاية أصبح رئيس الدولة الإسرائيلية (١٩٩٣ـ٢٠٠٠) وهو ما يشهد على الاحترام الذى كان يوليه إياه الجميع، ولكن بعد

الفتـرة القصيـرة التى قضاها فى حكومة بيجين، خلال فتـرة مفاوضات كامب ديفيد، لم يعد له حقيقة مستقبل سياسى فعلى.

مهمـا كان الأمـر، مثلمـا كان الحـال دائمـا، أرادت أقلية إسـرائيلية أن تصـدق عرفات، وأعلنـت أنـه لابد من الوثوق بتصريحاتـه العامة، وبموقفه الرسـمى، وألا نأخذ فى الاعتبار ما يمكن أن يقوله فى محادثاته الخاصة أو غير الرسـمية. ولكن أغلبية الشـعب الإسـرائيلى اعتبـرت هـذه التصريحـات الرسـمية منافقـة، واعتبرت كل ما نسـمعه من الفلسـطينيين فى محادثات خاصة هو الحقيقة. لهذا السـبب طالب دائما الليكود أن يدلى عرفات بتصريحاته باللغـة العربيـة، لأن كل مـا يقولـه علنيـا بالعربية يلتـزم به رسـميا، ولم يكن هـذا هو الحال بالنسـبة لهـذه التصريحـات التـى يدلـى بهـا بالانجليزيـة علـى شـبكات تليفزيونيـة غربيـة لا يشاهدها إلا قليل من الشعوب العربية.

أمـا فيما يخصنى، فلقد رأيت أنه طالما الأمور وصلـت إلى هذه النقطة، فيجب أن نظهر الصبـر أمـام التباين فى التصريحـات المختلفة، سـواء كانت علنية أو خاصة. أحد الشـعراء العـرب الذى أكن لـه إعجابًا كبيرًا، نزار قبانى، كتب قصيدة دعـا فيها العرب إلى التحرر من اسـتعمارهم الأكثـر بأسـا: وهى الكلمـات. فيقـول قبانى إن الـكلام العربى مثـل النير يثقل كاهلنا، ويمنعنا من أن نعبر عن أنفسنا بحرية.

أندريه فيرسـاى: مرت الشـهور: فى عام ١٩٨٩م، فى الولايـات المتحدة، جورج بوش يخلـف رونالد ريجان وجيمس بيكر يخلف جورج شـولتز. الإدارة الجديدة ترغب فى دفع الموقف فى الشـرق الأوسـط، الذى بدا مجمدًا، وبدأت بممارسة ضغوط على القدس. فى ٢٢ مايـو عـام ١٩٨٩م، أعلن جيمس بيكـر: «*لقد حان الوقت لكى تتخلى إسـرائيل، نهائيا، عـن رؤيـة غير واقعيـة لدولة يهوديـة ذات حـدود أكثر اتسـاعًا. مصالح إسـرائيل فى الضفة الغربيـة وغزة، سـواء كانت مـن أجل الأمن أو مـن أجل مجالات أخرى، يمكـن أخذها فى الاعتبار فى اتفاقية تعقد على أسـاس القرار ٢٤٢. يجب التخلى عن ضم الأراضى، ووضع حد لنشـاط المسـتوطنات، [..] مـدوا أياديكم إلى الفلسـطينيين باعتبارهـم جيرانًا يملكون حقوقًا سياسية مشروعة*».

فى الواقع، هذه الإدارة سـتنتهج سياسـة شرق أوسـطية، أقل موالاة لإسرائيل عما كانت عليه إدارة ريجان. كيف وجد الإسرائيليون الرئيس الجديد؟

شيمون بيريز: الأمر يختلف. اليمين الإسرائيلي، بداية بشامير، اعتبره مواليا جدا للعرب. وذلك بدا لي حكمًا غير منصف، لأنه عندما كان نائب الرئيس ريجان، حقق بوش أشياء كثيرة بدت لنا مدهشة. يأتي إلى ذهني إنقاذ يهود إثيوبيا: عندما علم أن هؤلاء اليهود كانوا يتجهون سيرًا على الأقدام نحو السودان، قرر بوش أن يرسل لهم طائرات أمريكية لنقلهم. وهو شيء قمت بنفسي بالتفاوض عليه معه، وشعرت بالامتنان العميق له بسببه. جورج بوش بدا لي رجل سياسة صادقًا تمامًا. أوليه احترامًا حقيقيًا ولم أعتبره أبدا كعدو. بعد أن أصبح رئيسًا، أراد أن يحاول حل مشكلة الشرق الأوسط، ومن أجل التوصل إلى ذلك، كان عليه أن يتخذ موقفًا حياديًا بقدر الإمكان، ولم يستطع بالطبع قبول سياسة شامير المتطرفة. حتى نحن، الذين كنا جزءًا من تحالف الوحدة الوطنية، رفضنا تلك السياسة، وهو ما قادنا، في مارس عام ١٩٩٠م إلى الانسحاب من الحكومة. والحكومة الجديدة التي ستشكل في يونية ستكون حكومة محافظة بصورة جذرية، وبالتالي مغلقة أمام أي تنازلات، وهو ما سوف يثير غضب الأمريكيين، إلى حد أن وزير الخارجية جيمس بيكر، بعد أن أنهكه هذا الكم من النوايا السيئة، صاح غاضبا علنيا مخاطبا الحكومة الإسرائيلية: «*رقم البيت الأبيض هو ١٤١٤-٤٥٦-٢٠٢ . عندما تنشدون السلام بصدق، اتصلوا بنا!*»

بطرس بطرس غالي: في مصر، أدت رغبة الرئيس الأمريكي الجديد في التدخل في الصراع بصورة أكبر، إلى شعورنا بالرضا، لأنه، كما قلت من قبل، كنا مقتنعين، منذ وقت طويل بأن الأمريكيين يملكون مفاتيح المشكلة. فقد كانت إحدى الثوابت في السياسة المصرية، منذ تولي السادات السلطة، محاولة الحصول على مشاركة الولايات المتحدة في مشكلة الشرق الأوسط. وكما رأينا، استطاع السادات أن ينجح في ذلك، حيث إن كارتر كرس نفسه تمامًا لهذا الصراع، ولعب هذا الدور الأساسي في عملية السلام الإسرائيلية - المصرية.

أندريه فيرساي: الحرب الإيرانية - العراقية انتهت في شهر أغسطس عام ١٩٨٨م. لم يكن هناك منتصر ولا منهزم. ولكن فقط بلدان ضعيفان جدا خرجا من حرب أسفرت عن مصرع ما يقرب من مليون شخص، ووضعت البلدين في وضع اقتصادي مدمر. ولقد أراد صدام حسين أن تساعده دول الخليج ماديا، حيث إنه اعتبر نفسه رأس حربة العرب ضد الفرس، وأن العراق فقدت في هذه الحرب أكثر من ٤٠٠ ألف رجل. بالإضافة إلى أنه عاتب الكويت لأنها لم تسدد المبالغ التي التزمت بدفعها له. رفضت الكويت الانصياع له، وشعرنا يقينا أن صدام لن يقف عند هذا الحد.

بالنسبة للخلاف نفسه، هل صدام كان على حق؟

بطرس بطرس غالى: صحيح أنه باسم التضامن العربى، فإن أى دولة عربية فقيرة تستطيع أن تطلب مساعدات مالية من أمراء الخليج. ولكن العراق ليست دولة فقيرة. المسألة كلها تكمن فى معرفة إن كان صدام قد حصل حقًا على تعهد من الكويت. من الممكن أن يكون هذا الخلاف مجرد مبرر من أجل الاستيلاء على الكويت. ونعرف أن الحكومات المتعاقبة فى العراق اعتبرت دائما الكويت كإقليم عراقى.

أندريه فيرساى: بالفعل، فى عام ١٩٧٣م، عندما كان صدام الرجل الثانى، ولكن الرجل القوى فى النظام، قام بتعبئة الجيش العراقى عند حدود الكويت. ولكنه اضطر إلى التقهقر أمام التهديد بتدخل جميع البلاد العربية معا. فى هذا الوقت، استطاعت جامعة الدول العربية منع الحرب. ما السبب أنها، فى المرة الثانية، لم تستطع؟

بطرس بطرس غالى: فى عام ١٩٧٣م، العراق لم يكن بنفس القوة. ثم إن الجامعة العربية كانت تعتبر أساسا، أن مهمتها هى المكافحة من أجل استقلال الدول العربية وفلسطين عن الاستعمار. إلا أنها لا تستطيع دائما حل النزاعات العربية الداخلية أو بين دولة عربية وأخرى.

أندريه فيرساى: فى ٢ أغسطس عام ١٩٩٠م، غزا صدام الكويت. كيف كان رد الفعل فى العالم العربى؟

بطرس بطرس غالى: لقد كان الغزو صدمة بالطبع. وقامت غالبية الدول العربية بإدانته. ولكن من ناحية أخرى، كانت الشعوب فى مجملها، مؤيدة لصدام حسين الذى جرؤ على تحدى الكويتيين الذين لم يتمتعوا بحب كبير بسبب ثرائهم.

شيمون بيريز: هذا ليس كل شىء! كان الكويتيون يعتبرون متعجرفين ومتعالين وليسوا متضامنين على الإطلاق مع الشعوب العربية، وهو ما لم يكن خطأ، على كل حال.

أندريه فيرساى: أدانت الأمم المتحدة فورا الاجتياح وأصدرت قرارا تحذر فيه العراق إن لم ينسحب من الكويت، فسوف يطرد منها بالقوة. وتحت قيادة أمريكية، تم تشكيل تحالف من دول، منها العديد من الدول العربية، واستعدت لمحاربة صدام إن لم يسحب قواته. ستستمر الأزمة نحو خمسة أشهر قبل أن تنتقل جيوش التحالف إلى الهجوم العسكرى. لماذا لم يتحرك صدام خلال خمسة أشهر؟ بالإضافة إلى أن ميتران أبلغ الزعيم العراقى، فى اللحظات الأخيرة، أنه حتى لو تعهد فقط بالانسحاب، فإنه سيتم تعليق التهديد

العسكرى لدول التحالف. ولكن بدون نتيجة. خلال هذا الوقت، ماذا فعلت الدول العربية من أجل نزع فتيل الأزمة؟

بطرس بطرس غالى: حاولت البلاد العربية إقناع صدام حسين بمغادرة الكويت، وحاول الاتحاد السوفيتى، وحاولت الصين، العالم كله حاول. ولكن بلا نتيجة. لقد كنا بصدد ديكتاتور مصاب بجنون العظمة، انعزل داخل ممارسة منفردة للسلطة.

أندريه فيرساى: ألم يصدق صدام احتمال الرد العسكرى؟

بطرس بطرس غالى: أعتقد أن صدام حسين الذى اعتبر أنه انتصر فى الحرب ضد إيران (حتى لو لم يكن ذلك صحيحًا) كان مقتنعًا أن التحالف لن يشن ضده هجومًا عسكريًا، أو فى حالة قيامه بشن الهجوم، فسوف يتوقف على الفور لينتقلوا إلى المفاوضات. أتصور أنه كان متأكدًا من إمكانية المساومة على انسحابه مقابل بضعة مليارات من الدولارات. وربما تصور أيضًا أن الأمريكيين، الذين ساندوه فى حربه ضد إيران، سوف يتركونه يفعل ما يريد أو يتفاوضون على انسحابه مقابل ثمن مادى.

فى الحقيقة، عملية اجتياح الكويت كان مخططا لها منذ زمن طويل. فى عام ١٩٨٩م، عقد صدام حسين معاهدة رباعية مع مصر والأردن واليمن. فكان متوقعًا أن شركاءه الثلاثة سوف يساندونه. ولكن، عندما شعر مبارك أنه جرى استغلاله بمناورة مخططة، انضم إلى قوى التحالف ضد صدام طواعية.

أندريه فيرساى: البعض يزعم أن الولايات المتحدة أوقعت صدام فى فخ: فقد أبلغ صدام السفيرة الأمريكية بخطته، ولم تحاول السفيرة أن تقنعه بالعدول عنها، واعتبر صدام أن هذا «الصمت» يعنى الضوء الأخضر!

بطرس بطرس غالى: لست مقتنعا تماما بنظرية المؤامرة هذه، والتى انتشرت بشدة بين المثقفين فى العالم العربى.

شيمون بيريز: حتى ولو كانت صحيحة، كان لصدام الفرصة لكى ينسحب. لقد ذكر أندريه فيرساى أنه عشية الحرب، أبلغ ميتران صدام أنه إن التزم بالانسحاب فسوف يتم تعليق الهجوم.

بطرس بطرس غالى: أعتقد أن صدام راهن على حساسية الرأى العام الغربى الذى لا يحتمل أن يموت جنوده فى صراعات لا تهدد بلادهم مباشرة. فهو لم ينس السابقة

اللبنانيـة التـى تحدثنا عنها، حين سـحبت الولايات المتحـدة قواتها بعد انفجار شـاحنة فى عملية انتحارية داخل ثكنة أمريكية وقتل فيها ٢٤١ شخصًا. ونفس الشىء بالنسبة للفرنسيين ثم الإيطاليين. هذا التوجه للانسـحاب بسـرعة عندما تقع ضحايا بشـرية، أثر كثيرا فى ذهن العـرب، وبالأخـص فـى ذهن صدام حسـين. فمـن المحتمـل أن يكون قـد أقنع نفسـه بأن واشنطن ستوقف الحرب بلا شك عندما يقع بعض جنودها وتقترح مفاوضات.

ومرة أخرى، يجب الأخذ بعين الاعتبار جنون العظمة: فهو ليس أول زعيم متسلط يفقد نفسه بسبب جنون أحلام العظمة.

أندريه فيرسـاى: حتى نسـتطيع رؤية الأشـياء من منظور جيوبوليتيكى أوسع، هل عملية اجتيـاح الكويت تشـهد مرتين على انهيار القوة السـوفيتية؟ فإن اتحادا سـوفيتيا قوى ما كان ليسـمح، بلا شـك، للعراق بأن يرتكب ما لا يمكن إصلاحه، وحتى لو ارتكب هذا الذى لا يمكن إصلاحه، لكان اسـتخدم حق الفيتو فى الأمم المتحدة لمنع تكوين أى تحالف دولى ضد بغداد.

بطـرس بطـرس غالى: لا أعتقـد أنه يجب وضـع اجتياح الكويت كإحـدى نتائج ضعف الاتحـاد السـوفيتى. فى الحقيقـة هذه الحرب تعتبر مسـألة داخليـة عربية، وعلـى أية حال، تصـور الجميع أن صدام سـيقوم بمناورة مـن أجل التفاوض على انسـحابه مقابل الحصول على تعويض من فوائد مالية وبترولية من دول الخليج.

أندريـه فيرسـاى: قـاد الأمريكيـون عملية ضـد صدام. وسـوف ينجحون فى جـر البلاد العربية والإسلامية إلى الانضمام إلى التحالف الدولى قبل تنفيذ عملية «*عاصفة الصحراء*». ما السـبب الذى من أجله سـتقوم بلاد عربية كثيرة، لأول مـرة، بالتكاتف مع الأمريكيين فى حرب ضد دولة عربية أخرى، بينما شـعوب تلك الدول نفسـها، كانت من ناحيتها متضامنة جدا مع صدام!

بطرس بطرس غالى: فى هذه الفترة، كانت للولايات المتحدة علاقات وثيقة مع عدد لا بأس به من البلاد العربية المعتدلة مثل مصر. ولقد تمكنت الدبلوماسـية الأمريكية من إقناع هذه البلاد بالانضمام إلى التحالف من أجل تحرير الكويت.

أندريـه فيرسـاى: بعد مرور عشـر سـنوات، سـتمارس واشـنطن ضغوطا بنفـس القوة، ولكنها لن تستطيع حشد أى دولة عربية.

بطرس بطرس غالى: الوضع مختلف تمامًا. ففى المرة الأولى تم التدخل بموافقة الأمم المتحدة، ردا على قيام العراق بغزو الكويت. فى المرة الثانية، تم الغزو بقرار أحادى الجانب من واشنطن، ولم يكن هناك هدف آخر إلا إسقاط النظام العراقى. إننا لسنا البتة أمام نفس الحالة.

ما تلوم البلاد العربية صدام عليه، هو أنه قام، عن طريق غزو الكويت، بكسر التوازن الإقليمى. كما كان استياؤهم أكبر عندما أدى الغزو إلى هروب آلاف العمال المهاجرين العرب الذين اضطروا إلى العودة بسرعة إلى أوطانهم، مع كل المشاكل التى يمكن أن تتخيلها.

فى نفس الوقت، فإن جيوش تلك البلاد التى تشكل العمود الفقرى لمجتمعاتها، اهتمت بالمشاركة فى هذه الحرب: هؤلاء العسكريون العرب الذين يبقون فى عزلة فى ثكناتهم، يستعدون لمعارك لا يشنونها أبدًا، وجدوا أنهم سيشاركون أخيرا فى حرب، وأى حرب! على جبهة إلى حد ما بعيدة، علاوة على أنها بالتعاون مع الجيش الأمريكى، أقوى جيش فى العالم!

قامت الحكومات من جانبها بحساباتها السياسية: هذه الحملة يمكنها أن تؤدى إلى إعادة تشكيل المنطقة، والغائبون دائما لا نصيب لهم: لذا يجب المشاركة من أجل أن نلعب دورًا، من أجل أن نؤثر فى الوضع، من أجل أن نمنع، من أن تذهب الأمور بعيدًا أكثر مما يجب لو حدث ذلك...

أندريه فيرساى: فى الوقت الذى أدانت فيه أغلبية الحكومات صدام، بداية، بالطبع بالحكومات الغربية، تضامنت الأردن مع العراق، رغم توجهها الغربى. لماذا؟

بطرس بطرس غالى: لأن هناك روابط جيوبوليتيكية وثيقة تربط عمان مع بغداد. لذا كان يصعب على الأردن، التى تقع على الحدود مع العراق، أن تخاطر بالوقوف ضد بغداد. كما تردد أن الملك حسين كان يأمل فى أن يلعب دور الوسيط بين الخصوم الرئيسيين فى هذا الصراع - العراق والكويت والولايات المتحدة - وأن هذه اللعبة كانت ستسمح له بالحصول على بعض المميزات الحدودية أو غيرها، بعد انتهاء الأزمة. كل شىء كان ممكنًا، طالما لم يكن شىء قد بدأ فى تلك اللحظة. هل ستشن الحرب فعلاً؟ وحتى بعد انطلاق العمليات العسكرية، يمكننا المراهنة حول بعض المخاوف الغربية وخاصة الأمريكية. لقد قلت لك من قبل، العرب فوجئوا بالسهولة التى يمكن بها دفع العملاق الأمريكى إلى التراجع. ربما يكون الملك حسين قد قام بنفس التحليل مثل صدام.

شيمون بيريز: بالإضافة إلى أن عمان كانت تاريخيا، مرتبطة ببغداد، التى تمدها بالبترول.

أندريه فيرساى: ياسر عرفات سيأخذ قرار مساندة صدام بتصميم كبير. ومع ذلك، كانت الكويت إحدى الدول التى تمول منظمة التحرير.

بطرس بطرس غالى: هذا صحيح، ولكن يجب أن نأخذ فى الحسبان واقع فلسطين حيث يتدهور الوضع باستمرار. لماذا لا يقوم عرفات، بمحاولة التضامن مع بغداد؟ لماذا لا يحاول اتباع استراتيجية جديدة؟ بالإضافة إلى أن الرأى العام الفلسطينى يساند صدام حسين الذى يقوم بدور المدافع عن الفلسطينيين. ألم يذهب إلى حد اقتراح الانسحاب من الكويت إذا انسحبت إسرائيل من الأراضى المحتلة؟

أندريه فيرساى: فى العالم العربى، هل هذا الاقتراح تم أخذه بجدية؟

بطرس بطرس غالى: من جانب الحكومات، لا بكل تأكيد، ولكن بالنسبة لقطاع كبير من الشعوب العربية، هذه الصفقة بدت منسجمة: «لماذا نسارع من أجل معاقبة صدام الذى تدخل فى الكويت مؤخرًا، ولا نفعل شيئًا ضد إسرائيل التى رغم كل قرارات الأمم المتحدة المتكررة، لا تنسحب من الأراضى العربية التى تحتلها منذ ربع قرن؟!» وبالطبع اعتبر «الاقتراح» الذى قدمه صدام كبادرة تعبر عن تضامنه مع الفلسطينيين. إنها مجرد كلمات، ولكنها كلمات مهمة.

أندريه فيرساى: هل معنى ذلك أن «القول» يعنى «الفعل»؟

بطرس بطرس غالى: لا، القول هو إعطاء الأمل. مع ذلك، ارتكب عرفات، بلا شك خطأ خطيرا. لأن تقوقعه وراء بغداد، كما فعل، وضعه بكل وضوح إلى جانب العراق. لقد كان خطأ، ليس فقط بالنسبة للولايات المتحدة والعالم الغربى، ولكن أيضا بالنسبة للأغلبية الساحقة من البلاد العربية. لقد غضبت بلاد الخليج غضبا شديدا، وسوف تدفع منظمة التحرير الثمن: فقد قرر السعوديون والكويتيون الذين يمولون منظمة التحرير، وقف مساعدتهم المالية.

أندريه فيرساى: فى الغرب، جرت، منذ وقت مبكر مقارنات بين أى ديكتاتور وهتلر: هكذا كان الحال مع ناصر فى عام ١٩٥٦م، وسيكون مع صدام فى عام ١٩٩٠م. بغض النظر عن تلك المقارنات المبالغ فيها، فإننا نلاحظ وجود تشابه فى معاملة الشعوب إزاء زعيمها: يقول ريمون آرون فى *مذكراته* إنه عندما كان فى ألمانيا فى الثلاثينيات، كان

يستطيع مناقشة أى موضوع بهدوء مع زملائه الألمان، باستثناء «المسألة الألمانية». كما أن الألمان الذين لم يكونوا يحبون هتلر إطلاقا، كانوا «يدافعون» عنه بطريقة ما، لأنهم اعتبروا أن وراء أغلب الهجوم ضد هتلر، كانت ألمانيا هى المستهدفة. ولقد بدا أن العرب المعتدلين، بل «التقدميين»، كان لهم نفس رد الفعل: فرغم أنهم لم يحبوا صدام، واعتبروه مستبدا، إلا أنهم كانوا يحتجون على اعتبار أن شن التحالف للحرب على بغداد هو للدفاع عن الكويت. لقد اعتبروا أن الأمر ما هو إلا طريقة منافقة للهجوم على العالم العربى وإضعافه: إذن صدام أفضل من الغرب و«قيمه الزائفة».

بطرس بطرس غالى: تحليلك مهم فى عدد من النقاط. قد أقول إن جانبا من الشعوب العربية كان ينظر إلى صدام على أنه ناصر نهاية القرن العشرين: لقد كان لصدام شعبية لدى الجماهير العربية لأنه لم يتراجع أمام الضغط العام؛ فهو الذى واجه العالم الغربى، والذى لم يخضع للأمريكيين، والذى يقف فى مواجهة أمراء الخليج. هذا الزعيم الشعبوى، الذى لا ينتمى إلى طبقة الأمراء الرجعيين، بدا وكأنه الرجل القوى فى المنطقة، الرجل الذى تستطيع الجماهير أن تثق فيه لأنه أعاد إلى العالم العربى المستعمر كرامته. وحتى لا أكرر نفسى، أعتقد أنه هاجس الواقع الاستعمارى الذى ما زال يسيطر على الخيال العربى.

أندريه فيرساى: أنت تعود دائما إلى الاستعمار. ألا تعتقد أن هاجس الاستعمار هذا من شأنه أن يعوق جديا تطور ولو جزء على الأقل من العالم العربى؟ ألا تعتقد أن هذا الإحساس بأنكم ضحية، ليس فقط عبثيًا ولكن أيضا خطير، حيث إنه يمنع أى محاولة للوعى الدقيق بواقع الأوضاع ؟

بطرس بطرس غالى: نعم، ولكن هاجس الاستعمار هذا ليس موجودًا فقط فى العالم العربى: فكل الدول التى كانت مستعمرة، سواء من آسيا أو من إفريقيا أو أمريكا اللاتينية، شعروا بصدمة الاستعمار.

أندريه فيرساى: ليس جميعهم. انظر إلى الدول الآسيوية والشرق الأقصى، كوريا الجنوبية وسنغافورة وهونج كونج والهند، إلخ. لقد قلبوا صفحة للماضى، ويتقدمون بشكل جيد. ألا تعتقد أن الشعور بأنكم ضحية، هو شعور راسخ للغاية فى العقلية العربية الإسلامية؟

بطرس بطرس غالى: إننى أزور دول آسيا كثيرًا، وأستطيع أن أؤكد لك أن الواقع الاستعمارى لازال حاضرًا فى العقول. ومع ذلك، فإننى أشاركك الرأى فى أن حكام البلاد

العربية، قاموا كثيرًا بالتلويح بالواقع الاستعمارى من أجل التخفيف من مسئولية فشلهم. ومع ذلك، هل يجب أن نضع على حساب الإحساس بالضحية العدوان الانجليزى - الفرنسى - الإسرائيلى - فى مصر عام ١٩٥٦م؟ هل يجب أن نضع على حساب الإحساس بالضحية احتلال الأراضى الفلسطينية والزيادة المستمرة للمستوطنات السكانية؟ هل يجب أن نضع على حساب الضحية التدخل الأمريكى فى العراق بزعم أن العراق تملك أسلحة الدمار الشامل؟!

أندريه فيرساى: لا، ولكن ألا ترى أن الإحساس الدائم بالضحية هو أحد أسباب التجمد فى قطاع من العالم العربى؟ يبدو لى أن هذا العالم العربى يبحث عن الاعتراف بمعاناته وليس عن الحقيقة. وهذه المعاناة تبدو له بلا حدود، وإن الحقيقة حول هذه النقطة أو تلك، تبدو له مجرد تفصيلة، والتى على كل حال لا تغير شيئًا من الحقيقة الكبرى، وهى أن العالم العربى يبقى منذ أكثر من قرن من الزمن، ضحية الغرب. كل ما عدا ذلك ليس له معنى. هذا الأسلوب يحرمهم من كل روح نقدية، أو كل نقاش عام، ويخلى المكان لرؤية شمولية للعالم.

من هذه الزاوية، ألا تعتقد أن النخبة المثقفة العربية (باستثناء قلة منهم) لم تثبت فعلا شجاعة كبيرة؟ بعد أكثر من ٤٠ عامًا من تحرير الجزائر، لازلنا حتى اليوم نسمع أصواتًا عربية رسمية تشرح أن الفوضى التى تعيش فيها الجزائر هى نتيجة للاستعمار الفرنسى. مما لا شك فيه، إنه أسهل للمرء أن يكون مثقفا محتجا، يعيش فى باريس عنه فى طرابلس أو دمشق. ولكن الكثير من المثقفين العرب يعيشون تحديدا فى كبرى العواصم الأوروبية، ولا نسمع كثيرا أى خطاب انتقادى، اللهم إلا ضد السلطات العربية المعتدلة التى يعتبرونها تابعة للأمريكيين. انظر إلى الإرهاب، ألا ترى أن إدانته (عندما تحدث إدانة، وهى شىء حديث نسبيًا) تكون على أقل تقدير خجولة: فلا نرى فى الغرب مظاهرات ضخمة فى الشوارع ضد الإرهاب رغم أن هؤلاء المثقفين لا يخاطرون بشىء.

بطرس بطرس غالى: فى الحقيقة، أنت تطرح علىّ سؤالين مختلفين. بالنسبة للأول، أتفق معك فى أن الإحساس المنهجى بالضحية الذى يسيطر على العالم العربى (والذى له أساس حقيقى) هو أحد العوامل التى جمدت مجتمعنا. أما بالنسبة للثانى، فأنا لا أتفق معك فى العتاب الذى توجهه إلى المثقفين العرب. إن قرأت الصحف العربية، إن شاهدت شبكات التليفزيون المختلفة، إن قمت بزيارة لمواقع الإنترنت، وإن أحصيت عدد المعارضين الذين يملأون السجون أو تعرضوا للهجوم أو قتلوا بيد المتطرفين، سوف

تدرك أن النخبة العربية، مثل النخبة فى أمريكا اللاتينية أو إفريقيا، تناضل بشجاعة من أجل إصلاح النظم الرجعية والتسلطية فى بلادهم المختلفة.

أندريه فيرساى: حذر صدام الإسرائيليين بقوله: إن صمموا على الرفض، فسيحرق نصف إسرائيل بالأسلحة الكيماوية، وسيعيد القدس إلى الإسلام. كيف تعاملتم فى إسرائيل مع هذا التهديد؟

شيمون بيريز: لقد تعاملنا بالطبع مع هذا التهديد بجدية، ولكننا كنا مدركين، رغم كل شىء، أن الخطر محدود. قد يمكن لصدام أن يسبب أضرارًا، ولكنها ضعيفة نسبيًا، وهو يعرف أننا نستطيع أن نرد بطريقة عنيفة، وإلحاق أسوأ الأضرار بالعراق. كان يعرف أنه ليس فى مصلحته على الإطلاق أن يقوم بأكثر من بعض الإثارة.

أندريه فيرساى: لم يكن من الممكن أبدا أن تطلب الولايات المتحدة من إسرائيل أن تشارك فى هذا التحالف: انضمام الإسرائيليين كان سيدفع العرب إلى الانسحاب منه، بلا نقاش. كيف تعايش الإسرائيليون مع هذا الاستبعاد؟

شيمون بيريز: كان هناك إسرائيليون يريدون حمل السلاح ضد العراق، ولكنهم كانوا أقلية. أما شامير، رئيس الوزراء فى هذه الفترة، فكان مصمما على ألا يورط إسرائيل فى هذه الحرب حتى لا يؤدى إلى انهيار التحالف.

بطرس بطرس غالى: من جانبهم، رأى العرب عدم مشاركة إسرائيل، بأنها حذاقة عالية من جانب الدبلوماسية الأمريكية، وفى نفس الوقت رهان جديد على صلابة التحالف الأمريكى - الإسرائيلى: ففى النهاية، الأمريكيون، ليسوا فقط يقومون بحماية إسرائيل ولكنهم، أيضا يجنبونها حربًا.

أندريه فيرساى: صدام حسين سوف يرد على قصف القوات الدولية بإرسال صواريخ سكود فوق إسرائيل، بهدف واضح وهو أن يدفع إسرائيل إلى التدخل عسكريًا فى الصراع. ولكن الإسرائيليين منعوا من الرد الانتقامى، واكتفوا باستخدام صواريخ «باتريوت» التى أمدتهم بها واشنطن، والتى تقوم باعتراض الصواريخ فى أثناء تحليقها. إنها المرة الأولى التى ترى إسرائيل دفاعها يعهد به إلى دولة أجنبية.

شيمون بيريز: إننا لم نأخذ المسألة بهذه الطريقة. إننا لم نعهد بدفاعنا إلى دولة أجنبية، ولكن حدث أن هذه الدولة كانت فى حرب ضد دولة، فى صراع لم نكن طرفا فيه. هذه

الحـرب قـام بهـا الأمريكيون لحسـاب الأمـم المتحـدة، وليس مـن أجلنا. لذلـك كان من الطبيعى ألا نتدخل، كما أن ذلك قد يضر بتماسك التحالف.

أندريه فيرساى: أظهرت التحقيقات التليفزيونية فى ذلك الوقت، أن الإسرائيليين يقفون فـى صفـوف من أجـل الحصول علـى أقنعة الغـاز التى كانـت تقـوم الدولة بتوزيعهـا، كما أظهـرت مـن ناحية أخـرى، أن الفلسـطينيين يقفون على أسـطح المنـازل يصفقون لوصول صواريخ سكود.

شـيمون بيريـز: بقى العرب الإسـرائيليون حذريـن. وعرب الأراضى هـم الذين أظهروا فرحتهـم. ولقد صدم هذا الموقف العديد من الإسـرائيليين، وبالطبـع، غذى ذلك الأخبار. بالنسـبة لـى شـخصيًا، لم أتأثـر إطلاقًـا بذلك. فالعـرب يحتفلون بكل سـكود يسـقط على إسـرائيل: ثـم ماذا يحدث؟ لقد كان ذلك، بلا شـك «صادما»، «فاضحـا»، ولكن ماذا كانت أهميته حقيقة؟ قد أكون من الأقلية، ولكن المظاهرات الشـعبية لا تؤثر فىّ كثيرا: ما يهمنى، هـو النتائـج، وفـى تلـك الحالـة، لا أرى أى نتيجـة. ولقد ظـل الوضع مجرد إثـارة، عرض مسرحى. ليس أكثر.

أندريـه فيرسـاى: صواريـخ باتريـوت أظهـرت قلـة فاعليتهـا فـى النهايـة، والأراضـى الإسـرائيلية سـتتلقى ضربات عدد من صواريخ سـكود. الشـىء الغريب، هو أنه فى الوقت الذى كان أكثر ما تخشـاه إسـرائيل، قصفا بالأسـلحة الكيماوية، لم تكن صواريخ السـكود التى أطلقتها بغداد تحمل الكيماوى. كيف تفسر ذلك؟

بطـرس بطـرس غالى: حقيقة، أنا لا أعرف. أعتقد أن صدام أراد فقط أن يثبت إلى العالم أن إسـرائيل لم تكن فى مأمن من أسـلحته. وهو ما قد يجعل منه بطلاً لدى الشعوب العربية. أمـا بالنسـبة لهذا الاسـتعراض، فلـم يكن من الضـرورى دفع الأمـور أكثر إلـى الأمام، لأن إطلاق صواريخ سـكود محملة بالكيماوى قد تؤدى إلى رد غير متناسب من جانب إسرائيل أو الأمريكيين.

شـيمون بيريز: أعتقد بكل بسـاطة أن صدام لـم يكن قادرا على تحميـل تلك الصواريخ لا بالكيمـاوى ولا بالأسـلحة البكتيرية. فإن قتل المواطنين بالغازات السـامة، كما فعل قبل عدة سـنوات، شـىء، ورفع قدرات الصواريخ، شـىء آخر. يجب أن أقول إنه، فيما يخصنى شـخصيّا، فإننى كنت أشـعر بالشك فى ضرورة توزيع الأقنعة على المواطنين. ولقد كان من الصعـب علـىّ أن أعلن ذلك. بالإضافة إلى أن لا شـىء يثبت أننى على حق. ورغم ذلك، لو

أننـى كنت المسـئول عن اختيار توزيع الأقنعـة، لما كنت متأكدا إننى كنت سـأتخذه. ولكن صحيحا أنه كان علينا الأخذ فى الاعتبار مخاوف المواطنين.

لقـد واجهـت بالفعل هذا النوع من المواقف. فى عهد ناصر حذرتنا أجهزة مخابراتنا من خطـر محتمل لصواريخ مصرية جديـدة صنعها الباحثون النازيون الذين اسـتقبلتهم القاهرة بعد الحرب العالمية الثانية. ولقد شعرت الحكومة الإسرائيلية بقلق شديد إزاء هذا التهديد، ولكنـى أنـا لم أصدقه علـى الإطلاق. ولقد أثـار موقفى هذا إزعاجًا شـديدًا لجولـدا مائير، وسـألتنى: «*كيف تعرف ما تجهله؟*»، وأجبتها قائلا: «*لأننى أعرف، ما يجهلونه هم*». وكنت علـى حـق: ففى هـذا الوقت، فقـط ثلاث أو أربـع دول كان لديهـا القدرة على التسـلح كما يجـب بالصواريـخ، لأن ذلك يتطلب بنيـة تحتية على درجة عالية مـن التقنية، وهو ما أعرف أن مصر لا تملكها.

أندريـه فيرسـاى: اسـتمرت الحـرب، ولكن الحلفـاء لم يذهبـوا إلى حـد محاولة قلب صدام.

بطـرس بطـرس غالـى: لا، لأن الحكومـات العربيـة ضغطـت علـى الأمريكييـن حتـى لا يدخلوا بغداد، لأن إذا كان الرأى العام العربى يمكن أن يقبل أن تشـن دولة عربية الحرب علـى دولـة عربية من أجل تحرير دولة عربية أخـرى، فإنه لن يقبل أبدا خوض حرب بجانب الأمريكيين والغربيين، تستهدف قلب حكومة عربية. وقبل الأمريكيون ألا يسقطوا النظام.

ولكـن، من ناحية أخرى، بعد نحو ١٢ عاما، خاض جورج بوش الابن حربا جديدة ضد العراق، حيث لن تشـارك فيها أية دولة عربية. فـى الحالتين، فى عام ١٩٩١م وفى ٢٠٠٢م، عارضت الدول العربية الإضرار بحكومة بغداد.

أندريـه فيرسـاى: وبدون شـك، أراد الأمريكيـون أيضًـا، الحفاظ على الأمـر الواقع فى المنطقة، خوفا من احتمالات عدم اسـتقرار قد تخرج عن السـيطرة. فى المقابل، أراد بوش الابـن، الـذى يحيط به محافظون جـدد من نوعية متطرفـة، تغيير هذا *الأمـر الواقع* من أجل إعادة تشكيل المنطقة لصالحهم.

بطـرس بطـرس غالـى: نعـم، تحليلك دقيـق، ولكن سـيقع بيـن التاريخيـن، هجوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى نيويورك وواشنطن.

أندريه فيرساى: هل كان صدام يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك ويدخل السعودية؟

بطرس بطرس غالي: تذكرني بحديث جرى بيني وبين خبير استراتيجي فرنسي في وقت لاحق. إذ قال لي: «*ما لا أستطيع فهمه، هو لماذا لم يدفع صدام بقواته بضعة كيلومترات أبعد، وحتى السعودية من أجل الاستيلاء على آبار البترول. كان سيستطيع الوصول إليها بدون مقاومة: فالجيش الأمريكي لم يكن موجودًا بعد، ولما استطاعت السعودية الدفاع عن نفسها أكثر مما فعلت الكويت. وفي تلك الحالة، وبعد الاستيلاء على البترول، كانت الدول الأخرى ستضطر إلى التفاوض، وربما أيضًا تتنازل له عن الكويت مقابل تحرير السعودية*».

شيمون بيريز: صدام كان يعلم تماما أنه إن اقترب من السعودية، لرد الأمريكيون عليه فورًا وبعنف. لذلك لم يرغب في أخذ هذه المخاطرة. وبالعكس، لم يتصور أنهم سيخوضون حربا ضده من أجل تحرير الكويت.

بطرس بطرس غالي: هذا الخبير الاستراتيجي قدم تحليلاً، سياسيًا خاطئًا تمامًا، إذ قال: «*وبالتالي، فإن المسألة تخص الطريقة التي تصرف بها صدام أكثر مما تخص القضية الجوهرية. ولنتخيل زعيمًا عراقيًا آخر كان لديه نفس الهدف مثل الديكتاتور العراقي، ولكن أذكى منه، وبالأخص أكثر فهما للتاريخ، كيف كان سيتصرف في هذه الحالة؟ إنه لن يستخدم العنف العسكري، ولكنه كان سيحرض سرا على قيام ثورة في الكويت، حيث يستولي على السلطة أي جنرال يدعى أحمد، ويعلن الجمهورية في الكويت. في هذه الحالة، كان العراق سيعترف فورا بالنظام الجديد. وهنا سيبدأ في الأمم المتحدة جدل لا نهاية له، حيث ستقوم مشادة عنيفة بين المتحدث باسم النظام الجديد، «التقدمي»، بالطبع، والمتحدث باسم النظام القديم الذي سيعد مثل لسان حال العائلة المالكة الفرنسية «البوربون» بعد خلعها. بعد ثلاث سنوات، يوقع الجنرال أحمد وصدام حسين على اتفاق لإقامة فيدرالية بين العراق والكويت. ثم بعد ثلاث سنوات أخرى، يعلن العراق ضم الكويت إليه.. من يستطيع في هذه الحالة أن يعترض؟*» ثم قال الخبير في نهاية تصوره هذا: «*ولكننا بالطبع نتحدث هنا عن الخيال السياسي...*».

كما أتذكر حديثا جرى بيني وبين مسئول عراقي، قلت له إن الطريقة القاسية التي استولى بها صدام على الكويت، ذكّرت الغرب بالانشلوس[1] Anschluss. فنظر إليّ وسأل: «*ماذا يعني، هذا الانشلوس؟*»

---

(١) Anschluss هو غزو ألمانيا للنمسا في ١٥ مارس ١٩٣٨م وضمها إلى الرايخ الثالث. وهو الحدث الذي عدته الدول الأوروبية الأخرى تأكيدًا للنوايا التوسعية لألمانيا الهتلرية. (المراجع).

هـل تفهـم ماذا أعنـى عندما أتحـدث عن «تخلـف» هذه الأقاليـم؟ إنهـا لا تركب قطار التاريخ..

أندريه فيرساى: التحالف سينتصر بسرعة على العراق، ولكن فى النهاية ما الحلول التى توصلت إليها هذه الحرب؟

شـيمون بيريز: على المسـتوى العـام، هى لم تتوصـل إطلاقًا إلى أية حلـول. ولكنها لم تندلـع مـن أجـل إيجاد حلـول لأى شـىء. لقد حـدد الرئيـس بـوش بوضوح أهـداف هذه الحـرب، والتـى كانت فى نفس الوقت، هـى أهداف الأمم المتحدة: تحريـر الكويت. ومن اللحظـة التى تحـررت فيها الكويت، توقفت الحرب، كما قـال بطرس حالا، فلم يكن هناك أية نية للذهاب أبعد من ذلك ودخول بغداد. وإن أراد الأمريكيون، فى أثناء الحرب، تجاوز هذا الهدف، لسقط التحالف فورًا.

ومـع ذلـك، فإن مـن النواحى التى لا نسـتطيع تجاهلها فـى تلك الحـرب، كانت فرصة لمواجهة بين التكنولوجيا الحديثة والأسلحة التقليدية: إن كان الأمريكيون قد انتصروا على جيش صدام، وهى مسألة مهمة رغم كل شىء، فإن ذلك تم بفضل التكنولوجيا الحديثة.

أندريـه فيرسـاى: مارس ١٩٩١م، العـراق هزمت والكويت تحـررت. ومنظمة التحرير التى سـاندت المعسـكر الخاسـر، سـتجد نفسـها مرفوضة من البلاد الغربية والدول العربية التى شـاركت فى التحالف. ومن هذه اللحظة سـتحرم من المسـاندة السياسية والمالية التى كانت دول الخليج والسعودية يمنحونها لها حتى الآن.

بطرس بطرس غالى: هذه المعطيات الجديدة سـتضع منظمة التحرير أمام اختبار صعب وتضع الفلسـطينيين فى وضـع اقتصادى أصعب عندما تطرد الكويـت نحو ٣٠٠ ألف منهم إلى الأردن: ويفقد الفلسطينيون الأموال التى كانوا يبعثون بها إلى عائلاتهم، والتى كانت تمثل مبلغا سـنويا يصل إلى حوالى نصف مليار دولار. أما بالنسـبة لياسر عرفات، الذى أكد بشدة على مساندة صدام، فقد أصبح يعتبر *شخصًا غير مرغوب فيه* من قبل البلاد العربية الغنية.

شـيمون بيريـز: وفـى إسـرائيل، لم يعـد أحد، لا من اليسـار ولا مـن اليميـن، يتصور أن يتعامـل معـه. فلقـد فقدنـا الثقـة فيـه أكثر مـن ذى قبـل، ولـم نعـد نأخـذه مأخذ الجـد على الإطلاق.

بطـرس بطـرس غالى: ولكن ليـس فقط منظمة التحريـر التى وجدت نفسـها فى موقف صعب. الأردن واليمن، اللتان ساندتا سياسة صدام حسين، أيضا وجدتا أنفسهما فى موقف

مماثل، وهو ما سوف يخفف بشكل ما، العزلة التى فرضت على عرفات. بالإضافة إلى أن الرأى العام العربى فى مجمله، كان يؤيد العراق وقد احتاجت مختلف الحكومات العربية كل مهاراتها من أجل التصدى لهذه الاندفاعة الجماعية لصالح العراق.

أندريه فيرساى: هل قام العالم العربى إذن، بمناقشة وضع منظمة التحرير؟

بطرس بطرس غالى: لا، لم يحدث نقاش كثير بشأنه. فمن اللحظة التى تحقق فيها الانتصار، لم يفكر الحكام العرب إلا فى شىء واحد، وهو أن ينسوا هذه الحرب. ولنتفادى كل ما يمكن أن يذكرنا بهذا الحدث. ولم يدان أحد، لا حسين ولا اليمن ولا عرفات: «*لقد أخطأوا. وانتهى الأمر*».

أندريه فيرساى: هذا هو كل شىء؟

بطرس بطرس غالى: هذا هو كل شىء.

أندريه فيرساى: من أجل جذب سوريا إلى معسكره، تعهد الرئيس جورج بوش للأسد، بعد طرد صدام من الكويت، أن يعمل بنشاط من أجل حل الصراع الإسرائيلى - العربى ودفع الإسرائيليين إلى إعادة الجولان لهم. ولأنهم شعروا بقوتهم بعد انتصارهم فى الحرب ضد العراق وبعد أن أصبحوا القوة العظمى الوحيدة (إذ كانت الإمبراطورية السوفيتية لم تسقط بعد، إلا أنها فقدت قوتها) فإن الأمريكيين سوف يتمسكون بتعهداتهم ويعيدون مفاوضات السلام إلى جدول الأعمال. وبعد أن أفشلوا سياسة التشدد العربى، قام الأمريكيون بمساندة البلاد العربية المعتدلة والمجتمع الدولى، باكتساب مصداقية كافية لدى الدول العربية من أجل إقناعها بالتخلى عن سياسة الرفض التى تمسكت بها طيلة ٤٠ عامًا، وقبول الجلوس أخيرًا على نفس المائدة مع إسرائيل.

وبسرعة كبيرة بعد هزيمة صدام، فى ٦ مارس عام ١٩٩١م، ألقى جورج بوش خطابا فى الكونجرس، حيث أعرب عن رغبته فى «*وضع حد للصراع العربى - الإسرائيلى*». وستعمل واشنطن على تنظيم مؤتمر دولى جديد من أجل إيجاد تسوية للصراع. ولقد وافقت كل من سوريا والأردن ومصر على المبدأ.

ولكن، من ناحية إسرائيل، رفض إسحق شامير رئيس الوزراء كل تقدم. وفى وقت لاحق، وفى حديث للتليفزيون، قال شامير إنه لا ينوى «*الجلوس على مائدة واحدة مع أعضاء منظمة إرهابية*». وفى رد على الضغوط الأمريكية، سيذهب شامير إلى حد محاولة

دفع اللوبى اليهودى الأمريكى إلى التدخل. وتدهورت العلاقات بين الإدارتين إلى حد أنه كلما توجه جيمس بيكر إلى إسرائيل، كانت تنشأ مستوطنة جديدة...

شيمون بيريز: نعم. حتى لو كنت لا أومن أنها سياسة مقصودة، إلا أن الأمريكيين كانوا يعتبرون هذه المستوطنات الجديدة نوعا من الاستفزاز الذى لن يؤدى إلا إلى تسميم العلاقات بين البلدين.

أندريه فيرساى: من وجهة نظرنا، كان ذلك يذكرنا بالطريقة التى كانت الصين تتعامل بها معنا بعد أحداث تيانانمان فى عام ١٩٨٩م: فى كل مرة يتوجه وفد سياسى غربى ذو أهمية خاصة إلى بكين، تسارع السلطات الصينية باعتقال بعض المنشقين وتضعهم فى السجون.

شيمون بيريز: بالطبع لا! إننا لسنا منظمين بهذا الشكل العالى مثل الصينيين... فى الحقيقة، هذه المستوطنات كانت تقام بشكل مستمر وغير منظم، سواء جاء بيكر إلينا أم لا.

بطرس بطرس غالى: إن لم يكن الأمر يتعلق باستفزازات مقصودة، فإن المسألة أسوأ: فذلك يعنى أن المستوطنين يستطيعون أن يتحركوا بدون عقاب، وبدون أخذ سلطة الدولة فى الحسبان.

شيمون بيريز: إننى أتفق معك. لأن شامير كان يؤيد زيادة الاستيطان فى الضفة الغربية، فكانت هناك سياسة تشجيع إيجابى للمستوطنات، ولكن لم تكن هناك أية سياسة تعارضها. فى تلك الفترة، كان شارون وزير الإسكان، وكان مسئولا عن سياسة الاستيطان فى الأراضى، وقام بشكل حاسم بتغيير وجه الضفة الغربية: فى عام ١٩٩١م بدأ العمل فى ١٣ ألف وحدة سكنية جديدة، مقابل ٢٠ ألفا خلال الـ ٢٢ عاما السابقة.

أندريه فيرساى: بالنسبة للدول العربية، هذا الموقف الأمريكى الجديد كان انتصارا لا جدال فيه. ماذا كان رأى العواصم العربية فيه؟

بطرس بطرس غالى: دعنا لا نبالغ فى الموضوع. إنه ليس انتصارًا، حيث إن بناء المستوطنات استمر برغم الموقف الامريكى الجديد. هذا التزايد فى الاستيطان يقلق العواصم العربية التى تستشعر قوة اللوبى اليهودى فى الولايات المتحدة، ومن ناحية أخرى، عدم غياب الإرادة السياسية للولايات المتحدة إذ عدم قدرتها على أن تفرض سيطرتها على هذا الموقف.

أندريه فيرساى: سيقوم بيكر بعمليات مكوكية بين الإسرائيليين والزعماء الفلسطينيين فى الأراضى، من أجل إقناعهم بالاشتراك فى المؤتمر الذى سيعقد فى مدريد، ولكن فلسطينيى الداخل سيرفضون شجب منظمة التحرير، التى كان مقرها فى تونس - وهو شرط إلزامى وضعه شامير. بعد ١٢ أسبوعا من الرحلات المكوكية، بدا الموقف مجمدا تماما. وفى هذا الوقت توجه جيمس بيكر إلى الأسد، وقال له: «*إذا وافقت على مساندة هذه المبادرة فإن العالم كله سيقف بجانب سوريا ويلقى باللوم على إسرائيل*». ووافق الأسد. عاد بيكر إلى إسرائيل ليحاول إقناع شامير. وعلى كل رد كان شامير يطلق بناء مستوطنات يهودية جديدة - وهو ما دفع بيكر بغضب شديد إلى أن يندد علنيا بما اعتبره مناورة لتخريب عملية السلام. وكما يمكن أن نتوقع، اعترض فلسطينيو الداخل بشدة على سياسة الأمر الواقع هذه.

فى هذا الوقت، فى تونس، انعقد المجلس الوطنى الفلسطينى فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٩١م، لمناقشة فرصة بدء مفاوضات مع الإسرائيليين. واعترض بعنف عدد من الزعماء على المشاركة فى هذا المؤتمر. ولقد شرح جورج حبش زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، اعتراضه قائلاً:

«*سأل الوفد الفلسطينى بيكر*:

- *هل سنبحث حق العودة للاجئين؟ - لا!*
- *قيام دولة فلسطينية؟ - لا!*
- *حق تقرير المصير؟ - لا!*
- *هل ستشارك منظمة التحرير فى الوفد للدفاع عن قضيتنا؟ - لا!*».

فى الحقيقة، أراد الأمريكيون أن يتولى فلسطينيو الداخل القيادة ويحلوا محل منظمة التحرير. وأخيرا، نجح بيكر فى إقناع هؤلاء الفلسطينيين فى المشاركة فى المؤتمر.

بطرس بطرس غالى: خشى فلسطينيو الداخل من رؤية كافة الأراضى المحتلة يبتلعها المستوطنون. وخشوا أيضا أن يؤدى رفضهم المشاركة فى المؤتمر، إلى تهميشهم أكثر من ذلك. لذا فسوف يقنعون عرفات بالسماح لهم بالذهاب إلى مدريد. ولقد وافق فى النهاية.

شيمون بيريز: من جانبه، عزم شامير أيضا على حضور هذا المؤتمر: فلم يكن من الممكن أن يستمر فى مقاومة الضغوط، خاصة المالية، والتى كان الأمريكيون يفرضونها بشكل متزايد. ولكنه فرض شروطا: أن يشارك المحاورون الفلسطينيون فى المؤتمر ولكن

داخل وفد أردني- فلسطيني؛ يجب ألا تكون لهم صلة بأى أعمال إرهابية وأن يقبلوا لمدة خمس سنوات على الأقل، تجميد المطالبة بقيام دولة فلسطينية؛ وأخيرا ألا يرتبطوا، من قريب أو من بعيد، بمنظمة التحرير - وهو ما بدا بالطبع مسألة وهمية.

أندريه فيرساى: أخيرًا، فى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٩١م، افتتح المؤتمر الذى عرف بمؤتمر مدريد. وفيه شاركت كل من إسرائيل وسوريا ولبنان والأردن ولأول مرة وفد فلسطينى. ورأس المؤتمر بالمشاركة كل من جورج بوش وميخائيل جورباتشوف، واستمر حتى ٤ نوفمبر ١٩٩١م. وبرغم اعتراض شامير على عقد المؤتمر، وبدلا من الاكتفاء بإرسال وفد، قرر الاشتراك فيه بنفسه. من الواضح أنه فعل ذلك سعيًا لتخريب المؤتمر: وهكذا، خلال المؤتمر، أطلق من منصته، تصريحاته النارية يعدد فيها التجاوزات التى ارتكبتها السلطات السورية، وفى النهاية يقول: «*أستطيع الاستمرار فى سرد الأفعال التى توضح إلى أى حد تستحق سوريا الشرف المشين لتكون أحد الأنظمة الأكثر قمعًا والأكثر استبدادًا فى العالم*». الرد السورى لن يتأخر. فى اليوم التالى، فاروق الشرع، وزير الخارجية السورية، أبرز وثيقة بريطانية قديمة تحمل صورة شامير، وأعلن: « *ها هى صورة قديمة لشامير وهو شاب. تقول المعلومات، إنها وزعت فى أوروبا فى ذلك الوقت، وهذه الصورة وزعت لأنه مطلوب للعدالة... لأنه متواطئ فى اغتيال وسيط الأمم المتحدة الكونت برنادونت فى عام ١٩٤٨م*».

مناخ مؤتمر غريب، الذى حاول الإسرائيليون إفشاله، وأدانته حماس بشدة ووصفته بأنه «استسلام» وامتنعت منظمة التحرير عن مساندته، وهو ما جعل، حنان عشراوى المتحدثة الرسمية الفلسطينية تقول بعد المؤتمر: «*فى حالة الفشل، منظمة التحرير لن تتلطخ، وفى حالة النجاح سيكون لدينا دائما الوقت لأن نشرح كيف أن منظمة التحرير كانت وراء كل هذا*».

بطرس بطرس غالى: بالفعل، جرى المؤتمر فى مناخ معادٍ. كل طرف دافع عن قضيته ووجه الاتهامات ضد الخصم. وصحافة البلاد العربية نقلت أساسا الاتهامات التى وجهتها الوفود العربية.

قد يكون الفائزون الوحيدون هم الفلسطينيون، لأنه لأول مرة، كان لديهم الفرصة لتمثيل أنفسهم فى مؤتمر دولى، بشكل يكاد يكون مستقلاً.

وذكرتنى اللقاءات الثنائية التى جرت فى مختلف العواصم بعد المؤتمر، بالمفاوضات التى أجريناها مع الإسرائيليين حول الحكم الذاتى لفلسطين، وحيث لم يكن لهؤلاء أية نية

للتفاوض حول أى حكم ذاتى يكون: فلقد كان هدفهم كسب وقت لكى يرضوا الأمريكيين. أمـا مـا كان فـى مدريد، فى حدود ما أتذكر، فقد أعلن شـامير فيما بعـد للصحافة أنه لم يكن لديه أبدا أية نية فى دفع هذه المفاوضات للتقدم.

أندريـه فيرسـاى: مهمـا كان الأمر، مدريد أدت إلى لا شـىء، باسـتثناء التـزام الأطراف بمواصلة المباحثات فى واشنطن.

شـيمون بيريـز: بالفعـل، كان المؤتمر «بـلا نتيجة». كنا نسـبح فى العبث. رفض شـامير مشـاركة منظمـة التحريـر بينمـا فـى الواقـع اختـارت القيـادات فـى تونـس أعضـاء الوفـد الفلسـطينى، إلى حد أن رئيس الوفد كان الدكتور حيدر عبد الشـافى، أحد مؤسسـى منظمة التحريـر وأحد المشـاركين فـى صياغة ميثاقهـا.. وهكذا، مـن الجانب الفلسـطينى، هؤلاء الذيـن فرضـوا آراءهم لم يشـاركوا فـى النقاش، بينما هؤلاء الذين شـاركوا فيـه كانوا مجرد صـوت الغائبيـن... أى طريقـة هذه لإنـكار الواقع! لـو لم يرفـض الليكود اتفـاق لندن عام ١٩٨٧م، لـكان وفـر علـى نفسـه مؤتمرا لـم يكن يريـده، ولما وجد نفسـه وجهـا لوجه مع الدكتور حيدر عبد الشافى.

بطـرس بطـرس غالى: لقد كان هـذا المؤتمر مهمًا، رغم كل شـىء، حيث إنه لأول مرة، طرحت المسـألة الوطنية الفلسطينية بوضوح على جدول الأعمال. فخلال مدة طويلة، بقى الصراع الإسـرائيلى - الفلسـطينى صراعـا لا يهم أحدًا، «صراع يتيـم». لذلك أعطت رعاية زعيمى القوتين العظميين للمؤتمر، إلى القضية الفلسطينية كل أهميتها أخيرًا.

أندريـه فيرسـاى: فشـل المؤتمـر، ألا يعـود ذلك أساسًـا إلى الوفـد الإسـرائيلى؟ لدينا الانطباع بأن شامير قام بكل شىء من أجل تخريبه.

شـيمون بيريـز: يجـب أن أقـول إننـى شـخصيًا لـم أومـن بهـذا المؤتمـر. إنـك تديـن الإسـرائيليين، وأنت على حق: كان شـامير رجلاً متزمتًا، متطرفًـا، منغلقًا. ولكن ماذا يمكن أن ننتظر من شامير؟ لقد كان صادقًا مع نفسه. لم يكن لديه أية سياسة أخرى بجانب الجمود المتشـدد. ورغم ذلك، فإن فشـل هـذا المؤتمر يجب أن يعـود أيضًا إلـى الأمريكيين الذين أنفقوا طاقة كبيرة فى تنظيمه، ولكن بجهد أقل لكى يتوصلوا فيه إلى نتائج ملموسة.

بطـرس بطرس غالى: فى هذه الفترة، كنـت فى ذروة الحملة الانتخابية من أجل انتخابى فـى منصب سـكرتير عـام منظمة الأمم المتحـدة، ولذلك لـم أتابع هذا المؤتمـر عن كثب.

ولكنى أشاركك الرأى: أعتقد أيضًا أن الأمريكيين حشدوا كل طاقتهم من أجل تنظيمه، ثم أبدوا نشاطًا أقل فى متابعته. لقد كان إلى حد ما، مسرحية سياسية.

أندريه فيرساى: فى يونية عام ١٩٩٢م، جرت انتخابات تشريعية جديدة فى إسرائيل. هذه المرة، وبعد ١٥ عاما من سيطرة الليكود على الحياة السياسية، فاز العمل. فاز المرشح اسحق رابين بأغلبية الأصوات بعد أن تعهد بإعادة إطلاق مفاوضات السلام. وأصبح رئيس وزراء ووزير دفاع، بينما أنت، شيمون بيريز، حصلت على وزارة الخارجية. حل رابين مكان شامير، الصقر المتصلب، ولكن هذا الجندى السابق ليس رقيقًا، فقد حارب، فى زمنه، الفلسطينيين بحزم كبير.

بطرس بطرس غالى: هذا أقل ما يقال! كان يطلق عليه «*السيد أمن*». وأتذكر أيضًا الصيغة التى استخدمها فيما بعد، خلال الاستعداد لاتفاقيات أوسلو: «*محاربة الإرهاب كما لو لم يكن هناك عملية سلام ومواصلة عملية السلام كما لو يكن هناك إرهاب*».

ولكن مرة أخرى، بالنسبة للأغلبية الساحقة من الرأى العام العربى، لم يكن هناك اختلاف جوهرى بين الليكود والعمل، حيث إن هاتين الكتلتين السياسيتين طالما عارضتا مشاركة منظمة التحرير فى عملية السلام، كما عارضتا إقامة دولة فلسطينية.

أندريه فيرساى: شيمون بيريز، ليس سرًا لأى شخص، أن علاقاتك مع رابين كانت أغلب الأوقات عاصفة، وأكثر من مرة كنتما فى منافسة شرسة. ورغم ذلك، جرى بينكما تعاون حقيقى.

شيمون بيريز: قبل انتخابات عام ١٩٩٢م بوقت قصير، ذهبت لأرى رابين فى بيته لبحث علاقتنا داخل حكومة مستقبلية فى حالة فوزنا فى الانتخابات. قلت له: «*اسحق، إننا الاثنان نبلغ من العمر ٧٠ عاما تقريبا، ومنذ سنوات نتصرف كمتنافسين. ألا تعتقد أن الوقت أزف لكى نغير معاملتنا لنعمل فى مناخ حقيقى من التعاون من أجل أن نحاول إهداء السلام إلى بلادنا؟ لو أننا عملنا معا حقيقة فسوف نستطيع اتخاذ قرارات صعبة، ولكن أساسية فى إقامة السلام وسنجنب أطفالنا مواصلة هذه الحرب التى ليس لأحد مصلحة فيها*». وافق رابين، وهكذا، بعد الانتخابات، فى أثناء تشكيل حكومته، أعطانى وزارة الخارجية.

بطرس بطرس غالى: إن النظرة العربية مختلفة. لقد قام رابين بتعيينك وزيرًا للخارجية على مضض، ورغم مجهوداتكما المتبادلة، ظلت علاقاتكما صعبة. ولقد سعت السياسة العربية لاستغلال ذلك.

أندريه فيرساي: تغيير سياسي في القدس، وبعدها بقليل سيجرى تغيير سياسي في واشنطن. فبعد أشهر قليلة، في ٣ نوفمبر، فاز بيل كلينتون الديمقراطي، وفي يناير عام ١٩٩٣م، خلف جورج بوش في رئاسة الولايات المتحدة.

بطرس بطرس غالي: كانت خيبة الأمل كبيرة في العالم العربي، لأننا كنا نأمل في إعادة انتخاب بوش الذي نعرفه جيدًا بسبب أزمة وحرب العراق. كما أننا كنا نقدر وزير الخارجية جيمس بيكر، الذي لم يتردد في معارضة شامير. وكانت خيبة أملنا أكبر عندما ترك كلينتون الانطباع بأنه يسعى لأن يركز على السياسة الداخلية، وأن ينشغل أقل بالعلاقات الخارجية. في بداية فترة رئاسته الأولى ظهر هذا التغيير في السياسة واضحا: وهكذا، بعد انتخابه مباشرة، لم يستقبلني كلينتون (كنت في هذا الوقت سكرتير عام الأمم المتحدة)، بينما كان قد دعاني الرئيس بوش للغداء في البيت الأبيض. ولم أكن على اتصال إلا مع وزير الخارجية وارن كريستوفر، ومادلين أولبرايت، المندوبة الدائمة للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة. لذا، فقد كنا مقتنعين، من الجانب العربي، أننا بصدد مرحلة جديدة من الجمود، وأن مشكلة الشرق الأوسط سوف تتراجع إلى مرتبة ثانوية.

شيمون بيريز: بالعكس، من الجانب الإسرائيلي، كنا نشعر بالتعاطف إزاء كلينتون. فالشعب الذي لم يحتفظ بذكرى طيبة لبوش بسبب الخلافات بين إدارته وحكومتنا، رأى أن كلينتون سوف يكون أقرب إلينا.

أندريه فيرساي: رغم عدم اهتمام كلينتون بالقضايا الدولية، كما قلت عنه، بطرس بطرس غالي، فإنه بالعكس، سوف يعطي دفعة قوية للإسراع بمسار المفاوضات. وسيكون أول رئيس للولايات المتحدة يتدخل في الصراع العربي الإسرائيلي إلى هذا الحد، منذ كارتر. ففي رأيكما، لماذا؟

شيمون بيريز: أعتقد أنه، مثل العديد من الزعماء الآخرين، شعر بجاذبية، بل بانبهار، بهذا الصراع التاريخي الفريد من نوعه، ولابد أنه فكر، وبحق، أن الوقت مواتٍ لانطلاقة قوية لعملية السلام.

بطرس بطرس غالي: نعم، ثم هناك أيضا ناخبوه الذين كانوا دائما منشغلين بهذا الصراع. لذلك، ولكي نواجه حقيقة الأشياء بلا مواربة: لن يتدخل كلينتون حقيقة في هذه القضية إلا مع نهاية فترة رئاسته الثانية، وذلك بالطبع سيكون متأخرًا جدًّا.

* * *

١٧- أوسلو: أول مرحلة للسلام الإسرائيلى/الفلسطينى

كانت اللحظة مواتية لحدوث تقدم - إسرائيل، سبب الأصولية العربية؟ - مباحثات سرية فى أوسلو - غزة و«شىء ما أولا» - «التفاوض ليس المساومة، إنه الابتكار معا» - مصافحة «غير محتملة» - فزعون من التنازلات - خيانة! - إطلاق ديناميكية جديدة - «دافوس» فى خدمة الشرق الأوسط - ترجمة الاتفاقيات فى الحال - الأمن أولا! - «خمسمائة دولار شهريا، وتتغير المعطيات فى الشرق الأوسط» - مذبحة للفلسطينيين فى الخليل - عرفات يصل إلى غزة - الانتحاريون يستأنفون الخدمة - عرفات فى مواجهة حماس والجهاد - «رئيس الوزراء انتخبه العرب» - «إننا نثق فى جهاز أمننا» - جنازة دولية.

أندريه فيرساى: لنعد إلى المفاوضات السرية التى سوف تجرى فى أوسلو عام ١٩٩٣م، بينما كانت المباحثات الإسرائيلية - العربية التى بدأت فى مدريد، مستمرة فى واشنطن.

شيمون بيريز: يجب أن نبدأ بالقول إن هذه المباحثات كانت بالكاد تتقدم، إلى حد أننا، عندما حصلنا على سلسلة من التقارير التى طمست التواريخ من عليها، كان من المستحيل علينا أن نعيد ترتيبها بالتسلسل التاريخى! وذلك لأوضح لك إلى أى حد كانت المفاوضات فى واشنطن تتعثر. فمن ناحية بقى السوريون متشددين؛ ومن ناحية أخرى، طرفى الوفد الأردنى- الفلسطينى لم يسيرا معا، وهو ما لم يكن غريبا حيث إن مصالح كل جانب مختلفة؛ وأخيرًا، كانت الوفود تعقد مؤتمرات صحفية عقب كل جلسة. إننا عندما نتفاوض، لا نعقد مؤتمرات صحفية، وإلا كنا كمن يتفاوض مع الصحافة. يجب أن تبقى المفاوضات سرية إن أريد لها أن تكون فعالة، وإلا وجد المفاوضون أنفسهم وقد أعاقهم الانتقادات المتواصلة التى توجهها قواعدهم، والصحافة التى ستقضى وقتها فى قصفهم بالأسئلة.

أندريه فيرساي: منذ عام ١٩٨٧م، كما قلنا، صدر قانون إسرائيلي يمنع أي اتصال مع منظمة التحرير. ورغم ذلك، ستجرى مرة أخرى الاتصالات بين الإسرائيليين والفلسطينيين بمنظمة التحرير. إنها لن تكون المرة الأولى، ولكن هذه المرة سوف ينتج عن هذه الاتصالات تقدما ملحوظا.

شيمون بيريز: بالفعل، في بداية عام ١٩٩٣م، عقد اثنان من أساتذة الجامعة الإسرائيليين، يائير هيرشفيلد ورون بونداك، مباحثات سرية في أوسلو مع مساعدين مقربين من ياسر عرفات، منهم أبو علاء (أحمد قريع)، «وزير المالية» بمنظمة التحرير. هذه المباحثات باتت ممكنة بفضل تيرج رود لارسون، خبير نرويجي في العلوم الاجتماعية ومدير المعهد النرويجي للعلوم الاجتماعية التطبيقية (Fafo). كان لارسون في ذلك الوقت، يقوم ببحوث حول الحياة اليومية الفلسطينية في الأراضي المحتلة. ولأنه كان مهتما جدا بالصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، اقترح لارسون تقديم مساعيه الحميدة إلى الطرفين. وهكذا سيقوم بتنظيم أول لقاءات سرية وغير رسمية بين اثنين من الإسرائيليين وثلاثة رجال من المنظمة أبو علاء وحسن عصفور وماهر الكرد. ولأن هذه اللقاءات يجب أن تظل سرية، منح لارسن الأستاذين «تغطية علمية».

يجب القول إنه في البداية، لم أكن مقتنعا أبدا بهذه المبادرة، حتى وإن كنت قد توصلت إلى نتيجة، بعد فشل المباحثات مع الملك حسين في لندن، إلى أن السلام لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال مباحثات مباشرة مع منظمة التحرير. على أية حال، لقد كانت اللحظة مواتية لتحقيق تقدم: انهار الاتحاد السوفيتي الذي كان يدافع دائما عن النظم العربية المتطرفة، ثم أظهر مؤتمر مدريد، حتى وإن لم يحقق شيئا، أن العرب يمكنهم أن يشرعوا في عملية مفاوضات معنا - على الأقل لتحقيق سلام بارد- (لقد فهم العديد من الحكومات العربية أن الأصولية أخطر كثيرا على استقرار المنطقة وعلى نظمهم نفسها، من إسرائيل، إلى حد أن البعض بدأ يعتبرنا كشريك محتمل)؛ وأخيرا، من الجانب الفلسطيني بدأت الانتفاضة التي لم تؤد إلى أية فوائد سياسية أو اقتصادية، تخمد، بينما وجدت منظمة التحرير نفسها وقد أصابها الضعف الشديد، كما رأينا، بعد التأييد الصاخب الذي قدمه عرفات إلى صدام حسين: فكان على زعمائها أن يدركوا أن سياستهم لم تقدهم إلى شيء، وأنه يجب التفكير جديا في مراجعتها، مهما كان ذلك مؤلمًا.

إذن ستتواصل اللقاءات، وبسرعة سيبلغنا الباحثان الإسرائيليان أن أبا علاء أبدى انفتاحًا خاصًا، أكثر بكثير من المفاوضين الفلسطينيين في واشنطن. وعرفنا أيضا أن في تونس،

أبـا مازن، عضو اللجنـة التنفيذية بمنظمة التحرير، والذى كان أبو عـلاء يقدم له التقارير، قد أبلغه بألا يقطع الاتصال: «*هناك بكل تأكيد شىء ما وراء كل ذلك*».

سـألنا الكثيـرون حول معنى هذا الانفتـاح، ولقد توصلنا إلى نتيجة مؤداهـا أنه إذا كانت مفاوضـات واشـنطن توحى بأنها قد تسـتمر إلى الأبد، فإن فى أوسـلو (حيـث كانت منظمة التحريـر هـى حقا التى تعبر عن نفسـها) هنـاك احتمالات للتوصل إلى طـرق لإيجاد حلول وسط.

بعـد أن تأكدت أن هذه المباحثات كانت جادة بدرجة كافية تسـمح لنا بمحاولة الذهاب إلـى أبعـد من ذلـك، قررت أن أبلغ رابين الـذى لم يكن على علم بوجـود هذه الاتصالات. واقترحـت عليـه أن يبـدأ اتصالات حقيقية فى أوسـلو (ولكن تظل سـرية)، وبدون أن يقطع المباحثات الرسمية التى تجرى فى واشنطن.

فى البداية، لم يصدق رابين نجاحها، ولكن بما أن المباحثات سرية، ولذا يمكن أن يتنكر لها فى أى وقت، أعطانى حرية التصرف. وهكذا تواصلت المباحثات.

بطرس بطرس غالى: أريد أن أدلى بملاحظة. عندما قلت إن عددًا من الحكومات العربية بـدأت تفهم أن الأصولية أكثر خطورة على الاسـتقرار فى المنطقة من إسـرائيل، إلى حد أن البعض بدأ حتى ينظر إليها كشـريك محتمل. أنت واهم بشـكل كبير. أولا لأن الدول العربية تعتبر الدولة الإسـرائيلية ـ وسياسـتها ـ هى إحدى أسـباب الأصولية. ثانيـا لأنه مهما قلت فهم مقتنعون بأن الأصوليين الفلسـطينيين تلقوا تشـجيعا من الحكومة الإسـرائيلية من أجل معارضة منظمة التحرير.

شـيمون بيريز: الأصوليون هم أساسًـا ضـد «الكفار»: فى وقت لاحق سنسـمع بن لادن يدعو المسـلمين إلى محاربة كل الكفار الذين شـاركوا فى الحرب الصليبية. هكذا دعا إلى الحرب المقدسـة ضد الأمريكيين وضد اليهود، الذين لم يشـاركوا، حسـب معلوماتى، فى الحـروب الصليبيـة. فى الحقيقة، مـا يحاربه الأصوليون هو فى المقـام الأول، الحداثة التى يعتبرونها خطرا على الإسلام.

إن المتطرفين يحاربون ليس فقط الغربيين ولكن أيضًا العرب «العلمانيين». أنت ذكرت مـن قبل، الصراع بين ناصر والإخوان المسـلمين فى مصـر. ويمكن أيضًا ذكر التعارض بين أحزاب البعث فى سوريا والعراق وبين الدينيين. هذه المواجهات كانت ولازالت قوية جدًا. فـى هـذا الصدد، الجميع يعلم أن الإسـلام ليس دينا ذا رؤية وحيدة. إنـه موضع جدل دائم،

وهذا الجدل ليس دائما سلميا. لذلك فلا أشاركك مطلقًا الرأى الذى يقول إن الإسرائيليين هم السبب فى انتشار الأصولية. إنها على أقصى تقدير، مجرد مبرر.

بطرس بطرس غالى: إسرائيل ليست بالطبع السبب الوحيد لتطور الأصولية، ولكنها بالتأكيد هى التى تؤججها أكثر. أنت لا تريد أن تفهم إلى أى حد إسرائيل التى تحتل فلسطين، وبالأخص القدس، ثالث الأماكن المقدسة فى الإسلام، وأكرر، إلى أى حد تتسلط هذه الفكرة فى الخيال العربى. إسرائيل تعبئ الحقد العربى وتخصب الأصولية.

شيمون بيريز: إن كان الاحتلال حقيقة جرحا متسلطا، لكان الرفض العربى بدأ فى عام ١٩٦٧م. بيد أنه بدأ قبل حتى إنشاء الدولة اليهودية. أما بالنسبة لاحتلال الأراضى الفلسطينية، فقد كانت تحت الاحتلال المصرى والأردنى خلال نحو عشرين عامًا، قبل أن نحتلها نحن بدورنا.

بطرس بطرس غالى: سوف أتفق معك، الأصولية بدأت فى مصر مع تكوين الإخوان المسلمين فى فترة ما بين الحربين. ولكنها تغذت وقويت وتأججت مع إنشاء دولة إسرائيل.

أندريه فيرساى: أقترح عليكما أن تعودا إلى أوسلو: فى واشنطن، تفاوضتم مع الفلسطينيين، ولكن أيضًا مع السوريين والأردنيين. فى أوسلو، لم يكن هناك شريك فى المفاوضات إلا الفلسطينيين.

شيمون بيريز: هذا حقيقى، ولكن، كما قلت لك، ظلت مفاوضات واشنطن فى طريق مسدود: لقد أبدى السوريون عدم مرونة وبدا واضحًا أن الأردنيين لن يتقدموا نحونا إلا إذا سبقهم الفلسطينيون. لذلك ظهر أن الفلسطينيين هم مفتاح العملية. ومع ذلك، حاول الأمريكيون من جانبهم بدء عملية مفاوضات مع دمشق. ولقد أراد ايهود باراك، رئيس الأركان فى ذلك الوقت، أن يبدأ هو أيضًا بالحصول على سلام مع سوريا. كان ذلك سينهى احتمال حرب جديدة ويضعف الفلسطينيين. ولكن إن أعدنا الجولان، هل كانت دمشق توافق على تطبيع العلاقات مع إسرائيل؟ ذهب وارين كريستوفر لرؤية الأسد، الذى بدا حذرا بشكل خاص، وطلب تحديد آلاف النقاط. ولشعور رابين بالتشكك، تخلى عن الأولوية السورية وطلب منى أن أتولى مسألة الإسراع فى المباحثات مع منظمة التحرير.

فكرت أن أذهب بنفسى إلى أوسلو من أجل استطلاع موقف المفاوضين الفلسطينيين الثلاثة من منظمة التحرير، ولكن رابين وجد أنه سابق لأوانه أن يتحدث وزير مع منظمة التحرير. وتصور أنه من الأفضل أن يتوجه إلى أوسلو موظف كبير.

فبعثنا إذن يورى سافير سكرتير عام فى وزارة الخارجية فى ذلك الوقت، بدون أن يرافقه أى عضو من الحكومة. يورى سيكون رئيس وفدنا وهو الذى سيقوم فيما بعد ببدء المفاوضات. كان علينا الاستفسار من الفلسطينيين، وفى نفس الوقت أن نكون واضحين حول موقفنا: القدس ستظل خارج اتفاق بالحكم الذاتى، ونحن سوف نرفض كل تحكيم دولى (لقد حان الوقت لكى نتعلم حل خلافاتنا فيما بيننا).

لقد أردنا أن يفهم الفلسطينيون أن الاحتفاظ بالأراضى تحت الاحتلال فرض علينا كضرورة نتيجة لرفض العرب عام ١٩٦٧م («*اللاءات*» الثلاثة فى الخرطوم)؛ وإننا نبحث عن الوسيلة لنخلص أنفسنا معا من هذا الوضع المسمم؛ ولكننا لن نستطيع التقدم فى هذا الاتجاه إلا بشرط أن نضمن أمننا.

كان مبدأنا قبل كل شىء هو التركيز على المواضيع التى تتلاقى فيها مصالحنا، وتأجيل إلى وقت لاحق أكثر القضايا الشائكة.

اتفقت الوفود على إعلان مبادئ أولى. ولكن ظل رابين متشككا. فى هذا الوقت أرسلنا على عجل يوئيل سانجير، محامينا المتخصص فى المسائل الدولية والذى يستمع له رابين. علم سانجير بالخطوط الأولى ووجد أنها مبهمة، سيئة التصميم وغير منسجمة. يجب القول إن يوئيل كان صارمًا جدًّا. فبالنسبة له، كان يجب أن نبدأ من الصفر. وهو ما أدى إلى برودة الأجواء بين الوفدين. فقال له هيرشفيلد فى هذا الوقت: «*ولكن فى النهاية، ألا ترى أن أهم نتيجة فى هذا الإعلان الأول هو أن الفلسطينيين قبلوا مبدأ التقدم، وهو ما سمح لنا بالاحتفاظ بالسيطرة على العملية؟*» كان ذلك صحيحًا. ولكنه لا يمنع أنه كان مهمّا إعادة النظر فى هذا البروتوكول الأول بجدية، وهكذا عاد الوفدان إلى العمل.

أندريه فيرساى: فى واشنطن، ألم يشك المفاوضون بما كان يحاك فى أوسلو؟

شيمون بيريز: لا، إلى حد أنه من أجل الاحتفاظ بسرية أوسلو، اضطر عرفات، الذى كان يتابع المباحثات عن قرب، إلى إحياء مفاوضات واشنطن، التى كانت وصلت نقطة الصفر. فدعا المفاوضين: حنان عشراوى وصائب عريقات، لمعاودة النقاش، برغم تحفظهما القوى.

أندريه فيرساى: وفى العالم العربى، ألم يشك أحد فى أى شىء أيًّا كان؟

بطرس بطرس غالى: بلى، ترددت شائعات، ولكن ذلك لم يكن يعنى شيئا: فقد عُقدت العديد من المقابلات السرية منذ سنوات، لدرجة أنها لم تعد تثير الاهتمام. من جهة أخرى أشارت صحيفة *النهار* التى يملكها صديقى غسان توينى، فى مايو إلى وجود مفاوضات سرية مع منظمة التحرير، وفى منتصف يولية، أشارت صحيفة هاآرتس الإسرائيلية، أيضًا، إلى أن مفاوضات سرية تجرى مع منظمة التحرير. ولكن لم يهتم أحد بالموضوع، لأننا كنا جميعًا مقتنعين أنها لن تؤدى إلى نتيجة.

شيمون بيريز: فى الحقيقة، لم يعرف أحد شيئا كثيرا. فقد حرصنا، أنا واسحق رابين، على ألا تخرج كلمة واحدة، حتى نستطيع أن نناقش بحرية وليس تحت ضغط الصحافة، أو العالم السياسى أو الشارع. فلم يعلم أحد، ليس فقط فى الحكومة ولكن أيضًا فى جهاز المخابرات، أى الموساد نفسه كان يجهل تماما ما يجرى. وكذلك أجهزة المخابرات العربية والبوليس السرى النرويجى. كنا جميعا مدركين أهمية السرية من أجل الحفاظ على مناخ من الثقة المتبادلة بين فريقى المفاوضات.

وحتى يتأكدوا من أن إدارة منظمة التحرير تتابع وفدها فى أوسلو جيدًا، توجه كل من يوهان يورجين هولست وزير الخارجية النرويجى وتيرج لارسون، إلى تونس لمقابلة ياسر عرفات. ولكنه رفع المزايدات: فقد طلب بناء طريق يربط غزة بأريحا وضواحيها؛ وطالب بالإضافة إلى ذلك أن يتم طرح قضية القدس على المائدة. هذا التشدد فى موقف عرفات أثار الاضطراب، حتى بين فريقه هو.

وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، وبعد مناقشات عاصفة بين الوفدين، قرر أبو علاء الانسحاب من المفاوضات وترك المائدة. فذهب يورى سافير إليه فى حجرته، وقال له: « *اسمع، إننا لم نتوصل إلى الاتفاق على شىء صغير. فهل ممكن أن نتفق على شىء كبير؟ - ماذا تريد أن تقول؟ - هل نستطيع أن نتفق على إعلان اعتراف متبادل بين منظمة التحرير وإسرائيل، مصحوبًا بسلسلة من الشروط؟* ».

كان الاقتراح يعنى عبور مرحلة كبرى مرة واحدة، بالنسبة لهم وأيضا بالنسبة لنا. وافق أبو علاء على المبدأ، واستؤنفت المفاوضات.

أندريه فيرساى: الاعتراف بإسرائيل، ماذا يعنى ذلك فعلا بالنسبة للإسرائيليين؟

شيمون بيريز: بالنسبة لإسرائيل، من المهم أن تعترف منظمة التحرير علنيا وبصراحة بحق إسرائيل فى الوجود داخل حدود آمنة ومعترف بها وفى سلام (أى أن تلغى من ميثاقها الفقرات التى تدعو مباشرة أو غير مباشرة إلى تدمير إسرائيل)؛ وأن تقبل القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ لمجلس الأمن بالأمم المتحدة كأساس للمفاوضات؛ وليس فقط أن تتخلى علنيا عن استخدام الإرهاب، ولكن أن تلتزم بمحاربته؛ وأخيرا أن تلتزم بحل المشاكل التى يمكن أن تنتج من المفاوضات السياسية فى المستقبل بدون أن تلجأ إلى العنف. بهذه الشروط يمكننا أن نعترف بمنظمة التحرير كممثل شرعى للشعب الفلسطينى.

بعد أن اقترحنا ذلك، شعرنا أن الماضى ينوء بثقله أكثر من المستقبل. كانت الشكوك تشلنا، نحن وهم، وتسيطر علينا عشرات السنوات من المعاناة. فمنذ زمن طويل، لم نتوقف عن قصف الآخر بكل الظلم والجرائم التى كان يكبدنا إياها. لقد كان من الصعب أن نتغلب على خمسين عامًا من الضغائن التى كانت أحيانا كثيرة مبررة، حيث إن كل طرف كان يرفض أن يعيش الآخر على الأرض التى كان يرى أنها أرضه وحده. ورغم ذلك، حتى ولو عبر هذا الرفض المزدوج عن نفسه فى أرواح إنسانية مهدرة وفى معاناة لا تحتمل، إلا أننا مضطرون إلى تجاوز هذا الشعور والنظر نحو المستقبل، فى محاولة لبناء شىء ما يكون منصفا.

أندريه فيرساى: فى المرحلة الأولى من المفاوضات، كانت إحدى المقترحات الأساسية فى أوسلو هى البدء بمنح الفلسطينيين حكما ذاتيا على قطاع غزة. إنها فكرة «*غزة أولاً*».

شيمون بيريز: نعم، وهى النقطة التى دافعت عنها شخصيا منذ وقت طويل، على الأقل كتجربة رائدة. لم يكن ممكنًا أن نقترح مرة واحدة الحكم الذاتى على أراضى يهودا والسامره، لأننا لو فعلنا ذلك ما استطعنا الحصول على مساندة أغلبية الرأى العام الإسرائيلى. لذلك فكرنا أن الأمر سيكون أسهل لو بدأنا باتفاق أولى حول غزة. فقد كانت غزة منطقة أقل حساسية من الضفة الغربية، وكانت تضم فى تلك الفترة ما بين ٥ إلى ٦ آلاف مستوطن (مقابل ٨٠٠٠ فى عام ٢٠٠٥م). لم تكن إذن مشكلة إنسانية لا يمكن تجاوزها.

بطرس بطرس غالى: وكانت إسرائيل ستكسب كل شىء منها. أذكر كلمات موشيه دايان لى فى أثناء مفاوضات كامب ديفيد: «*غزة عبارة عن مستودع بارود على وشك الانفجار. إذا كان الأمر يتوقف علىّ وحدى، لكنت أعدت لكم غزة*». ثم أضاف بنبرة ساخرة: «*وستكونون أول من يندم على ذلك*».

شيمون بيريز: يجب أن نعترف حقا بأن الوضع فى قطاع غزة كان غير محتمل. فى عام ١٩٧٤م، عندما أصبحت وزيرًا، كان فيها نحو ٣٥٠ ألف فلسطينى على مساحة تبلغ ٣٦٠ كيلومترا مربعا. اليوم، هناك أكثر من مليون نسمة. إن الكثافة السكانية تمثل جزءا من الأسباب التى تؤدى إلى البؤس، ثم الإرهاب. إنه وضع لا يطاق ولقد ساهمنا فى تفاقمه عندما سلبنا من الغزاويين ما بين ٤٠ إلى ٥٠ كيلومترا مربعا من الأراضى التى أعطيناها إلى المستوطنين. أما سكان غزة الذين بقوا داخل هذه المنطقة الصغيرة من الأراضى، فهم فى سبيلهم إلى أن يتضاعفوا كل ١٢ عاما. لقد بات واضحًا أنه إن لم ننسحب من غزة، هذا الوضع المتفجر الذى خلقناه سوف ينفجر فى وجهنا.

ومع ذلك، بدا لنا واضحا بسرعة أنه لو احتلت غزة كل المفاوضات، لشك الفلسطينيون بالتأكيد أننا لا نريد أن نعيد لهم إلا تلك الأرض التى يصعب إدارتها، مهد الانتفاضة. وكانوا سيخشون من أن «*غزة أولا*» ما هى إلا «*غزة فقط*». ولكى نصل إلى خيار «*غزة أولا*»، كان يجب أن تتحول إلى «*غزة و«شىء ما» أولا*». وأخيرا، توصلنا إلى الأسس الأولى للنقاش حول خيار «*غزة واريحا أولا*»، كما طلبت منظمة التحرير. وكما أن أريحا تقع فى الضفة الغربية، فقد أقيمت الدولة الفلسطينية فى نفس الوقت على المنطقتين.

كان المهم هو أن تطلب منظمة التحرير هذا الخيار، لأن التجربة، كما قلت لك، علمتنى أن المقترحات التى تقدم تلقائيا، يرفضها فى أحيان كثيرة الطرف الآخر، الذى يظل دائما حذرا. كما أن موافقتنا على إعادتهم هذه المدينة فى يهودا، يمكن أن تعتبر بالنسبة لهم كانتصار أولى.

وافقت على هذا الاقتراح بسرور، خاصة أنه لم يكن هناك مستوطنات فى منطقة أريحا، وأن هذه المدينة لم تكن قريبة جدا من القدس، وهو ما خفض مشاكل الأمن، وبالتالى طمئن مخاوف عدد لا بأس به من الإسرائيليين.

وهكذا، حصل الفلسطينيون فى أوسلو على الاعتراف بمنظمة التحرير وعلى أراضى غزة وأريحا. كنت آمل أن نوقع بسرعة على هذا الاتفاق الأول، بحيث نسمح لمنظمة التحرير أن تقيم فى غزة ونوضح للفلسطينيين أن السلطة الفلسطينية الجديدة هى التى تسيطر ابتداء من اليوم على الوضع فى المنطقة، ولذلك فهى المسئولة أن تفرض احترام القانون، والحفاظ على النظام، ومنع الإرهابيين من القيام بهجماتهم فيها.

أندريه فيرساى: وأخيرا، تم التوصل إلى حل وسط فى أوسلو يوم ١٨ أغسطس. وفى ٢٠ أغسطس، توجهت - شيمون بيريز - إلى أوسلو من أجل أن تشارك، سرًا أيضًا، فى المرحلة الأخيرة من المفاوضات.

شيمون بيريز: حقيقى، لقد توجهت، بكل علنية، إلى أوسلو لعقد لقاءات رسمية مع الحكومة النرويجية. وفقط جزء صغير من الفريق الذى رافقنى، كان على علم بالمهمة التى أسعى إلى القيام بها فى الظل - والتى كانت بكل تأكيد، الهدف الحقيقى لرحلتى. فى منتصف الليل، وبعد حفل العشاء الذى أقامه البرلمان النرويجى، زعمت أننى أشعر بالتعب وعدت إلى الفندق. من هناك، بعد نصف ساعة أو ساعة، انضممت إلى المفاوضين.

شهدت الأمور تقدما ملحوظا، ولكن كان علينا الوصول إلى النهاية. لذلك أجريت محادثة طويلة مع ياسر عرفات عبر تيرج لارسون، استمرت سبع ساعات. وخلال ليلة ٢٠ أغسطس، أى بعد نحو سبعة أشهر من المفاوضات السرية، تم أخيرا توقيع الاتفاقية.

لقد وصلنا إلى نهاية إحدى المغامرات الدبلوماسية السرية الأفضل تكتما، وكنا متأكدين أن الكشف عن اتفاقنا سوف يكون علامة على تحول ضخم فى تاريخ الشرق الأوسط. كانت هذه الليلة نفسها هى ليلة ذكرى مولدى السبعين. أبو علاء ابتسم لى وقال: «*هذا الاتفاق هو هدية عيد ميلادك*». لقد كان هدية عيد ميلاد جميلة.

أندريه فيرساى: ما السبب فى أن هذه المرة، كان من الممكن التوصل إلى نتيجة فى المفاوضات؟

شيمون بيريز: إننا نرى دائما، أن المهم فى أى مفاوضات، هو إيجاد خطة جيدة. ولكن ذلك ليس صحيحا تماما: أهم شىء هو العثور على شريك جيد فى المفاوضات. لأن فى أغلب الأحيان، عندما يقترح طرف اتفاقا، كان الطرف الآخر يرفضه تلقائيا بسبب الشكوك التى تسود لدى المفاوضين. حتى الخطط التى يقترحها طرف ثالث، غير متحيز، تثير الارتياب. ويحدث أحيانا أن يصل الوضع إلى طريق مسدود عندما يرفض كل جانب مقترحات الآخر. ابتداء من هذه النقطة، لم يعد مجديًا أن نرغب فى الفوز، بل يجب محاولة إيجاد طريق ثالث. لذلك أجد أن العلاقة بين الشركاء أساسية. ففى لحظة إقامة علاقة جيدة بين الشركاء، يمكن أن نبدأ فى تحقيق تقدم حول فكرة يتم الاشتراك فى بنائها. التفاوض، ليس مساومة، إنه الابتكار والخلق معا.

إنهـا نوعية العلاقات التى نجح فى نسـجها بينهما، كل من يورى سـافير، كبير مفاوضينا وأبو علاء رئيس الوفد الفلسـطينى، هى التى سـمحت لهما برغم كل المشـاكل والشـكوك السابقة، أن يصلا إلى اتفاق.

ولكن بالطبع هذه المفاوضات استمرت شهورا. ففى حالات وجود نزاع بين الدول، كل جانـب يؤمـن تماما أنه على حق ويصبح على اسـتعداد لأن يفعل كل شـىء من أجل انتصار قضيتـه. بيـد أن هذا الاتفاق ليس ممكنـا إلا إذا اقتنع كل جانب أن حجج الثانى لها هى أيضا أسـاس من الصحـة، وأنه ليس من الحكمة أن يعاند أحد الأطـراف ويطالب بالحصول على كل حقوقه على طول الخط. على كل جانب إذن أن يتنازل عن بعض المطالب، ويقبل بحل وسـط. ولكـن مع ذلـك، وبرغم أن الجميـع يدرك ضرورة ذلـك، فـإن المفاوضين يجدون صعوبة شـديدة فى فرض هذه الحلول على شعب كل منهما. وبسرعة يتكشف لدى الجميع أن التفـاوض، يعنى التحاور مع العدو بقدر ما هـو إجراء مباحثات معه، وربما أيضًا الحوار بشكل أكثر عنفا مع معسكره هو.

ولكـن حتـى لـو كان من الممكـن الوصـول بالمفاوضات فى أوسـلو إلى نتائـج جيدة، فذلـك أيضـا بفضل مجموعة صغيـرة من الشـخصيات النرويجية على أعلى مسـتوى، التى أصرت على أن تلعب دور الوسـيط بين الإسرائيليين وأعضاء منظمة التحرير. ومن بين هذه الشـخصيات يجب توجيه تحية إلى وزير الخارجية يوهان يورجين هولسـت ومدير المعهد النرويجـى للعلـوم الاجتماعيـة، تيـرج لارسـون، وكذلك زوجتيهمـا، ماريان ومونـا. فلقد أظهـروا قـدرة غير عادية فـى التحكم فى العلاقات الإنسـانية وكانوا يتمتعـون بفاعلية كبيرة وفـى نفس الوقت تكتم تام. لقد بذلوا جهدا كبيرا من أجل مسـاعدتنا فى الحفاظ على إيقاع اللقاءات، فضلاً عن إبعاد الفضوليين.

كمـا علـىّ أن أذكر أيضًـا دور مصر. حسـنى مبارك (الـذى كنت على اتصـال دائم معه) ومستشـاره الخاص أسـامة الباز وأيضًا وزير الخارجية عمرو موسى، كانوا جميعًا على علم بالمفاوضات السـرية وقدموا مسـاعدة حقيقية، للفلسـطينيين ولنا، من أجل إحراز تقدم فى عملية السلام. لقد كانت مصر من جهة أخرى هى الدولة الوصية على الفلسطينيين: لقد كان أسامة الباز، بعد لقائه مع رابين، فى بداية المباحثات فى أوسلو، هو الذى أقنع عرفات بجدية مسعانا. فعلى أية حال، منذ اتفاقيات كامب ديفيد، كانت مصر دائمًا شريكًا مميزًا فى السعى للتقارب. وفى أية لحظة صعبة، يمكن لمنظمة التحرير أو إسرائيل أو الولايات المتحدة، أن تطلب مساعدتها.

أندريه فيرساي: بعكس ما جرى فى أثناء المفاوضات الإسرائيلية-المصرية، فقد تمت المفاوضات وتوقيع اتفاق أوسلو بدون تدخل من الولايات المتحدة.

شيمون بيريز: نعم، وبعد توقيع الاتفاق مباشرة، كان يجب بالطبع إبلاغ الأمريكيين أولا الذين لم يكونوا حقيقة على علم بشيء. كانوا يعرفون أن مفاوضات سرية تجرى فى أوسلو، ولكنهم لم يؤمنوا بجدواها كثيرًا. لذا تقرر أن أذهب بنفسى لإبلاغ وارين كريستوفر بها. ونظّم سفيرنا فى الولايات المتحدة اللقاء الذى تم فى كاليفورنيا حيث كان كريستوفر يقضى عطلته. وهكذا سافرت إلى الولايات المتحدة يرافقنى يوهان يورجين هولست وتيرج لارسون وزوجته. وتساءلت كيف سيستقبل الأمريكيون الخبر، وخشيت بشدة أن يغضبوا. عند وصولنا إلى هناك، التقينا مع وارين كريستوفر ودنيس روس، رئيس الفريق الأمريكى المسئول عن مباحثات السلام فى الشرق الأوسط، وقدمت لهم الاتفاقيات. عندما قرآ النص، دهشا، وقالا: «*إنه عمل تاريخى رائع!*»، ولم يتراجعا قيد أنملة. بل بالعكس، قررا مساندة الاتفاقية بلا تحفظ. واقترحت أن نعلن أن هذه الاتفاقيات تمت تحت رعاية الولايات المتحدة. رفضا، ولكنهما اقترحا أن يتم الاحتفال بالتوقيع الرسمى فى واشنطن. واتصلوا بكلينتون الذى وافق على الفور، وحددنا موعدًا.

أندريه فيرساي: أزيح الستار عن الاتفاق وعرف به العالم. كيف كان رد الفعل فى إسرائيل وفى العالم العربى؟

شيمون بيريز: فى إسرائيل، كانت صدمة، بالطبع، ولكن عموما، استقبل الشعب والصحافة الاتفاق بتجاوب. وكانت المعارضة مندهشة بشدة ولم تكن معدة بشكل كافٍ لهذا الخبر، لدرجة أنها أبدت دهشة أكثر مما أبدت اعتراضا.

بطرس بطرس غالي: كذلك الوفد الفلسطينى فى واشنطن، لقد أسقط فى يده، ولم يخف استياءه. فمن ناحية، شعر أنه تم التلاعب به، وخاصة أنه رأى أن الاتفاق جاء لصالح الإسرائيليين. فقد قالت حنان عشراوى فيما بعد: «*لقد كانت مفاجأة سيئة جدًا بعد أن اكتشفنا أن مطالبنا - القدس والمستوطنات - لم يذكرا على الإطلاق*».

ولكن فى المقابل، تلقينا فى مصر هذه الاتفاقيات برضا ممزوجا بشيء من السخرية: فبعد أن تعرضنا للازدراء والإهانات وشُهِرَ بنا فى العالم العربى، ها هى منظمة التحرير تنطلق فى نفس العملية التى خططنا لها فى عام ١٩٧٨م. مع الفارق أنه، لو انضم إلينا الفلسطينيون فى عام ١٩٧٨م، لحصلوا على أكثر كثيرا مما توصلوا إليه هنا. ولكننا بقينا فى حالة ترقب: أوسلو لم تكن أكثر من خطوة أولى، بلا قيمة إن لم تتبعها خطوة ثانية.

أندريه فيرساى: فى ١٣ سبتمبر، جاءت أخيرًا اللحظة العظيمة التى انتظرها الجميع. جرت مراسم تصديق كل من عرفات ورابين رسميا على الاتفاق الذى تم التوصل إليه فى أوسلو، فى حديقة البيت الأبيض. وقام الرئيس كلينتون أيضا بالتوقيع بالأحرف الأولى كشاهد. إنها لحظة رائعة جمعت كبار الشخصيات فى العالم، وشهد فيها العالم مصافحة رابين وعرفات، وهو فعل حتى تلك اللحظة كان لا يمكن تصوره.

بطرس بطرس غالى: إنك لا تجهل بالتأكيد أن ما أثّر فى الرأى العام الأمريكى، هو الإخراج الهوليوودى الذى تم على أعلى مستوى. فلا يهم إن كانت المفاوضات قد جرت فى أوسلو أو فى كامب ديفيد، أو إن كانت قد جرت بصعوبة أم لا. ولكن صورة كلينتون وهو يقرب عرفات ورابين، ويدفعهما إلى التصافح، تلك هى الصورة التى تهم الجميع بحق، والصورة التى ستبقى.

شيمون بيريز: ما لا يعرفه العالم، هو أن رابين رفض التوجه إلى واشنطن، بالذات بسبب أنه لم يكن يعتزم إطلاقا مصافحة عرفات. لذلك، فكرنا فى أن يقوم أبو مازن وأنا بالتوقيع. ولكن كلينتون أصر على أن يتوجه رابين إلى البيت الأبيض، فانتهى الأمر بأن رضخ رابين، ولكنه لم يقبل عن طيب خاطر. وفى أثناء المراسم رأى الجميع رابين، وكأنه يقول لا بكل جسده إلى عرفات. ثم قام كلينتون بالتقريب بين الرجلين بهدوء، من أجل المصافحة. عرفات قدم يده، ولكننا رأينا رابين يتردد. لقد بدا الأمر أقوى من قدرته عليه. كان اشمئزازه واضحا إلى حد أننى لا أعتقد أنه كان يمكن أن يخفى على الكثيرين. استمرت المصافحة دهرا، فعرفات لم يتوقف عن هز يد رابين.. وفى النهاية عندما استطاع التخلص من يده، تحول رابين ناحيتى وهمس لى قائلا: «جاء دورك، *الآن...*»، وكأنه أرادنى أن أشاركه تجربة غير محتملة.

إن كنت أسرد عليكم كل ذلك، فلأننى أردت أن أوضح لكم ثقل الحواجز النفسية المتبادلة التى كان علينا القضاء عليها من أجل التوصل إلى هذا الاتفاق الأول مع منظمة التحرير: حتى رابين وجد صعوبة فى تصور إقامة سلام مع عرفات. ومثله فى ذلك مثل أغلبية الإسرائيليين، استمر رابين فى اعتبار زعيم منظمة التحرير كزعيم للإرهابيين الذين قادوا، لعشرات السنوات، عددا كبيرا من الهجمات، ليس فقط ضد الإسرائيليين ولكن أيضا ضد اليهود فى العالم أجمع.

أندريه فيرساى: بطرس بطرس غالى، لقد حضرت بلا شك الاحتفال.

بطرس بطرس غالى: نعم، والتقيت هناك مع كارتر وكيسنجر وبريجينسكى، وكل أعضاء الفريق السابق الذى حضر مفاوضات السلام المصرية - الإسرائيلية عام ١٩٧٩م. لقد كان يخالجنى شعوران متناقضان: شعور ممزوج بالمرارة والأسف لرؤية الفلسطينيين، بعد ضياع كل تلك السنوات، يسيرون بدورهم فى نفس الطريق الذى سرنا فيه نحن والمشاركة بعد ١٤ عامًا فى احتفالية تشبه طبق الأصل تلك التى تم فيها توقيع السلام الإسرائيلى - المصرى؛ وشعور آخر، بنّاء أكثر: وهو الرغبة فى مساعدة الفلسطينيين فى تطبيق اتفاق أوسلو هذا الذى بالتأكيد سيكون أصعب كثيرًا من التوصل إليه على الورق. إننى أعرف المقاومة المتناهية للإسرائيليين فيما يتعلق بالحكم الذاتى للأراضى المحتلة: «*مباحثات الحكم الذاتى*» أظهرت لى ذلك بكل وضوح. ولقد كنت فى وضع أستطيع أن أتوقع من خلاله المصاعب التى سيواجهها عرفات.

شيمون بيريز: ذلك لا يمنع أنها كانت لحظة عظيمة، ولقد تأثرت كثيرا حين رأيت مشاعر هؤلاء الذين جاءوا بعد الاحتفال، يهنئوننى لما أطلقوا عليه «*الحدث الأهم والأكثر إثارة للمشاعر فى القرن العشرين*».

أندريه فيرساى: بعد شهر واحد، تم ترشيحك لجائزة نوبل للسلام، بالمشاركة مع كل من اسحق رابين وياسر عرفات.

شيمون بيريز: نعم، وبدأت بالفعل أفكر فى المرحلة المقبلة وفى كل القضايا التى يجب حلها من أجل بناء شرق أوسط جديد. فمع إقامة هذا السلام، بدأ العمل الحقيقى: فيجب أن نعمل سويا من أجل ترجمة اتفاقياتنا على أرض الواقع. ولكن هل سيتفق الفريقان؟ هل سيستطيعان تجاوز شكوكهما المتبادلة؟ هل سيستطيع كل منا أن ينقل ما يؤمن به إلى شعبه؟ وأخيرا، كيف سيكون رد فعل المتطرفين فى كل جانب؟

أندريه فيرساى: فعلا، قبول تلك الاتفاقيات من قبل الفلسطينيين لن يتم تلقائيا. وعرفات، الذى كان يعرف شعبه جيدا، وأراد الحفاظ على انضمامه إليه، سوف ينفق بلا حساب من أجل بيعه هذا الاتفاق وكأنه انتصار فلسطينى: فأعلن قائلا: «الاتفاق *وضعنا على الخريطة الجغرافية والسياسية*». ولكنه وجد صعوبة شديدة فى نقل هذه الرسالة لأن العديد من الفلسطينيين، فى داخل وخارج منظمة التحرير، شعروا بالرعب من «حجم *التنازلات*» التى قام بها. واعتبروا أن الاتفاق وافق عليه الجزء الضعيف من الفلسطينيين، وفرضه الجزء القوى من الإسرائيليين، وأنه يعطى الإسرائيليين كل الحقوق ويعترف بوجودهم، بينما الشعب الفلسطينى لا يكسب من ورائه شيئا، حيث إنه لا يذكر كلمة عن تقرير المصير ولا

عـن نهايـة الاحتلال. كما لم يذكر أى شـىء عـن تفكيك أى مسـتوطنات، ويحتفظ الجيش الإسرائيلى بالسيطرة على الجزء الأساسى من الضفة الغربية وقطاع غزة. أما بالنسبة للقدس، فتبقـى تحت سـيطرة إسـرائيلية. وبالنسـبة لما تبقى، فقد تحـدد فقط فترة انتقاليـة لا تتجاوز خمس سـنوات، يقوم الإسرائيليون فيها بالانسحاب من الأراضى الفلسطينية المحتلة، على الأقـل جزئيـا، وفى نهاية تلـك الفترة، يمكـن أن نصل إلى تسـوية دائمـة. التفاصيل مبهمة. بالنسبة للجانب المتشدد من الحركة الفلسطينية، ليس هناك ما يمكن أن نطلق عليه انتصارًا، بالعكـس. فى نفس الوقـت، قام المتطرفون مـن حركة حماس بالتعهـد بالإطاحة بالاتفاقية بحملة إرهابية.

شـيمون بيريز: صحيح أن الفلسـطينيين قدموا تنازلات كثيرة فى أوسـلو، وهو ما سـمح لنا بتوقيع هذه الاتفاقية. كما وافقوا على اسـتثناء القدس الشـرقية مـن الاتفاق حول الحكم الذاتى (حتى ولو كان من المفهوم أن يشارك فلسطينيو القدس فى الانتخابات)؛ كما وافقوا علـى الاحتفـاظ بالمسـتوطنات الموجـودة بالفعـل، والتى تظـل حمايتها مسـئولية الجيش الإسـرائيلى؛ وأخيـرا، التزموا بمكافحـة الإرهاب والمخاطر الخارجيـة التى يمكن أن تهدد أمن الإسرائيليين الموجودين فى الأراضى التى ستقع تحت سيطرتهم.

فى مقابل ذلك، سيتم نقل خمسة قطاعات إدارية مهمة إلى الفلسطينيين: الصحة والتعليم والتأمين الاجتماعى والسياحة والمالية.

بالطبع هناك عدد من الأمور التى لم تحدد! ولكن كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ إنها مجرد الخطوة الأولى، وتفاهمنا على أن نلتزم، كل من جانبه، على مواصلة المفاوضات حول الحكم الذاتى فى الأقاليم الأخرى من الضفة الغربية.

تذكر أن المتشـددين العـرب عابوا على الاتفاقية أنها لا تعطى الفلسـطينيين إلا مميزات قليلـة جدًّا. وهـذا صحيح، ولكن من الناحية الإسـرائيلية، سـيرفض اليمين والمسـتوطنون أيضا هذه الاتفاقيات (ولكن بالطبع لأسـباب عكسية)، وسوف يتحدثون عن «*الجبن*» وعن «*الخيانة*». فى الحقيقة، هذه الخطوة الأولى صدمت الحالة الذهنية والأحكام المسـبقة التى طالما ترسخت فى عقلية *الشعبين*.

لقـد كان الارتيـاب متبـادلا، وجـزء كبير من الشـعب الإسـرائيلى لم يكن يثـق فى كلمة عرفـات. لقـد كان يعتبر كل تفـاوض مع منظمة التحرير بمثابة استسـلام انتحارى، وأى نوع من الانسحاب من الأراضى بمثابة تخل عن الحماية يضعنا فى حالة هشاشة مطلقة.

حتى لو كان الشعب الإسرائيلى مدركا للتقدم التاريخى الذى تمثله هذه الاتفاقيات، إلا أن تطور العقليات والتخلى عن الأحكام المسبقة التى تم تغذيتها طويلاً، لم يتزامنا معها... وهاجمنا بنيامين ناتانياهو زعيم المعارضة اليمينية، بقوله: «*إن أمن إسرائيل يواجه تهديدا غير مسبوق*»، إن «*الحكومة فى طريقها لأن تسمح لمنظمة التحرير تنفيذ مخططها لتدمير الدولة الإسرائيلية*». وكلما تحدثنا عن الأمل فى السلام، تحدث اليمين والمستوطنون عن تهديدات بالفناء.

وبينما كنا نحاول أن نجد حلا وسطا متوازنا بين مصالح الجانبين، ونحاول أن نسقط جدار الكراهية المزدوج، كان المتطرفون من الجانبين يعملون بحزم لدعم العوائق التى يعتقدون إنها تضمن لهم الحفاظ على قيمهم. وهكذا بدأ سباق مع الزمن، بين هؤلاء الذين يعملون على ترجمة مبادئ الاتفاقيات على أرض الواقع، وبين المتطرفين الذين قرروا إفشالها.

وكلما تقدمت المفاوضات، كلما انقسم المجتمع الإسرائيلى بين هؤلاء الذين يرون أن سلامًا مع منظمة التحرير ممكن ومأمول ويحقق مصلحة الشعبين، وهؤلاء الذين يعتبرون أن العرب، فى كل الحالات، لن يقبلونا أبدا، ولذا لابد أن نظل مصرين على رفضنا إعادة شبر واحد من الأراضى. ومثلما حدث قبل اتفاقية كامب ديفيد، ذهب البعض إلى حد تصور أنه فى حالة تقدم جاد فى المفاوضات، فإننا نخاطر بتفجر حرب أهلية.

بطرس بطرس غالى: ولقد كان لهذا الموقف المزدوج انعكاس متطابق لدى الفلسطينيين وكأنه فى مرآة. فبالنسبة لهم، المفاوضات تضع التماسك السياسى بين كل القوى الفلسطينية فى خطر. وهو الخطر الذى يخشاه عرفات أكثر من أى شىء آخر. كما تعرف، فى تاريخ حركات التحرير، الصراع بين الأجنحة المختلفة، يؤدى إلى ضحايا أكثر من التى تؤدى إليها المواجهات مع المستعمر نفسه.

شيمون بيريز: أعرف، وبلا شك يعد الأمر بالنسبة للفلسطينيين تراجعا فجائيا، فقد كان من الصعب عليهم ملاحقة خطى زعيمهم فورا. ويشهد على ذلك البطء الشديد الذى سارت عليه عملية تطبيق الاتفاقية. ورغم ذلك، ففى اليوم التالى لتوقيع الاتفاقية، تغيرت صورة الشارع الفلسطينى. فقد زينّت الشوارع بالأعلام الفلسطينية التى لم تعد ممنوعة، فشهدناها فى كل مكان، على أسطح المنازل وفى الشرفات، وحتى صورة عرفات علقت على الجدران، وعلى واجهات المتاجر، إلخ.

أندريه فيرساى: ولكن من ناحية أخرى، كانت دمشق مستاءة جدا، واشتبهت فى أن المفاوضات التى اقترحتها عليها إسرائيل لم تكن إلا مناورة تهدف إلى تحييد معارضتها على الاتفاق الإسرائيلى - الفلسطينى.

بطرس بطرس غالى: لم تكن دمشق وحدها! لقد كان الاستياء عامًا فى كل العالم العربى.

شيمون بيريز: بالطبع، أدانت «دول الرفض» هذا الاتفاق بعنف شديد. وتحدثت كل من سوريا والعراق وليبيا والسودان وإيران عن استسلام مهين وتعهدوا بمواصلة المعركة.

بطرس بطرس غالى: لقد شعرت بلاد كثيرة بأنه تم خيانتها، بداية بسوريا بلا شك، ولكن أيضًا الأردن: فلقد استمرت هذه الدول تكافح من أجل الاعتراف بالحقوق الوطنية للفلسطينيين، ثم ها هم نفس هؤلاء الذين حاربت من أجلهم دائما، يوقعون سلاما منفردا مع إسرائيل رغم المبدأ الأساسى الذى نصت عليه مواثيق جامعة الدول العربية بألا تقوم أية دولة بتوقيع سلام منفرد مع إسرائيل أبدا. وفى كل العالم العربى، اعتبر الأصوليون هذا الاتفاق بمثابة خيانة. ووجدت جبهة الرفض، التى عاتبت مصر على «سلامها المنفرد»، نفسها أمام سلام منفرد آخر، أكثر انتهاكًا للمحرمات من الاتفاق الأول...

شيمون بيريز: لا أعتقد أبدا أن الأردن كانت مستاءة. بل بالعكس، فإن اتفاقيات أوسلو سمحت للملك حسين، الذى أراد إقامة سلام مع إسرائيل، أن يوقع أخيرا معاهدة سلام معنا. إذ بدون أوسلو، لما أخذ حسين هذه المبادرة أبدا.

بطرس بطرس غالى: أعتقد أنك على حق. فإن عمان كانت تنتظر اتفاق أوسلو من أجل أن توقع بدورها، معاهدة سلام مع إسرائيل. إن الأردن دولة صغيرة بلا ثروات طبيعية، وتستقبل أعدادا كبيرة من اللاجئين، كما أنها محاطة بدولتين عربيتين ديناميكيتين وعنيفتين، بالإضافة إلى أنهما فى حالة حرب مع إسرائيل. لهذه الأسباب، فإن الأردن تجد أنه من مصلحتها عقد معاهدة سلام مع جارها الإسرائيلى، وبذلك تحصل على تعاطفه السياسى.

شيمون بيريز: أما بالنسبة لسوريا، فإن وضعها مختلف. عندما تم توقيع اتفاق أوسلو، شجعنى الأمريكيون على الاستفادة من الحركة فى محاولة جذب دمشق أيضا إلى توقيع اتفاقية سلام. يجب أن أقول إننى كنت متشككا: فلم أكن أرى أن السوريين مستعدون للدخول جديا فى عملية سلام. وخشيت حتى من أن يحاولوا التدخل فى المفاوضات مع الفلسطينيين حتى لا يدفعوهم إلى اتخاذ مواقف أكثر تشددًا.

لذلك اقترحت على رابين أن نحاول أولا أن نقيم السلام مع عمان، ولكن رابين كان يشك فى القدرة على تحريك الملك طالما أننا لم نقم سلاما مع دمشق. أعتقد أن عمان لن توافق على سلام إلا إذا وافقنا على عودة اللاجئين والتنازل عن القدس التى يعتبر حسين نفسه حامى حماها. ومع ذلك وافق رابين على أن أذهب لألتقى مع العاهل الأردنى. وهكذا توجهت إلى الملك، ووصلنا إلى اتفاق: يظل الملك حامى حمى الأماكن المقدسة الإسلامية فى القدس، وفى المقابل، تعهدت له بإعادة الأراضى التى تقع على طول وادى عرفة والتى استولينا عليها فى عام ١٩٦٧م، وأيضا اتفقنا على بعض التسويات الخاصة بالمياه. كما تعهدت بمساعدته فى الحصول على تمويل. ولكنى رفضت عودة اللاجئين.

تم توقيع السلام الإسرائيلى - الأردنى فى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٩٤م، وكما تعهدنا، ذهبنا أنا ورابين، إلى كلينتون لإقناعه بأن ينسى الديون التى على الأردن والتى وصلت إلى ستة مليارات دولار وتشجيعه على إطلاق برامج اقتصادية أردنية - إسرائيلية.

بطرس بطرس غالى: تلاحظ أن هذا السلام تم التوقيع عليه ببعض التكتم. الأردن وقعت، ولكن مع بعض التروى. هل كان لابد من التسرع، كما أراد الإسرائيليون، أم كان من الأفضل ترك «*مهلة لائقة*» كما يقول كيسنجر؟ لأن سوريا، التى تمثل تهديدا للمملكة الهاشمية، استمرت فى إدانة كل سلام منفصل.

شيمون بيريز: بلا شك، ولكن فى نفس الوقت، ساندت كل من مصر والمغرب وتونس الاتفاق. أما بعض الدول العربية المعتدلة فلم تفق من المفاجأة ولم تعرف كيف يجب أن يكون رد فعلها. بشكل ما، هذا الاتفاق الذى تم بيننا وبين الفلسطينيين أراح عددًا كبيرًا من الدول العربية، التى كانت ترى أن العداء تجاه إسرائيل والذى كانت مضطرة إليه، فقد كل معناه.

بطرس بطرس غالى: نعم، لأن القضية الفلسطينية، التى كانت تعتبر بالنسبة للعرب هى الظلم الذى لا يمكن احتماله، أصبحت اليوم فى طريقها إلى الحل. اعتقد الإسرائيليون ولمدة طويلة، أنهم يستطيعون صرف النظر عن المطالب الفلسطينية، وأن الوقت يصير لصالحهم، وإن الدول العربية سوف تتعب فى النهاية من قتال يبدو أنه لا يتقدم، ويوما ما، ستستطيع إسرائيل أن تتوصل إلى سلام منفرد مع كل من جيرانها العرب بدون أن تضطر إلى القبول بإقامة دولة فلسطينية. لقد كان ذلك وهمًا، أو خطأ جسيمًا.

شيمون بيريز: فى الوقت الحالى، بدأت تتشكل ديناميكية جديدة فى المنطقة. ولكنها ظلت هشة جدا، وخشيت من أن نكتفى بالاتفاقيات السياسية، كما لو أنها سوف تقود طبيعيا إلى التقدم الاقتصادى. لهذا السبب، تمسكت بأن نبدأ العمل بجد فى قضية التنمية فى الأراضى الفلسطينية، فى نفس الوقت الذى نعمل فيه على تطبيق الاتفاقيات. مفاوضات السلام تلك، يجب أن تستند على تقدم اقتصادى: فكان يجب أن يحصل الفلسطينيون بسرعة على مساعدة مالية تسمح لهم الخروج من الكساد الاقتصادى. بدون هذه الحوافز الاقتصادية، فإن عملية السلام لن تتقدم بسرعة. لذلك التقيت بنفسى مع عدد من الشخصيات من بلاد مختلفة ترغب فى أن يكون لها دور حقيقى فى مستقبل المنطقة من أجل أن اطلب منهم تقديم مساعدات مالية. كانت بلاد شمال أوروبا تتعاطف دائما مع مشاكل الأمم التى فى حاجة إلى مساعدة، والتى يخصصون لها ما بين واحد واثنين فى المائة من ميزانيتهم. ولقد طلبت منهم تخصيص ٥٪ من هذه الميزانية لمساعدة الفلسطينيين، وهو ما وافقوا عليه. كما التقيت مع جاك ديلور، رئيس المجموعة الأوروبية، الذى ساند فكرة زيادة المساعدة الطارئة. ومن جانبه، تعهد فرانسوا ميتران أيضا بمساندة تقدمها فرنسا.

بعد ذلك، أردت تنظيم مؤتمر قمة لوزراء المالية والخارجية للعالم أجمع. ولقد عقد هذا المؤتمر فى واشنطن فى شهر أكتوبر من عام ١٩٩٣م، وكان هدفه الرئيسى هو جمع الأموال التى تسمح للفلسطينيين بإقامة البنية التحتية الإدارية. ووصل حجم الهبات والقروض إلى مليارين ونصف مليار من الدولارات (وسوف يزيد المبلغ بمقدار مليار دولار أخرى). هذه الأموال جاءت أساسا من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى واليابان. ومن جانبها، التزمت إسرائيل بتقديم ٢٥ مليون دولار على مدى خمس سنوات.

أندريه فيرساى: والدول العربية؟

شيمون بيريز: الدول العربية، من جانبها، لم تكن مواكبة لهذا الجمع. بالنسبة لدول الخليج الغنية لم تكن قد نسيت بعد مظاهرة التأييد التى أبداها عرفات لصدام، فى أثناء غزوه للكويت، وبالتالى، رفضوا تقديم أى مساعدة مالية من أى نوع إلى الفلسطينيين. ورغم ذلك وافقت السعودية أخيرًا، تحت ضغط من الولايات المتحدة، على تقديم نحو مائة مليون دولار سنويا. بشكل عام، ساهمت الدول العربية بمبالغ قليلة للغاية فى هذا التمويل. كل هذه الدول التى قامت بدور المدافع عن الفلسطينيين عندما كانوا فى حرب ضدنا، فقدوا اهتمامهم بهم الآن عندما وجدوا أنفسهم أمام المهمة الضخمة لبناء بلادهم. ومرة أخرى، فقد اكتفوا بالكلام...

أندريه فيرساي: وكيف كان رد فعل المنظمات اليهودية الأمريكية، والتى كانت معظمها قريبة من اليمين الإسرائيلى؟

شيمون بيريز: سيئ، وكان علينا محاربة اللوبى اليهودى الأمريكى، أيباك، الذى يديره ممثلون غير رسميين من حزب الليكود، وكذلك محاربة الزعماء الجمهوريين الذين قادوا حملة ضد منح أية مساعدات إضافية للسلطة الفلسطينية. كان لابد لنا أن نشرح لهم طويلاً أن هذه المساعدة تهدف إلى تحسين أوضاع الفلسطينيين وأنها جزء من محاربة الإرهاب.

ولقد طلبنا من يوهان يورجين هولست وتيرج لارسون، أن تتولى مؤسستهما الإشراف على إدارة المساعدات التى تهدف إلى تمويل البنية التحتية الإدارية الفلسطينية والتى تضم اليوم نحو ١٢٠ ألف موظف منهم ما بين ٤٠ و٥٠ ألفا من البوليس. بدون هذا الدعم، ما أمكن فعل أى شىء.

كان، رغم كل شىء، كان الأمر انقلابًا مدهشًا للتاريخ، أن نرى الإسرائيليين هم الذين يعملون على إيجاد الدعم المالى لصالح منظمة التحرير...

أندريه فيرساي: قلت إن هذا السلام يجب أن يستند على تقدم اقتصادى. ولكننا لا نقوم بتنمية اقتصاد دولة بالاكتفاء فقط بالمساعدة المالية.

شيمون بيريز: أنت على حق. يجب إطلاق مسار اقتصادٍ حقيقى. ولذلك أردت أن نذهب أبعد من ذلك، ونعمل على تنظيم مؤتمر اقتصادى دولى ضخم فى الشرق الأوسط. لم يكن هناك كثيرون حولى يؤمنون بذلك. حتى الملك حسين، عاهل الأردن، الذى اقترحت عليه أن يستضيف هو هذا المؤتمر، وافق على الفكرة ولكنه ظل مترددا. صحيح أن لقاء بهذا الحجم فى فترة قريبة، لم يبد مشروعًا واقعيًا. لذلك، أجريت فى هذا الوقت، اتصالا مع منظمى المنتدى الاقتصادى العالمى فى ديفوس من أجل تقديم مشروعى إليهم، والذى يتضمن تنظيم نوع من ديفوس ولكن لخدمة الشرق الأوسط، حيث يتم دعوة كبار الزعماء السياسيين ورجال الأعمال فى المنطقة. ولقد ساند المنظمون هذا المشروع؛ وبقى أن نجد المكان. وقررت فى هذا الوقت أن أتوجه إلى ملك المغرب، الحسن الثانى، الذى رحب بالفكرة بحماس بالغ، وبالفعل بعد عام، يوم ٣٠ أكتوبر عام ١٩٩٤م، افتتح فى الدار البيضاء المؤتمر الاقتصادى للشرق الأوسط وشمال إفريقيا. لقد كان حدثا رائعا سانده الأمريكيون والأوروبيون واليابانيون... وحضر المؤتمر نحو أربعة آلاف شخص من السياسيين والاقتصاديين ورجال المال، قادمون من جميع أنحاء العالم. ولأول مرة، التقى

مئات الإسـرائيليين والعرب من أجل مناقشـة القضايا الاقتصادية معا. وسـنرى هذا المشهد غير المسـبوق، حيث امتزجت الطاقية اليهودية (الكيبا) مع الكوفية بين حشد من المسئولين ورجال الأعمال.

لقد حقق المؤتمر نجاحًا كبيرًا إلى حد أنه تقرر إعادة هذه المبادرة كل عام. وهكذا عقد المؤتمـر التالـى فى عمان (أكتوبر عـام ١٩٩٥م). فى هذا المؤتمـر كان التركيز على التنمية الإقليميـة. وثـار موضـوع بناء مطار، وإقامـة نوع من الريفييرا السـياحية فى منطقـة العقبة - إيلات، وبنك إقليمى للشرق الأوسط، ومشروع للتخطيط الاقتصادى إسرائيلى - فلسطينى -أردنى - مصرى، إلخ. بعد ذلك عقد المؤتمر فى القاهرة (نوفمبر ١٩٩٦م)، ثم فى الدوحة (نوفمبـر ١٩٩٧م)، وفـى كل مـرة كان يتم بنفـس الحجم من النجاح. ولقـد كان واضحا أن مقاطعة العرب لإسرائيل لم تعد على جدول الأعمال.

كان من الواضح أن اتفاقيات أوسلو، والتى تبعتها مؤتمرات إقليمية أخرى، كان يجب أن تؤكد على السلام وأن تحتفى بشرق أوسط جديد، حيث، من مؤتمر دولى لآخر، بدأ ترسيم خطوط عريضة لسـوق موحد شـرق أوسـطى. واسـتمرت العملية إلى أن تغيرت الحكومة فى إسـرائيل: حكومـة ناتانياهو لم تواصـل التجربة، بينما من الجانـب المصرى، قام عمرو موسى، وزير الخارجية، بتغيير موقفه، ومنع عنا مساندته.

أندريه فيرساى: وكيف كان رد فعل السلطة الفلسطينية؟

شـيمون بيريـز: لن يكون سـير الأمـور بديهيًـا وحدها، لأن عرفـات لـم يسـتطع أن يلبى المطالـب التـى أعربت عنها الدول المانحة والخاصة بالشـفافية والمسـئولة عـن إدارة هذه الأمـوال. كانت تلك المطالب غريبة تماما عليه: لقد اعتبـر هذه المبالغ بمثابة تعويض يقدم لسـلطة الشـعب الفلسـطينى الـذى عانى كثيـرا. وهذا كل شـىء. وفى نفـس الوقت، أعطى عرفات الانطباع بأنه يهتم أكثر بتدعيم سلطته عن إقامة سياسة اقتصادية حقيقية.

ولكن ما يبدو لى مهما، هو أن عملية بناء الدولة الفلسطينية تتقدم بانتظام.

أندريه فيرساى: بعد توقيع اتفاقيات أوسلو، كان يجب ترجمتها على أرض الواقع.

شيمون بيريز: من طبيعة الأمور أن التقدم لا يتأتى إلا عبر مراحل. وهو ما بدأنا عمله منذ اليوم التالى على أوسـلو: اعترفنا بالهوية الفلسـطينية؛ وسمحنا للسـلطة الفلسطينية بمغادرة تونـس والإقامة فى غزة وممارسـة سـيطرتها على بعض المناطق فى الضفـة الغربية وكذلك فى غزة؛ وأطلقنا سـراح عدد كبير من المعتقلين؛ سـاعدنا السـلطة الفلسـطينية (ماليا أيضا)

على بناء إدارتها وقوات الشرطة؛ وقبلنا مبدأ إقامة الدولة الفلسطينية فى قطاع غزة والضفة الغربية؛ وأخيرا اتفقنا على فكرة التوصل تدريجيًا إلى تقرير المصير الكامل.

أندريه فيرساى: وكيف كان يتم التعاون بين الإسرائيليين والفلسطينيين؟

شيمون بيريز: لم يكن الأمر سهلا. من جانب الإسرائيليين، كان يجب التحرر من عقلية المحتل، بينما كان لابد أن نقنع الفلسطينيين بأن يتعاونوا طبيعيا مع هؤلاء الذين حاربوهم منذ عشرات السنين.

لقد بدت المفاوضات على المواضيع الواقعية والخاصة بتطبيق الاتفاقيات، عسيرة للغاية، وذلك لأسباب مهمة: لقد التزمت إسرائيل باقتسام السلطة مع السلطة الفلسطينية، ولكننا فى نفس الوقت، تمسكنا تماما بالاحتفاظ بالسيطرة على كل ما له دخل بالأمن. اعتبر الفلسطينيون هذا المطلب وكأنه تعدٍ على سيادتهم: وقدروا أنه طالما أن الجيش الإسرائيلى ظل موجودًا بصورة ظاهرة، فإن الشعب لن يشعر بالحرية أكثر مما كان تحت الاحتلال. فى أحد الأيام، قال أبو علاء رئيس الوفد الفلسطينى ليورى سافير: «*لقد كنتم محتلين، والآن تريدون أن تصبحوا سجانين !*». ولقد كان صحيحًا من وجهة نظرنا، أن مبدأ حرية انتقال الأفراد والبضائع الفلسطينية، يجب أن يكون خاضعا لاعتبارات أمنية، وأردنا أن نكون نحن وحدنا الذين نأخذ القرارات بشأنها. وبصراحة، فإن فيما يخص المسألة الأمنية، لا نثق فى السلطة الفلسطينية، لأنها من الواضح لم تستطع التوصل إلى فرض إجراءات فعالة لمحاربة الإرهاب.

حاولت شرح وجهة نظرى إلى عرفات: «*إننى أفهم المصاعب التى تواجهك، وصدقنى، من مصلحتنا أن تنجح. ومع ذلك، فإنه من المستحيل علينا أن نضع شعبنا فى خطر. ونحن نعلم جيدا، كما تعلمون أنتم أيضا، أن حماس تعمل على سن أسلحتها وإعداد هجماتها من أجل نسف اتفاقنا. ومن مصلحتنا نحن وأنتم أن نشل قدرتها على الإيذاء*». جرت المناقشات حول أمن الحدود حول غزة. بالنسبة لنا، لم يكن واردا على الإطلاق، أن نتخلى عن نقاط الحدود لتكون مسئولية الفلسطينيين وحدهم؛ وكان أمرا مفروغا منه، أن يكون الجيش الإسرائيلى هو الذى يضمن الدخول عبر تلك النقاط، لأنه بدون ذلك، أى شخص فى غزة يستطيع التسلل إلى إسرائيل نفسها دون أى سيطرة. ولقد كنت مصرًا على موقفى، خاصة وقد لاحظت أن عرفات لم يكن لديه أى فكرة واضحة عما يعنيه «الأمن الخارجى»، وأنه لا يوجد أحد من المحيطين به، كان لديه أدنى تجربة فى هذا الشأن.

ولكن عرفات، (والوفد الفلسطينى عامة) رأوا هذا الإجراء طريقة مهينة جدا لوضع حدود للسلطة الفلسطينية. وحتى إن كنا نتفهم هذا الشعور، إلا أنه كان مستحيلاً علينا التخلى عن هذه النقطة، كما أن الأمر يتعلق باتفاق مؤقت، وإن سارت الأمور على ما يرام، فإن موقفنا يمكن أن يتغير. كانت المفاوضات حادة، وهذا الفصل فى اتفاقيات أوسلو الخاص بأمن النقاط الحدودية، سيأخذ عشرات الصفحات.

بطرس بطرس غالى: من أجل فهم الحدة فى معارضة مطالبكم الأمنية، يجب أن تضع نفسك محل الفلسطينيين الذين عانوا الاحتلال منذ عشرات السنين: البناء، العمل، الانتقال، السفر إلى الخارج، كل ذلك سيكون ممنوعا عليهم بدون موافقتكم. وهكذا تتحول الإدارة الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة إلى أخطبوط.

ولقد لاحظت أن عددا لا بأس به من القيود هو نتيجة للهاجس الأمنى، ولكن بصراحة، يا شيمون، أليست تلك القيود هى أيضا، وفى أغلب الأحيان، نتيجة للسلطة العسكرية البيروقراطية والمنغلقة بإحكام على كل أبعاد إنسانية للأراضى المحتلة؟ وقيامكم بالمراقبة عند *نقاط التفتيش* أليست مسألة - موضوعيا - مهينة؟ يقوم الإسرائيليون كثيرا باستبعاد هذا الشعور بالمهانة، ويعتبرونه مجرد «حساسية زائدة عن الحد لدى العرب». لقد كان من الطبيعى، فى حالتنا هذه أن يكون هناك مسألة رئيسية من أجل تحقيق المصداقية للاتفاقيات، وهى أن يشعر الفلسطينيون، عندما يدخلون غزة، أنهم يعودون إلى وطنهم. إن الشكل المعمم للتفتيش الكامل، وفكرة أن على الفلسطينيين الانتظار لساعات وساعات، بل الانتظار ليوم كامل قبل أن يصلوا إلى التفتيش الجسدى، مسألة غير محتملة، خاصة أن رجال الجمارك لا يتوانون فى التعبير عن ازدرائهم. هذا الانتظار الذى لا ينتهى هو أحد رموز الاحتلال القميىء.

ويبدو، حسب الإحصاءات، أن ثلث المواطنين الفلسطينيين من الرجال فى الأراضى المحتلة، كانوا فى وقت من الأوقات، قلقين أو محتجزين فى السجون الإسرائيلية. كيف لا تستطيع أن تفهم، فى تلك الظروف، فكرة أن يقوم جندى إسرائيلى بتفتيش الفلسطينيين عند حدود هذه الأرض نفسها، التى قدموها لهم قبل قليل، كأرض ذات سيادة، هى مسألة غير محتملة على الإطلاق بالنسبة لهم؟

ومرة أخرى، أعتقد أن الإسرائيليين لم يأخذوا فى اعتبارهم أبدا كرامة العرب. وهنا أيضا، نجد مرة أخرى عقلية المستعمر تلك فى مواجهة أصحاب الأرض الأصليين. وأتذكر الرسالة التى وصلتنى عبر الفاكس فى ابريل عام ٢٠٠٢م، حينما كنت فى داكار، والتى كانت

تتحدث عن تصريحات ديزموند توتو، التى كان يندد فيها بالسياسة الإسرائيلية فى الضفة الغربية وفى غزة، ويقارنها بالأبرتهايد. إذ قال: *«لقد رأيت إهانة الفلسطينيين عند نقاط التفتيش وعند الحواجز، ورأيت معاناتهم»*. وقارن بين ذلك وبين الطريقة التى كان جنود الشرطة البيض يمنعون بها السود من التنقل بحرية.

شيمون بيريز: إننى أفهم، ولكن هل تستطيع أنت أيضا أن تفهم أن إصرارنا فيما يخص المسألة الأمنية هو أيضا نتيجة للإرهاب الأعمى، أولا، وللتساهل الفلسطينى فى مسألة محاربة الإرهاب، ثانيا؟ وأقول إن هذا التساهل هو بسبب عرفات وليس بسبب الشرطة. لأن، التعاون الذى كان فعالا كان ذلك الذى جرى بين الأجهزة الإسرائيلية والفلسطينية الذين عملوا معا على أرض الواقع ضد الإرهابيين.

بطرس بطرس غالى: وحتى لا أكرر نفسى، شيمون، أعتقد أنكم أنتم الإسرائيليون، الذين لا تفهمون جيدا العقلية العربية. تعتقد أن باستطاعتك الاستناد إلى المعلومات والرموز *«الموضوعية»* التى تنقلها لك أجهزة المخابرات من أجل معرفة الحالة الذهنية والحالة المعنوية للفلسطينيين. ولكن أفضل جهاز مخابرات، بسبب طبيعة عمله، يجد صعوبة فى التعرف على الحالة الذهنية، خاصة أنها فى حالة تطور وتغير دائم.

شيمون بيريز: صحيح أن لدينا صورة أحادية الجانب للمجتمع الفلسطينى. ذلك أننا نعتبره معاديا فى أعماقه للديمقراطية، ولا يحمل أى روح انتقادية، وعلى استعداد لأن يتبع أوامر قياداته الأكثر تطرفا. وعليك أن تعترف، أن الأمر يبدو كذلك، من الخارج.

بطرس بطرس غالى: إننى أدهش لقولك هذا. فأنت عرفت قيادات فلسطينية، وعرفت فلسطينيى الشتات، الذين استطاعوا الإفلات من الاحتلال ومن عبوديته (الذى يخدر كل رغبة فى اتخاذ مبادرة). هؤلاء استطاعوا أن يعطوا صورة أخرى للعالم الفلسطينى. إنه بالمقارنة مع الشعوب العربية الأخرى، فإن الفلسطينيين هم من أكثر هذه الشعوب تطورًا. إن الاتصالات التى أقاموها مع الحجاج المسيحيين خلال قرون طويلة، أجبرتهم على الانفتاح على العالم الخارجى. ولكن مع ذلك، أنتم بوصفكم مستعمرين أصلاً، الذين طردتم النخبة الفلسطينية، وبذلك حرمتم الشعب من رؤوسه المفكرة. خلال فترة من حياتى، كنت عضوا فى لجنة الخبراء فى منظمة العمل الدولية، واستطعت أن أطلع على قائمة النقابيين الفلسطينيين التى قمتم بطردهم، لتتركوا القوى العمالية بلا كوادر، مسئولين عن أنفسهم.

شيمون بيريز: اسمع، لنأخذ مثالاً .. عرفات وردود أفعاله؛ خلال الحرب، من الطبيعى أن يتبنى المرء لغة حرب، ولكننا نتخلى عنها عندما ننتقل إلى مرحلة المفاوضات. وهذا ما كان عرفات غير قادر على القيام به. إحدى مشاكله، كانت لغته العدوانية العنيفة تجاه إسرائيل حتى خلال المفاوضات نفسها. ذلك جعله يفقد كل مصداقية فى عيون الإسرائيليين. وأعطيك على ذلك ثلاثة أمثلة عشتها بنفسى..:

فى عام ١٩٩٣م، دعينا، أنا وعرفات، إلى مجلس الدولية الاشتراكية، فى لشبونة. كان مبدأ الحوار هو أن نقوم بالإجابة، الواحد بعد الآخر، على الأسئلة الخمسة نفسها. فى هذه اللحظة، كنا، أنا وعرفات على علاقة جيدة، وكنا متفقين أن نظهر بكل الإيجابية الممكنة. سألنى المنظم إن كنت لا أجد أية غضاضة فى أن يوجه لى أنا الأول الأسئلة. قبلت عن طيب خاطر وكنت حقيقة فى غاية الإيجابية. وعندما جاء دور عرفات، انطلق فى خطاب عدوانى إلى أقصى حد، وقص أشياء غريبة مثل الزعم بأن جيشنا يطلق على الفلسطينيين رصاصًا مغلفًا باليورانيوم لقتلهم! كنت مذهولا. وبعد الحوار، سألته ما الذى حدث له: «*لقد اتفقنا على ألا نهاجم بعضنا البعض*». اعتذر عرفات وقال لى إن خطابه تمت كتابته قبل أن نتفق على الأسلوب الذى سنتكلم به، وأنه لم يستطع ارتجال خطاب آخر...

ذلك لم يمنع أن العواقب كانت وخيمة. فبجانب أننى بدوت كالأبله (سألنى ايلى فايسل لماذا كنت متساهلا مع خصم بهذا العنف)، هذا الحوار نقل على التليفزيون الإسرائيلى ولك أن تتخيل رد فعل أبناء وطنى عندما سمعوا هجوم عرفات ضدى.

وبصراحة إننى لم أفهم تماما لماذا تصرف عرفات بهذه الطريقة، لأنه على عكس التأثير المأمول، فإن عرفات فقد الاعتبار، ليس فقط فى نظر الإسرائيليين، ولكن أيضا فى نظر جميع الزعماء الاشتراكيين.

بعد فترة، اجتمعنا مرة أخرى فى جزيرة مايوركا، بمناسبة عقد لقاء متعدد الثقافات تنظمه اسبانيا. قبل اللقاء، تحدثت معه حديثًا خاصًا، وقلت له: «*اسمع، إنك تعانى من مشكلة مصداقية حقيقية فى إسرائيل. فأنت تقول أشياء ليست صحيحة على الإطلاق، مثلما تحدثت على سبيل المثال عن رصاص مغلف باليورانيوم: إن هذا النوع من الرصاص غير موجود، لا فى إسرائيل ولا فى أى مكان آخر. صدقنى، إنك تفقد اعتبارك عندما تقول مثل هذه الحماقات*». ولكنه لم يكن يريد أن يفهم شيئا، وقال لى إنه يعرف تماما ما يقوله، وإنه مهندس، إلخ. ثم ألقى خطابه واتهم فيه إسرائيل بأنها تقوم بمؤامرة لإعادة احتلال المنطقة. هذه الخطة تدعى «جيهين» وشرح أن معناها بالعبرى هو «هجوم». وقمت بلفت انتباهه إلى

أن هـذه المؤامـرة ليس لها وجود إلا فى خياله، بالإضافة الى أن هناك خطأ فى الترجمة، لأن كلمـة «جيهين» بالعبـرى لا تعنى «هجوم» بل تعنى «جهنم». ودعوتـه مرات إلى عدم تكرار هذه الأشـياء لأن فى إسـرائيل الجميع يسـتهزئ به، ولكنه لم يعدل عن موقفه: بل أصر على أنه تلقى هذه المعلومات من مصدر موثوق فيه، من جهاز مخابراته...

ثـم كان بينـى وبين عرفات، مواجهة مؤسـفة ثالثـة. كانت فى ديفوس حيـث دعينا نحن الاثنـان لإلقاء كلمـات أمام عدة مئات من قيادات العالم أجمع. وقـع ذلك فى ٢٨ يناير عام ٢٠٠١م، إذن فى وقت المرحلة الأخيرة من مفاوضات الفرصة الأخيرة، أى نحو عشرة أيام قبل الانتخابات التى ستأتى بشارون إلى السلطة. كما تم الاتفاق على أن يشاهد الإسرائيليون هـذا الاحتفـال. واتفقنا هذه المرة أيضًا، على ألا يقوم أى منـا بمهاجمة الآخر، وصعدنا معا إلـى المنصة وتعانقنا. ولكنـى فوجئت بعرفات يقوم بتوجيه نفـس الاتهامات بنفس العنف. ولأننا فى إسرائيل كنا فى ذروة الحملة الانتخابية، فقد استغل اليمين خطاب عرفات.

سـألنى مبـارك يومًا ما، ما الـذى يمكن أن يقوم به لتحسـين العلاقات بين الإسـرائيليين وعرفات. وأجبته قائلا: «*سـيدى الرئيس، يكفيك ميزانية من خمسمائة دولار شهرية تدفعها مرتب كاتب جيد يستطيع أن يكتب خطب عرفات. خمسمائة دولار شهريا، يا سيدى الرئيس، وتغير المعطيات فى الشرق الأوسط!*». إننى لا أمزح: ففى كل مرة أعود فيها من رحلة يهرع إلـىّ الوزراء والنواب ليقولوا لى: «*هل سـمعت تصريحات عرفات الأخيرة؟ ما رأيك فيها؟ وهل مع هذا الرجل تريد أن تقيم السلام؟ كيف يمكنك الاحتفاظ بالثقة فيه؟ إلخ*».

لـم يكن عرفات يهتم كثيرا بالحفـاظ على مصداقيته، ولكنه جعلنا نفقد مصداقيتنا نحن، وسـاهم بشكل حاسم فى وصول الصقور الإسرائيليين إلى سدة الحكم. إننا لا ندرك بشكل كاف حجم المسـاعدة التى منحهـا عرفات (وكذلك بالطبع متشـددو حماس والجهاد) إلى المتطرفين الإسـرائيليين. فقد كانت حجة هؤلاء بسـيطة: «*اسمعوا ما يقوله عرفات، وقرروا بوحـى من ضميركم وقرروا إن كنا نسـتطيع توقيع اتفاق سـلام مع رجـل يكثر من مثل تلك التصريحات؟!*».

أندريه فيرساى: لنعود إلى تطبيق الاتفاقيات، نجد شيئًا مدهشًا كيف تستطيع المعارضات القويـة أن تنفجر، ليس فقـط حول النقاط المهمة، ولكن أيضا حول المبادئ الأساسـية: فى كتابه، ١١٠٠ يوم غيرت *الشـرق الأوسـط*، كتب يورى سـافير عن المباحثات الخاصة بنقل المحميات الطبيعية التى أقامها الإسرائيليون منذ عام ١٩٦٧م. مفاوضات حول مسألة ثانوية، قليلة الأهمية، والتى يبدو أنه كان يجب أن يتم الاتفاق عليها بسهولة: الوفد الإسرائيلى الذى

كان مهتما بالبيئة، أراد أن يتأكد أن الفلسطينيين سوف يحتفظون بتلك المحميات كما يجب؛ وجد الوفد الفلسطينى، أنه من المذهل أن فى الوقت الذى يعيد فيه الإسرائيليون أراضيهم إليهم، يسمحون لأنفسهم بمطالبتهم بأن يحافظوا عليها بالطريقة الإسرائيلية! وكان من غير الوارد على الإطلاق بالنسبة لهم أن يتم إدراج مثل هذا الطلب فى بروتوكول الاتفاق. لقد كانت مسألة مبدأ: «*إنك تعيد إلينا أرضنا، ونحن نعمل فيها ما يحلو لنا. تلك الأرض لم تعد ملكا لك*». من الواضح أن الفلسطينيين اعتبروا هذا الطلب بمثابة تعبير عن ازدراء، كما لو كان الإسرائيليون يعتبرونهم غلاظ الطباع، بعيدين عن أى اهتمامات بيئية.

بطرس بطرس غالى: نعم، تلك قصة طريفة تتعلق بمسألة قليلة الأهمية، ولكنك على حق، إنها تكشف عن الكثير. مرة أخرى، نجد أنفسنا بصدد عقلية مستعمر مغرور لا يسعه أن ينظر إلى المواطنين الأصليين بشكل آخر غير أنهم شعوب بدائية.

أندريه فيرساى: ولكن، بكل تأكيد، المسائل الأساسية فى المفاوضات دارت حول قضايا أكثر عمقًا.

شيمون بيريز: نعم، ومن بين المشاكل التى كان علينا مواجهتها خلال المفاوضات، ظهرت مشكلة إطلاق سراح المحتجزين. كنا نعرف أنه بدون إطلاق سراح عدد كبير من المحتجزين، فإن منظمة التحرير لن تستطيع أن تقنع شعبها بالاتفاقيات. ولكن من ناحية الإسرائيليين، تبدو هذه البادرة غير مفهومة: فقد عانى عدد كبير من مواطنينا من الإرهاب وبدت لهم فكرة إطلاق سراح هؤلاء الذين تمت إدانتهم فى محكمة ديمقراطية، غير محتملة. بالإضافة إلى أن عددا كبيرا من الإسرائيليين أراد أن تقوم السلطة الفلسطينية بتسليم المحتجزين المتهمين بقتل إسرائيليين، ولكن بالطبع رفض الفلسطينيون.

وفى النهاية اتفقنا على أن تقوم السلطة الفلسطينية بالقبض على الفلسطينيين المشتبه فى ممارستهم الإرهاب ومحاكمتهم. ولكن حتى هذا الإجراء بدا تطبيقه صعبا للغاية، حيث إن قتل إسرائيليين كان يعتبر فى وقت سابق عملاً طبيعيًا من أعمال النضال من أجل التحرر الوطنى.

أندريه فيرساى: فى ٢٥ فبراير ١٩٩٤م، حينما بدأ تطبيق الاتفاقيات، قام باروخ جولدشتاين، طبيب يهودى يعارض بعنف أى فكرة لإقامة دولة فلسطينية، بالهجوم على فلسطينيين، خلال شهر رمضان، وهم يقيمون الصلاة فى الحرم الإبراهيمى بالخليل. قام هذا الجندى الاحتياطى مرتدياً زيه العسكرى بقتل ٢٩ مسلما برصاص مدفعه الرشاش،

ثـم قتل. كان جولدشـتاين، الذى ولد فـى بروكلين، يعيش فى مسـتوطنة كيريات آربا، وهى مسـتوطنة يهودية تقع عند أبواب الخليل، وكان عضوا فى حركة كاخ، ولا نبالغ إن وصفناها بأنها حركة متطرفة عنصرية تابعة للحاخام مائير كاهانا.

بطـرس بطـرس غالـى: لقد كانت تلـك المذبحة صدمـة رهيبة. ليس فقـط فى الأراضى المحتلة، ولكن فى كل العالم العربى والإسلامى حيث أثارت سخطًا وغضبًا واسع النطاق. ورأينا مظاهرات، ليس فقط فى إيران وفى بعض بلاد الرفض الأخرى، ولكن أيضا فى الدول التى ساندت عملية السلام: فى مصر والأردن والمغرب وتونس..

شـيمون بيريز: وكما لك أن تتخيل، فقد كانت صدمة فى إسـرائيل أيضا: يهودى يرتكب عمـلاً إرهابيا ودمويا كهذا! يدخل مسـجدا ويطلق الرشـاش بدم بارد على المسـلمين وهم يصلون! عنى شخصيا، لم أتصور أبدا أن مثل هذا العمل يمكن أن يرتكبه يهودى إسرائيلى! وقـد كان حقيقـة، صدمـة عنيفة لى. ولـم أكـن بالطبع الوحيد، بـل كل البلاد، باسـتثناء أقلية صغيرة جدا من المتعصبين، شعرت بالرعب من هذه الجريمة.

ويجب أن أشـير إلى أن السـلطات الدينيـة الأكثر تطرفًا أدانت هـذا العمل. ولكن يجب أيضا القول إن عدة مئات من الأشخاص، شاركوا فى جنازة باروخ جولدشتاين الذى تحول إلى «شهيد» وإلى «*بطل كرس نفسه لقضية مقدسة*». وأصبح قبره فى كيريات أربا هدفا يؤمه عـدد من المتعصبين. إنه شـىء لا يصدق، ولكنه موجود. ذلك يظهـر أننا نحن أيضا، يمكننا أن نضـم إرهابيين، وأنه فى الوقت الحالى، يجـب ألا نخاف فقط من المتطرفين فى حماس والجهاد. وقبل أن يجف الحبر على اتفاقيات السلام، كانت هذه الاتفاقيات قد بدأت تواجه خطر المتطرفين على الجانبين، وفى أحيان كثيرة، يكونون على اتفاق فيما بينهم.

لقـد كانـت صدمتى من هـذا العمل كبيرة حيث إن هذا العمل الذى سـوف ينقل بشـكل إعلامى مبالغ فيه فى العالم العربى، وسـوف ينظر إليه على أنه عداء للإسـلام، يكشـف عما يعتقد أنه «كراهيتنا للمسلمين».

لذلـك قمنا فورا باحتجـاز أعضاء هذه الحركـة وأعلنا عدم قانونيـة منظمتين متطرفتين: كاخ وكاهانـا خـاى. كنـا نأمل أن يكـون هذا العمل مجـرد عمل فردى لشـخص مضطرب، ولا يعكس بأى شكل من الأشكال تيارا ذا معنى فى إسرائيل.

كان علينـا الرد بسـرعة على هـذا العمل. بعد المذبحة مباشـرة، تفجـرت مظاهرات فى الخليـل، أسـفرت عن مصرع سـتة فلسـطينيين، وفرض الجيـش حظر التجول فـى المدينة.

للأسـف، حتـى ولـو كان ذلك بهدف القضـاء على العنف، قوبل هذا الإجراء بشـكل سـيئ للغايـة من الفلسـطينيين الذين اعتبروا أنهـم، بعد التعرض لمذبحة، يجـرى معاقبتهم، وهم الضحايا...!

مع ذلك، كما توقعنا، كان لهذه الجريمة عواقب على المفاوضات السارية. عرفات، الذى أعربنا له بالطبع عن عزائنا الصادق، قطع المباحثات. ثم أوضح أننا إن لم نفعل شيئا، فسوف يفقد ثقة شـعبه، وقد تتعرض العملية للخطر، وطالب كشرط لاستئناف المفاوضات، إخلاء كل المسـتوطنات فى الخليل (بالأخص كيريات آربا)، وأيضا إنشاء قوة شرطة فلسطينية فى المدينة. وفى نفس الوقت، طلب من مجلس الأمن إدانة إسرائيل.

بطرس بطرس غالى: لم يكن على خطأ، لم يكن فى الخليل إلا ٤٢ عائلة يهودية ولـم تكن اليشـيفا تضـم إلا نحو مائة طالب. هل كان حقيقة مسـتحيلا نقلهم، علـى الأقل إلى كيريات أربا؟ فى ٢٦ فبراير، أرسلت، بصفتى سكرتير عام الأمم المتحدة، برسالة إلى اسحق رابين، أعربت له فيها عن الأسى الذى أشعر به نحو مأساة الخليل، والأمل فى ألا تؤدى إلى الإضرار بعمليـة السـلام. وفى ختام الخطـاب، قلت له ما معنـاه تقريبا: «*إننى على درايـة حقيقية بأن إسـرائيل كانت دائما ضد وجود الخوذات الزرقاء فى الأراضى المحتلة، ولكن فى مواجهة مأسـاة الخليل، أليس من الممكن أن يكون هنـاك وجود للأمم المتحدة، لإقامة تعاون وثيق مع حكومتكم؟ إن كنتم توافقون، فإننى على اسـتعداد لأن أرسل إليكم مبعوثا خاصا لبحث آليات هذا التعاون. ومن وجهة نظرى، هذه المبادرة سـوف تكون مواتية لخلق مناخ سـلمى يسمح بتجاوز أزمة الثقة الخطيرة التى سادت بين الفلسطينيين والإسرائيليين*».

لم أتلق ردا أبدا. فى المقابل عاتبنى السـيد روبن، المتحدث الرسـمى لمدام أولبرايت، على هذا التدخل فى الشئون الداخلية لإسرائيل. فرددت عليه قائلا: «*لقد أرسلت رسالة إلى رابين، وروبن هو الذى يرد علىّ*»، ونشـر الرد فى الصحافة العربية. وبسـرعة تردد فى أروقة الأمم المتحدة أن هذا الرد تشوبه معاداة السامية...

شـيمون بيريز: لقد أدت المذبحة التى ارتكبها جولدشـتاين، إلى التأكيد مرة أخرى على اقتناعى بضرورة إخلاء يشيفا من الخليل، والتى تقع فى وسط السكان العرب (وهو ما فكرنا فيـه بالفعـل على أية حال، ولكن لأسـباب فنيـة يطول شـرحها، أجلنا الموضـوع إلى وقت لاحق).

فى تلك اللحظة، كان الأمر مستحيلاً سياسيّا، لأننا كنا سنواجه ردود فعل عنيفة جدا من اليمين الإسرائيلى. وفى النهاية ألغى رابين قرار الإخلاء. لقد كان الخوف من ردود فعل المستوطنين، يسمم الوجود، وأكثر من مرة، استشطت غضبا ضد هؤلاء الذين لم يتوانوا عن تحذيرنا من ردود فعلهم.

وأخيرًا، فهم عرفات أن التعامل بقوة ضد يهود الخليل، قد يفجر حملة كبيرة من الاعتراضات، من شأنها أن تضر بعملية السلام. ولذا وافق على استئناف المفاوضات. لقد كان قرارا شجاعا، لأنه كان قرارا غير شعبى، وضد مطالب العديد من فلسطينيى الأراضى، وعدد من الشخصيات الكبيرة فى العالم العربى بوجه عام، الذين طالبوا بإخلاء المستوطنين فى الخليل كشرط لا غنى عنه لاستئناف المفاوضات.

أندريه فيرساى: الأمور سوف تهدأ وبعد أربعة أشهر، فى أول يولية ١٩٩٤م، عرفات الذى نفى من فلسطين منذ عام ١٩٦٧م، عاد إلى غزة تصحبه الهتافات.

شيمون بيريز: نعم، كان الحماس على أشده. لقد كان هناك مائة ألف فلسطينى ينتظرونه فى الميدان الرئيسى فى غزة. والآخرون، بمن فى ذلك الإسرائيليون، كانوا يتابعون بالتأكيد، الحدث عبر شاشات التليفزيون.

من الجانب الإسرائيلى، لم يكن هناك إجماع حول هذه العودة. وقد كان لى مع رابين مناقشات حول هذا الموضوع. وعنى أنا شخصيا، فقد قدرت أنه لابد أن يغادر عرفات تونس ويقيم فى غزة. كنت أرى أنها مسألة مهمة جدا، كما أنها عادلة. ولكن رابين لم يكن مؤيدا لها. لقد كان يخشى رد فعل الشعب الإسرائيلى إزاء إقامة الرجل الذى قاد كل تلك الهجمات من تونس، فى غزة. كما أنه لم يكن مقتنعا تماما أن عرفات تخلى حقيقة عن الترهيب. وبالطبع، لم نفلت من انتقادات اليمين: ففى الصحافة وفى الكنيست، قام اليمين بمهاجمتنا بعنف.

بشكل عام، تزايدت التساؤلات. كان عرفات والإدارة فى تونس سيصلون إلى غزة. نعم، ولكن أى نوع من السلطة ستقيم هناك؟ كان المسئولون الفلسطينيون وأكثر منهم، المثقفون، يعلمون أن رئيسهم لم يكن ديمقراطيّا حقًا: كيف ستستطيع «مقاومة الداخل» العمل مع عرفات؟ وكيف سيتم تقسيم الاختصاصات والمسئوليات؟ هل من الممكن تصور مجال ديمقراطى، ولو محدود؟

كان السؤال الأخير قد فهم بسرعة: لقد كان من غير الوارد على الإطلاق أن يفقد عرفات شبرا واحدا من السلطة. وفى الوقت نفسه، من بين المشاكل التى سنواجهها، كان بالطبع الجهل الذى يتمتع به الفريق الحاكم الفلسطينى فى مسألة الإدارة الحكومية، ولكن ما كان أيضا مقلقا بنفس القدر، هو الهاجس الذى استحوذ على عرفات بضرورة الاستمرار فى تركيز كل السلطة فى يديه. وذلك بالإضافة إلى الهوس الذى يقوده إلى تغذية الخلافات للتفرقة بين مستشاريه: ويظل مبدأه حتى النهاية هو فرق تسد.

ورغم ذلك، فقد كانت عودة عرفات إلى غزة لحظة تاريخية، بالنسبة له كما كانت بالنسبة لشعبه. فقد شعر الشعب بتشجيع كبير بعدما رأى الجيش الإسرائيلى ينسحب تدريجيًا من الأراضى المحتلة، وبدأت الغالبية من الفلسطينيين ينظرون إلى المستقبل بتفاؤل. وانعكس هذا التفاؤل فى الحياة اليومية. وهكذا، فسوف نرى تدريجيا بعض التغييرات المهمة فى الحياة اليومية لأبناء غزة، الذين سيشهدون تحولا نحو العادات الغربية. خاصة فى الأسلوب الذى سترتدى فيه النساء ملابسها: فالفساتين ستصبح أقصر، والحجاب لن يصبح سائدا كما كان. باختصار، سيقترب أسلوب حياتهم من أسلوبنا، وهو ما لم يعجب الأصوليون، الذين كانوا مصرين على إطلاق حملتهم الإرهابية ضد تطبيق الاتفاقيات.

أندريه فيرساى: كيف نظر الجانب العربى إلى عودة عرفات إلى غزة؟

بطرس بطرس غالى: بالنسبة للمتشائمين كان عيدا من الأوهام؛ بالنسبة للأصوليين كان ثمن الخيانة؛ وبالنسبة للمتفائلين، كانت مرحلة أولى من عملية طويلة. ومن أجل دعم وجود السلطة الفلسطينية فى غزة، حاربت من أجل نقل مقر وكالة غوث اللاجئين من فيينا إلى غزة. ورغم أننى حصلت على موافقتك، شيمون بيريز، وعلى موافقة عرفات، إلا أن الموظفين الدوليين، ومنهم الفلسطينيون، اعترضوا على هذا النقل. فتوالت التقارير التى يرسلونها لتبرير رفضهم. التكاليف: مثل هذا النقل سوف يكلف ٣٠ مليون دولار؛ اختيار المكان: لماذا غزة وليس مدينة من مدن الضفة الغربية، بما أن هناك نفس القدر من اللاجئين فى الضفة الغربية مثل غزة، إلخ. كان علىّ المكافحة عاما بأكمله إلى أن حصلت على نقل وكالة الغوث إلى غزة. ويجب القول، إن قطاع غزة كان، ولايزال حتى الآن، فى حالة مزرية: زيادة رهيبة فى السكان (معدل المواليد فى غزة من أعلى المعدلات فى العالم)، وتعانى من بطالة يمكن أن نقول إنها متوطنة ووضع اقتصادى مفجع، خاصة بسبب الانغلاق الذى تفرضه إسرائيل على القطاع دوريا. ويمكن أن نضيف إلى وجود نظام مجارٍ ملىء بالعيوب، بل غير موجود من الأصل، ونظام مياه نقية وكهرباء قاصر هو أيضا. هذا البؤس المتأصل،

كان مـن الصعـب تحملـه فى الوقت الـذى كان المسـتوطنون الإسـرائيليون فـى قطاع غزة يتمتعـون بوضع مختلف تماما: فقد كانوا يعيشـون فى أوضاع عاديـة تماما، ولكن بالمقارنة مع الوضع فى غزة، بدا وكأنهم يعيشـون فى رفاهية كاملة. وتدهش بعد كل هذا من السهولة التى يقوم بها كل من حماس والجهاد بتجنيد الانتحاريين...!

أندريه فيرساى: حقيقى، عما قريب، سيقوم هؤلاء الانتحاريون مـن حماس والجهاد، باستئناف خدمتهم. فكل تقدم فى عملية المصالحة يعمل ضـد مصلحة الأصوليين: وكلما تحقق الاسـتقرار الاجتماعى والتقـدم الاقتصادى، وجدوا صعوبة فـى انضمام أنصار لهم. ولكن ليس المتشـددون فقط الذين ثاروا ضد عملية السـلام. فمن أكثر المعارضين لها نجد القيادات الفلسطينية من الجيل الأول: جورج حبش، رئيس جبهة التحرير الشعبية الذى قال: «*يجب إلقاء عرفات فى صنـدوق القمامة*»؛ وأحمـد جبريل، زعيم الجبهة الشـعبية لتحرير فلسـطين ـ الأمانـة العامـة، توقع أن يلقـى عرفات نفس مصير السـادات؛ ونايـف حواتمه، زعيم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، تعهد بأن يمزق الاتفاق باستخدام أعنف الطرق. وحتى داخل منظمة التحرير نفسـها نجد مسئولين فلسـطينيين يعتبرون عرفات استسلم أمام «*الشـروط القسـرية التى فرضتها* إسـرائيل»؛ ومن بين هؤلاء، فاروق قدومى، أحد مؤسسى فتح ورئيس المكتب السياسى (وزارة الخارجية) بمنظمة التحرير.

شيمون بيريز: والتهديدات سوف تنفذ. ولقد كنت أعارض رأى عدد كبير من الإسرائيليين الذيـن انتقدوا انسـحابنا من غزة، لأنهم رأوا أن الفلسـطينيين سـوف يسـتفيدون من الوضع مـن أجل زيـادة هجماتهم ضد القرى الإسـرائيلية، لقد كنت مقتنعا أن إعـادة تلك الأراضى سـيؤدى إلى دعم الفلسـطينيين المعتدلين. ولكن الأمر كان مختلفًا. فالهجمات لم تتوقف: لا ضد المسـتوطنات فى غزة والضفة الغربية، ولا حتى فى القرى الإسـرائيلية الواقعة خلف الخط الأخضر.

لذلك، فى مواجهة هذا الترهيب، والذى من الواضح أن السـلطة الفلسـطينية لم تستطع، أو لـم ترغـب، فى محاربته بتصميم كاف، قررنا إغلاق حـدود الضفة الغربية وغزة. هل كان ذلـك الـرد جيدا؟ رأى بعض العسـكريين أن الطريقة لم تكن مناسـبة، ولكن بالنسـبة للرأى العام الإسـرائيلى، هذه السياسـة كانـت تعطيهم إحساسًـا بالاطمئنان، وبالتالـى تهدف هذه الإجراءات إلى حماية الشعب.

بطـرس بطرس غالى: بلا شـك، ولكن الأصوليين لم يترددوا فى اسـتغلال الموقف من أجـل «شـرح» كيف ان اتفاق غزة ـ أريحـا ليس إلا مواصلة الاحتـلال ولكن بطرق أخرى.

أعتقد أن لك تصورًا «أمنيًا» للأمن، بمعنى أنه تصور تكنيكي محدود، وليس تصورًا سياسيًا شاملاً يأخذ فى الاعتبار المؤثرات التى حرضت عليه. على سبيل المثال، العمل بحيث لا يشعر كل الشعب الفلسطينى بأنه يعيش تحت السيطرة الدائمة لقوات الاحتلال.

شيمون بيريز: أنت تنظر إلى المسائل برؤية نظرية. حاول أن تنظر إلى الوضع كما تعيشه إسرائيل: تتكاثر الهجمات بعنف متزايد؛ فقد قام الانتحاريون فى أكتوبر، من بين هجمات أخرى، بتفجير حافلة فى قلب تل أبيب أسفرت عن مقتل ٢٢ شخصًا. ماذا فعلتم فى مواجهة ذلك؟ هذا الهجوم سيكون من عواقبه الفورية، الإضرار باتفاقيات أوسلو: اليمين سوف يحمل الحكومة مسئولية هذه المأساة وسوف ينظم مظاهرة ضخمة، حيث سنسمع من المتظاهرين شعارات مثل: «*هذا السلام يقتلنا!*» «*رابين قاتل*».

ويجب أن اعترف أننى لم أحسن تقدير، كما لم أتوقع قوة المعارضين لاتفاقيات سلام أوسلو.

لا يتخيل من فى خارج إسرائيل، إلى أى حد تعرضنا، أنا واسحق رابين، للإهانات، وعوملنا كخونة وقتلى. وحتى رابين، الذى كان يحتل مكانة عالية بين الجنرالات فى إسرائيل، والذى قاد البلاد إلى الانتصار فى عام ١٩٦٧م عندما كان يتولى منصب رئيس الأركان، كانت الهتافات تعلو ضده بشكل مشين. وجرى تبادل صور مركبة لرابين، تظهره وهو يرتدى الكوفيه الفلسطينية أو فى بذه عسكرية نازية. تفجرت حملة كراهية لم يسبق لها مثيل على الإطلاق، وانتهت باغتياله فى نوفمبر عام ١٩٩٥م.

ورغم ذلك، كان رد فعل عرفات لصد الإرهاب رخوا، كما لو كان يجد صعوبة فى فهم الخطر الذى ينتظر الاتفاقيات. ولكن، لأنه كان مقتنعًا بأن الحل يكمن فى التغيير التدريجى للمناخ النفسى، لم يتخذ إجراءات جادة ضد المتشددين. يجب أن نعرف أن عرفات كان يتصور دائما أنه الرجل الأكثر علما فى العالم، وهو ما كان مأساويا، حيث إن جزءًا كبيرًا من معلوماته كانت خطأ.

بطرس بطرس غالى: كان عرفات مدركا تماما أن الهجمات كانت تضع اتفاقيات أوسلو فى خطر، والتى تطبق بصعوبة شديدة. المهم هو معرفة إن كان فى تلك اللحظة، لديه الوسائل لمواجهة الأصوليين والمتشددين. أنا شخصيًا لا أعتقد.

فعلى عكس ما نتصور بوجه عام، لم يكن موقفه سهلاً. فمهما كانت شعبية عرفات، وهو زعيم «تاريخى» بلا أدنى شك، فقد ظل رغم كل شىء، زعيما «من الخارج» لم يعانِ

الاحتلال الإسرائيلى. وبذلك كان من الممكن، برغم المواقف الرسمية، ألا تعترف شريحة كبيرة من الفلسطينيين بزعامته الحقيقية. بالإضافة إلى أن عرفات، لم يكن له أية جذور فى غزة، وهو ما كان يمثل نقطة ضعف بالنسبة له فى المجتمع الغزاوى.

لقد أشار أندريه فيرساى، إلى رغبته الدائمة فى الحصول على إجماع، وذلك حقيقى، فمن هذا الإجماع، كما يقال، يحصل عرفات على شرعيته، ولكنه يشهد فى الوقت ذاته على نوع من الضعف. إننا لا نستطيع محاربة المعارضة، خاصة إن كانت مسلحة، إلا من موقف قوة. وأضيف هنا، وهذا رأيى الخاص، ياسر عرفات لم يكن لديه أية ثقة فى التعهدات والالتزامات التى قدمها الإسرائيليون الذين، حتى فى تلك اللحظة، استمروا فى توسيع المستوطنات وتدعيم بناء المستوطنات فى القدس الشرقية.

شيمون بيريز: إن ما بدا لى مسألة مؤكدة هى أن عرفات لم يرغب فى مواجهة حماس والجهاد عسكريا. لقد كان حريصا على المحافظة على الوحدة بين كل التيارات الفلسطينية. بيد أن كل القيادات الفلسطينية مرت بمرحلة إرهابية، طالت أم قصرت، والآن ينبغى عليهم الانتقال إلى المرحلة السياسية، أى إلى المفاوضات والتنازلات. ولكن عددا من القيادات ظلت إرهابية، وعرفات لم يتخيل أبدا أن يطلق النار على رفاقه القدماء. كان يعتقد دائما أنه يستطيع إقناع المتشددين بالتخلى عن الإرهاب والانضمام إلى خطه.

بطرس بطرس غالى: نعم، كانت سياسته تتلخص فى ترك الوقت للمتشددين لكى يعودوا عن أفعالهم. فى النهاية، كان مناحم بيجين واسحق شامير من الإرهابيين الذين تحولوا إلى سياسيين محترمين.

شيمون بيريز: ولكنهم تخلوا عن الإرهاب. فى المناقشات التى أجريتها مع عرفات، حاولت أن أدفعه لأن يأخذ على عاتقه مسئوليات رجل الدولة، والتى بدونها، كما قلت له، لن نستطيع أبدا أن نصل إلى نتيجة. وأعطيته مثلا: بن جوريون الذى نزع سلاح كل القوى، ثم دفعهم إلى الدخول إلى الصف، سواء كانوا من المنشقين أو لا: الارجون والليهى، ولكن أيضا القوة المسلحة مثل بالماش، إلخ. ولكن عرفات لم يكن يريد أبدا الاستماع إلى ذلك: كان يشك فى اننى أريد أن أدفعه إلى الحرب ضد الأجنحة العسكرية من أجل تقسيم الحركة الفلسطينية وإضعافها. لذلك، بقى نصف متضامن مع المجموعات الأخرى، وبشكل مبهم تمامًا.

وللعودة إلى الهجمات، فقد أثارت بلا شك التوتر فى إسرائيل واتهمنا اليمين المتطرف والدينى والقومى بأننا نريد بيع أرض إسرائيل إلى قاتلى اليهود.

فى ٥ أكتوبر عام ١٩٩٥م، فى يوم قيام الكنيست بالتصديق على الاتفاقيات الثانية لأوسلو (أوسلو ٢)، أظهر نحو عشرة آلاف معارض بعنف، رفضهم للاتفاقيات. فى تلك المناسبة، وصف زعيم المعارضة، بنيامين ناتانياهو، الاتفاقيات بأنها «*استسلام*» وأنها «*تهديد لوجود دولة إسرائيل*». وحيث إن ستة عرب إسرائيليين كانوا جزءا من الأغلبية الصغيرة الحكومية (٦١ عضوا مقابل ١٢٠) زعم أن التصديق على هذه الاتفاقيات تم بأغلبية ليست يهودية فى الكنيست. وأعلن قائلا: «*رابين يعتمد على كل الأحزاب العربية المعادية للصهيونية والتى تساند منظمة التحرير*»، وهكذا شكك أيضا فى مواطنة الإسرائيليين العرب.

أندريه فيرساى: نفس الموقف سيتخذه إيجال عمير، قاتل رابين، الذى سيقول فى محاكمته: «*لقد انتخب رئيس الوزراء بأصوات العرب؛ ٢٠٪ من الأصوات التى صوتت له كانت عربية. هل من الممكن أن أتحمل أن يقرر العرب مصير بلادى؟*».

شيمون بيريز: بالضبط. ورغم أن الرأى العام الإسرائيلى كان فى معظمه مؤيدا لعملية السلام فى أوسلو، إلا أن تلك الحجة بأن الاتفاق لم يتم التصديق عليه بأغلبية يهودية، بدأت تنفذ رويدا رويدا إلى الشعب، وتصور له أن حكومتنا لا تمثل الشعب الإسرائيلى، ولذلك فهى غير شرعية. وفى أثناء المظاهرات، ظل المتظاهرون يحملون الملصقات التى تظهر رابين فى بذة عسكرية نازية. وسوف تتطور الأوضاع إلى حد أننا سنرى حتى الأطفال يضعون نجومًا صفراء كتب عليها كلمة «مستوطن»، ويختلطون مع المتظاهرين الذين سيهتفون «*رابين خائن!*»، «*رابين قاتل!*».

وتضخمت الكراهية، وأصبحت محسوسة. ولكن لا رابين ولا أنا، كنا على استعداد للتراجع عن مواقفنا. وظل رابين حازمًا وواصلنا العملية التى بدأناها. (لقد كانت إحدى تلك اللحظات التى شعرنا فيها بالتضامن الوثيق معا) لذا قمنا بتطبيق خطة الفصل كما نصت عليها الاتفاقيات. وانسحب الجيش الإسرائيلى من المدن الرئيسية فى الضفة الغربية: جنين وقلقيلية وطولكرم ونابلس ورام الله وبيت لحم. أما بالنسبة للخليل، فقد قررنا تأجيل الانسحاب بعد أن وقعت سلسلة جديدة من الهجمات الانتحارية فى القدس وتل أبيب. ولكن للأسف، كانت هناك بعض المشاكل البسيطة: ففى الوقت الذى كانت قواتنا تنسحب فيه من جنين، تصرفت السلطات الفلسطينية بشكل غير لبق، ولم تتدخل عندما قام الفلسطينيون بقذف قواتنا بالحجارة. لم يرد الجيش عليهم حتى لا يسمم الوضع،

ولكن هذه الصور التى نقلها التليفزيون، كانت حجة لكل هؤلاء فى إسرائيل الذين اعتبروا هذا الانسحاب الأول بمثابة صفقة مع مخدوعين.

كما ترى، بطرس، الرعونة وغياب الشعور بنفسية الآخر، وعدم الأخذ فى الاعتبار الحالة الذهنية للآخر، كانت كلها عوامل مشتركة بيننا. عرفات نفسه لم يحاول أبدا أن يفهم نفسية الإسرائيليين. واعتقد أنه كان على خطأ، وأنه كان عليه أن يحاول، كما فعل السادات، ثم الملك حسين، فى زمانهما، أن يجذب الإسرائيليين، أو على الأقل أن يغير صورته كرجل سياسى مسئول، التزم بحق بتقاربه معنا.

بطرس بطرس غالى: الأوضاع ليست متشابهة: الرئيس السادات كان يستطيع الاستناد على دولة، وحكومة، وجيش، وميزانية، وتاريخ يمتد آلاف السنين. عرفات لا يستطيع أن يستند إلا على حركة تحرير غير منظمة، تعيش تحت رحمة المساعدة المالية التى تقدمها لهم الدول العربية التى كانت كل منها، تضع مصالحها الوطنية قبل مصالح الفلسطينيين.

شيمون بيريز: بلا شك، ولكن ذلك لا يمنعه من أن يأخذ فى الاعتبار الحالة النفسية والذهنية للإسرائيليين. مهما كان الأمر، هذه العمليات الأولى للانسحاب، والتى تشهد جيدا على رغبتنا فى التخلى عن الاحتلال، كان لها تأثير جيد فى العالم العربى: فمن الواضح أنهم لم يعودوا ينظرون إلينا مثلما كانوا يفعلون من قبل. وبالانسحاب من مدن الضفة الغربية، خرجنا من المنفى الإقليمى الذى كنا محتجزين فيه منذ سنوات طويلة.

أندريه فيرساى: خلال هذا الوقت، لم يتوقف اليمين عن التظاهر ضد رابين وضدك، شيمون بيريز. وحتى إن البعض تعهد بمحاكمتك بتهمة الخيانة، كما حاكم الفرنسيون بيتان ولافال... كيف كان رد فعل معسكر السلام الإسرائيلى أمام تلك التهديدات؟

شيمون بيريز: فى مواجهة الهجمات التى تتزايد حدتها من اليمين، لم يتظاهر اليسار كثيرا؛ ومر كل شىء كما لو كان يسير على الطريق السليم. فى الحقيقة، لقد قام اليمين بقياس التقدم التاريخى الذى كنا بصدد تحقيقه، أكثر كثيرا من اليسار. وبالطبع كان يراه كارثة، حيث إنه يعلن عن فلسطنة الضفة الغربية وقطاع غزة، تدريجيا.

لذلك أردنا أن نرد على ذلك عن طريق تنظيم مظاهرة تأييد كبيرة لعملية السلام، يوم ٤ نوفمبر عام ١٩٩٥م. ولقد كانت ناجحة جدا: فقد جمعنا نحو مائة ألف من المتعاطفين معنا، الذين تظاهروا بفرح كبير. وفى ميدان الملوك فى تل أبيب، قامت الحشود من المواطنين بالغناء والرقص. ولقد كنا، أنا واسحق، عند شرفة مبنى البلدية، نتابع هؤلاء

المواطنين الشباب يعيشون فى نشوة. كان اسحق سعيدًا جدًّا. وكانت خطتنا أن نهبط معا الدرج والاندماج مع الحشد، ولكن رجال الأمن منعونا: فقد ترددت أنباء بأن حماس تنوى القيام بعملية هجومية. ولكننا لم نكن قلقين، كانت ثقتنا كبيرة فى جهاز أمننا. اسحق لم يكن يعرف لا الغناء ولا الرقص، ولكنه فى هذا اليوم لم يرفض دعوة المطربة ميرى آلونى، ومعها قمنا بغناء نشيد السلام: «*دع الشمس تشرق، دع الصباح يشع نورا*». يجب القول إنه لم يغن أحد منا غناء جيدا، ولم نتذكر الكلمات جيدا. لذلك أعطانا أحدهم قطعة من الورق كتب عليها كلمات الأغنية. بعد الغناء، وضع اسحق الورقة فى جيب سترته ثم هبط الدرج.

بعد قليل، سمعنا ثلاث طلقات من مسدس. لقد قتل رابين. إحدى الطلقات نفذت إلى قلبه، واخترقت الورقة التى كانت تحمل كلمات أغنية السلام.

أندريه فيرساى: كيف تفسر أن شين بيت لم تحبط الهجوم؟

شيمون بيريز: لقد كانت شين بيت تخشى وقوع هجوم بالفعل، ولكن من حماس. لم يتصور أحد أن الطلقة يمكن أن تأتى من يهودى... أنا نفسى لم أتصور أبدا هذا الاحتمال. ثم إنها بادرة من شخص منفرد. ولهذا السبب نجح. يمكنك أن تضع أى عدد تريده من رجال الشرطة، ولكن كيف يمكنهم أن يلحظوا من بين أكثر من مائة ألف شخص، رجلا وحيدا يخفى مسدسا؟

هذا الاغتيال أثار، بالطبع، صدمة نفسية كبيرة فى إسرائيل، ولكن أيضا فى العالم بأسره. فى تل أبيب، عج ميدان ملوك إسرائيل بالمشاعر فى ذكراه. خطت الجدران والأرصفة بكلمات تقدير لإسحق رابين. فى القدس، مئات الآلاف من الإسرائيليين سيتعاقبون أمام منصة النعش الذى وضع على الساحة فى مواجهة الكنيست. ومن بين هؤلاء سنرى العديد من الشباب يضعون شموع الذكرى وهم يتأملون النعش فى صمت. وجاءت أعداد كبيرة من الإسرائيليين أيضا يقفون أمام مسكن رابين لإظهار مساندتهم لأرملته ليا. وفى يوم الجنازة، حضر مائة ألف شخصية كبيرة من العالم أجمع: بيل كلينتون وحسنى مبارك وحسين عاهل الأردن وجاك شيراك والأمير تشارلز ولى عهد انجلترا وأنت يا بطرس، وآخرون كثيرون. فى مطار بن جوريون كانت الطائرات تهبط قادمة من ٨٦ دولة منها عدد من الدول العربية: المغرب وعمان وقطر...

بطرس بطرس غالى: لقد سمعت خبر اغتيال اسحق رابين من الإذاعة، واجتاحتنى صدمة قوية.

كان آخر لقاء لى معه فى نيويورك، فى ١٢ نوفمبر عام ١٩٩٣م. تناولنا العشاء فى مقر سكن السفير الإسرائيلى. فى هذه الليلة، طلب منى أن ألقى كلمة، ولاحظت أن رابين أبدى تخوفا مما سأقوله. ولكن خلال كلمتى، رأيته يستند بظهره على المقعد مسترخيا: قلت فى كلمتى: «*إننى أتذكر الكلمات الأولى من كتاب توماس مان، «يوسف وإخوته» التى يقول فيها: «عميق، بئر الزمن هذا». إنها عميقة جدا بالفعل، آبار التاريخ فى الشرق الأوسط. فى بداية القرن العشرين، ثيودور هيرتزل جاء إلى القاهرة للتفاوض مع جدى، الذى كان فى هذا الوقت وزيرا للخارجية، من أجل بناء مستوطنة يهودية فى سيناء. بعد ثلاثين عامًا، وفى الوقت الذى انضمت فيه مصر إلى عصبة الأمم، اقترح عمى، هو أيضا وزير الخارجية، إقامة حوار بين اليهود والمسلمين والمسيحيين، حتى يسود السلام أراضى فلسطين التى كانت تحت الانتداب البريطانى. بعد أربعين عامًا، رافقت الرئيس أنور السادات فى رحلته التاريخية إلى القدس. أتمنى ألا تأتى أجيال أخرى تضيف إلى آبار الزمن قبل إقامة سلام حقيقى فى فلسطين*». كان إسحق رابين مبتسما، ومناخ العشاء كان دافئا. ذكر جاد يعقوبى سفير إسرائيل، صلاة، وللحظة كان من الممكن أن نصدق أن السلام ساد أخيرًا الشرق الأوسط.

عندما سمعت نبأ وفاته، اتصلت فورا بالسفير الإسرائيلى لأقول له إننى أنوى حضور مراسم الجنازة. وهناك، حجزوا لى مكانًا بجانب الرئيس مبارك وألقيت كلمة، ذكرت فيها أن رجل دولة آخر قتل لأنه وقع على السلام: أنور السادات. لقد شعرت بالرضا الكامل للتذكير به، لأن أحدًا من الذين ألقوا كلمات، لم يفكر فى ذكر الرئيس المصرى.

أندريه فيرساى: فى هذه اللحظة، هل تصورت أن هذا الاغتيال يمكنه أن يضع عملية السلام فى خطر؟

بطرس بطرس غالى: لقد كان يخالجنى شعوران متناقضان. الأول: أن تؤدى المشاعر المتدفقة فى إسرائيل بسبب هذا العمل، إلى تقوية معسكر السلام؛ الثانى: أننا نخاطر بأن نعود إلى نقطة البداية مرة أخرى، ونبدأ كل شىء من جديد.

من جهة أخرى سمحت لى فكرة اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى بأيدى يهودى بأن أقول للإسرائيليين إن الإرهاب ليس مسألة خاصة بالفلسطينيين. ومرة أخرى، نلاحظ وجود نوع من «التحالف الموضوعى» بين المتطرفين الإسرائيليين والمتطرفين الفلسطينيين.

* * *

١٨ـ أوسلو فى طريق مسدود

مواصلة عملية السلام ـ «سوف نجتاح فلسطين وسوف نطرد الصهاينة» ـ «الإرهاب يفرض اللجوء إلى وسائل الحرب» ـ الانتخابات الفلسطينية: عرفات ينتخب بنسبة ٨٥٪ من الأصوات ـ الإرهاب يعاود ـ «الموت لبيريز، الموت للعرب» ـ قمة لصانعى السلام ـ عملية «عناقيد الغضب» ـ قصف كفر قانا ـ «بيبى جيد لليهود» ـ «إن لم توقف الإرهابيين، عملية السلام ستموت..» ـ «هجمات إرهابية وتزايد عدد المستوطنات».

أندريه فيرساى: شيمون بيريز، مات رابين، وأنت خلفته. والآن عادت إليك أنت، بصفتك رئيسًا للوزراء، مهمة مواصلة عملية السلام.

شيمون بيريز: نعم، ومن البديهى أننى، استمررت فى تطبيق اتفاقيات أوسلو. ومنذ ٧ ديسمبر، قررنا أنا وياسر عرفات، أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ونطلق تطبيق الاتفاق المؤقت: إسرائيل تنسحب من ست مدن من الضفة الغربية وأيضا من ٤٦٠ قرية، بينما يتم إطلاق سراح ألف سجين فلسطينى.

وبالطبع، اتهمنى اليمين الإسرائيلى بارتكاب «*خطأ إستراتيجى*» خطير بإخلاء المدن. ولكنى كنت أتصور دائمًا، أن الاختيار الحقيقى لم يكن أبدا إستراتيجى: إنه أخلاقى.

وللأسف، خلال هذا الوقت، فى غزة، كان الإسلاميون من حماس يتظاهرون بعنف ضد اتفاقيات أوسلو وقاموا بحرق الأعلام الإسرائيلية. هؤلاء المتعصبون، والذين كانوا متغلغلين داخل النسيج الاجتماعى فى المساجد وفى المنظمات الخيرية، لم يكفوا عن ترديد أن فلسطين يجب أن «*تتحرر بالكامل*» بقوة السلاح. انطلقت تلك الشعارات فى كل مكان: «*سوف نجتاح فلسطين وسوف نطرد الصهاينة، الطغاة، المغتصبين!*»، «*الطريق*

الوحيد هو طريق البندقية!» إلخ. وحاولت حماس تخريب عملية السلام بإطلاق حملة من العمليات الانتحارية.

لذلك كان علينا وضع كل شيء في حالة تأهب حتى يمكن تدارك التجاوزات التى يتم الإعداد لها. بيد أن من بين الإرهابيين، كان يحيى عياش، «عقل» حماس، والمعروف باسم «المهندس». كان هو الصانع الأساسى للقنابل و«عدو الشعب رقم واحد». لأن عياش كان قادرا على تنظيم عمليات انتحارية على مستوى عال من الدموية، وكان يمثل تهديدا حقيقيا لعملية السلام. لذلك ذهبت لرؤية عرفات وقلت له: «*عياش فى غزة. من فضلك، ألق القبض عليه وضعه فى السجن قبل أن يرتكب هجمات جديدة*». أجابنى عرفات بقوله: «سيد بيريز، *أؤكد لك أن عياش ليس فى غزة*». قلت له مكررًا: «*إنه فى غزة ويعد هجمات جديدة*». ولكن عرفات لم يتخل عن رأيه: «*أقول لك إننى على يقين إنه ليس فى غزة*». فأرسلنا له رئيس المخابرات السرية (والذى كان أيضًا أحد نشطاء السلام) الذى برهن له عن وجود عياش فى غزة. وحدد له المكان الذى يختبئ فيه، ولكن عرفات رفض تصديق أى كلمة. فى هذه الحالة، وأمام إنكاره المستمر، ماذا كان يمكننا أن نفعل؟ لذا قررت أجهزة مخابراتنا أن تتولى هى الأمر بنفسها، وفى ٥ يناير عام ١٩٩٦م، قضت على «المهندس».

بطرس بطرس غالى: أريد أن أذكركم هنا، بأن عرفات ورابين عقدا اتفاقا يقوم عرفات فى إطاره بإعادة عياش من الضفة الغربية إلى غزة، حتى يضمن له الحماية. فى المقابل، تقوم حماس بوضع حد لكل عملياتها ضد الإسرائيليين وذلك لمدة عام. اغتيال عياش قضى تماما على هذه الهدنة، وفجر موجة من الانتقام قامت بها حماس التى استعادت بسرعة عملياتها الانتحارية، وخاصة فى القدس. كما ترى، يا عزيزى شيمون، إننا لا نتفق البتة حول سير هذه الأحداث المفجعة.

أندريه فيرساى: على أية حال، عياش سوف يعتبر من هذا الوقت شهيدا، وسيكون من حقه إقامة «جنازة شعبية» له فى غزة، بينما أقسمت حماس أن تنتقم.

أعلن صائب عريقات، أحد كبار المفاوضين الفلسطينيين، أن هذا الاغتيال «*هو أكبر خطأ إستراتيجى فى هذه المرحلة من عملية السلام*». وكان يقدر أن هذه العملية كانت تسير جيدًا، وأن مناخًا خاليًا من كل عنف ساد منذ شهور فى الأراضى المحتلة. مع مرور الوقت، هل تعتقد أن هذا الاغتيال المستهدف كان «مربحًا سياسيًا»، أم أنه كان الخطأ الذى أشعل النار فى الهشيم لدى الفلسطينيين؟

شيمون بيريز: لنفرض أن هذا الرجل، الذى قام بنحو ٦٠ هجومًا دمويًا ضد الإسرائيليين، ارتكب هجومًا آخر. هل تتخيل رد فعل الشعب الإسرائيلى عندما يعرف أننا كنا نعلم أن عياش يعد لارتكاب هجوم جديد، وأننا، رغم معرفتنا بمكانه، لم نحاول عمل شىء...

لم نكن نريد قتل عياش، كنا نريد أن يضعه الفلسطينيون بعيدا عن أى وسيلة لإلحاق الضرر. كان من الممكن إنقاذ حياة عياش، لو كان عرفات ألقى عليه القبض، وهو ما كان يمكن أن يقوم به تماما. ولا أعرف لماذا لم يفعل ذلك. هل هو الخوف من أن يجد نفسه مسئولاً عن سجين مزعج؟ أم خشيته من رد فعل عنيف من المتطرفين؟ لا أعرف.

أندريه فيرساى: هل فرضية أن تكون مخابراته السرية كذبت عليه، وأن عرفات كان يعتقد حقيقة أن عياش غادر غزة، تبدو لك مقبولة؟

شيمون بيريز: إنه ليس مستحيلاً. قد نلاحظ، رغم كل شىء، أن عرفات فى تصريحاته التى أدلى بها بعد موت عياش، قدم مديحًا له.

بطرس بطرس غالى: نعم، ولكن ذلك يؤكد أن الاتفاق الذى تم بين رابين وعرفات، والذى سمح بالهدنة، لم يحترم؛ كان على عرفات فى هذه الحالة أن يهدئ الاستفزاز الذى ساد فى صفوف الفلسطينيين.

شيمون بيريز: ذلك كان كل مشكلة عرفات: كان يريد أن يحافظ على علاقات طيبة مع الجميع. ومرة أخرى، إن كان المرء يريد أن يكون حاكما، يجب أن يعرف كيف يتبع طريقا متماسكا يدفع ثمنه صراعات مع الجناح المتطرف فى معسكره، بدون ذلك لن نستطيع أبدا أن نحرز تقدما.

بطرس بطرس غالى: ألا ترى أن الاغتيال يتناقض بشكل صارخ مع الأخلاق والقانون؟ لقد تحدثت قبل قليل عن الأخلاق، عن الاختيار الأخلاقى. ألا تعتقد أن الحكم بالإعدام بلا محاكمة ولا حكم، ينتهك كل أخلاق؟ فى نظر الفلسطينيين، دم يحيى عياش يبرر دم الإسرائيليين ضحايا الانتحاريين. كان لديك الوسائل لاختطاف عياش، ووضعه فى السجن ومحاكمته. لقد أثبتم فى أكثر من مناسبة أنكم قادرون على القيام بمثل تلك العمليات. لماذا اخترتم الاغتيال؟ هل لسهولته؟ لقد حاولت أن أضع قائمة من الاغتيالات المستهدفة التى قمتم بارتكابها: سميح حلبا ٢٨ عاما قتل بتفجير تليفونه المحمول، حسين عبايات قتل فى سيارته الجيب بصاروخ، إبراهيم بنى عودة، مسعود عياد، عضوا الحرس الرئاسى

لدى عرفات، الشيخ ياسين على مقعده المتحرك، وآخرون كثيرون. ألا تدرك أن فى نفوس النشطاء والشعوب العربية، هذه الاغتيالات المبرمجة، تستثير انتقاما مبرمجا؟!

شيمون بيريز: بداية، أكرر لك، لقد طلبنا من السلطة الفلسطينية أن تلقى القبض على عدد من الإرهابيين حتى تمنعهم من ارتكاب أو قيادة هجمات. ولكن للأسباب التى ذكرناها، فإن السلطة الفلسطينية لم تفعل شيئا. لهذا السبب أخذنا على عاتقنا المسئولية. تسألنى لماذا لم نقبض عليهم؟ إنك حقيقة تتحدث بكل هدوء: كما لو كان يكفى أن نذهب إلى منزله ونقرع الباب مع إذن بالقبض عليه. أما بالنسبة لإجراءات الخطف، حتى ولو نجحنا فى مثل تلك العمليات، فإنها فى غاية الصعوبة وتحتاج إلى وقت طويل للقيام بها، بينما كنا فى وضع طارئ.

ذلك قد يصدمك، ولكن انظر ما يحدث فى دول ديمقراطية أخرى: فى شهر يولية عام ٢٠٠٥م، تعرضت لندن لهجوم إرهابى أودى بحياة خمسين شخصًا. فى اليوم التالى نفسه، أعطت سكوتلاند يارد، الشرطة المعروفة بأنها ديمقراطية، الأوامر لجنودها بأن «تطلق الرصاص لتقتل»، وليس على إرهابيين معروفة هويتهم (كما يحدث فى إسرائيل) ولكن على «المشتبه فيهم»، وذلك ما يفسر مقتل البرازيلى البرىء الذى قتل فى مترو لندن ثانى يوم الهجوم. لقد كان الأمر خطأ بالطبع، حيث إن هذا الرجل كان بريئا، كان خطأ فى «الهدف» ولكن ليس فى المنهج. لم يكن من الوارد القبض على «المشتبه فيه»، ولكن قتله مع سبق الإصرار؛ لقد أطلقوا النار، على رأسه ثمانى مرات. إننى أعطيك هذا المثل، ليس بالطبع لكى ألقى أحكاما ضد البوليس البريطانى، ولكن لكى أجيب على جملتك الاعتراضية الخاصة بالشكل «الديمقراطى» لمحاربة الإرهاب. الإرهاب ليس نوعا مختلفا من أنواع العصابات؛ عندما تقوم دولة ديمقراطية بمحاربة العصابات، يجب أن تحترم القانون وكل القوانين الديمقراطية. ولكن الإرهاب هو حرب حقيقية تشن ضد دولة بهدف تدميرها. ولذلك، وفى حالة تعرض شعبها للخطر، لا تستطيع الدولة الأكثر ديمقراطية فى العالم إلا أن تلجأ إلى «وسائل الحرب».

بطرس بطرس غالى: ولكن، رغم كل شىء، هناك اختلاف رئيسى بين الحادث (البرازيلى الذى قتل بيد البوليس الإنجليزى) ـ والأمر يتعلق هنا بحالة فريدة ـ وبين سياسة متعمدة لاغتيالات مستهدفة. فرغم قوة الحجج التى تقدمها، إلا أنها لا تصمد أمام واقع الأحداث المرير.

أندريه فيرساى: فى ذلك الوقت، جرت الانتخابات الفلسطينية فى ٢٠ يناير عام ١٩٩٦م.

شيمون بيريز: نعم، وكما ذكر اتفاق أوسلو ٢، جرت الانتخابات الحرة فى الأراضى المحتلة، بما فيها القدس الشرقية. لقد كانت مهمة جدًا من أجل مواصلة عملية السلام. هذه الانتخابات ستسمح للسلطة الفلسطينية بأن تستقر بقوة فى المراكز الحضرية الرئيسية فى الضفة الغربية. تمت عملية التصويت بلا مشاكل تحت مراقبة المجتمع الدولى، وبانتخاب الفلسطينيين لرئيسهم، وكذلك المجلس التشريعى. أعرب الفلسطينيون عن مساندتهم لعملية السلام، بالإضافة إلى أن ياسر عرفات، الذى انتخب ديمقراطيا رئيسا للسلطة الفلسطينية بأغلبية ٨٥٪ من الأصوات، وجد شرعيته تتأكد. وسوف أوضح لك أيضا أنه لأول مرة فى تاريخهم، تحصل المرأة الفلسطينية على حق التصويت، ولأول مرة لا تدير قوة أجنبية أغلبية الشعب الفلسطينى. مشاعر المواطنين، والطريقة التى استقبلوا بها السلطة الفلسطينية، شهدت على أننا ندخل عصرا جديدا، صفحة جديدة من صفحات التاريخ نكتبها نحن والفلسطينيون معا.

بطرس بطرس غالى: لا أعتقد أن ذلك كان شعور الفلسطينيين. لأن فى النهاية، المجتمع الدولى هو الذى دعا إلى إجراء هذه الانتخابات، والمجتمع الدولى هو الذى راقبها. أما بالنسبة للفلسطينيين، فكانوا يرون أنهم يمارسون بطريقة شرعية حقهم كمواطنين جدد لدولة قيد التكوين، اعترف بها عدد من الدول الأخرى.

أندريه فيرساى: ولكن بالنسبة لحماس، التى قاطعت الانتخابات، يظل السلام مع إسرائيل محرمًا أكثر من أى وقت آخر. والشعارات ستنطلق: «*لم ننساك يا عياش!*»، «*حماس ستنتقم لعياش!*» بعد أسبوعين، فى نهاية شهر فبراير عام ١٩٩٦م، بدأوا العمل.

بطرس بطرس غالى: هذا يؤكد أن اغتيال عياش كان خطأ جسيما ارتكبه جهاز المخابرات الإسرائيلية.

شيمون بيريز: بالفعل، الإرهاب عاد مرة أخرى؛ ضربة بعد الأخرى، وقعت عمليتان، ليس فى الأراضى المحتلة ولكن فى إسرائيل نفسها، أسفرتا عن مقتل ٢٧ شخصًا وإصابة ٨٠ آخرين. بعد الهدوء، عاد القلق من عدم الأمان، يعاود الإسرائيليين. واتهم المواطنون الغاضبون، عملية السلام بأنها مسئولة عن عمليات القتل تلك.

لم ينته الأمر عند هذا الحد: فى مارس، فى القدس، انفجرت قنبلة بشرية ثانية فى حافلة أخرى، لتؤدى إلى مقتل ١٩ شخصا. وفى اليوم التالى، عملية انتحارية ثانية أمام مركز تجارى فى تل أبيب أسفرت عن مقتل ١٤ شخصًا، كلهم من الصبية، وإصابة ١٥٧ آخرين. وصل غضب الشعب الإسرائيلى إلى ذروته.

وفى هجوم عنيف ضد عملية السلام، بدأت المعارضة بقيادة زعيم اليمين الوطنى بنيامين ناتانياهو، تستعد. فى الوقت نفسه، بدأت حملة كراهية ضدى.

أندريه فيرساى: هذا أقل ما يقال: فسوف نقرأ فى كل مكان شعارات مثل: «*بيريز استقيل!*» وأسوأ من ذلك، على نفس نبرة حماس، سوف نسمع المتظاهرين يهتفون: «*بالدم، بالنار، سوف نطرد بيريز!*»، «*الموت لبيريز!*» و«*الموت للعرب!*».

لقد بدأت تفقد الساحة؛ لذلك - خوفًا من عودة اليمين إلى السلطة، وبالتالى احتمال وقف عملية السلام - تقدم عدد من الزعماء السياسيين الدوليين لتقديم تأييدهم لك بصورة مشهودة.

شيمون بيريز: بالفعل، اتصل بى كلينتون، الذى كانت لى معه علاقات طيبة، وقال: «شيمون، *ما الذى يمكن أن أفعله مفيدا؟*» فاقترحت عليه تنظيم مؤتمر دولى ضد الإرهاب فى شرم الشيخ. فوافق، وقامت واشنطن، بالتعاون مع مصر، بأخذ المبادرة لإقامة هذا المؤتمر الذى تم تنظيمه خلال أسبوع واحد. فى ١٣ مارس عام ١٩٩٥م، كل هؤلاء الزعماء يجتمعون فى شرم الشيخ. لقد فهموا الخطر، وأعلن كلينتون قائلاً: «يجب *ألا* نترك *الإرهاب* يغير مجرى *التاريخ*».

أندريه فيرساى: نعم، وسنرى على جميع قنوات التليفزيون صورتك المدهشة فى شرم الشيخ، يحيط بك كلينتون وحسين ومبارك، وأنت أيضا بطرس بطرس غالى، والرئيس الروسى بوريس يلتسين، وأمراء الخليج، وشيراك، وجون ميجور رئيس وزراء بريطانيا، والمستشار الألمانى هيلموت كول، والملك الحسن الثانى عاهل المغرب، وعرفات، ورؤساء وزراء كندا وتونس، جميعا يمسكون أياديهم.

شيمون بيريز: لقد كانت بالفعل مساندة مدهشة وقيمة. ورغم ذلك، لم تكن كافية!

أندريه فيرساى: لا، لأن جزءا من الرأى العام الإسرائيلى بدا أنه لم ير هناك إلا عملية إعلامية انتخابية.

بطرس بطرس غالي: ليس فقط الرأى العام الإسرائيلى؛ المستشار الألمانى سألك، فى وجودى، وبطريقة ليست دبلوماسية تماما: «*والآن شيمون، هل تعتقد أن هذا المؤتمر سوف يساعدك فى الانتخابات المقبلة؟*».

يجب القول إن موضوع المؤتمر لم يكن محددا تماما؛ أحيانا كان الأمر يتعلق بمكافحة الإرهاب، وأحيانا عن السلام. ولقد سيطر على هذا المؤتمر انطباع بالارتجالية. فى نهايته، تقرر أن نشكل لجنة من الخبراء، تقوم الأمم المتحدة بتفويضها لبحث الإجراءات التى يجب أن تتخذ ضد الإرهاب. ولكن هذه المبادرة لم ترى النور. وأخيرا، نعم، يجب أن نعترف، هذه القمة اختزلت فى عملية «هوليوودية»، استهدفت مساندة حملتك الانتخابية، وإن كان ذلك لدواعى نبيلة لأقصى حد.

أندريه فيرساى: خلال هذا الوقت، وانطلاقًا من جنوب لبنان، واصل حزب الله عملياته فى العمق بدك منطقة الجليل شمالى إسرائيل. ورأت الحكومة الإسرائيلية أن الرد بالتدريج عليها ليس كافيا وقررت أن تنظم عملية واسعة النطاق.

شيمون بيريز: لقد خلق حزب الله فى شمالى إسرائيل وضعا بالفعل غير محتمل. وأطلق هجمات ضد قرى شمال إسرائيل خلال فترة عيد الفصح، واضطر السكان إلى البقاء داخل خنادق آمنة. لم أكن أريد مهاجمة لبنان؛ لذلك توجهت إلى الولايات المتحدة وطلبت منهم أن يأمروا السوريين بأن يوقفوا الميليشيات الشيعية. اتصل الأمريكيون بدمشق، ولكن هجمات حزب الله استمرت: يوم، اثنين، ثلاثة، سبعة أيام، بدون تهدئة. اضطر سكان منطقة الشمال أن يبقوا مختبئين فى خنادق، ونحن لا نرد بعد.. هل لك أن تتخيل الغضب والإهانات التى كان علىّ أن أتحملها بصفتى رئيس الوزراء؟

لم نعد نستطيع أن نكتفى بردود ضعيفة. ولقد فرض علينا أن نقوم برد مناسب. وأكرر إننى أردت بأى ثمن أن أتجنب الدخول إلى لبنان مرة أخرى. لذلك قام جيشنا بعملية فى جنوب لبنان، معقل حزب الله والميليشيات الشيعية: «*عناقيد الغضب*». بدأت فى ١١ أبريل عام ١٩٩٦م واستهدفت تدمير القواعد العسكرية لحزب الله، وفى نفس الوقت، فرض ضغوط على حكومتى لبنان وسوريا، حتى يلجموا الميليشيات الشيعية.

أندريه فيرساى: ولكن بعد أسبوعين من القصف، وقعت القذائف الإسرائيلية على مواقع الأمم المتحدة فى كفر قانا، حيث لجأ العديد من المدنيين اللبنانيين. وقتل ١٠٢ من الأشخاص.

شيمون بيريز: نعم، لقد وقع الأسوأ. أرسلت قوة من ١٨ جنديا بالقرب من قانا من أجل وقف مدافع الهاون والكاتيوشا، التى كانت تضايق بغاراتها القرى الإسرائيلية. كان رجال حزب الله قد أقاموا فى قانا، لوجود مقر قوات الأمم المتحدة. فقد تصوروا أنهم، إن هاجمونا من هناك، فلن نرد عليهم. وحدث أن ٧٠٠ مدنى لبنانى لجأوا إلى مقار الأمم المتحدة، وهو ما كنا نجهله. توجهت قواتنا إلى هناك، وكانت تتلقى الهجمات من كل مكان. فطلبوا من المدفعية أن تغطيها. فى حالة الخطر، تستطيع القوة العسكرية أن تطلب مساعدة من المدفعية بدون أن تطلب إذنا من القيادة العليا. لذلك دخلت المدفعية فى العمليات بدون علم لا القيادة العليا، ولا أنا شخصيا. ثم وقع الحادث المأسوى: وصلت ثلاث أو أربع قاذفات إلى الملجأ وأدت إلى مقتل أكثر من مائة مدنى.

بطرس بطرس غالى: اسمح لى أن أعارضك. فإن روايتك هى إعادة للرواية الرسمية التى تكررها كل الطبقات السياسية الإسرائيلية لدرجة الملل. إننى متأكد أن غدا سيخرج علينا أستاذ جديد مثل بنى موريس، شخصية جديدة رمزية من المؤرخين الجدد الإسرائيليين، وسيقول لنا كل الحقيقة حول مذبحة قانا. دعنى أقدم لك روايتى لما حدث، والتى تقوم على أساس تقارير الخبراء التى طلبتها بصفتى سكرتير عام الأمم المتحدة. لقد كان القصف الإسرائيلى عنيفا، ومن أجل حماية أنفسهم، قام نحو ألف من المدنيين، منهم نساء وأطفال، باللجوء إلى معسكر قانا، أحد مواقع القوات الدولية التابعة للأمم المتحدة، حيث المبانى التابعة للأمم المتحدة كانت تعتبر، وبحق، المناطق الأكثر أمانا، فى كل منطقة جنوب لبنان. يوم ١٨ أبريل، قصفت المدفعية الإسرائيلية هذا المعسكر. وقال فيما بعد، أحد أعضاء موظفى الأمم المتحدة، فى حديثه عن تلك المأساة: سمعنا فجأة «*نوعا من الصراخ الجماعى*». ولأول مرة فى تاريخ الأمم المتحدة، تقوم قوات جيش دولة عضو، بمهاجمة معسكر الخوذات الزرقاء.

أمام هذه المأساة، قررت أن أتحرك بسرعة، فجمعت معاونى المقربين. اقترح علىّ البعض أن أرسل بسرعة إلى الموقع، عسكريين من قسم عمليات حفظ السلام (DPKO)، جنرال هولندى وضابط بريطانى. عند عودتهما، شرحا لى أن القذائف التى قامت المدفعية الإسرائيلية بإطلاقها، كانت من نوع شاربنيل التى عند انفجارها تطلق شظايا فى كل مكان بهدف الإيقاع بأكبر عدد ممكن من الضحايا، وأضافا أن طائرة إسرائيلية بدون قائد، كانت تحلق فوق موقع المذبحة من أجل التقاط الصور. باختصار: من الواضح أن العملية الإسرائيلية كانت مقصودة.

من جانبهم، سارع الإسرائيليون بالتصريح بأنها كانت خطأ، وأن هذا القصف لم يكن متعمدًا، وأنه لم يكن هناك قط طائرة بدون قائد فى المنطقة. واتصل بى إيهود باراك، رئيس الأركان السابق، وفى هذا الوقت كان وزير خارجية، لكى يؤكد لى مرة أخرى أن الأمر كان خطأ. وطلب منى أن أذكر تلك المعلومات فى التقرير، ووعد بأن يبعث لى بجنرال إسرائيلى لتقديم الدليل على ذلك. لذلك أجلت نشر التقرير. فى أثناء ذلك، هب رئيس الولايات المتحدة، بيل كلينتون، لنجدة الإسرائيليين، فتحدث بدوره عن «*خطأ مأسوى فى أثناء إطلاق النار حينما كانت إسرائيل تمارس حقها فى الدفاع الشرعى عن النفس*». وقامت الصحافة الأمريكية بالسير على خطاه والدفاع أيضا عن حجة الحادث: فكانت أحيانا تقوم بشرح كيف أن المكان المستهدف هو موقع لحزب الله، يقع على بعد مائة متر من مبانى الأمم المتحدة؛ وأحيانا أخرى، كانت تقول، كما كتبت صحيفة واشنطن بوست فى العناوين: «*الأسلحة التكنولوجية ليست معصومة من الخطأ*». ثم وصل الجنرال الإسرائيلي إلى نيويورك والتقى مع فريق من قسم حفظ السلام، وشرح حجة الخطأ، بدون أن يقدم أى عنصر جديد لإثباته.

وتعقدت الأمور بالنسبة للإسرائيليين عندما أظهر فيلم فيديو، صوّره جندى نرويجى، الطائرة التى تحلق فوق المنطقة التى وقعت فيها المذبحة، بينما كنا نسمع بوضوح القذائف تنفجر وكنا نرى مبانى الأمم المتحدة وهى تحترق. وحينئذٍ صرحت القيادة الإسرائيلية أن الطائرة كانت مكلفة بمهمة أخرى، ليس لها علاقة بحادث قانا. فى هذا الوقت، تلقيت تعليمات سرية من جانب الإدارة الأمريكية تقترح علىّ: إما أن أتجنب نشر التقرير؛ وإما أن أبعث بسرعة بفريق لمهمة ثانية من أجل كتابة تقرير جديد؛ وإما، أخيرًا، أن اكتفى بتقرير شفهى وأتجنب أى وثيقة مكتوبة. كما قاموا بالتلميح لى بأن الهجوم إن كان متعمدًا، فإن ذلك لم يتم بقرار من رئيس الوزراء؛ ولو نشر التقرير، فإن ذلك قد يضر بشيمون بيريز، الذى كان فى قلب حملة انتخابية ومن مصلحة السلام أن يكون الفائز هو حزب العمل حتى تستطيع أنت، الذى أبرم اتفاقيات أوسلو، أن تضعها موضع التنفيذ. وقالوا لى فى النهاية، إنه إن كان لدى أدنى فرصة لأن يعاد انتخابى لفترة ثانية كسكرتير عام الأمم المتحدة، فإن نشر التقرير سوف يقضى عليها نهائيّا...

رغم رغبتى فى أن يعاد انتخابى، نشرت هذا التقرير الذى يشير إلى أن الهجوم لم يكن عشوائيا، وأنه كان متعمدا. (بهذه المناسبة، لا أعتقد أن نشر التقرير كان له أى دور، ولو صغير، فى هزيمة حزب العمل فى الانتخابات.)

إن كنت أستطيع إضافة عنصر شخصى هنا، فإنه يمكننى القول إن موقفى أصبح من هذه المذبحة فى نظر العرب، رمزًا للمقاومة. وفى أثناء إعادة انتخابى لمنصب سكرتير عام الأمم المتحدة، سيذهب البعض إلى حد القول أننى آخر ضحية من ضحايا العملية الإسرائيلية فى قانا... وبعد سنوات، وعندما توجهت إلى قانا، بناء على طلب من شعب لبنان والسلطات اللبنانية، استقبلنى الجميع مثل *«البطل الذى ساهم فى الكشف عن الحقيقة حول معاناة ومأساة شعب فلسطين فى قانا»*.

شيمون بيريز: جيد جدًّا؛ أنت تقول إن الهجوم كان مقصودًا ومتعمدًا، وتم من أجل القتل. ولكن لمصلحة من؟ كيف تفيدنا هذه الجريمة؟

بطرس بطرس غالى: من أجل الانتقام للمائة مدنى إسرائيلى الذين قتلهم أعضاء حزب الله. أنا أريد فعلاً أن أصدق أنه لا حكومتك ولا هيئة أركانك لم تكن تريد ذلك، ولكن فى كل الأحوال، هؤلاء الذين قاموا بها، كانوا على علم تام بما يقومون به، وكانوا يهدفون إلى قتل أكبر عدد ممكن من المدنيين من أجل إصابة مقاتلى حزب الله فى المكان الذى يجرحهم أكثر من أى شىء آخر، فى عائلاتهم!

شيمون بيريز: اسمع، ذلك ليس له أى معنى. جيشنا لا يقصف المدنيين من أجل الانتقام من أى شخص كان. لن تجد أى مثال آخر على هذا النوع من الانتقام فى كل تاريخ الجيش الإسرائيلى.

بطرس بطرس غالى: مرة أخرى، إننى لا أزعم أن هذه المذبحة خطط لها فى أعلى القيادات، ولكنى متأكد أن قيادات أخذوا القرار متعمدين، بينما كانوا فى أتون المعركة.

شيمون بيريز: هذا لا يمكن تخيله: كانوا سيقدمون لمحكمة عسكرية! هيئة الأركان لدينا، لا تسمح أن يتخذ قرار بمثل هذه العمليات التى من شأنها إثارة مثل هذه العواقب، فى أرض المعركة. إثارة مذبحة بشرية عن قصد - وتلطخ بشكل خطير سمعة الجيش الإسرائيلى؟! إننى أكرر لك، هذه مسألة مستحيلة.

وعلى أية حال، القوات الدولية التابعة للأمم المتحدة، لديها نصيبها من المسئولية. كان لابد على الأقل أن تنبهنا إلى أن ٧٠٠ مدنى لجأوا إليها، وألا تسمح بصفة خاصة لحزب الله أن يقيم معسكره بالقرب من مبانيها، ويقوم من هناك بقصف القرى الإسرائيلية.

أندريه فيرساى: العواقب التى ستسفر عن قضية قانا ستكون كارثة على عملية السلام. فى إسرائيل، كان رد فعل الأقلية العربية الإسرائيلية قويا جدا.

بطرس بطرس غالى: ليس فقط فى إسرائيل، ولكن فى كل أنحاء العالم العربى ستخرج المظاهرات المعادية لإسرائيل، بعضها سيكون عنيفا: فى القاهرة، قتل الأصوليون الإرهابيون ١٧ سائحًا يونانيًا معتقدين أنهم إسرائيليون...

أندريه فيرساى: فى إسرائيل الأقلية العربية تمثل ٢٠٪ من الناخبين، وسوف تقاطع الانتخابات، وبذلك تحرم حزب العمل من الأصوات التى يحتاجها من أجل الفوز على اليمين. من وجهة النظر الفلسطينية، هذه المقاطعة، ألم تكن خطأ، حيث إنها سمحت لليمين الذى كان معاديا بشدة لاتفاقيات أوسلو، بالعودة إلى الحكم ووقف عملية السلام؟

بطرس بطرس غالى: بلا شك، ولكنك تتحدث كما لو كان القرار قد تم التفكير فيه بعمق واتخذ بكل صفاء ذهن. هذه المقاطعة نتجت عن شعور بتمرد عميق وغير محتمل من العرب الإسرائيليين تجاه الوضع المأسوى الذى يعيش فيه أشقاؤهم الفلسطينيون كل يوم. وتدريجيّا، هؤلاء العرب الإسرائيليون سوف يجدون أنفسهم وقد تماثلوا مع النشطاء الفلسطينيين. لأنهم هم أيضا عاشوا نصف قرن من التهميش، إن لم يكن من الإذلال، فى مجتمع إسرائيلى، لم يكن بكل تأكيد، مجتمعهم. هذا الشعب «لم يعد يؤمن به». ويجب بالطبع إضافة أن توجههم إلى التطرف تدريجيا، جاء بسبب العمل أو الدعاية التى تقوم بها الحركة الأصولية والتى لا تزال تمارس نشاطها. لم يتم عمل شىء من أجل امتصاص معدلات البطالة العالية ورفع نوعية النظام التعليمى. لم تكن إسرائيل قادرة على التوصل إلى حل دائم لدمج أكثر من مليون عربى يحملون الجنسية الإسرائيلية. هذه الأقلية التعسة تواجه رفضا مزدوجا: فهم بالنسبة للإسرائيليين، يشكلون صفًا خامسًا محتملاً فى قلب المجتمع الإسرائيلى؛ وهم بالنسبة لفلسطينيى الأراضى المحتلة، يعتبرون خونة، أو على الأقل «يوافقون على كل ما يطلب منهم». فى كل الأحوال، هم يظلون مواطنين درجة ثالثة. فأنتم لم تفعلوا شيئا من أجل الانتباه إلى الوضع المأسوى لهذه الأقلية التى سوف يصل عددها خلال عشر سنوات إلى مليونى نسمة.

شيمون بيريز: على كل حال، هذه المقاطعة كانت خطأ أدى إلى تباطؤ، إن لم يكن تجميد، عملية السلام. ولكنى يجب أن أقر أنه منذ مدة طويلة، كانت إحدى مشاكل حزب العمل، تكمن فى أنه لم يستطع إعطاء صورة للشريك الذى تتقدم معه عملية السلام. وبالنسبة لهذا الموضوع، فقد ذكرت أنت، أنه خلال انتخابات عام ١٩٨٠م، كان السادات يأمل فى فوز الليكود، بدلاً من العمل.

أندريه فيرساى: مع ذلك، وكما دعت اتفاقيات أوسلو، اجتمع المجلس الوطنى الفلسطينى فى غزة فى ٢٥ أبريل عام ١٩٩٦م، من أجل تغيير الميثاق الفلسطينى وإلغاء المواد التى تهدد وجود الدولة الإسرائيلية وتدعو إلى تدميرها. وسوف نلاحظ، مع ذلك، أنه لم يتم التصديق على أى ميثاق جديد لا يحمل هذه المواد، وسيعلن اليمين الإسرائيلى، بشىء من العنف، أن الميثاق القديم يظل مطبقا خلال هذا الوقت..

شيمون بيريز: أعتقد أنها مشكلة اليمين الإسرائيلى، الذى يهتم بشكل خاص بالبلاغة، والذى يتمسك بالكلمات أكثر مما يتمسك بالواقع. إنه ينظر إلى كل شىء من خلال المجهر. كيف لك أن تحرز تقدما إن كنت تنظر دائما إلى كل شىء من خلال المجهر؟ إن نظرت إلى المياه التى تشربها من المجهر، لشعرت بالتقزز، بسبب كمية البكتيريا التى ستراها فيها. بالطبع، يبقى بعض الإبهام فى هذا التغيير بالميثاق، وأنا أيضًا، كنت أتمنى أن يذهب الفلسطينيون إلى أبعد من هذا، ولكن ذلك ليس هو الأهم: ما يهم، أنه تم تعديله رسميًا، أما بالنسبة لما تبقى، فيمكن أن نأمل أن يقوم الزمن بعمله فيه. وعلى أية حال، أعتقد أنه أفضل أن نتقدم فى ظروف إيجابية بوجه عام، عن أن نتقاعس لأننا نريد أن نوضح إلى حدٍ ما، ما فى بعض الالتباسات من إفراط قبل مواصلة عملية السلام.

أندريه فيرساى: كيف رأى العرب التعديل على الميثاق؟

بطرس بطرس غالى: التخلى عن المواد التى تدعو إلى تدمير إسرائيل، تدعم الأمل فى معسكر السلام الذى يرى فى هذا التخلى محاولة للإسراع فى عملية بدأت فى أوسلو. ولكن فى نفس الوقت، يتمرد الأصوليون ضد كل ما يمكن أن يعتبروه خيانة جديدة لمنظمة التحرير.

أندريه فيرساى: حانت الانتخابات الإسرائيلية. توجه الناخبون إلى صناديق الاقتراع فى ٢٩ مايو عام ١٩٩٦م. كانت النتيجة متقاربة جدا، ولكن فى النهاية بنيامين ناتانياهو هو الذى فاز بأغلبية ٤ر٥٠٪ من الأصوات الصحيحة. كيف تفسر هذا الانتصار لليمين، الذى جاء بعد شهور قليلة من مصرع رابين؟ البعض يتهمكم بعدم تنظيم حملة انتخابية صدامية بما فيه الكفاية، وخاصة أنك، على الرغم من طلب أصدقائك، لم تكن تريد «استثمار» مصرع رابين لصالحك.

شيمون بيريز: صحيح، لم أرغب فى استثمار هذه المأساة، فى حين قاد بنيامين حملته من جانبه، بدون أى روح رياضية. لقد كان نارا أشعلها ضدى، زاعمًا بأننى إن جئت إلى السلطة،

فسوف أقسم القدس. تلقى هو مساندة الجماعات الدينية التى رددت فى كل الأماكن وعلى كل الملصقات، أن «*بيبى جيد لليهود..*»، ووصفونى بأننى «*مرشح العرب*». لقد كان أمامنا من ناحية، الرؤية الدينية التى تشتق من التوراة حق اليهود فى كل أرض فلسطين؛ ومن ناحية أخرى، الرؤية السياسية التى تأخذ فى حسبانها الحقيقة على أرض الواقع: التوراة من ناحية، والجيوبوليتيك من ناحية أخرى.

بطرس بطرس غالى: لم ترغب فى استثمار مصرع رابين، وهو من وجهة النظر الأخلاقية مفهوم ويمكن الثناء عليه، ولكن اسمح لى أن أقول لك بكل صراحة إنه من وجهة النظر السياسية، كان غلطة قاتلة.

شيمون بيريز: على كل حال، وبشكل حاسم، إنها الهجمات التى جعلتنى أهزم فى الانتخابات. لقد كنت على وشك الفوز، ولكن الإرهابيين هم الذين كسرونى. لقد كان علينا إحباط ما بين ٣٠ و٤٠ محاولة هجوم كل ليلة. لذلك كنت مشغولاً بالإرهاب أكثر مما كنت مشغولاً بالانتخابات. كان علىّ أن أضمن أشياء كثيرة فى نفس الوقت: الحفاظ على تعهدات فك الاشتباك الذى قطعته للفلسطينيين، محاربة الإرهابيين وقيادة حملة انتخابية. لم يكن لدى الوقت. كما أننى بالإضافة إلى ذلك، فقدت رابين، وهو ما تركنى فى عزلة كبيرة.

كان الفارق بينى وبين ناتانياهو، ٣٠ ألف صوت فقط، من بين ٣ ملايين، وهو ما لا يعد كثيرًا، كما ترون. كنت سأفوز لولا حملة الإرهاب.

خلال فترة الحملة، ضاعفت حماس هجماتها، بينما كان حزب الله يقصف القرى الإسرائيلية فى الشمال. أذكر أول تلك الهجمات التى ظلت تتوالى طوال الحملة، كان انفجار حافلة فى قلب القدس، أدى إلى مصرع نحو عشرة أشخاص. كانت الساعة السابعة صباحا وكنت فى طريقى إلى مكتبى. أبلغنى المسئولون فى مكتبى عن الحادث، وعلى عكس نصيحتهم، توجهت على الفور إلى مكان الهجوم. وصلت، كان المكان مغطى بالجثث، الجرحى كانوا يصيحون من الألم، وكان رجال الإسعاف يضمدون الجراح، كانت هناك دماء فى كل مكان. جاء مئات الإسرائيليين، وعندما رأونى بدأوا يصيحون فى وجهى: «*خائن! قاتل! انظر ما الذى أدت إليه اتفاقيات أوسلو!*».

لقد كانت لحظة صعبة. يشعر المرء بوحدة كبيرة عندما يواجه الكراهية وعندما يعرف فى قرارة نفسه أنها ظالمة. ولكن ماذا تفعل، إنه شعبك... وتواصلت الهجمات، فى القدس،

فـى تل أبيب، وكل يوم يعرض التليفزيون صورا دموية لهذه الهجمات، وللمتظاهرين الذين يوجهون لىّ الشتائم ويحملونى مسئولية هذا الوضع...

ذهبـت لأرى عرفـات وقلـت له: «*اسـمع، إن لم توقـف الإرهابيين، فإن عملية السـلام ستموت..*». فى النهاية، فهم عرفات أنه لم يعد يستطيع أن يكتفى بمحاولة التفاوض حول وقف إطلاق النار مع المتطرفين وأعطى الأمر بتحييد حماس والجهاد الإسلامى. وجد أكثر من ألفى محارب من حماس أنفسـهم وراء القضبان، وقتل نحو عشـرين من زعماء مختلف الجماعات، وتم الاستيلاء على أرشيفهم. من وجهة نظر حماس نفسها، كانت أعنف ضربة تتعرض لها منظمتها.

إن لدينـا هنا الدليل على أن عرفات يسـتطيع، إن كان يريد حقيقة، تحييد المتطرفين وأنه من الممكن عمل تنسيق بين أجهزة المخابرات الفلسطينية والإسرائيلية.

بطـرس بطـرس غالـى: نعم، ولكـن يجب الأخذ فـى الاعتبار إلـى أى حد، مـن الناحية الفلسطينية، لم يكن هذا التعاون الأمنى مع الإسرائيليين يحظى بشعبية، خاصة بعد العمليات الوقائية والاغتيالات المستهدفة التى قمتم بها.

شـيمون بيريـز: هـذا لا يمنع أن الزعمـاء الفلسـطينيين نجحوا رغم كل شـىء، فى إقناع رجالهم بضرورة تلك العملية، حتى تسـتطيع السلطة الفلسطينية فرض سيطرتها. ولكنها جاءت متأخرة: عندما قرر عرفات وقف الإرهابيين، كان الضرر قد وقع.. لو كان بدأ العمل قبل شهر واحد، لكان من الممكن إنقاذ كل شـىء. من المفارقات أن ناتانياهو هو الذى سيسـتفيد من هذا القرار: فقد استطاع أن يقول: «*ترون، لقد وصلت، وأبديت حزمًا، وتوقف الإرهاب..*».

التاريخ كما تعلمون ملىء بالمفارقات..

أندريـه فيرسـاى: بعـد أن أصبح رئيـس وزراء، بات علـى ناتانياهو احتـرام الالتزامات الدوليـة التى أخذتها إسـرائيل، وبشـكل خاص اتفاقيات أوسـلو التـى كان يعارضها دائما. بعد انتخابه، شـعر عدد من الزعماء العرب بالقلق، فقد خشـوا أن تتوقف إسـرائيل عن تنفيذ التزاماتها وتتوقف عملية السلام.

بطرس بطرس غالى: لست متأكدًا أن العرب فى البداية اعتبروا ناتانياهو من المتطرفين. ففى النهاية، كان يقول كل شـىء، وعكسـه. لقد ذهب ليرى مبارك وتعددت وعوده، ولعب لعبة مزدوجة، بل مثلثة. ثم، كما قلت لك من قبل، فى ذهن العديد من الزعماء العرب، كان الفارق بين العمل والليكود هامشـيًا. بالإضافة إلى أنهم كانوا يرون أن السياسـة الإسـرائيلية

لا تعتمد على التوجه السياسي لرئيس الوزراء الذى فى السلطة، بقدر ما تعتمد على موقف ولعبة الإدارة الأمريكية. غداة انتخاب ناتانياهو، أتذكر أننى قمت بسؤال فلسطينيين حول شعورهم بالنسبة لرئيس الوزراء الجديد. أجابونى قائلين: «*إننا فى انتظار أن نرى موقف الأمريكيين..*».

السياسيون العرب ليسوا أقل واقعية من آخرين: فمع ناتانياهو فى الحكم، كانوا يعرفون أن عليهم التعامل معه.

أندريه فيرساى: بعد أربعة أشهر من مفاوضات صعبة، وافقت حكومة ناتانياهو على إخلاء ٨٠٪ من مدينة الخليل، على أن يبقى تحت سيطرتها الحرم الإبراهيمى والمستوطنات اليهودية. وسيقول: «*لقد كان اتفاقا وقّعه مع بيريز، وسوف أنفذه، ولكن مع فكرة أساسية، وهى إعادة الجزء العربى من الخليل مقابل ما يتبقى من يهودا والسامرا - أو تقريبًا كل ما يتبقى منها..*».

رغم كل شيء، اعتبر عرفات أنه حقق انتصارا، حيث إن ناتانياهو أعطاه جزءًا مما يعتبره اليمين الإسرائيلى أرض إسرائيل. بالنسبة للمستوطنين اليهود، كان مأتما واتهموا رئيس الوزراء بأنه غدر بهم.

شيمون بيريز: بالفعل، لقد كان الإسرائيليون يفقدون تدريجيّا الثقة فى ناتانياهو. فى ٢٣ أكتوبر عام ١٩٩٨م، وقع ناتانياهو اتفاقيات واى ريفر، التى وافق بمقتضاها على انسحاب إضافى من أكثر من ١٣ ٪ من الضفة الغربية. بيد أنه ذكر، فى لقاءات خاصة، أن تنفيذ هذه الإجراءات يعتمد على احترام الفلسطينيين لتعهداتهم الخاصة؛ ولما كان متأكدا أن الفلسطينيين لن يلتزموا بتعهداتهم، فإن إسرائيل لن تلتزم بتعهداتها...

أندريه فيرساى: من خلال اتفاقيات أوسلو، تعهدت إسرائيل بألا تبنى مستوطنات جديدة، ولكن بنيامين ناتانياهو رأى أن هذا لا ينطبق على القدس، وسمح ببناء حيّ يهودى جديد جنوبى المدينة، فى الضفة الغربية.

بطرس بطرس غالى: والفلسطينيون لم يكونوا على خطأ، فقد استأنف بناء المستوطنات.

أندريه فيرساى: نعتبر عامة أن هناك عائقين أساسيين أمام السلام: الهجمات الإرهابية، من ناحية، والمستوطنات من الناحية الأخرى. أى من هذين العائقين يبدو لك أنه يحمل قوة أكبر فى إلحاق الضرر؟

بطرس بطرس غالى: أعتقد أن توطين ٢٠٠ ألف مستوطن فى الضفة الغربية يجعل من المستحيل، أو على الأقل غير محتمل، إعادة تلك الأراضى بشكل عام، وبالتالى إقامة دولة فلسطينية قابلة للاستمرار، وهو شرط أساسى للسلام.

بالطبع، الهجوم ضد حافلة يؤدى إلى مصرع ٣٠ شخصًا، من الرجال والنساء والأطفال، شىء بشع. ولكن هكذا هى الأمور، الزمن يمحو هذه المأساة من ذاكرة أغلبية المواطنين (باستثناء، بالطبع، أقارب الضحايا). بينما تزايد عدد المستوطنات يسجل الوجود الإسرائيلى فى الجغرافيا، وفى هذه الحالة، الزمن لن يمحو شيئًا. بل بالعكس، هذه المستوطنات سوف تتزايد مع مرور السنين.

التوقف عن بناء مستوطنات جديدة فى الأراضى المحتلة، يظل اللازمة التى يكررها الفلسطينيون والعرب والمسلمون منذ أول اتصالات لهم فى كامب ديفيد عام ١٩٧٨م. والمشكلة تعود مرة بعد مرة. خلال كل تلك السنوات، نقول للإسرائيليين: «*توقفوا عن بناء مستوطنات جديدة إن كنتم تريدون كسب ثقة الفلسطينيين والعرب اللازمة من أجل تحقيق سلام شامل. كيف تستطيعون التفاوض بخصوص مستقبل الأراضى المحتلة إن كنتم خلال المفاوضات تقومون بتغيير هذه الأراضى ديموغرافيًا وجغرافيا؟ كيف تريدون إعطاء أمل إلى الفلسطينيين إن كنتم تضعوننا كل يوم أمام أمر واقع جديد بقيامكم ببناء مستوطنة سكانية جديدة؟ ..على سبيل الإجابة،* نجد أنفسنا فى مواجهة مع سلسلة من المهاترات أمثال: *إننا لم نبن مستوطنة جديدة، لقد قمنا بتوسيع القديمة*». *إلخ*.

وحتى لا أكرر نفسى، فإننى أؤكد أن سياسة المستوطنات هى أفضل وسيلة لدعم المتشددين العرب وإضعاف أنصار السلام، الذين يُرد عليهم بالقول: «*أمامكم، بالأسمنت المسلح، الدليل الذى يؤكد أن الإسرائيليين لن يعيدوا أبدا كل الأراضى*».

سيكون صعبا على حكومتكم، أيا كانت، أن تنقل كل المستوطنين، كما أنهم، فى أغلبيتهم العظمى، من المتشددين اليهود الذين يملكون من التشدد والتعصب ما يضاهى ما لدى المتعصبين الإسلاميين. وإن لم يتم إخلاؤها، فإن الفلسطينيين سيحصلون، على أكثر تقدير، على قطعة أرض تتمتع إلى حد ما بالحكم الذاتى تشبه جلد الفهد، تتخللها، فى كل مكان، مستوطنات إسرائيلية يحميها الجيش الإسرائيلى. وضع لا يمكن إلا أن يضاعف من عمليات حرب العصابات.

لذلك يمكننا القول إن الهجمات أكثر قسوة، ولكن قدرتها على الضرر أقل من تلك التى للمستوطنات.

شيمون بيريز: إننى أعترف أن زيادة المستوطنات خطأ، وأنها أضعفت معسكر السلام العربى. وحقيقى أيضًا أنه لن يكون من السهل أبدًا، إخلاء كل هؤلاء المستوطنين.

ولكن من ناحية أخرى، فإننى لا أتفق معك إطلاقًا، فيما يخص تأثير الإرهاب. إنك لا تقدر تأثير هذه الهجمات الدموية على الإسرائيليين ذوى النية الحسنة. كم من هؤلاء تحولوا إلى التطرف وقاموا فى النهاية بالتصويت لصالح اليمين، خاصة بعد هذه الهجمات: مرة أخرى، بسبب الهجمات التى قامت بها حماس خلال الفترة الانتخابية التى تلت مصرع رابين، قام الإسرائيليون بالتصويت لصالح ناتانياهو الذى جمد عملية السلام. لقد كان الإرهابيون يعرفون ماذا يفعلون: فمن خلال تزايد التجاوزات، قذفوا إلى أحضان الصقور بأشخاص التزموا بصدق ورغبة حقيقية فى التفاوض، مما أدى إلى إضعاف معسكر السلام الإسرائيلى بشكل خطير.

أعتقد حقيقة أنك لا تتخيل العواقب النفسية التى يؤدى إليها الإرهاب. سأعطيك مثلاً: يورى سافير، هذا النشط المتحمس من أجل السلام الذى كان المفاوض فى اتفاقيات أوسلو. كان أول ما فكر فيه، عندما وجد نفسه فى النرويج من أجل مقابلة أعضاء منظمة التحرير، هو معرفة إن كان الفلسطينيون الذين سوف يقابلهم تورطوا أم لا فى عمليات إرهابية.

بطرس بطرس غالى: بالتأكيد، ولكن إن تحدثت عن التأثير النفسى، سوف أقول لك إنك من ناحيتك، لا تقيس إلى أى حد يعتبر إقامة مستوطنة جديدة، إهانة، ولا تقيس ما تثيره من إهانات مستمرة بسبب التزايد اللا نهائى لعمليات التفتيش والمراقبة المتصلة بتلك المستوطنات.

وفى هذا الصدد، كيف تستطيعون، أنتم الذين تعتبرون أنفسكم الديمقراطية الوحيدة فى المنطقة، تبرير تدمير المنازل، وهو ما يعتبر فى تناقض تام مع كل المواثيق الدولية؟ فى تقرير أعده بيتر هانسن، مدير وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين، ظهر أنه منذ انطلاق الانتفاضة الثانية وحتى نهاية عام ٢٠٠٣م، دمر ١١٣٤ منزلاً فى غزة، تاركين ١٠ آلاف شخص بلا مأوى. ومن ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٢م، كان يدمر شهريًا ٣٢ منزلاً، وبعد عام ٢٠٠٣م وصل الرقم إلى ٧٢ منزلاً شهريًا. ويظهر أن المنازل فى معظم الأحيان، كانت تدمر لأنها كانت تقع فى «المكان الخطأ»، أى فى منطقة مرور... كيف تستطيع أنت، رجل أوسلو، أن تقبل هذه السياسة المتعمدة من تدمير مساكن وبنية تحتية، وأكثر من كل ذلك، فى بلد يعانى من كل هذا البؤس، بينما على بعد بضعة كيلومترات، يرى الفلسطينيون بناء مساكن جديدة ذات أسطح حمراء خاصة للإسرائيليين؟!

شيمون بيريز: بالنسبة لى شخصيًا، كنت سأقوم بعملية انتقاء أكبر فيما يخص تدمير هذه المنازل. ومع ذلك، فإن هذه المنازل لم يتم تدميرها عشوائيًا أو بشكل متعمد ومتجنٍ: إنها مساكن يملكها الإرهابيون أو تم إيواؤهم فيها. سوف أضيف هنا أمرًا بديهيًا نسعى دائما إلى نسيانه: المنزل يعاد بناؤه؛ ولكن شخصا قتل فى عملية هجومية لا يعود إلى الحياة مرة أخرى.

بطرس بطرس غالى: تعرف، الذى أعيبه على إسرائيل، هو أنها تزعم أنها الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط، بينما تستخدم الإجراءات الإجرامية التى يمنعها أى نظام ديمقراطى أيًا كان. إن كانت إسرائيل دولة ديمقراطية، فهى كذلك على طريقة أثينا: ديمقراطيتها تحتفظ بها لليهود فقط؛ أما الآخرون، مهما فعلوا، فسيبقون دائمًا عبيدًا.

* * *

١٩- العـــودة إلى نقطـــة البدايـــة

إيهود باراك، رئيس وزراء - «الأسد على استعداد لمقابلتك، ولكنه لا يريد تحديد موعد» - إسرائيل تسحب قواتها من لبنان، على حساب سوريا - خطة سلام «تضم كل شيء» - نزع القناع عن عرفات - «الانتفاضة كانت ستنطلق على أية حال» - انتفاضة جديدة فى الأراضى المحتلة - تجدد معاداة السامية لدى العرب - تصاعد العنف - كلينتون يقترح خطته.. متأخرًا جدًّا - «كان يطلب منه القيام بتنازلات غير محتملة».

أندريه فيرساى: لنعود إلى عملية السلام. فى ظل حكومة ناتانياهو، لم تحرز عملية السلام أى تقدم، وبدا الموقف مجمدًا. استمر الإسلاميون الفلسطينيون فى حملتهم التخريبية، وفى إسرائيل، هؤلاء الذين أتوا بناتانياهو إلى الحكم، يطالبون الآن بمغادرته. فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٩٨، صوتت أغلبية ساحقة فى الكنيست من أجل إجراء انتخابات مبكرة.

على أرض الواقع توقف تنفيذ اتفاقية واى بلانتيشن. ورغم ذلك، لأن عرفات فهم أن كل عملية إرهابية تفيد موقف ناتانياهو، واصل قمع المتطرفين.

قام اليسار الإسرائيلى من جانبه، بتعبئة نفسه لصالح إيهود باراك، مرشح حزب العمل، «الجنرال الذى تلقى أكبر عدد من النياشين فى تاريخ البلاد». تعهد باراك للإسرائيليين بإجراء تغييرات كثيرة: إقامة السلام مع الفلسطينيين، وكذلك مع السوريين، سحب قوات التساحال من المنطقة الأمنية فى جنوب لبنان «*قبل عام*». وفى ١٧ مايو عام ١٩٩٩م، انتخب بأغلبية ٥٦٪ من الأصوات.

شيمون بيريز: فقدت حكومة ناتانياهو ثقة جزء كبير من الناخبين، بسبب سياساته السيئة. لقد كان ناتانياهو فى الأساس رجل اتصالات، يقوم باستمرار بتصريحات ذات تأثير قوى، ولكن بدون أن تتبعها أفعال. فى الحقيقة، لم يفز باراك بسبب برنامجه، ولكن بسبب رعونة ناتانياهو المتكررة وعدم تناسق سياساته.

أندريه فيرساى: أراد إيهود باراك أن يبدأ بالتوصل إلى اتفاقية سلام مع سوريا، وهو ما بدا له أكثر أهمية من السلام مع الفلسطينيين.

بطرس بطرس غالى: لقد كان مخطئا فى ذلك بالطبع. فإن السلام مع الفلسطينيين كان هو الأهم، والأكثر إلحاحا عن السلام مع سوريا، حيث إن الأمر يتعلق بالسماح لملايين الفلسطينيين الذين يشعرون بالمضايقات والإذلال يوميا، بالحصول أخيرا على الحكم الذاتى، وبوضع المواطنين فى بلد ينتمون إليه، وبالسماح لفلسطينى الشتات الانتقال من وضع لاجئ إلى وضع مواطن يقيم فى الخارج. أما بالنسبة للخلاف مع سوريا، فلم يكن على المحك إلا هضبة الجولان. إن تصرف باراك هو تعبير عن تيار إسرائيلى يضم أغلبية كبيرة، يأمل فى التوصل إلى سلام منفرد مع كل من جيرانه، وتأجيل إقامة دولة فلسطينية بقدر الإمكان.

أندريه فيرساى: كل محاولات التفاوض مع دمشق اصطدمت بمطالب حافظ الأسد بانسحاب إسرائيلى من كافة هضبة الجولان. ولكن على ما يبدو، قبل مصرعه، كان رابين قد قبل تراجعا إلى خطوط ٤ يونية ١٩٦٧م.

بطرس بطرس غالى: نعم، لقد سمعنا جميعا هذه المعلومات. ولكن عندما سعينا إلى الحصول على تأكيدات حولها، اصطدمنا بتفسيرات متناقضة.

شيمون بيريز: بعد جنازة رابين، أجريت لقاء مع كلينتون، الذى سألنى إن كنت على علم بهذه المساومة. وأجبته بأننى لم أكن على علم بها، ولكنى ملتزم باحترام التعهدات التى قطعها رابين على نفسه، سواء كانت مكتوبة أو شفهية. ولكن لم يتم عقد أى اتفاق رسمى: لقد كانت مجرد احتمالات. لقد كان فى حقيقة الأمر، اقتراحا شاملا وليس عرضا رسميًا. لقد كان اقتراحا تقدم به للأمريكيين: *«إنْ انسحبنا من الجولان، فهل سيقبل السوريون من جانبهم..إلخ»* كم من العناصر أعطيت للأمريكيين تسمح لهم باستكشاف نية السوريين. ولكن السوريون لم يعطوا ردهم فى حياة رابين.

أندريه فيرساي: هل كنت تأمل فى التوصل إلى معاهدة سلام مع دمشق قبل انتخابات مايو ١٩٩٦م، وعلى أثر ذلك، مع بيروت؟

شيمون بيريز: نعم. لقد جاء وارين كريستوفر ليرانى بعد زيارة له لسوريا. وقال لى إن الأسد يريد أن يتوصل إلى سلام. فما هى شروطنا؟ فأجبت أن هذه المعاهدة يجب أن تكون معاهدة لسلام شامل يتم من خلالها المصالحة بيننا وبين كافة الدول العربية، وأن تعلن عن بدء عصر من السلام فى الشرق الأوسط، ولذلك يجب أن يقوم بالتوقيع عليها جميع زعماء دول المنطقة.

ووافق الأسد. فقلت لوارين كريستوفر إنه إذا كان لهذا السلام أن يتحقق، فنحن نريده أن يتم قبل الانتخابات الإسرائيلية المقررة فى مايو. واقترحت لقاء فى دمشق بين الأسد وبينى. فعاد كريستوفر ليقابل الأسد، وعند عودته قال لى: «*الأسد مستعد للقائك، ولكنه لا يريد الآن أن يحدد موعدا لذلك*». قلت له ساخرًا: «*موعد مع فتاة بدون تاريخ محدد، إنه مثل موعد بلا فتاة*». وبقت الأمور على ما هى عليه.

أندريه فيرساي: فى عام ١٩٩٩م، فى ظل حكومة باراك، التقى الوفدان الإسرائيلى والسورى سرا عدة مرات فى بيرن بسويسرا، فى وجود الوسيط الأمريكى دنيس روس، الذى دعى كشاهد. فى حقيقة الأمر، اعتبرت إدارة كلينتون أن السلام مع سوريا يمكن أن يكون مفتاح تسوية شاملة فى المنطقة. من جانبه، بدا أن الأسد هو أيضًا كان مستعدا لإحراز تقدم. لقد وافق على استئناف المفاوضات بلا شروط.

فى تصريحاتهما، تنافس كل من باراك والأسد فى إظهار لطفهما الواحد تجاه الآخر؛ فوصف الأسد باراك قائلاً إنه «*رجل قوى وصادق*» يسعى إلى التوصل إلى سلام مع دمشق؛ بينما اعتبر باراك أن الرئيس السورى قام ببناء «*سوريا قوية ومستقلة ومليئة بالمقومات، سوريا* (فى رأيه)، *تلعب دورًا رئيسيًا فى استقرار الشرق الأوسط..*» فيما يتعلق بلغة المجاملات الدبلوماسية، القليل فقط يمكن أن يرقى إلى هذا المستوى.

وأخيرًا، فى ١٥ ديسمبر، فى واشنطن، بدأت فى البيت الأبيض دورة جديدة من المفاوضات الرسمية بين إسرائيل وسوريا. ولكن رغم الرغبة الصادقة للطرفين، توقفت العملية بسرعة، لماذا؟

بطرس بطرس غالى: حاول وارين كريستوفر أن يجعل السوريين ينفتحون على الإسرائيليين، ولكن بلا نتيجة. فى الحقيقة، الأسد لم يكن يثق على الإطلاق فى الإسرائيليين.

(كان الشعور متبادلا!) ففى الماضى قام الإسرائيليون بانسحاب جزئى من الجولان وتم نزع سلاحَ جزءٍ من هذه المنطقة بعد الاتفاقيات التى تم التفاوض بشأنها مع كيسنجر فى عام ١٩٧٤، ولكن الدولتان استمرتا فى التناظر مثل كلبين من خزف.

سيحاول كلينتون إقناع الأسد بضرورة أن يبدى بعض المرونة. وذهب للقائه فى جنيف فى ٢٦ مارس عام ٢٠٠٠م، ولكن اللقاء لم يستمر، ولم يؤد إلى أى نتيجة. لم يكن ذلك إلا لأن الأمريكيين قد أعدوا هذا اللقاء بشكل سيئ جدا، فلم يأخذوا فى اعتبارهم على الإطلاق، لا حساسية السوريين ولا حالتهم الذهنية. هذه من الثوابت؛ المفاوضون الإسرائيليون أو الأمريكيون غير قادرين على الإطلاق على فهم عقلية وحساسية العرب، سواء كانت تلك الخاصة بالزعماء أو بالشعوب. كان على السوريين أيضا تقديم تنازلات، والأسد قد يكون ديكتاتوريا حقيقيا، ولكنه لا يستطيع تجاهل الرأى العام لديه والذى كان معاديا بشدة لإسرائيل. نتصور دائما أن النظم المستبدة تستطيع أن تستغنى عن مساندة الرأى العام لديها. ولكن بالعكس؛ ففى حالات كثيرة، ولأنهم لم يتم انتخابهم بطريقة ديمقراطية، فهم فى أشد حاجة إلى تأييد الرأى العام.

أندريه فيرساى: بطرس بطرس غالى، لقد كنت آنذاك سكرتير عام الأمم المتحدة: كيف تقيّم الأسد ولعبته السياسية مع إسرائيل؟

بطرس بطرس غالى: لم يكن لدىّ رؤية محددة للوضع، حيث إن الأمم المتحدة كانت دائما مستبعدة من الصراع. ولكن على المستوى الشخصى، كنت بالطبع أتابع هذه القضية، وتفهمت تردد الرئيس الأسد. وعلى الرغم من ذلك، لم أرَ بشكل ملموس إلى أين يريد الوصول. أتذكّر حديثا جرى بيننا استمر ساعتين، فى جنيف، قام خلاله بالتحدث كثيرا عن الماضى، وكان حديثه من منظور المؤرخ أكثر من السياسى. كان يفكر فى مساحة زمنية تمتد عشرات السنين، وليس شهورا أو سنوات، وكان مقتنعًا بأن الوقت يلعب لصالحه، معتمدا هو الآخر، على الانفجار السكانى فى العالم العربى.

شيمون بيريز: بصراحة، لا أعتقد أن الأسد قادر على رؤية واسعة تشمل القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وبشكل أكثر تحديدا، لا أتصور أيضًا أنه مستعد لتعريف السلام الذى يقترحه. مرت الأمور وكأنه أراد أن يرسى، بعد استرداد هضبة الجولان بالكامل، وضع «لا سلم ولا حرب»؛ سلام مجمد، بشكل ما، خالٍ حتى من تبادل السفراء.

بطرس بطرس غالى: احتمال. ولكن فى النهاية، السلام الذى تم التوصل إليه بين مصر وإسرائيل، رغم جهود الحكومات التى بذلت من الجانبين، بقى هو أيضا باردا؛ بسبب معارضة المجتمع المدنى المصرى لكل أنواع التطبيع مع إسرائيل. ورغم هذه المعارضة، ظلت العلاقات بين الحكومتين عادية.

شيمون بيريز: بلا شك، ولكن العلاقات *الدبلوماسية* بين القاهرة والقدس، لم تبق باردة. إننى أتذكر المساعدة التى أمدنى بها مبارك، وبشكل عام، طاقمه فى السلطة، فى أثناء عملية المفاوضات فى أوسلو. مثل تلك العلاقات مع سوريا حافظ الأسد غير واردة.

وعلى أية حال، لا أعتقد أن الأسد هو المسئول الوحيد عن فشل المفاوضات. يبدو لى أن باراك هو أيضًا ارتكب أخطاء. فلا أستبعد أن الأسد قد أخذ فى الحسبان التصريحات التى أدلى بها باراك عن الانفتاح، وكان مستعدا فعلا أن يبدأ المفاوضات. ولكن باراك قد أدرك أنه ذهب أبعد مما كانت تسمح له أغلبيته، أصابه الخوف وبدأ يتراجع، وهو ما أشعل شكوك الأسد.

أندريه فيرساى: فى إسرائيل، استقبل اليمين ومستوطنو الجولان احتمالات اتفاق مع سوريا، بشكل سيئ جدًّا. ولم يكونوا وحدهم، حيث إن بعض أعضاء حكومة باراك، انضموا إلى المعارضين.

تراجعت شعبية باراك بشكل جدى. لذا قرر أن يضع حدا، كما وعد فى الحملة الانتخابية، للاحتلال الإسرائيلى فى المنطقة الأمنية فى جنوب لبنان. ومع غياب اتفاق مع سوريا، قام باراك بتنفيذ انسحاب أحادى الجانب للقوات الإسرائيلية وأعادهم إلى الحدود. وذلك بالطبع على حساب دمشق.

شيمون بيريز: نعم، لأن الأسد اعتبر التورط الإسرائيلى فى جنوب لبنان ورقة رابحة يلعب بها؛ فمن خلال الميليشيات الشيعية، يستطيع أن يقوم، حسب رغبته وحسب احتياجاته، بالتحرش بالإسرائيليين عند الحدود. فى نظر الأسد، كان سيحررنا من لبنان مقابل استرداد كل الجولان. ولكننا بعد سحب قواتنا، حرمنا دمشق من ورقة مساومة.

من حيث المبدأ، لم يكن هناك ما يعارض إقامة سلام مع لبنان، بما أنه لم يكن للبلدين مطالب بأراضى فى البلد الآخر. كان مطلبنا الوحيد هو أن يضمن لبنان الأمن على حدود مع إسرائيل، ولا يسمح للإرهابيين باستخدام هذه المنطقة كقاعدة انطلاق لهجماتهم ضدنا.

مشكلة لبنان الحقيقية لم تكن علاقاتها مع إسرائيل ولكن مع سوريا. وفى الواقع، سوريا هى التى تمنع لبنان من إقامة سلام معنا..

أندريه فيرساى: انسحب الجيش الإسرائيلى فى ٢٥ مايو ٢٠٠٠م. هذا الانسحاب الذى وضع حدا لما يقرب من عشرين عامًا من المعارك العنيفة بين الجيش الإسرائيلى والميليشيات العربية مثل حزب الله، اعتبرته الميليشيات الشيعية انتصارا.

بطرس بطرس غالى: بكل تأكيد. وليس فقط من جانب الميليشيات الشيعية؛ إن هذا الانسحاب للقوات الإسرائيلية سيعتبر من جانب كل الشعوب العربية، واللبنانية بشكل خاص، انتصارًا كبيرًا. لماذا ينسحب الجيش الإسرائيلى، إن لم يكن لأنه تورط فى حرب استنزاف كلفته الكثير فى الحياة البشرية، وعرف أنه لن يستطيع أن ينتصر فيها؟ لذلك، فالانسحاب يعد نوعًا من الهزيمة. إذ إنه رغم قوتها الجوية ووحداتها المدرعة، اضطرت إسرائيل إلى الانسحاب أمام شجاعة المحاربين الصامدين والذين لا يملكون إلا أسلحة خفيفة! هذا دليل على أن الكلاشنيكوف والقنابل اليدوية تستطيع أن تنتصر على الترسانة الأكثر تقنية. لقد تم استيعاب الدرس: حماس والجهاد أدركا أن حزب الله تمكن من طرد الجيش الإسرائيلى من لبنان، وبالتالى فهم أيضا يستطيعون إخضاع الجيش الإسرائيلى لاسترداد فلسطين...

شيمون بيريز: هذا بكل تأكيد، تحليل غير صحيح بالمرة. فالحدود التى تفصل بين بلدينا حدود دائمة ومعترف بها دوليا، فلم يكن واردًا أبدا أن نبقى فى لبنان أو حتى أن نستولى على جزء منها.

أندريه فيرساى: بعد ذلك بقليل، فى ١٠ يونية عام ٢٠٠٠م، توفى الأسد نتيجة أزمة قلبية. هل، فى تلك اللحظة، اعتبر الإسرائيليون مفاوضات السلام مع دمشق تأجلت لمدة طويلة، أو إنهم بالعكس يستطيعون استئنافها، وفى أفضل الظروف، مع خليفته، ابنه بشار الأسد؟

شيمون بيريز: أنت تعرف، إنه فى الواقع، ابن الأسد، الذى تم إعداده لكى يخلف والده؛ لم يكن «بشار»، ولكن الابن الأكبر باسل، الذى قتل فى حادث. لذلك لم يكن السوريون أنفسهم ينظرون إلى بشار بوصفه الخليفة الذى اختاره حافظ. أما فيما يخصنا، فقد كنا نأمل أن يكون أكثر انفتاحًا، وأكثر حداثة، ولكن كان الأمر مختلفًا.

أندريه فيرساى: من جانبه، كان ياسر عرفات، يرى الوقت يمر بنفاد صبر. بالإضافة إلى أنه كان يخشى التوصل إلى اتفاق بين إسرائيل وسوريا، والذى سيدفع ثمنه الفلسطينيون.

بطرس بطرس غالى: نعم، وفى نفس هذا الوقت، كانت إسرائيل تواصل سياسة الاستيطان فى الضفة الغربية. ولعلك تلاحظ أنه فى ظل حكومة باراك، الذى من المفترض أنه من اليسار، تواصلت عمليات البناء والتوسع فى المستوطنات القائمة، بنفس الوتيرة التى تمت بها فى ظل حكومة ناتانياهو....

أندريه فيرساى: هذا حقيقى، ولكن باراك يرد على ذلك بقوله إن المسألة تتعلق بالالتزامات التى اتخذتها الحكومة السابقة وإن إلغاءها كان سيعرضه للإدانة من قبل المحكمة العليا؛ كما أن مواصلة برنامج الاستيطان يهدئ مخاوف اليمين، وأخيرًا، إن كان هناك توقيع على اتفاق نهائى، فما كان لكل هذا أدنى أهمية.

بطرس بطرس غالى: كل تلك التبريرات استخدمتها الحكومات المتعاقبة منذ اتفاقيات كامب ديفيد فى عام ١٩٧٨م.

أندريه فيرساى: استؤنفت المباحثات الإسرائيلية-الفلسطينية فى مارس عام ٢٠٠٠م، ولكن لم يتم إحراز تقدم. أراد باراك تخطى المراحل المختلفة والتوصل مباشرة إلى اتفاق شامل ودائم مع الفلسطينيين، بدون أن يمر بمراحل الانسحاب المتعاقب من الضفة الغربية، والذى نصت عليه اتفاقيات أوسلو. كان يرى أن مناقشة الأمور الثانوية، أو التركيز على هذه المرحلة أو إعادة الانتشار هذا، مضيعة للوقت. لقد كان مصمما على التقدم إلى الأمام وحل كل شىء مرة واحدة. ولكن الفلسطينيين كانوا ينظرون إلى هذا التسرع بحذر.

شيمون بيريز: لقد أعد باراك خطة شاملة من المفترض أنها تغطى كل شىء، كل شىء بالكامل، حتى لا يطرح للفلسطينيين، بعد التوقيع على الاتفاق، أى مطلب آخر. هذه الخطة بدت لى وهمية، ولقد أعربت عن رأيى هذا له. ولكن باراك يأخذ قراراته وحده، بدون الأخذ فى الاعتبار آراء المحيطين به. قلت له إنه، إن تصور أنه يستطيع حل كل شىء مرة واحدة وإلى الأبد، فإن الاتفاقية لن توقع أبدًا، لأن الفلسطينيين سيطالبون بحق العودة للاجئين وكذلك بالقدس الشرقية. لم يكن ممكنا أبدا أن يتم اتفاق على كل شىء مرة واحدة وبشكل نهائى. وبدلا من المطالبة بكل شىء، أو لا شىء، كان من الأفضل حل القضايا كل على حدة، والتقدم خطوة خطوة فى عملية السلام.

أندريه فيرساى: وترك غموضًا إيجابيًا؟

شيمون بيريز: بكل تأكيد! بدون ذلك، تتوقف المفاوضات. وذلك هو ما حدث.

بطرس بطرس غالي: أشاركك رأيك. يجب أن نعرف كيف نتعايش مع هذا الغموض. يجب أن يكون لدينا التواضع الكافى لأن نقول إننا لا نستطيع حل كل شىء وإن علينا أن نترك للأجيال القادمة، إمكانية إيجاد حلول للمشاكل التى لم نستطع حلها.

أندريه فيرساى: يبدو أن باراك خشى أن تقود العملية «المتعاقبة» إسرائيل إلى حرق معظم أوراقها (الأراضى التى لا تزال تحت سيطرتها فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة)، بدون أن تحصل فى المقابل على سلام شامل ونهائى.

وأمام وضع يزداد صعوبة، أقنع رئيس الوزراء، بيل كلينتون بتنظيم مؤتمر قمة إسرائيلى - فلسطينى فى كامب ديفيد.

شيمون بيريز: تصور الجميع أنه لن يوجد وقت كاف لذلك. فإلى جانب خطر تكثيف الهجمات الإرهابية التى قد تؤدى إلى فشل كل شىء، كان هناك الإعلان عن حل قريب للتحالف الحكومى الإسرائيلى.

أندريه فيرساى: وهكذا توجه باراك إلى كامب ديفيد، متصورًا أنه إن لم يتوصل إلى اتفاق تاريخى مع الفلسطينيين، فإن عملية السلام سوف تنتهى تماما. من جانبه، قبل ياسر عرفات أن يطير إلى الولايات المتحدة ولكن على مضض، فمنذ تسعة أشهر لم تنفذ إسرائيل أى انسحاب من الضفة الغربية. لم يوافق عرفات على عقد هذا المؤتمر إلا لأنه كان مدركًا أنه لن يتحمل مسئولية فشله المحتمل.

فى كامب ديفيد، فى الفترة من ١١ إلى ٢٦ يولية، تم التعامل مع كل القضايا: الدولة الفلسطينية، حدودها، أمنها، وضع القدس النهائى، مشاكل المياه، اللاجئون... كل القضايا التى لم تكن قد تم بحثها بعد على مستوى عالٍ بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

أقام الوفدان فى كامب ديفيد، ولكن المناخ لم يكن جيدا جدا؛ بدت العلاقات الشخصية بين الزعيمين، إيهود باراك وياسر عرفات، سيئة للغاية.

شيمون بيريز: عندما بدأ باراك فى المفاوضات، لم يكن يريد التعامل إلا مع كلينتون، ولم يتعامل إلا قليلاً جدا مع عرفات. أما بالنسبة لسائر أعضاء الوفد الفلسطينى، فلم يكن هناك إلا اهتمام قليل بهم. بقى باراك فى كامب ديفيد ١٥ يوما، ولم يلتق مع عرفات فى لقاء خاص إلا لمدة نصف ساعة... ماذا تعنى هذه الطريقة فى المفاوضات؟

فى الحقيقة، باراك كان مقتنعا بأنه من المستحيل إقامة سلام مع عرفات، وكان ينتقد شخصيته بشدة. وبالطبع، مثل كل الزعماء، كان عرفات حساسًا ومتعطشًا للمكانة السامية: لم تكن لقاءاتى به بالضرورة ممتعة، وتعلمت أن أميز ما بين الهوس المستحوذ عليه، وبين قدرته على اتخاذ قرارات من شأنها أن تؤدى إلى التقدم فى المفاوضات. صحيح أنه كان يحاول الالتفاف حول القضايا وكان لابد من ممارسة ضغوط عليه دائما لكى يأخذ القرارات. ولكن لا شىء يؤكد أن باراك كان على حق، ولا شىء كان يضمن أنه من الأسهل إقامة السلام مع خلفاء عرفات.

بالإضافة إلى ذلك، تنازل باراك عن أشياء قد لا يوافق عليها الكنيست: المشاركة فى السيادة على القدس، إعادة الأراضى المحتلة بكاملها، إلخ. وحتى كلينتون نفسه، دهش من كل هذا «الكرم»، ولكن ذلك لم يكن من الممكن تصديقه. وفيما بعد، قال باراك إن هدفه كان نزع القناع عن عرفات. لا أعرف إن كان هذا صحيحا؛ إن كان كذلك بالفعل، فهو شىء مخجل. ما معنى ذلك؟ هل معناه أن عرفات يتحدث بلغة مزدوجة؟ ليكن، وحتى لو كانت لغة ثلاثية، ما أهميته؟ المسألة ليست «نزع القناع» عن عرفات، ولكن التقدم فى العملية السلمية.

أندريه فيرساى: فى إسرائيل، حشد اليمين نفسه ضد التنازلات التى قام بها باراك فى كامب ديفيد. تظاهر ٢٥٠ ألف شخص فى ميدان رابين، فى تل أبيب. تلك كانت أكبر مظاهرة يقوم بها اليمين فى تاريخ البلاد. وفى نفس التوقيت، فى الضفة الغربية وفى غزة، انتشرت الاضطرابات بسرعة بين الفلسطينيين المعارضين لعملية السلام.

شيمون بيريز: نعم، ولكن كما يحدث دائما، هذه المظاهرات كانت ضخمة ولكنها لم تكن ذات دلالة. قد أكون مخطئا، ولكن كما قلت لك، لم أكن شخصيا متأثرا كثيرا بتلك المظاهرات التى، بشكل عام، تعبر عن لحظة غضب وليس عن شعور عميق.

أندريه فيرساى: قمة كامب ديفيد انتهت بالفشل. وألقى الأمريكيون والإسرائيليون بالمسئولية على عرفات. أما عرفات، فلم يقدم تفسيرات. وعند عودته إلى غزة، استقبله الشعب بحفاوة كبيرة، بينما دعا المتطرفون إلى التمرد، وإلى انتفاضة جديدة.

ولكن رغم ذلك ستستأنف المفاوضات. لم يرغب الإسرائيليون ولا الفلسطينيون أن تسجل كامب ديفيد نهاية عملية السلام.

وفى تلك اللحظة، وقع حدث أثار العديد من التحاليل: فى الصباح الباكر من يوم ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠، آرييل شارون، زعيم حزب الليكود، توجه برفقة حراسه الشخصيين وعدد من رجال الشرطة، إلى ساحة الأقصى. انطلقت نداءات من فتح إلى التظاهر، ولكن لم يكن هناك عدد كبير من المتظاهرين. الأسوأ سيتم تجنبه: قذف بعض المتظاهرين الحجارة، ولكن لم يكن هناك قتلى ولا إصابات خطيرة. ومع ذلك، فى اليوم التالى، يوم الجمعة ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٠م، بعد الصلاة فى الحرم الشريف، بدأ بعض الشباب الفلسطينى يقذف رجال البوليس بالأحجار. أصيب رئيس البوليس الإسرائيلى، وبسرعة كبيرة تدهور الوضع. فى نهاية اليوم، قتل أربعة متظاهرين فلسطينيين وأصيب ١٦٠ آخرين. هذه الصور، التى نقلتها شاشات التليفزيون عبر الأقمار الصناعية، أشعلت المنطقة فى خلال ساعات قليلة. وانطلقت انتفاضة الأقصى.

فى هذه المرة، السلطة الفلسطينية سوف تعمل فورا على احتواء هذه الانتفاضة الجديدة، ثم تنظيمها. وسوف تستخدم وسائل الإعلام الخاصة بها بشكل موسع من أجل دفع الفلسطينيين إلى مهاجمة العسكريين الإسرائيليين. وسنرى حتى بعض رجال البوليس الفلسطينيين وقد انضموا إلى المتظاهرين وأطلقوا النار على الجنود الإسرائيليين.

اتهم باراك عرفات بأنه المسئول عن هذه الانتفاضة الجديدة، بينما اعتبر الفلسطينيون والعرب الإسرائيليون ظهور الجنرال شارون بهذا الشكل عند ساحة الأقصى، استفزازًا متعمدًا أشعل النار فى الهشيم.

بطرس بطرس غالى: أعتقد أنه، أمام الطريق المسدود الذى وجد الفلسطينيون أنفسهم فيه، كانت الانتفاضة ستنطلق فى كل الأحوال. المرارة، إن كانت كبيرة لدى الإسرائيليين، فقد كانت أكبر لدى الفلسطينيين. والانتفاضة لم تكن بحاجة إلا للشرارة، وكانت هى هذه البادرة التى قام بها شارون. لماذا قرر شارون القيام بهذه الزيارة؟ ولماذا اختار هذا التوقيت بالذات، بدلاً من أى توقيت آخر؟ ما الذى كان يفكر فيه؟ لماذا سمحت السلطات الإسرائيلية بهذه الزيارة؟ أنا لا أعرف.

أندريه فيرساى: أكثر من مجرد استفزاز للجانب العربى، ألا يمكن تصورها حسابات انتخابية؟ ففى الحقيقة، بظهور آرييل شارون عند ساحة الأقصى، قدم نفسه بوصفه الرجل الذى لا يقدم تنازلات حول القدس. وبشكل ما، كان إيهود باراك محرجا؛ فلو منع شارون من زيارة المكان، سيبدو وكأنه يهتم بالعرب أكثر من اهتمامه برغبة الأغلبية المطلقة الإسرائيلية، والخاصة بالحفاظ على القدس موحدة.

شيمون بيريز: بلا شك، ولكن عندما يكون المرء فى الحكم، فإنه يجد نفسه باستمرار بصدد اختيارات خطيرة. إنها مهمتنا. ومهما كانت حسابات كل طرف التى نجهلها، ما رأيناه، هو أن باراك لم يمنع مبادرة شارون.

بطرس بطرس غالى: وبالطبع، أدى اندلاع الانتفاضة إلى الدخول فى حلقة جهنمية من الهجمات/ القمع والتى وصلت على الجانبين إلى درجات عالية من الكراهية والعنف لم يشهد لها مثيل من قبل. يجب أن أشير هنا، إلى أنه لأول مرة سيشارك فى الانتفاضة بعض عناصر من الأقلية العربية بإسرائيل- تمرد فى يافا وعكا والناصرة... وأحيانا استخدم البوليس الإسرائيلى رصاصًا حقيقيًا ضد المتظاهرين. قتل ١٣ عربيًا إسرائيليًا، وأصيب المئات الآخرون. هذا التمرد سوف يثير قلق الإسرائيليين الذين، حسبما أعتقد، شعروا بخوف ينتشر أمام احتمالات محاولة عربية لخلق مناطق سيادية عربية على أرض إسرائيل نفسها: إن كنت تقيم مستوطنات إسرائيلية على الأراضى الفلسطينية المحتلة، فلماذا لا نقيم نحن أيضا، مستوطنات فلسطينية فى إسرائيل؟

شيمون بيريز: ذلك لا يبدو لى واقعيا. وعلى أية حال، لم يكن هناك إلا عدد قليل جدا من العرب الإسرائيليين الذين انضموا إلى الفلسطينيين. خاصة فيما يتعلق بالعنف الذى ساد والذى فجرته الانتفاضة الثانية. وبشكل عام، منذ نشأة إسرائيل، بقى المواطنون العرب الإسرائيليون مخلصين للأمة. وحتى فى وقت حرب الخليج، حينما تخوف الجميع من وقوع اضطرابات، لم يحدث شيئا.

بطرس بطرس غالى: فى العالم العربى، هذه الأزمة الجديدة، والتى تلتها بسرعة وصول شارون إلى الحكم (شارون الذى لم ينس العرب مسئوليته فى مذبحة صابرا وشاتيلا، وصفه الإعلام العربى بـ «جزار لبنان»)، سوف تؤدى إلى تصاعد الكراهية التى يحملها العرب للدولة اليهودية. وستقترن معاداة الصهيونية بمعاداة حقيقية للسامية مع توزيع بروتوكولات حكماء صهيون، على نطاق واسع، ونصوص هجائية أكثر عنفا، تحرّض على كراهية لليهود.

شيمون بيريز: نعم، لم نعد نواجه حملات معادية للإسرائيليين، ولكن مظاهرات معادية بوضوح كبير للسامية، والتى لم نعد نستطيع أن نعتبرها مجرد «انزلاق».

أعتقد أن الحكومات العربية أخطأت عندما أيدت تطور وتزايد هذه المظاهرات المعادية بعنف للسامية. فالجميع يستطيع أن يفهم موقف العرب عندما يهاجمون بعنف إسرائيل

ويصعـدون حملاتهم المعادية للصهيونية، حتى ولو كانت عنيفة جدا. ولكن لا يتصور أحد التأثير البشع الذى تسبب فى تلك الحملة المعادية للسامية، فى إسرائيل، والتى اشتعلت بشكل أكثر سوقية، من خلال العديد من المقالات الصحفية والتوزيع الشعبى للنصوص الهجائية المعادية للسامية الموجودة بكثرة فى الأسواق.

ذلك سوف يذهب إلى حد تبنى الافتراءات النازية مثل *بروتوكولات حكماء صهيون*، بشكل خاص والتى تنشر منذ عشرات السنين فى العديد من الطبعات العربية، والسعودية والمصرية والسورية، وحتى الأردنية. وكان للوزير المصرى أسامة الباز الشجاعة لأن يندد بهذه المعاداة للسامية، ولكنى أخشى أنه لم يجد صدى كبيرًا. اليوم، وصل الأمر إلى عرض مسلسل تليفزيونى مأخوذ من *بروتوكولات حكماء صهيون*.

بطرس بطرس غالى: لم يتوقف الإسرائيليون منذ عشرات السنين، عن إدانة الكراهية المعادية للسامية والمنتشرة فى الأراضى المحتلة وفى البلاد العربية. ليكن، هذا صحيح، ولكن ذلك يبقى شفهيا (أو حتى مكتوبا)، بينما يعانى الفلسطينيون بشكل شخصى وبشكل يومى من تمييز وظلم يصل إلى لحمهم الحى. هذه الكراهية المعادية للسامية هى نتيجة لشعور قوى بالمهانة والإذلال، يعانى منه العرب الذين يشعرون بأنهم غير قادرين على الإطلاق على مساعدة أشقائهم الفلسطينيين. والتأكيد على أنه، بمعزل عن تلك التعبيرات الصريحة والإدانات المؤكدة، لم يأت أى رد عملى من الدول العربية، أدى إلى تصعيد أكثر لهذا الإحباط وضاعف الكراهية.

لذلك من الصعب جدا أن نشرح لمسئول إعلامى عربى أن نشر *البروتوكولات* سيؤذى القضية العربية أكثر مما سيفيدها. كما أنه أيضا من الأصعب منع هذه المقالات المعادية للسامية والتى تبدو نوعا من التنفيس، وإن كانت شاذة، أو هى نوع من التفريج عن شعب يشعر بإحباط شديد لرؤية مسئوليه فى حالة ضعف تام ولا يتدخلون، بينما على بعد عدة كيلومترات منهم، شعب شقيق يتم قمعه بأيدى اليهود. تذكر صورة عرفات تلك التى كان فيها محاصرا فى مكتبه، والتى عرضت على جميع القنوات التليفزيونية بدون أن تثير أى رد فعل من قبل الحكام العرب. أما بالنسبة للشارع، فإن ذلك لا يحتمل على الإطلاق: *«إنكم لا تفعلون شيئا، أنتم ضعفاء، وجبناء، على الأقل اتركونا نعبر عن أنفسنا بحرية!»* ومرة أخرى، نرى البلاغة تشتعل من أجل تعويض هذا الصمت الدبلوماسى والضعف الموضوعى للعرب. فى مصر، ألهبت هذه الكراهية كل الشعب، وحتى الطبقة البرجوازية

المستقرة، والتى لم تتعود أن تظهر هذا النوع من المشاعر بهذه الفجاجة. وسنسمع أشياء لم نعد نعرفها (على الأقل ليس بهذا العنف ولا بهذه المداومة) منذ زيارة السادات للقدس.

سنظل نكرر هذه المقولة دائمة: الكراهية المعادية لإسرائيل، مع كل مظاهر انزلاقها إلى معادة السامية، هى ظاهرة شعبية عميقة، وهى ليست نتيجة لدعاية من الدولة. بل على العكس، إن الحكومات العربية هى التى كبحت جماح هذه الكراهية المعادية لإسرائيل ولأمريكا. وهى أكثر عداء لإسرائيل عنها لأمريكا؛ فإن الأمريكيين مكروهون لدينا بسبب مساندتهم غير المشروطة للإسرائيليين.

شيمون بيريز: إننى أتفهم الأسباب التى تسوقها، وأنا أحيطك علمًا بالتأثيرات الناتجة. من جهة أخرى، عندما تقول إن معاداة السامية هذه تعمل كـ «تفريج»، اسمح لى أن أعبر عن شكى: إن رؤية مظاهرات الكراهية وتزايد التجاوزات من الانتحاريين، يعطينى الانطباع بأن هذه المعاداة للسامية، والتى تتزايد عنفا وكراهية، تعمل كتحريض قاتل. ومهما كان الأمر، كل تلك المنشورات لم تؤد إلا إلى دعم شكوك هؤلاء الذين يعتقدون فى إسرائيل أن العرب فى أعماقهم لم يتغيروا، وأنهم لن يقبلوا بوجود الدولة الإسرائيلية، وليس لديهم إلا رغبة واحدة وهى إلقاء اليهود فى البحر.

أندريه فيرساى: الأرقام ترتفع يوما بعد يوم: بعد أسبوع واحد، سيكون هناك ٦٤ قتيلا و٢٣٠٠ جريح فلسطينى، بينما هناك خمسة قتلى إسرائيليين.

فى ١٢ أكتوبر عام ٢٠٠٠م، فى رام الله، أخطأ جنود من احتياطى الجيش الإسرائيلى الطريق وتوغلوا فى القطاع الفلسطينى. تم القبض عليهم، واقتيادهم إلى نقطة البوليس. ولكن بعض الشباب الفلسطينى اعتقدوا أن هؤلاء الجنود ينتمون إلى وحدة خاصة، فزاد عنفهم، وفى النهاية قاموا بشنق الإسرائيليين. وانتشرت صور التمثيل بجثثهم فى كل شبكات التليفزيون فى جميع أنحاء العالم مما أثار غضبا طاغيا فى إسرائيل.

بالنسبة لإسرائيل، السلطة الفلسطينية، بكامل هيئتها، هى المسئولة عن تلك الاغتيالات. وبعد بضعة ساعات، دمرت الطائرات المروحية الحربية الإسرائيلية نقطة البوليس التى جرى فيها التمثيل بالجثث. كما تم مهاجمة أهداف أخرى فى الضفة الغربية وغزة، وتم تدميرها (مع تنبيه المواطنين فى كل مرة، ومنحهم الوقت الكافى للخروج من الأماكن).

تصاعدت حدة المعارك وفشلت كل محاولة لفرض وقف إطلاق النار. لم يحدث أبدا، منذ اتفاقيات أوسلو أن وصلت المجابهات إلى هذه الدرجة من الحدة!

بطرس بطرس غالى: نعم، لقد شـهدنا تصاعدًا مـن الجانبين. من ناحيتنا، اجتمع العرب فـى مؤتمـر قمة طارئ فـى القاهرة فى شـهر أكتوبر. كانت نبـرة الزعماء حـادة. ولكن مصر والأردن توصلتا إلى منع التصويت على قرار يدين اتفاقيات السلام التى عقدتاها مع إسرائيل أو يطالب بقطع العلاقات الدبلوماسية معها. ومع ذلك، وفى غمرة المشاعر تلك، استدعت مصر سـفيرها، واستبعدت الأردن إرسال سفير يحل مكان الأول. أما بالنسبة للدول العربية التى لديها علاقات غير رسـمية مع إسـرائيل، فقد سارعت بقطعها. ووجدت إسرائيل نفسها مرة أخرى معزولة.

شيمون بيريز: ومن جانبنا، تعمقت الأزمة فى البلاد. بعد كل هجوم، وبعد كل مرة يموت فيها إسرائيلى، ينتقد اليمين إيهود باراك بشكل أعنف.

أندريـه فيرسـاى: انهار التحالـف الحكومى تمامـا. وأصبح لا مفر من إجـراء انتخابات تشـريعية مبكرة. وفاجأ إيهود باراك الجميع بتقديم اسـتقالته من منصبه فى ٩ ديسمبر؛ لذلك سـتجرى انتخابات على منصب رئيس الوزراء خلال شهرين اثنين فقط. ولم يعد أمام باراك إلا ٦٠ يومًـا مـن أجل التوصل إلى اتفاق مع الفلسـطينيين، وهذه فرصتـه الوحيدة لكى يعاد انتخابه.

وفى محاولة أخيرة، وقبل أسابيع قليلة من مغادرته البيت الأبيض، طرح بيل كلينتون على الإسرائيليين وعلى الفلسطينيين خطته هو. حدد الرئيس الأمريكى إطارا أضيق، وأصبح من المفهوم أنه يجب الآن التفاوض داخل هذا الإطار، وليس ما عداه. أبلغ كلينتون اقتراحه إلى مبارك، الذى رأى أنه يجب قبول هذا المشروع، وحث عرفات على قبوله.

بطرس بطرس غالى: هذا صحيح مع إضافة تحديد بسيط: الرئيس مبارك سيكتفى بلعب دور الممهد، تاركا لعرفات حق أن يكون سيد قراراته.

أندريـه فيرسـاى: تشير الخطـة إلـى إعـادة مـا بيـن ٩٤ و٩٦٪ من الضفـة الغربيـة إلى الفلسطينيين، وكذلك بعض الأحياء العربية فى القدس.

شيمون بيريز: مرة أخرى، الأمر هنا لا يتعلق «باقتراحات»، ولكن «خيارات» قدمت إلى كلينتون: «*لو تنازلت عن ٩٤٪ أو ٩٦٪ من الضفة الغربية، هل الفلسطينيون، إلخ*».

أندريـه فيرسـاى: وعلى هذا الأسـاس، التقـى المفاوضـون، تلبية لدعوة مـن الحكومة المصريـة، فـى طابـا فى سـيناء، فى الفتـرة من ٢١ إلـى ٢٧ يناير عـام ٢٠٠١م. إنهـا الدورة الأخيـرة. وسـيتم فيها إحـراز تقدم مهم، ولكن أحدا لـم يصدق حقيقة فـى إمكانية تحقيقه.

خاصة وأنه بدا أن الجميع كانوا مقتنعين بأن حزب العمل سيخسر الانتخابات، وأن كل ما تم بحثه سيقوم شارون، الذى تعطيه الاستفتاءات نسبة عالية فى الفوز، بإلغائه.

وأخيرا، سيوافق الإسرائيليون على «خطة كلينتون»، والفلسطينيون أيضا، ولكنهم طالبوا بالعديد من التعديلات إلى حد أن موافقتهم كانت بمثابة رفض. فى رأيك، لماذا؟

بطرس بطرس غالى: يبقى الكثير من مناطق الظل، مما يجعل من السابق على أوانه استخراج نتائج. ستقع المسئولية على المؤرخين فى حسم الأمور. ما أعرفه، هو أن فى مثل هذا النوع من المفاوضات، يبقى عدد من العناصر «النفسية» التى لا يستطيع المرء استشعارها من الخارج، ولكنها تكون فى أغلب الأحيان، حاسمة، وتجعل من الصعب علىّ أن أطلق عليها حكما. ولكى أقول لكم حقيقة ما يجول بخاطرى، أعتقد أن المفاوضات فشلت أساسًا بسبب المناخ الملبد بالشكوك من الجانبين: باراك وعرفات؛ لا يثق الواحد فى الآخر، وكل منهم يتوقع أن يكون لدى الآخر نوايا مبيتة. وعلى مر الأيام، تضخمت الشكوك. أعتقد أن وراء القضايا الملموسة التى جرى بحثها، مَنَعتْ العوائق النفسية على الجانبين من حدوث أى تقارب. لقد كانت المفاوضات تجرى بين شركاء كانت أوضاعهم غير متكافئة؛ وكما يحدث عادة، فإن الأضعف يرتكب أخطاء. والعوامل الأكثر حسما ليست دائما هى الأكثر وضوحا. لنأخذ مثالاً على ذلك: كان أغلب أعضاء الوفد الأمريكى من اليهود. هل كان لهذا تأثير على الحالة الذهنية للفلسطينيين؟ لا أعرف، ولكن هذه النقطة لم تبد لى محايدة. كما قلت لك، إننا نحن المصريون نعتبر أن فكرة التعامل مع أمريكيين يهود مسألة إيجابية (وأذكرك بالعلاقات الطيبة التى كانت بيننا وبين هنرى كيسنجر وبوب ستراوس وسول لينوفيتش)، ولكن ما لا يمكن تخيله على الإطلاق، هو أن الفلسطينيين فى الوضع الضعيف الذى كانوا فيه، اعتبروا هذه المسألة عائقا. أنت لن تستطيع أن تفهم الحالة النفسية للمفاوضين الفلسطينيين، إن لم تر الفارق الكبير بين الوضعين: مرة أخرى الإسرائيليون هم المحتلون، وفى يدهم كل أوراق اللعبة، والفلسطينيون هم الذين يقعون تحت الاحتلال، وليس لديهم ما يقدمونه فى المقابل...!

شيمون بيريز: إننى متفق معك إلى حد كبير. من جهة أخرى، فإن الفشل من جانب باراك يعود جزئيا إلى المشاكل النفسية. على سبيل المثال، من الواضح أن باراك كان يتصرف بصرامة وتشكك: لقد ظل فى حالة ذهنية محاربة، بينما فى رأيى، كان لابد الانتقال فى الحال إلى تصرف «ما بعد الحرب». إذا توجهنا إلى مائدة المفاوضات ونحن مقتنعون أن المعسكر الذى فى مواجهتنا ليس صادقا، فإننا بذلك نكاد نكشف عن عدم صدقنا نحن.

إن علـى كل منـا المراهنـة على الآخـر، ومن أجل أن نفعـل ذلك، على كل جانـب أن يتعلم فهم شـكوك الآخر وآماله، وبالأخص أيضا مخاوفه. إن ذلك ليس سـهلا، ولكنى لا أرى له بديلاً.

بطرس بطرس غالي: لا أعتقد أن باسـتطاعة المرء أن يصبح مفاوضا جيدا ما بين عشـية وضحاها. المسألة تحتاج إلى سنوات من التمرين.

شـيمون بيريـز: نعـم، وأعتقد أنه مـن الصعب على جنـرال مثل باراك أن يضع نفسـه فى الحالة الذهنية لمفاوض، عليه بالضرورة أن يقدم تنازلات. فتلك ليست عقليته ولا ثقافته.

فـى الحرب، يهدف المرء إلى الانتصار الكامل بقدر الإمكان. وفى مفاوضات السـلام، الرغبـة فـى إحـراز انتصار كامل ليـس لها معنـى؛ على العكـس، إن معنـى المفاوضات هو التوصل إلى توازن فى التنازلات حتى نصل إلى اتفاق شامل يرضى الجانبين.

إن وضع المفاوض هو عكس وضع المحارب: فإن الجنرال الجيد يجب ألا يترك شـيئًا للصدفة، عليه أن يعمل من أجل خفض نسـبة كل الشـكوك، بينما فـى المفاوضات، الإبداع يمكنه أن يولد من الشكوك. الدخول فى عملية سلام يقود المرء فى حقيقة الأمر إلى الدخول إلـى منطقـة الشـك؛ فالمرء لا يثق أبـدا فى الآخر، كما أنـه أيضًا لا يثق كثيرًا فى نفسـه. نقوم بالاستثمار بدون أن نعرف أبدا الفوائد التى ستعود علينا منه!

وعلـى أيـة حال، فإنه من الواضـح أن عرفات يتحمل هو أيضا جزءا كبيرا من المسـئولية فى هذا الفشـل. فقـد كان بالتأكيد مخطئا فـى رفض خطة كلينتون نهائيـا، كان عليه مواصلة المفاوضات رغم كل شىء. كان ذلك لصالحه.

باختصـار: أعتقـد أن الجانبيـن مسـئولان عن الفشـل، وسـوف يحدد المؤرخون نسـبة مسئولية كل منهما.

خـلال هذا الحوار، كنـا تعرضنا كثيرا لنفسـية اللاعبين، على الأقل تلـك التى نتصورها لـكل منهما. ولكن فى السياسـة، مثلما فى التاريـخ، النوايا لا تؤخذ فى الاعتبار، والحكم لا يمكـن أن يقوم على تحليل زائف لنفسـية السياسـيين. فقط النتيجة هـى التى تهم، ومن تلك النتائـج نسـتطيع أن نحكم على رجل السياسـة. فى هذه الحالة، لا يهم كثيـرا النوايا والحالة الذهنية لكل من باراك وعرفات؛ ما يهم، هو أنهما فشلا!

بطـرس بطـرس غالـى: عاتـب الجميـع عرفات لأنه رفـض فـى اللحظة الأخيـرة توقيع اتفاقيـات طابا. ولكن كان هذا يعنى أن نطلب تقديـم تنازلات غير محتملة، بدون الحصول

على أية ضمانات حول تطبيق هذه الاتفاقيات أو حتى اعتراف إسرائيل بها؛ بالإضافة إلى أنه كان متأكدا أيضا أن تلك المفاوضات لن تحترم من جانب إسرائيل، حيث إنه أصبح مؤكدا أن باراك لن يعاد انتخابه. وبالتالى، فإن اليمين هو الذى سيعود مرة أخرى إلى الحكم.

أندريه فيرساى: لا شىء يسمح لنا بالجزم بأنه لو تم التوصل إلى اتفاقية سلام لأعيد انتخاب باراك. ولكن فشل هذه المفاوضات، ألم تساعد فى النهاية، على عودة اليمين إلى السلطة؟ فضلا عن أنه فى حالة توقيع اتفاقيات، ألم يكن من الصعب على خليفة باراك ألا يحترم على الأقل جزءا منها؟ ألم يلعب عرفات سياسة الأسوأ؟ فى رأيك، ما الذى كسبه عرفات من رفضه؟ الانتفاضة التى اندلعت بعدها، إن كانت مميتة بالنسبة للإسرائيليين، فإنها كانت مميتة أكثر بالنسبة للفلسطينيين.

بطرس بطرس غالى: بصراحة، إننى غير قادر على الرد على هذا السؤال. التاريخ صنع من فرص ضائعة، من سوء تفاهم، من أخطاء فى التقدير. على أية حال، السؤال ليس له أهمية اليوم. يجب أن نتجنب التمسك بالماضى، وتغذية الندم. يجب أن نتعلم أن نطوى الصفحة وننظر إلى المستقبل.

أندريه فيرساى: قال عمرو موسى وزير الخارجية المصرى، فيما بعد: «*لو كان الرئيس كلينتون قدم اقتراحاته قبل ستة أشهر، لكنا استطعنا التوصل إلى اتفاق إطار فى ديسمبر. والسؤال هو: لماذا لم يقدمها قبل ذلك، ولماذا لم يكن هناك لقاء فى أكتوبر ونوفمبر*». ما رأيك فى ذلك؟

بطرس بطرس غالى: أنا أيضا أتساءل: لماذا قدم كلينتون خطته متأخرا هكذا؟ خصوصًا وأن أكثر ما يهم فى أى اتفاقية، ليس توقيعها، ولكن تطبيقها، ولاسيما متابعتها؛ من المهم أن يظل الوسيط الذى أدى إلى التوصل إلى اتفاق، موجودا من أجل متابعة تطبيقها ومساندة الجانبين فى هذا الطريق الصعب. من اللحظة التى ترك فيها كلينتون السلطة، فقدَ توقيع الاتفاق الكثير من قوته.

شيمون بيريز: نعم ولكن فى نفس الوقت، كان عرفات معارضا لعقد هذا المؤتمر. لقد وجد أنه كان سابقًا لأوانه، وإننا لن يكون لدينا الوقت للتحضير له بشكل لائق...

أندريه فيرساى: بيل كلينتون فشل. الإسرائيليون والفلسطينيون فقدوا السلام. من بين كل تلك المفاوضات الطويلة، وكل تلك اللقاءات، لم يتبق إلا ملفات مفتوحة. فى ٦ فبراير عام ٢٠٠١م، أصبح آرييل شارون، الذى فاز فوزا ساحقا فى الانتخابات بأغلبية ٤ر٦٢٪

من الأصوات، رئيس وزراء إسرائيل. فقد حزب العمل السلطة لصالح اليمين الذى كان أقل استعدادًا للتنازل.

شيمون بيريز: عندما أعلن باراك أنه لا يوجد شريك فلسطينى ذو مصداقية من أجل الدخول فى عملية السلام، فتح الطريق لآرييل شارون. لقد أعلن شارون دائمًا أنه من المستحيل التفاوض مع عرفات، ومنذ أن أعلن باراك نفس الشىء، برر موقف شارون وأزال تماما البديل العمالى.

بطرس بطرس غالى: شعر أنصار السلام، وأنا واحد منهم، بأنهم بلا حيلة. بالإضافة إلى أن الأصوليين، الذين يمارسون سياسة الأسوأ، احتفلوا بانتصارهم، مقتنعين بأن آرييل شارون سوف يجمد كل تقدم نحو أى نوع من الحكم الذاتى مهما كان. باختصار: لقد عدنا إلى نقطة البداية!

* * *

ومـــاذا عـــن الـغــــد؟

وفـاة عرفـات ـ «زعيم ثورى، ليـس رجل دولة»ـ أهم ثلاث قضايـا مطروحة للحل: إعادة الأراضى؛ وضع القدس؛ حق العودة للاجئين الفلسطينيين! ـ «إننا لسنا فى ثلاجة كبيرة» ـ «اتفاقيات السـلام ليست هى الحاسمة، ولكنه بناء السلام» ـ «حق العودة له قيمة رمزية» ـ بالنسـبة للعـرب، قبـول دولة يهودية!ـ «إسـرائيل ليست دولة عادية» ـ ما هـى الإجابة فى مواجهـة الإرهاب الأصولى؟ ـ العالم العربى والحداثة ـ «عدونا الأساسـى، هو التصحر» ـ نحو سـوق شـرق أوسـطية مشـتركة؟ ـ أيـن أوروبا من كل هـذا؟ ـ أخطـاء الجانبين ـ الخيال الخاص بكل طرف ـ دروس التاريخ!

أندريه فيرسـاى: خلال فترة الانتفاضة، لم يتقدم آرييل شـارون خطوة واحدة تجاه عدوه القديـم الحميم، ياسـر عرفات. ومع ذلك، سـنجد أن غداة وفاة الأخيـر، غير رئيس الوزراء الإسرائيلى طريقته، وأبدى «تساهلا» إلى حد ما مع السلطة الفلسطينية.

قبـل محاولـة القيام ببعـض التوقعات للمسـتقبل، أقترح عليكما أن نعـود للمرة الأخيرة إلى ياسـر عرفات، الذى توفى فى ١١ نوفمبر عام ٢٠٠٤م. كيف تحكما على الرجل وعلى سياساته؟

شـيمون بيريـز: مهما كان رأينا فيـه، كان عرفات رمزا وطنيا، وفى نظر الفلسـطينيين كان أسطورة حية.

تولـى زعامـة منظمـة التحرير الفلسـطينية لفتـرة طويلة جـدا؛ إذ رأس المنظمـة فى عام ١٩٦٩م، واحتفظ بالمنصب حتى وفاته، فجعل الفلسـطينيين لمدة ٣٥ عامًا فى قلب اهتمام العالـم أجمـع. إن ذلك إنجاز لا يمكن إنـكاره. وأضيف أنه كان الزعيم الفلسـطينى الوحيد

الـذى لم يتعرض للاغتيال؛ فلم يحاول أى فلسـطينى آخر اغتياله، ومهما كانت الانتقادات، حتى ولو كانت عنيفة، التى تلقاها من رفاقه، فقد كان دائما يحظى باحترامهم.

بالنسـبة لشـخصيته، لم يسـع عرفات أبدا لأن يكون له هوية واضحة: فحسب الظروف، زعم أنه من نسـل محمد، ثم زعم أنه اشـتراكى، ثم أى شىء آخر. كما كان مكان مولده يتغير حسب أهوائه؛ اقرأ سيره الذاتية: فى إحداها هو من أبناء القدس، فى أخرى ولد فى القاهرة، وفـى ثالثـة فى مـكان آخر. كمـا أن تصريحاته لم تكن تخلـو من الابتكار: ففـى أحد الأيام، فـى حديث أجرته معه شـبكة تليفزيـون أمريكية، وردا على سـؤال إن كان يضايقه أن مادلين أولبرايـت وزيـرة الخارجية الأمريكية مـن أصول يهودية، قال إن المسـلم الحقيقى ينبغى له فى البداية أن يكون يهوديًا، ثم مسـيحيا ثم مسـلما؛ كما صرح أيضًا بأنه يستطيع إقامة السلام بين الهند وباكسـتان، وأكد أن بى نظير بوتو ابنته بالتبنى... باختصار عرفات لم يشعر أبدا أنه مضطر لأن يأخذ فى اعتباره حقائق الأشياء. لقد كان حكّاءً لا ينقصه الخيال.

أمـا بالنسـبة لتعليمه وثقافتـه، فهى نتاج ما سـمعه وليس ما قرأه. وذلك ليـس بلا أهمية، لأن القراءة تفرض على المرء التأمل، ولكن عندما يسمع فهو يصبح أداة لانطباعاته؛ فيتلقى المعلومات بشكل انفعالى، أكثر مما يدركها بشكل عقلانى.

من الناحية السياسـية، عرفات كان بلا أدنى شـك فلسـطينى وطنى. إنها أحد ثوابته. فقد قـاد حركـة وطنية بدون أن يكون لديه السـلاح وبدون التمتع بأى مسـاندة حقيقية من العالم العربى (حتى ولو نجح فى الحصول على المال من الدول العربية، إلا أن مساندتهم له كانت أكثر من غامضة).

لقـد كان رجلاً شـجاعًا، ولكنه كان أيضًا منـاورًا. فمن خلال التلاعـب بالبعض، وإثارة المواجهات نجح فى أن يبقى فى موقعه كرئيس لمنظمة التحرير. ومع ذلك، بدلاً من أن يقتل أعداءه داخل الحركة كان يشـتريهم، كان يستخدم الأموال بدلاً من الرصاص. لا نستطيع أن نقول إنه فاسد (فلم يكن يعيش فى رفاهية)، ولكنه أفسد الآخرين. لقد كان المال هو مصدر قوته، ولهذا السبب كان يجرى دائما بحثا عن المال، حتى مماته.

بطرس بطرس غالى: لقد قام كل نظام عرفات على أسـاس اسـتخدام المال. ذلك عمليا هـو القاعـدة فـى حركات التحريـر؛ فالمال هو الذى يسـمح لهـم بالحصول على السـلاح، والحفاظ على السرية وتسوية النزاعات بين القبائل.

شيمون بيريز: المشكلة هى أنه كان يؤمن دائما أن إقامة دولة يتم من خلال إطالة أمد الحياة السرية وحرب العصابات. وهكذا استمر فى دفع المال للناس يدا بيد، والتآمر، ورفع مكانة البعض وخفض مكانة البعض الآخر، وإفساد الآخرين بلا توقف، وبدون أن ينقل ولو أنملة من سلطته. وفى المرات النادرة التى قرر فيها أن يقوم بذلك، كان مضطرًا. وهذا ما جعل المحيطين به يقولون إنه من المستحيل العمل معه، تماما مثلما هو مستحيل العمل بدونه.

عقليته كزعيم ثورى قادته إلى أن يخلق ائتلافًا من الميليشيات، ولم يفهم أبدا، أنه فى الدولة، يمكن أن يكون هناك ائتلاف من الأحزاب ولكن ليس من الميليشيات. ولهذا السبب أصبح عرفات، بعد أن صعد بمنظمة التحرير إلى أعلى مكانة فى الرأى العام فى العالم الثالث، وحتى فى الغرب، هو نقطة الضعف فى الحركة الوطنية الفلسطينية!

ما زلت لا أعرف إلى أى مدى كان يريد أن يذهب فى مسألة السلام مع إسرائيل: فمن ناحية، لم يكن يسمح لأفراد وفده أن ينسحبوا من المفاوضات، حتى إذا ما نفروا منها، كان يجبرهم على العودة إلى المائدة، ولكن من ناحية أخرى، كلما كان يقترب وفده من أى شكل من أشكال الاتفاق معنا، لم يكن يستطيع منع نفسه من عرقلة التقدم. لقد كان يعتقد بلا شك، أن أى اتفاق يتم التوصل إليه بدونه، كان سيضعف سلطته وبالأخص مكانته.

باختصار أستطيع القول إنه، بصفته زعيم التمرد الفلسطينى، فقد نجح؛ فلا أعتقد أنه يمكن لأى أحد آخر، فى مثل هذه الظروف، أن يحقق ما حققه. ولكن ما صنع نجاحه كزعيم ثورى، هو نفسه ما أدى إلى إضعافه كرئيس دولة. وهو ما يدفعنى لأستخلص أنه لم يكن يملك مؤهلات رجل الدولة!

بطرس بطرس غالى: لا يستطيع المرء أن يكون رجل دولة لو لم يكن هناك دولة! لقد كان زعيم حركة تحرير وطنية، وليس دولة. عمله ومهمته تضمنت الحصول على مساهمات مالية من الحكومات العربية المختلفة من أجل تمويل معركته. ولكن ذلك لا يمنع أن عرفات كان له الفضل فى مصالحة وإعادة مصالحة الزعماء الفلسطينيين ذوى التوجهات المختلفة. ورغم أنه كان معتمدا على المساندة السياسية للعديد من الحكام، عرف كيف يبحر بين ألف قارب. ذلك يستدعى الكثير من الذكاء ومن العقلية التكتيكية النادرة جدًّا.

ولكنه بلا شك، وجد صعوبة فى التحول من وضعه كزعيم حركة تحرير، إلى وضعه كرئيس دولة فى مرحلة التشكيل، صحيح أنه استمر حتى النهاية، فى التوقيع بنفسه على كل الاستجابات للمطالب من أكثرها أهمية إلى أكثرها تفاهة.

لقد قابلت عرفات للمرة الأولى فى بيروت فى السبعينيات. كنت فى ذلك الوقت أشارك فى ندوة حول دور المسيحيين فى فلسطين. فى المساء، قادنى أحدهم عبر حوارى صغيرة ملتوية إلى أن وصلنا إلى منزل بسيط حيث كان يقيم. كنت مندهشا من لطفه، ومن حدة نظرته، ومن صغر حجم كفيه، مثل كفى طفل!. بعد ذلك، قابلته عدة مرات فى ظروف مختلفة تماما وفى أماكن أيضا مختلفة. ولقد كنت مستاءً منه لقيامه بالرقص والاحتفال فى بيروت، عندما أعلن عن اغتيال السادات. ولكنى سامحته عندما استقبلته كلاجئ، يهبط من سفينة قديمة متهالكة فى الإسماعيلية، كما رويت لكما.

بعد ذلك رأيته أكثر من مرة: فى القاهرة وفى تونس وفى نيويورك. وتقابلنا للمرة الأخيرة فى مقر الأمم المتحدة حيث كان لنا حديث طويل. كان الوقت عشية الانتخابات الإسرائيلية التى كنت أنت مرشحا فيها. وسألته عن رأيه من الذى سيفوز العمل أم الليكود. فأجاب بدون تردد: «*شيمون بيريز لن يفوز*». سألته: «*لماذا؟*»، «*هذا هو شعورى*». لقد كان لديه حدس، حتى إنه كان يتخذ قراراته بناء على حدسه أكثر مما كان بناء على التفكير. «*وإن هزم شيمون بيريز، ماذا ستفعل؟*» - *سوف أنتظر الانتخابات المقبلة*».

مثل الأسد، كان عرفات يفكر بحساب عشرات السنين، وكان يقدر أن الوقت يلعب لصالح الفلسطينيين، وأن عليهم مواصلة مسيرتهم عبر الطريق الصعب، والاستمرار فى المقاومة، لأن المقاومة هى قدر الفلسطينيين.

حتى لو كانت أخطاؤه لا يمكن إنكارها - تصرفه فى الأردن عام ١٩٧٠م الذى أدى إلى الحرب الأهلية، ومساندته لصدام حسين إبان اجتياح العراق للكويت - فمما لا شك فيه أنه كان يجسد فلسطين فى عيون العالم أجمع. ولأن أحدا لم يستطع سلبه هذا اللقب، فإن ذلك يؤكد على شرعيته التامة.

مهما كان رأينا فيه، هذا الرجل كان أسطورة، وسوف نكرس له صفحات عديدة فى كتب التاريخ، أكثر من رؤساء دول كثيرين. أعتقد أنه رفض تقديم تنازلات جديدة من أجل الحفاظ على هذه الهالة التى له، ومن أجل أن يظل رمز المعركة الفلسطينية، بأمل أن يكون المستقبل أكثر مناسبة للفلسطينيين.

شيمون بيريز: إننا نتفق فى الرأى. عندما قلت إن عرفات لا يملك مؤهلات رجل الدولة، كنت أقصد أنه تجمد مع صورته كمقاتل، وأنه كان غير قادر على الإطلاق على التطور وعلى الانتقال من حرب العصابات إلى الدبلوماسية.

فى الوقت الحالى، إن كان علينا أن ننهى هذا الحساب بعنصر إيجابى، فأستطيع القول فى النهاية، إن عرفات ارتكب أخطاء عديدة، وحتى جرائم لا تغتفر، ولكن اليوم، ما يهم هو أنه حقق الأعمال التاريخية الأساسية التى أتاحت لنا أن نتقدم. فى أوسلو، ذهب عرفات فى الحقيقة إلى أبعد ما يمكن. فقد وافق على أهم تنازل يمكن للفلسطينيين تاريخيا أن يفكروا فيه، لقد وافق على أن يتحدد حجم الدولة الفلسطينية على أساس حدود يونية عام ١٩٦٧م وليس على أساس خطة التقسيم لعام ١٩٤٧م، وهو ما يعنى إقامتها ليس على ٤٥٪ من فلسطين، ولكن على ٢٢٪ منها. لم يكن ليجرؤ أى زعيم آخر أن يذهب إلى هذا الحد. وأعترف أنه لم يكن على خطأ عندما قال لنا: «*لقد وافقتم على التخلى عن كافة الأراضى المصرية المحتلة، ولقد قمتم بإعادتها كلها، حتى آخر شبر منها. إذن لماذا، عندما نقبل نحن بالاكتفاء بـ ٢٢٪ من فلسطين، تساوموننا على تخفيض النسبة؟*» كما وافق عرفات على التخلى رسميا عن الإرهاب، وقام بمحو المواد التى تدعو إلى تدمير الدولة الإسرائيلية من الميثاق الفلسطينى. ولكن للأسف، لم ينجح فى إقناع المتطرفين الفلسطينيين، وتلك هى مأساة هذا الشعب!

أندريه فيرساى: مات عرفات، وانتخب أبو مازن رئيسًا للسلطة الفلسطينية ومن الواضح أنه يرغب فى التقدم. من جانب آخر، يبدو أن حكومة الوحدة الوطنية التى كنت أنت، شيمون بيريز، عضوا فيها، كانت تريد أيضا دفع الأمور إلى الأمام. ويشهد على ذلك الانسحاب أحادى الجانب لإسرائيل من قطاع غزة، الذى تم أخيرًا بدون مشاكل كبيرة. لقد كان بلا شك، خطوة نحو بناء الدولة الفلسطينية. ومع ذلك، ما زال الطريق طويلا، لأنه بقى من الضرورى إيجاد حل لثلاث قضايا أساسية، وحول تلك القضايا، لا يبدو أنه من الممكن تقريب المواقف، وهى: إعادة كافة الأراضى أو تقريبًا كافة الأراضى المحتلة (بالنسبة لقطاع غزة، تم ذلك بالفعل، إلا أننا لا نستطيع أن نتوقع تصرف إسرائيل فى حالة عودة التجاوزات الإرهابية، أما عن الضفة الغربية، فنظرًا لوجود مستوطنات عديدة فيها، تظل عملية إجلاء كامل للمستوطنات قضية إشكالية)؛ مسألة القدس؛ حق العودة للفلسطينيين.

فيما يتعلق بالأراضى المحتلة، ظلت إسرائيل طوال الوقت، تعطى مبررات للاحتفاظ بها، عندما لا تكون تلك مبررات لأسباب «تاريخية» أو دينية، فهى لأمور استراتيجية وأمنية.

شيمون بيريز: صحيح أنه، حتى وقت قريب، كان العمق الاستراتيجى الذى تمنحه إيانا تلك الأراضى مهما لأمننا. اليوم، هذه الحجة لم تعد قائمة: فإن الصواريخ أصبح لها قدرات

تسمح بأن تذهب إلى أبعاد تتجاوز مساحة بضع عشرات الكيلومترات التى يعطينا إياها هذا البعد الاستراتيجى؛ ولقد أثبتنا ذلك نحن أنفسنا، عندما قصفنا فى عام ١٩٨١م المفاعل النووى العراقى تموز، وأثبته العراق من جانبه، عندما أطلق فى أثناء حرب الخليج، صواريخ سكود على إسرائيل. ولكن أهم شىء بالنسبة لنا، هو أن الجزء الأكبر من الخطر لم يعد يأتى من الخارج ولكن من الداخل: فيرى الجميع جيدا أنه، منذ سنوات، كانت التجاوزات الإرهابية هى التى تضع شعبنا فى خطر، وليس جيراننا من الدول العربية.

على أية حال، لقد انتقلنا من عالم من الأعداء القوميين إلى عالم من الأخطار العابرة للحدود؛ لذا أصبح علينا أن نعيد التفكير فى الأشياء، ونعيد بالضرورة، النظر فى مخاوفنا الأمنية.

أندريه فيرساى: بعد انسحاب إسرائيل الأحادى الجانب من قطاع غزة، هناك افتراضان محتملان.

الافتراض الأول: وهو ما يخشاه المستوطنون: إعادة غزة، بالإضافة إلى أن حكومة يقودها الجنرال شارون، صقر بين الصقور، هى التى قامت بتنفيذه بات يمثل سابقة مصيرية حيث إنها تنزع القدسية عن الأراضى الفلسطينية المحتلة، والتى اعتبرت من قبل القوميين والدينيين، جزءا لا يتجزأ من أرض إسرائيل. منذ ذلك الوقت، وحيث إن مبدأ إعادة الأراضى لم يعد مسألة مستحيلة، ولا هو من المحرمات، فإن الطريق لإعادة كافة أراضى، أو ما يقرب من كافة أراضى، الضفة الغربية أصبح مفتوحا.

الافتراض الثانى: بتنفيذ هذا الانسحاب، فإن الحكومة الإسرائيلية قامت فى حقيقة الأمر بالتخلص من أراض لا يمكن إدارتها، فهى مهد الانتفاضة، والتى لا تزال دائما مرتعًا لمظاهرات عنيفة. وهو انسحاب يتم بدون تكاليف عالية، حيث إنها لا تضم إلا ٨٢٠٠ إسرائيلى؛ فى المقابل، من المفهوم أنه يجب الانتظار (طويلاً) قبل التفكير جديا فى الانسحاب من الضفة الغربية (حيث ستستمر عملية بناء المستوطنات)، حتى لو تمت الموافقة على منح بعض مدن الضفة الحكم الذاتى.

أى من هذين الافتراضين يبدو لك الأكثر رجوحا؟

بطرس بطرس غالى: يجب أن أعترف أننى دافعت عن آرييل شارون أمام معاونيى، وذكرتهم بأنه هو الذى اتخذ قرار انسحاب الإسرائيليين منياميت، من العريش، من شرم

الشيخ ومن مطار سانت كاترين. ولكن بلا نتيجة. لقد أبدوا نفس رد الفعل السلبى مثل سائر الشعب المصرى.

اليوم، أنا أومن أكثر بالافتراض الثانى الذى تطرحه وأخشى أن تتحول «غزة أولا» إلى «غزة أخيرا». وذلك لثلاثة أسباب. الأول: يتعلق بالطريقة التى يتصرف بها آرييل شارون الذى اتخذ هذا القرار بطريقة أحادية الجانب، ولكن الذى قام أيضا، فى زمن آخر، بالعمل بنشاط من أجل إقامة مستوطنات سكانية فى غزة والضفة الغربية. لم يحاول الرأى العام إيجاد تفسير لهذا التحول ١٨٠ درجة، وكان يتجه لأن يرى فى هذا التحول، فخًا يهدف إلى إقامة مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية.

السبب الثانى: هو أننا بصدد عملية بناء فعلى وقوى، لمستوطنات جديدة فى الضفة الغربية.

والسبب الثالث يعود إلى الشكل «غير الكامل» إلى حد ما، لعملية الانسحاب من أراضى غزة. لأن هذا الانسحاب يصبح فى التحليل الأخير، بلا قيمة إن كان لابد، من الحصول على تصريح من الإسرائيليين من أجل إجراء اتصالات بين غزة والضفة الغربية. بالإضافة إلى ذلك، لا يحق للفلسطينيين أن يقوموا ببناء ميناء فى غزة، كما لا يحق لهم إعادة بناء المطار؛ وأخيرًا، يمكن أن تسقط غزة فى أيدى الإسرائيليين ما بين ليلة وضحاها، إن قرر الإسرائيليون ذلك. إذ إن لديهم الوسائل العسكرية. من جهة أخرى، فإن الجدار الفاصل، جدار العار هذا، لا ينبئ بأى شكل من الأشكال بتقارب إسرائيلى-فلسطينى.

أتمنى حقيقة أن أكون مخطئا، وأتمنى، عندما أصل إلى نهاية حياة عملية طويلة، أن أستطيع رؤية النور ينبثق أخيرا فى نهاية النفق. كنت أحب أن أشارك شيمون بيريز تفاؤله. حتى إننى توقعت أن ينتقل تفاؤله إلىّ فى النهاية. ولكن الوقائع، والعوائق التى ذكرتها، لا تترك لى إلا حيزا صغيرا من الأمل فى تحسن الوضع خلال السنوات المقبلة.

شيمون بيريز: أعتقد أنك على خطأ. عندما أستمع إليك، ينتابنى الانطباع بأنك ترى الأمور كما لو أننا محصورون داخل ثلاجة كبيرة، حيث كل شىء سيصبح مجمدا ولا شىء سيتطور باستثناء قطع الثلج. أعتقد من جانبى أن التاريخ فى تطور دائم. بالطبع ما زال هناك الكثير من الأمور غير المعروفة، أولها ما الذى سيحدث للسلطة الفلسطينية: هل ستستطيع الشريحة المعتدلة التى يقودها أبو مازن الحفاظ على مكانها، أم سوف تسقط ليحل محلها حماس؟ فى اللحظة التى نتحدث فيها، لا أحد يستطيع أن يتنبأ بذلك. ومع ذلك، فأنا أعتقد

أنـه لا الفلسـطينيين ولا الإسـرائيليين لديهم الخيـار: إن علينا مواصلة العمليـة التى بدأت- وسـوف نواصلهـا. حتى التصريحات التـى تطلق من جانب أو من آخر، لن تسـتطيع تحقيق شـىء أمـام تطور الأمور. ففى مواجهـة العملية التاريخية، من سيسـتطيع أن يزعم الالتزام بـ «تعهدات المقاومة» التى يطلقها جانب من المتطرفين من هنا وهناك؟ مهما يقولون، إننا فى حركة متطورة، وذلك هو الشىء الحاسم.

أندريه فيرسـاى: وهل تعتقد أن هناك حكومة إسـرائيلية تستطيع إعادة الضفة الغربية إلى الفلسطينيين، وهو ما يتضمن حل المستوطنات؟

شـيمون بيريـز: لسلسـلة من الأسـباب، بعضها خـاص بالأمن، لن نسـتطيع العـودة إلى الترسـيم الدقيـق لحدود يونيـة عام ١٩٦٧م. ومع ذلـك، فأنا على اقتناع بأننا سـنتوصل إلى اتفاق خاص بإعادة الضفة الغربية، مع بعض التعديلات البسـيطة للحدود، والتى سـوف يتم تعويضها بتبادل أراض. وذلك سيكون هدف المفاوضات المقبلة. ولكنى أقر أن حل جميع المستوطنات، ليس أمرًا بديهيًا.

أندريه فيرساى: بطرس بطرس غالى، لقد ذكرت جدار الفصل ووصفته بـ «جدار العار»، ملمحـا بذلـك إلى حائـط برلين. لنذكر مـع ذلك أنه عندما قام السـوفييت ببنـاء هذا الحائط للفصـل بين برلين الشـرقية وبرليـن الغربية، حتى ولو أثـارت تلك المبادرة اسـتياءً عامًا فى العالم الغربى، إلا أنها فى حقيقة الأمر، طمأنت الحكومات فى «العالم الحر»، حيث إنه ببناء الحائط، وضع الشيوعيون بأنفسهم حدودا على توسعهم. وبالمثل، ألا نستطيع القول إنه عبر بناء الجدار الأمنى، أقر الإسرائيليون بحقيقة أنهم، خارج هذا الجدار ليسوا فى وطنهم؟

بطرس بطرس غالى: اسـمع، من حيث المبدأ أنا ضد كل جدار يفصل ما بين الشـعوب. لنذكر بداية أن هذا الجدار يجعل حياة الفلسـطينيين مسـتحيلة تماما، حيث إنه يمنع أى قدرة لهم على التحرك بسهولة بسبب التكدس عند نقاط التفتيش. وأذكر هنا أيضا أن هذا الجدار لـم يتـم بناؤه على الخط الأخضر، ولكنـه «يجور» على الأراضى الفلسـطينية، وهو ما أقرته محكمـة العـدل الإسـرائيلية التى أدانت خط سـير الجـدار. ولكن حتى لو جـرى تعديل له، فإن الجدار سـيبقى عائقا ضخما أمام التطبيع المحتمل للعلاقات الإسرائيلية ـ الفلسطينية. لنفرض أن عملية السلام استؤنفت وأننا وصلنا إلى اتفاقيات جديدة، ففى هذه اللحظة يمكن أن يبدأ العمل الحقيقى لتأسيس السلام. ليست اتفاقيات السلام هى الحاسمة، ولكن المهم هو ما يطلق عليه الأنجلو ساكسون «بناء السلام». مثلما يحدث بعد عملية جراحية، فإن فترة النقاهة هى التى يجب السـهر عليها، بعد معاهدة السـلام حينما يبدأ كل شـىء؛ هذه اللحظة

هى التى يجب أن يتم فيها *تأسيس* السلام، وبناء المؤسسات التى ستقارب بين الشعوب وإقامة الحوار.

ثم، هناك اليوم مليون عربى داخل إسرائيل نفسها، ويبدو لى من البديهى أن كل المستعمرات اليهودية لن يتم حلها، وسيبقى سكان يهود فى فلسطين. فى هذه الحالة يجب أن تكون هناك اتصالات دائمة بين كافة هؤلاء السكان، وتكون العلاقات سلسة. كما يجب أن نقر أن هذا الجدار لن يسهل أبدا هذا التقارب.

أندريه فيرساى: إن كان قطاع غزة لا يضم عددا كبيرا من الإسرائيليين، فإن ذلك ليس الوضع بالنسبة للقدس الشرقية وضاحيتها التى احتلتها إسرائيل منذ عام ١٩٦٧م. بالإضافة إلى أن الكنيست أصدر فى ٣٠ يولية عام ١٩٨٠م قرارًا بأن المدينة «*موحدة وعاصمة أبدية لإسرائيل*». الفلسطينيون من جانبهم، يريدون إعادة القدس الشرقية إليهم حتى تصبح عاصمة فلسطين.

ما هو فى رأيك الحل الممكن؟

شيمون بيريز: يبدو لى واضحا أن المناخ الحالى لا يسمح بحوار هادئ حول هذه القضية المشحونة بالمشاعر والمليئة بالرموز. إن كنت تسألنى رأيى الشخصى، فأعتقد أن القدس يجب أن تكون مدينة مفتوحة ومنزوعة السلاح؛ موحدة سياسيًا ولكن منقسمة دينيًا: وليأخذ كل دين من الأديان المعنية، مسئولية الأماكن المقدسة الخاصة به. ولكنه ليس مفيدًا أن نحاول الآن بحث هذه القضية، لأن أيًا من الأطراف ليس ناضجًا بما فيه الكفاية من أجل التوصل إلى حلول وسط، ولا يوجد أى حاكم سياسى يريد أن يخسر الانتخابات.. هناك وقت للتشدد ووقت للانفتاح. وأخشى أن يكون وقت الانفتاح لم يأت بعد.

أندريه فيرساى: نقطة خلاف جوهرية أخرى، مسألة حق العودة للفلسطينيين فى إسرائيل.

بطرس بطرس غالى: إنه حق، وأكرر مرة أخرى، ضمنه إعلان حقوق الإنسان وكذلك القرار رقم ١٩٤ الذى صوتت عليه منظمة الأمم المتحدة فى ١١ ديسمبر عام ١٩٤٨م.

شيمون بيريز: قبل التعرض لجوهر هذه القضية، أريد، رغم كل شىء، أن أذكر أن الدول العربية طردت منها منذ عام ١٩٤٨م عددا كبيرا من اليهود، يوازى تقريبا عدد الفلسطينيين الذين غادروا فلسطين- ولم يكن ممكنا أبدا لهؤلاء اليهود أن يتمتعوا بأى نوع من أنواع حق العودة إلى بلادهم العربية الأصلية. إنه من المدهش أن نرى العرب يرفضون بطريقة

منهجيـة، أن يأخـذوا بعين الاعتبار طردهم لليهود. الفرق بين سياسـتنا وسياسـة العرب فى مسـألة اللاجئين، هو أن إسـرائيل اسـتقبلت كل اللاجئـين اليهود فى العالـم العربى وقامت بدمجهم فى المجتمع، بينما الدول العربية، كما قلت، مارسـت سياسـة قاسـية للحفاظ على المنفيين فى وضع اللاجئين، لكى يصنعوا منهم «قنبلة ذرية ديموغرافية».

علـى هـذا الأسـاس، يجـب أن نكـون واضحين: إسـرائيل لا تنـوى الانتحـار من أجل إرضاء الفلسـطينيين؛ إذا حصلوا على حق العودة، فإن الخاصية اليهودية للدولة الإسـرائيلية ستضيع.

بطرس بطرس غالى: أولا، اليهود العرب يعودون كثيرا إلى بلادهم الأصلية كسـائحين، أو كرجـال أعمـال أو حتى للإقامة فيها. من أجل رفض حق العودة هذا للفلسـطينيين يشـير الإسـرائيليون دائمًا إلى إمكانية غزو عربى: ثلاثة ملايين فلسـطينى على استعداد للعودة إلى إسـرائيل. إن الأمر لا يعدو نظرة توهمية، لأن عودة شـاملة لفلسـطينيى الشتات إلى إسرائيل مسألة غير ممكن تخيلها. ويبقى أن هناك قيمة رمزية لحق العودة.

أندريـه فيرسـاى: الإسـرائيليون يرفضون حق العـودة هذا حتى يحموا أنفسـهم من هذه «القنبلـة الذريـة الديموغرافيـة» التـى تتحدث عنهـا. ولكن لنأخـذ الأمور من وجهـة النظر الفلسـطينية: عندما تقام الدولة الفلسـطينية، إن اختار فلسطينيو الشتات العودة إلى إسرائيل، بدلا من العودة إلى فلسطين، ألا يعتبر ذلك فشلا؟ مع التوضيح بأن صلابة الدولة تكمن فى ديموغرافيتها أيضا.

مـن جهة أخـرى، هل من الحكمة التوقيـع على اتفاق ينص على حـق، والقول فى نفس الوقت أن هذا الحق لن يطبق؟

بطـرس بطرس غالى: الفكرة هى فى عودة نسـبة ما على الأقل من الفلسـطينيين بشـكل يسمح بجمع شمل أعضاء العائلة الواحدة. ومرة أخرى، الأمر يتعلق بالحفاظ رمزيا على حق العودة، ومن المفهوم أن ذلك سيتم تحت رقابة، وفى ظروف تحددها الحكومتان الإسرائيلية والفلسـطينية معا. فى نظر الفلسطينيين، الاعتراف بمبدأ حق العودة مسألة جوهرية: إذ يعنى ذلك أن إسـرائيل تعترف بمسـئوليتها فى خلق مشـكلة اللاجئين الفلسـطينيين. أما بالنسـبة لمـا تمثله مـن رمز، فإن هذا الاعتراف بحق العودة يجب وضعه على نفس مسـتوى اعتراف الـدول بجرائم الحرب التى ارتكبتهـا، أو بالإبادة الجماعية التى قامت بها. نقطة أخيرة: حق العودة هذا يتضمن تقديم تعويضات على غرار تلك التى حصل عليها اليهود من ألمانيا بعد الهولوكوست.

شيمون بيريز: أعتقد أن مقارناتك، على أقل تقدير، تجاوزية. ومع ذلك، اعذرني، ولكنك تتحدث عن قبول «نسبة معينة»، «عدد رمزي»: لأى سبب؟ إننى أذكرك مرة أخرى، أن فيما يخص فكرة السماح بجمع شمل العائلات، لقد وافقنا بالفعل على عودة ١٥٠ ألف فلسطينى. إسرائيل بلد صغيرة، بينما هناك ٢١ بلدًا عربيًا مجاورًا: اشرح لى أسباب رفض العرب استقبال أشقائهم عندما تتم إقامة السلام؟ على كل حال، يجب على البلاد العربية، يوما ما، أن تتحمل مسئولياتها فى الحرب التى قامت بشنها ضدنا فى عام ١٩٤٨م، والتى كانت السبب فى مشكلة اللاجئين. لا أعترض على معاتبة إسرائيل على أشياء كثيرة، ولكن ما يصدمنى هو عدم قدرة العرب على تحمل الحد الأدنى من مسئولياتهم.

بطرس بطرس غالى: ولكن رفض العرب استقبال أشقائهم الفلسطينيين سلاح دبلوماسى، أوصى به واستخدمه الزعماء الفلسطينيون أنفسهم. وعند إقامة الدولة الفلسطينية، هذا السلاح لن يكون له سبب فى الوجود، وأستطيع أن أطمئنك إلى أن البلاد العربية لن تثير أى مشكلة فى استقبال المواطنين الفلسطينيين الذين لن يكونوا بعد الآن لاجئين فلسطينيين، تمامًا كما يستقبلون المواطنين المصريين، والأردنيين واللبنانيين... هناك فرق شاسع بين اللاجئ والمواطن الأجنبى. وذلك هو ما حاولت شرحه لموشيه دايان فى لقائنا الأول فى نوفمبر عام ١٩٧٧م.

أندريه فيرساى: إلى الآن، ورغم العداء العربى لإسرائيل، فقد استطاعت البقاء لسبب وحيد وهو أنها خرجت منتصرة من كل الحروب. هل تتصور فى يوم ما، أن العالم العربى سوف يقبل حقيقة الدولة اليهودية، ليس لأنه لم يستطع القضاء عليها بالقوة، ولكن لأنه اختار قبولها بكامل حريته؟!

بطرس بطرس غالى: يرى العديد من الفلسطينيين وكذلك من المؤرخين، أن إسرائيل حادث تاريخى، «ظاهرة عارضة» من شأنها أن تختفى خلال خمسين أو ثمانين عامًا - أريد أن أحدد هنا أننى لست أحد هؤلاء الأشخاص: فإننى لا أعتقد أن إسرائيل ستختفى.

من أجل الإجابة بدقة على سؤالك، إن كنت تظن أن هناك رغبة عربية فى «إلقاء اليهود فى البحر»، فبكل تأكيد لا، لا يوجد. أعتقد أن الدول العربية، إجمالاً، قبلت فى النهاية إسرائيل، ولكنها فى نفس الوقت، لا تستطيع أن تمنع نفسها من الأمل فى أن تؤدى الديموغرافيا خلال ثلاثين أو أربعين عامًا، إلى تعريب الدولة اليهودية.

أعتقد أن ما يزعج العرب أكثر من أى شىء آخر، هو أنه بالإضافة إلى أن إسرائيل ليست دولة يهودية عربية، أى دولة تضم اليهود العرب، مثلما يوجد مسيحيون عرب أى ينتمون إلى المجتمع العربى، فإنها ليست دولة «مثل سائر الدول»، ليست دولة «عادية»، على أساس أنها تريد استقبال كل يهود العالم وتشجع حتى عودتهم، وعلى أساس أيضا أنه ليس لديها حدود مرسومة، وهو يوحى بأن إسرائيل دولة توسعية، وذلك يثير مخاوف العرب.

وبدقة أكبر، ما دامت الحدود النهائية للدولة الإسرائيلية والدولة الفلسطينية لم يتم بعد تحديدها والاعتراف بها، فإن الإسرائيليين، مثل الفلسطينيين، سيظلون يعيشون فى فكرة توسيع حدودهم على حساب الآخر، وهو ما يمثل كابوسا لكل جانب من الخصمين.

شيمون بيريز: لا أفهم عدم القدرة على تصور مستقبل يكون سلميًا. وذلك بالرغم من، وأنا هنا ألفت انتباهك، أن حالات الحرب الإسرائيلية-العربية فريدة من نوعها فى الشرق الأوسط، إذ بعد توقيع اتفاقيات السلام، تعيد إسرائيل الأراضى التى استولت عليها.

إننا نسمع كثيرًا أن على إسرائيل أن تفعل كل شىء حتى يقبلها العالم العربى. مع كل احترامى، فإن فى علاقة الجيرة، الشريكان *الاثنان* يجب عليهما أن يعملا بحيث يتم قبول كل طرف من الطرف الثانى. فإذا كان علينا عمل كل شىء من أجل أن يقبلنا العرب، فإن على العرب أيضا عمل كل شىء من أجل أن يقبلهم الإسرائيليون، *كما* هم. لا نستطيع أن نطالب الجار بأن يغير طبيعته؛ يجب أن يقبل كل طرف الطرف الآخر بكل ما فيه. ولكن بالعكس، يمكننا تغيير العلاقة بيننا.

للعودة إلى سؤال أندريه فيرساى، يمكننى القول بأنه لا شىء يتم فى التاريخ عبر «اختيار حر»؛ كل ما يحدث هو نتيجة توازنات القوى والظروف. وإن أخذنا «النية الحسنة» كعامل وحيد، فلا أعتقد، فى الحقيقة، أن العالم العربى على استعداد لأن يقبلنا. قبولنا لن يكون ممكنا إلا إذا بقينا، بالإضافة إلى النية الحسنة، بلدًا قويًا قادرًا على الدفاع عن نفسه.

أندريه فيرساى: ولكن هل تستطيع إسرائيل الاعتماد فقط على قوتها من أجل ضمان بقائها؟ ما الذى يضمن لكم أن التقدم العسكرى والتكنولوجى الذى تتمتعون به اليوم لن يصل إليه الآخرون مع الوقت؟

شيمون بيريز: إن لم يكن هناك أى شىء آخر، يضاهى القوة المسلحة، فى إسهامها فى السلام، فلا شىء يمكن أن يضاهى السلام فى إسهامه فى الأمن. إن العالم يتطور، والقضايا

لا تطرح نفسها فقط على أساس المواجهات العسكرية أو الأيديولوجية أو الحدودية مثلما كان الأمر فى القرن العشرين.

الحقيقة، أنه منذ سقوط الإمبراطورية السوفيتية، فقد «العالم الحر» عدوا قديمًا، ولكنه وجد نفسه فى مواجهة مشاكل متعددة لم توجد من قبل: لقد انتقلنا من عالم فيه أعداء، معروفة هويتهم، إلى مشاكل مختلفة وقضايا نجد صعوبة كبيرة فى فهمها، وصعوبة أكبر فى حلها.

من بين تلك المشاكل، هناك بالطبع الإرهاب. فخلال الحرب الباردة، كان توازن الإرهاب «يحمينا» بشكل ما، فقد كان الخصمان ينظران إلى الخطر بشكل عقلانى. وكان الاثنان يعلمان أن هذا الذى سيطلق الطلقة الأولى، سوف يستثير *تلقائيا* رد فعل عنيفا من المعتدى عليه، وهو ما سوف يؤدى إلى خسائر بشعة لدى المهاجم. اليوم، فى مواجهة الأصوليين، الذين لا يحملون هذه الرؤية العقلانية للخطر، لم نعد نستطيع الاعتماد على هذا النوع من التوازن. ففى حقيقة الأمر، يستمد الأصوليون قوتهم وشجاعتهم من رؤية أخروية تبجل الشهادة وتكافئ الإرهابيين بألف ضعف بعد الموت. أن يصبح المرء شهيد الإيمان، أن يتحول إلى قنبلة بشرية بهدف تدمير العالم الحديث الذى يرى أنه شاذ، يضمن له مكانا فى الجنة. هؤلاء الأصوليون لا يهددون إسرائيل فقط، أو الولايات المتحدة أو الدول الغربية، ولكنهم يهاجمون بشكل متزايد الدول العربية نفسها. فسواء كانوا من السنة أو الشيعة، نسمعهم ينادون باغتيال زعمائهم السياسيين أنفسهم، الذين يرون أنهم يعيشون فى الخطيئة: انظروا إلى السعودية، رغم أنها مهد الإسلام، مصر، الأردن، المغرب، الجزائر نفسها، كلهم مستهدفون أيضا.

بطرس بطرس غالى: هذا صحيح؛ عندما نتحدث عن الإرهاب العربى-الإسلامى، ننسى أن البلاد العربية فى الواقع هى التى عانت أكثر من أى بلاد أخرى. فى مصر، على سبيل المثال، بالإضافة إلى الرئيس السادات، اغتيل ثلاثة رؤساء حكومات. وذلك، بالأسلحة الأوروبية الممولة بأموال وضعت فى بنوك أوروبية. بالإضافة إلى أن بعض القتلة وجدوا ملجأ لهم فى أوروبا تحت مسمى اللجوء السياسى، خاصة فى انجلترا...

وهو ما يفسر أن مكافحة الإرهاب أصبحت موضوعا محركا فى كثير من البلاد العربية وعلى المستوى الكوكبى منذ هجوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

شيمون بيريز: والآن، هذا التعصب المتطرف، يسعى إلى الحصول على السلاح النووى. ما العمل إن وصل هذا السلاح إلى يد دولة يقبل مواطنوها ـ بل يسعون إلى ـ الاستشهاد والموت؟ فى مواجهة هذا الخطر، لا أرى وجود رد عسكرى تقليدى مقنع.

لذلك أصبحت افتراضاتنا الأساسية باطلة، وعلينا أن نعيد تقييمها تبعا لتطور النظام العالمى ودور القوى الكبرى المسئولة عن هذا النظام. الجميع يرى بالتأكيد أننا نتجه إلى العولمة، حيث لن تكون أى بلد فى مأمن من الإرهاب الدولى. لذا ففى مواجهة الإرهاب العالمى، علينا أن نرد بمعركة عالمية. فى مثل هذا الوضع، إسرائيل ستكون جنديا ضمن آخرين فى معسكر القتال ضد الأصولية الإسلامية.

أندريه فيرساى: *تقول أنه ضد الأصولية الإسلامية، لا يوجد رد عسكرى مقنع. فأى رد آخر يبدو لك ممكنا؟*

شيمون بيريز: فى رأيى، فقط تحول العالم العربى إلى الحداثة يمكنه أن يفشل مخطط الأصوليين. بشكل عام، جزء كبير من العالم العربى مريض بأيديولوجيا معادية للغرب، وفى نفس الوقت معادية للحداثة. لأن كراهية العرب لإسرائيل هى كراهية أيضا للحداثة. هذا العالم محصور فى رؤية عن إسلام أسطورى، ولكنه فى الواقع متخلف، لا يسمح لشبابه أن يتفتح ولا لنسائه أن تستقل.

إننى متأكد أن المسلمين سوف يدركون أن الأصولية لا تقدم الرد على المشاكل التى يقع السكان ضحايا لها، وأنها طريق قمعى، يزدان برسائل سلبية، ولا تساعدهم إطلاقا على تحسين وجودهم.

أندريه فيرساى: هذا لا يمنع أن هناك أعدادًا متزايدة من الشباب ومن النساء يحتويهم الإسلام السياسى.

شيمون بيريز: هذه مسألة وقتية. فى المجتمعات المحرومة من الأسس الحديثة ومن المساواة فى تقسيم الثروة الوطنية، يتحول البؤساء إلى فريسة سهلة للتطرف الدينى الذى يطمئنهم ويعدهم بالجنة بعد الموت. وكلما استمر المجتمع فى عماه، كلما نشط الأصوليون. ولكن لا يوجد سبب يجعلنا نتصور دوام هذا العمى. إننى مقتنع بأنه، قريبا، يكون من الممكن كبح جماح الشباب الذين يريدون أن تكون لهم رؤيتهم هم للعالم، كما لن يصبح من الممكن إنكار وجود نصف المجتمع الذين هم النساء. وأدلل على كلامى

بالحركات الهامشية والحركات النسائية التى تتطور اليوم فى إيران وتركيا والأردن وحتى فى باكستان، وهو ما لم يكن موجودا من قبل.

بطرس بطرس غالى: يراهن الأمريكيون والغربيون بشكل عام، على إقامة الديمقراطية فى العالم العربى، متصورين أن ذلك سوف يقلل من التعصب. ولكنى أخشى أن يكون ذلك وهمًا. إننى أتصور شخصيا أن اليوم الذى سيتحول فيه هذا الجزء من العالم إلى الديمقراطية، فإن المعادين لإسرائيل سيصبحون أقوى: إن الكراهية ضد الإسرائيليين، أكررها دائما، هى ظاهرة شعبية عميقة، وليست نتيجة لدعاية من الدولة.

أندريه فيرساى: ما الذى يجعلك تعتقد أن العرب سيظلون، فى مجملهم، غير قادرين على تحقيق الديمقراطية الحقيقية، وأعنى بذلك الديمقراطية المتسامحة؟

بطرس بطرس غالى: لم أقل أبدا إن العرب غير قادرين على تحقيق الديمقراطية الحقيقية، لأننى أرى أن الديمقراطية فكرة عالمية، يجب علينا حمايتها فى مواجهة عولمة تهدد بتغير طبيعة الديمقراطيات الوطنية. ومن جهة أخرى، العرب بطبيعتهم شعوب متسامحة، ولم يفقدوا هذا التسامح إلا بسبب هذا الصراع وبسبب الطريقة التى يعامل بها الفلسطينيون.

شيمون بيريز: إن نظرنا إلى التاريخ، فلا نستطيع أن نقول إن العالم العربى كانوا متسامحين بشكل خاص تجاه «الذميين»، غير المسلمين بشكل عام، وتجاه اليهود بشكل خاص. فى اليمن، لا يستطيع اليهودى حتى أن يركب حمارًا.

أعتقد أن يومًا ما سيفهم العرب أن عدوهم الحقيقى ليست إسرائيل، ولكن الرؤية المتخلفة التى تعمى بصيرتهم وتمنعهم من اكتساب الثقافة: هل تعرف أن من بين ٢٧ أمة الأكثر استهلاكا للكتب، ليس من بينها بلد عربى واحد.. مع هذه الفجوة فى الكتب، وبالتالى الفجوة الثقافية، ليس عجيبا أن يظل العالم العربى محروما من معلومات مفتوحة وحرة، ويظل متباطئا.

عدوهم الثانى، هو عدم قدرتهم على تنمية اقتصادهم. فيظل الاقتصاد مركزا على البترول وهى ثروة عابرة: خلال عشرين عامًا، لن يكون الشرق الأوسط مركز الطاقة البترولية فى العالم، بل ستوفرها جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابقة مثل روسيا أو كازاخستان.

بطرس بطرس غالى: إن نظرنا جيدا للتاريخ، سنستطيع القول إن العالم العربى كان أكثر تسامحا مع اليهود عن العالم المسيحى. أن تمرر فى صمت المذابح التى وقعت فى العصور الوسطى، ومحاكم التفتيش فى إسبانيا وغرف الغاز فى ألمانيا، وتتمسك بتذكيرنا أن اليهود

فى اليمن لم يكن من حقهم ركوب الحمار، مسألة أقل ما يمكن أن يقال إنها تدعو إلى الدهشة. أما بالنسبة لعدم قدرة العرب أن ينموا اقتصادهم، فذلك أيضًا وهم آخر يلمح إلى أن الإنقاذ يأتى من الإسرائيليين الذين سوف يساعدونهم على التحديث وعلى الحصول على التكنولوجيا الحديثة.

شيمون بيريز: ذلك ليس ما أقوله ولا ما أحاول التلميح له. أعتقد أنه عندما نفهم، نحن العرب والإسرائيليين، أن هناك أشياءً كثيرة متداخلة يصعب معها تصور أن أمة وحدها تستطيع أن تحلها، وإن فقط تعاونا إقليميا متعدد الأطراف، يعمل فى إطار السلام سيكون له فرص ضمان التنمية الاقتصادية، فى تلك الحالة سنستطيع أن نبدأ حقيقة، تنفيذ سياسة اقتصادية شاملة.

إن عدونا الرئيسى، نحن العرب والإسرائيليين معا، هو تزايد تصحر الأراضى. إن العالم العربى يملك ١٣ مليون كيلومتر مربع، ولكن ٨٩٪ من هذه الأراضى تبقى صحراوية. لقد تضاعف عدد سكان مصر عشرات المرات خلال القرن العشرين، بينما فقد النيل جزءا كبيرا من مياهه، وفى نفس الوقت من الطبيعى أن ترتفع نسبة استهلاك الفرد للمياه. اليوم تغطى الصحراء نحو ٩٠ ٪ من أراضى مصر، ٧٠٪ من سوريا، ٨٥٪ من الأردن، و ٦٠٪ من إسرائيل. وما زال التصحر يتزايد. ليست الظاهرة غير قابلة للرجعة فيها، ولكن إن أردنا إيقافها، فيجب أن ننظم عملية رى مناسبة، ويجب أن تكون إقليمية. ولذلك يصبح علينا من الآن إقامة علاقات سلمية سريعة بين الدول المعنية فى المنطقة، حتى يمكن أن نحقق التعاون فى تنفيذ سياسة تخطيط وتقسيم منصف للمياه.

فى إسرائيل، حققنا تقدما فى مسألة الأبحاث العميقة والتطبيقية فى مجال التصحر والزراعة. ولقد آن الأوان لأن نضع تجربتنا فى خدمة كافة المنطقة فى إطار من المصلحة المتبادلة.

أندريه فيرساى: برغم الوضع الميئوس منه، فإن الروابط الإسرائيلية ـ الفلسطينية تتشابك يوما بعد يوم. وها هو مثل من بين مائة مثل آخر: هناك فرق مسرحية «مختلطة» تنظم حفلات مسرحية تضم مشاهدين مختلطين هم أيضا. ولكن للأسف، فإن الإعلام الغربى لا يتحدث عنها أبدا، لأنه كما يقال: «القطارات التى تصل فى موعدها لا يتحدث عنها أحد»...

بطرس بطرس غالى: أنت على حق، وأنا أدين بعمق هذا التصرف. فيما يخصنى شخصيا، فلم أتوقف عن التصريح بأن رابطة حقوق الإنسان الإسرائيلية، وبعض الجمعيات

الإسـرائيلية الأخرى، هى أكثر المنظمات التى تكرس نفسـها للدفاع عن الفلسـطينيين. كما أننى أعلم أنه توجد جمعية إسرائيلية تساعد الفلسطينيين على إعادة بناء منازلهم التى هدمها الجيـش الإسـرائيلى. يجـب تحية كل هؤلاء الأشـخاص الذين يعملون بـإرادة طيبة. ولكن يجـب ألا نتـرك أنفسـنا ننخدع حـول أهميتهم؛ فـإن تلك الجـزر المعزولة مـن الإخاء تظل هامشـية جدا، بشـكل لا يجعلنا نأمل فى تغيير جوهرى. فإذا أخذنـا فى الاعتبار التجاوزات التى يعانى منها الفلسـطينيون، نجد أن عمل هؤلاء الرجال والنسـاء، مهما كان رائعا، إلا أنه لا يمثل ثقلا كبيرا.

أندريه فيرساى: كيف ترون تطور الشرق الأوسط؟

شـيمون بيريز: لننظر حولنا؛ الاتحاد الأوروبى توسـع ليضم تدريجيا دول وسط أوروبا؛ تحـاول الولايـات المتحدة من جانبهـا إقامة منطقة تجـارة حرة مع كندا والمكسـيك؛ ومن المتوقع أن تقوم آسـيا أيضا، فيما يخصها، بالتوجه نحو وحدة إقليمية وإقامة نوع من السوق المشـتركة تضم تايلاند وسـنغافورة وسـيريلانكا واندونيسـيا، إلخ. هذه الأسواق المشتركة تسير فى اتجاه التاريخ.

كيـف لا نسـتطيع أن نرى أنه إن أراد الشـرق الأوسـط تجنب التجمد، فيجـب عليه، هو أيضا، أن يتوجه نحو نظام اقتصادى إقليمى يسـاعدنا، البلاد العربية وإسرائيل، على الانتقال من اقتصاد الحرب إلى اقتصاد السلام.

مواجهة هذا التحدى يتطلب بلا شك، ثورة ثقافية، عقلية ونفسية، من جانب العرب ومن جانبنا نحن أيضا. ولكن عندما نرى كيف قام الأمريكيون بعد عام ١٩٤٥ بمسـاعدة اليابان، عدوهم القاتل، لإعادة بناء اقتصادهم، فلا أرى لماذا يعتبر التعاون بيننا وبين جيراننا العرب، مسألة طوباوية.

لقـد كان اقتصاد الشـرق الأوسـط، وحتـى الآن، يتحدد على أسـاس حجـم الميزانيات العالية للدفاع وإغلاق الحدود. فى حالة السلام، سوف يزول هذان العائقان.

لقـد أجريـت العديد مـن المباحثات مع المسـئولين الأوروبيين بخصـوص ما يمكن أن يصبح عليه الشـرق الأوسـط. وأتذكر أننى التقيت فى الخمسـينيات مع جان مونيه، فى أثناء اللقاء، وبينما لم نكن نتطرق سـوى إلى *السـوق* المشـتركة، قال لى إنه بالنسـبة له، السـوق المشـتركة مـا هى إلا المرحلة الأولى نحو وحدة سياسـية. لا يبدو لى اليـوم، أنه من الخيال تصـور إمكانيـة تحقيـق تصالح وتعـاون بيـن دول المنطقة، أكثـر مما كان مشـروع الاتحاد

الأوروبى غداة الحرب العالمية الثانية. يمكننا أن نعيد نفس العملية هنا: البدء بالتعاون الاقتصادى، ثم العمل من أجل تقارب سياسى.

أعرف أننى كثيرًا ما اتهمت بأننى طوباوى وأعتبر من الخياليين. مع ذلك، كل من الرئيس فرانسوا ميتران والمستشار هلموت كول وجاك ديلور، شاركونى هذه الفكرة، وقاموا حتى بمساندتها. إن الفكرة ليست خيالية بالصورة التى تحسبها، فهناك بعض الشركات الأوروبية بدأت تهتم بالمستقبل فى شرق أوسط يسوده السلام: البنك الدولى قام بتمويل مشروعات جديدة؛ قدمت مصانع يابانية مقترحات من أجل العمل فى مجال تنظيم السياحة؛ فرنسيون وألمان فى قطاع المواصلات والاتصالات. لقد كانت هناك حتى فكرة حفر قناة تربط ما بين البحر الأحمر والبحر الميت، على أن تأخذ شركة إيطالية مسئولية العمل فيها. اهتم النمساويون بمسألة المياه والكهرباء، والبريطانيون بمسألة التجارة الحرة. ولقد تلقينا اقتراحات حتى من الدنمرك بخصوص مشاريع زراعية؛ ومن الأمريكيين بخصوص الموارد البشرية، ومشاريع من الكنديين بخصوص اللاجئين.

هنا، فى الشرق الأوسط، بدأت فكرة السوق المشتركة تأخذ طريقها، حيث قدم، من الجانب الفلسطينى، أبو علاء رئيس الوزراء الحالى للسلطة الفلسطينية، اقتراحا بخطة تنمية اقتصادية نشطة جدًّا فى الشرق الأوسط.

بطرس بطرس غالى: إننى لا أعتبر نفسى متشائما، ولكنى واقعى، إننى لا أومن بقيام سوق مشتركة قريبا فى الشرق الأوسط حيث تشترك فيها إسرائيل والدول العربية، ما دام لم يتم التوصل إلى حل عادل للمشكلة الفلسطينية. فى وقت التوقيع على اتفاقيات أوسلو، طرحت على نفسى العديد من الأسئلة التى يمكن أن تطرح: والآن، كيف ستنظم الأمور؟ وتكشفت لى المشاكل التى لا يبدو أنها ستحل بنفس السهولة التى تتصورها. إن ما يثير ارتيابى، هو عدم المساواة العميقة بين المجتمعين. كيف يمكن لنا أن نقيم تعاونا متكافئا؟ أنت تقول إنه ليس هناك صراع دائم، وذكرت مرارا أن الحروب الفرنسية ـ الألمانية الثلاث، والتى أسفرت عن أعداد كبيرة من القتلى، لم تمنع الدولتين من التصالح (بعد نحو قرن من الزمن، رغم كل شىء...). نعم، ولكن ما سمح بوضع الأسس لمصالحة صحيحة، هو أن المجتمعين كانا على قدم المساواة. بين الإسرائيليين والعرب، عدم المساواة عميق، كيف يمكن، فى تلك الظروف، فى رأيك إقامة تعاون متوازن؟ كيف يمكن بناء شراكة حقيقية لا تشوبها التبعية؟

شيمون بيريز: لا أعتقد أن السلام بين الفرنسيين والألمان لم يكن ممكنا إلا لأن الدولتين كانتا على قدم المساواة: ففى النهاية، هل كانا على نفس المستوى فى عام ١٨٧٠م وفى عام ١٩١٨م. لا، لقد استطاعت هاتان الدولتان إقامة السلام لأنهما فهما أنهما يدخلان عصرا جديدا. المشكلة لا تنبع من الفجوة التكنولوجية بيننا وبين العرب، ولكن بين العرب والحداثة. ولا أرى أى سبب يمنع العرب من الدخول فى هذه الحداثة. لا تقل لى إنك تتصور، أن حل الصراع بيننا، يمر عبر تراجع إسرائيلى؟ إننا لن نوقف مسيرة الزمن. ولا شىء مما حققناه، نحن الإسرائيليين، يتجاوز قدرة العرب أو المسلمين. انظر إلى تركيا، لقد دخلت الحداثة.

إننا سنصل إلى السلام حينما نصل إلى الزمن الذى لن يوجد فيه سبب لشن الحرب.

حتى الآن، تاريخيًا، كل الحروب تفجرت لأهداف حدودية. ولكن اليوم، الحدود لم تعد لها نفس الأهمية كما كانت فى الماضى، لا سياسيًا ولا اقتصاديًا. ما يهم اليوم، هو العلم والتكنولوجيا. ومجالاتهما غير مغلقة أمام أى شخص.

بطرس بطرس غالى: أنت تستطيع أن تسمح لنفسك بالتفكير فى غد مشرق، لأنك بعد حياة سياسية طويلة رأيت الدولة التى ساهمت فى بنائها تتطور وتقوى لكى تصبح قوة صغيرة يعمل حسابها. ولكن نحن على العكس، ورغم نصف قرن من المعارك، نجد أنفسنا عند نقطة البداية؛ أما بالنسبة للساحة الفلسطينية، فقد تقلصت ولم نعد حتى قادرين على التأكد من توقف هذا التقلص. إن المأساة الفلسطينية التى تسيطر على ذهن بلادى استخدمت كذريعة لتبرير أخطائنا والتغاضى عن تجاوزاتنا. إننا ما زلنا بعيدين عن التخلص من هذا الهاجس، من هذا الدمّل الذى جعل طريقنا إلى الديمقراطية والحداثة صعبا للغاية.

أندريه فيرساى: لم تكن أوروبا، ولمدة سنوات، حاضرة بقوة فى هذا الصراع من الناحية السياسية. هل تتصور أنه سيكون جيدا لها أن تصبح حقيقة جزءا إيجابيًا فى عملية السلام؟

شيمون بيريز: نعم، لأننى أعتقد أن أوروبا الغربية مرتبطة أكثر بجنوبى المتوسط وبالشرق الأوسط عن دول الشرق. ولذا فإننى أستطيع أن أتخيل بكل حق وجودًا أوروبيا موسعًا فى الشرق الأوسط. لقد اقترح بالفعل على إسرائيل والدولة الفلسطينية المقبلة أن تندمجا فى الاتحاد الاوروبى. أعتقد أنها فكرة جيدة، ولكن يجب علينا أن نذهب إلى أبعد من ذلك وضم أيضا مصر ولبنان وسوريا والعراق...

أندريه فيرساى: وهل قدمت بالفعل هذا الاقتراح إلى أعضاء الاتحاد الأوروبى؟

شيمون بيريز: نعم.

أندريه فيرساى: وماذا كان رد فعلهم؟

شيمون بيريز: لم تكن الدول الأوروبية مؤهلة كثيرا للتفكير فى هذا الشكل لأوروبا. كيف وهم ينفرون حتى من انضمام تركيا، وهو ما أتصور أنهم مخطئون فيه؛ الاتحاد الأوروبى يملك الاختيار ما بين هجرة أعداد كبيرة من العمال الأتراك أو دمج تركيا التى تعمل بجانبهم. فى النهاية، من بين أعضائه مالطا وقبرص، وبعض دول من شمال إفريقيا لديها وضع الدول المشاركة. لذا فإننى اعتقد أن الاتحاد الأوروبى مدعو لأن يقوم بخطوة إضافية من أجل تشكيل كونفيدرالية بين الدول والتنسيق بين الاقتصاديات: سوف تحمل جواز سفر وطنيا وتأشيرة اقتصادية، وستكون تأشيرة أوروبية.

بطرس بطرس غالى: إننى أشاركك تحليلك، ولكننى أريد أن أذكرك أن الرأى العام الإسرائيلى، فى مجمله، كان ضد مشاركة أوروبية فى الصراع، وأيضا فى عملية مفاوضات السلام. كما كانت الحكومات الإسرائيلية التى تلاحقت منذ سنوات طويلة، أكثر عداء لها. كان ذلك هو الأمر فى فترة مفاوضات السلام فى كامب ديفيد عام ١٩٧٨م، كما كان الأمر خلال الفترة التى تلت توقيع اتفاقية السلام، والتى كانت ستشهد عملية تطبيق الاتفاقيات الموقعة. لقد كان لى مع موشيه دايان حوار حول تلك المسألة، فى البرلمان الأوروبى فى ستراسبورج عام ١٩٧٩م، فى هذا الحوار دعيت بقوة إلى تدخل أوروبى فى الصراع؛ ولكنه هو، بالعكس، طالب الأوروبيين أساسًا بتجنب أى تورط من شأنه أن يفسد وضعا، كان معقدًا بما فيه الكفاية.

لا أعرف إن كان من الواقعى أن نتخيل دمجًا حقيقيًا لإقليم الشرق الأوسط فى الاتحاد الأوروبى، ولكنى مقتنع بأن من مصلحة الجانبين أن ينسجا روابط صلبة بينهما، وأن يقيما شراكة حقيقية. لتحقيق هذا الهدف، قمت منذ سنوات بتأسيس نادى موناكو، الذى يضم ممثلين من كل بلاد المتوسط، رؤساء سابقين، رؤساء حكومات سابقين، باحثين، خبراء، من أجل بحث مستقبل حوض البحر المتوسط، وتذكير الاتحاد الأوروبى بأن الجنوب أهم لأوروبا من الشرق. ألا ترى، أننى لست فقط أشاركك وجهة نظرك، ولكننى أتحرك بوصفى ناشطًا فى هذا المجال.

أندريه فيرساى: فى هذا الصراع، الذى يزيد عمره على ستين عامًا، ما هى فى رأيكما الأخطاء المتبادلة التى ارتكبها العرب والإسرائيليون؟

شيمون بيريز: إن تحدثنا بشكل شامل، أول خطأ ارتكبه العرب، وهو أيضا الأكثر حسمًا، كان رفضهم لخطة تقسيم فلسطين فى عام ١٩٤٧م. إن كانوا قبلوا هذه الخطة، بدلا من التمسك بشن حربا ضدنا، لكان الفلسطينيون حصلوا منذ عام ١٩٤٨م على دولتهم على مساحة ٤٥٪ من مساحة فلسطين. الخطأ الثانى كان شن الحروب التى، إن كانت أضرتنا، فقد أضرتهم هم أكثر، من الناحية البشرية وأيضا من الناحية الاقتصادية. لو كان العرب قبلوا وجودنا، لكنا تجنبنا استيراد الحرب الباردة إلى المنطقة .. تلك الحرب التى كانت عواقبها وخيمة خاصة على العرب، لقد أدى اختيارهم الارتباط بالسوفييت إلى تأخرهم تاريخيا فى مسيرتهم نحو الحداثة. نعم، أعتقد أنهم لو لم يتشددوا فى رفضهم إسرائيل، لكانوا كسبوا كثيرا. خذ مثلا مصر، التى كان لنا معها أربع مواجهات: لقد توقفنا عن المحاربة وبدأنا عملية مفاوضات فى نهايتها حصل المصريون مقابل السلام، على كل ما كانوا يريدونه.

أما فيما يتعلق بالفلسطينيين، بشكل خاص، فأعتقد أن خطأهم يكمن فى أنهم تصوروا أنهم يستطيعون فى آن واحد، انتهاج سياسة دبلوماسية وممارسة الإرهاب. لقد كان اختيار طريق الإرهاب الذى اتخذته منظمة التحرير ومنظمات قومية أخرى، خطأ مأساويا كان الفلسطينيون هم أول ضحاياه. لو كان الفلسطينيون أسسوا حركة سياسية حقيقية، وليس ائتلافًا إرهابيا، لكانوا كسبوا وقتا كثيرا. يبدو لى من البديهى أن ما يحصل عليه المرء من المفاوضات أكثر كثيرا مما يحصل عليه من العنف. بالإضافة، كما قلت، إنهم لو لم يستخدموا الإرهاب، لساندهم العالم أجمع، ولما قبل أحد الاحتلال الإسرائيلى الذى استمر ٤٠ عامًا.

أما بالنسبة لإسرائيل، فكانت أكبر أخطائنا أننا لم نكن نتمتع بالخيال الكافى غداة حرب الأيام الستة. لقد أسكرنا أنفسنا بانتصارنا، وغفونا عن هالات العصر، ولم نفهم أن تلك اللحظة هى التى كان يجب العمل فيها بجد من أجل إقامة حوار مع أعدائنا. لقد شعرنا بقوة كبيرة إلى حد أننا اكتفينا بالجلوس فى انتظارهم حتى يأتى العرب إلينا. الخطأ الثانى كان تكاثر عدد المستوطنات فى الأراضى المحتلة، وهو ما وضعنا فى موقف من الصعب العودة عنه. من السهل أن نصنع عجة من البيض، ولكن من الأصعب إعادة إنشاء البيضة من العجة! وأعتقد أن الليكود قام بصنع «عجة» من الوضع!

لقد كلفتنا سياسة إقامة مستوطنات ٦٠ مليار دولار منذ عام ١٩٦٧م! كان علينا أن نفكر فى تكريس جهودنا وميزانيتنا فى محاربة الصحراء وتنمية النقب.

بطرس بطرس غالى: تقول لنا إن أول أخطاء العرب هو رفضهم خطة تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧م. هذا صحيح اليوم. ولكن فى عام ١٩٤٧ لم يكن ليجرؤ أى زعيم عربى على قبول هذه الخطة، بدون أن يضع حياته فى خطر. لقد كان العالم العربى فى ذلك الحين، غير قادر على قبول فكرة التقسيم نفسها.

وفى إطار نفس الأفكار، كنت قد ذكرت لكما، أن منظمة التحرير رفضت فى ٢٦ نوفمبر عام ١٩٧٧م دعوتنا للاشتراك فى اجتماع غير رسمى كان من المقرر أن يعقد فى القاهرة، ودعى إليه مسئولون إسرائيليون وأمريكيون وسوفييت، بالإضافة إلى مسئولين من الأمم المتحدة ومن الدول العربية المعنية مباشرة بالصراع: سوريا والأردن ولبنان. ولقد أخذ على منظمة التحرير هذا الموقف، لأن عرفات أضاع فرصة للقاء الإسرائيليين. هذا أيضا، كان صحيحًا، ولكن بعد مرور الزمن يمكن القول أنه فى هذه الفترة كان كل من الفلسطينيين والإسرائيليين يرفضون اللقاء حتى عبر طرف وسيط. لذلك كان من المستحيل تصور إجراء «مباحثات مقربة».

كان أكبر أخطاء العرب هو إثارة حرب ١٩٦٧م. لقد أدت الخطب الرنانة، والكلمات الفصيحة التى كان يلقيها ناصر والمشير عامر، إلى إيقاع هزيمة مهينة لمصر. لم نقدر فى ذلك الوقت، حقيقة آلة الحرب الإسرائيلية، فبعد أن ساندهم الفرنسيون والبريطانيون فى عام ١٩٥٦م، والأمريكيون فى عام ١٩٦٧م، كانت تلك الترسانة بالتأكيد أكبر كثيرًا من جميع الجيوش العربية.

خطأ ثان للدول العربية، هو التحالفات التى، إن كان من الصعب تأسيسها، فقد كان من الصعب أكثر الحفاظ عليها خلال فترة صراع عسكرى، وأكثر صعوبة أن تقوم هذه التحالفات بين جيوش دول نامية. فى الحقيقة، كنا نريد أن نؤمن بالوحدة وبالتضامن بين الدول العربية، رغم أننا كنا على علم بأفكارهم المبيتة، وبطموحاتهم المتقاطعة.

أما بالنسبة لإسرائيل، فإن أخطر أخطائها، كان عدم معرفتها بالعالم العربى، واحتقارها للعربى، وخاصة للفلسطينى. هذا الاحتقار الذى هو شعور المستعمر القادم ليستقر على الأرض التى استولى عليها، الهنود الحمر، الأفارقة السود، القبائل البدائية، كلهم يجب إزالتهم أو إبقاؤهم فى تجمعات، فى مدن صفيح. فى الماضى كانوا يعاملون باعتبارهم عبيدًا، ومنذ إلغاء العبودية، تحولوا إلى *حثالة البروليتاريا* فى الأمم الجديدة التى يجرى تأسيسها. من الطبيعى أن تكون هناك نخبة إسرائيلية لا تشارك فى تلك النظرة المبسطة، ولكنها لم تستطع فرض رؤية الإخاء من أجل تمهيد طريق للسلام.

إنـك لا تذكر إلا الإرهاب العربى الإسـلامى، لماذا تصمت إزاء الإرهاب الإسـرائيلى، إرهاب المتطرفين اليهود من كاخ مثل باروخ جولدشـتاين الذى تحدثنا عنه، واغتيال رابين، الاغتيالات المستهدفة: ألا يعد ذلك إرهابًا؟!

فـى الختام، الخطأ المشـترك كان قيـام الجانبيـن بالتوجه نحو خيار استـراتيجية حرب، وليس نحو خيار اسـتراتيجية سـلام. وما دامت قوة الكلمات ليست أكبر من قوة الرصاص، حسب الاستعارة التى قدمها كامو، فلا أرى أى حل عادل للمأساة الفلسطينية.

ولكننى أريد إثارة نقطة أخرى. كان يحلو للرئيس السادات أن يقول إن ٩٩٪ من الصراع سـببه نفسـى. وأيضًا أعتقد إن كنا نريد فهم هذا الصراع، فيجب الأخذ فى الاعتبار مخيلات العرب والإسرائيليين، التى تشكل أبعادا مهمة، بل رئيسية.

فى المخيلة الإسرائيلية، ينظر إلى العربى المسلم فى أغلب الأحيان، على أنه كائن بدائى ومتعصب، متعطش للدماء، تحركه مشـاعر الكراهيـة والحقد، يقع هدفا للكبت الذى حكم بـه عليه انحطاط العالم الإسـلامى. والعـرب لا يقبلون بأقل من إزالة «الدولة الإسـرائيلية- المزيفة» وإلقاء اليهود فى البحر.

لقـد جمعـت، فـى هذا الصـدد، منذ عـدة سـنوات، «مقتطفات» مـن التصريحـات التى أدلى بها المسـئولون الإسـرائيليون حول الرغبة فى الانتقام وتدميـر العرب. ووجدت، منذ فتـرة قليلـة، المقالة التـى وقعها فى ٢ يولية عـام ١٩٨٢م الدكتور هرتـزل روزانبلوم، رئيس تحرير الصحيفة اليومية يديعوت أحرونوت، حيث كتب يقول: «*لو كان عرفات يملك القوة الضرورية، لعاملنا بما لم يحلم هتلر به... لكان قطع رءوس أطفالنا وهو يصيح، لكان اعتدى على نسـائنا قبل تقطيع أوصالهن، لكان ألقانا من على الأسـطح وسلخنا على طريقة النمور الجائعة فى الغابة..*».

إن المخيلـة الإسـرائيلية تجد بالطبـع جذورها فى واقع هذه الدولـة الصغيرة، التى تضم داخلها مليون فلسـطينى، وعاش شعبها اليهودى الهولوكوسـت. فيشعر الإسرائيليون بأنهم محاصرون ثلاث مرات: مرة بما بين ثلاثة وأربعة ملايين لاجئ فلسـطينى يحلمون بالعودة إلى أرضهم؛ ومرة بأكثر من ٢٠٠ مليون عربى معاد لهم؛ ومرة ثالثة بمليار مسلم متضامن مع القضية الفلسـطينية؛ وأخيرا بدائرة رابعة، أكثر انتشـارا: وهى معاداة السامية. ولا يثير دهشتنا اللعنات اليومية التى يوجهها المتطرفون الذين يطالبون بتدمير دولة إسـرائيل، ومقارنتها مع ممالـك القدس المسـيحية فـى زمن الصليبيين، التـى لا نكف عن التذكيـر بفنائها، كل ذلك

يمثل كمًا هائلاً من العناصر النفسية والجيوبوليتيكية والتاريخية، من شأنها أن تغذى وتنمى وتقوى مخاوف الإسرائيليين.

من جانبها، تشكلت المخيلة العربية، إلى حد كبير جدا، كرد فعل إزاء الاستعمار الغربى، المسئول فى مرحلة أولى عن تقسيم، العالم العربى بين المشرق والمغرب: ثم تقسيم المشرق إلى أراضٍ تقع تحت الانتداب الفرنسى أو البريطانى. هذه المخيلة تغذت فيما بعد على استعمار من نوعٍ جديد، وهو استقرار المستوطنين اليهود القادمين من وسط أوروبا فى فلسطين.

على مدى السنين، اقتنع العرب برغبة إسرائيل فى التوسع، إلى حد أن تأكد لديهم اقتناع، بل هاجس، بأن الدولة اليهودية تنوى تأسيس نفسها من النيل إلى الفرات، بل إن هذه الامبريالية لا تتوقف عند العالم العربى، بل إنها تريد أن تمتد إلى الكون بكامله..

هذا الهاجس تغذى على بعض الوقائع: فبينما نص القرار رقم ١٨١ بالجمعية العامة للأمم المتحدة على تقسيم فلسطين إلى دولتين، على أن تقام الدولة العربية على ٤٥٪ من الأراضى، هذه الدولة وجدت نفسها تتقلص بقرار رقم ٢٤٢ الذى صدر بعد حرب الأيام الستة، لتضم قطاع غزة والضفة الغربية فقط، أى ٢٢ ٪ من الأراضى. تأكد لدى العرب رغبة الدولة اليهودية فى التوسع بوقائع أخرى: عزمها لضم القدس الشرقية؛ إعلانها ضم الجولان؛ إقامتها «دولة جنوب لبنان الحرة»، التى دعيت لتكون تابعة لإسرائيل؛ رغبتها فى اقتسام سيناء عند خط العريش - رأس محمد من أجل ضم نصف تلك الصحراء إليها، وألا تعيد إلا نصفها الغربى إلى مصر... كل هذا يمثل مشاريع واحتمالات تثير فزع المخيلة العربية.

إن تاريخ الشرق الأوسط يؤجج أيضًا مخاوفهم: سواء كانت محاولات بلقنة العالم العربى تحت إشراف كل من بريطانيا وفرنسا فى القرن التاسع عشر؛ أو العدوان الثلاثى البريطانى - الفرنسى - الإسرائيلى فى حرب السويس عام ١٩٥٦م؛ مساندة القوة العظمى الأمريكية لإسرائيل بلا شروط خلال كل السنوات الماضية. كل تلك العوامل تظهر إسرائيل، وكأنها بفضل الشتات اليهودى تملك القدرة على ضمان مساندة المجتمع الدولى. وبروتوكولات حكماء صهيون - هذه الوثيقة الملفقة، التى كتبتها أجهزة المخابرات الروسية فى بداية القرن الماضى - تحولت إلى وثيقة حقيقية فى نظر بعض العرب. حتى هؤلاء الذين يعرفون أنها مزورة ومعادية للسامية، يقولون أنها تعكس إلى حد ما إرادة القوة لدى اليهود، ولذلك فهى تكتسى صفة تحذيرية.

إن الصدام الذى يكاد يكون محتومًا بين هاتين المخيلتين اللتين تتواجهان، بشكل عنيف تتصاعد حدته أو تنخفض حسب ظروف اللحظة، يهدد بأن يجعل من الصعب دائمًا تحقيق أى تقارب بين هذين الشعبين وهاتين الثقافتين. إلا من خلال الالتزام بجهد كبير من الموضوعية ومن التعلم ومن التعرف على الآخر.

أندريه فيرساى: مع نهاية هذا الكتاب، ما هى الدروس التى تستخلصانها من تاريخ هذا الصراع الطويل؟

شيمون بيريز: قد أبدو لكما مثل من يحطم الأيقونات، خاصة فى نهاية كتاب تاريخ: إننا نتحدث دائما عن معرفة التاريخ من أجل التحكم فى أحداث الحاضر أو المستقبل. أعتقد أن ذلك خدعة؛ فالتاريخ يمكن أن يُعلِّم كل شىء وعكسه، حسب الطريقة التى ننظر بها أيديولوجيا إلى الأمور. أستطيع أن أذهب إلى حد القول إن دروس التاريخ تكون أحيانا مزعجة، حيث إنها تقوم بالضرورة، بتوجيه تفكيرنا حسب طرق تم خوضها بالفعل. ربما قد تسمح القطيعة مع الرؤية التاريخية، بقدرة أكبر على الإبداع. ومن جهة أخرى، إننا نحن السياسيين الذين يتحملون اليوم المسئوليات، نختلف عن هؤلاء الذين سبقونا، لأننا لم يعد لنا نفس الآمال ولا بالضرورة نفس المرجعيات التاريخية.

إن الدرس الوحيد الذى يمكننا أن نستخلصه، هو ألا نحاول استخلاص دروس من الماضى، وأن نحاول أن نتأمل المستقبل بفكر جديد.

إن ما يمكننا أن نطلبه من أجيال المستقبل هو أن يعملوا من أجل أبنائهم، أى من أجل السلام؛ ألا يحاولوا أن يكسبوا كثيرًا، لا عسكريا ولا سياسيا، لأنهم سيثيرون فى هذا الوقت، ضغينة جيرانهم، ويصبحون أعداءهم. لا تتمسكوا بالمكسب؛ اكتفوا بالتعايش فى احترام مع الآخرين.

بطرس بطرس غالى: يقول المثل: إن التاريخ ناصح سيئ. إننى أشارك شيمون بيريز الرأى. إن كنا نريد التقدم فى طريق السلام، يجب أن نعرف كيف ننسى التاريخ قليلاً. ومع ذلك فإن التوصيات العامة التى نختتم بها كتاب التاريخ هذا، يجب ألا تنسينا التطرف المتقاطع الذى يسمم الشعوب من جانب ومن الآخر. أردت أن أنقل كلمات إفراهام بورج، ابن زميلى يوسف بورج، الذى تفاوضت معه لساعات طويلة خلال «*مباحثات الحكم الذاتى*» حينما قال: «*ما دامت أن هناك يهودية عنصرية، تستند على استعمار عنيف وتحتمى وراء مفهوم أمنى مضلل، تسيطر على المخيلة الإسرائيلية لن نستطيع إحراز أى تقدم*». هذا

التحليل ينطبق بحذافيره على العالم العربى: ما دام هناك إسلام متخلف وعنصرى يستند إلى معاداة للسامية وتسيطر فكرة إزالة إسرائيل على المتطرفين فيه، لن نستطيع إحراز أى تقدم. بيد أن هاتين النزعتين الأصوليتين اللتين تتقاطعان، مازالتا تسكنان فى مخيلة الشعبين العربى والإسرائيلى. أما أنصار الحوار والسلام الحقيقيون، فهم ليسوا إلا أقلية، سواء فى المعسكر العربى أو فى المعسكر الإسرائيلى، هؤلاء يناضلون ضد التيار.

يمكننا فقط بحوار غير عنيف يستمر على المدى الطويل، وفقط فى إطار رفض تام ومشترك للجروح الخبيثة التى تدمى شعبينا، أن يجعلنا نتصالح ويسمح لنا بالتعايش والتعاون. للأسف، مثلى مثل موسى ومثل السادات، أنا لن أرى أرض الميعاد هذه!

* * *

رقم الإيداع ٣١٨٣/٢٠٠٧
الترقيم الدولى ISBN 977 - 09 - 1972 -1

ستون عاما

من الصراع فى الشرق الأوسط

مع كثرة الكتب عن الصراع العربى الإسرائيلى يعد هذا الكتاب الذى بين أيدينا سابقة تاريخية. فلأول مرة منذ أكثر من ستين عامًا من الحرب وافق فاعلان أساسيان فى هذا التاريخ الطويل، لا على أن يتكلم كل واحد منهما من جانبه، ولكن على أن يتحملا مخاطرة أن تتقاطع ذكرياتهما.

تتواجه هنا رؤى بطرس بطرس غالى وشيمون بيريز عن الأحداث الكبرى التى طبعت بطابعها أقدم صراع معاصر والذى عاشه كلاهما عن قرب، منذ أول حرب عربية إسرائيلية فى ١٩٤٨ حتى أيامنا هذه.

التاريخ الذى سنقرؤه ليس أكاديميًا ولا «أملس». فبالرغم مما يكنه طرفا النقاش كل منهما للآخر من احترام كبير، فإنهما لم يتساهلا إزاء بعضهما. كل منهما يؤكد ذاته، تدفعه إرادته إلى أن يستمع الناس لما عايشه، ولكن فى الوقت نفسه يقبل الاستماع إلى صوت الآخر، مهما كان وقعه غير محتمل على أذنيه. الجدل «سياسى» وليس «ديبلوماسيًا». وهذه الصراحة تمنحه نبرة فائقة.

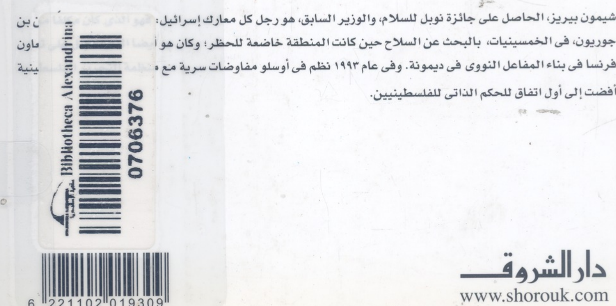
وبالرغم من ذلك، فلا هذا ولا ذاك بصدد مهمة مكلف بها. ميزة السن والتقدير الدولى اللذان يتمتعان بهما، وبحرية فى الكلام تتسم بنضارة مدهشة، سمح كل منهما لنفسه بتوجيه انتقادات قوية لمعسكره الخاص.

وهما، فى تراوحهما بين المبارزة الحامية والتحليل السياسى، يقدمان لنا درسًا عظيمًا فى الچيوبوليتيك لا يهمل تاريخ العقليات. إنهما يقدمان ما لا تستطيع كتب التاريخ التقليدية أن تمنحه لنا: الإدراك العربى والإسرائيلى معيشان من الداخل.

بعد قراءتهما، أيا كان الجانب الذى يميل إليه تعاطفنا، لن نعود ننظر إلى هذا الصراع بنفس الطريقة.

بطرس بطرس غالى، المدافع الصلب عن العالم الثالث، والسكرتير العام الأسبق للأمم المتحدة، كان وزيرًا للشئون الخارجية المصرية فى عهد الرئيس أنور السادات ورافقه أثناء رحلته الشهيرة إلى القدس فى عام ١٩٧٧. وبعد ذلك كان، فى مواجهة موشى ديان، أحد المفاوضين الأساسيين فى اتفاقيات السلام العربى الإسرائيلى التى تم توقيعها فى عام ١٩٧٩.

شيمون بيريز، الحاصل على جائزة نوبل للسلام، والوزير السابق، هو رجل كل معارك إسرائيل: فهو الذى كان مكلفًا من بن جوريون، فى الخمسينيات، بالبحث عن السلاح حين كانت المنطقة خاضعة للحظر؛ وكان هو أيضا [illegible] تعاون فرنسا فى بناء المفاعل النووى فى ديمونة. وفى عام ١٩٩٣ نظم فى أوسلو مفاوضات سرية مع منظمة التحرير الفلسطينية أفضت إلى أول اتفاق للحكم الذاتى للفلسطينيين.




دار الشروق
www.shorouk.com